

لُحْمُ خَطِّ الْعَرَبِ

فِي عِصْوَ الْعَرَبِ الزَاهِرَةِ

الْبُيُوتِ الثَّانِي

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

أستاذ اللغة العربية بدار العلوم

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م / رقم ٤٩٤

كل الحقوق محفوظة

إشرافه : محمد أمين عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَذَا كِتَابٌ فِي عِصْوَ الْعَرَبِ
الْبُيُوتِ الثَّانِي
الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ
تَأليف
أحمد زكي صفوت
أستاذ اللغة العربية
بدار العلوم
الطبعة الأولى
١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م / رقم ٤٩٤
كل الحقوق محفوظة
إشرافه : محمد أمين عمران

تصدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبدأ بحمدك اللهم على ما أوليتني من جزيل تفضلتك ، ومزيد تطولك ، وأصلى
وأسلم على رسولك الأمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .
وبعد : فهذه « الجزء الثانى - من جمهرة خطب العرب » أصدره حاوياً
ما وصل إلينا من خطب العصر الأموى ووصاياه ، وما دار بمجالس الخلفاء
والأمراء والرؤساء من حوار ومجاوبة ، وهو كما ستراه أحفل أجزاء الكتاب
الثلاثة ، وأغزرها مادة ، لتوافر دواعى الخطابة فى هذا العصر ، وتفاق سوقها .
وقد نهجت فيه نهجى فى سالفه ، من التوفيق بين الروايات ، وتحرير
الألفاظ وضبطها وشرحها ، والتعليق عليها بما يعيط اللثام عن خفايا مراميها ،
وغوامض مغازيها ، فجاء بحمده تعالى وافياً مرضياً ، والله نسأل أن يكلاًنا
برعايته ، وأن يمنّ علينا بالتوفيق للعمل الصالح ، إنه خير مرتجى ، فنعم المولى
ونعم النصير مـ

أحمد زكى صفوت

حرر بالقاهرة فى رجب سنة ١٣٥٢
نوفبر سنة ١٩٣٣

فهرس مأخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
الأغانى : لأبى الفرج الأصبهاني : « الثانى - السابع - الثالث عشر -
: الخامس عشر - السابع عشر - الثامن
: عشر - العشرون - الحادى والعشرون
صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول - التاسع
نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « الخامس - السابع
عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
نهج البلاغة : للشريف الرضى : « الأول
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول
جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكري : « الأول
مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول - الثانى
تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « السادس - السابع - الثامن - التاسع
تاريخ الكامل : لابن الأثير : « الثالث - الرابع
مروج الذهب : للمسعودى : الجزء الثانى

الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : الجزء الأول - الثاني

معجم البلدان : لياقوت الحموي : » الثالث

أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير : » الثالث

النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة : » الأول

لابن تغري بردى :

وفيات الأعيان : لابن خلكان : » الأول - الثاني

معاهد التنصيص : لعبد الرحيم العباسي : » الأول -

نفع الطيب ، المقرئ : » الأول

بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الألوسى : » الثالث

مواسم الأدب : للسيد جعفر بن السيد : » الثاني

محمد البيهقي العلوي

سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبى الفرج بن الجوزى .

» » » » : لابن عبد الحكم

شرح العيون : شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصرى

أنباء نجباء الأنباء : لابن ظفر المكي

الحسن البصرى : لابن الجوزى

الفخرى : لابن طباطبا

بلاغات النساء : لابن أبى طاهر طيفور

دستور معالم الحكم : للقضاعى

إعجاز القرآن : لأبى بكر الباقلانى

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٠	٨	بر	بر
٤٧	٢٠	البراءة من على له	البراءة من على واللعن له
٩٣	٥	لا يقل	لا يقل
١١٥	٤	القارة	القارة
١٢٢	٢	آخى	أخى
١٢٤	١١	مثلكم	مثلكم
١٤١	١١	شهرت	شهرت
١٤٢	١٥	يرثى	يرثى
١٥٥	٢٠	رفق	رتق
١٦٢	١	وصلى نبيه	وصلى على نبيه
٢٠٨	١٠	ياحياء	ياحياء
٢١٩	٩	ولى	ولى
٢٥٤	٢٠	جماعة	حمامة
٢٦٤	١١	زياداً	زياد
٢٦٤	١٤	معرتنا	معرتنا
٢٦٩	١٣	يها	بها
٢٦٩	٢٤	بين بين	بين
٢٧٠	٣	خاتم	خاتم

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٧١	١١	باللرجال	باللرجال
٢٨٥	١٧	محمد وأخيه	محمد أخيه
٣٠٣	١٥	فُضُول	فُضُول
٣١١	١٢	تَجَمَّرُوا	تَجَمَّرُوا
٣٢٩	١	الْقَرْيَّة	الْقَرْيَّة
٣٥٥	٥	بيدك	بيد
٣٦٠	٧	الحروب	الحروب
٣٦٥	٧	عرصتاني	عرصتاني
٣٦٧	٥	يالرجال	يالرجال
٣٩٢	١٧	توبة	توبة
٣٩٧	١	ججرها	ججرها
٤١٢	٤	أمية	أمية
٤١٥	٩	أمية	أمية
٤١٦	٨	غلاما	غلاما
٤١٦	١٦	أمية	أمية
٤٢٤	١٥	جبهة	جبهة
٤٤٥	١٣	لايرون	لايرون
٤٤٨	١٤	الثروية	الثروية

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٤٦٢	٣	فِي ظُلُمَتِهَا	فِي ظُلُمِهَا
٤٦٧	٧	حَسَنَاتِهِمْ	حَسَنَاتِهِم
٤٧٧	٨	بِشَكَائِهِ	بِشَكَائِهِ
٤٨٨	٩	شَاعَتْ	شَاعَتْ



الباب الثالث

الخطبة الوصائية

في

العصر الأموي

خطب بنى هاشم وشيعتهم وما يتصل بها

١ - خطبة الحسن بن عليّ بعد وفاة أبيه (١)

خطب الحسن بن عليّ رضي الله عنهما بعد وفاة أبيه فنعاها فقال :

« لقد قتلت ليلة رجلا في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفِعَ عيسى بن مريم

عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون ، فتي موسى عليهما السلام ، والله ما سبقه

أحدٌ كان قبله ، ولا يُدْرِكُه أحدٌ يكون بعده ، والله إن كان رسول الله صلى الله

[١] في التنايل لابن الأثير (٣ : ١٩٧) أن الحسن بن عليّ توفي سنة ٤٩ هـ وفي ابن أبي الحديد (م : ٤ ص ٤) أنه توفي سنة ٥٠ هـ وفي الإمامة والسياسة (١ : ١٢٧) أنه توفي سنة ٥١ هـ .

عليه وسلم ليعثه في السَّريَّة^(١) ، وجبريلُ عن يمينه ، وميكائيلُ عن يساره ، والله ! ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ، ثم خنقته العَبْرَة فبكى ، وبكى الناس معه ، ثم قال :

« أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس^(٢) وطهرهم تطهيراً ، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول : « وَمَنْ يَتَّقِرْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا » ، فاقرافُ الحسنة مودتنا أهل البيت . »

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبيد الله بن العباس بين يديه ، فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة ! فبايعوه ثم نزل من المنبر .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١ ، والعقد الفريد ٢ : ٦)

تعبثته الجيوش لقتال معاوية

سار معاوية بجيوشه فاصداً إلى العراق ، وبلغ الحسن خبره ، ومسيره نحوه ، فأمر بالتهيؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس يثوبون ويجمعون ، فخرج الحسن ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

٢ — خطبة الحسن بن عليٍّ في الحثِّ على الجهاد

أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كُرْهاً^(٣) ، ثم قال لأهل

[١] السرية من خمسة أناس إلى ثلثمائة أو أربعمائة . [٢] الرجس : العذر واللأثم ، وكل ما استغفر من العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

[٣] يشير إلى قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ »

الجهاد من المؤمنين : « أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فاستم إليها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون ، بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه ، فتحرك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة ، حتى ننظر وتنظروا ، ونرى وترى » - وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له - فسكتوا ، فما تكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم ، قام فقال :

٣ - مقال عدى بن حاتم

« أنا ابن حاتم ، سبحان الله ! ما أقبح هذا المقام ! لا تُجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُضَرَّ الذين أَلْسِنَتْهُمْ كَالْمَخَارِيقِ فِي الدَّعَةِ ^(١) ، فإذا جَدَّ الْجِدُّ فَرَوَّاغُونَ كَالثَّعَالِبِ ، أما تخافون مقت الله ! وَلَا عَيْبَهَا وَعَارَهَا ^(٢) ! » . ثم استقبل الحسن بوجهه فقال : « أصاب الله بك المرأشدة ، وجنَّبك المكاره ، ووفَّقك لما تحمد وروده وصدوره ، قد سمعنا مقاتلتك ، وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك ، وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهي إلى معسكري . فمن أحب أن يُوافيني فليواف » ثم مضى لوجهه ، إلى النخيلة .

وقام ثلاثة آخرون من أصحاب الحسن ، فأنبوا الناس ولا موم وحرصوهم . وكلوا الحسن بمثل كلام عدى بن حاتم ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله ، ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيراً ، ثم نزل ، وخرج الناس فمسكروا ونشيطوا للخروج ، وسار الحسن في عسكر عظيم ، وعدة حسنة .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٤)

[١] جمع محراب بالكسر : السيف (وهو أيضاً المنديل ياف ليضرب به) وفي الدعاء : أى و وقت الدعاء : أى الحفض والسلم . [٢] أى عار فملتكم هذه : وهى تناصهم عن إجابة الحسن إلى مادامهم إليه ، وفي الأصل : « وعاريتها » وأراه محرّفاً إذ العارة هى المارية ولا معنى لها .

٤ - خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية

ثم نزل الحسن ساباط^(١) ، فلما أصبح نادى فى الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصعد المنبر ، فخطبهم فقال :

« الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، أرسله بالحق ، وأتمنه على الوحى ، صلى الله عليه وآله ، أما بعد ، فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه ، وأنا أنصح خاقه لخاقه ، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينة ، ولا مريدا له بسوء ولا غائلة^(٢) ، ألا وإن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة . ألا وإنى ناظر لكم خيرا من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأيى ، غفر الله لى ولكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » ثم نزل . فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا نظنه يريد أن يصالح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل ، ثم شدوا على قسطنطين فانتهبوه ، حتى أخذوا مئسله من تحته ، وشد عليه بعضهم ، فنزع مئسله^(٣) عن عاتقه ، فبقى جالسا متقلدا سيفا بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحرق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراد ، ولا موه وضائفه لما تكلم .

فلما مرّ فى مَظْلَم^(٤) ساباط ، قام إليه رجل من بنى أسد يقال له جَرَّاح بن سنان ، ويده مِعْوَل^(٥) ، فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ،

[١] ساباط كسرى بالمداين . [٢] المائلة : الشر والفساد والدامية . [٣] رداء من خز مربع ذو أعلام . [٤] مظلم مضاف إلى ساباط التى قرب المداين : موضع هناك . [٥] المعول : الفأس العظيمة التى يقر بها الصخر ،

ثم أشرت أنت ! وطعنه بالمعول ، فوقعت في فخذه فشقته ، حتى بلغت أُرَيْيَّةَ^(١) ،
وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده واعتنقه
نخرا جميعاً إلى الأرض . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٤)

٥ — خطبته يبرر مصالحته لمعاوية

لما رأى الحسن رضى الله عنه تفرق الأمر عنه ، بعث إلى معاوية يطلب
الصلح ، فبعث معاوية إليه رسولين ، قدما عليه بالمداين ، فأعطياه ما أراد ،
وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف - في أشياء
اشتراطها - ثم قام الحسن في أهل العراق فقال :

« يا أهل العراق ، إنه سَخَى بنفسى عنكم ثلاثٌ : قَتَلَكُمُ أَبِي ، وَطَعَنَكَ

إِيَّائِي ، وَاتَّهَى بِكُمْ مَتَاعِي » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣)

٦ — خطبته في الصلح بينه وبين معاوية

وقدم معاوية الكوفة لإيقاد الصلح بينه وبين الحسن (سنة ٤١ هـ) ،
وكان عمرو بن العاص حين اجتمعوا بالكوفة ، فدكلم معاوية ، وأمره أن يأمر
الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال ما تريد إلى أن
أخطب الناس ؟ فقال عمرو : لكنى أريد أن يبدؤَ عِيْهُ للناس^(٢) ، فلم يزل عمرو
بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم نادى الحسن ، فقال : يا
يا حسن فكلم الناس ، فتشهد في بديهة أمرٍ لم يُروَ فيه ، ثم قال :

[١] الأريية : أصل الفخذ . [٢] روى أبو الفرج الاصبهاني أنه كان في لسان الحسن نعل

أخضر (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١١) .

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أولكم بأولنا ، وَحَقَّنَ دماءكم بآخرنا ، وكانت لى فى رقابكم بيعةٌ ، تحاربون من حاربتُ ، وتسالمون من سالمْتُ ، وفد سالمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » وأشار إلى معاوية ، فلما قالها قَوْل معاوية اجلس ، فلم يزل ضَرِمًا ^(١) على عمرو ، وقال هذا من رأيك » ولحق الحسن بالمدينة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٩٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣ ، والامامة والسياسة ١ : ١٢٠ ، وأنباء نخباء الأبناء . ص ٥٦)

٧ — خطبة له بعد الصلح

روى المدائنى قال : سأل معاوية الحسن بن عليّ رضى الله عنه بعد الصلح أن يخُطب الناس ، فامتنع ، فناشده أن يفعل ، فوضع له كرسى فجلس عليه ، ثم قال : « الحمد لله الذى توحد فى ملكه ، وتفرد فى ربوبيته ، يُؤثِّقُ الملك من يشاء ، وينزعُه ممن يشاء : والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وَحَقَّنَ دماء آخركم ، فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء ^(٢) ، إن شكرتم أو كفرتم . أيها الناس : إن رَبَّ عَلَيَّ كَانَ أعلم بعلى حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا مثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فهيها تهيها ت ، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم فى بدروا أخواتها ، جرّعكم رَنَقًا ^(٣) ، وسَقَاكم عِلْقًا ^(٤) ، وأذلّ رقابكم ، وأشرقكم بِرِيقِكُمْ ، فلستم بملومين

[١] صرم عليه كفرح اخدم غضبا فهو صرم . [٢] البلاء يكون منحة ويكون محنة ، وهو هنا

بالمعنى الأول . [٣] ماء رقيق : كعدل وكثف وجبل كدر .

[٤] العلق : الدم ودويبة فى الماء تسمى الدم .

على بغضه ، وإيم الله لا ترى أمةً محمد خَفَضًا ما كَانَتْ ساداتهم وقادِثُهم بنى أمية ،
ولقد وجه الله إليكم فتنةً لن تَصْدُرُوا عنها حتى تَهْلِكُوا ، لطاعتكم طواغيتكم ^(١) ،
وانضوائكم ^(٢) إلى شياطينكم ، فعند الله اُخْتَسِبُ ما مضى ، وما ينتظر من سوء
دَعَتكم ، وَحَيْفٌ ^(٣) حَكَمكم ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهم من مراعى الله ، صائب على أعداء
الله ، نكالٌ على نجار قریش ، لم يزل آخذًا بجناجرها ، جاثماً على أنفاسها ، ليس
بالملومة في أمر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفرُّوقَة ^(٤) في حرب أعداء
الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابته ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذه في
الله لومة لأئم ، فصلوات الله عليه ورحمته » ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عَجَلٌ أو كَاد ، وأصاب متثبت أو كَاد ، ماذا أردت

من خطبة الحسن ؟ (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٠)

٨ — خطبة لمعاوية في أهل الكوفة

وروى المدائني قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله
الكوفة وصالح الحسن رضى الله عنه ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن
يخرج ، فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركت قتالك - وهو
لى حلال - لصالح الأمة وألفتهم ، أفترانى أقاتل معك ؟ نخطب معاوية أهل
الكوفة فقال :

[١] الطواغيت جمع طاغوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال . [٢] انضمامكم .

الحيف : الظلم : [٤] الفروق والفروقة : شديد الفزع .

« يا أهل الكوفة ، أتراني ، قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجّون ، ولكنني قاتلتكم لا تأمر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أودم أصيب في هذه الفتنة فطلول ، وكل شرط شرّطته فتحت قديمي هاتين ، ولا يُصلح الناس إلا ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإقفال ^(١) الجنود لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فإنه إن لم تغزؤهم غزؤكم » ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦)

٩ — ردّ الحسن بن عليّ على معاوية حين نال منه ومن أبيه

وخطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين رضى الله عنهما جالسان تحت المنبر ، فذكر عليّاً عليه السلام . فنال منه ثم نال من الحسن ، فقام الحسين ليرد عليه ، فأخذ الحسن يده فأجلسه ، ثم قام فقال : « أيها الذّاكر عليّاً : أنا الحسن ، وأبي عليّ ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأمي فاطمة ، وأمك هند ، وجدّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عُتْبَةُ ابن ربيعة ، وجدتي خديجة ، وجدتك مُتَيْلَةَ ، فلعن الله أئملنا ذكراً ، والأئمة حسَباً ، وشرنا قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً »

فقال طوائف من أهل المسجد آمين . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١٦)

١٠ — خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح

وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق ، وانصرف راجعاً إلى الشام ، أتى سليمان بن صُرْد - وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم -

فدخل على الحسن فقال : السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين ، فقال وعليك السلام ،
اجلس لله أبوك ، جلس سليمان ، ثم قال :

« أما بعد : فَإِنْ تَعَجَّبْنَا لَا يَنْقُضِي مِنْ بَيْعَتِكَ مَعَاوِيَةَ ، وَمَعَكَ مِائَةُ أَلْفٍ
مُقَاتِلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، وَكُلُّهُمْ يَأْخُذُ الْعَطَاءَ ، مَعَ مِثْلِهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَمَوَالِيهِمْ ،
سِوَى شِيعَتِكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَأَهْلِ الْحِجَازِ ، ثُمَّ لَمْ تَأْخُذْ نَفْسَكَ بِقِيَّةِ فِي الْعَهْدِ ،
وَلَا حَظًّا مِنَ الْقَضِيَّةِ ، فَلَوْ كُنْتَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ، وَأَعْطَاكَ مَا أَعْطَاكَ بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، كُنْتَ كَتَبْتَ عَلَيْكَ بِذَلِكَ كِتَابًا ، وَأَشْهَدْتَ عَلَيْهِ
شُهُودًا مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَكَ مِنْ بَعْدِهِ ، كَانَ الْأَمْرُ عَلَيْنَا
أَيْسَرَ ، وَلَكِنَّهُ أَعْطَاكَ هَذَا ، فَرَضِيَتْ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَزَعَمَ عَلَى رِءُوسِ
النَّاسِ مَا قَدْ سَمِعْتَ : إِنِّي كُنْتُ شَرَطْتُ لِقَوْمٍ شُرُوطًا . وَوَعَدْتُهُمْ عِدَاتٍ ،
وَمِنْهُمْ أَمَانِي ، إِرَادَةَ إِطْفَاءِ نَارِ الْحَرْبِ ، وَمُدَارَاةَ لِهَذِهِ الْفِتْنَةِ ، إِذْ جَمَعَ اللَّهُ لَنَا كَلِمَتَنَا
وَأَلْفَتَنَا ، فَإِنْ كُلُّ مَا هُنَاكَ تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ . وَوَاللَّهِ مَا عَنَى بِذَلِكَ إِلَّا نَقْضَ
مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَأَعِدَّ الْحَرْبَ جَذْعَةً ^(١) ، وَأُذِنَ لِي أَشْخَصُ إِلَى الْكُوفَةِ ، فَأُخْرِجَ
عَامِلَهُ مِنْهَا ، وَأُظْهِرَ فِيهَا خَلْعَهُ ، وَأَنْبِذَ إِلَيْهِ ^(٢) عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ
الْخَائِنِينَ » .

ثم سكوت ، فتكلم كلٌّ من حضر مجلسه بمثل مقالته ، وكلهم يقول : ابعت سليمان
ابن سرد وابعثنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أننا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلعه .

(الإمامه والسياسة ١ : ١٢٠)

[١] هي في الأصل خدعة ، وصوابها جذعة : أي دية . [٢] معناه إذا هادنت قوما ، فعلت منهم
انقض للعهد ، فلا توقع بهم سائبا إلى الغش ، حتى تدلهم أنك بعصت العهد ، تكونوا في علم الغش مستوين ،
ثم أوقع بهم .

١١ - خطبة الحسن يرد على مستنكرى الصلح

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

« أما بعد فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأأس مني وأشدّ شكيمه ، ولما كان رأي غير ما رأيتم ، لكني أشهد الله وإياكم أني لم أريد بما رأيتم إلا حقن دماءكم ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله ، وارضوا بقضاء الله ، وساموا الأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برّ ، أو يستراح من فاجر ، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سيأتي الأمر ، فوالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر^(١) ، إن الله لامعقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، وأما قولك يا مُذِلّ المؤمنين ، فوالله لأن تذلوا وتعاقوا أحبّ إلى من أن تعزّوا وتقتلوا ، فإن ردّ الله علينا حقنا في عافية ، قبلنا وسألنا الله العون على أمره ، وإن صرّفه عنا رضينا وسألنا الله أن يبارك في صرّفه عنا ، فليكن كل رجل منكم مجلساً^(٢) من أحلاس بيته ، مادام معاوية حياً ، فإن يهلك ، ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وأن لا يتكلنا إلى أنفسنا : فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١٢ - خطبة له في عهد خلافته

ومن خطبه رضى الله عنه في أيامه في بعض مقاماته أنه قال :

[١] يفل . [٢] المجلس بساط البيت ، وفلان جلس من أحلاس البيت : للذي لا يبرح البيت ، وفي الحديث : « في القنّة كن مجلساً من أحلاس بينك حتى تأتيك يد خاطئة ، أو منية قاضية » أى لا تبرح

« نحن حزب الله المفلحون ، وَعِترَةُ ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون ، أهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين ^(٢) اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء : لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمعول عليه في كل شيء ، لا يُخْطِئنا تأويله ، بل نتيقن حقائقه ، فأطيعونا ، فأطاعتنا مفروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة ^(٣) : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » « وَلَوْ رُدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ أَعْلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ » ، وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأولياءه الذين قال لهم : « لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ » ، فلمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ » فَتَلْقَوْنَ لِلرَّمَاحِ أَزْرًا ^(٤) ، وللسيوف جَزْرًا ^(٥) ، وَلِلْعُمُدِ حَظًّا ، وللسهام غَرَضًا ، ثم : لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .

(مروج الذهب ٢ : ٥٣)

[١] العترة : رهط الرجل وعشيرته الأدنون . [٢] الثقل : كل شيء عس صعب ، وفي الحديث « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » .

[٣] يشير إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

[٤] الأزر : جمع إزار وهو اللبنة وكل ما وارك وسترك : أي فكونون أجربة للرماح تعيب في أبدانكم وتستر ، أو هو الأزر بفتح فكوا وهو الطهر : أي تركبكم الرماح وتعلوكم ، والمراد قطعون وتضربون بها والأول أوجه . [٥] أي قطعاً .

[٦] عمد بهتجين ، وعمد بضمين : جمع عمود ، وهي من الآلات التي كانت تسعمل في القتال .

١٣ — خطبة أخرى له

ومن خطبه رضى الله عنه :

« اعلموا أن الحلم زين ، والوقار مودة ، والصلة نعمة ، والإكثار صلف ^(١) والعجلة سفة ، والسفة ضعف ، والقلق ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شين ومخالطة أهل الفسوق ريبة » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٥)

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن علي ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة بحضرة معاوية

قال ابن أبي الحديد : روى الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات قال :
« اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة بن أبي معيط ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن علي عليه
السلام قوارص ^(٢) ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا يا أمير المؤمنين ، إن الحسن
قد أحيا أباه وذكره ، وقال فصّدق ، وأمر فأطيع ، وخفقت ^(٣) له النعال ،
وإن ذلك كرافعه إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوينا . قال
معاوية فما تريدون ؟ قالوا ابعت إليه فليحضر للنسبة ونسب أباه ونعيّره ونوبّخه
ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرّره بذلك ، ولا يستطيع أن يغيّر علينا شيئاً من

[١] الصلف : التكلم بما يكرهه صاحبه والتمدح بما ليس عندك أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا . [٢] القوارص من الكلام التي تنفصك وتؤلمك . [٣] الحق صوت النعل .

ذلك . قال معاوية إني لا أرى ذلك ولا أفعله ، قالوا عزمنا عليك يا أمير المؤمنين
لَتَفْعَلَنَّ ، فقال ويحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيته قط جالساً عندي إلا خفت مقامه
وعَيْبته لي ، قالوا ابعت إليه على كل حال . قال إن بعثت إليه لأنصفه منكم ، فقال
عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتي باطله على حقنا ، أو يُرَبِّي قولة على قولنا ؟ قال
معاوية : أما إني إن بعثت إليه لآمرته أن يتكلم بلسانه كله . قالوا مره بذلك ،
قال : أما إذا عصيتموني وبعثتم إليه وأبستم إلا ذلك ، فلا تَمْرَضُوا^(١) له في القول ،
واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيهم العائب ، ولا يلصق بهم العار ، ولكن اقدفوه بِحَجَرِهِ ،
تقولون له إن أباك قتل عثمان ، وَكَرِهَ خلافة الخلفاء من قبله ، فبعث إليه معاوية ،
فجاءه رسوله ، فقال إن أمير المؤمنين يدعوك . قال : من عنده ؟ فسماهم ، فقال
الحسن عليه السلام ما لهم ؟ خَرَّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث
لا يشعرون ، ثم قال : يا جارية ابغيني ثيابي ، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم ،
أدراً^(٢) بك في نحورهم ، وأستمعين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت ، وأني
أنت ، بِحَوْلٍ منك وقوة ، يا أرحم الراحمين ، ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه
كرمهُ ، وأجلسهُ إلى جانبه ، وقدارتاد^(٣) القوم ، وخطرُوا^(٤) خَطَرَانِ الفحول ،
بعياً في أنفسهم وعُلُوا ، ثم قال : يا أبا محمد ، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني ، فقال
لحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ، والله
ن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم ، إني لأستحي لك من الفُحْشِ ،

[١] تمرض : ضعف في أمره . [٢] أدفع . [٣] الارتداد : الذهاب والمجيء .

[٤] خطر الرجل في مشيته : رفع يديه ووضعهما واهتز وتبعثر وخطر بسيفه ورمحه : رفعه مرة
ووضعه أخرى خطراً (بالتحريك) وخطر الفعل بذنبه : ضرب به يميناً وشمالاً .

وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحيي لك من الضعف ، فأيهما تُقر وأيهما تُنكر؟ أما إني لو علمت بمكانهم جئت معي بمثلهم من بني عبد المطلب ، وما لي أن أكون مستوحشاً منك أو منهم؟ إن وليي الله وهو يتولى الصالحين ، فقال معاوية : يا هذا إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له ، وإن لك منهم النصف^(١) ومنى ، وإنما دعوناك لنقرررك أن عثمان قُتلَ مظلوماً ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبههم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك ، فتكلم عمرو بن العاص :

١٤ — مقال عمرو بن العاص

فحمد الله وصلى على رسوله ﷺ ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافته ، وامتنع من بيعته ، ثم بايعه مكرهاً ، وشرك في دم عمر ، وقتل عثمان ظلماً ، وادّعى من الخلافة ما ليس له ، ثم ذكر الفتنة يميّز بها ، وأضاف إليه مساوى ، وقال : إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك ، على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ، ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لبه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وتركك أحق قریش ، يُسخر منك ، ويهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ، وإنما دعوناك لنسببك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا ، نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا ؟

فإن كنت ترى أنا كذَبنا في شيء ، فاردده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

١٥ - مقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ثم تكلم الوليد بن عُقْبَة بن أبي مُعَيْط فقال :
« يا بني هاشم : إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولدُ كان لكم ، فعرف حقكم ،
وكنتم أصهاره ، فنعم الصهرُ كان لكم يُكرِّمكم ، فكنتم أول من حسده ، فقتله
أبوك ظلماً ، لا عذر له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه ، وأنزلكم منزلتكم ،
والله إن بني أمية خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية ، وإن معاوية خير لك
من نفسك .

١٦ - مقال عتبة بن أبي سفيان

ثم تكلم عُتْبَة بن أبي سفيان فقال :
« يا حَسَنُ : كان أبوك شرَّ قريش لقريش ، لِسَفْكِهِ لدمائها ، وقطعِهِ
لأرحامها ، طويلَ السيف واللسان ، يقتل الحى ويعيب الميت ، وإنك ممن
قَتَلَ عثمان ونحن قاتلوك به ، وأما رجاؤك الخلافة فلست في زندها ^(١) قادحاً ، ولا
في ميزانها راجحاً ، وإنكم يا بني هاشم قتلتم عثمان ، وإن في الحق أن تقتلك وأخاك
به . فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقاد ^(٢) منه ، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك
بعثمان إثم ولا عُدوان .

١٧ - مقال المغيرة بن شعبة

ثم تكلم المغيرة بن شعبة ، فشمع عليا وقال : والله ما أعيبه في قضية يخون ،
ولا في حكم يعيل ، ولكنه قتل عثمان ، ثم سكتوا .

[١] الزند : العود الذي يقدح به النار . [٢] أهد الفاتل بالقتيل : قتله به .

١٨ - رد الحسن بن عليّ عليهم

فتكلم الحسن بن عليّ عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أما بعد يامعاوية ، فما هؤلاء شتموني ، ولكنك شتمتني ، فُحْشًا أَلِفْتَهُ ، وسوء رأى عُرِفَتْ به ، وخُلُقًا سَيِّئًا ثَبَتَ عليه ، وبغيا علينا ، عداوة منك لمحمد وأهله ، ولكن اسمع يامعاوية واسمعوا ، فَلَأَقُولَنَّ فِيكَ وفيهم ما هو دون ما فيكم ، أَنشُدْكُمْ الله أيها الرهط ، أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين ^(١) كلتيهما ، وأنت يامعاوية بهما كافر ، تراها ضلالة وتعبد اللَّاتَ وَالْعُزَّى ^(٢) غَوَايَةَ ، وَأَنشُدْكُمْ الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كلتيهما بَيْعَةَ الْفَتْحِ ^(٣) وبَيْعَةَ الرِّضْوَانِ ^(٤) ، وأنت يامعاوية بإحداهما كافر ، وبالأخرى ناكث ، وَأَنشُدْكُمْ الله هل تعلمون أنه أوَّلُ النَّاسِ إِيْمَانًا ، وأنت يامعاوية وأباك من المؤافة قلوبهم ، تُسِرُّونَ الْكُفْرَ وتُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ ، وتُسْتَمَالُونَ بِالْأَمْوَالِ ، وَأَنشُدْكُمْ الله أَلَسْتُمْ

[١] كان صلى الله عليه وسلم يستقبل الكعبة وهو بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة أمر أن يستقبل بيت المقدس تألفاً لليهود ، فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول . [٢] اللات : صنم قبيص بالطائف ، والعزى : أكبر صنم لقريش ، وكان يبطن نخلة .

[٣] روى الطبري في تاريخه - بعد أن أورد خبر فتحه صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان للهجرة ، وخطبته حين وقف على باب الكعبة - قال : « ثم اجتمع الناس بمكة لبَيْعَةِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى الْإِسْلَامِ فجلس لهم - فيما بلغني - على الصفا ، وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس ، فبايع رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعة لمن بايع رسول الله من الناس على الإسلام ، فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة « أم معاوية » . . . إلى آخر القصة - تاريخ الطبري ٣ : ١٢١ - وكان معاوية من أسلم بعد الفتح . [٤] بيعة الرضوان كانت سنة ست هجرية في غزوة الحديبية حين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين للبيعة على أن قتال فبايعوه دلى الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان .

تعلمون أنه كَانَ صَاحِبَ رَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمَ بَدْرَ ، وَأَنَّ رَايَةَ الْمُشْرِكِينَ كَانَتْ مَعَ مَعَاوِيَةَ وَمَعَ أَبِيهِ ؟ ثُمَّ لَقِيتُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَيَوْمَ الْأَحْزَابِ وَمَعَ رَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَمَعَكُمْ وَمَعَ أَبِييْكَ رَايَةَ الشَّرْكِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ يَفْتَحُ اللَّهُ لَهُ ، وَيُفْلِحُ ^(١) حُجَّتُهُ ، وَيَنْصُرُ دَعْوَتَهُ ، وَيَصْدُقُ حَدِيثَهُ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا عَنْهُ رَاضٍ ، وَعَلَيْكَ وَعَلَى أَبِييْكَ سَاخِطٌ ، وَأَنْشُدُكَ اللَّهُ يَا مَعَاوِيَةَ أَتَذْكُرُ يَوْمًا جَاءَ أَبُوكَ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرٍ ، وَأَنْتَ تَسُوقُهُ ، وَأَخُوكَ عُتْبَةُ هَذَا يَقُودُهُ ، فَرَأَى كَمَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ الْعَنِ الرَّاكِبَ وَالْقَائِدَ وَالسَّائِقَ » . أَتَنْسَى يَا مَعَاوِيَةَ الشَّعْرَ الَّذِي كَتَبْتَهُ إِلَى أَبِييْكَ - لَمَّا هَمَّ أَنْ يُسَلِّمَ - تَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ :

يَا صَخْرُ لَا تُسَلِّمَنَّ يَوْمًا فَتَفْضَحَنَا بَعْدَ الَّذِينَ يَبْدُرُ أَصْبَحُوا مِرْقَا ^(٢)
خَالِي وَعَمِّي وَعَمُّ الْأُمِّ ثَانَهُمْ وَحَنَظَلُ الْخَيْرِ قَدْ أَهْدَى لَنَا الْأَرْقَا ^(٣)
لَا تَرْكَنَنَّ إِلَى أَمْرِ تُكَلِّفُنَا وَالرَّاقِصَاتِ بِهِ فِي مَكَّةَ الْخَرْقَا ^(٤)
فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ قَوْلِ الْعُدَاةِ «لَقَدْ حَدَّ ابْنُ حَرْبٍ عَنِ الْعُزَّى إِذَا فَرِقَا» ^(٥)
إِلَّا لَمَّا أَخْفَيْتُ مِنْ أَمْرِكَ ، أَكْبَرُ مِمَّا أَبْدَيْتَ ، وَأَنْشُدُكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا الرَّهْطُ ،
أَتَعْلَمُونَ أَنَّ عَلِيًّا حَرَّمَ الشَّهَوَاتِ عَلَى نَفْسِهِ بَيْنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَآلِهِ ، فَأَتَزَلُ فِيهِ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ » .
وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعَثَ أَكْبَرَ أَصْحَابِهِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَنَزَلُوا

[١] يَنْصُرُ . [٢] الْمِرْقَا : جَمْعُ مِرْقَةٍ بِالْكَسْرِ ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ الثَّوْبِ وَغَيْرِهِ .
[٣] أَيْ لَشِدَّةِ الْحُزْنِ وَالْأَسَى . [٤] الْخَرْقُ عَمَلُكَ الْإِحْسَانِ الرَّجُلِ الْعَمَلُ وَالنَّصْرُ فِي
الْأُمُورِ ، وَالْمَقِي . [٥] فَرَقَ : فَرَزَ .

من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً بالرّاية ، فاستنزلهم على حكم الله ، وحكم رسوله ، وفعل في خيبرَ مثَلها ، ثم قال : يا معاوية أظنك لا تعلم أني أعلم ما دعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني جذيمة ^(١) ، فبعث إليك ونهّك ^(٢) إلى أن تموت ، وأنتم أيها الرهط، نشدتكم الله ألا تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن ، لا تستطيعون ردّها ؟ أولها يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو تقيفاً إلى الدين ، فوقع به ، وسبه ، وسفّهه ، وشتّمه ، وكذّبه ، وتوعده ، وهمّ أن يبطشَ به ، فلعهنه الله ورسوله وصرف عنه ، والثانية يوم العير ^(٣) إذ عرّض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهي جائية من الشام ، فطردها أبو سفيان وسأحل ^(٤) بها ، فلم يظفرَ المسامون بها ، ولعهنهُ رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه ، فكانت

[١] في الأصل « خريمة » ، وهو تحريف ، وهم بنو جذيمة بن عامر بن عبد مائة بن كنانة ، وقد بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً ، ولم يبعثه مقاتلاً ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوه أمر بهم خالد فذبح ذلك فكفروا ، ثم عرّصهم على السيف فقتل من قتل منهم — وكان بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، والفاكه بن الفيرة عم خالد ، وكانا أقبلتا تاجرين من اليمن حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما — فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع يد إلى السماء ثم قال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا عليّ بن أبي طالب ، فقال يا عليّ اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج عليّ حتى جاءهم ومعه مال قد بعه رسول الله صلى الله عليه وسلم به فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليدي ميلة الكلب ، (والميلة بالكسر : الإغناء يبلغ فيه الكلب) حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه بقيت منه بقية من المال . قال لهم : هل بقي لكم دم أو مال لم يودَ إليكم ؟ قالوا لا ، قال فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يعلم ولا تعلمون ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال أصبت وأحسنت ، ثم استقبل القلبة فأنما شاهراً يديه ، وهو يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثلاث مرات .

[٢] الذي في كتب اللغة : « نهيه : زجره ، وحذفه بالحصى وغيره » ومراده هنا أنه دعا عليه بالنهم وعدم الشيع ، وقد تقدم الكلام عليه . [٣] العير الإبل تحمل الميرة . [٤] أتى بها ساحل البحر .

وقعة بدر لأجلها ، والثالثة يوم أُحُد ، حيث وَقَفَ تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه ، وهو ينادى **أَعْلُ هُبْلُ** ^(١) مراراً فلعنهُ رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مراتٍ ، ولعنهُ المسلمون ، والرابعة يوم جاء بالأحزاب وَغَطَفَانِ وَالْيَهُودَ ، فلعنهُ رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل ، والخامسة يوم جاء أبوسفیان في قريش ، فصعدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد والهدى معكوفاً **أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ** ^(٢) ، ذلك يوم الحديبية ، فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله أباسفيان ، ولعن القادة والأتباع ، وقال ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن ، فقيل يا رسول الله أفما يُرْجَى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة ؟ فقال لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع ، وأما القادة فلا يُفْلَحُ منهم أحد ^(٣) ، والسادسة يوم الجمل الأحمر ، والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في العَقَبَةِ ليستنفروا ناقته ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، منهم أبوسفيان ، فهذا لك يامعاوية .

وأما أنت يا بن العاص ، فإن أمرك مشترك ، وضعناك أملك مجهولاً ، من عَمَرَ ^(٤) وَسِفَاح ، فتحاكم فيك أربعة من قريش ، فغلب عليك جزأرها ، الأُمَمُ

[١] أى اعل وانتصر يا هبل وهو صنم كان في الكعبة . [٢] والهدى معطوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والهدى ما يهدى إلى مكة ، ومعكوفاً أى محبوساً وهو حال . أن يبلغ محله أى مكانه . لا يتعارض مع هذا أن أباسفيان أبلح بعد وأسلم ، إذا التى فيه لا ، وليس النفي بلن . [٣] خور : ذكروا أن الباعة أم عمرو بن العاص كانت أمة لرجل من عزة بالتحريك) فسيت : فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي بمكة ، فكانت بغياً ، ثم أعتقها ، فوقع عليها بولب بن عبد المطاب ، وأمية بن خلف الجمحي ، وهشام بن المغيرة الخزومي ، وأبوسفيان بن حرب ، العاص بن وائل السهوي في طهر واحد ، فولدت حمرا ، فادعاه كلهم ، فحسنت أمة فيه ، فقالت هو من عاص بن وائل ، وذاك لأن العاص كان ينفق عليها كثيراً ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان ، وى ذلك فول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب في عمرو بن العاص :

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت لنا بك منسبه بينات الشمايل

يقال إنه جعل لرجل ألب درهم على أن يسأل حمرا وهو على المنبر : من أمة ، فسأله فقال : أمى سلمى

حسباً ، وأخبثهم منْصِباً ، ثم قام أبوك فقال : أنا شاني محمد الأبتَر^(١) فأُنزل الله فيه ما أنزل ، وقا نلت رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع المشاهد ، وهجوته وآذيته بمكة ، وكِدته كيدك كله ، وكنت من أشد الناس له تكذيباً وعداوة ، ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة ، لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة^(٢) ، فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائباً ، وأكذبك واشياً ، جعلت حسدك - على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشي ، حسداً لما ارتكب من حليته^(٣) ، ففضحك الله وفضح صاحبك ، فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية

بنت حرمة تلقب بالنابغة من بني عزة أصابتها رماح العرب فبيعت بهكاظ ، فاشترأها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأُنحبت ، فإن كان جعل لك شيء فخذ . (ورأى فيما روى من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ما قبله) .

[١] الثاني البغض وبسمل ، وذلك أن العاص بن وائل سمى النبي صلى الله عليه وسلم أبتَر عند موت ابنه الفاسم ، فنزل فيه « إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أي المقطع عن كل خير ، الذي لا يفوز بالذكر الحسن بعد موته ، وأما أنت يا محمد فسيبقى حسن ذكرك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة وهو الأبتَر لا أنت .

[٢] يشير إلى هجرة الحبشة الثانية ، وقد هاجر إليها من المسلمين نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمان عشرة امرأة ، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب ، ولما رأته قریش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد ، بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ، ليسلم المسلمين ، فرجما خائبين ، وأبى النجاشي أن يخفر ذمتهم .

[٣] وذلك أن حمرا وحمارة ركبوا البحر إلى الحبشة كما قدمنا - وكان حمارة جليلاً وسيماً تهواه النساء ، وكان مع عمرو بن العاص امرأته - فلما صاروا في البحر ليلى أصابا من خمر معهما ، فانقشى حمارة فقال لامرأة عمرو قبلي ، فقال لها عمرو قبلي ابن عمك ، فقبلته ، وهويها حمارة ، وجعل يرادها عن نفسها ، فامتنعت منه ، ثم إن حمراً جلس على منجاف السفينة يبول « منجاف السفينة هو سكايتها الذي تعدل به » فدفعه حمارة إلى البحر ، فلما وقع عمرو سبج حتى أخذ بمنجاف السفينة ، وضغن عمرو عليه في نفسه وعلم أنه كان أراد قتله ومضياً حتى نزل الحبشة ، فلما اطمأن بها لم يلبث حمارة أن دب لامرأة النجاشي فأدخلته ، فاختلف إليها . وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر حمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ، فلما أكثر عليه حمارة بما كان يخبره ، ورأى عمرو من حاله وهيئته ومبيته عندها حتى يأتي إليه مع السحر ما عرف به ذلك ، قال له إن كنت صادقاً فقل لها فاندعك يدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره ، فأبى أعرفه وأبى بشيء منه حتى أصدقك ، قال أفعل فسألها ذلك فدعته منه وأعطته شيئاً في قارورة ، فقال عمرو أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئاً ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة الماك ! ما سمعنا بمثله هذا ، ثم سكنت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشي فأعلمه شأن حمارة وقدم إليه الدهن ، فلما أثبت أمره دعا بعمارة ، ودعا لسوة آخر فخرده من ثيابه ثم أمرهم ينقطن في إحلته ثم خلى سبيله ففرج هارباً .

والإسلام ، ثم إنك تعلم ، وكل هؤلاء الرهط يعلمون ، أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتاً من الشعر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إني لأقول الشعر ولا ينبغى لى ، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة . فعليك إذن من الله ما لا يُحصى من اللعن ، وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سَعَرْتَ^(١) عليه الدنيا ناراً ، ثم لحِقتَ بِفِلَسْطِينِ ، فلما أتاك قتله قلت : « أنا أبو عبد الله إذا نَكَأتُ قَرْحَةً أدميتها » ثم حبست نفسك إلى معاوية ، وبعث دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغضٍ ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حياً ، ولا غَضِبْتَ له مقتولا ، ويحك يا بن العاص ! ألسنت القاتل في بنى هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي :

تقول ابنتي : أين هذا الرحيل ؟	وما السيَرُ منى بِمُسْتَنْكَرٍ
فقلت : ذرينى فإنى امرؤ	أريد النجاشي في جعفر
لأَكْوِيَهُ عنده كِيَّةً	أقيم بها نَحْوَةَ الْأَصْمَرِ ^(٢)
وَشَانِي أَحْمَدَ مِنْ بَيْنِهِمْ	وَأَقُولُهُمْ فِيهِ بِالْمُنْكَرِ
وَأَجْرِي إِلَى عُتْبَةَ جَاهِداً	ولو كَانَ كَالذَّهَبِ الْأَحْمَرِ ^(٣)

[١] سَعَرُ النَّارِ : كَنَعَ أَوْ قَدَمَا . وكان عمرو أول خلافة عثمان والياً على مصر - منذ خلافة عمر بن الخطاب - ثم إن عثمان ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو أخو عثمان من الرضاع - خراج مصر ولى عمرو بن العاص على الجند فلم ينفقا ، فجمع لعبد الله الخراج والجند وعزل عمرأ ، فلما قدم عمرو دينة جعل يطعن على عثمان ويؤايب عليه ، وخرج عمرو بعدئذ حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين ، وكان قول : أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها ، والله إن كنت لألقى الراعي وأعرضه عليه (نكأ قرحة : قشرها قبل أن تبرا فنديت) . [٢] الأصم : محركة الليل في الحد ، صم : كفرح وهو صم ، وصم خده تصغيراً : أماله من الكبر . [٣] كان من بين المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة ثبة بن غزوان ، وهو من بنى نوفل بن عبد مناف ، وعتبة بن مسعود (وهو أخو عبد الله بن مسعود) من هذيل من حلفائهم ، وأظنه يعنى عتبة بن غزوان ، وقوله : ولو كان كالذهب الأحمر : أى في صعوبة وصول إليه .

ولا أنتنى عن بنى هاشم وما أسطعنت في الغيب والمخضر
فإن قبل العتب منى له وإلا لوئت له مشفرى^(١)

فهذا جوابك ، هل سمعته ؟

وأما أنت يا وليد ، فوالله ما ألوئك على بغض عليّ ، وقد جلدك ثمانين في
الجر^(٢) ، وقتل أباك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله صبراً^(٣) ، وأنت
الذي سماه الله الفاسق ، وسمى عليّاً المؤمن ، حيث تفاخرتما ، فقلت له اسكت
يا عليّ ، فأنا أشجع منك جناناً ، وأطول منك لساناً ، فقال لك عليّ اسكت
يا وليد ، فأنا مؤمن وأنت فاسق ، فأنزل الله تعالى في موافقة قوله : « أَفَمَنْ كَانَ

[١] المشفر للبعير : كالشمة للإنسان ، وقد يستعمل في الناس . [٢] وذلك أن عثمان
رضي الله عنه بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص من إمارة الكوفة ، ولى عليها الوليد بن دحية — وهو
أخوه لأبيه — ورووا أنه شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من أصبعه وهو لا يعلم
وأنه تكلم في الصلاة والفت إلى من يقتدون به فيها وهو سكران وقال لهم : أزيدكم ؟ قالوا لا قد قضينا
صلواتنا ، وشهد اليهود عليه بذلك عند عثمان في وجهه فأدخله بيتاً وأراد أن يحده فدخل إذا به إلى
رحلا من قریش ليضربه ناشده الوليد ألا يقطع رحمه ، فلما رأى عليّ ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجلده به
[٣] القتل صراً : أن يحبس الرجل ويرمى حتى يموت ، وكان عقبة بن أبي معيط شديد الایداء لرسول
الله صلى الله عليه وسلم عظيم الاستهزاء به . صنع مرة ولية ودعا إليها كبراء قریش وفيهم رسول الله
الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا آكل من طعامك حتى تؤمن بالله ، فتشهد ، فبدا
ذاك أبيّ بن خلف الجحى ، وكان صديقاً له ، فقال ماشى . بل منى عنك ؟ قال لا شىء . دخل منزله
شرب ، فأبى أن يأكل طعامى حتى أنهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فتشهد له ، ف
أبى : وجهي من وجهك حرام إن أقيت محمداً فلم تطأ عقه ، وتبزيق في وجهه ، وتلطم عينه ، فلما رأى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك ، فأنزل الله فيه « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
يَا لَيْدَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَكِينًا » وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعلى في حجر الكه
مأقبل عقبة فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فآخذ
بمنكبه ودفعه عن الرسول ، وقال : « اتَّقُوا رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » فلما كانت غزوة بدر كان عقبة من أسراما وقد قتله عليه الصلاة والسلام
وهو راجع .

مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ» ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضاً :
« إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ^(١) » ويحك يا وليد ! مهما نسيت فلا تنس قول
الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله (والكتابُ عزيزٌ) في عليّ وفي الوليد قرأنا ^(٢)

فتَّبُوا الوليد إذ ذاك فسقاً وعليّ مَبْـُـوءاً إيماناً ^(٣)

ليس من كان مؤمناً (عَمَرَكَ اللهُ) كمن كان فاسقاً خَوَّاناً

سوف يُدْعَى الوليد بعد قليل وَعَلَى إلى الحساب عِيَاناً

فعلى يُجْزَى بذاك جِنَاناً ووليدٌ يَجْزَى بذلك هَوَاناً

رب جدّ لعقبة بن أبان لابس في بلادنا ثُبَاناً ^(٤)

وما أنت وقريش ، إنما أنت عِلْجٌ من أهل صفُورِيَّة ^(٥) ، وأقسم بالله لأنت
أكبر في الميلاد وأسن ممن تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة : فوالله ما أنت بِحَصِيفٍ ^(٦) فأجيبك ، ولا عاقلٍ

فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خيرٌ يرجى ، ولا شرٌّ يُتَّقَى ، وما عقلك وعقل

[١] وذلك أن النبيّ عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن دقبة إلى بني المصطلق لأخذ
الصدقات — وكان بينه وبينهم ثرة في الجاهلية — فلما سمعوا به استقبلوه خشيهم مقاتليه فرجع ، وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فأتوه منكربن ماقاله عنهم ، فزكت
الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ
فَتُضْضِعُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » . [٢] مسهل عن « قرآننا » . [٣] فتَّبُوا مسهل

عن « فتَّبُوا » . [٤] أبان : هو والد أبيه عقبة ، وهو الوليد بن دقبة بن أبي ميط أبان بن أبي عمرو
ذكوان بن أمية بن عبد شمس ، والتبآن سراويل صغير مقدار شبر يستر المورة المغلطة فقط يكون للملاحين .

[٥] صفورية بلد بالأردن (بضم الهمزة والدال وتشديد النون) ، والعليج : الرجل من كفار العجم ، وذلك
أن جدّه ذكوان كان يلقب بالصفوري ، ذكر جماعة من النساء أن ذكوان هذا كان مولى لأمية بن عبد
شمس فتبناه وكناه أبا عمرو ، فبنوه موال وليسوا من بني أمية أصله (شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٥٤)

[٦] حصف : ككرم استحكم دقله فهو حصيف .

أَمَتِكَ إِلَّا سِوَاءَ ، وَمَا يَضُرُّ عَلِيًّا لَوْ سَبَبْتَهُ عَلَى رِءُوسِ الْأَشْهَادِ ؟ وَأَمَّا وَعِيدُكَ إِيَّايَ بِالْقَتْلِ ، فَهَلَا قَتَلْتَ اللَّحْيَانِ إِذْ وَجَدْتَهُ عَلَى فِرَاشِكَ ؟ أَمَّا تَسْتَحْيِي مِنْ قَوْلِ نَصْرِ ابْنِ حِجَابٍ فِيكَ :

يَا لِلرَّجَالِ وَحَادِثِ الْأَزْمَانِ وَلِلسُّبَّةِ تُخْزِي أَبَا سُفْيَانَ ^(١)

نُبِّذْتُ عُتْبَةَ خَانَهُ فِي عِرْسِهِ جِنْسٌ لَتَيْمِ الْأَصْلِ مِنْ لِحْيَانٍ ^(٢)

وَبَعْدَ هَذَا مَا أَرَبَأُ بِنَفْسِي عَنْ ذِكْرِهِ لِفَحْشِهِ ، فَكَيْفَ يَخَافُ أَحَدٌ سَيْفَكَ وَلَمْ تَقْتُلْ فَاصِحَكَ ، وَكَيْفَ أَلُومُكَ عَلَى بَغْضٍ عَلَى ، وَقَدْ قَتَلَ خَالَكَ الْوَلِيدَ مَبَارِزَةً يَوْمَ بَدْرٍ ، وَشَرِكَ حِمَزَةَ فِي قَتْلِ جَدِّكَ عُتْبَةَ ، وَأَوْحَدَكَ مِنْ أَخِيكَ حَنْظَلَةَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ .

وَأَمَّا أَنْتَ يَا مَغِيرَةَ : فَلَمْ تَكُنْ بِخَلِيقٍ أَنْ تَقَعَ فِي هَذَا وَشِبْهِهِ ، وَإِنَّمَا مِثْلُكَ مِثْلُ الْبَعُوضَةِ إِذْ قَالَتْ لِلنَّخْلَةِ : « اسْتَمْسِكِي فَإِنِّي طَائِرَةٌ عَنْكَ » . فَقَالَتِ النَّخْلَةُ وَهَلْ عَلِمْتُ بِكَ وَاقِعَةً عَلَى ، فَأَعْلَمَ بِكَ طَائِرَةٌ عَنِّي ؟ وَاللَّهِ مَا نَشَعَرُ بَعْدَاوَتِكَ إِيَّانَا ، وَلَا اغْتَمَمْنَا إِذْ عَلِمْنَا بِهَا ، وَلَا يَشُقُّ عَلَيْنَا كَلَامُكَ ، وَإِنْ حَدَّثَكَ اللَّهُ فِي الزَّنا لِثَابِتٍ عَلَيْكَ ، وَلَقَدْ دَرَأَ عَمْرُكَ حَقًّا ، اللَّهُ سَأَلَهُ عَنْهُ ، وَلَقَدْ سَأَلَتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ : هَلْ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى الْمَرْأَةِ يَرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا ؟ فَقَالَ : لَا بَأْسَ بِذَلِكَ يَا مَغِيرَةَ مَا لَمْ يَنْوِ الزَّنا ، لَعَلَّمَهُ بِأَنْتَ زَانٌ ، وَأَمَّا نَفَرُكُمْ عَلَيْنَا بِالْإِمَارَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا ^(٣) مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدَمْنَا نَدَمًا تَذْمِيرًا » .

[١] السُّبَّةُ : الدَّارُ . [٢] هَرَسَ الرَّجُلُ : امْرَأَتُهُ ، وَبَنُو لِحْيَانٍ : حَمَى مِنْ هَذِيلٍ ، وَهُوَ لِحْيَانُ ابْنِ هَذِيلِ بْنِ مَدْرَكَةَ . [٣] أَيْ كَثَرْنَا ، أَمْرُهُ : كُنْصَرُهُ ، وَأَمْرُهُ : كَثَرُهُ ، (وَفِي قِرَاءَةِ : أَمَرْنَا) أَوْ الْمَعْنَى أَمَرْنَا بِمُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا وَعَصَوْا ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِمَارَةِ أَيْ جَعَلْنَا أَمْرًا .

ثم قام الحسن فنفض ثوبه فانصرف ، فتعلق عمرو بن العاص بثوبه وقال
يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله في وقذه أئى بالزنا ، وأنا مطالب له بحد القذف .
فقال معاوية : خل عنه ، لاجزالك الله خيراً ! فتركه ، فقال معاوية : قد أنبأتكم
أنه ممن لا تطاق عارضته ، ونهيتكم أن تسبوه فعصيتموني ، والله ما قام حتى أظلم
على البيت ، قوموا عني ، فلقد فضحككم الله وأخزاكم بترككم الحزم ، وعدواكم
عن رأى الناصح المشفق ، والله المستعان . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ ص ١٠١)

١٩ — رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن

لما مات الحسن بن علي رضي الله عنهما ، أدخله قبره الحسين ومحمد بن
الحنفية ^(١) ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، ثم وقف محمد على قبره ،
وقد اغرورت عيناه ، وقال :

« رحمك الله أبا محمد ، فلئن عزت حياتك ، لقد هدأت وفاتك ، ولنعم
الروح روح تضمته بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمته كفنك ، ولنعم
الكفن كفن تضمته لحذك ، وكيف لا تكون كذلك ، وأنت سليل الهدى ،
خامس أصحاب الكساء ^(٢) ، وخلف أهل التقوى ، وجدك النبي المصطفى ،

[١] هو محمد بن علي بن أبي طالب ، والحنفية أمه ، وهي امرأة من بني حنيفة بن الجهم وتسمى خولة بنت
جعفر ، وتوفى سنة ٨١ ، وقيل سنة ٨٣ ، وقيل سنة ٧٢ ، وقيل سنة ٧٣ . [٢] الكساء : هو
كساء آل محمد صلى الله عليه وسلم الذي يصادون إليه ، فيقال : « آل الكساء » وهم النبي عليه الصلاة
السلام ، وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين رضي الله عنهم ، قال ديك الجن :
والخمس الفر أصحاب الكساء مما خير البرية من عجم ومن عرب
قال أبو عثمان الخالدي :

أعاذل إن كساء التقى كسايه جي لأهل الكساء
ومن قصة هذا الكساء ما روت الرواة من أن وفدا من نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم
فكان ماجرى بينهم وبينه أن قالوا : يا محمد لم تعيب عيسى وتسميه عبداً ؟ فقال : أجل عبد الله ورسوله

وأبوك على المرتضى ، وأملك فاطمة الزهراء ، وعمك جعفر ^(١) الطيار في جنة

وروحه وكلته ألقاهما إلى مريم ، قالوا : فأرنا مثله ، يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير ، وبإذنا على أنه ابن الله ونحن نبأيمك على أنك رسول الله ، يقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يكون لله ولد أو شريك ، فما زالوا يحاجونه ويلاحونه ، حتى أنزل الله : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ (أى فى عيسى) مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ »

فقال لهم : إن الله أمرنى إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم — والمباهلة الملاعة — فقالوا يا أبا القاسم : بل ترجع فنسطر فى أمرنا ثم تأتيناك ، فلما رجعوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم « وهو أحد رؤسائهم ، قال ياقوت فى معجمه : ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب ، والعاقب واسمه عبد المسيح ، والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباہلتهم فامتنعوا ... الخ » ياعبد المسيح ماترى ؟ فقال « والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمداً نبيّ مرسل ، واقعد جاءكم بالكلام الحق فى أمر صاحبكم « أى عيسى » والله ما باهل قوم نبياً قط ، فماش كيرم ولا نيت صخيرم ، واتن فعلم لكان الاستئصال ، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل واصرفوا إلى بلادكم » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود « والمرط بكسر كاء من صوف أoxز » وفد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول « إذا دعوت فأمروا » فقال أسقف نجران : « يامعشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوها الله أن يزيل جيلاً من مكانه لأزاله لها ، فلا تماهلوا قتلكم ، ولا يبق على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة » ثم قالوا يا أبا القاسم : « رأينا أن لا نباهلك وأن نترك على دينك » فقال عليه الصلاة والسلام : « فإذا أبيتم المباہلة فاسلموا ، يكن لکم بالله سامين وعليکم ما على المسامين » فأبوا ، فقال : فإني أناجزكم القتال ، فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا ، على أن نؤدى إليك فى كل عام ألبى حلة ، ألفاً فى صفر ، وألفاً فى رجب ، وثلاثين درهماً من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : « والذي نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولولاء والمسحوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهلها ، حتى لا يطأ على رءوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام لما خرج فى المرط الأسود جاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم على رضى الله عنهم ، ثم قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » فمن ذلك الوقت سمي الحسة أصحاب الكساء (أنظر كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب لأشعري ص ٤٨٣ وتفسير الفخر الرازى مفاتيح الغيب ٢ : ٦٩٩)

[١] هو جعفر بن أبى طالب ، وقد استشهد فى غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان يقول حين أخرج الراية من زيد بن حارثة الذى استشهد قبله فى هذه الغزوة :

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها

ولقب بالطيار لما روى عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة

المأوى ، وغذّتك أكفّ الحق ، ورُيّت في حِجْرِ الإسلام ، ورضعت ثدى
الإيمان ، فطِبتَ حياً وميتاً ، فلئن كانت الأنفس غيرَ طيبةٍ لفراقك ، إنها غير
شاكّةٍ أن قد خيرَ لك ^(١) ، وإنك وأخاك لسيدا شبابِ أهلِ الجنة ، فعليك
أبا محمد منا السلام .

(زهر الآداب ١ : ٦٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٥١ ، والمقد الفريد ٢ : ٧)

مقتل الحسين بن علي

رضى الله عنه

تأبيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة

لما ولى الخلافة يزيدُ بن معاوية (في هلال رجب سنة ٦٠ هـ) كتب إلى أمير
المدينة الوليد بن عُتبة بن أبي سُفيان أن يأخذ الحسين ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن
عمر بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رُخصة ^(٢) ، فبعث الوليد إلى الحسين رضى الله عنه
ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة ، فقال الحسين : « إن مثلى لا يعطى بيعته سراً ،
ولا أراك تجتزئ بها منى سراً ، دون أن تُطهرها على رموس الناس علانيةً ، فاذا خرجتَ
إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس ، فكان أمراً واحداً » فقال له الوليد - وكان
يحب العافية - « فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس » .

فلما كان من الغد بعث الرجال إلى الحسين عند المساء ، فقال : « أَصْبَحُوا ثم ترون
ونرى » فكفوا عنه تلك الليلة ولم يُأجّخوا عليه ، فخرج الحسين من تحت ليلته (ليومين
بقيا من رجب سنة ٦٠ هـ) ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجُلُّ أهل بيته إلا محمد بن
الحنفية ، فانه قال له :

البارحة ، فرأيت جعفرأ يطير مع الملائكة وجناحاه مفرجان بالدم » - راجع الروض الأنف شرح السيرة
النبوية لابن هشام ٢ : ٢٥٨ - . [١] خار الله لك في الأمر : جعل لك فيه الخير .
[٢] الرخصة : التسهيل .

٢٠ - نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما

« يا أخى : أنت أحب الناس إلى ، وأعزهم علىّ ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك ، تنحّ بِتَبَعَتِكَ ^(١) عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابعث رُسُلكَ إلى الناس ، فادعهم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك حمّدت الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك ، إني أخاف أن تدخل مصرا من هذه الأمصار ، وتأتى جماعة من الناس ، فيختلفوا بينهم ، فمنهم طائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتتلوا ، فتكون لأوّل الأسنة ، فإذا خیرُ هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً أضيعها دماً ، وأذلها أهلاً » .

قال له الحسين : « فإني ذاهب يا أخى » . قال : « فانزل مكة ، فإن اطمانت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نبت ^(٢) بك لحقت بالرمال ، وشعف ^(٣) الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد ، حتى تنظر إلّام يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك الرأى ، فإنك أصوب ما يكون رأياً ، وأحزمه عملاً ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكلاً منها حين تستدبرها استدباراً » ، قال : « يا أخى قد نصحت فأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً مؤفقاً » وسار إلى مكة ، فأتاه أهل الكوفة ورسلمهم ، إنا قد حبسنا أنفسنا عليك : ولسنا نحضر الجمعة مع الوالى فاقدم علينا ^(٤) - وكان النعمان بن بشير الأنصارى على الكوفة -

[١] تبعة جمع تابع . [٢] ضاقت . [٣] الشعف جمع شعبة محرّكة ، وهى رأس الجبل .

[٤] اجتمعت الشيعة بالكوفة فى منزل سليمان بن صرد ، فذكروا هلاك معاوية لخدموا الله عليه ، وقال سليمان : « إن معاوية قد هلك ، وإن حسيناً قد قبض على اقوم ببيعته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

فبعث الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل ، فقال له :
« سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلى » ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم ،
تخرج مسلم إلى الكوفة ، ونزل دار المختار بن أبي عبيد ، وأقبلت الشيعة تختلف
إليه ، فقرأ عليهم كتاب الحسين فأخذوا يبكون .

٢١ — خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري

فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

شيعة وشيعة أيه ، فإن كنتم تعلمون أمكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه ، وإن خفتم الوهل
(بالتحريك : الصعف والفزع والفشل) فلا تعرفوا الرجل من نفسه « قالوا « لا ، بل نقاتل عدوه ونقتل
أنفسنا دونه » قال : فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحسين بن علي من
سليمان بن صرد ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة بن شداد ، وحبيب بن مطاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين
من أهل الكوفة ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذي قسم عدوك
الجبار العنيد الذي اتزى (وب) على هذه الأمة ، فابترها أمرها ، وغصبها فيثما ، وتأمر عليها بغير رضا
منها ، ثم قتل خيارها ، واستنق شرارها ، وحمل مال الله دولة بين جبايرتها وأغنيائها ، فبعداً له كما بعدت
ثمود ، إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة ،
غنينا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أمك قد أقبلت إلينا أخرجنه ، حتى تلحقه
نام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك » وكتبوا إليه أيضاً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحسين بن
، من شيعة من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : غيماً (أي أقبيل) فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأى
م في غيرك ، فالمجل المحل والسلام عليك » وكتبوا : « أما بعد : فقد اخضر الجنب ، وأينعت
نار ، وطمت الجمام ، (الجمام : بالكسر جمع جم بالفتح وهو معظم الماء ، وطمى الماء : علا ، وطم :
ر) فإذا شئت فاقدم على جندك مجند ، والسلام عليك » فكتب إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ،
حسين بن علي إلى الملائمة من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فإن هاشماً وسعيداً (وهما هاشم بن هاشم
سعيد بن عبد الله) قدما على بكتبتكم ، وكانا آخر من قدم على من رسلكم ، وقد فهمت كل الذي
صصتم وذكرتم ، ومقالة جالسكم إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق ،
د بعث إليكم أني وابن عمي وثقتي من أهل بيتي ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم ،
ن كتب إلى أنه قد أجمع رأي ملتكم وذوى الفضل والحجج منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم
نرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله ، فاعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط
لدين بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله والسلام » .

« أما بعد ، فإنى لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم ما فى أنفسهم ، وما أغرك منهم ، والله أحدثك عما أنا موطنٌ نفسى عليه ، والله لأجيدنكم إذا دعوتكم ، ولأقاربن معكم عدوكم ، ولأضربن بسيفى دونكم ، حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله »

فقام حبيب بن مظاهر الفقعسي فقال :

« رحمك الله قد قضيت ما فى نفسك بواجب من قولك » ثم قال : « وأنا والله الذى لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه » وقال غيرها مثل قولهما .
فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فخرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

٢٢ — خطبة النعمان بن بشير

« أما بعد ، فاتقوا الله عباد الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإن فيهما يهلك الرجال ، وتسفك الدماء ، وتغصب الأموال - وكان حليما ناسكا يحب العافية - قال : إني لم أقاتل من لم يقاتلنى ، ولا أثب على من لا يثب على ، ولا أشتكم ، ولا أتحرش بكم ، ولا آخذ بالقرفة ^(١) ولا الظنة ولا الشهمة ، ولكنكم إن أبديتهم صفحتكم ^(٢) لى ، ونكثتم بيعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذى لا إله غيره لأضربنكم بسيفى ما ثبت قائمته فى يدي ، ولو لم يكن لى منكم ناصر ، أما إذ أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يزيده الباطل »

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بنى أمية ، فقال لهم

[١] القرنة : التهمة ، وقرفه بالشئ : اتهمه . [٢] أى جاهرتمونى بالمداوة .

« إنه لا يُصْلِح ما ترى إلا الغشم^(١) ، إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المُسْتَضْعَفِينَ » فقال : « أن أكون من المُسْتَضْعَفِينَ في طاعة الله أَحَبُّ إِلَيَّ من أن أكون من الْأَعَزِّينَ في معصية الله » ثم نزل .

وكتب عبد الله بن مسلم وغيره إلى يزيد أن يبعث إلى الكوفة رجلاً قوياً غير النعمان ، فبعث إلى عبيد الله بن زياد - وكان على البصرة - وضم إليه الكوفة ، فسار إليها ، فلما نزل القصر نودي الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم .

٢٣ - خطبة عبيد الله بن زياد

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) وَلَآئِي مِصْرَكُمْ وَتَفَرَّكُمْ^(٢) »

وأمرني بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدة على مُرِيبيكم وعاصيكم ، وأنا مُتَّبِعٌ فيكم أمره ، وَمُنْفَذٌ فيكم عهده ، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد الأبَرَّ ، وَسَوْطِي وسيفي على من ترك أمري ، وخالف عهدي ، فليُبْقِ امرؤ على نفسه ، الصدق يُنْبِئُ عنك لا الوعيد .

نزل فأخذ العُرَفَاءَ^(٣) والناس أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل ، فخرج ، دار المختار، حتى انتهى إلى دارهاني بن عُرْوَةَ المُرَادِيَّ لا تُدْأَبُهُ ، وَنَحَى خبره إلى زياد ، فبعث إلى هاني فجاءه ، فأمره أن يأتيه بمسلم ، فقال لا والله لا أجيئك أبداً ، أنا أجيئك بضيفي تقتله ! وطال بينهما اللجاج في ذلك ، فضربه ابن زياد ضييب ، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده ، حتى كسر أنفه ، وَسَيَّلَ الدماء

[١] الغشم : الظلم ، والمراد الشدة . [٢] الثغر : موضع الخفاة من فروج البلدان .

[٣] جمع عريف ، وهو رئيس القوم سمي لأنه عرف بذلك أو القريب وهو دون الرئيس .

على ثيابه ، وثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، ثم أمر بحبسه .

٢٤ - خطبة أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هانتاً وحبسه ، خَشِيَ أَنْ يَثِبَ النَّاسُ بِهِ ، فَخَرَجَ فَصَعِدَ الْمَنبَرَ وَمَعَهُ أَشْرَافُ النَّاسِ وَشُرَطُهُ وَحَشَمُهُ ، فَمَدَّ اللَّهُ وَأَمْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَمَا بَعْدَ ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَاعْتَصِمُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ أَمَّتِكُمْ ، وَلَا تَخْتَلِفُوا وَلَا تَفَرَّقُوا ، فَتَهْلِكُوا وَتَذَلُّوا وَتُقْتَلُوا ، وَتُجَفَّوْا وَتُحْرَمُوا ، إِنْ أَخَاكَ مِنْ صَدَقَكَ ، وَقَدْ أَعْذَرَ مِنْ أَنْذَرَ »

وبلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب هاني وحبسه ، فأمر أن ينادى في أصحابه وكان قد بايعه من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، وأقبل نحو القصر ، فتحرز فيه ابن زياد ، وغلق الأبواب ، وبعث إلى الأشراف فجمعهم إليه ، ثم قال : « أَشْرِفُوا عَلَى النَّاسِ ، فَمَنْ أَمَّنَ الطَّاعَةَ الزِّيَادَةَ وَالْكَرَامَةَ ، وَخَوْفُوا أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ الْحَرَمَانَ وَالْعُقُوبَةَ ، وَأَعْلَمُوهُمْ فُصُولَ ^(١) الْجُنُودِ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِمْ » .

٢٥ - خطبة كثير بن شهاب

فتكلم كثير بن شهاب أول الناس فقال :
« أَيُّهَا النَّاسُ : الْحَقُّوْا بِأَهَالِكُمْ ، وَلَا تَعَجَّلُوا الشَّرَّ ، وَلَا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْقَتْلِ فَإِنَّ هَذِهِ جُنُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ قَدْ أَقْبَلَتْ ، وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ الْأَمِيرُ عَهْدًا أَتَمَّتُمْ ^(٢) عَلَى حَرْبِهِ ، وَلَمْ تَنْصَرِفُوا مِنْ عَشِيَّتِكُمْ أَنْ يَحْرِمَ ذُرِّيَّتَكُمْ الْعَطَا وَيَفْرِقَ مُقَاتِلَتَكُمْ فِي مَغَازِي أَهْلِ الشَّامِ عَلَى غَيْرِ طَمَعٍ ، وَأَنْ يَأْخُذَ الْبِرَّ

[١] فصل من البلد فصولا خرج منه . [٢] يقال : تمت على الأمر ، أى استمرت عليه .

بالسقيم ، والشاهد بالنائب ، حتى لا يبقى له فيكم بقيةٌ من أهل المعصية إلا أذاقها وبالَ ما جرّت ^(١) أيديها .

وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا ، فلما سمع الناس مقاتلهم أخذوا يتفرقون وينصرفون عن ابن عقيل ، حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون نفساً ، فخرج متوجهاً نحو أبواب كيندة ، فبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان ، فمضى على وجهه في أزقة الكوفة ، حتى انتهى إلى باب عجوز فسألها أن تؤويه ، فأوته في دارها .

٢٦ — خطبة عبيد الله بن زياد

ولما انقضت جموع ابن عقيل ، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد ، وأمر فنودي : « أَلَا بَرَرْتُ الذمة من رجل صَلَّى العَتَمَةَ ^(٢) إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ » ، فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس ، فصلى بهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فَإِنَّ ابْنَ عَقِيلِ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ ، فَدَأَى مَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنَ الْخِلَافِ الشَّقَاقِ ، فَبَرَرْتُ ذِمَّةَ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ وَجَدَنَاهُ فِي دَارِهِ ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَلَهُ دِيَّتُهُ ، يَا اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ ، وَالْزَمُوا طَاعَتَكُمْ وَبِعْتَكُمْ ، وَلَا تَجْعَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ سَبِيلًا .

يَا حُصَيْنُ بْنُ نُمَيْرٍ ^(٣) ، تَكَلَّمْتُكَ ^(٤) أَمَّاكَ إِنْ صَاحَ ^(٥) بَابَ سِكَّةٍ مِنْ بَيْتِكَ الْكَوْفَةِ ، أَوْ خَرَجَ هَذَا الرَّجُلُ وَلَمْ تَأْتِنِي بِهِ ، وَقَدْ سَلَّطْتُكَ عَلَى دُورِ أَهْلِ

[١] حرّ جرة : اجترم جريمة . [٢] العتمة : وقت صلاة المشاء .

[٣] وكان على شرط ابن زياد . [٤] تكلم : فقه .

[٥] صاح به صوته فاصباح : أي شفه فاشق ، والمراد : فتح باب سكة ومهرب .

الكوفة ، فابتع مُرَاصِدَةً على أفواه السكك ، وَأَصْبَحَ غَدًا وَأَسْتَبِرَ^(١) الدُّورَ وَجُسْنَ خِلَالَهَا ، حتى تأتيني بهذا الرجل . ثم نزل .

وأصبح ابن تلك العجوز التي آوت مسلماً ، فدل على مكانه ، فبعث ابن زياد محمد بن الأشعث في ستين أو سبعين رجلاً فأتى به ، وأمر به ، فأصعد إلى أعلى القصر ، وضرب عنقه ، فهَوَى رأسه إلى الأرض ، وأُتبع جسده رأسه ، ثم أمر بهاني بن عروة ، فأخرج إلى السوق ، فضربت عنقه .

وكان مسلم حيث تحول إلى دار هاني ، كتب إلى الحسين : « إني قد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعَجَل الإقبال حين يأتيك كتابي ، فإن الناس كلهم معك ، ليس لهم في آل معاوية رأى ولا هوًى » .

فسار الحسين من مكة (في ٨ من ذي الحجة سنة ٦٠ هـ) متوجهاً إلى الكوفة ، وهو لا يعلم بحال مسلم .

خروج الحسين إلى الكوفة

٢٧ — نصيحة ابن عباس له

ولما أجمع الحسين بن عليّ رضي الله عنه المسير إلى الكوفة ، أتاه عبد ابن عباس ، فقال : « يا بْنَ عَمِّ إِنْكَ قَدْ أَرْجَفَ النَّاسَ أَنْكَ سَأَرْتَ إِلَى الْعِرَاقِ قَبِيْنٌ لِي مَا أَنْتَ صَانِعٌ ؟ » قال : « إني قد أجمعت المسير في أحد يومي ها إن شاء الله تعالى » ، فقال له ابن عباس : « فَإِنِّي أَعِيْذُكَ بِاللّٰهِ مِنْ ذَلِكَ ، أَخْبِرْنِي - رَحِمَ اللّٰهُ - أَتَسِيرُ إِلَى قَوْمٍ قَدْ قَتَلُوا أَمِيرَهُمْ ، وَصَبَطُوا بِلَادَهُمْ ، وَنَفَوْا عَدُوَّهُمْ ؟ فَإِنْ قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَسِرْ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَيْهِمْ ، وَأَمِيرُهُمْ عَلَيْهِمْ ، قَاهِرُهُمْ

وَعَمَّالُهُ تَجَنَّبِي بِإِلَادِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ ، وَلَا آمَنُ عَلَيْكَ أَنْ يَغْرُوكَ وَيَكْذِبُوكَ وَيُخَالَفُوكَ وَيَخْذُلُوكَ ، وَأَنْ يُسْتَنْفَرُوا إِلَيْكَ ، فَيَكُونُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَلَيْكَ » فَقَالَ لَهُ حُسَيْنٌ : « وَإِنِّي أَسْتَخِيرُ اللَّهَ وَأَنْظُرُ مَا يَكُونُ » .

فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَتَاهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ ، فَخَذَّتهُ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : « مَا أَدْرَى مَا تَرَكْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَكَفَّيْنَا عَنْهُمْ ، وَنَحْنُ أَبْنَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ، وَوُلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ دُونَهُمْ ، خَبَّرْنِي مَا تَرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ ؟ » فَقَالَ الْحُسَيْنُ : وَاللَّهِ لَقَدْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِإِتْيَانِ الْكُوفَةِ ، وَاقْدَ كُتُبِ إِلَيَّ شِيعَتِي بِهَا وَأَشْرَافُ أَهْلِهَا ، وَأَسْتَخِيرُ اللَّهَ » فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ : « أَمَا لَوْ كَانَ لِي بِهَا مِثْلُ شِيعَتِكَ مَا عَدَلْتُ بِهَا » ، ثُمَّ إِنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّبِعَهُ فَقَالَ : « أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَقَمْتَ بِالْحِجَازِ ، ثُمَّ أَرَدْتَ هَذَا الْأَمْرَ هَاهُنَا مَا خُوفَ عَلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ : « هَا ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْءٌ يُؤْتِنَاهُ مِنَ الدُّنْيَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ أَخْرَجَ مِنَ الْحِجَازِ إِلَى الْعِرَاقِ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ مَعِيَ شَيْءٌ ، وَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْدِلُوهُ ^(١) بِي ، فَوَدَّ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا لَتَخْلُوَ لَهُ » .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَشِيِّ أَوْ مِنَ الْغَدِ ، أَتَى الْحُسَيْنَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ ، فَقَالَ : « يَا بَنَ عَمِّ ، إِنِّي أَتَصَبَّرُ وَلَا أَصْبِرُ ، إِنِّي أَتَخَوَّفُ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الْوَجْهَةِ الْهَلَاكَ لِاسْتِئْصَالِ ، إِنْ أَهْلَ الْعِرَاقِ قَوْمٌ غُدُرٌ ^(٢) ، فَلَا تَقَرَّ بَنَّهُمْ ، أَقِمْ بِهَذَا الْبَلَدِ ، كَيْفَ سَيَدُ أَهْلَ الْحِجَازِ ، فَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْعِرَاقِ يَرِيدُونَكَ كَمَا زَعَمُوا ، فَارْتَبِطْ بِهِمْ فَلْيَنْقُضُوا عِدْوَهُمْ ، ثُمَّ اقْدَمْ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ أُيِّدَتْ إِلَّا أَنْ تَخْرُجَ ، فَسِرْ إِلَى الْيَمَنِ ، بِهَا حَصُونًا وَشِعَابًا ^(٣) ، وَهِيَ أَرْضٌ عَرِيضَةٌ طَوِيلَةٌ ، وَلَا يُبَالِي بِهَا شِيعَةٌ » ،

[١] أَي لَمْ يَسُووهُ . [٢] جَمْعُ غَدُورٍ كَهَبُورٍ .

[٣] النَّعْبُ بِالْكَسْرِ : الطَّرِيقُ فِي الْجُلِّ ، وَمَا فَرَجَ بَيْنَ جَبَلَيْنِ .

وأنت عن الناس في عزلة ، فكتب إلى الناس وترسل وتبث دُعَاتِكَ ، فَإِنِ
أرجو أن يأتيك عند ذلك ، الذي تحبُّ في عافية .

فقال له الحسين : « يابن عم ، إني والله لأعلم أنك ناصح مُشفق ، ولكني
قد أزمعت وأجمعت ^(١) على المسير » فقال له ابن عباس : « فَإِن كُنت سائرًا ،
فلا تَمِرْ بنسائك وصبيتك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قُتِلَ عثمان ، ونساؤه
وولده ينظرون إليه » ، ثم قال ابن عباس : « لقد أقررت عينَ ابن الزبير بتخليتك
إياه والحجاز ، والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك ^(٢) ، والله الذي
لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك ، إذا أخذت بشمرك وناصيتك حتى يجتمع على
وعليك الناس أطعنتي ، لفعلتُ ذلك » ثم خرج ابن عباس من عنده ، فرأى
بعبد الله بن الزبير ، فقال : قرأت عينك يابن الزبير ! ثم قال :

يَا لَكَ مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خَلَاكَ الْجَوْفِيُّ وَاصْفَرِي
وَنَقَرِي مَا شِئْتَ أَنْ تُنْقَرِي ^(٣)

هذا حسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

[١] يقال : أجمعت السفر ، وأجمعت عليه ، وأزمعت السفر ، وعليه ، عزمت عليه وثبت عليه هي

[٢] أي مع وجودك .

[٣] القبرة واحد القبر : ضرب من الطير ، ويقال القنبراء : بضم القاف والباء ، والجمع قنابر .
صاحب القاموس : ولا تقل قبرة (كقعدة) أي هي لينة ، وقال صاحب اللسان والصحاح : « وا
تقوله : القبرة وقد جاء ذلك في الرجز » ورويا شاهداً عليه أنشد أبو عبيدة ، والمعمر : المنزل الكثير
والكلأ ، وهو مثل وأول من فله طرفة بن العبد ، وذلك أنه كان مع عمه في سفر وهو صبي ،
على ماء ، فذهب طرفة بهذيع له ، فنصبه للقنابر وفي عامة يومه فلم يصمد شيئاً ، ثم حل ثغره ورج
عمه ، وتعملوا من ذلك المكان ، فرأى القنابر يلقطن ما تثره من الحب ، فقال ذلك ، يضرب في
يتكلم منها صاحبها .

٢٨ — نصيحة أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له

ودخل أبو بكر عمر بن الرحمن بن الحارث بن هشام ^(١) على الحسين رضى الله عنه ، فقال :

« يا بن عمِّ ، إن الرَّحِمَ يُظَاثِرُنِي ^(٢) عليك ، ولا أدري كيف أنا في النصيحة لك ، فقال يا أبا بكر : ما أنت مِمَّنْ يُسْتَغَشَّ ، فقال أبو بكر :

« كَانَ أبوك أَشَدَّ بَأْسًا ، والناس له أَرْجَى ، ومنهُ أَشْمَعُ ، وعليه أَجْمَع ، فسار إلى معاوية ، والناس مجتمعون عليه - إلا أهلَ الشَّامِ - وهو أَعَزُّ منه ، فخذلوه وتثاقلوا عنه حرصًا على الدنيا وَضِنًا بها ، فجرَّعوه الغيظ وخالفوه ، حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ، وقد شَهِدْتُ ذلك كله ورأيتُهُ ، ثم أنت تريد أن تسير إلى الذين عَدَّوا على أبيك وأخيك ، تقاتل بهم أهل الشَّامِ وأهل العراق ، ومن هو أَعَدُّ منك وأقوى ، الناس منه أَخَوْف ، وله أَرْجَى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطفوا الناس موال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من . أَلَمْ يَأْتِ إِلَيْهِ مِمَّنْ يَنْصُرُهُ ، فَاذْكُرِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ » .

١ . ابن عمِّ ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض

١ . عمر بن مخزوم القرشي .

٢ . وأظأرنى وظأأرنى .

٢٩ - خطبة للحسين رضى الله عنه

ولما بلغ عبيد الله بن زياد أمير الكوفة إقبال الحسين بعث الحُصَيْن ابن مُنَمَّر النُمَيْمى ، فأمره أن ينزل القادسية ، وأن يضع المَسَاحَ (١) ، وقدم الحرَّ ابن يزيد التميمي بين يديه ، فى ألف فارس من القادسية ، فيستقبل حسيناً ، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُسَم ، ونزل به ، فسار إليه الحرُّ حتى وقف هو وخيله مُقابله فى حر الظَّهيرة ، وحضرت صلاة الظهر ، فخرج الحسين ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : إنها مَعدرةٌ إلى الله عز وجل وإليكم : إني لم آتِكم حتى أتتني كتبكم ، وقَدِمَت على رُسُلكم أنِ اقْدَم علينا ، فإنه ليس لنا إمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى . فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم ، فإن تُعطوني ما أطمئنُ إليه من عهودكم وموائيقكم أَفْدَمَ مِشْرَكَم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لَمَقْدَمى كارهين ، انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه إليكم » فسكتوا عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فقال الحسين للحر : أتريد أن تصلى بأصحابك ؟ قال : لا بل تصلى أنت ونصلى بصلاتك ، فصلى بهم الحسين .

٣٠ - خطبة أخرى له

فلما كَانَ وقت العصر ، أمر ١١

مناديه ، فنادى بالعص

وأثنى عليه ، ثم قال

[١] المساح جمع مس

« أما بعد : أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله ، يكن أَرْضَى
 اللهُ ، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس
 لهم ، والساثرين فيكم بالجورِ والمُعدوان ، وإن أنتم كَرِهْتُمونا وجهَلْتُم حَقّا ، وَكَانَ
 رأيكم غيرَ ما أَتْنِي كَتَبُكُمْ ، وَقَدِمْتُ بِهِ عَلَى رَسَلِكُمْ انصرفت عنكم » .
 فقال له الحر : إنا والله ما ندري ما هذه الكتب التي تذكر ؟ فأخرج له
 الحسين خُرُجَيْن مملوئين مُصْحَفًا ، فنشرها بين أيديهم ، ثم سار الحسين في أصحابه
 والحرُّ يسايره .

٣١ - خطبة أخرى له

وقام الحسين رضي الله عنه بذى حُسْم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
 « إنه قد نزل من الأمر ما قد تَرَوْنَ ، وإن الدنيا قد تَغَيَّرَتْ وتَنَكَّرَتْ ،
 وأَذْبَرَ معروفها ، واستمرَّت^(١) جدًّا ، فلم يبق منها إلا صُبابَةٌ كصُبابَةِ الإِنَاءِ ،
 وخسيسٌ عيشٍ كالمرعى الوَيْيل ، ألا تَرَوْنَ أن الحق لا يُعْمَلُ بِهِ ، وَأَنَّ الباطل
 لا يُتْنَاهَى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحِقًّا ، فَإِنِّي لَا أَرَى الموت إلا شهادة ،
 ولا الحياة مع الظالمين إلا بَرَمًا^(٢) » .

٣٢ - خطبة زهير بن القين البجلي

فقام زُهَيْرُ بْنُ الْقَيْنِ الْبَجَلِيُّ ، فقال لأصحابه : تَكَلَّمُونَ أَمْ أَتَكَلَّمُ ؟ قالوا : لا ،
 ن تَكَلَّمْ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] في كتب اللغة : « مرّ الشيء يمرّ بضم الميم وفتحها مرارة وأمر » ولم أر فيها بناء « استمر »
 لما منع منه على أن الهززة والسين والتاء للصيرورة أي صارت مرّة ، ونظيره استعجر الطين ، واستحصن
 ر (صار حصاناً) واستعرب القوم ، وفي الأمثال : « إِنَّ الْبَغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ » « كَانَ صَرًّا
 سَتْنِيس » « قَدْ اسْتَنَوَقَ الْجَمَلُ » . [٢] البرم : السامة والضجر برم به كفرح .

« قد سمعنا (هداك الله) يابن رسول الله مقاتلك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مُخَلَّدِينَ ، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها » فدعا له الحسين ، ثم قال له خيراً .

٣٣ — خطبة للحسين أيضاً

وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطاناً جائراً مُستجِلاًً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يُغَيِّرْ عليه بفعل ولا قول ، كَانَ حقاً على الله أن يَدْخِلْهُ مُدْخَلَهُ » . ألا وإن هؤلاء قد لَزِمُوا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا أحق من غير ، وقد أتتني كتبكم وقدمت عليّ رسلكم يبيعكم ، أنكم لا تُسَامُونِي ^(١) ولا تَخْذَلُونِي ، فَإِنْ تَمَمْتُمْ على بيعكم تُصِيبُوا رُشْدَكُمْ ، وأنا الحسين بن عليّ ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلكم في أسوة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتي من أعناقكم ، فلعمرى ما هي لكم بُكْر ^(٢) ، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، والمغرور من اغترّبكم فخطبكم أخطائكم ، ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغفر الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

[١] أسلمه : خذله . [٢] النكر بضم وبضمتين : المنكر .

٣٤ — خطبته ليلة قتله

وسير إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، فعدل الحسين إلى كربلاء ، وكانت بينهما مقابلات غير مُجَدِّية ^(١) ، فنهض عمر إليه عشية الخميس (٩ من المحرم سنة ٦١ هـ) فجمع الحسين أصحابه عند قرب المساء فقال :

« أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمدُه على السَّراء والضَّراء ، اللهم إني أحمدُك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن ، وفقَّهتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين ، أما بعد : فإنني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيتٍ أبرّ ولا أوصلَ من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ، ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، ألا وإني قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ، ليس عليكم مني ذمام ، هذا الليلُ قد غَشِيكم فاتخذوه جملاً ، ثم ليأخذُ كل رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرِّج الله ، فإن القوم إنما لبونني ، ولو قد أصابوني لهُوا عن طلب غيري »

[١] التقي عمر بن سعد والحسين مراراً ثلاثاً أو أربعاً ، وكتب عمر بعدها إلى عبيد الله بن زياد : أما بعد : فإن الله قد أطفأ النائرة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر هذه الأمة ، هذا حين قد أعطاني أن أجمع إلى المكان الذي منه أتى ، أو أن أسيره إلى أي ثمر من ثغور المسلمين شئاً ، فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فيها بينه وبينه رأيه ، هذا لكم رضا وللأمة صلاح . فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأمره وفق على قومه نعم قد قبلت ، ولكن شمر بن ذي الجوشن ثناء عن القبول ، فكتب إلى عمر بن سعد تائباً يقول فيه : « أما بعد ، فإنني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتنيه السلامة قاء ، ولا لتعده له عندى شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابست بهم إلى لما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوط بل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم » .

٣٥ رد أهل بيته عليه

فقال له أهل بيته : « لِمَ نَفْعَلُ ؟ لِنَبْقَى بِعَدِكَ ؟ لَا أَرَانَا اللَّهَ ذَلِكَ أَبَدًا »
فقال الحسين : « يَا بَنِي عَقِيلِ حَسْبُكُمْ مِنَ الْقَتْلِ بِعَسَلٍ ، اذْهَبُوا قَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ »
قالوا : « فَمَا يَقُولُ النَّاسُ ؟ يَقُولُونَ إِنَّا تَرَكْنَا شَيْخَنَا وَسَيِّدَنَا وَبَنِي عَمُومَتِنَا خَيْرَ
الْأَعْمَامِ ، وَلَمْ نَزِمَ مَعَهُمْ بِسَهْمٍ ، وَلَمْ نَطْعُنْ مَعَهُمْ بِرُمَحٍ ، وَلَمْ نَضْرِبْ مَعَهُمْ
بِسَيْفٍ ، وَلَا نَدْرِي مَا صَنَعُوا ، لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ ، وَلَكِنْ تَقْدِيكَ أَنْفُسَنَا وَأَمْوَالَنَا
وَأَهْلُونَا ، وَنُقَاتِلُ مَعَكَ حَتَّى نَرِدَ مَوْرِدَكَ ، فَقَبِّحَ اللَّهُ الْعَيْشَ بِعَدِكَ . »

٣٦ — رد أصحابه

وقام إليه مسلم بن عَوْسَجَةَ الْأَسَدِي فَقَالَ :
« أَنْحَنُ نُخَلِّي عَنْكَ وَلَمَّا تُعْذِرْ إِلَى اللَّهِ فِي أَدَاءِ حَقِّكَ ؟ أَمَّا وَاللَّهِ حَتَّى أَكْسِرَ
فِي صَدُورِهِمْ رَمْحِي ، وَأَضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا تَبَّتْ قَائِمُهُ فِي يَدِي ، وَلَا أَفَارِقُكَ ، وَلَوْ لَمْ
يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ أَقَاتَلَهُمْ بِهِ ، لَقَذَفْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَمُوتَ مَعَكَ . »
وَقَالَ سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَنْفِيُّ : « وَاللَّهِ لَا تُخَلِّيكَ حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّنَا
حَفِظْنَا غَيْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكَ ، وَاللَّهُ لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي أُقْتَلُ ، لَمْ
أَحْيَا ، ثُمَّ أُحْرَقُ حَيًّا ، ثُمَّ أُذَرَّ ، يُفْعَلُ ذَلِكَ بِي سَبْعِينَ مَرَّةً ، مَا فَارَقْتُكَ حَتَّى أَلَوَّ
حِمَامِي دُونَكَ ، فَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ قَتْلَةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ هِيَ الْكِرَامُ
الَّتِي لَا انْقِضَاءَ لَهَا أَبَدًا . »

وَقَالَ زَهْرِبْنُ الْقَيْنِ : « وَاللَّهِ لَوْ دِدْتُ أَنِّي قُتِلْتُ ، ثُمَّ نُشِرْتُ ^(١) ، ثُمَّ قُتِلْتُ

حتى أقتل كذا ألف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتلَ عن نفسك ، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك .

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يُشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : « والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الغداء ، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُتلنا كنّا وفينا ، وقضينا ما علينا » .

٣٧ — خطبته غداة يوم قتله

« وخطب الحسين غداة اليوم الذي أَسْتُشْهِدَ فيه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا عبادَ الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حَذَرٍ ، فإن الدنيا لو بَقِيَتْ على أحد ، أو بقي عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء ، وأولى بالرضا ، وأَرْضَى بالقضاء ، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء ، فجديدها بالٍ ، ونعيمها مُضْمَحِلٌّ ، وسرورها مكفهرٌ ، والمنزل تَلْعَةٌ ^(١) ، والدار قُلْعَةٌ ^(٢) ، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

٣٨ — دعاؤه وقد صبحته الخيل

ولما صَبَّحَتْهُ الخيل رفع يديه فقال :

« اللهم أنت تُثَقِّي في كل كرب ، ورجائي في كل شِدَّةٍ ، وأنت لى في كل أمرٍ نزل بي ثِقَةٌ وَعُدَّةٌ ، كم مِنْ هَمٍّ يَضْعُفُ فيه الفؤاد ، وتَقِلُّ فيه الحيلةُ ،

[١] التلعة : مجرى الماء من أعلى الوادى الى بطون الأرض ، والذلول بالتلعة محوف ، لأن من نزلها فهو على خطر ان جاء السيل جرفه . [٢] الدنيا دار قلعَة أى اقلاع ، وهو على قلعَة أى رحلة ، وما نزلنا منزل قلعَة أى ليس بمستوطن ، أو لا نملكه أو لا ندرى متى تتحول عنه .

وَيَخْذُلُ فِيهِ الصَّدِيقُ ، وَيَشْمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ ، أُنْزِلَتْهُ بِكَ ، وَشَكَوَتْهُ إِلَيْكَ ، رَغْبَةً
مَنْى إِلَيْكَ عَمَّنْ سِوَاكَ ، فَفَرَّجَتْهُ وَكَشَفَتْهُ ، فَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَصَاحِبُ
كُلِّ حَسَنَةٍ ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ .

٣٩ — خُطْبَتُهُ وَقَدْ دَنَا مِنْهُ الْقَوْمُ

ولما دنا منه القوم دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته :

« أَيُّهَا النَّاسُ : اسْمَعُوا قَوْلِي ، وَلَا تُعْجِلُونِي حَتَّى أُعْظِمَ كُمْ ، بِمَا لِحَقَّ لَكُمْ
عَلَيَّ ، وَحَتَّى أَعْتَذَرَ إِلَيْكُمْ مِنْ مَقْدَمِي عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ عَذْرِي ، وَصَدَّقْتُمْ قَوْلِي ،
وَأَعْطَيْتُمُونِي النِّصْفَ ، كُنْتُمْ بِذَلِكَ أَسْعَدَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلَيَّ سَبِيلٌ ، وَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا
مَنْى الْعَذْرَ ، وَلَمْ تَعْطُوا النِّصْفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ . فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ
لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ، إِنْ وَلَّيْتُ اللَّهُ
الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

فلما سمع أَخَوَاتُهُ كَلَامَهُ هَذَا صَحْنُ وَبَكِينَ وَبَكَى بَنَاتُهُ ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُنَّ ،
فَأَرْسَلَ إِلَيْهِنَّ أَخَاهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيٍّ وَعَلِيًّا ابْنَهُ ، وَقَالَ لهُمَا : أَسْكِتَاهُنَّ ، فَلَعَمْرِي
لَيَكْثُرَنَّ بَكَاءُهُنَّ .

٤٠ — خُطْبَةٌ أُخْرَى

فلما سَكَنَ حَمْدُ اللَّهِ وَأَمْنَى عَلَيْهِ ، وَذَكَرَ اللَّهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَّا بَعْدُ : فَانْصَبُونِي فَانْظُرُوا مَنْ أَنَا ؟ ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَاتِبُوا هَا ،
فَانْظُرُوا هَلْ يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي ، وَاتَّهَاكُمُ حُرْمَتِي ؟ أَلَسْتُ ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَابْنُ وَصِيَّهِ وَابْنُ عَمِّهِ ! وَأَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ، وَالْمُصَدِّقِ لِرَسُولِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ أَوَلَيْسَ حِمْرُهُ سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ عَمَّ أَبِي ؟ أَوَلَيْسَ جَعْفَرُ الشَّهِيدِ الطَّيَّارِ ذُو الْجَنَاحَيْنِ عَمِّي ؟ أَوَلَمْ يَبْلُغْكُمْ قَوْلُ مُسْتَفِيضٍ فِيكُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِي وَلِأَخِي : هَذَانِ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ فَإِنْ صَدَقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ - وَهُوَ الْحَقُّ - وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدَتْ كَذِبًا مَذْعَمَتِ أَنْ اللَّهَ يَمُوتَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ ، وَيَضُرُّ بِهِ مَنْ اخْتَلَقَهُ ، وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي فَإِنْ فِيكُمْ مَنْ إِنْ سَأَلْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ أَخْبَرَكُمْ : سَلُّوا جَابِرَ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ ، أَوْ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ، أَوْ سَهْلَ بْنَ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ ، أَوْ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ ، أَوْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ، يَخْبِرُوكُمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِي وَلِأَخِي ، أَفَمَا فِي هَذَا حَاجَزٌ لَكُمْ عَنْ سَفْكَ دَمِي ؟ »

ثُمَّ قَالَ : « فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ ، أَفْتَشْكُونُ أَثْرًا ^(١) مَا أَنِّي ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ابْنُ بِنْتِ نَبِيٍّ غَيْرِي مِنْكُمْ ، وَلَا مِنْ غَيْرِكُمْ ، أَنَا ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ خَاصَّةً ، أَخْبَرُونِي أَتَطْلُبُونَنِي بِقَتِيلٍ مِنْكُمْ قَتَلْتَهُ ! أَوْ مَالٍ لَكُمْ اسْتَهْلَكْتَهُ ؟ أَوْ بِقِصَاصٍ مِنْ جِرَاحَةٍ ؟ »

فَأَخَذُوا لَا يَكْأَمُونَهُ ، فَنَادَى يَاشَبَّثُ بْنُ رَبِيعٍ ، وَيَا حِجَّارُ بْنُ أَبِي جَرٍّ ، وَيَا فَيْسَ ابْنَ الْأَشْعَثِ ، وَيَا زَيْدُ بْنُ الْحَارِثِ ، أَلَمْ تَكْتُبُوا إِلَيَّ أَنْ قَدْ أَيْنَعَتِ الثَّمَارُ ، وَأَخْضَرَ الْجَنَابُ ، وَطَمَّتِ الْجِمَامُ ، وَإِنَّمَا تَقْدَمُ عَلَى جَنْدَلِكِ مَجْنُونًا ، فَأَقْبِلْ ؟ قَالُوا لَمْ نَفْعَلْ ، فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! بَلَى ، وَاللَّهِ لَقَدْ فَعَلْتُمْ ، ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ : إِذْ كَرِهْتُمُونِي فَدَعُونِي أَنْصَرِفَ عَنْكُمْ إِلَى مَا أَمَنِي مِنَ الْأَرْضِ » . فَقَالَ لَهُ قَيْسُ بْنُ الْأَشْعَثِ :

[١] أَثْرًا مَنْصُوبٌ عَلَى نَزْعِ الْحَاضِرِ ، أَيْ أَفْتَشْكُونُ فِي أَثَرٍ ، وَمَا زَائِدَةٌ ، وَأَيُّ ابْنِ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ بَدَلٌ مِنْ أَثَرٍ .

أَوَلَا تنزل على حكم بنى عمك ؟ فإنهم لن يُرؤك إلا ما تحبُّ ، ولن يصل إليك منهم مكروه ، فقال له الحسين : « أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم يدي إعطاء الذليل ، ولا أقرّ إقرار العبيد ، عباد الله ، إني عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرَجُمُونِ ، أَعُوذُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ » ، فأقبلوا يزحفون نحوه .

٤١ — خطبة زهير بن القين

فلما زحفوا قبّله خرج إليهم زهير بن القين على فرس له ذنوب ^(١) شاكٍ ^(٢) في السلاح فقال :

« يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، نَذَارٍ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ نَذَارٍ ، إِنَّ حَقّاً عَلَى الْمُسْلِمِ نَصِيحَةُ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ ، وَنَحْنُ حَتَّى الْآنَ إِخْوَةٌ ، وَعَلَى دِينٍ وَاحِدٍ ، وَمِلَّةٍ وَاحِدَةٍ ، مَا مَ يَقَعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ السَّيْفُ ، وَأَنْتُمْ لِلنَّصِيحَةِ مِنْ أَهْلِ ، فَإِذَا وَقَعَ السَّيْفُ انْقَطَعَتِ الْعِصْمَةُ ^(٣) ، وَكُنَّا أُمَّةً وَأَنْتُمْ أُمَّةٌ ، إِنْ اللَّهُ قَدْ ابْتَلَانَا وَإِيَّاكُمْ بِذَرِيَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِيَنْظُرَ مَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَامِلُونَ ، إِنْ أَنْتُمْ تَدْعُونَا إِلَى نَصْرِهِمْ ، وَخِذْلَانِ الطَّائِفَةِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، فَإِنَّكُمْ لَا تُدْرِكُونَ مِنْهُمْ إِلَّا بِسُوءٍ ، تُحْمَرُ سُلْطَانُهُمَا كُلُّهُ ، لَيْسَ مُلَانٍ ^(٤)

[١] الذنوب : الفرس الوافر الذنب . [٢] يقال رجل شاكٍ السلاح وشاكٍ في السلاح (بتشديد الكاف فيهما) وهو اللابس السلاح التام ، من شكَّ في السلاح أى دخل ، شكَّ فيه (كرد) شكاً أى لبسه تماماً لم يدع منه شيئاً ، ويقال : رجل شاكٍ السلاح ، وشاكٍ السلاح ، وشاكٍ في السلاح (كراض) وهو ذو الشوكة والحد في سلاحه ، والشاك : من شكَّ الرجل يشاك شوكاً (كلام نوياً) أى ظهرت شوكته وحدته — والشوكة : حدة السلاح — والشاكى مقلوب من شاكٍ ، ويقال أيضاً رجل شاكٍ ، السلاح (بضم الكاف) فإن أردت معنى فاعل قلت شاكٍ (كراض) وإن أردت معنى فعل (كفرح) قلت شاكٍ (بضم الكاف) وهو مثل حرف هار (كراض) وهار (كنار) كما يقال رجل إمال وذل (بالضم) من المال والنوال واعما هو مائل ونائل . [٣] العِصْمَةُ : الفلادة ، أى تفرّيت وحدتها ، وانقرط عقد جماعتنا . [٤] سمل عينه : فقأها بمحديدة محمّاة .

أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ، وَيُمَثِّلَانِ بكم ، ويرفعانكم على جذوع النخل ،
ويقتلان أمثالكم وقُرَّاءكم ، أمثال حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ ^(١) وأصحابه ، وهانئ بن عروة
وأشباهه .

فسبَّوه ، وأثنوا على عبيد الله بن زياد ، ودعوا له ، وقالوا : والله لا نبرح حتى
نقتلَ صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سِلَماً .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحقُّ بالود والنصر
من ابنِ سُمَيَّة ، فإن لم تنصروهم ، فأُعِذْكم بالله أن تقتلوهم ، نخلوا بين هذا الرجل
وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلعمري إن يزيدَ آيرُضَى من طاعتكم بدون
قتل الحسين . »

فرماه شمر بن ذى الجَوْشَنَ بسهم وقال : « اسكت أسكت الله نَأْمَتَكَ ^(٢) ،
أبرمتنا بكثرة كلامك » فقال له زهير : « يا ابن البَوَّال على غُقبِيه ، ما إياك
أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحْكِمُ من كتاب الله آيتين ، فأبشِر
بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم » فقال له شمر : « إن الله قاتلك وصاحبك

[١] هو حجر بن عدى بن جيلة الكندي من كبراء الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما
جمعت له الكوفة والبصرة بلعه أن حجراً يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى
معاوية في أمره ، فكتب إليه معاوية أن شدة في الحديد ثم أحمله إلى ، فشده في الحديد وحمل إلى معاوية ،
وأشهد عليه شهوداً أنه خلع الطاعة ، وفارق الجماعة ، ولعن الخليفة ، ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجع إليه
الجنوع يدعو إلى نكث البيعة وخلع معاوية ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ، وحمل
معه كبار أصحابه ، فكانوا أربعة عشر رجلاً ، فلما قدموا على معاوية شفع في بعضهم ثلثي سبيلهم ، وقال
رسول معاوية للباقيين : إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من عليٍّ له ، فإن دعيتم تركناكم ، وإن أبيتم
قتلناكم ، فارتدوا من هذا الرجل نخل سبيلكم ، فأبوا وقالوا بل تتولاه وتبرأ من تبرأ منه ، فقتلوا وقتل
حجر وستة معه ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ . [٢] الأمانة : الصوت

عن ساعة » قال : « أفبالموت تخوِّفني ؟ فوالله أَلَمَوْتُ معه أحبُّ إليَّ من الخلد معكم » .

ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال : « عباد الله ، لا يَغُرُّنكم مِن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهُهُ ، فوالله لا تنال شفاعَةُ محمد صلى الله عليه وسلم قومًا هَرَأَوْا دماء ذرِّيَّته وأهل بيته ، وقَتَلُوا من نصرهم ، وذَبَّ عن حريمهم » .
فناداه رجل فقال له : « إن أبا عبد الله يقول : « أَقْبِلْ ، فلمعمرى لئن كَانَ مؤثْمَن آل فرعون نصَّح لقومه ، وأبلغ في الدعاء ، لقد نصَّحت لهؤلاء وأبلغت لو تقع النصَّح والإبلاغ » .

٤٢ — خطبة الحرِّ بن يزيد

ولما زحف عمر بن سعد قال له الحرُّ بن يزيد : « أصلحك الله : مقاتلٌ أنت هذا الرجل ؟ » قال : « إِي والله قتالا أيسرُهُ أن تسقط الرءوس ، وتطيح الأيدي » قال : « أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا ؟ » قال عمر : « أما والله لو كان الأمر إلىَّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك » .
ثم ضرب الحر فرسه ، ولحق بالحسين عليه السلام وانحاز إليه ، واستقدم أمام أصحابه ثم قال :

« أيها القوم : ألا تقبلون من حسين خَصْلَةً من هذه الخصال التي عرض عليكم ، فيعافيتكم الله من حربه وقتاله ؟ قالوا : هذا الأمير عمر بن سعد فكألمه فكألمه بمثل ما كُلم به من قبل ، وبمثل ما كُلم به أصحابه » فقال عمر : « قد حَرِصت لو وجدت إلى ذلك سبيلاً ففعلت » .

فقال : « يَـأْهْل الكوفة : لِأَمَّكُم الهَبْلُ وَالْعَبْرُ ^(١) إِذْ دَعَوْتُمُوهُ ، حَتَّى إِذَا أَنَاكُمْ أَسْلَمْتُمُوهُ ^(٢) ، وَزَعَمْتُمْ أَنَكُمْ قَاتَلُوا أَنْفُسَكُمْ دُونَهُ ، ثُمَّ عَدَوْتُمْ عَلَيْهِ لَتَقْتُلُوهُ ، أَمْسَكْتُمْ بِنَفْسِهِ ، وَأَخَذْتُمْ بِكَظْمِهِ ^(٣) ، وَأَحْطَطْتُمْ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَنَعَمْتُمُوهُ التَّوَجُّهَ فِي بِلَادِ اللَّهِ الْعَرِيضَةِ ، حَتَّى يَأْمَنَ وَيَأْمَنَ أَهْلُ بَيْتِهِ ، وَأَصْبَحَ فِي أَيْدِيكُمْ كَالْأَسِيرِ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ، وَلَا يَدْفَعُ ضَرًّا ، وَحَلَّائِمُوهُ ^(٤) وَنَسَاءَهُ وَأَصَيْبَتِيهِ ^(٥) وَأَصْحَابُهُ عَنْ مَاءِ الْفَرَاتِ الْجَارِي ، الَّذِي يَشْرَبُهُ الْيَهُودِيُّ وَالْمَجُوسِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ ، وَتَمَرَّغُ فِيهِ خَنَازِيرُ السَّوَادِ وَكَلَابُهُ ، وَهَامُّ قَدْ صَرَعَهُمُ الْعَطَشُ ، بَثْسًا خَلَفْتُمْ مُحَمَّدًا فِي ذَرِيَّتِهِ ، لَا أَسْقَاكُمْ اللَّهُ يَوْمَ الظَّمَا إِنْ لَمْ تَتُوبُوا ، وَتَنْزِعُوا عَمَّا أَنتُمْ عَلَيْهِ ، مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي سَاعَتِكُمْ هَذِهِ . »

ثُمَّ نَشِبَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَاسْتَمَاتَ أَصْحَابُ الْحُسَيْنِ فِي الْقِتَالِ ، حَتَّى فَنُوا ، وَقَتَلَ الْحُسَيْنَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، قَتَلَهُ سِنَانُ بْنُ أَنَسٍ (وَكَانَ قَتَلَهُ بِالطُّفِّ ^(٦) يَوْمَ عَاشُورَاءَ سَنَةِ ٦١ هـ) وَأَمْرُ ابْنِ سَعْدٍ أَصْحَابَهُ أَنْ يُوْطِئُوا خِيْلَهُمُ الْحُسَيْنِ ، فَوْطِئُوهُ بِخِيْلِهِمْ ، ثُمَّ حَمَلَ النِّسَاءَ وَرَأْسَهُ إِلَى يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ بِدِمَشْقٍ .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٨ الى ٢٧٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٨٦ ، وزهر الآداب ١ : ٧١)

[١] الهبل : الشكل ، هبلته أمه كفرح ثكلته وفقدته ، والبر والعبر (كسب وقفل) سحنة في العين نيكها ، عبرت العين كفرح حرى دمعا ، يقال لأمه الهبل ، ولأمه العبر ، والعبر : دعاء عليه .
[٢] خذلنوه . [٣] الكظم : مخرج النفس . [٤] حلاه عن الماء تحليثاً وتحفة طرده ومعه .
[٥] مصعر صبية على غير قياس . [٦] الطف : أرض بن صاحبة الكوفة في طريق البرية ، وقال عبد الله بن الأحرر من قصيدة :

فأضحى «حسين» لارماح دريئة وقودر مسلوباً لدى الطف ثاويا
دياليتي إذ ذاك كنت شهيدته مصاربت عنه الشائين الأعاديا
سقى الله قبراً ضمن المجد والنقي بعريسة الداب الغمام الغواديا

طلب التوايين بدم الحسين رضى الله عنه

وفى سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة واتعدوا الاجتماع بالنخيلة للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن عليّ رضى الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مقتله تلاقوا بالتلاؤم والتندثم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأ كبيراً بدعائهم إياه إلى النصرة وتركهم إجابته ، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُغسل عارهم والإثمُ عنهم فى مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه وتابوا مما فرط منهم فى ذلك ، « فسمّوا التوايين » وفزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رموس الشيعة : إلى سليمان بن صرد الخزاعى - وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم - وإلى المسيب بن نجبة الفرارى ، وإلى عبد الله بن سعد بن نقيّل الأزديّ ، وإلى عبد الله بن والٍ التميميّ ، وإلى رفاعة بن شداد البجليّ ، ثم إن هؤلاء نفر اجتمعوا فى منزل سليمان بن صرد ، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم ، فبدأ المسيب بن نجبة بالكلام فتكلم :

٤٣ - خطبة المسيب بن نجبة الفرارى

حميد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد ، فإننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فترغبُ إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غداً : « أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ التَّذِيرُ » فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مغرّمين بتزكية أنفسنا ، وتقرّيط شيعتنا ، حتى بلا الله أختيارنا ، فوجدنا كاذبين فى موطين من مواطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبته ،

وَقَدِمْتُ عَلَيْنَا رَسَلَهُ ، وَأَعَذَرْنَا إِلَيْنَا نَصْرَهُ ، عَوْدًا وَبَدْءًا ، وَعِلَانِيَةً وَسِرًّا ، فَبَخِلْنَا عَنْهُ بِأَنْفُسِنَا ، حَتَّى قُتِلَ إِلَى جَانِبِنَا ، لَا نَحْنُ نَصْرُنَاهُ بِأَيْدِينَا ، وَلَا جَادُنَا عَنْهُ بِأَلْسِنَتِنَا ، وَلَا قَوَّيْنَاهُ بِأَمْوَالِنَا ، وَلَا طَلَبْنَا لَهُ النُّصْرَةَ إِلَى عَشَائِرِنَا ، فَمَا عُذْرُنَا إِلَى رَبِّنَا ، وَعِنْدَ لِقَاءِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَقَدْ قُتِلَ فِينَا وَلَدُهُ وَحَبِيبُهُ وَذَرِيَّتُهُ وَنَسْلُهُ ، لَا وَاللَّهِ لَا عُذْرَ دُونَ أَنْ تَقْتُلُوا قَاتِلَهُ وَالْمُؤَالِينَ عَلَيْهِ ، أَوْ تُقْتَلُوا فِي طَلَبِ ذَلِكَ ، فَعَسَى رَبَّنَا أَنْ يَرْضَى عَنَّا ذَلِكَ ، وَمَا أَنَا بَعْدَ لِقَائِهِ لِعَقُوبَتِهِ بِآمِنٍ ، أَيُّهَا الْقَوْمُ وَلُّوْا عَلَيْكُمْ رِجَالًا مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَدَّ لَكُمْ مِنْ أَمِيرٍ تَفَزَّعُونَ إِلَيْهِ ، وَرَايَةَ تَحْفُوفٍ بِهَا ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

فَبَدَرَ^(١) الْقَوْمَ رِفَاعَةُ بْنُ شَدَّادٍ بَعْدَ الْمَسِيبِ الْكَلَامَ .

٤٤ - خطبة رفاعه بن شداد

فَحَمْدُ اللَّهِ وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ هَدَاكَ لِأَصْوَابِ الْقَوْلِ ، وَدَعَوْتَ إِلَى أَرْشَادِ الْأُمُورِ ، بَدَأْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَعَوْتَ إِلَى جِهَادِ الْفَاسِقِينَ ، وَإِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ ، فَسَمِعْتُ مِنْكَ ، مُسْتَجَابٌ لَكَ ، مُقْبُولٌ قَوْلُكَ ، قُلْتَ وَلُّوْا أَمْرَكُمْ رِجَالًا مِنْكُمْ تَفَزَّعُونَ إِلَيْهِ ، وَتَحْفُوفٌ بِرَايَتِهِ ، وَذَلِكَ رَأْيٌ ، قَدْ رَأَيْنَا مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتَ ، فَإِنْ تَكُنْ أَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ تَكُنْ عِنْدَنَا مَرَضِيًّا ، وَفِينَا مُتَنَصِّحًا ، وَفِي جَمَاعَتِنَا مُحِبًّا ، وَإِنْ رَأَيْتَ (وَرَأَى أَصْحَابُنَا ذَلِكَ) وَلَيْنَا هَذَا الْأَمْرُ شَيْخَ الشَّيْعَةِ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَا السَّابِقَةِ وَالْقَدَمِ سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ ، الْمَحْمُودَ فِي بَأْسِهِ وَدِينِهِ ، وَالْمَوْثُوقَ بِحُزْمِهِ ،

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

ثم تكلم عبد الله بن وائل ، وعبد الله بن سعد ، فحمدا ربهما وأثنيا عليه ،
وتكلاما بنحو من كلام رفاعه بن شداد ، فذكرا المسيب بن نجبة بفضله ، وذكرا
سليمان بن سرد بسابقتهم ورضاها بتوليته ، فقال المسيب بن نجبة : « أصبتم
ووفقتم ، وأنا أرى مثل الذي رأيتم ، فولوا أمركم سليمان بن سرد » .

٤٥ — خطبة سليمان بن سرد

قال حميد بن مسلم : والله إني لشاهد بهذا اليوم يوم ولوا سليمان بن سرد^(١)
وإنا يومئذ لأكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم في داره ، قال
فتكلم سليمان فشدد ، وما زال يردد ذلك القول في كل جمعة حتى حفظته ،
بدأ فقال :

« أثنى على الله خيراً ، وأحمد آلاءه وبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ،
وأن محمداً رسول الله ، أما بعد : فإني والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا
الدهر (الذي تكبدت فيه المعيشة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجور
أولى الفضل من هذه الشيعة) لما هو خير ، إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل
نبينا ، ونتمنيهم النصر ، ونحتمهم على القدوم ، فلما قدموا ونيدنا وعجزنا وأذهنا
وتربصنا ، وانتظرنا ما يكون حتى قتل فينا ولدنا ، ولد نبينا وسلالته وعصارتها
وبضعة^(٢) من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ ويسأل النصف^(٣) فلا يعطاه ،
اتخذ الفاسقون غرضاً للثبيل ، ودريئة^(٤) للرماح ، حتى أقصدوه^(٥) ، وعدوا

[١] وقد سمي أمير النوايين . [٢] البضعة بالفتح وقد تكرر : القطعة من اللحم .

[٣] الإنصاف . [٤] مسلم عن دريئة ، والدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمي عليها .

[٥] أقصد السوم : أصاب فقتل مكانه ، وأقصد فلاناً : طعنه فلم يخطئه .

عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سخطَ ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل ^(١) والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تُناجزوا من قتله أو تَبِيرُوا ^(٢) ، ألا لاتهابوا الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قطُّ إلا ذلّ ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم : « إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ » فافعل القوم ؟ جثوا على الرُّكَبِ والله ، ومدّوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبرُ على القتل ، فكيف بكم لو قد دُعِيتُم إلى مثل ما دُعِيَ القوم إليه ؟ اشخذوا السيوف ، وركبوا الأسنة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ^(٣) » حتى تُدْعَوْا وَتُسْتَنْفَرُوا .

٤٦ - خطبة خالد بن سعد بن نفيل

فقام خالد بن سعد بن نفيل فقال : « أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسى يُخرجنى من ذنبى ، وَيَرْضَى عَنِ رَبِّى لقتلتها ، ولكن هذا أمرٌ به قومٌ كانوا قبلنا ونهيننا عنه ، فَأَشْهَدُ اللهَ وَمَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ كُلَّ مَا أَصْبَحْتَ أَمْلِكُكَ سِوَى سِلَاحِى الَّذِى أَقَاتِلُ بِهِ عَدُوِّى صَدَقْتُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَقْوِيَهُمْ بِهِ عَلَى قِتَالِ الْقَاسِطِينَ ^(٤) » .

وقام أبو المعتمرِ حَنْشُ بْنُ رَيْبَعَةَ الْكِنَانِ ، فقال : « وأنا أشهدكم على مثل ذلك » فقال سليمان بن صرد : « حَسْبُكُمْ ، مَنْ أَرَادَ مِنْ هَذَا شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِمَالِهِ »

[١] جمع حليلة وهى الزوجة . [٢] بار يبور بواراً : هلك .

[٣] اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله فعال بمعنى مفعول ، أو مصدر سمي به كالمراطة ، أو جمع ربيط

فعليل بمعنى مفعول . [٤] الجائرين ، قسط بكلس قسوطاً جار وعدل من الحق .

عبد الله بن وال التيمي تيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما يريدون إخراجاً من أموالكم ، جهّزنا به ذوى الخلة^(١) والمسكنة من أشياعكم .

٤٧ — خطبة سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن كتاباً يستنهض فيه هم إخوانه هنالك ، ويدعوهم أن يحدّوا ويستعدّوا ، وضرب لهم غرة ربيع الآخر سنة ٦٥ أجلاً يلقونه فيه ، والنخيلة موطناً يوافونه إليه ، فبعث سعد إلى من كان بالمدائن من الشيعة ، فقرأ عليهم كتاب سليمان بن صرد ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإنكم قد كنتم مجتمعين مُزْمَعِينَ على نصر الحسين ، وقتل عدوه فلم يَفْجَأْكم أولُ من قتله ، وَاللهُ مُثِيبُكُمْ على حُسن النية ، وما أجمعتم عليه من النصر أحسنَ المَثُوبة ، وقد بعث إليكم إخوانكم يستنجدونكم ويستمدونكم ، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجؤون لكم به عند الله أفضلَ الأجر والحظ ، فماذا ترون ؟ وماذا تقولون ؟ »

فقال القوم بأجمعهم : « نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأينا في ذلك مثل رأيهم » .

٤٨ — خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي

فقام عبد الله بن الحنظل الطائي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإننا قد أجبنا إخواننا إلى ما دعونا إليه ، وقد رأينا مثل الذي قد رأوا ، فسَرَّخْنِي إليهم في الخيل » .

فقال له : « رويدا لا تعجل ، استعدوا للعدو ، وأعدوا له الحرب ، ثم نسير

[١] الخلة : الحاجة والفقر ، وفي المثل : « الخلة تدعو إلى السلة » بفتح السين أى إلى الاستلال والسرقة .

وتسيرون » وكتب سعد إلى ابن سرد بإجابة دعوته ، وأنهم في انتظار أمره .

٤٩ — خطبة عبيد الله بن عبد الله المري

وحدث رجل من مُزَيِّنَة قال : « ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبلغ من عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله المُرِّيِّ في منطِق ولا عِظَة ، وكان من دُعاة أهل المصر زمان سليمان بن سرد ، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول :
« أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته ، وخصّه بالفضل كله ، وأعزكم باتّباعه ، وأكرمكم بالإيمان به ، فحقن به دماءكم المسفوكَة ، وآمن به سبلكم المَخُوفَة : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا ^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيّها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ، ما كان ولا يكون ، لله أنتم ! ألم تروا ويبلغكم ما أجتَرم ^(٢) إلى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرّمته ، واستضعافهم وخذّته ، وترميلهم ^(٣) إياه بالدم ، وتجزّارهموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضبّاع جزّرا ^(٤) ، فَلَله عينا من رأى مثله ! ولله حسين بن عليّ ! ماذا غادروا به ؟ ذا صدق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ، ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب

* [١] الشفا : حرف كل شيء . [٢] ارتكب واقترف . [٣] دمله : لطمه بالدم .
[٤] قتلاً .

العالمين ، قَلَّتْ مُخَاتَأُهُ ، وَكَثُرَتْ عُدَاتُهُ ^(١) حوله ، فقتله عدوه وخذله وليُّهُ ، فويل للقاتل ، وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل إقَاتله حِجَةً ، ولا لخَاذله مَعْدَرَةً ، إِلَّا أَنْ يُنَاصِحَ اللَّهُ فِي التَّوْبَةِ ، فَيُجَاهِدَ الْقَاتِلِينَ ، وَيُنَابِذَ الْقَاسِطِينَ ، فَعَسَى اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقْبَلَ التَّوْبَةَ ، وَيُقِيلَ الْعَثْرَةَ ، إِنْ أَدْعَوْكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ وَالطَّلَبِ بِدَمَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَإِلَى جِهَادِ الْمُجِلِينَ وَالْمَارِقِينَ ، فَإِنْ قُتِلْنَا فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُ الْأَبْرَارِ ، وَإِنْ ظَهَرْنَا رَدَدْنَا هَذَا الْأَمْرَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا »
قال : « وَكَانَ يَعِيدُ هَذَا الْكَلَامَ عَلَيْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ حَتَّى حَفِظَهُ عَامَّتَنَا » .

وَكَانَ الشَّيْعَةُ بِالْكُوفَةِ مِنْذُ قَتْلِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سَنَةَ ٦١ هـ)
يَجِدُّونَ فِي جَمْعِ آلَةِ الْحَرْبِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ وَدَعَاءِ النَّاسِ فِي السَّرِّ مِنَ الشَّيْعَةِ وَغَيْرِهَا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِهِ حَتَّى كَثُرَ تَبَعُهُمْ ، وَكَانَ النَّاسُ إِلَى اتِّبَاعِهِمْ بَعْدَ هَلَاكِ
يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ (فِي ١٤ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةَ ٦٤ هـ) أَسْرَعَ مِنْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ .
وَقَدَّمَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُيَيْدٍ الثَّقَفِيُّ الْكُوفَةَ فِي النِّصْفِ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ ٦٤ هـ ،
وَقَدْ اجْتَمَعَتْ رِءُوسُ الشَّيْعَةِ وَوُجُوهُهَا مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ صَرْدٍ ، فَلَيْسَ يَعْدِلُونَهُ بِهِ ،
فَكَانَ الْمُخْتَارُ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى نَفْسِهِ وَإِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ الْحُسَيْنِ ، قَالَتْ لَهُ الشَّيْعَةُ :
« هَذَا سُلَيْمَانُ بْنُ صَرْدٍ شَيْخُ الشَّيْعَةِ قَدْ انْقَادُوا لَهُ وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ » فَأَخَذَ يَقُولُ
لِلشَّيْعَةِ : « إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ قِبَلِ الْمَهْدِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ (ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ) مُؤْتَمِنًا
مَأْمُونًا ، مُنْتَجَبًا ^(٢) وَوَزِيرًا » فَمَازَالَ بِهِمْ حَتَّى انْشَعَبَتْ إِلَيْهِ طَائِفَةٌ تُعَظَّمُهُ
وَتُجَبِّهُهُ وَتَنْتَظِرُ أَمْرَهُ ، وَعَظَّمُ الشَّيْعَةِ مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ صَرْدٍ .

[١] المدة جمع عاد ، وهو المدو . [٢] المنتجب : المختار .

وقدم عبد الله بن يزيد الأنصاري من قبل عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة على حربها وَثَقَرَهَا ، وقدم معه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي أميراً على خراجها ، (وذلك بعد مَقْدَمِ المختار بثمانية أيام) ، وكان سليمان ابن سرد وأصحابه يريدون أن يَثْبُوهَا بالكوفة ، ونمى إلى عبد الله بن يزيد اعتزام الشيعة الخروج ، فخرج حتى صعد المنبر ثم قام في الناس .

٥٠ — خطبة عبد الله بن يزيد الأنصاري

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد بلغني أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذي دعاهم إلى ذلك ماهو ؟ فقل لي زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله ذُلْتُ على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ابدأهم قبل أن يبدؤوك ، فأبيت ذلك ، فقلت إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلونني ؟ فوالله ما أنا قتلت حسيناً ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصِبتُ بمقتله رحمة الله عليه ، فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ، لِيَسِيرُوا إلى من قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير ^(١) ، هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل خياركم وأماثلكم ، قد توجه إليكم عَهْدُ العاهد به ^(٢) على مسيرة ليلة من جسر مَنبِج ^(٣) ، فقتاله والاستعداد له

[١] معين . [٢] وذلك أن عبيد الله بن زياد لما هاجت الفتنة بالبصرة بعد وفاة معاوية الثاني (سنة ٦٤ هـ) لحق بالشأم ، وكان مروان بن الحكم قد أراد أن يبايع ابن الزبير لما رأى من إطباق الناس على مبايعته وإجابته له ، وبلغ ابن زياد ذلك ، فقال له : استحييت لك مما تريد ، أنت كبير قریش وسيدها تصنع ما تصنمه ! وشدت من هزيمته حتى نهض في طلب الخلافة وتمت له فيويع بها ، فلما استوثقت له الشأم بالطاعة بعث جيشاً إلى العراق عليه ابن زياد ، وجعل له حين وجهه إلى العراق ما غلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثاً . [٣] بين حلب والفرات .

أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضاً ، وَيَسْفِكَ بعضكم دماء بعض ، فيلقاكم ذلك العدو غداً وقد رَقَّيْتُمْ ^(١) ، وتلك والله أمنيّةُ عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، مَنْ وَلِيَ عليكم هو وأبوه سبع سنين لَا يُقْلِعَان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذي قتلكم ، وَمِنْ قَبْلِهِ أُتَيْتُمْ ، والذي قتل من تَثَارُون بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم ، واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم ، إني لم آلكم نصحاً ^(٢) ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا .

٥١ — خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة ^(٣)

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أيها الناس : لا يغرُّنكم من السيف والغشم ^(٤) مقالةُ هذا المداهن المودع ، والله لئن خرج علينا خارج لقتلنه ، ولئن استيقننا أن قوماً يريدون الخروج علينا ، لَنَأْخُذَنَّ الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ولنأخذن الحميم ^(٥) بالحميم ، والعريف ^(٦) بما في عرافته ، حتى يَدِينُوا للحق ، وَيَذِلُّوا للطاعة . »

٥٢ — رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه منطقه ، ثم قال :

« يا بن الناكثين ^(٧) : أنت تهددنا بسيفك وغشمك ؟ أنت والله أذلُّ من ذلك ، إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك ^(٨) وجدك ، والله إني لأرجو

[١] ضعفت . [٢] أي لم أقصر في نصحتكم . [٣] مات سنة عشر ومائة عن أربع وسبعين سنة ، وكان يسمى أسد قريش . [٤] الظلم ، والمراد هنا القوة والأخذ بالشدة .
[٥] حميمك : قريبك الذي تهتم لأمره . [٦] العريف : رئيس القوم ، سمي لأنه عرف بذلك ، أو النقيب ، وهو دون الرئيس ، عرف ككرم وضرب عرافة صار عريفاً . [٧] يشير إلى ما كان من جدّه طلحة بن عبيد الله إذ بايع الإمام علياً ثم نكث ببعته ، وقد اعتذر عن ذلك بأنه بايع والسيف على عقبه . [٨] قتل محمد بن طلحة يوم الجمل مع أبيه ومسرّه علي ، فقال هذا رجل قتل به أبيه وطاعته .

أن لا يُخرجك الله من بين ظَهْرَانِي أهل مصر حتى يثْلُثُوا بك جدك وأباك ،
وأما أنت أيها الأمير ، فقد قلت قولاً سديداً ، إني والله لأظن من يريد هذا
الأمر ^(١) مستنصحاً لك ، وقابلاً قولك »

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : « إِي والله لَيُثَثَّانَ وقد أذهَنَ ثم أعلن » .

٥٣ - ردّ عبد الله بن وال التيمي ،

فقام إليه عبد الله بن وال التيمي ، فقال :

« ما اعتراضك يا أخا بني تميم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا ؟ فوالله ما أنت
علينا بأمير ، ولا لك علينا سلطان ! إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ،
فلعمرك الله لئن كنت مفسداً ، ما أفسد أمر هذه الأمة إلا والدك وجدك
الناكثان ، فكانت بهما اليدان ^(٢) ، وكانت عليهما دائرة السوء » .

ثم أقبل المسيب بن نجبة . وعبد الله بن وال على عبد الله بن يزيد فقالا :
« أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا لنترجو أن تكون به عند العامة محموداً ،
وأن تكون عند الذي عَنَيْتَ واعتريت مقبولا » .

ثم نزل عبد الله بن يزيد ودخل .

فلما استهلّ هلال ربيع الآخر سنة ٦٥ شَخَّصَ سليمان بن صرد في
وجوه أصحابه ، وقد كان واعد أصحابه عامةً للخروج في تلك الليلة للمعسكر
بالنخيلة ، وأقام بها ثلاثاً يبعث ثقاته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكّرهم الله
وما أعطوه من أنفسهم ، فقام إليه المسيب بن نجبة ، فقال : « رحمك الله إنه

[١] أي الطلب بدم الحسين رضي الله عنه . [٢] يقول العرب : كانت به اليدان ، أي فعل الله
به ما يقول لي ، ومزقوم من الحوارج بقوم من أصحاب عليّ وهم يدعون عليهم ، فقالوا : بكم اليدان أي
حاق بكم ماتدعون به وتبسطون أيديكم .

لا ينفعك الكاره ، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية ، فلا تنتظرن أحدًا ،
واكش^(١) في أمرك » قال : « فَإِنَّكَ وَاللَّهِ لَنِعِمًّا رَأَيْتَ » فقام سليمان بن صرد
في الناس متوكئًا على قوس له عربية فقال :

٥٤ — خطبة سليمان بن صرد

« أَيُّهَا النَّاسُ : مَنْ كَانَ إِنَّمَا أَخْرَجَتْهُ إِرَادَةُ وَجْهِ اللَّهِ وَثَوَابُ الْآخِرَةِ ، فَذَلِكَ
مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُ ، فَرَحِمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَرِيدُ الدُّنْيَا وَحَرَمُهَا^(٢)
فَوَاللَّهِ مَا نَأْتِي فَيَتِمُّ نَسْتَفِيئُهُ ، وَلَا غَنِيمَةً نَغْنَمُهَا ، مَا خَلَا رِضْوَانُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ،
وَمَا مَعْنَا مِنْ ذَهَبٍ ، وَلَا فِضَّةٍ ، وَلَا خَزٍّ ، وَلَا حَرِيرٍ ، وَمَا هُوَ إِلَّا سَيُوفُنَا فِي
عَوَاتِقِنَا ، وَرِمَاحُنَا فِي أَكْفُنَا ، وَزَادُ قَدْرِ الْبُلْمَغَةِ^(٣) إِلَى لِقَاءِ عَدُونَا ، فَمَنْ كَانَ غَيْرَ
هَذَا يَنْوِي فَلَا يَصْحَبْنَا » .

٥٥ — خطبة صخير بن حذيفة بن هلال

فقام صُخَيْرُ بْنُ حُذَيْفَةَ بْنِ هَلَالٍ بْنِ مَالِكِ الْمُرَزِيِّ فَقَالَ :
« آتَاكَ اللَّهُ وَشَدَّكَ ، وَلَقَاكَ حُجَّتُكَ ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَالَنَا خَيْرٌ فِي
صَحْبَةٍ ، مَنِ الدُّنْيَا هِمَّتُهُ وَنَيْتُهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا أَخْرَجْتُمَا التَّوْبَةَ مِنْ ذُنُوبِنَا ،
وَالطَّلَبُ بِدَمِ ابْنِ ابْنَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَيْسَ مَعْنَا دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ ، إِنَّمَا
نَقْدَمُ عَلَى حَدِّ السُّيُوفِ وَأَطْرَافِ الرِّمَاحِ »
فتنادى الناس من كل جانب : « إِنَّا لَا نَطْلُبُ الدُّنْيَا وَلَيْسَ لَهَا خَرَجُنَا »

[١] أسرع ، كش ككرم كاشة فهو كش (كشم) وكش ، أى سريع .

[٢] أى كسبها ومتاعها . [٣] ما يبلغ به .

٥٦ - ما أشار به عبد الله بن سعد

وكان الرأي بادئ الأمر أن يسيروا إلى عبيد الله بن زياد ، فقال له عبد الله ابن سعد ، وعنده رءوس أصحابه جلوس^(١) حوله :

« إني قد رأيت رأياً ، إن يكن صواباً فالله وفق ، وإن يكن ليس بصواب فمن قبلي ، فإني ما آلوكم ونفسي نضحاً ، خطأ كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين ، وقتلة الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ورءوس الأرباع^(٢) وأشرف القبائل ، فأتى نذهب هاهنا ونُدع الأقتال والأوتار^(٣) ؟ »

فقال سليمان بن صرد : فماذا ترون ؟ فقالوا : « والله لقد جاء برأى ، وإن ما ذكر لكما ذكر ، والله ما نلقى من قتلة الحسين ، إن نحن مضينا نحو الشام غير ابن زياد ، وما طلبتنا إلا هاهنا بالمصر » .

٥٧ - رأى ابن صرد

فقال سليمان بن صرد : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، وعبي الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأَمْضِي فيه حكمي ، هذا الفاسق ابن الفاسق ، ابن مَرْجَانة ، عبيد الله بن زياد ، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله ، فإن يُظْهِرَكم الله عليه ، رجونا أن يكون من بعده أهون

[١] كانت الكوفة مقسمة أربعة أقسام لكل ربع رئيس : ربع تميم وهمدان ، وربع ربيعة وكندة ، وربع مذحج وأسد ، وربع أهل المدينة ، (وتنقسم المدينة أرباعاً لا يزال إلى اليوم في بعض بلاد القطر المصري ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام كل قسم ثمن ، وحرقت في المائة فقالوا « ثمن » ، وأطلق عليه بالتركية قره قول (كراكون) ويعمن أن يستعمل له كلمة مخفر « ككتب » .

[٢] الأقتال جمع قتل بالسكسر وهو المدوّ والمقاتل ، والأوتار جمع وتر : الجناية والتأر ، أي ونُدع أعداءنا وذري ثاراتنا .

شوكته منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية ،
فتنظرون إلى كل من شرك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تغشوا^(١) ، وإن
تستشهدوا فإنما قاتلتم المحلّين ، وما عند الله خيرٌ للأبرار والصدّيقين ، إني لأحب
أن تجعلوا حدكم وشوكتكم بأول المحلّين القاسطين ، والله لو قاتلتم غداً أهل
مصركم ، ما عديم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ، أو رجلاً لم يكن
يريد قتله ، فاستخيروا الله وسيروا » فتهيأ الناس للشخص .

وبلغ عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن صرد
وأصحابه فرأيا أن يأتيهم ، فخرجا إليهم في جماعة من أصحابهما ، فلما انتهيا إلى
ابن صرد دخلا عليه .

٥٨ — خطبة عبد الله بن يزيد

حمد الله عبد الله بن يزيد ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن المسلم أخو المسلم ، لا يخنونه ولا يغشوه ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا ،
وأحبُّ أهل مصر خلقه الله إلينا ، فلا تفجعونا بأنفسكم ، ولا تستبدوا علينا
برأيكم ، ولا تنقضوا عدونا بخروجكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى نتيسروا وننتهيا ،
فإذا علمنا أن عدونا قد شارف بلدنا ، خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم » .
وتكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام .

٥٩ — خطبة سليمان بن صرد

حمد الله سليمان بن صرد وأثنى عليه ، ثم قال لهما :
« إني قد علمت أنكما قد تحضّتا^(٢) في النصيحة ، واجتهدتما في المشورة ،

[١] غشه : كضرب ظلمه . [٢] محضه الود وأعضه : أخلمه .

فنحن بالله وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد ، والتسديد لأصوبه ، ولا ترانا إلا شاخصين ، إن شاء الله ذلك » .

فقال عبد الله بن يزيد : « فأقيموا حتى نعبى معكم جيشاً كشيفاً فتلقوا عدوكم بكثف^(١) ، وجمع وحدٍ » فقال له سليمان : « تنصرفون ونرى فيما بيننا ، وسيأتىكم إن شاء الله رأى » .

وانصرف عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد إلى الكوفة ، وأجمع القوم على الشخوص ، واستقبال ابن زياد .

٦٠ — خطبة أخرى له

ثم إن سليمان بن صرد قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون ، وإن للدنيا ثجاراً ، وللآخرة تجاراً ، فأما تاجر الآخرة فساع إليها متنصب^(٢) يتطلأبها ، لا يشتري بها ثمناً ، لا يرى إلا قائماً وقاعداً ، وراكعاً وساجداً ، لا يطلب ذهباً ولا فضة ، ولا ديناً ولا لذة ، وأما تاجر الدنيا ، فكيب عليها ، راع فيها ، لا يبتغي بها بدلاً ، فعليكم (يرحمكم الله) في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيراً على كل حال ، وتقرّبوا إلى الله جل ذكره بكل خير قد رتبتم عليه ، حتى تلقوا هذا العدو ، والمحلّ القاسط فتجاهدوه ، فإنكم إن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سنام العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين

[١] الكثيف : الجماعة . [٢] أى قد نصب نفسه طالباً لها ، نصب القى . رفعه

فانتصب وتنصب .

على اللأواء^(١) وإنا مُدْجُونَ^(٢) الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فأذِلُّوا .
فأدِلج عشية الجمعة لخمس ماضين من ربيع الآخر سنة ٦٥ للهجرة ، وما زال
يسير حتى انتهى إلى عَيْنِ الوردية^(٣) فنزل في غريبها .

٦١ — خطبة أخرى

وأقبل أهل الشام في عساكرهم ، حتى كانوا منها على مسيرة يوم وليلة ، قال
عبد الله بن غزِيَّة ، فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطنب ، ثم
ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله
ونعمه ، وذكر الدنيا فزهد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم
أُحصِه ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال :

« أما بعد فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء^(٤) الليل
والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله مُعْذِرِينَ ، فقد جاءوكم
بل جئتموهم أنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله
مع الصابرين ، ولا يولينهم أمرؤ دُبْرَه إلا مُتَحَرِّفًا^(٥) لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا^(٦) إلى
إلى فِتْنَةٍ ، لَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا ، وَلَا تُجْهِزُوا على جريح ، وَلَا تَقْتُلُوا أَسِيرًا من أهل
دعوتكم^(٧) إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروهم ، أو يكون من قتل إخواننا بالطف
رحمة الله عليهم ، فإن هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل
هذه الدعوة . »

[١] الشدة . [٢] أدلج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فأدلج بالتشديد .
[٣] هي رأس العين : بلد في وسط الجزيرة . [٤] آناء الليل : ساعاته واحدها لاني (كالي)
أو لاني (كحل) أو لاني كذلك . [٥] أي منعطفاً يريد الكر بعد الفر وتفرير العدو ، فإنه من
مكايد الحرب . [٦] أي منحاذاً إلى جماعة على القرب ليستجدهم . [٧] ملتكم .

ودارت رحى الحرب بينهم وبين جيوش عبيد الله بن زياد واستشهد في المعركة سليمان بن صرد ، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً من رؤوس أصحابه : المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نضيل ، وعبد الله بن وال ، فلما رأى من بقي من التوآيين أن لا طاقة لهم بمن يازأهم من أهل الشام انحازوا عنهم وارتحلوا ، وعليهم رفاة بن شداد البجلي .

(وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ) (١) .

٦٢ — خطبة عبد الملك بن مروان

وأتى عبد الملك بن مروان بیدشارة الفتح ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله قد أهلك من رؤوس أهل العراق مُلَقِّحَ (٢) فتنة ، ورأس ضلالة ، سليمان بن صرد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاري (٣) ، ألا وقد قتل من رؤوسهم رأسين عظيمين ضالين مضلين : عبد الله بن سعد أبا الأزدي ، وعبد الله بن وال أبا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحدٌ عنده دِفَاعٌ ولا امتناع . »

(تاريخ الطبري ٧ : ٤٧ — ٨٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٠)

[١] وقال المسعودي في مروج الذهب : « وقيل إن وتعة الورد كانت في سنة ٦٦ » .

[٢] أصله : من ألقح النحلة ، وألقح الفحل الناقة ، والريح الشجر . [٣] تركت السيوف رأسه خذاري : أي قطعاً كل قطعة كالحذروف ، والحذروف : كمنفور شيء يدور في يديه فيسمع له دوى (النحلة) .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي

بدم الحسين رضى الله عنه .

٦٣ - خطبته حين قدم الكوفة

وقدم المختار بن أبي عبيد الثقفي ^(١) الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ هـ ، فأتاه بعض الشيعة ليلاً ، فسألهم عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صرد الخزاعي ، وإنه لن يلبث إلا يسيراً حتى يخرج .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فإن المهدي بن الوصي ، محمد بن علي ، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ،
وَمُتَّخِباً وأميراً ، وأمرني بقتال المُلحدِّين ، والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع
عن الضعفاء » .

[١] هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي ، وقد قدمنا في الجزء الأول أن أوّل ما عمل به عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ولي الخلافة أن ندب الناس مع النبي بن حارثة الشيباني لقتال أهل فارس ، وجعل يندبهم ثلاثة أيام ، فلا يندب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس ، فكان أوّل منتدب أبو عبيد بن مسعود والد المختار ، ولم يكن المختار في تشييعه لآل علي بالخمس ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه في أمر الحسن بن علي رضى الله عنه يوم طعن في ظلم ساباط وحمل إلى المدائن - وكان عم المختار ، وهو سعد بن مسعود عاملاً على المدائن - فقال له المختار : هل لك في الفتي والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أنب علي ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه ! بشّ الرجل أنت ، ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضى الله عنه نزل دار المختار فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة ، وناصحه ودعا إليه ، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر بالمختار فسجن ، وبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية - وكانت صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر - فكتب ابن عمر إلى يزيد يسأله أن يخلّي سبيله ، فشفعه فيه ، وخلي ابن زياد سبيله وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع ابن الزبير ، وقاتل معه حين حاصر مكة جيش يزيد - وكان تحت إمرة الحسين بن نمير السكوني - وأمام مع ابن الزبير بهد مهلك يزيد حتى قدم الكوفة في منتصف رمضان سنة ٦٤ هـ .

وأقبل يبعث إلى الشيعة ، فيقول لهم : « إني قد جئتكم من قبل وليّ الأمر ، ومعدن الفضل ، ووصي الوصي ، والإمام المهدي ، بأمرٍ فيه الشفاء ، وكشف الغطاء ، وقتل الأعداء ، وتعمام النعماء ، إن سليمان بن صرد يرحمنا الله وإياه ، إنما هو عَشَمَة ^(١) من العشم ، وحَفَش ^(٢) بال ، ليس بذى تجربة للأمور ، ولا له علم بالحروب ، إنما يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم ، إني إنما أعمل على مثالٍ قد مُثِّل لي ، وأمرٍ قد مُيِّن لي ، فيه عزٌ وليكم ، وقتلٌ عدوكم ، وشفاءٌ صدوركم ، فاسمعوا مني قولي ، وأطيعوا أمري ، ثم أبشروا وتباشروا ، فإنني لكم بكل ما تأملون خيرٌ زعيم » .

فما زال بهذا القول ونحوه ، حتى استمال طائفة من الشيعة ، وعظمهم يومئذ مع سليمان بن صرد ، فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ، خاف عبد الله بن يزيد الأنصاري - أمير الكوفة من قبل ابن الزبير - أن يثب المختار عليه ، فزجه في السجن . (تاريخ الطبري ٧ : ٦٤)

٦٤ - ما كان يردده على زائريه في سجنه

وكان يردّد على زائريه في سجنه هذا القول :

« أَمَا وَرَبَّ الْبَحَارِ ، وَالنَّخِيلِ وَالْأَشْجَارِ ، وَالْمَهَامَةِ ^(٣) وَالْقِفَارِ ، وَالْمَلَايِكَةِ الْأَبْرَارِ ، وَالْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ، لَأَقْتُلَنَّ كُلَّ جَبَّارٍ ، بِكُلِّ لَذَنٍ خَطَّارٍ ^(٤) ،

[١] المشمة: الشيخ الماني للذكر والأنثى أو المتقارب الخطو المنحى الطهر، وكان عمر ابن صرد حين قتل ٩٣ سنة . [٢] احفش: الشيء البالي، والجواني العظيم البالي، وما كان من أسقاط الآنية كالقوارير وغيرها، وأحفاش البيت: رذال متاعه .

[٣] المهامة: جمع مهمه كجففر، وهو البلد المنقر، والمغارة البعيدة . [٤] الرمح اللدن: اللين، وذلك صفة جودة فيه لأن اللدن لا يقصف، وقد لدن ككرم لدانة ولدونة، والرمح: الخطار أي الهتد خطر كضرب خطرانا .

وَمُهَنْدٍ بَتَّارٍ^(١) ، في جوع من الأنصار ، لبسوا بِمِئِيلٍ أَغْمَارٍ^(٢) ، ولا بِعُزْلٍ^(٣) أشرار ، حتى إذا أَقْتَتْ عُمُودَ الدين ، وَرَأَبَتْ شَعْبَ^(٤) صَدْعِ المسلمين ، وَشَفَيْتْ غليلَ صدور المؤمنين ، وأدركت بئار النبين ، لم يكْبُرْ عَلَى زَوَالِ الدنيا ، ولم أَحْضِلْ بِالموت إذا أَتَى .

ثم خلى عبد الله بن يزيد سبيلَه ، بشفاعَةِ عبد الله بن عمر فيه ، واختلفت إليه الشيعة بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل أصحابه يكثرُونَ ، وأمره يقوى ويشتد ، حتى عزل ابنُ الزبير عبد الله ابن يزيد عن الكوفة ، وولى عليها عبد الله بن مُطِيعَ العَدَوِ .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٦٥)

٦٥ — خطبة عبد الله بن مطيع العدوى حين قدم الكوفة

وقَدِمَ عبد الله بن مطيع العدوى الكوفة (لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥) فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى عَلَى مِصْرِكُمْ وَتُغُورِكُمْ ، وَأَمَرَنِي بِجَبَايَةِ فَيْتِكُمْ ، وَأَنْ لَا أَتَّحِمَلَ فَضْلَ^(٥) فَيْتِكُمْ عَنْكُمْ إِلَّا بِرِضَا مِنْكُمْ ، ووصية عمر ابن الخطاب التى أوصى بها عند وفاته^(٦) ، وبسيرة عثمان بن عفان التى سار بها فى المسامين ، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا ، وخذوا عَلَى أَيْدِي سَفَهَائِكُمْ ،

[١] المهند : السيف المطبوع من حديد الهند ، والبتار : القطار .

[٢] مِئِيل : جمع أميل ، وهو الجبان ، ومن يميل على السرج فى جانب ، ومن لاترس معه أو لاسيف أولارمع ، والأغمار : جمع غمر (مثلث ويحرك) من لم يجرب الأمور . [٣] العزل : جمع أعزل ، وهو من لاسلاح معه . [٤] الشعب : الصدع أى الشق ، ومن معانيه الإفساد ، وهو المراد هنا ، ورأب الصدع : أصله . [٥] الفضل : الزيادة . [٦] انظر وصيته للخليفة من بعده . ج ١ : ص ٩٥

وَالْأَفْعَالُ فَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَلُمُونِي ، فَوَاللَّهِ لَا أُوقِعَنَّ بِالسَّقِيمِ الْعَاصِي ، وَلَا أَقِيمَنَّ
دَرَأاً^(١) الْأَصْعَرَ^(٢) الْمَرْتَاب .

٦٦ — رد السائب بن مالك الأشعري عليه

فقام إليه السائب بن مالك الأشعري - وهو من رءوس أصحاب
المختار - فقال :

« أما أمرُ ابن الزبير إياك ألاَّ تحملَ فضلَ فيثنا عنا إلا برضانا ، فإننا نُشْهَدُكَ
أنا لا نرضى أن تحملَ فضلَ فيثنا عنا ، وأن لا يُقَسَّمْ إلَّا فينا ، وأن لا يُسَارَ فينا
إلا بسيرة عليّ بن أبي طالب ، التي سار بها في بلادنا هذه ، حتى هلكَ رحمةُ الله
عليه ، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيثنا ولا في أنفسنا ، فإنها إنما كانت
أثرَةً وَهَوًى ، ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيثنا ، وإن كانت أهونَ السيرتين
علينا ضرراً ، وقد كَانَ لا يَأْلُو الناسَ خَيْراً » .

فقال يزيد بن أنس الأسدي : صدق السائب بن مالك وَبَرٌّ ، رأينا
مثلُ رأيهِ ، وَقَوَّلُنَا مثلَ قَوْلِهِ ، فقال ابن مطيع : نَسِيرُ فيكم بكل سيرة أحببتموها
وَهَوَّيْتُمُوهَا ، ثم نزل . فقال يزيد بن أنس : ذهبتَ بفضلها ياسائب ،
لَا يَعْدَمُكَ المِسامُون ! (تاريخ الطبري ٧ : ٩٥)

٦٧ -- خطبة عبد الرحمن بن شريح

وبعث المختار إلى أصحابه ، فأخذ يجمعهم في الدور حوله ، وأراد أن يثب

[١] الدرأ : الميل والعوج في القناة ونحوها . [٢] الصعر بحركة : ميل في العنق وإعقاب في الوجه
إلى أحد الشقين ، صعر كفرح فهو أصعر ، وربما كان الإنسان أصعر خائفة ، وصعر خذله بالشديد : أماله
عن الناس إعراضاً وتكبراً .

بالكوفة في المحرم ، فجاء رجل منهم يقال له عبد الرحمن بن شريح ، فلقى جماعة من إخوانه ، واجتمعوا في منزل أحدهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ، ولا ندرى أُرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؟ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبره بما قدم علينا به ، وبما دعانا إليه ، فإن رخص لنا في اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من أمر الدنيا آثرَ عندنا من سلامة ديننا »

فقالوا له : أرشدك الله ، فقد أصبتَ ووُفِّقْتَ ، اخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا إليه ، فلما قدموا عليه بدأ عبد الرحمن بن شريح ، فتكلم :
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٨ - خطبة أخرى له

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإنكم أهلُ بيتٍ خصَّكم الله بالفضيلة ، وشرَّفكم بالنبوة ، وعظَّم حقكم على هذه الأمة ، فلا يجهلُ حقَّكم إلا مغبونُ الرأي ، مخسوس النصيب ، قد أصبتم بحسينٍ رحمة الله عليه ، عظمت مصيبة ! ما قد خصكم بها ، فقد عمَّ بها المسلمون ، وقد قدَّم علينا المختار بن أبي عبيد ، يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ، فبايعناه على ذلك ، ثم إنا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، ونَدَبنا له ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه . »

ثم تكلموا واحداً واحداً بنحو مما تكلم به صاحبهم وهو يسمع حتى إذا فرغوا
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٩ - خطبة محمد بن الحنفية

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فأما ما ذكرتم مما خصصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتيه
من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، فله الحمد ، وأما ما ذكرتم من مصيبتنا
بمحسين ، فإن ذلك كان في الذكر الحكيم ^(١) ، وهي ملحمة ^(٢) كتبت عليه ،
وكرامة أهداها الله له ، رفع بما كان منها درجات قومٍ عنده ، ووضع بها
آخرين ، وكان أمر الله مفعولاً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وأما ما ذكرتم من
دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا
بمن شاء من خلقه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »

فخرجوا من عنده ، وهم يقولون : قد أذن لنا ، قد قال : « لوددت أن الله
انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه » ولو كره لقال : « لا تفعلوا » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٠ - خطبة المختار

وبلغ المختار مخرجهم فشق ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يُخذل الشيعة
عنه ، فكان يقول :

« إن نُفَيْرَكم ارتابوا ، وتحيرُوا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبلوا وأنابوا ، وإن هم
كَبَرُوا وهابوا ، واعترضوا وانجابوا ^(٣) ، فقد تَبَرُّوا ^(٤) وَخَابُوا ^(٥) » وأقبل القوم

[١] يريد أنه سبق به قضاء الله تعالى . [٢] الملحمة : الواقعة العظيمة القتل .

[٣] انجابت السحابة : انكشفت ، والمعنى : وإن هم اسلخوا منا وانشقوا علينا . [٤] تبر ، كقعد

تبوراً : هلك . [٥] حاب : أثم ، والحبوب بالفتح والضم : الإثم ، وفي الأصل خابوا ، وأرى أن
تكون بالحاء لتقديم كلمة خابوا في أول قوله .

فدخلوا على المختار ، فقال لهم : ما وراءكم ؟ قد فُتنتم وارتبتم ، فقالوا له : قد أمرنا بنصرتك ، فقال : الله أكبر ! أنا أبو إسحق ! اجمعوا إلى الشيعة ، فجمع له منهم من كان منه قريباً فقال :

« يا معشر الشيعة : إن نفرًا منكم أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئت به ، فرحلوا إلى إمام الهدى ، والنجيب المرتضى ، ابن خير من طشى^(١) ومشى ، حاشا النبي المجتبي^(٢) ، فسألوه عما قدمتُ به عليكم ، فنباهم أنى وزيره وظهيره ، ورسوله وخليله ، وأمرهم باتباعى وطاعتي فيما دعوتكم إليه ، من قتال المحلّين ، والطلب بدماء أهل بيت نبيكم المصطفين » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٩٧)

٧١ — خطبة عبد الرحمن بن شريح

فقام عبد الرحمن بن شريح فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معشر الشيعة فإننا قد كنا أحيدين أن نستثبت لأنفسنا خاصّةً ، ولجميع إخواننا عامةً ، فقدّمنا على المهدي بن على ، فسألناه عن حربنا هذه ، وعما دعانا إليه المختار منها ، فأمرنا بمظاهرتة وموازرتة ، وإجابته إلى مادعانا إليه ، فأقبلنا طيبةً أنفسنا منسرحةً صدورنا ، قد أذهب الله منها الشك والغُلّ والرَّيبَ ، واستقامت لنا بصيرتنا فى قتالنا عدونا ، فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا » ثم جلس .

[١] مكذا فى الأصل ، ولم أجده كلمة « طشى » فى كتب اللغة ، وفى لسان العرب « تطشى المريض برى » وليست مناسبة هنا ، وأرى أن العبارة « ابن خير من مشى وطشى » بتأخير طشى ، وأنه إلتباع للفعل قبله لتقويته وتوكيده ، وهو كثير فى كلام العرب ، كقولهم : حسن بسن ، وعفريت نفریت ، وعطشان فطشان ، وشحيج بحيج ، وكثير بشير ، وحيالك الله وبياك — وإن قيل إن الإلتباع لا يكاد يكون بالواو — انظر باب الإلتباع فى الزهر للسيوطى (١ : ٢٤٤) وفى الأمالى (٢ : ٢١١) .

[٢] المختار .

وقاموا رجلاً فرجلاً فتكلموا بنحو من كلامه فاستجمعت له الشيعة
وحدّبت^(١) عليه . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٢ — خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر

ومضى المختار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه إلى دار إبراهيم
ابن الأشتر^(٢) يدعوهم أن يناصره ، فاستأذن عليه فأذن له ، وألقى لأصحابه وسائدهم
فجلسوا عليها ، وجلس المختار معه على فراشه ، فقال المختار :
« الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد والسلام عليه ،
أما بعد : فإن هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصي ، وهو
خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله
ورسله ، وهو يسألك أن تنصرنا وتوازرنا ، فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل
فهذا الكتاب حجة عليك ، وسيغني الله المهدي محمدًا وأوليائه عنك^(٣) »
فبايعه إبراهيم .

[١] عطف . [٢] وكان أصحاب المختار قد دعوه أن ينضم إليهم فقاموا فقال : إني قد أحببتكم إلى
مادعوتوني إليه على أن تولوني الأمر ، فقالوا هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي ، وهو الرسول والمأمور
بالمقاتلة وقد أمرنا بطاعته ، فسكت عنهم ابن الأشتر ، وانصرفوا إلى المختار فأخبروه بما رآه عليهم .
[٣] ثم دمع إليه الكتاب ففرض حاتمته وقرأه ، فإذا هو : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدي إلى إبراهيم
ابن مالك الأشتر ، سلام عليك ، إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : إني قد بعثت إليك
بوزير ، وأميني ، ونجيبتي الذي ارتضىته لنفسه ، وقد أمرته بقتال عدوي ، والطلب بدماء أهل بيتي ،
فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإني إن نصرتني وأجبت دعوتي ، وساعدت وزيرتي كانت لك
عندي بذرة فضيلة ، ولك بذلك أمة الحيل ، وكل جيش غار ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما
بين الكوفة وأقصى بلاد أهل الشام ، على الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل
الكرامة ، وإن أبيت ملكك هلاكاً لا نستقبله أبداً ، والسلام عليك » . لما قضى إبراهيم قراءة الكتاب ،
قال : قد كتبت إلى ابن الحنفية وقد كتبت إليه قبل اليوم ، فما كان يكتب إلي إلا باسمه واسم أبيه ، قال
له المختار : إني ذاك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى ؟ فشهد من
معه بأنه كتاب ابن الحنفية إليه ، فقال إبراهيم : ابسط يدك أباطك فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم .

— وجعل المختار وأصحابه يدبرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ ، فثاروا بالكوفة ، ونشب القتال بينهم وبين جند ابن مطيع . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٨)

٧٣ — خطبة يزيد بن أنس الأسدي

ولما حملت خيل ابن مطيع على أصحاب المختار ، خطبهم يزيد بن أنس الأسدي محرّضاً ، فقال :

« يا معشر الشيعة : قد كنتم تُقتلون وتُقَطَّع أيديكم وأرجلكم ، وتُسَمَّل أعينكم ، وترفعون على جذوع النخل ، في حُبِّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوكم ، فما ظنُّكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يدعون منكم عيناً تطرف ^(١) ، وليقتلنَّكم صبراً ^(٢) ، ولترؤن منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خير منه ، والله لا ينجيكم منه إلا الصدق والصبر والظعن الصائب في أعينهم ، والضرب الدّراك على هامهم ، فتيسرُوا للشّدة ، وتهيئوا للحملة ، فإذا حركت رايتي مرتين فاحملوا » .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٤)

٧٤ — خطبة عبد الله بن مطيع

وحمل أصحاب المختار على جند ابن مطيع فكشفوهم وهزموهم ، فخرج ابن مطيع فقام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إن من أعجب العجب عجزكم عن غضبة منكم ، قليل عددها ، خبيث دينها ، ضالة مضلة ، اخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حريمكم ، وقاتلوهم عن

[١] طرف البصر (كضرب) تحرك ، وطرف بهره (كضرب أيضاً) أطبق أحد جفنيه على الآخر .

[٢] قتل صبراً : هو أن يحبس ويرى حتى يموت .

مصركم ، وامنعوا منهم فيثكم ، وإلا ليشارككنكم في فيثكم من لا حق له فيه ، والله لقد بلغني أن فيهم خمسمائة رجل من محرريكم عليهم أمير منهم ، وإنما ذهاب عزكم وسلطانكم ، وتغيّر دينكم حين يكثرون . ثم نزل .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٦)

٧٥ - تحريض ابن الأشر أصحابه

واستنفر ابن مطيع الناس لقتال المختار وصدّه ، وأقبل إبراهيم بن الأشر في أصحابه فقال لهم :

« قربواخيولكم بعضها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مُضْلِتِينَ ^(١) السيوف ، ولا يهولنكم أن يقال : جاءكم شَبَثُ بن رُبَيْعٍ ، وآل عَتَيْبَةَ بن النَّهَّاس ، وآل الأشعث ، وآل يزيد بن الحارث ، وآل فلان - فسَمَى بيوتات من بيوتات أهل الكوفة - ثم قال : إن هؤلاء لو قد وجدوا بهم حر السيوف قد انصفقوا ^(٢) عن ابن مطيع انصفاق المَعزى عن الذئب » ثم قال لأصحابه شدّوا عليهم ، فِدَا لكم عمى وخالى .

فما لبثهم أن هزمهم ، فركب بعضهم بعضاً ، ومضى بأصحابه في آثارهم حتى دخلوا السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٧)

٧٦ - خطبة ابن مطيع وهو محصور

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه ، أشار عليه شَبَثُ بن رُبَيْعٍ أن يخرج من القصر لا يشعر به أحد ، حتى ينزل منزلاً بالكوفة عندهم يستنصحه ، ويثق به ، ولا يعلمُ بمكانه إلى أن يخرج فيلحق بصاحبه (ابن الزبير) .

[١] أصوات السيوف : جرده من غمده [٢] انصفق : انصرف .

وفي مساء اليوم الثالث دعا ابن مطيع أصحابه فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقال :

« أما بعد : فقد علمت الذين صنعوا هذا منكم مَنْ هُمْ ، وقد علمت إنما هم أراذلكم وسُفهاؤكم وطغاكم وأخسائكم ، ماعدا الرجل أو الرجلين ، وأنَّ أشرافكم ، وأهل الفضل منكم لم يزالوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مُبلغ ذلك صاحبي ، ومُعَلِّمه طاعتكم وجهادكم عدوّه ، حتى كَانَ الله الغالبَ على أمره ، وقد كَانَ من رأيكم وما أشرتُم به على ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة » فقال له شَبَتَ : « جزاك الله من أمير خيراً ، فقد والله عَفَقْتَ عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصَّحت لصاحبك ، وقضيت الذي عليك ، والله ما كنا لنفارقَكَ أبداً ، إلا ونحن منك في إذن » فقال : جزاكم الله خيراً ، ثم خرج ، وخلي القصر ، وفتح أصحابه الباب ، فقالوا : يا ابن الأشر ، آمنون نحن ؟ قال : أنتم آمنون ، فخرجوا فبايعوا المختار .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٧ — خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع

وجاء المختار حتى دخل القصر فبات به ، وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال :

« الحمد لله الذي وعد وليّه النصرَ ، وعدوّه الخُسْرَ ، وجعله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولاً ، وقضاء مَقْضِيّاً ، وقد خاب من اقترى ، أيها الناس : إنه رُمِعت لنا رايةٌ ، ومُدَّتْ لنا غاية ، فقليل لنا في الراية أن ارفعوها ولا تَضَعُوهَا ، وفي الغاية أن أَجْزُوا إليها ولا تَعْدُوهَا ، فسمعنا دعوة الداعي ، ومقالة الواعي ، فكم

من ناعٍ وناعيةٍ ، لِقَتْلِي فِي الْوَاعِيَةِ ^(١) ، وَبُعْدًا لِمَنْ طَفَى ، وَأَدْبِرْ وَعَصَى ،
وَكَذَّبْ وَتَوَلَّى ، أَلَا فَادْخُلُوا أَيُّهَا النَّاسُ فَبَايَعُوا بَيْعَةَ هَدْيٍ ، فَلَا وَالَّذِي جَعَلَ
السَّمَاءَ سَقْفًا مَكْفُوفًا ^(٢) ، وَالْأَرْضَ فِجَاجًا ^(٣) سُبُلًا ، مَا بَايَعْتُمْ بَعْدَ بَيْعَةِ عَلِيٍّ
ابْنَ أَبِي طَالِبٍ وَآلِ عَلِيٍّ أَهْدَى مِنْهَا .

ثم نزل فدخل ، ودخل عليه أشراف الناس ، فبسط يده وابتدره الناس
فبايعوه ، وجعل يقول : تبايعونني على كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدماء
أهل البيت ، وجهاد المُحَلِّين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسِلم من
سالمنا ، والوفاء ببيعتنا ، لَا تُقِيلُكُمْ وَلَا نُسْتَقِيلُكُمْ « فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ نَعَمْ : بَايَعَهُ .
ثم وثب المختار بمن كَانَ بالكوفة من قتلة الحسين رضى الله عنه والمشايعة
على قتله ، فقتل من قَدَر عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه ،
وكان ممن قتلهم عمر بن سعد بن أبي وقاص وابنه . وبعث برأسيهما إلى محمد
ابن الحنفية . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٨ — خطبة المختار وقد استنصره ابن الحنفية

ولما كتب محمد بن الحنفية رضى الله عنه إلى المختار يعلمه بما ناله هو ومن
معه من ابن الزبير من سَجَنَهُمْ وتوعدهم بالقتل والتحريق بالنار إن لم يبايعوا له ^(٤)

[١] الواعية : الصراخ على الميب ونعيه (ولا فعل له) والمعنى : كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب
نعيهم وصراخهم على من قتل من الحسين وأصحابه ، فهو يستثيرهم لطلب الدار من أعدائهم الذين لم يكفهم
ما اقترفوه من قتل الحسين وشيعته ، بل ضموا إلى جرمهم أن قتلوا من نعى هؤلاء الشهداء وبكاهم .
[٢] الكفة بالكسر ويضم : حباله العائد ، وكل مستدير . [٣] الفجاج : جمع فج ، وهو
الطريق الواسع .

[٤] وذلك أن محمد بن الحنفية كان قد أتى أن يبايع ابن الزبير إذ ذكره البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة —
وكان ابن الزبير يفضيه ويحسده على أيده وقوته — حبسه مع أربعة عشر رجلا من بني هاشم في سجن طرم
وقال : لتبايس أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهداً إن لم يبايعوا أن ينفذ بهم ما توعدهم به ، وضرب لهم في

نادى المختار في الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقال :

« هذا كتاب مَهْدِيَّكُمْ ، وصریح ^(١) أهل بيت نبيكم ، وقد تُرِكُوا
مَحْظُوراً ^(٢) عليهم كما يُحْظَرُ على الغنم ، ينتظرون القتل والتحريق بالنار ، في آناء
الليل وتارات ^(٣) النهار ، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مُؤَزَّراً ^(٤) ، وإن لم
أسرّب إليهم الخيل في إثر الخيل ، كالسَّيْلِ يتلوه السيل ، حتى يَحُلَّ بابن
الكاهلية ^(٥) الويلُ » .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٣٦)

ذلك أجلا ، فكتب ابن الحمية إلى المختار مستصرخا ، فوجه إليه جماعة من أصحابه ، وكانوا يسرون الليل
ويكمنون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقي من الأجل
يومان . فكسروا سجن طرم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وقالوا له : خل بيننا وبين عدو الله
ابن الزبير ، فقال لهم : إني لأستحل القتال في حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على .

[١] الصريح : الخالس من كل شيء . [٢] حذر الشيء وتليه (كقتل) منه وحجر ، ويقال لما
حظر به على العم وغيرها ليمسها ويحفظها خطيرة . [٣] جمع تارة وهي هنا الحين .
[٤] نصر : مؤزر أى بالغ شديد من التأذير وهو التقوية .

[٥] ابن الكاهلية ، هو عبد الله بن الزبير ، والكاهلية أم أبي جده ، وهو عبد الله بن الزبير بن العوام
ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، والكاهلية أم خويلد بن أسد ، واسمها زهرة بنت
همرو بن خنثر بن ربيعة بن هلال من بني كاهل بن أسد بن خزيمه ، وروى أن عبد الله بن فضالة بن شريك
الوالي الأسدي — من بني أسد بن خزيمه — أتى ابن الزبير فقال له : « فعدت نفقتى ، ونفقت راحلتى
(نفقت الحب كفرح رقى) قال : أحضرها فأحضرها ، فقال : أقبل بها أدبر بها ففعل ، فقال : « ارفعها
بسبت ، واخصفها برب ، واتخذ بها يبرد خفها ، وسر البردين نصح » (والسبت كحمل كل جلد مذبوح
والهلب كقفل الشعر أو ما علف منه أو شعر الدب أو شعر الخنزير الذي يغرز به ، والبردان بفتح الباء
وسكون الراء ، والأبردان : الذداة والعشى) فقال ابن فضالة : إني أتيتك مسحلا ، ولم آتاك مستوصفاً
فلعن الله ناقة حملتني إليك (مستحلا أى طالباً أن تحملى على ناقة أخرى تعطينها) قال ابن الزبير : « إن
وراكبها » (وإن هنا حرف جواب بمعنى نعم كأنه إقرار بما قال ، ومثله قول ابن قيس الرقيات :
ويقطن شيب قد صلا لك وقد كبرت فقلت إنه)

فانصرف عنه ابن فضالة ، وقال فيه شعراً منه قوله :

أقول لعلني شدوا ركابي أجاوز بطن مكة في سواد

فألى حين أقطع ذات عرق إلى ابن الكاهلية من معاد

فقال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : « علم أنها شر أمهاتى فغيرنى بها وهي خير صماته » — انظر الأغانى
« ٨ : ١ » وشرح ابن أبي الحديد « م ٤ : ص ٤٦٥ » وجمع الأمثال للبديانى (١ : ٧٥) وفيه

٧٩ — خطبته وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد^(١)

وخرج يشيع^(٢) إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد^(٣)

فقال للناس :

« فلما بلغ الشعر ابن الزبير قال : لو علم لي أما الأم من صنته لسبي بها » وبهذه المناسبة يقول : إن ابن الزبير كان شديد البخل وكان ذلك من أعظم أسباب إخفاقه وانفضاض الناس من حوله ، رووا أنه كان يطعم جنده تمرأ ويأمرهم بالحرب ، فإذا فروا من وقع السيوف لامهم وقال لهم : أكلتم تمرى ، وعصيتم أمرى ، فقال بعضهم :

ألم تر عبد الله والله غالب على أمره يعني الخلافة بالتمر
وكسر بعض جنده حمة أرماع في صدور أصحاب الحجاج ، وكلما كسر رعباً أعطاه رعباً ، فشق عليه ذلك ، وقال : خمسة أرماع ! لا يمتثل بيت مال المسلمين هذا ، وجاءه أعرابي سائل فردّه ، فقال له : لقد أحرقت الرمضاء قدماً فقال : بلّ عليهما يبردا ، (ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧) وقدم عليه معن بن أوس بمكة ، فأنزله دار الصيفان — وكان ينزلها الغرباء وأثناء السبيل والصيفان — فأقام يومه لم يطعم شيئاً ، حتى إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير بتيس هرم هزيل ، فقال : كلوا من هذا وهم ذئب وسبعون رجلاً ، فعضب من وخرج من عنده ، فأتى ابن عباس فقراه وحمله وكساه ثم أتى عبد الله بن جعفر فأعطاه حتى أرساه ، وأقام عنده ثلاثاً حتى رحل ، فقال معن في ذلك :

رما أبو بكر (وقد طال يومنا) بتيس من الساء الحجارى أعفر
وقال : اطعوا منه « ونحن ثلاثة » وسبعون إنساناً « فبالؤم محبر !
قلنا له : لا تهربا ، فأماننا جعان ابن عباس العسلا وابن جعفر
وكى آماً وارفق بتيسك إنه له أعز ينزو عليها ، وأبشر

« الأغاني ج ١٠ : ص ١٥٧ »

وقال عبد الملك بن مروان : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائساً » « تاريخ الطبرى ج ٨ : ص ٥٨ »
[١] قدمنا لك أن مروان بن الحكم لما تمت له البيعة بعث إلى المراق جيشاً عليه عبيد الله بن زياد ، وعلمت ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بين الوردية من أرض الجزيرة ثم التقى به ابن الأشتر على شاطئ نهر خازر من أرض الموصل . [٢] وقد خرج بشيعة ماشياً ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا إسحاق ، فقال : إني أحب أن تغبر قدمى في نصرته آل محمد صلى الله عليه وسلم مشيعة فرسحين .
[٣] وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حملاً أيضاً ضحاًماً ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا ودعوهما ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوهما ، فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة في أول النهار ، فأرسل أصحاب الخنزير الطير ، فنصائح الناس : الملائكة ! فراجعوا واقتتل الناس حتى اختلط الدلام ، وأسرع القتل في أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفنوا ، وقال ابن الأشتر : لقد صربت رجلاً على شاطئ هذا النهر ، فرجع إلى سبى فوجدت منه رائحة المسك ، ورأيت لإقداماً وجرأة نصرته ، فذهبت يده قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب ، فانظروا فالتسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد ، وكان مقتله سنة ٦٧ هـ .

« إن استقمتم فبصر الله ، وإن حِصْتُمْ حِيَصَةً ^(١) فَإِنِّي أَجِدُ فِي مُحْكَمِ الْكِتَابِ ، وَفِي الْيَقِينِ وَالصَّوَابِ ، أَنَّ اللَّهَ مُؤَيِّدُكُمْ بِلَا تُكْةٍ غَضَابٍ ، تَأْتِي فِي صُورِ الْحَمَامِ دُورِينَ ^(٢) السَّحَابِ » . (الكامل للبهرد ٢ : ١٦٩)

٨٠ — خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير

ولما بلغ المختار مسير مُصْعَبِ بْنِ الزَّبِيرِ إِلَيْهِ مِنَ الْبَصْرَةِ ^(٣) ، قَامَ فِي أَصْحَابِهِ فَمَدَّ يَدَهُ إِلَى اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، يَا أَهْلَ الدِّينِ ، وَأَعْوَانَ الْحَقِّ ، وَأَنْصَارَ الضَّعِيفِ ، وَشِيعَةَ الرَّسُولِ ، وَآلَ الرَّسُولِ ، إِنْ قُرَّارَكُمْ الَّذِينَ بَغَوْا عَلَيْكُمْ أَتَوْا أَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْفَاسِقِينَ فَاسْتَغْوَوْهُمْ عَلَيْكُمْ ، لِيَمْنَحَ ^(٤) الْحَقُّ ، وَيَنْتَعِشَ الْبَاطِلُ ، وَيُقْتَلَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَوْ تَهْلِكُونَ مَا عُبِدَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِالْفَرَى ^(٥) عَلَى اللَّهِ ، وَاللَّعْنُ لِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، أَنْتَدِبُوا ^(٦) مَعَ أَهْمَرِ بْنِ شُمَيْطَ : فَإِنْكُمْ لَوْ قَدْ لَقِيتُمُوهُمْ لَقَدْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَتْلَ حَادٍ ^(٧) وَإِرَمَ » .

وتراحف الجندان ، وانهزم أصحاب المختار ، وقتل (في رمضان سنة ٦٧) ^(٨) (تاريخ الطبري ٧ : ١٤٨)

[١] حاص يجمع حيصاً : عدل وهرب . [٢] مصغر دون : أى قريباً منه .

[٣] وكان أخوه عبد الله بن الزبير معه فلما (سنة ٦٧ هـ) بعد عزل التابع عنها (والقباع كشجاع هو الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر) فقدم على مصعب شعث بن رعي ، وجاءه أشراف الناس من أهل الكوفة ، وأخبروه بما اجتماعوا له وبما أصيبوا به ، ووثوب عبيدهم ومواليهم ، وشكوا إليه وسألوه النصر لهم ، والسير إلى المختار معهم .

[٤] مصح كنع : ذهب وانقطع ، والثوب أخلق ، والنبات ولي لون زدره ، والذل قصر .

[٥] فرى الكذب كرمى : اختلقه كفتراه . [٦] انتدب إليه : أسرع .

[٧] أى أبدعهم كما باد هؤلاء .

[٨] قال أبو العباس المبرد في الكامل (٢ : ١٦٧) وكان المختار لا يوقف له على مذهب كان خارجياً ، ثم صار رافضياً في ظاهره ، وكان يدهي أنه يلهيهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون ، ثم يحتال فيوقعها ،

٨١ — خطبة محمد بن الحنفية

يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام

« خطب ابن الزبير فنال من الإمام على كرم الله وجهه ، فبلغ ذلك ابنه

فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل ، فن ذلك قوله ذات يوم : « لَتَنْزِلَنَّ مِنَ السَّمَاءِ ، نَارٌ دَهْمَاءٌ ، فَتَحْرِقَنَّ دَارَ أَسْمَاءَ » فذكر ذلك لأسماء بن خزيمة ، فقال : أوقد سبع أبو إسحق ؟ هو والله عرق داري ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال في بعض سجنه : « أَمَا وَالَّذِي شَرَعَ الْأَدْيَانَ ، وَجَنَّبَ الْأَوْثَانَ ، وَكَرَّهَ الْعَصِيَانَ ، لِأَقْتَانٍ أَرْدُ دُعْمَانَ ، وَجُلَّ قَيْسِ عَيْلَانَ ، وَتَمَيَّا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، حَاشَا النَّجِيبَ ظَبْيَانِ » وكان ظبيان النجيب يقول : لم أزل في عمر المختار أقلب آمناً .

وقال ابن عبد ربه في المقد الفريد (٢ : ٢٦٥) : « ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة ، وعمر ابن سعد جعل يمنع قتلة الحسين بن علي ومن خذله فقتلهم أجمعين ، فلما أفتاهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك نفيته أظهر للناس قبح نيته ، فادّعى أن حبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحي من الله ، وكتب إلى أهل البصرة « بلغني أنكم تكذبونني وتكذبون رسلي ، وقد كذبت الأنبياء من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » فلما انتشر ذلك عنه كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير (يعني مصعباً) وهو بالبصرة فخرج إليه ، وبرز إليه المختار فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل أصحابه .

وقال الشهرستاني في الملل والنحل (١ : ١٥٣) : « ومن مذهب المختار أنه يجوز البدء على الله تعالى ، والبدء له معاني ، البدء في العلم وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبدء في الإرادة وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبدء في الأمر وهو أن يأمر بشيء ثم يأمر بعبده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبدء ، لأنه كان يدعي علم ما يحدث من الأحوال ، لما يوحى يوحى إليه ، ولما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دعائه ورجاله ، وتبرأ من الضلالات التي ابتدئها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق الموهمة ، فن مخاريقه أنه كان عنده كرسي قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة النابوت لبني إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه في براح الصف ، ويقول : قاتلوا ولكم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسي عمل فيكم عمل النابوت في بني إسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم يزلون مدداً لكم (أخذاً من

محمد بن الحنفية رضى الله عنه ، فأقبل حتى وُضِعَ لَهُ كُرْسِيٌّ قَدَامَهُ ، فعلاه وقال :
 « يا معشر قریش ، شأهت الوجوه ^(١) ، أَيْنَتَقَصَّ عَلَى وَأَنْتُمْ حُضُورٌ ؟ إِنْ عَلِيًّا كَانَ
 مَعَهُمَا صَادِقًا ، أَحَدًا مَرَأَى اللّٰهَ عَلَى أَعْدَائِهِ ، يَقْتُلُهُمْ لِكُفْرِهِمْ ، وَيُهَوِّعُهُمْ ^(٢)
 مَا كَلِمَتُهُمْ ، فَتَقُلَّ عَلَيْهِمْ ، فَرَمَوْهُ بِصِرْفَةٍ ^(٣) الْبَاطِلِ ، وَإِنَّا مَعْشَرُهُ عَلَى نَهْجٍ ^(٤)
 مِنْ أَمْرِهِ بِنَوَاحِشِئَةِ ^(٥) مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَإِنْ تَكُنْ لَنَا الْأَيَّامُ دَوْلَةٌ نَشْرُ عِظَامَهُمْ ،
 وَنَحْسِرُ ^(٦) عَنْ أَجْسَادِهِمْ ، وَالْأَبْدَانُ يَوْمُئِذٍ بِأَلِيَّةٍ : وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
 يَنْقَلِبُونَ » .

فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال : « عذرت بنى الفواطم يتكلمون ، فما
 بال بنى الحنفية ؟ » فقال محمد : « يابن أم رومان ^(٧) ، ومالى لأتكلّم ؟ أليست
 فاطمة بنت محمد حليّة ^(٨) أبى وأمّ إخوتى ؟ أليست فاطمة ^(٩) بنت أسد

قوله تعالى : « وَفَالَهُمْ نَبِيٌّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ
 مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ويقال إنه اشتراه بدرهمين من نجار - انظر قصته فى تاريخ
 الطبرى (٧ : ١٤٠)

[١] شاه وجهه : قبح . [٢] هو عه ما أكل : قيام إياه . [٣] مؤنت صرف ، والصرف :
 الخالص من كل شىء ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأباطيل : جمع أبطولة بضم الهزرة أو
 إبطالة بكسرهما أو هو جمع باطل على غير قياس . [٤] النهج : الطريق الواضح .

[٥] الحسبة : الاحتساب (طلب الأجر) فى الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات دو البدار إلى
 طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً
 للثواب المرجو بها . [٦] حصره كنصر وضرب : كشفه . [٧] أم رومان بنت عامر من زوج
 أبى بكر رضى الله عنه وأم السيدة عائشة . [٨] زوجته .

[٩] هى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم الإمام على كرم الله وجهه ، وقد أسلمت بعد
 عشر من المسلمين فكانت الحادى عشر ، وهى أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء .

ابن هاشم جدّتي ؟ أو ليست فاطمة ^(١) بنت عمرو بن عائذ جدة أبي ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ^(٢) ما تركت في بني أسد عظماً إلا هشمته ، وإن نالتني فيه المصائب صبرت . (مروج الذهب ٢ : ١٠٢)

٨٢ — عبد الله بن عباس ومعاوية

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش ، فلما سلم وجلس ، قال له معاوية : « إني أريد أن أسألك عن مسائل » قال : « سل عما بدا لك » . قال : « ما تقول في أبي بكر ؟ » قال : « رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تالياً ، وعن المنكر ناهياً ، وبذنبه عارفاً ، ومن الله خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبالمعروف آمراً ، وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً ^(٣) ، وسادهم زهداً وعفافاً ، فغضب الله على من أبغضه وطعن عليه » . قال معاوية : « إيهي ^(٤) يا بن عباس ، فما تقول في عمر بن الخطاب ؟ » قال : « رحم الله أبا حفص عمر ، كان والله حليف الإسلام ، ومأوى الأيتام ، ومنتهى الإحسان ، ومحل الإيمان ، وكهف ^(٥) الضعفاء ، ومعقل الحنفاء ^(٦) ، قام بحق الله عز وجل صابراً محتسباً ^(٧) ، حتى أوضح الدين ، وفتح البلاد ، وأمن العباد ، فأعقب الله على من ينقضه اللعنة إلى يوم الدين » . قال : « فما تقول في عثمان ؟ » قال : « رحم الله أبا عمرو وكان والله أكرم الجماعة ^(٨) ، وأفضل البرّة ، هجّاداً ^(٩)

[١] هي فاطمة بنت عمرو بن عمران بن مخزوم أمّ أبي طالب ، وهي أمّ عبد الله والد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . [٢] هي زوج النبي صلى الله عليه وسلم وعمّة الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد . [٣] أي رضا بالكفاف ، والكفاف من الرزق ما كفّ عن الناس وأغنى . [٤] أمر بالسكوت أي حسبك . [٥] الكهف : الملجأ ، وكذا العقل . [٦] جمع خفيف ، وهو الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه . [٧] احتسب بكذا أجراً عند الله : اعتدّه ينوي به وجه الله . [٨] الكرام ، يقال لكريم : جسد بفتح فسكون ، فأما إذا قيل فلان جعد السيدين أو جعد الأنامل فهو البخيل ، وربما لم يذكروا معه اليد . [٩] الهجاء والهجود : بفتح الهاء ، والمتهجّد : المصلّي بالليل .

بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهائاً عند كل مكرمة ، سباقاً إلى كل منحة ، حياً أياً وفيها ، صاحب جيش المصرة^(١) ، وختن^(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأعقب الله على من يلعبه لعنة اللاعنين ، إلى يوم الدين » قال : « فما تقول في علي ؟ » قال : « رضى الله عن أبي الحسن ، كان والله علم الهدى ، وكهف الثقي ، ونحمل الحجا^(٣) ، وبحر الندى ، وطود النهي^(٤) ، وكهف العلا ، للورى داعياً إلى المحجة^(٥) ، متمسكا بالمرؤة الوثقى ، خير من آمن واتقى ، وأفضل من تقمص وارتدى ، وأبر من اتعل وسعى^(٦) ، وأفصح من تنفس وقرا ، وأكثر من شهد النجوى - سوى الأنبياء والنبي المصطفى - صاحب القبليتين ، فهل يوازيه أحد ؟ وأبو السبطين^(٧) فهل يقارنه بشر ؟ ، وزوج خير النسوان^(٨) ، فهل يفوقه قاطن بلد ؟ للأسود قتال ، وفي الحروب ختال^(٩) ، لم ترعيني مثله ولن ترى ، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد ، إلى يوم التناد^(١٠) » قال : « إيهما يا بن عباس ، لقد أكثر في ابن عمك . قال : « فما تقول في أليك العباس ؟ » قال : « رحم الله العباس - أبا الفضل ، كان صنو^(١١) نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقرّة عين صفي الله ، سيد الأعمام ، له أخلاق آباءه الأجواد ، وأحلام أجداده الأعجاد ، تباعدت

[١] تقدم شرحه في خطبة ذي الكلاع الجبرى . راجع الجزء الأول ص ١٦٤

[٢] أى صهره وقد تزوج السيدة رقية والسيدة أم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٣] الحمل في الأصل : شقان على البير يحمل فيهما العدلان ، والحجا : العقل والفتنة .

[٤] الطود : الجبل ، والنهى العقل . [٥] الطريق الواضح . [٦] في الأصل « واسعا »

وهو تحريف . [٧] الحسن والحسين رضى الله عنهما وهما سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(والسبط ولد الولد) . [٨] السيدة فاطمة رضى الله عنها . [٩] خداع من الحمل وهو الخداع

والمراد أنه ذو بصير بالحروب . [١٠] يوم القيامة .

[١١] الأصل فيه أنه إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو والاتنان

صنوان والجمع صنوان برفع النون .

الأسباب في فضيلته ، صاحب البيت والسّاقية والمّشاعر ^(١) والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك ، وقد ساسه أكرم من دبّ ^(٢) ؟ فقال معاوية : « يابن عباس ، أنا أعلم أنك كلّما نيتي ^(٣) أهل بيتك » قال : « ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم فقّهه في الدين ، وعلمه التأويل » .

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : « يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه ، خصّ محمداً صلى الله عليه وسلم بصحابة آثروه على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه في كل حال ، ووصفهم الله في كتابه فقال : « رَحْمَاءُ يَنْتَهُمُ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَتَتَعُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الشُّجُودِ » ، قاموا بمعالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقه ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاء ^(٤) الله ، واستقرّ دينه ، ووضّحت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك ، وأزال رُوحه ، ومحا دعائمه ، وصارت كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا في الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أصحياء ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بعد فيها » ، فقطع عليه معاوية الكلام ، وقال : إيها ابن عباس ، حديثاً في غير هذا .

(مروج الذهب ٢ : ٨٤)

[١] شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشميرة والشعارة بالفتح ، والمشر : موضعها ، والمشر الحرام بالمزدلفة . [٢] في الأصل : « من دبّ » أي مشى والمعنى عليه صحيح ، ولكنني أرجح أنه « من أدب » لقوله « وقد ساسه » . [٣] رجل كلماني بسكون اللام وفتحها وكلماني بكسرتين مشددة اللام ، وبكسرتين مشددة الميم ، وتكلام وتكلامه بكسرة فسكون وتشد لهما : جيد الكلام فصيح . [٤] الآلاء : النعم جمع إلى (بفتح أوله وكسره) وألو (بفتح أوله) وألى (بفتح ثانيه وفتح أوله او كسره) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية حَقَّاراً له ^(١) ، فبلغه عنه بعض ما غمه ، فقال معاوية :

٨٣ - مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كَانَا صَفِيَّيْنِ ^(٢) دون الناس ، خَفِظْتُ المِيتَ في الحى ، والحى في الميت ، استعملك على يابن عباس على البصرة ، واستعمل عُبيد الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك ^(٣) على المدينة ، فلما كَانَ من الأمر ما كان ، هَنَأْتِكُمْ ^(٤) ما فى أيديكم ، ولم أَكْشِفْكُمْ عما وَعَت غرائركم ^(٥) ، وقلت آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيأتكم ما أَكَلْتُمْ ، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذاتم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وحرار بتمونى بِصِيفَيْنِ ، ولعمري لَبَنُوتَيْمٍ وَعَدِيَّ ^(٦) أعظم ذنوباً منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسنؤا فيكم هذه السنَّة ، فحتى متى أَغْضِي الجفون على القَذَى ^(٧) ، وأسحب الذبول على الأذى ، وأقول لعلَّ الله وعسى ! ما تقول يابن عباس ؟

[١] أى كثير التحقير له . [٢] الصنى : الحبيب المصافى . [٣] لما جاء عليا الخبر عن طلحة والزبير وعائشة أُنْصَر على المدينة تمام بن العباس ، وبعث إلى مكة فثم بن العباس (ثم كعمر) وخرج اليوم [٤] هنأه كنع وصرب : أطعمه وأعطاه . [٥] جمع غرارة بالكسر وهى الجوالق (الدوال) . [٦] يعنى يبنى تيم أبا بكر الصديق (وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى) ويعنى يبنى عدى صر بن الخطاب (وهو من عدى بن كعب بن لؤى) . [٧] القذى : ما يقع فى العين والشراب .

٨٤ — مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال :

« رحم الله أبانا وأباك ، كانا صفيين متفاوضين ^(١) ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فَضَلَ لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي ، ولكن من هنا أباك بإخاء أبي أكثر ممن هنا أبي بإخاء أبيك ، نصر أبي أباك في الجاهلية ، وَحَقَّنَ دمه في الإسلام ^(٢) ، وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجالا لهواك لا لنفسك ، منهم ابن الحضرميّ على البصرة فقتل ، وبُسْر بن أرطاة على اليمن نخان ، وحبيب بن مرة على الحجاز قرْدٌ ، والضحّاك بن قيس الفهري على الكوفة فحُصِبَ ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا ، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك ، ولو وُضِعَ أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمَحَقَّهَا ، ولو وُضِعَ أدنى عذرنا إليكم على مائة سيئة لحَسَنَّاها ، وأما خذلنا عثمان فلو لَزِمْنَا نَصْرَهُ لَنَصَرْنَاهُ ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حربنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحقَّ وادِّعائك الباطل ، وإما إغراؤك إيانا بتيمة وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها » وسكت . (المقد الفريد ٢ : ١١٠)

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٥ — مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوماً على ابن عباس ، فقال :

« لو وليتمونا ما أتيتم إلينا ما أتينا إليكم من الترحيب والتقريب وإعطائكم

[١] التفاوض : الاشتراك في كل شيء والمساواة . [٢] يشير إلى ما كان من العباس إذ شفع عند النبي عليه الصلاة والسلام في أبي سفيان يوم فتح مكة .

الجزيل ، وإكرامكم على القليل ، وصبرى على ما صَبَرْتُ عليه منكم ، إني لا أريد أمراً إلا أَظْلَمْتُمُ صَدْرَهُ ^(١) ، ولا آتى معروفاً إلا صَغَرْتُمُ خَطَرَهُ ^(٢) ، وأعطيتكم العطية فيها قضاء حقوقكم ، فتأخذونها متكارهين عليها ، تقولون قد نَقَصَ الحَقَّ دون الأمل ، فأى أمل بعد ألف ألف أعطيها الرجل منكم ، ثم أكون أَسْرَ بإعطائها ، منه بأخذها ؟ والله لئن انخدعت لكم فى مالى ، وذَلَلْتُ لكم فى عرضى ، أرى أنخداعى كرماً ، وذَلَّى حلماً ، ولو وليتمونا رضينا منكم بالانتصاف ، ولا نسألكم أموالكم لعلمنا بحالكم وحالنا ، ويكون أبغضها إلينا أَحَبَّهَا إِلَيْكُمْ أَنْ نُعْفِيَكُمْ .

٨٦ — مقال ابن عباس

فقال ابن عباس :

« لو وَلَيْنَا أَحْسَنًا المَوَاسَاةَ ، وَاَمْتَنْنَا بِالْآثَرَةِ ^(٣) ، ثم لم نَفْشِم ^(٤) الحى ، ولم نَشْتُمِ الميت ^(٥) ، فلستم بأجودَ منا أَكْفًا ، ولا أَكْرَمَ أَنْفُسًا ، ولا أَصَوْنَ لَأَعْرَاضِ المروءة ، ونحن والله أَعْطَى لِلاَخِرَةِ منكم للدنيا ، وَأَعْطَى فى الحَقِّ منكم فى الباطل ، وَأَعْطَى على التقوى منكم على الهوى ، وَالْقَسَمُ بالسَّوِيَّةِ والعدل فى الرعية يَأْتِيَانِ على المنى والأمل ، مَا أَرْضَاكُمْ مِنَّا بِالْكَفَافِ ، فلورضيتُم مِنَّا لم نرض بِأَنْفُسِنَا بِهِ لَكُمْ ، وَالْكَفَافُ رِضًا مِنْ لَاحِقٍ لَهُ ، فَلَا تُبَخِّلُونَا ^(٦) حتى تسألونا ، وَلَا تَلْفُظُونَا حتى تذوقونا . »

(العقد الفريد ٢ : ١١١)

[١] يقال ورد الماء ليستقى ثم صدر عنه أى رجع ، صدرأ « يسكون الدال » وصدوراً والاسم منه الصدر « بفتحين » أى أصدرتم ورددتم وأردم ظمآن لاريان ، يريد أنهم دائبون على مخالفته فى كل أمر ، يرون ضد رأيه . [٢] قدره وشأه . [٣] استأثر على أصحابه : اخذار لنفسه أشياء حسنة والاسم الأثرة ، والمعنى وامتنا أى وتفضلنا وأمننا بما نستأثر به . [٤] ششمه غشما : ظلمه . [٥] يعرض به فى سبه عليا على المنابر . [٦] لانرمونا بالبخل (بجمله بالنشديد : رماه بالبخل ، وأبخله : وجده بخيلاً) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٨٧ — مقال معاوية لبني هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

« يا بني هاشم : والله إن خيري لكم لمنوح ، وإن بابي لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيري عنكم علةٌ ، ولا يُوصدُ^(١) بابي دونكم مسألةٌ ، ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمراً مختلفاً ، إنكم لترون أنكم أحق بما في يدي مني ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلتم أعطانا دون حقنا ، وقصّر بنا عن قدرنا ، فصرت كالمسلوب ، والمسلوب لا حمد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم »

٨٨ — مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

« والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه ، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك ، لله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفرن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين ، ولنا في كتاب الله حقان : حق في الغنيمة ، وحق في النية . فالغنيمة : ما غلبنا عليه ، والنية : ما اجتبيناه ، ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر ، يحمله خُفٌ ولا حافر ، أكفاك أم أزيدك ؟ قال : كفاني فإنك لا تُعزُّ^(٢) ، ولا تُشجُّ^(٣) . »

(العقد الفريد ٢ : ١١١)

[١] أي ولا يفتق « وفي الأصل ولا يوجد » وهو تحريف . [٢] لا تعز أي لا تغلب ، عزه

يعزه (كنصره) عزاً (بالفتح) غلبه « وفي الأصل لا تعز » وهو مصحف .

[٣] شج رأسه : جرحه ، والمراد لا تغلب ولا تهزم .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٨٩ — مقال معاوية

وقال يوماً معاوية وعنده ابن عباس : « إذا جاءت بنوهاشم ^(١) بقديعها وحديثها ، وجاءت بنو أمية ^(٢) بأحلامها وسياستها ، وبنو أسد ^(٣) بن عبد العزى بوافدها وديانها ، وبنو عبد الدار ^(٤) بحجابتها ولوائها ، وبنو مخزوم ^(٥) بأموالها وأفعالها ، وبنو تيم ^(٦) بصديقتها وجوادها ، وبنو عدي ^(٧) بفاروقها ومتفكرها ، وبنو سهم ^(٨) بأرائها ودهائها ، وبنو جهم ^(٩) بشرفها وأنوفها ^(١٠) ، وبنو عامر ابن لؤي بفارسها وقريعها ^(١١) فمن ذا يحمل مضارها ، ويجري إلى غايتها ، ما تقول يا ابن عباس ؟

[١] بنوهاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة الخ . [٢] بنو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

[٣] بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب .

[٤] بنو عبد الدار بن قصي ، والحجابة سدانة البيت الشريف أي تولى مفاتيحه وخدمته ، واللواء راية يلونها على رمح وينصبونها علامة للمسكر إذا توجهوا إلى محاربة عدو فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها ، وكان قصي بن كلاب قد ولي البيت الحرام وأمر مكة والحكم بها ، وابني داراً بها وهي دار الندوة ، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها ، وقد ولد له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد ، فلما كبر قصي ورق ، مال لابنه عبد الدار — وهو أكبر ولده ، وكان فيما يزعمون ضيقاً ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه ، وذهب كل مذهب ، وعد العزى ، وعبد — « أما والله لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تحتها ، ولا يعقد لقريش لواء الحرب إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها إلا في دارك ، فأعطاء داره دار الندوة ، وأعطاء الحجابة ، واللواء والندوة ، والسقاية ، والرفادة ، (وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي به فيصنع طعاماً للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ممن يحضر للموسم) . [٥] بنو مخزوم بن يقظة (بالتحريك) بن مرة بن كعب بن لؤي . [٦] بنو تيم بن مرة بن كعب بن لؤي .

[٧] بنو عدي بن كعب بن لؤي . [٨] بنو سهم بن هميم (كزير) بن كعب بن لؤي ، وبنوهم

همرو بن الماس السهمي . [٩] بنو جهم بن هميم بن كعب . [١٠] جمع أنف وهو السيد .

[١١] القريع : القارح .

٩٠ — مقال ابن عباس

قال : « لا أقول ليس حتى يَفْخَرُونَ بأمرٍ إلا وإلى جنبهم من يَشْرَكُهم إلا قُرَيْشًا ، فإنهم يَفْخَرُونَ بالنبوة التي لا يشاركون فيها ، ولا يُسَاوُونَ بها ، ولا يُدْفَعُونَ عنها ، وأشهد أن الله لم يجعل محمدًا من قريش إلا وقريش خير البرية ، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم ، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به ، إنَّ بنا فُتِحَ الأمرُ وبنا يُخْتَمُ ، ولك مُلْكٌ مُعْجَلٌ ، ولنا ملكٌ مُوَجَّلٌ ، فإن يكن ملككم قبل ملكنا ، فليس بعد ملكنا ملك ، لأنَّ أهل العاقبة ، والعاقبة للمتقين . (المقد الفريد ٢ : ١١٢)

٩١ — عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاوية نَعَى الحسن بن عليّ رضي الله عنه أظهر الفرح والسرور ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية : يا ابن عباس هلك الحسن ابن عليّ ، فقال ابن عباس :

« نعم هلك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ترجيعاً مكرراً ، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لو فاته ، أما والله ماسد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله في عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أُصِبتنا به لقد أُصِبتنا بمن كان خيراً منه ، جدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجبر الله مصيبتَه ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة » ثم شهق وبكى ، وبكى من حضر في المجلس ، وبكى معاوية . (الإمامة والسياسة ١ : ١٢٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٢)

٩٢ - عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

قال عُتْبَةُ بن أبي سَفْيَانَ لابن عباس : « ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحَكَمَيْن ؟ » قال : « منعهُ والله من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مَدَارِجِ نَفْسِهِ ، نَاقِضًا لما أبرم ، ومبرمًا لما نقض ، أُسِفٌ ^(١) إِذَا طَارَ ، وَأَطِيرُ إِذَا أَسَفَ ، ولكن مضى قدر ، وبقي أسف ، ومع يومنا غد ، وَالْآخِرَةُ خَيْرُ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأُولَى » . (معجز القرآن ١٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٥ ، وأمالى المرتضى ١ : ٢٠٧)

مخاصمة

بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

قال ابن أبي الحديد : « روى المدائني قال : وقد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد . ولزياد بن سُمَيَّةَ . وعُتْبَةُ بن أبي سفيان . ومروان بن الحكم . وعمر بن العاص . والمغيرة بن شُعْبَةَ . وسعيد بن العاص . وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس . وما كان شَجَرٌ ^(٢) بيننا وبينه وبين ابن عمه ، ولقد كان نَصَبُهُ لِلتَّحْكِيمِ فذُفِعَ عَنْهُ ^(٣) ، فخرَّ كَوْهٌ عَلَى الْكَلَامِ لِنَبْلَغِ حَقِيقَةِ صِفَتِهِ ، وَتَقِفَ عَلَى كُنْهٍ مَعْرِفَتِهِ ، وَنَعْرِفَ مَا صُرِفَ عَنَّا مِنْ شَبَابٍ ^(٤) حِدَّةً . ووُورِي عَنَا مِنْ دِهَاءِ رَأْيِهِ ، فَرَبَّمَا وَصِفَ الْمَرْءَ بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ . وَأُعْطِيَ مِنَ النِّعَتِ وَالْإِسْمِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ . ثم أرسل إلى عبد الله ابن عباس . فلما دخل واستقر به المجلس . ابتدأه ابن أبي سفيان فقال : يا ابن عباس ما منع عليا أن يُوجَّهَ بِكَ حَكْمًا ؟

[١] أَسَفُ الطَّائِرِ : دَنَا مِنَ الْأَرْضِ فِي طَيْرَانِهِ .

[٢] شَجَرٌ بَيْنَهُمُ الْأَمْرُ : تَنَازَعُوا فِيهِ . [٣] لَمَّا رَأَى عَلَى إِصْرَارٍ مِنْ قَبْلِهِ التَّحْكِيمَ مِنْ قَوْمِهِ وَتَشَبُّهَهُمْ

بِقَبُولِهِ أَشَارَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَارُوا ابْنَ عَبَّاسٍ أَوْ الْأَشْجَرَ النَّخَعِيَّ حَكَمًا مِنْ قِبَلِهِمْ فَأَبَوْا إِلَّا أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ .

[٤] الشَّبَابُ جَمْعُ شَبَابَةٍ ، وَهِيَ حَدَثُ كُلِّ شَيْءٍ .

٩٣ — جواب ابن عباس

فقال : « أما والله لو فعل لقرن عمرًا بصعبة من الإبل ، يُوجع كتفيه من أسها ^(١) ، ولأذهلت عقله ، وأجرصته بريقه ^(٢) ، وقدحت في سويداء قلبه ، فلم يُبرم أمرًا ، ولم ينفض ترابًا إلا كنت منه برأى ومسمع ، فإن نكته أرمت ^(٣) قواه ، وإن أرمه فصمت ^(٤) عراه ، بغرب ^(٥) مقول لا يفل حده ، وأصالة رأي كمتاح ^(٦) الأجل لا وزر منه ، أصدع ^(٧) به أديمة ، وأفل به شبا حده ، وأشحد به عزائم المعتز ^(٨) ، وأزيح به شبه الشاكين . »

٩٤ — مقال عمرو بن العاص

فقال عمرو بن العاص : « هذا والله يا أمير المؤمنين نجوم ^(٩) أول الشر ، وأقول آخر الخير ، وفي حسنه قطع مادته ، فبادرته بالحملة ، وانتهاز منه الفرصة ، واردع بالتنكيل به غيره ، وشرّد به من خلفه . »

٩٥ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « يا ابن النّابغة ، ضل والله عقلك ، وسفه حلمك ، ونطق الشيطان على لسانك ، هلاّ توليت ذلك بنفسك يوم صفين ، حين دُعيت

[١] أى علاجها وقيادتها . [٢] جرض بريقه كمرح ابتاعه بالجهد على م ، وأجرصه بريقه : أغصه . [٣] أرم الجبل : قتله شديداً . [٤] حلت . [٥] الغرب : حد كل شيء ، والمقول : اللسان . [٦] من إضافة الصفة للموصوف أى كالأجل المتاح أى التمدر والوزر الملجأ . [٧] أشق ، والأديم : الجلد ، وهو كناية عن غلبته إياه وانتصاره عليه . [٨] فى الأصل « انتقى » وقد بحث فى كتب اللغة عن مادة « قيز » فلم أجده هذه المادة ، فقلبت الكلمة على الأوجه التى يظن أنها محرفة عنها ، ورجح لدى أنها محرفة عن « المعتز » من اعتز : أى تنحى وانفرد ، يريد الذين تنحوا عن الفتنة والنزاع بين على ومعاوية وكانوا محايدين . [٩] ظهور (مصدر نجم) .

تَزَالِ^(١) وتكافَحَ الأبطال ، وكثرت الجراح ، وتقصفت الرماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مُصَاوِلًا ، فأنكفأ نحوك بالسيف حاملاً ، فلما رأيت الكواثر^(٢) من الموت ، أعددت حيلة السلامة قبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، ففتحته رجاء النجاة عورتك ، وكشفت له خوف بأسه سوءتك ، حذراً أن يصطلمك^(٣) بسطوته ، أو يلتهمك بحملته ، ثم أشرت على معاوية كالناصح له بمبارزته ، وحسنت له التعرض لمكاحته ، رجاء أن تكتفى مثوته ، وتمدّم صورته ، فعلم غلّ صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلّك ، وعرف مقرّ سهمك في غرضك ، فأكفّف غرّب لسانك ، وأقعّع عوّراء^(٤) لفظك ، فإنك بين أسد خادر^(٥) ، وبحرٍ زاخر ، إن تبرزت للأسد اقترسك ، وإن عُثمت في البحر قسّك^(٦) .

٩٦ — مقال مروان بن الحكم^(٧)

فقال مروان بن الحكم : « يابن عباس إنك لتتصرف^(٨) بنابك ، وتؤري نارك ، كأنك ترجو الغلبة ، وتؤمل العاقبة ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، لتناولكم بأقصر أنامله ، فأوردكم منهلاً بعيداً صدره^(٩) ، ولعمري لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم ، ولئن عفا عن جرائمكم لقديماً ما نسب إلى ذلك » .

[١] تزال اسم فعل بمعنى انزل أى حين قال الأبطال بعضهم لبعض تزال . [٢] جمع كوثر ، وهو الكثير من كل شيء ، والنهر . [٣] اصطلمه : استأصله . [٤] العوراء : الكلمة أرفعلة الفيحة . [٥] الخدر : أجرة الأسد ومنه قيل أسد خادر . [٦] غمسك وأغرقتك . [٧] هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة ، واستعمله معاوية على المدينة ومكة والطائف ، وولى الخلافة بعد موت معاوية الثاني سنة ٦٤ هـ ومات بالشام في ٣ رمضان سنة ٦٥ هـ ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . [٨] صرفت البكرة تصرف كضرب صريفاً : صوتت عند الاستقاء وهو أيضاً صرير الباب وناب البعير . [٩] الصدر : الرجوع .

٩٧ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « وإنك لتقول ذلك يا عدو الله ، وطريد رسول الله ^(١) صلى الله عليه وسلم ، والمباح دمه ^(٢) ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حملهم على قطع أوداجه ^(٣) ، وركوب أثباجه ^(٤) ، أما والله لو طلب معاوية تأره لأخذك به ، ولو نظرت في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره ، وأما قولك لي : إنك لتصرف بذابك ، وتورى نارك ، فسل معاوية وعمراً يخبراك ليلة الهريز ^(٥) كيف ثبأتنا للمثلات ^(٦) ، واستخفافنا بالمعضلات ، وصدق جلدنا عند المصاولة ، وصبرنا

[١] يريد « وياطريد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبيك » أو « ويابن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فإن المحقق أن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوه الحكم بن أبي العاص ، وذلك أنه قدم المدينة بعد الفتح — وكان قد أسلم يوم الفتح — فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وقال : « لانسأكني في بلد أبداً » لوقيته فيه ، قيل : كان يسمع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع عليه من باب بيته ، وإنه هو الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفقأ عينه بمدري في يده لما اطلع عليه من الباب ، وقيل كان يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيته وبعض حركاته — وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيته — فالتفت يوماً فرآه وهو يتعلمج في مشيته ، فقال « كن كذلك » فلم يزل يرتعش في مشيته من يومئذ وطرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعنه وأبعده حتى صار مشهوراً بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل متفياً حياة النبي صلى الله عليه وسلم فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة ، فقال : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكذلك عمر فلما ولي عثمان الخلافة — والحكم صم — رده ، وقال : « كنت قد شغقت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدتني برده » وقد توفي في خلافة عثمان . أما مروان فلم ير النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طملاً لايقل لما نبي النبي أباه — وقد ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة — وقيل إنه ولد بالطائف لابان نبي أبيه بها .

[٢] أي في فتنة عثمان ، وذلك أن الثورار بعد أن هدأ الإمام على ثأرتهم خرجوا عن المدينة ، ولكنهم في أثناء رجوعهم ضبطوا غلام عثمان ، ومعه كتاب إلى طائل مصر يأمره فيه بقتلهم ، فعادوا إلى المدينة ثانية وكانوا يعتقدون أن مروان هو الذي كتب ذلك الكتاب ، وقد سألوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه وخشى عليه القتل . [٣] جمع ودج (محركة) وهو عرق الأخدع الذي يقطعه الداح ، فلا يبقى منه حياة . [٤] جمع ثبج (محركة) وهو ما بين السكاهل إلى الظهر . [٥] هي ليلة العاشر من صفر سنة ٣٧ ، وفيها حمل جيش على جيش معاوية في وقعة صفين حملة عنيفة ، واقتتلوا تلك الليلة كلها حتى الصباح ، وأوشك جيش على أن تكون له الغلبة . [٦] جمع مثلة (كغرفة) من مثلت بالقتيل إذا نكلت به .

على اللأواء^(١) والمطاولة ، ومصأفخنأ بمبأهنأ السبوف المرهفة^(٢) ، ومبأشرفنأ بنحورنأ حدً الأسنة ، هل فحنأ^(٣) عن كرفنأ تلك المواقف ؟ أم لم نبذل مهجنأ^(٤) للمتألف ؟ وألس لك إذ ذاك ففها مقأم محمود ، ولا بوم مشهود ، ولا أثر معدود ، وإنهما شهدا مالو شهدت لأقلقك ، فاربع على ظلمك^(٥) ، ولا تتعرض لما لفس لك ، فإنك كالمفروز فف صفد^(٦) ، لا ففبط برجل ، ولا فرفأ^(٧) ففد .

٩٨ - مقال ففاد

فقال ففاد : « فابن عباس ، إنف لأعلم ، مامنع حسنأ وحسفنأ من الوفود معك على أمفر المؤمنفن إلا ماسولت لهما أنفسهما ، وفرهما به من هو عند البأساء فسلفهما^(٨) ، وأفم الله لو ولفئفهما لأدأبا^(٩) فف الرحلة إلى أمفر المؤمنفن أنفسهما ، ولقل بمكانهما كبئفهما » .

٩٩ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « إذن والله ففصر دونهما بأعك ، وففضفق بهما ذراعك ، ولورومت ذلك لوفدت من دونهما فئة صدقأ صبرأ^(١٠) على البلاء ، لا ففخمون عن اللقاء ، فلعركوك بكلاكلفهم^(١١) ووطنوك بمناسفهم^(١٢) وأوفرورك^(١٣) مشق رماحهم ، وشففار^(١٤) سفوفهم ، وفوفر أسفئفهم ، فف فشهد بسوء ما أفئت ،

[١] اللأواء : الشدة . [٢] المرفة . [٣] حام عه ففخم : ففن ونكس .
[٤] فف مهفة وهى الدم أو الروح . [٥] ربع كنغ وفف وانظار وفففس ، وظلع ظامأ كنغ فمز ف مشفه ، وأربع على ظلمك أى أنك ضعف فأنه عمالاً فطفقه واسكت على ما ففك من عفب .
[٦] الصفد : الففد ، وفى الأصل « كالمفروز فف صفد » وأراء « كالمفرون فف صفد » .
[٧] أى فصفد وفعلو : رقأ فف الدرجة صفد : ففقال رقأت ورقفئ (كرضفئ) وفترك الهمة أكثر .
[٨] أسلفه : ففله . [٩] أجهدا وأفبأ . [١٠] أى ذات صدق وصبر على البلاء أو هو « صدقأ صبرأ » بضمفئ فف صدوق وصبور . [١١] ففم كلشكل وهو الصدر . [١٢] ففم منسم (كمفلس) وهو فف البعر . [١٣] أوفره الرمح : ففله فف ففه ، والمشق سرعة فف الطفن والفرفب أو هو ففنى مفعول ، قففب فمشوق أى ففول ففقق . [١٤] ففم شفرة وهى حد السفب .

وتتبين ضياع الحزم فيما جنيت ، فحذارِ حذارٍ من سوء النية ، فإنها ترد الأمانة ، وتكون سبباً لفساد هذين الحيين بعد صلاحهما ، وسعيًا في اختلافهما بعد اتلافهما ، حيث لا يضرهما إيناسك^(١) ، ولا يُغني عنهما إيناسك .

١٠٠ — مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم :

« لله درُّ ابن مُلْجَم^(٢) ، فقد بَلَغَ الأملَ ، وأَمَّنَ الوَجَلَ ، وأَحَدَ الشَّفَرَةَ ، وأَلَانَ المُهْرَةَ ، وأَدْرَكَ النَّارَ ، وَتَنَّى العَارَ ، وفاز بالمنزلة العليا ، وَرَقِيَ الدرجة القصوى .

١٠١ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كَرَّعَ^(٣) كَأْسَ حَتَفِهِ يَدَهُ ، وَعَجَّلَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ بِرُوحِهِ ، وَلَوْ أَبْدَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَفْحَتَهُ ، لَخَالَطَهُ الْفَحْلُ الْقَطِيمُ^(٤) ، وَالسَّيْفُ الْخَذِيمُ ، وَلَا لَعَقَهُ صَابًا^(٥) ، وَسَقَاهُ سِمَامًا^(٦) ، وَالْحَقُّهُ بِالْوَلِيدِ وَثُتْبَةً وَخَنْظَلَةً^(٧) ، فَكَلَهُمْ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ شَكِيمَةً^(٨) ، وَأَمْضَى عَزِيمَةً ، فَقَرَى بِالسَّيْفِ هَامَهُمْ^(٩) ، وَرَمَلَهُمْ^(١٠) بِدِمَائِهِمْ ، وَقَرَى الذَّنَابَ أَشْلَاءَهُمْ^(١١) ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّائِهِمْ ،

[١] الإيناس : التلطف بالنافة وقت حلبها بأن يقال لها بس بس (بفتح فسكون) فكأنها لها .

[٢] هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله قاتل الإمام عليّ . [٣] كرع في الماء : تناوله بفيه

من موصمه . [٤] قطم الفحل كفرح فهو قطم اشتغى الضراب . [٥] عصارة شجر مرّ .

[٦] جمع سم مثلث السين . [٧] الوليد بن عتبة خال معاوية ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه ، وخنظلة

ابن أبي سفيان أخوه ، وقد قتلهم عليّ يوم بدر . [٨] الشكيمة : الأفة ، وهو شديد الشكيمة أي

أنف أبي لاسقاد . [٩] هام جمع هامة وهي الرأس .

[١٠] رمل الثوب : لطمه بالدم ، ويعوز أن يكون وزمهم أي لفهم بدمائهم (على المجاز) .

[١١] أشلاء جمع شلو وهو العضو ، وقرى الضيف قرى (بالكسر) : أضافه .

أولئك حصَّب^(١) جهنم لها واردون ، فهل تحسب منهم من أحدٍ أو تسمع لهم
ركزاً^(٢) ؟ ولا غزو إن ختل ، ولا وصمة إن قتل ، فإننا لَكَمَا قال دُرَيْد
ابن الصَّمَّة :

فإنَّا لِلَّحْمِ السَّيْفِ غيرَ مُكرِهٍ ونُلجِمه طوراً وليس بذى نُكرٍ^(٣)
يفار علينا واثرين فيُشْتَقَى بنا إن أصبنا أو تُغير على وترٍ^(٤)

١٠٢ - مقال المغيرة بن شعبة

فقال المغيرة بن شعبة :

« أما والله لقد أشرتُ على عليّ بالنصيحة ، فأثر رأيه ، ومضى على غلوائه^(٥) ،
فكانت العاقبة عليه لاله ، وإني لأحسب أن خلفه يقتدون بمنهجه » .

١٠٣ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« كَانَ والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلمَ بوجوه الرأي ، ومعاقد الحزم ،
وتصريف الأمور ، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه ، وعَنَّفَ عليه ، قال سبحانه
وتعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ^(٦) اللَّهَ

[١] الخطب وما يرى به في النار . [٢] الصوت الخفى . [٣] ألم : أطعمه اللحم .

[٤] الوتر : الثأر ، وقد وتره يتره .

[٥] الغلواء : الغلو ، وذلك أن المغيرة جاء علياً بهد مقل عثمان ، وقال له : ان النصيح رخيص وأنت
بقية الناس وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك أن ترد عمال عثمان طامك هذا ، فكتب إليهم بأبائهم على أعمالهم
فإذا بايعوا لك ، واطمأن أمرك عزلت من أحببت ، وأقررت من أحببت ، فقال له : والله لا أداهن في
دينى ، ولا أعطى الرياء فى أمرى ، قال : فإن أبيت فأتزع من شئت وارك معاوية فإن له جراءة وهو فى
أهل الشام مسدود منه ، ولك حجة فى إثباته فقد كان عمر ولاء الشام كلها ، فقال له : لا والله لا أستعمل
معاوية يومين أبداً . (وقد كان ابن عباس يرى إثبات معاوية حتى يبايع ، وقال لعلى : فإن بايع لك فعلى
أن ألقه من منزله ، فقال على : لا والله لا أعطيه إلا السيف) . [٦] حاده : غاضبه وحاداه وخالفه .

وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » ولقد وقفك على ذكر مبين ، وآية متلوّة ، قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا » . وهل كان يسوغ له أن يُحكّم في دماء المسلمين ، وفناء المؤمنين ، من ليس بمأمون عنده ، ولا موثوق به في نفسه ؟ هيهات هيهات ، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُبطن خلاف ما يُظهر إلا للتقية ^(١) ، ولات حين تقيّة ، مع وضوح الحق ، وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ، يعزى كالسيف المصلّت ^(٢) في أمر الله ، مؤثرا لطاعة ربه والتقوى ، على آراء أهل الدنيا .

١٠٤ — مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية :

« يا بن عباس ، إنك لتنطق بلسان طليق ^(٣) ، ينبئ عن مكنون قلب حرق ^(٤) ، فاطو على ما أنت عليه كشحا ^(٥) ، فقد محاضو حقا ظلمة باطلكم » .

١٠٥ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« مهلاً يزيد ، فوالله ما صفّت القلوب لكم ، منذ تكدرت بالعداوة عليكم ، ولا دنت بالمحبة إليكم ، مذ نأت بالبنضاء عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ، ماسخطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تدل ^(٦) الأيام نستقضي ما شذّ عنا ، ونسترجع

[١] النقية : المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء إذا كانت العداوة بسبب الدين .

[٢] السلول . [٣] لسان طلق : (بسكون اللام وكسرهما) ذلق .

[٤] الحرق المحروق : وفي الحديث « الحرق شهيد » وفي رواية « الحريق » أي الذي يقع في حرق

النار (بفتحين) فيلتهب ، والحرق محرّكة النار ولهبها ، وفي الحديث « الحرق والبرق والشرق شهادة » وحرق شعره كفتح تقطع ولسل :

[٥] الكشع ما بين الحاصرة إلى الضلع الخلاب ، وطوى كشحه على الأمر أضمره وستره .

[٦] أداله الله من عدوه : نصره عليه .

ما ابْتَزَّ^(١) منا ، كَيْلًا بِكَيْلٍ ، ووزنًا بوزن ، وإن تكن الأخرى ، فكفى بالله وليًا لنا ، ووكيلًا على المعتدين علينا .

١٠٦ — مقال معاوية

فقال معاوية :

« إن في نفسى منكم لحَزَازَاتٍ يابى هاشم ، وإنى لخليق أن أدرك فيكم النار ، وأننى العار ، فإن دمَاءَنَا قَبْلَكُمْ ، وظُلَامَتُنَا فِيكُمْ » .

١٠٧ — جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« والله إن رَمَتَ ذلك يا معاوية ، لَتَشِيرَنَّ عَلَيْكَ أُسْدًا مُخْدَرَةً^(٢) ، وأفاعى مُطْرِقَةً ، لَا يَفْثُوْهَا^(٣) كثرة السلاح ، وَلَا تَعَضُّهَا نكايَةُ الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ، يضربون قُدُمًا قُدُمًا من ناوَأَهم^(٤) ، يهون عليهم تُبَاحُ الكلاب ، وعُواء الذئاب ، لَا يُفَاتُونَ بوتر ، وَلَا يُسَبِّقُونَ إلى كريم ذكر ، قد وطَّنوا على الموت أنفسهم ، وسمت بهم إلى العلياء همهم ، كما قالت الأزدية .

قومٌ إِذَا شَهِدُوا الْهِجَابَ فَلَا ضَرْبَ مُيَنِّهِمْ وَلَا زَجْرَ^(٥)

وكانهم آسادٌ غِيْنَةٌ قَدْ غَرِثَتْ وَبَلَّ مُتَوْنَهَا الْقَطْرُ^(٦)

فَلَتَكُونَنَّ مِنْهُمْ بِحَيْثُ أَعْدَدْتَ لَيْلَةَ الْهَرِيرِ لِلْهَرَبِ فَرَسَكَ ، وَكَانَ أَكْبَرُ هَمِّكَ سَلَامَةُ حُشَّاشَةٍ^(٧) نَفْسِكَ ، وَلَوْ لَا طَعَامُ^(٨) مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَقَوَّكَ بِأَنْفُسِهِمْ ،

[١] ما سلب . [٢] أخدر الأسد : لزم الأجمة ، وأخدر العين الأسد ستره فهو مخدر (بكسر الدال وفتحها) . [٣] فثا الغضب كنع سكه وكسره ، والقدر سكن غليانها .

[٤] القدم : الشجاع والمضى أمام أمام ، وناوأم عادام .

[٥] نهيه عن الأمر : كفه وزجره . [٦] النينة : بالسكسر الأجمة ، والفينة بالفتح الأشجار المذقة

في الجبال وفي السهل بلاماء ، فإذا كانت بجاء فهي غيضة ، وغرث : كفرح جاع فهو غرثان .

[٧] الحشاشة : بقية الروح و الرئى والجريح . [٨] الطعام : أوغاد الناس .

وبذلوا دونك مُهَجِّجهم ، حتى إذا ذاقوا وخَزَّ الشَّقَّار ، وأيقنوا بحلول الدَّمار ،
رفعوا المصاحف مستجيرين بها ، وعائذين بِمِصْمَتِها ، لكنك شِلْواً مطروحاً
بالعرء^(١) ، تَسْنِي عليك رياحُها^(٢) ، ويعتورك ذئابُها ، وما أقول هذا أريد
صَرَفَكَ عن عِزِّمَتِكَ ، ولا إزالَتِكَ عن معقود نيتِّكَ ، لكن الرِّحِم التي تمطِّف
عليك ، والأوامر التي توجب صرف النصيحة إليك .

فقال معاوية : « لله درك يا بن عباس ، ما تكشف الأيام منك إلا عن
سيف صقيل ، ورأى أصيل ! وبالله لو لم يلد هاشم غيرك ، لما نَقَصَ عددُهم ، ولو لم
يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثَّرهم » ثم نهض فقام ابن عباس وانصرف .
(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٠)

عبد الله بن عباس وعمر بن العاص

قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب ، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبنى
أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مَشَاهِدَهُ بِصِفَتَيْنِ ، واجتمعت قريش فأقبل عبد الله
ابن عباس على عمرو فقال :

١٠٨ - مقال ابن عباس

« يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية ، وأعطيته ما بيدك ، وَمَنَّاكَ ما بيد
غيره ، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك ، والذي أخذت منه دون
الذي أعطيته ، وكلُّ راضٍ بما أخذ وأعطى^(٣) ، فلما صارت مصر في يدك كدَّرها

[١] العراء : الغضاء لا يستريح فيه بشيء . [٢] سفت الريح الغراب تسفيه ذرته أو حمله .
[٣] وذلك أن عمرا لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل عثمان سأله معاوية أن يتبعه ، قال عمرو فاكتب
لي مصر وكورها طعمة فكتب له ، وقال عمرو في ذلك :

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل به منك دنيا فانظرن كيف تمنع
فإن تعطني مصرأ فأرجع صفقة أخذت بها شيعة يضر وينفع

عليك بالعزل والتنغيص ^(١) ، حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها ، وذكرت يومك مع أبي موسى ، فلا أراك نَحَرْتَ إلا بالغدر ، ولا مَنَنْتَ إلا بالفجور والنش ، وذكرت مشاهدك بِصِفَيْنِ ، فوالله ما ثقلت علينا وَطْأَتُكَ ، ولقد كَشَفْتَ فيها عورتَكَ ، وإنْ كُنْتَ فيها لَطَوِيلَ اللسان ، قصير السَّنان ، آخر الخيل إذا أقبلت ، وأولها إذا أدبرت ، لك يدان : يد لا تَبْسُطُها إلى خير ، وأخرى لا تَقْبِضُها عن شر ، ولسان غرور ذو وجهين : وجه مُوَحِّش ، ووجه مُؤَنِّس ، ولعمري إن من باع دينه بدنياه غيره لَحَرِيٌّ أَنْ يطول عليها ندمه ، لك لسان وفيك خَطَالٌ ، ولك رأى وفيك نكد ، ولك قدر وفيك حسد ، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك .

١٠٩ - رد ابن العاص

فأجابه عمرو بن العاص : « والله ما في قریش أثقلُ على مسألة ، ولا أمرٌ جواباً منك ، ولو استطعتُ ألاَّ أجيبك لفعلت ، غير أنني لم أبع ديني من معاوية ، ولكن بعث الله نفسي ، ولم أنس نصيبي من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية

ثم إنه سنة ٣٨ في حيش لفزومصر ، وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل الإمام عليّ فهزمه وقتله ، وصارت مصر في حوزة معاوية فولاه عليها أميراً .

[١] روى ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير (ج ٤ : ص ٥) قال :

« لما صار الأمر في يدي معاوية استكثر طعمة مصر لعمرو ما عاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتيديره وعنائه وسميه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الشام مع مصر ، فلم يفعل معاوية ، فتتكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا . وتميز الناس ، وظنوا أنه لا يجمع أمرهما ، فدخل بينهما معاوية بن حديج وأصلح أمرهما ، وكتب بينهما كتاباً ، وشرط فيه شروطاً لمعاوية ، وهمرو خاصة ، وللناس عليه ، وأن لعمرو ولاية مصر سبع سنين وعلى أن على همرو السمع والطاعة لمعاوية ، وتوافقا وتماهدا على ذلك ، وأشهدا عليهما به شهوداً ، ثم مضى عمرو بن العاص على مصر والياً عليها ، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين ، فوالله ما مكث بها إلا سنتين أو ثلاثاً حتى مات . »

وأعطيته فإنه لا تُعَلَّمُ الْعَوَانُ الْخِمَزَةُ^(١) . وأما ما أتى إلى معاوية في مصر فإن ذلك لم يغيرني له ، وأما خفة وطأتي عليكم بصفين ، فلما استثقتكم حياتي واستبظأتكم وفاتي . وأما الجبن فقد علمت قريش أني أول من يبارز ، وآخر من ينازل . وأما طول لساني ، فإنني كما قال هشام بن الوليد لعثمان بن عفان رضى الله عنه :

لساني طويل فاحترس من شذائِهِ عليك ، وسيفي من لساني أطول^(٢)
وأما وجهاي ولساناي ، فإنني ألقى كل ذي قدر بقدره ، وأرى كل نابح بحجره ، فمن عرف قدره كفاني نفسه ، ومن جهل قدره كفيته نفسي ، ولعمري ما لأحد من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية ، فما ينفعني ذلك عندك ، وأنشأ عمرو يقول :

بنى هاشم مالى أراكم كأنكم	بنى اليوم جهالاً؟ وليس بكم جهل
ألم تعلموا أنى جسور على الوغى	سريع إلى الداعى إذا كثر القتل
وأول من يدعو «تزال» طبيعة	جُبِلْتُ عليها ، والطباع هو الجبل ^(٣)
وأنى فصلت الأمر بعد اشتباهه	بدومة إذ أعياء على الحكم الفصل ^(٤)
وأنى لا أعياء بأمر أريده	وأنى إذا عجبت بكاركم فحل ^(٥)

(العقد الفريد ٢ : ١١٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٩٦)

١١٠ — عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

حج عمرو بن العاص فرّاً بعبد الله بن عباس ، فحسده مكانه وما رأى من

[١] في المثل « إن العوان لا تعلم الخمرة » والعوان من النساء التي كان لها زوج ، والخمرة اسم من الاختمار ، واختمرت المرأة لبست الخمار بكسر الخاء (الطرحة) يضرب للرجل ا رب .

[٢] الشذاة : الحدة ، والشذا والشذا بالذال والذال حد كل شيء .

[٣] أى نازلونى أيها الأقران ، والطباع : الطبيعة والسجية جبل عليها الإنسان ، والجبل : مصدر جبل .

[٤] هى دومة الجندل التي اجتمع فيها الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري .

[٥] البكار : جمع بكرة (بالفتح) وهى الناقة الفتية ، وعجت أى صاحت ورفضت صوتها .

هَيْبَةُ النَّاسِ لَهُ، وَمَوْقِعُهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، فَقَالَ لَهُ يَابْنَ عَبَّاسَ : «مَالِكَ إِذَا رَأَيْتَنِي وَلَيْتَنِي الْقَصْرَةَ»^(١) ، وَكَانَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ دَبْرَةٌ^(٢) ، وَإِذَا كُنْتَ فِي مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ كُنْتَ الْهُوَاهَا^(٣) الْهُمَزَةُ ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسَ : «لَأَنْتَ مِنَ اللَّثَامِ الْفَجْرَةِ ، وَقَرِيشُ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ ، لَا يَنْطَقُونَ بِبَاطِلٍ جَهْلَوَهُ ، وَلَا يَكْتُمُونَ حَقًّا عَلِمُوهُ ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا ، وَأَرْفَعُ النَّاسِ أَعْلَامًا . دَخَلْتَ فِي قَرِيشٍ وَلَسْتَ مِنْهَا ، فَأَنْتَ السَّاقِطُ بَيْنَ فِرَاشَيْنِ ، لَا فِي بَنِي هَاشِمٍ رَحْلُكَ ، وَلَا فِي بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ رَاحِلَتُكَ ، فَأَنْتَ الْأَثِيمُ الزَّئِيمُ»^(٤) الضَّالُّ الْمُضِلُّ ، حَمَلْتَ مَعَاوِيَةَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، فَأَنْتَ تَسْطُو بِحِمْلِهِ ، وَتَسْمُو بِكِرْمِهِ « فَقَالَ عَمْرُو : أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَمُسْرُورٌ بِكَ ، فَهَلْ يَنْفَعُنِي عِنْدَكَ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسَ : حَيْثُ مَالُ الْحَقِّ مِلْنَا ، وَحَيْثُ سَلَكَ قَصَدْنَا .

(النقد الفريد ٢ : ١١٢)

١١١ - مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس

تَرَوِجُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزَّبِيرِ أُمَّ عَمْرُو بَدَتْ مِنْظُورُ بْنُ زَبَانَ الْقَزَارِيَّةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ بِهَا قَالَ لَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةُ : أَتَذَرِينَ مِنْ مَعِكَ فِي حَجَلَتِكَ^(٥) ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، عَبْدَ اللَّهِ ابْنُ الزَّبِيرِ بْنُ الْعَوَّامِ بْنِ خُوَيْلِدٍ بْنُ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى . قَالَ : لَيْسَ غَيْرُ هَذَا ؟ قَالَتْ : فَمَا الَّذِي تَرِيدُ ؟ قَالَ : مَعَكَ مِنْ أَصْبَحٍ فِي قَرِيشٍ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، لَا بِلَ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ . قَالَتْ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ بَعْضَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ

[١] القصرة : أصل العنق في مركبه في الكاهل ، ويقال لعنق الإنسان كله قصرة ، والمعنى ولَيْتَنِي عَنقَكَ إِعْرَاضًا عَنِّي . [٢] الدبرة : يسكون الباء وفتحها الهزيمية في القتال وهو اسم من الأدبار والمراد بها هنا الاغضاء وعدم الاقبال . [٣] قال صاحب اللسان ، وفي حديث عمرو بن العاص : « كنت الهوَاهَا الهُمَزَةُ » الهرواهة الأحمق ، وقال أيضاً : « رجل هوهاء وهوَاهَاة وهوَاهَاة بفتح الأول ضعيف الفؤاد جبان ، ورجل هوهة بضم الأول جبان أيضاً . [٤] الزئيم المستلحق في قوم ليس منهم والدعوى . [٥] الحجلة كالقبة ، وموضع يزين بأشياء والستور للعروس .

حَضَرَكَ ، لَقَالَ لَكَ خِلَافٌ قَوْلِكَ ، فَغَضِبَ وَقَالَ : الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَى حَرَامٍ حَتَّى أُخْضِرَكَ الْمَاشِمِينَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَذَلِكَ إِنكَارًا ، قَالَتْ : إِنْ أَطَعْتَنِي لَمْ تَفْعَلْ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ وَشَأْنُكَ ، فَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَرَأَى حَلْقَةً فِيهَا قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، مِنْهُمْ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَصِينِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، فَقَالَ لَهُمُ ابْنُ الزَّيْبِرِ : أُحِبُّ أَنْ تَنْطَلِقُوا مَعِيَ إِلَى مَنْزِلِي ، فَقَامَ الْقَوْمُ بِأَجْمَعِهِمْ ، حَتَّى وَقَفُوا عَلَى بَابِ بَيْتِهِ ، فَقَالَ ابْنُ الزَّيْبِرِ : يَا هَذِهِ اطْرَحِي عَلَيْكَ سِتْرَكَ ، فَلَمَّا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ دَعَا بِالْمَائِدَةِ فَتَعَدَّى^(١) الْقَوْمَ ، فَلَمَّا فَرَّغُوا قَالَ لَهُمْ : إِنَّمَا جَمَعْتُكُمْ لِحَدِيثٍ رَدَّتهُ عَلَى صَاحِبَةِ السِّتْرِ ، وَزَعَمْتُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ بَعْضُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَضَرَنِي لَمَّا أَقَرُّ لِي بِمَا قُلْتُ ، وَقَدْ حَضَرْتُمْ جَمِيعًا ، وَأَنْتَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ مَا تَقُولُ ؟ إِنِّي أَخْبَرْتُهَا أَنَّ مَعَهَا فِي خِدْرِهَا مَنْ أَصْبَحَ فِي قُرَيْشٍ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، لَا يَلُ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ ، فَرَدَّتْ عَلَى مَقَالَتِي .

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَرَأَيْكَ قَصَدْتَ قَصْدِي ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَقُولَ قُلْتُ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَكْفَ كَفَفْتُ . قَالَ : بَلْ قُلْ ، وَمَا عَسَى أَنْ تَقُولَ ؟ أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّ أَبِي الزَّيْبِرَ حَوَارِيُّ^(٢) رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَأَنَّ أُمِّي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ذَاتِ النُّطَاقَيْنِ^(٣) ؟ وَأَنَّ عَمَّتِي خَدِيجَةُ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ؟

[١] تَعَدَّى : أَكَلَ أَوَّلَ النَّهَارِ ، وَالْغَدَاءُ : الطَّعَامُ الَّذِي يُؤْكَلُ أَوَّلَ النَّهَارِ ضِدَّ الْعِشَاءِ ، (وَسُمِّيَ السَّحُورُ غَدَاءً ، لِأَنَّهُ لِلْعَامِّ بِمَنْزِلَةِ الْغَدَاءِ لِلْمَغْطَرِ) . [٢] الْحَوَارِيُّ : الْبَاصِرُ أَوْ نَاصِرُ الْأَنْبِيَاءِ . قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الزَّيْبِرُ بْنُ الْعَوَامِ ابْنُ عَمَّتِي ، وَحَوَارِيُّ مِنْ أُمَّتِي » .

[٣] كَانَ يُقَالُ لِأَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذَاتِ النُّطَاقَيْنِ ، قِيلَ : لِأَنَّهَا كَانَتْ تَطَارِقُ نَطَاقًا عَلَى نَطَاقٍ (طَارِقٌ بَيْنُ ثَوْبَيْنِ : طَائِقٌ) وَقِيلَ : لِأَنَّهُ كَانَ لَهَا نَطَاقَانِ تَلْبَسُ أَحَدَهُمَا ، وَتَحْمِلُ فِي الْآخَرِ الزَّادَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهِيَ فِي الْفَارِ . قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : وَهَذَا أَصَحُّ

وَأَنْ صَفِيَّةَ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَدَّتِي ^(١) ؟ وَأَنْ عَائِشَةَ أُمَ الْمُؤْمِنِينَ خَالَتِي ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ لِهَذَا إِنْكَارًا ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرتَ شرفاً شريفاً ، ونفراً فاخراً ، غيرَ أنك تفاخر من يفخره نفرت ، وبفضله سموت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكر نفراً إلا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أؤلى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس : قد أنصف القارة من راماها ^(٢) ، نشدتكم الله أبها الحاضرون ، أعبدُ المطلب أشرفُ أم خويلد في قريش ؟ قالوا : عبد المطلب . قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟ قالوا : بل هاشم . قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العزى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تُنافِرُنِي يَا بْنَ الزَّبِيرِ ! وَقَدْ قَضَى عَلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا قَوْلَ هَازِلٍ

القوانين ، وقيل : إنما شقت نطاقها لمفنين ، فاستعملت أحدهما وجعلت الآخر شداداً لرادهما ، وجاء في المقد الفريد (ج ٢ ص ٢٧٠) أن الحجاج لما حصر ابن الزبير بمكة ناداه وياك يا ابن ذات النطاقين ، أقبل الأمان ، وادخل في طاعة أمير المؤمنين ، فدخل على أمه أسماء ، فقال لها سمعتَ رحمة الله ما يقول القوم ، وما يدهونى إليه من الأمان ؟ قالت : سمعتهم لعنهم الله ! فما أجملهم ! وأعجب منهم إذ يعيرونك بذات النطاقين ، ولو علموا ذلك لكان ذلك أعظم نفرك عندهم ، قال : وما ذك يا أماء ؟ قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره مع أنى بكر (وروى عن عائشة رضي الله عنها أنه خرج معه مهاجرين كما جاء في لسان العرب) فهيأت لها سفرة ، فطلباً شيئاً يربطانها به فما وجداه ، فقطعت من مئزرى لذلك ما احتاجا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقين في الجنة ، وفي انقاموس المحيط : لأنها شقت نطاقها ليلة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى عصماً لقربته . [١] هي جدته لأبيه .

[٢] القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة ، وبزعمون أن رجلين النخيا ، أحدهما قارى ، فقال القارى : إن شئتَ صار لك ، وإن شئتَ ساقبتك ، وإن شئتَ راميتك ، فقال الآخر : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتني ، وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من راماها إنا إذاً فقة نلقاما
نرد أولاهنا على أخراها

ثم انتزع له بسهم ، فشك به فؤاده .

ولو غيّرنا يابن الزبير فخرته ولكنما ساميت شمس الأصائل^(١)
 قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضل في قوله : « ما افتقرت فرقتان إلا
 كنت في خيرهما » فقد فارقناك من بعد قصي^(٢) بن كلاب ، أفنحن في فرقة
 الخير أم لا ، إن قلت نعم خُصِمت ، وإن قلت لا كُفرت ، فضحك بعض
 القوم ، فقال ابن الزبير : أما والله لولا تحرُّمك^(٣) بطعامنا يابن عباس لأعرت^(٤)
 جبينك قبل أن تقوم من مجلسك . قال ابن عباس : ولم أباطل ؟ فالباطل
 لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحق لا يخشى من الباطل .

فقلت المرأة من وراء الستر : إني والله لقد نهيتك عن هذا المجلس فأبى إلا
 ما ترون ، فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ، اقنعي ببغلك ، فما أعظم الخطر ،
 وما أكرم الخبر ، فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عمي ، فقالوا : انهض أيها
 الرجل فقد أفحمتك غير مرة ، فنهض وقال :

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا لغفا وناما^(٥)

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطا أقبل علي ، فما كنت لتدعني حتى أقول :
 وأيم الله لقد عرّف الأقسام أنني سابق غير مسبوق ، وابن حواري وصديق ،
 مُتَّبِعٌ^(٦) في الشرف الأنيق ، خيرٌ من طليق^(٧) وابن طليق ، فقال ابن عباس

[١] الأصائل جمع أصيل وهو الشئ « ما بعد صلاة العصر إلى الزروب » .

[٢] كان من أولاده عبد العزى بن قصي (ومن سلالة ابن الزبير) وعبد مناف بن قصي

(ومن سلالة بنو هاشم) . [٣] تحرم منه بحرمة تمنع وتحمي بذمة .

[٤] أي تذكرت لك من المساوي ما يبرق له جبينك ويندى خجلا . [٥] عفا وبغني : نام نومة

خفيفة . [٦] من تبعك به إذا افتخر وتعظم ، وأرجح أنه « متبجح » من تبجح أي تمكن في المقام والمحل

[٧] يمرض بأبيه العباس بن عبد المطلب ، وكان خرج مع المشركين في غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا ،

وقد أطلقه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخذ منه الفدية « ويروى أنه لما طلب منه الفداء قال : علام يؤخذ

مني البداء ، وكنت مسلما ؟ ولكن القوم استكروهوني ، فقال له صلى الله عليه وسلم : الله أعلم بما تقول

إن يك حقا ، فإن الله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

رُسِغْتَ بِجُرَّتِكَ^(١) فلم تُبْقَ شيئاً ، هذا الكلام مردود ، من امرئ حَسُودٍ ، فإن كنتَ سابقاً فإلى من سبقتَ ؟ وإن كنتَ فاعزاً فبمن نَحَرْتَ ، وإن كنتَ أدركتَ هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا . وإن كنتَ إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، وَالْكَشْكُ^(٢) في فك ويديك ، وأما ما ذكرتَ من الطَّلِيقِ ، فوالله لقد ابْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وَأُنْعِمَ عَلَيْهِ فَشَكَرَ ، وَإِنْ كَانَ وَاللهُ لَوْفِيًّا كَرِيمًا ، غَيْرَ نَاقِضٍ يَنْعَمَ بعد توكيدها ، ولا مُسْلِمٍ كَتِيبَةً بعد التأثر عليها^(٣) ، فقال ابن الزبير : أتعير الزبير بالجبين ؟ والله إنك لتعلم منه خِلَافَ ذَلِكَ ، قال ابن عباس : والله إني لأعلم إلا أنه فَرَّ وما كَرَّ ، وحارب فما صَبَرَ ، وباع فما تَمَّ ، وقطَعَ الرَّحِمَ ، وأنكر الفضلَ ، ورام ما ليس له بأهل^(٤) :

وأدرك منها بعض ما كان يرتجى وقصر عن جرئ الكرام وبلداً

وما كان إلا كالهجين أمامه عتاق ، فجراه العتاق فأجهدا^(٥)

فقال ابن الزبير : لم يَبْقَ يابني هاشم غيرُ المشاعة والمضاربة ، فقال عبد الله بن الحصين بن الحرث ، أقناه عنك يابن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ؟ والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ، ما كنت إلا كَالسَّغِيبِ^(٦) الظمآن ، يفتح فاه

[١] الجرة بالضم والفتح : عصا تربط إلى حباله ، تغيب في التراب للظي يصطاد بها ، فيها وتر ، فإذا دخلت يده في الحباله انعقدت الأوتار في يده ، فإذا وثب ليقلت قد يده ، ضرب بتلك العصا يده الأخرى ورجله فكسرها ، ورسخ البعير شد رسغ يديه بخيط ، والمعنى وقعت في حبالك ، وطاد ما نَحَرْتَ به حجة عليك لا لك ، وفي الأصل « رسعت » بالعين ، ولا يستقيم المعنى بذلك (يقال : رسع الصبي كنع : شد في يده أو رجله خرزا لدفع العين ، ورست أعضاءه : فسدت واسترخت) وربما كان الأصل « رصعت بجرتك » من رصعه بالرمح إذا طعنه طعنا شديداً غيب السنان كله فيه ، أي طعنت بسهمك وارتدت إليك حجتك ، ومعناه كالأول . [٢] الكشك (بفتح الكافين وكسرهما) : التراب وفنات الحجارة .

[٣] يعرض بالزبير وقد بايع الامام ثم نكث ببعته ، وخرج لقتاله مع أصحاب الجبل ثم اعتزلهم .

[٤] أي رام الخلافة ، وقد قال للإمام حين حاوره قبل نشوب وقعة الجبل : « لا أراك لهذا الأمر أهلاً ولا أولى به منا » . [٥] فرس هجين : إذا لم يكن عتيقاً ، وفرس عتيق أي كريم والجمع عتاق ، وفي الأصل « عتاق » بالون ، وهو تصحيف . [٦] الجائم .

يستزيد من الرِّيح ، فلا يَشْبَع من سَعْب^(١) ، ولا يَرَوَى مِنْ عَطَش ، فقل إن شئت أوقدع ، وانصرف القوم . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ٥٠١)

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سيرره ، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل ، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سرير آخر قد أخذت تجاهه^(٢) سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سيرره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المحدث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق فقال :

١١٢ - مقال ابن الزبير

« إن ناساً يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطاً وقلتة ومغالبةً ، ألا إن شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ! يزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحد أثبت إيماناً ، ولا أعظم سابقة من أبي بكر ، فمن قال غير ذلك فعليه لعنة الله ، فأين هم حين عقّد أبو بكر لعمر فلم يكن إلا ما قال ، ثم ألقى عمر حظهم في حظوظ ، وجدهم في جدود ، فقسمت تلك الحظوظ ، فأخر الله سهمهم ، وأدحض جدّهم ، وولى الأمر عليهم من كان أحقّ به^(٣) منهم ، فخرجوا عليه خروج اللصوص

[١] جوع . [٢] تجاهه ووجهه مثلثين : تلقاء وجهه .

[٣] يشير إلى اختيار عمر رضي الله عنه أصحاب الشورى السنة ، وفيهم الامام عليّ كرم الله وجهه ، وما كان من مبايعة عثمان رضي الله عنه بالخلافة .

على التاجر خارجاً من القرية ، فأصابوا منه غيرة^(١) فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قِتلة ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب .

١١٣ — مقال ابن عباس

فقال ابن عباس : « على رسلك^(٢) أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً ، إلا وصاحبنا خيرٌ ممن نالا ، وما أنكرنا تقدم من تقدّم لعيب عِبناه عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظَّ غيرك ، وشرف امرئ سواك لكلمتك ، ولكن ما أنت وما لاحظ لك فيه ؟ اقتصر على حظك ، ودع تيناً لتيم ، وعديًّا لعدى^(٣) وأُمِّيَّة لأمية ، ولو كامنِي تيمى أو عدوى أو أموى ، لكلمته وأخبرته خبرَ حاضر عن حاضر ، لا خبرَ غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ؟ فإن يكن في أسد بن العزى شيء فهو لك ، أما والله لنحن أقرب بك عهداً ، وأبيض بك يداً ، وأوفر عندك نعمة ، ممن أمسيتَ تظن أنك تصول به علينا ، وما أخلق ثوبُ صفة بعدُ ، والله المستعان على ما تصِفون . »

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٩٠)

١١٤ — خطبة عبد الله بن عباس

يرد على عبد الله بن الزبير وقد عاب بنى هاشم

لما كشف عبد الله بن الزبير بنى هاشم ، وأظهر بغضهم وعابهم ، وهم بما هم به في أمرهم ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبه ، لا يوم الجمعة ولا غيرها ، عاتبه على ذلك قوم من خاصته ، وتشاءموا بذلك منه ، وخافوا عاقبته ،

[١] غفلة . [٢] الرسل : الرفق والتؤدة . [٣] تيم رهمط أبي بكر الصديق ، وعدى رهمط عمر الفاروق .

فقال : « والله ما تركت ذلك علانية إلا وأنا أقوله سرًّا وأكثير منه ، لكنني رأيت بني هاشم إذا سمعوا ذكره ، أشربأبوا^(١) وانحمرت ألوانهم ، وطالت رقابهم ، والله ما كنت لآتي لهم سروراً وأنا أقدر عليه ، والله لقد هممت أن أحظر لهم حظيرة ، ثم أضرمها عليهم ناراً ، فإني لا أقتل منهم إلا أنما كفاراً سحاراً ، لا أنعم الله ، ولا بارك عليهم ! بيت سوء لا أول لهم ولا آخر ، والله ما ترك نبي الله فيهم خيراً ، استفرغ^(٢) نبي الله صدقهم ، فهم أكذب الناس ، فقام إليه محمد بن سعد ابن أبي وقاص فقال : « وفقتك الله يا أمير المؤمنين ! أنا أول من أعانك في أمرهم » . فقام عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي فقال : « والله ما قلت صواباً ، ولا هممت برشد ، أرهط رسول الله صلى الله عليه وآله تعيب ، وإياهم تقتل ، والعرب حولك ؟ والله لو قتلت عدتهم أهل بيت من الترك مسامين ، ما سوغته الله لك ، والله لو لم ينصرهم الناس منك لنصرهم الله بنصره ، فقال : اجلس أبا صفوان فلست بناموس^(٣) ، فبلغ الخبر عبد الله بن العباس ، فخرج مغضباً ومعه ابنه ، حتى أتى المسجد ، فقصد قصد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : « أيها الناس : إن ابن الزبير يزعم أن لا أول لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا آخر ! فإعجبوا كل العجب ، لاقتراؤه وتكذيبه^(٤) ! والله إن أول من أخذ الإيلاف^(٥)

[١] اشربأب : مد عنقه لينظر أوارتفع . [٢] في الأصل « استفرغ » وهو تحريف . يقال استفرغ فلان مجهوده إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئاً ، والمراد أنه حوى ما فيهم من صدق فلم يبق لهم منه شيء ، فهم أكذب الناس (كذا) . [٣] الناموس : الخادق ، وهو أيضاً صاحب السر المطلع على باطن أمرك . [٤] تكذب : تكاف الكذب .

[٥] روى أبو علي القالي في أماليه قال :

« كانت قریش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم

وَحَيَّ عَيْرَاتٍ^(١) قَرِيْشَ لَهَا شِمٌ ، وَإِنْ أَوَّلَ مَنْ سَقَى بِمَكَّةَ عَذْبًا ، وَجَعَلَ بَابَ

بِالسَّلْعِ ، فَيَشْتَرُونَهَا مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَتْبَاعُونَهَا بَيْنَهُمْ ، وَيَبِيعُونَهَا عَلَى مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ، فَكَانُوا كَذَلِكَ ، حَتَّى رَكِبَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ إِلَى الشَّامِ ، فَزَلَّ بِقَيْصَرٍ ، فَكَانَ يَذْمَحُ كُلَّ يَوْمٍ شَاةً ، وَيَصْنَعُ جَفْنَةً تَرِيدُ ، وَيَجْمَعُ مِنْ حَوْلِهِ فَيَأْكُلُونَ ، وَكَانَ هَاشِمٌ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ وَأَتَمَّهُمْ ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لَقَيْصَرٍ ، فَقِيلَ لَهُ : هَاهُنَا رَجُلٌ مِنْ قَرِيْشَ يَهْتِمُ بِالْخَبْزِ ثُمَّ يَصُبُّ عَلَيْهِ الْمَرْقَ وَيُفَرِّغُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ — وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعَجْمُ تَصُبُّ الْمَرْقَ فِي الصَّخَافِ ثُمَّ تَأْتِدُمُ بِالْخَبْزِ — فَدَعَا بِهِ قَيْصَرٌ ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَكَلَّمَهُ أُعْجِبَ بِهِ ، فَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ وَيَحَادِثُهُ ، فَلَمَّا رَأَى نَفْسَهُ تَمَكَّنَ عِنْدَهُ ، قَالَ لَهُ : « أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنْ قَوِيَّ تِجَارَ الْعَرَبِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكْتُبَ لِي كِتَابًا تُؤَمِّنُ تِجَارَتَهُمْ فَيَقْدَمُوا عَلَيْكَ بِمَا يُسْتَطَرَفُ مِنْ أَدَمِ الْحَبَّازِ وَثِيَابِهِ فَتُبَاعَ عِنْدَكُمْ فَهُوَ أَرْخَصُ عَلَيْكُمْ » فَكْتُبَ لَهُ كِتَابُ أَمَانٍ لِمَنْ يَقْدَمُ مِنْهُمْ ، فَأَقْبَلَ هَاشِمُ بِذَلِكَ الْكِتَابِ ، فَجَعَلَ كُلُّ مَرٍّ يَحِيَّ مِنَ الْعَرَبِ بِطَرِيقِ الشَّامِ أَخَذَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ إِيْلَافًا — وَالْإِيْلَافُ أَنْ يَأْمِنُوا عِنْدَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ بِغَيْرِ حِلْفٍ ، إِنَّمَا هُوَ أَمَانُ الطَّرِيقِ — وَعَلَى أَنْ قَرِيْشًا تَحْمِلُ إِلَيْهِمْ بَضَائِعَ ، فَيَكْفُونَهُمْ نُحْلَانَهَا ، وَيُؤَدُّونَ إِلَيْهِمْ رِءُوسَ أَمْوَالِهِمْ وَرَبْحَتَهُمْ ، فَأَصْلَحَ هَاشِمُ ذَلِكَ الْإِيْلَافَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الشَّامِ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ ، فَأَتَاهُمْ بِأَعْظَمِ شَيْءٍ أُتُوا بِهِ بِرَكَّةً ، فَخَرَجُوا بِتِجَارَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَخَرَجَ هَاشِمٌ مَعَهُمْ بِجَوْزِهِمْ ، يُؤَفِّقُهُمْ إِيْلَافَهُمُ الَّذِي أَخَذَ لَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ، حَتَّى أَوْرَدَهُمُ الشَّامَ ، وَأَحْلَاهُمْ قَرَاهَا ، وَمَاتَ فِي ذَلِكَ السَّفَرِ بَغْزَةً ، وَخَرَجَ الْمَطْلَبُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ إِلَى الْبَلَيْنِ ، فَأَخَذَ مِنْ مَلُوكِهِمْ عَهْدًا لِمَنْ تَجَرَّ إِلَيْهِمْ مِنْ قَرِيْشَ ، وَأَخَذَ الْإِيْلَافَ كَفَعَلَ هَاشِمٍ ، وَكَانَ الْمَطْلَبُ أَكْبَرَ وَلَدِ عَبْدِ مَنْفٍ ، وَكَانَ يُسَمَّى الْفَيْضَ ، وَهَلَكَ بَرْدَمَانٌ مِنَ الْبَلَيْنِ ، وَخَرَجَ عَبْدُ شَمْسٍ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ إِلَى الْحَبَشَةِ فَأَخَذَ إِيْلَافًا كَفَعَلَ هَاشِمٍ وَالْمَطْلَبِ ، وَهَلَكَ عَبْدُ شَمْسٍ بِمَكَّةَ فَقُتِلَ بِالْحَبَشَةِ ، وَخَرَجَ نَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ ، وَكَانَ أَصْغَرَ وَلَدِ أَبِيهِ ، فَأَخَذَ عَهْدًا مِنْ كَسْرَى لِتِجَارَةِ قَرِيْشَ ، وَإِيْلَافًا مِنْ مَرَّةَ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ ، ثُمَّ قَدِمَ مَكَّةَ وَرَجَعَ إِلَى الْعِرَاقِ فَمَاتَ بِسَلْمَانَ ، وَاتَّسَعَتْ قَرِيْشٌ فِي التِّجَارَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهَا ، فَبَنُوا عَبْدَ مَنْفٍ أَعْظَمَ قَرِيْشَ عَلَى قَرِيْشٍ مِثَّةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ » — ذِيلُ الْأُمَالِ ص ٢٠٤ .

[١] العير بالسكسر الابل تحمل الميرة : بلا واحد من لفظها ، أو كل ما امتير عليه لإبلا كانت أو حميرا أو بنالا وجمعه كعنبات ويسكن .

الكعبة ذهباً ، لَعَبْدُ الْمَطْلَبِ ^(١) والله لقد نشأت ناشتتنا مع ناشئة قريش ، وَإِنْ كُنَّا لَقَالَتْهُمْ ^(٢) إِذَا قَالُوا ، وخطباءهم إِذَا خَطَبُوا ، وَمَا عُدَّ مَجْدٌ كَمَجْدِ أَوْلَانَا ، وَلَا كَانَ فِي قَرِيشٍ مَجْدٌ لغيرنا ، لأنها في كفر ماحقٍ ، ودين فاسقٍ ، وَضِلَالَةٌ ^(٣) وَضَلَالَةٌ ، فِي عَشَوَاءٍ ^(٤) عَمِيَاءٍ ، حَتَّى اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا نُورًا ، وَبَعَثَ لَهَا سِرَاجًا ، فَانْتَجَبَهُ ^(٥) طَيِّبًا مِنْ طَيِّبِينَ ، لَا يُسَبُّ بِمَسَبَّةٍ ، وَلَا يُبَغَى عَلَيْهِ غَائِلَةٌ ، فَكَانَ أَحَدَنَا وَوَلَدَنَا وَهَمْنَا وَابْنُ عَمْنَا ، ثُمَّ إِنَّ أَسْبَقَ السَّابِقِينَ إِلَيْهِ ، مِنَّا وَابْنُ عَمْنَا ^(٦) ، ثُمَّ تَلَاهُ فِي السَّبْقِ أَهْلُنَا وَلُحْمَتُنَا ^(٧) وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، ثُمَّ إِنْ خَلِيرَ النَّاسُ بَعْدَهُ أَوْ كَرَمَهُمْ أَدَبًا ، وَأَشْرَفَهُمْ حَسَبًا ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ رَجَمًا .

واعجباً كلَّ العجب لابن الزبير ! يعيب بنى هاشم ، وإنما شَرَفَ هو وأبوه وَجَدَهُ بِمَصَاهِرَتِهِمْ ، أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّهُ لِمَصْلُوبُ قَرِيشٍ ، وَمَتَى كَانَ الْعَوَّامُ بْنُ خُوَيْلِدٍ يَطْمَعُ فِي صَفِيَّةِ بِنْتِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ؟ قِيلَ لِلْبَغْلِ : مَنْ أَبُوكَ يَا بَغْلُ ؟ فَقَالَ : خَالِي الْفَرَسُ » ثُمَّ نَزَلَ . (شرح ابن أبي الحديد ٣ : ص ٤٨٩)

١١٥ — خطبة ابن الزبير يتنقص ابن عباس

وخطب ابن الزبير بمكة على المنبر ، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ،

[١] قال الطبري : « وعبد المطلب هو الذي كشف عن زمزم بثراً لسميع بن إبراهيم ، واستخرج ما كان فيها مدوناً ، وذلك غزالان من ذهب كانت جرم دفنهما فيما ذكر حين أخرجت من مكة وأسلاف قلعية » و مرج القلعة بحركة موضع بالبادية إليه تنسب السيوف » وأدراع ، فجعل الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الفزاليين صفائح من ذهب ، فكان أول ذهب حلته فيما قيل الكعبة « تاريخ الطبري ٢ : ١٧٩ » [٢] القالة جمع فائل . [٣] الضلالة والضلالة ضد الهدى . [٤] أي في جهالة وفتنة عشواء ، من العشى (كصا) وهو سوء البصر بالليل والنهار ، وقبل ذهاب البصر . عشى يعشى (كفرح) فهو أعشى وهي عشواء (والعشواء أيضا الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تحبب يديها كل شيء ، لأنها ترفع رأسها فلا تنهد ، واقع أخفافها) . [٥] انتجبه : اختاره . [٦] جنى الإمام علياً كرم الله وجهه [٧] اللحمة القرابة .

فقال : « إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا قَدْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ . كَمَا أَعْمَى بَصَرَهُ ، يَزْعِمُ أَنْ مُتْعَةَ النِّسَاءِ حَلَالٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَيُفْتِي فِي الْقَمَلَةِ وَالنَّمْلَةِ ، وَقَدْ احْتَمَلَ بَيْتَ مَالِ الْبَصْرَةِ ^(١) بِالْأَمْسِ ، وَتَرَكَ الْمُسْلِمِينَ بِهَا يَرْضَخُونَ ^(٢) النَّوَى ، وَكَيْفَ الْوُءُ فِي ذَلِكَ : وَقَدْ قَاتَلَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ وَقَاهُ يَدُهُ ^(٣) » .

١١٦ — رد ابن عباس عليه

فقال ابن عباس لقائده سعد بن جبير مولى بني أسد بن خزيمه — وكان

[١] ذكر بعض المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس إلى عمر ، وكان يقدمه على أكبر الصحابة ، ولم يستعمله قط ، فقال له يوماً : كدت أستعملك ، ولكن أخشى أن تستحل النوى على التأويل ، فلما صار الأمر إلى عليّ استعمله على البصرة ، فاستحل النوى على تأويل قوله تعالى « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى » ، واستعمله اقربائه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وما ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي فقال : لو كنت من البهائم لكنت جلاً ، ولو كنت راعياً ما بلغت من الرعي ولا أحسنت مهنته في المشي ، فكتب أبو الأسود إلى علي كتاباً يقول فيه : « إِنْ ابْنَ عَمِكَ قَدْ أَكَلَ مَا تَحْتَ يَدَيْهِ سِيرَ عَمَلِكَ ، فَلَمْ يَسْمَعْ كِتَابَكَ ذَلِكَ ، فاقْطَرْ رَحِمَكَ اللَّهُ فِيهَا هَذَا » فكتب عليّ إلى ابن عباس « أَنْ أَرْفَعَ إِلَى حَسَابِكَ » فرد عليه ابن عباس : « إِنْ كُلَّ الَّذِي بَلَمَكَ بَاطِلٌ » . فكتب إليه عليّ : « إِنَّهُ لَا يَسْمَعُ تَرْكَكَ ، حَتَّى تَطْلُبَ مَا أَخَذْتَ مِنَ الْجُزْئَةِ ، مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَهُ ، وَمَا وَضَعْتَ مِنْهَا ، أَيْنَ وَضَعْتَهُ » . فلما رأى أن علياً غير مقلع عنه كتب إليه « أَبَتَ إِلَى عَمَلِكَ مِنْ أَحِبِّتَ ، فَإِنِّي ظَاعِنٌ عَنْهُ » ورحل من البصرة ، وقد حمل ما كان في بيت مالها حتى قدم الحجاز فزل مكة ، وتبذلت الكتب بين عليّ وبينه ثانية ، وكانت خاتمتها أن كتب إليه ابن عباس : « وَاللَّهِ إِنِّي لَمْ تَدْعُ مِنْ أَسَاطِيرِكَ لِأَحْلَنَهُ إِلَى مَعَاوِيَةَ يَقَاتِلَكَ بِهِ » فكف عنه عليّ ، — انظر النقد الفريد ج ٢ : ص ٢٤٢ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٨١ ، ونهج البلاغة ج ٢ : ٤٦ —

وقال آخرون : إن ابن عباس ما فارق علياً ولا باينه ، ولم يزل أميراً على البصرة إلى أن قتل عليّ وبعد مقتل عليّ حتى صالح الحسن معاوية ، ثم خرج حيثئذ إلى مكة ، وليس هذا موضع بحث تلك المسألة — انظر كلمة عنها في شرح ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٦٤ ، وأمالى السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٣ .

[٢] رضح النوى (كنع وضرب) كسره ، وفي لسان العرب : « فظَلُّوا يَرْضَخُونَ أَيْ يَكْسِرُونَ الْحَبْزَ فَيَأْكُلُونَهُ وَيَتَنَاوَلُونَهُ » ولم أجد في كتب اللغة « يرضخ » بهذا المعنى ، وإنما الذي جاء « وهو يرضخ لكفة عجمية إذا نشأ معهم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى المعجم في ألفاظه ولو اجتهد » وقول ابن الزبير كناية عن شدة القحط والمأفة . [٣] كان طلحة بن عبيد الله ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحامى عنه في وقعة أحد وقد انهزم المسلمون ، ووقاه يده من سيوف المشركين ، وقد رمى بسهم في يده فبيست ، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ « الْيَوْمَ أَوْجِبَ طَلْحَةُ الْجَنَّةَ » .

ابن عباس قد كُفَّ بصره - استقبلَ بي وجهَ ابن الزبير وادفع من صدرى ،
فاستقبل به قائدُهُ وجه ابن الزبير وأقام قامته ، فَحَسَرَ عن ذراعيه ، ثم قال :
« يا ابن الزبير :

قد أنصف القارَّة من راماها إِنَّا إِذَا مَافِئَةً نَلَقَّاها
نَرُدُّ أُولَها على أُخْراها حتى تصيرَ حَرْصًا دَعَوَها (١)

يا ابن الزبير : أما العمى ، فَإِنَّ الله تعالى يقول : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ
وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » ، وأما فُتْيَاىَ فى القملة والنملة ، فَإِنَّ فِيها
حُكْمِينَ لا تعلمهما أنت ولا أصحابك ، وأما تحلى المال ، فَإِنَّه كان مالا جَبِيناه ،
فأعطينا كلَّ ذى حق حقه ، وبقيت بقيةٌ هى دون حقنا فى كتاب الله ، فأخذناها
بحقنا ، وأما المُتَمَّة فسَلْ أَمَكْ أَسْمَاءُ إِذْ نَزَلَتْ عَنْ بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، وأما قتالنا أُمَّ
المؤمنين ، فبِنا سُمِّيت أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، لا بك ولا بأبيك ، فانطلق أبوك وخالك (٢)
إلى حِجَابِ مَدَّةِ الله عليها ، فَهَتَكَاهُ عنها ، ثم اتخذها فتنَةً يَقَاتِلَانِ دونها ، وصانا
حلائلها فى بيوتها ، فما أنصفا الله ولا محمداً من أنفسهما أَنَّ أَبْرَزَا زوجة نبيه
وصانا حلائلها ، وأما قتالنا إِيَّاكُمْ ، فَإِنَّا لَقِينَاكُمْ زَحْفًا ، فَإِنَّ كُنَّا كَفَارًا فَقَدْ
كُفِرْتُمْ بِفِرَارِكُمْ مِنَّا ، وَإِنْ كُنَّا مُؤْمِنِينَ فَقَدْ كُفِرْتُمْ بِقِتَالِكُمْ إِيَّانَا ، وإيم الله لولا
مكانُ صفيةَ فيكم ، ومكان خديجةَ فينا ، لما تركتُ لبنى أسد بن عبد العزَّى
عظما إلا كَسَّرْتَهُ .

[١] المرض : الفساد فى المذهب والمقل والبدن . [٢] يبنى طلحة وهو ابن عم جده أبى بكر
الصديق ، فهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب
ابن لؤى ، وأبو بكر هو جده الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب . . . الخ ، وإنما جالسه
خاله باعتبار القرابة النسوية .

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، فقالت : ألم أنْهَكَ
عن ابن عباس ، وعن بنى هاشم ؟ فإنهم كُفُّوا^(١) الجواب إذا بُدِّهوا^(٢) » فقال :
بَلَى وعصيتُكَ ، فقالت : يا بني احذر هذا الأعمى الذى ما أطاقته الإنس والجن ،
واعلم أن عنده فضائح قريش ومخازيها بأشْرِها ، فأياك وإياه آخر الدهر .
ورواية صاحب العقد : « أن ابن عباس قال لِعِكْرِمَةَ : أقم وجهي نحوه
يا عكرمة ، ثم قال :

إن يأخذ الله من عَيْنَيَّ نورَهما ففي فؤادى وعقلى منهما نور
وأما قولك يا ابن الزبير : إني قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ،
وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خير بنين ، فتجاوز الله عنها ، وقاتلت أنت
وأبوك علياً ، فإن كَانَ عَلَى مؤمناً فقد ضَلَّلتُم بقتالكم المؤمنين ، وإن كَانَ كَافراً فقد
بُؤِثتم بسخط من الله بفراركم من الزحف . وأما المتعة فإنى سمعت على بن أبي طالب
يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فيها فأفتيتُ بها ، ثم سمعته
ينهى عنها فنهيت عنها^(٣) .

[١] كم البعير كنع شد فاه لكلا يمس أو يأكل ، والكمام ككتاب : ما يحمل على فمه ، والجمع كم
ككتب ، والمعنى أنهم ذور أجوبة مسكنة مخروسة تلجم أفواه مناظرهم . [٢] بدده بأمر كنعته :
استقبله به أو بدأه به .

[٣] جاء في المصباح المنير : « المتعة اسم التمتع ، ومنه متعة الحج ، ومتعة النكاح ، ومتعة الطلاق ،
ونكاح المتعة هو المؤقت فى العقد » وقال فى العباب : كان الرجل يشارط المرأة شرطاً على شيء إلى أجل
معلوم ، ويعطيها ذلك فيستحل بذلك فرجها ، ثم يخلى سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ، وقيل فى قوله تعالى
« فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » المراد نكاح المتعة ، والجمهور على تحريم نكاح
المتعة ، وقالوا معنى قوله : « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ » فما نكحتم على المصلحة التى فى قوله تعالى : « أَنْ تَبْتَغُوا
بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى عاقدى النكاح ، واستمتمت بكذا وتممت : انتهت ،
ومنه تمتع بالعمرة إلى الحج ، إذا أحرم بالعمرة فى أشهر الحج وبعد تمامها يحرم بالحج فإنه بالفراغ من

وأول مجمر^(١) سَطَعَ في المُنْتَعَةِ مَجْمَرُ آلِ الزَّيْبِرِ^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٨٩ ، والعقد المرید ٢ : ٢٦٩ - ١١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٣)

١١٧ — عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٨٠ هـ) وعمرو بن العاص

قال ابن أبي الحديد : روى المدائني قال :

« بينا معاوية يوماً جالساً وعنده عمرو بن العاص إذ قال الآذن : قد جاء

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقال عمرو : والله لأسوأَنَّهُ اليوم ، فقال معاوية :

لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تقتصف منه ، ولعلك أن تُظهر لنا من مَنَقَبَتِهِ^(٣)

ما هو خفي عنا ، وما لا نحب أن نعلمه منه ، وغشَّيهم عبد الله بن جعفر ، فأدناه

معاوية وقرَّبه ، فال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فقال من على عليه السلام

جهاراً غير سائر له ، وَثَلَبَهُ ثَلْباً^(٤) قبيحاً ، فامْتَقِعَ^(٥) لون عبد الله ، واعتراه أفكَل^(٦) ،

حتى أُرْعِدَتْ خصائله^(٧) ، ثم نزل عن السرير كالْفَنَيْقِ^(٨) ، فقال عمرو : مه

يا أبا جعفر ، فقال له عبد الله : مه لا أم لك ، ثم قال :

أظن الحلمَ دلَّ على قومي وقد يتجهل الرجل الحليم

ثم حَسَرَ عن ذراعيه ، وقال :

أعمالها يحل له ما كان حرم عليه ، فن ثم يسمى متمتعاً « اه وجاء في التفسير : « وقيل نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أناها ، ثم أصبح يقول : « يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة » وهي النكاح الموقت بوقت معلوم ، سمي بها إذ الفرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتمتعها بما تعطى ، وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجح عنه .

[١] الحجر : العود ، واستحمر بالحجر : تبخر بالود . [٢] قال المسعودي في مروج الذهب : « وقد تنازع الناس في ذلك ، فمنهم من رأى أنه عنى متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكراً في الإسلام ، وزوجه أبو بكر معلماً ، فكيف تكون متعة النساء ؟ »

[٣] المنقبة : المفخرة . [٤] ثابه : حابه . [٥] تغير لونه . [٦] الأفكَل : الرعدة .

[٧] جمع خصيلة وهي لحم الفخذين والمضدين والذرايين أو كل عصبية فيها لحم غليظ .

[٨] الفنيق : الفعل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

« يا معاوية خَتَامَ نتَجَرَّعَ غِيظَكَ ، وَإِلَى كَمِ الصَّبْرِ عَلَى مَكْرُوهِ قَوْلِكَ ،
 وَسِيءٌ أَدَبُكَ ، وَذَمِيمٌ أَخْلَاقُكَ ، هَبَلْتُكَ الْهَبُولَ ^(١) ، أَمَا يَزْجُرُكَ ذِمَامُ ^(٢)
 الْمَجَالِسَةِ عَنِ الْقَذْعِ ^(٣) لَجْلِسِكَ ، إِذَا لَمْ تَكُنْ لَكَ حُرْمَةٌ مِنْ دِينِكَ تَنْهَاكَ عَمَّا
 لَا يَجُوزُ لَكَ ، وَاللَّهُ لَوْ عَطَفْتُكَ أَوْاصِرُ ^(٤) الْأَرْحَامِ ، أَوْ حَامَيْتُ عَلَى سَهْمِكَ مِنَ
 الْإِسْلَامِ ، مَا أَرَعَيْتَ بَنِي الْإِمَاءِ الْمُتَنَكِّ ^(٥) ، وَالْعَبِيدِ السُّكَّ ^(٦) أَعْرَاضَ قَوْمِكَ ،
 وَمَا يَجْهَلُ مَوْضِعَ الصَّفْوَةِ ^(٧) إِلَّا أَهْلُ الْجَفْوَةِ ، وَإِنَّكَ لَتَعْرِفُ وَشَائِجَ ^(٨) قَرِيشَ ،
 وَصَفْوَةَ غَرَائِزِهَا ، فَلَا يَدْعُوَنَّكَ تَصْوِيبُ مَا فَرَطَ مِنْ خَطِيئَتِكَ فِي سَفْكَ دِمَاءِ
 الْمَسَامِينِ ، وَمَحَارِبَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى التَّمَادَى فِيمَا قَدْ وَضَحَ لَكَ الصُّوَابُ فِي
 خِلَافِهِ ، فَاقْصِدِ لِمَنْهَجِ الْحَقِّ فَقَدْ طَالَ عَمَّهُكَ ^(٩) عَنْ سَبِيلِ الرُّشْدِ ، وَخَبَطْتُكَ فِي
 دَيْبُجُورٍ ^(١٠) ظَالِمَةِ الْغَى ، فَإِنْ أُبَيَّتَ أَنْ لَا تَتَابَعَنَا فِي قَبْحِ اخْتِيَارِكَ لِنَفْسِكَ ، فَأَغْفِنَا
 عَنْ سُوءِ الْقَالَةِ ^(١١) فِينَا ، إِذَا ضَمَّنَا وَإِيَّاكَ النَّدَى ^(١٢) ، وَشَأْنُكَ وَمَاتَرِيدُ إِذَا خَلُوتَ ،
 وَاللَّهُ حَسِيبُكَ ، فَوَاللَّهِ لَوْلَا مَا جَعَلَ اللَّهُ لَنَا فِي يَدَيْكَ لِمَا أَتَيْنَاكَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ
 كَلَّفْتَنِي مَا لَمْ أَطُقْ ، سَاءَ كَمَا سُبِّرَ مِنِّي مِنْ خَلْقٍ .

[١] هَبَلْتُهُ أَمَهُ : تَنَكَّيْتُهُ ، وَالْهَبُولُ : الْمَرَأَةُ لَا يَبْعِثُ لَهَا وَلَدٌ . [٢] الذِّمَامُ : الْحُرْمَةُ .

[٣] قَذَعَهُ وَأَقْذَعَهُ رَمَاهُ بِالْمَحْشِ وَسُوءِ أَقْوَالٍ . [٤] جَمْعُ آصِرَةٍ وَهِيَ الْقِرَابَةُ وَحِلٌّ صَعِيرٌ يَشْدُ بِهِ
 أَسْفَلَ الْحَبَاءِ . [٥] الْمَتَنُ جَمْعُ مَتَكَاةٍ (كَهْمَاءُ) وَهِيَ الْبُظْرَاءُ وَالْمَقْصَاةُ وَالَّتِي لَا تَمْسُكُ الْبُولَ .
 [٦] السَّكُّ جَمْعُ أَسَكٍّ مِنَ السَّكِّ (مَرَكَّة) ، وَهُوَ صَفَرُ الْأُذُنِ وَلِزَوْقِهَا بَارَأْسُ أَوْ صَغَرُ فَوْفِ الْأُذُنِ
 وَضِيقُ الصَّمَاخِ . [٧] أَيْ صَفْوَةُ الْقَوْمِ وَسَادَتُهُمْ .

[٨] فِي الْأَصْلِ « وَشَائِجُ » وَقَدْ بَحِثْتُ فِي مَادَةِ « وَشَكَّ » فَوَجَدْتُ نَبِيهَا « وَالْوَشِيكَ السَّرِيعُ
 وَالْقَرِيبُ ، وَامْرَأَةٌ وَشِيكَ أَيْ سَرِيعَةٌ » فَلَوْ جَاءَنَا وَشَائِجُ جَمْعُ وَشِيكَةٍ « أَوْ وَشِيكَ عَلَى الْبَأْثِ » لَمْ يَسْتَقِم
 مَعْنَى الْعِبَارَةِ ، وَأَرَاهُ مَحْرَفًا عَنْ « وَشَائِجِ » بِالْجَمِّ . جَمْعُ وَشِيجَةٍ وَهِيَ عَرَقُ الشَّجَرَةِ ، فَمَعْنَى وَشَائِجِ قَرِيشَ
 أَصُولُهَا وَعَرَوَقُهَا « وَالْعَرَقُ أَصْلُ كُلِّ شَيْءٍ » أَيْ وَإِنَّكَ يَا مُعَاوِيَةَ لَتَعْرِفُ أَصُولَ قَرِيشِ الْكَرِيمَةِ الزَّائِكَةِ
 الَّتِي تَأْتِي الضَّمُّ وَلَا تَحْتَمِلُ اللَّبَّ وَالْإِمَامَةَ « وَالْوَشِيحُ أَصْلُ شَجَرِ الرِّمَاحِ » وَنَظِيرُ هَذَا التَّعْبِيرِ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ
 « مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ » — وَالسَّيِّعُ شَجَرٌ تَتَخَذُ مِنْهُ الْقِسِيُّ وَالسَّهَامُ .

[٩] الْعَمَةُ مَحْرَكَةٌ : التَّرْدُدُ فِي السَّلَالِ . [١٠] الدَّيْبُجُورُ : الظَّلَامُ . [١١] انْقَرَى فِي الْحَبْرِ وَالْقَالَ
 وَالْقِيلُ وَالْقَالَةُ فِي الشَّرِّ . [١٢] النَّادَى .

فقال معاوية : يا أبا جعفر نغير الخطأ ، أقسمت عليك لتجلسن ، لعن الله من أخرج ضَبَّ صدرك من وَجَارِه^(١) ، محمول لك ماقلت ، ولك عندنا ماأملت ، فلو لم يكن مَحْتِدك^(٢) ومنصيبك لكان خُلُقك وَخَلَقك شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين وسيد بنى هاشم ، فقال عبد الله : كلا بل سيد بنى هاشم حسن وحسين لا ينازعهما فى ذلك أحد ، فقال أبا جعفر : أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كائنة ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما فى هذا فى المجلس فلا ، ثم انصرف ، فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لكانه رسول الله صلى الله عليه وآله مشيه وخلقه وخلقه ، وإنه لمن مَشْكاته^(٣) ، لو ددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو فقال : أبا عبد الله ما تراه منعه من الكلام معك ؟ قال : ما لا خفاء به عنك . قال أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؟ لا والله ولكنه ازدراك واستحقرك ، ولم يرك للكلام أهلا ، أما رأيت إقباله علىّ دونك ، ذاهبا بنفسه عنك ؟ فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه ؟ قال معاوية : أرغب إليك أبا عبد الله ، فلات حين جواب فيما يرى اليوم ، ونهض معاوية وتفرق الناس . (شرح ابن أبي الحديد ٢ : ص ١٠٤)

١١٨ — الحسن بن علىّ وعمرو بن العاص

وَوَفَد الحسن بن علىّ رضى الله عنه على معاوية ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أفه^(٤) ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع

[١] جهره . [٢] أصلاك . [٣] المشكاة : الكوة التى ليست بذائفة .

[٤] أفه : وصف من الفهاة وهى التى ، وفهله فه كفرح ، وقياس الوصف منه أنه على أهل لأنه يدل على خلقه « عيب » كعور وهى وعرج ، ولكن الذى فى كتب اللغة : أنه كعذب ونهيه وفهله

الناس كلامه عابوه وسقط من عيونهم ففعل ، فصعد على المنبر وتكلم فأحسن ، ثم قال : أيها الناس لو طلبتم ابناً لنبيكم ما بين جابرُس إلى جابلق ^(١) لم تجدوه غيري وغير أخى : وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فساء ذلك عمراً ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له : أبا محمد ، هل تنعت الرطب ^(٢) ؟ فقال : « أَجَلٌ تُلْقِيهِ الشَّمَالُ ، وَتُخْرِجُهُ الْجَنُوبُ ، وَيُنْضِجُهُ بَرْدُ اللَّيْلِ ، بِحَرِّ النَّهَارِ ^(٣) » قال : أبا محمد ، هل تنعت الخِزَاءَ ^(٤) ؟ قال : « نعم ، تُبْعِدُ الْمَشَى فِي الْأَرْضِ الصَّخْصِصِ ^(٥) ، حتى تتوارى من القوم ، ولا تستقبل القبلة ، ولا تستدبرها ، ولا تستنج بالروثة ، ولا العظم ، ولا تبك في الماء الراكد » وأخذ في كلامه .

(العقد الفريد ٢ : ١١٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ١٧٢ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢)

١١٩ — الحسن بن علي ومروان بن الحكم

بينما معاوية بن أبي سفيان جالس في أصحابه إذ قيل له : الحسنُ بالبَابِ ، فقال معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان بن الحكم : ائذن له ، فإنني أسأله ما ليس عنده فيه جواب ، قال معاوية : لا تفعل ، فإنهم قوم قد ألهموا الكلام ، وأذن له ، فلما دخل وجلس ، قال له مروان : أسرع الشيب إلى

[١] جابرُس : مدينة بأقصى المشرق ، وجابلق : مدينة بأقصى المغرب ، وضبطها ياقوت في معجمه بسكون اللام ، وفي القاموس ولسان العرب بفتحها ، قال ياقوت : « وفي رواية : جابلص » وضبطها صاحب اللسان بفتح اللام ، وفي القاموس بفتح اللام أو سكونها : بلد بالمغرب ليس وراءه أنس ، وفي العقد الفريد : « لو طلبتم أبناء أيكم ما بين لابتها » ولابتا المدينة : حرثان فكثفانها .

[٢] يسأله هذا وما بعده تمجيذاً له . [٣] وفي العقد : « وتنضجه الشمس ، ويصبغه القمر » .

[٤] خري كسمع خراءة بفتح الخاء وكسرهما : سلاح . [٥] الصخصص : ما استوى من الأرض ،

وفي العقد الفريد « للصحيح » وهو تحريف .

شاربك يا حسن، ويقال إن ذلك من الخرق^(١)، فقال الحسن : ليس كما بلغك ،
ولكننا معشر بني هاشم ، أفواهنا عذبة شفاهاها ، ففساؤنا يُقبلن علينا بأنفاسهن
وقبلهن ، وأنتم معشر بني أمية فيكم بخر^(٢) شديد ، ففساؤكم يصرفن أفواههن
وأنفاسهن عنكم إلى أصدائكم ، فإنما يشيب منكم موضع العذار^(٣) من أجل
ذلك . قال مروان ؟ إن فيكم يا بني هاشم خصلة سوء . قال : وما هي ؟ قال :
الغلمة^(٤) . قال : أجل ، تُرعت الغلمة من نساينا ، ووُضعت في رجالنا ، ونرعت
الغلمة من رجالكم ، ووضعت في نسائكم ، فاقام لأموية إلا هاشمي ، فغضب
معاوية وقال : قد كنت أخبرتم ، فأيتتم حتى سمعتم ما أظلم عليكم بيتكم ، وأفسد
عليكم مجلسكم . (المقد الفريد ٢ : ١١٥)

١٢٠ — عقيل بن أبي طالب ومعاوية

وكان عقيل بن أبي طالب قد خرج إلى معاوية ، مُغاضباً لأخيه الإمام عليّ
كرم الله وجهه^(٥) ، فأكرمه معاوية ، وقرّبه إليه ، وقضى حوائجه ، وقضى عنه
دينه ، ثم قال له في بعض الأيام : « والله إن عليّاً غيرُ حافظ لك ، قطع قرابتك ،
وما وصلاك ، ولا اصطنعك » قال له عقيل : « والله لقد أجزل العطية وأعظمها ،
ووصل القرابة وحفظها ، وحسن ظنه بالله إذ ساء به ظنك ، وحفظ أمانته ،
وأصلح رعيته ، إذ خُتم وأفسدت وجُرّتم ، فاكفف لا أبالك ، فإنه عما
تقول بمعزل » .

[١] الخرق كسبب : الحق وألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور والاسم الخرق كقفل .
[٢] البخر : التثني في التهم وغيره . [٣] العذار : جانب اللحية . [٤] الغلمة : شدة الصهوة كالشبق بالتحريك .
[٥] وكان قد قدم عليه بالكوفة ، فسأله أن يقضى عنه دينه ، قال : وكم دينك ؟ قال : أربعون ألفاً ،
قال : ما هي عندي ، ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فإنه أربعة آلاف فأدعه إليك ، قال : يوت المال بيدك
وأنت تسوفني بمطالك ؟ قال : أنا أمرني أن أدفع إليك أموال المسلمين وقد ائتموني عليها ؟ قال : فإني أت
معاوية ، فأذن له فقدم عليه « انظر أسد الغابة ٣ : ٤٢٣ والمحرى ص ٧٦ » — اقرأ أيضاً كلمة في هذا
لصدد في شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ٨٢ وفي ترجمة عليّ بن أبي طالب للمؤلف ص ٨٣ .

وقال له معاوية يومًا : « أبا يزيد ، أنا لك خير من أخيك عليّ » قال : « صدقت ، إن أخى آثرَ دينَه على دُنياه ، وأنت آثرت دُنياك على دينك ، فأنت خير لى من أخى ، وأخى خير لنفسه منك ^(١) » .

وقال له مرة : « أنت معنا يا أبا يزيد » قال : « ويوم بدر قد كنت معكم ! » وقال له يومًا : إن عليًّا قد قَطَعَكَ وَوَصَلَتْكَ ، ولا يُرضينى منك إلا أن تلعنه على المنبر . قال : أفعلُ ، فأصعِد فصعِد ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعنَ عليَّ بن أبى طالب ، فآلعنوه ، فعليه لعنةُ اللَّهِ والملائكةِ والناس أجمعين » ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين - أبا يزيد - مَنْ لعنتَ بيدى ويده . قال : والله لا زدتُ حرفًا ، ولا نقصتُ آخر ، والكلام إلى نيّة المتكلم .

ودخل عقيل على معاوية ، وقد كف بصره ، فأجلسه على سريرهِ ، ثم قال له : « أنتم معشرَ بنى هاشم تُصابون فى أبصاركم » قال : « وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم » .

وقال له يومًا : ما أئينَ الشَّبَقَ فى رجالكم يا بنى هاشم ! قال : لكنه فى نسائكم أئينُ يا بنى أمية .

وقال معاوية يومًا : « يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى فى كتابه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ^(٢) وَتَبَّ » ؟ قالوا : نعم ، قال : فإن أبا لهب عمه ،

[١] وفى البيان والتبيين أن معاوية قال : هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أنى خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه ، فقال له عقيل : « أخى خير لى فى دينى ، وأنت خير لى فى دُنياى » .

[٢] هو أبو لهب بن عبد المطلب عمّ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان شديد الإيذاء له ، يرمى القدر على بابه .

فقال عقيل : « فهل سمعتم قول الله عز وجل : « وَأَمْرًا تُهْجِمُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ (١) » ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنها عمته ، ثم قال : « يا معاوية ، إذا دخلت النار ، فاعدل ذات اليسار ، فإنك ستجد عمي أبا لهب ، مفترشاً عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير ؟ »

وقال له معاوية يوماً : والله إن فيكم لخصلة ما تُعجبني يا بني هاشم . قال : وما هي ؟ قال : لين فيكم . قال : لين ماذا ؟ قال : هو ذاك . قال : إيانا تُعير يا معاوية ؟ أجل والله إن فينا لليناً من غير ضعف ، وعِزاً من غير جبروت ، وأما أنتم يا بني أمية ، فإن لينكم غدر ، وعزكم كفر . قال معاوية : ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد .

وقال معاوية لعقيل : لم جفوتنا يا أبا يزيد ؟ فأنشأ يقول ؟
إني امرؤ مني التكرُّمُ شِيمَةٌ إذا صاحبي يوماً على الهُون أضْمِراً
ثم قال : « وايم الله يا معاوية ، لئن كانت الدنيا مَهْدَتِكَ مَهَادَهَا ، وأظَلَّتْكَ بِحَذَافِيرِ (٢) أهلها ، ومَدَّتْ عَلَيْكَ أَطْنَابَ سُلْطَانِهَا ، مَا ذَاكَ بِالَّذِي يَزِيدُكَ مِنِّي رَغْبَةً ، وَلَا تَخْشَعُ لِرَهْبَةٍ » قال معاوية : « لقد نَعَمْتُهَا أبا يزيد نَعْمَتًا هَشًّا لَهَا قَلْبِي ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا رَدَّانِي بِرَدَاءِ مَلِكِهَا ، وَحَبَّانِي بِفَضِيلَةِ عَيْشِهَا ، إِلَّا لِكِرَامَةِ أَذْخَرِهَا لِي ، وَقَدْ كَانَ دَاوُدَ خَلِيفَةً ، وَسُلَيْمَانَ مَلِكًا ، وَإِنَّمَا هُوَ الْمِثَالُ يُحْتَذَى عَلَيْهِ ، وَالْأُمُورُ أَشْبَاهُ ، وَايْمُ اللَّهِ يَا أبا يزيد ، لقد أصبحت علينا كريماً ، وإلينا حبيباً ، وما أصبحتُ أضْمِرُ لَكَ إِسَاءَةً » .

(المقد الفريد ٢ : ١١٠ — ١١٩ ، البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

[١] هي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ، وقيل لها حمالة الحطب ، لأنها كانت تحمل الشرك والسعدان وتلقيه في طريق النبي عليه الصلاة والسلام إيذاء له وكانت جارته ، أو هو النيمة ، إذ كانت تسمى عليه بالنائم وتوقد بذلك نار الخصومة ، أو حطب جهنم ، فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداته ، وتحمل زوجها على إيذائه . [٢] الحذاقير جمع حذفور أو حذفار (كصقور وقرطاس) وهو الجانب .

١٢١ — خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة

بعد مقتل الحسين عليهم السلام

لما قُتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وأُدخلَ النَّسوة من كَرْبَلَاءَ إلى الكوفة ، جعلت نساؤها يَلْتَدِمْنَ ^(١) ، وَيَهْتِكْنَ الْجُيُوبَ عليه ، فرفع عليّ بن الحسين عليهما السلام رأسه ، وقال بصوت ضئيل — وقد نَحَلَ ^(٢) من المرض — :
يأهل الكوفة إنكم تبكون علينا، فَمَنْ قَتَلَنَا غَيْرَكم ؟ وأومأت أم كلثوم بنت عليّ عليهما السلام إلى الناس أن اسكتوا ، فلما سكنت الأنفاس ، وهَدَّأتِ الأجراس ^(٣) ، قالت :

« أبدأ بِحَمْدِ اللَّهِ ، والصلاة والسلام على أَيْبَةٍ ^(٤) ، أما بعد : يأهل الكوفة ،
يأهلَ الْخَرِّ ^(٥) وَالْخَذَلِ ، لا ، فلا رَقَاتٍ ^(٦) الْعَبْرَةَ ، ولا هَدَّأتِ الرِّئَةَ ^(٧) ، إنما
مَثَلَكُمْ كَمَثَلِ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ^(٨) ، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ
دَخْلًا ^(٩) يَنْسِكُكُمْ ، أَلَا وهل فيكم إِلَّا الصَّلَافُ ^(١٠) وَالشَّنَفُ ^(١١) ، وَمَلَقُ ^(١٢)

- [١] لدمت المرأة (كضرب) ، والتدمت : لطمت وصربت صدرها في النياحة ، ويهتك : يمزق ،
والجيوب جمع حيب : وهو طرق القميص . [٢] كنع وعلم وصر وكرم .
[٣] الأجراس جمع حرس كشمس : وهو الصوت . [٤] تريد جدها رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وفي رواية : « والصلاة على جدى سيد المرسلين » . [٥] الغدر والحديمة ، أو أقيج
الغدر . [٦] رقاً الدمع : جف وسكن ، والعبرة : الدمة قل أن تفيض .
[٧] الرنة : الصوت . [٨] أنكاثاً جمع نكت كحمل وهو ما نقض ليعزل ثانية — حال من غزلها ،
أو مفعول ثانٍ لنقص لأنه بمعنى صيرت — وقيل هي ربطة بنت سعد بن تيم انقرشية ، وكانت خرقاء تهزل
طول يومها ثم تنقصه . [٩] الدخل : ما يدخل في الشيء وليس منه ، وما داخل من فساد في عقل أو
جسم ، والغدر والمكر والحديمة . [١٠] الصلاف : التمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قدر الظرف
والإدعاء فوق ذلك تكبراً . [١١] الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو النظر إلى الشيء كالمترض عليه ،
أو كالتعجب منه ، أو كالكاره له ، وشنف له كفرح فرحاً : أبغضه وتكرهه .
[١٢] ملق الجارية : مجامعتها ، أو هو ملق بالتحريك ، والملق : التلق .

الْإِيمَاءَ ، وَغَمَزُ الْأَعْدَاءِ ، وَهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا كَمَرَعَى عَلَى دِمْنَةٍ ^(١) ، وَكَفِضَةَ عَلَى مَلْحُودَةٍ ^(٢) ، أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَفِي الْعَذَابِ أَنْتُمْ خَالِدُونَ ، أَتَبْكُونَ ؟ إِي وَاللَّهِ فَابْكُوا ، وَإِنْكُمْ وَاللَّهِ أُخْرِيَاءُ ^(٣) بِالْبُكَاءِ ، فَابْكُوا كَثِيراً ، وَاضْحَكُوا قَلِيلاً ، فَلَقَدْ فَزَيْتُمْ بِعَارِهَا وَشَنَارِهَا ^(٤) ، وَلَنْ تُرْحِضُوهَا ^(٥) بِغَسَلٍ بَعْدَهَا أَبَداً ، وَأَنْتِ تُرْحِضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبُوَّةِ ، وَمَعَدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَسِيدِ شَبَّانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنَارِ مُحَجَّجَتِكُمْ ، وَمِذْرَةٍ ^(٦) حُجَّتِكُمْ ، وَمُفْرَخٍ ^(٧) نَازِلَتِكُمْ ، فَتَمَسَّا وَنُكْسَا ^(٨) ، لَقَدْ خَابَ السَّعْيُ ، وَخَسِرَتِ الصَّفَقَةُ ^(٩) ، وَابُؤْتُمْ ^(١٠) بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ^(١١) ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ ^(١٢) مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا ، أَتَدْرُونَ أَيْ كَبِدِ لِرَسُولِ اللَّهِ فَرَيْتُمْ ، وَأَيْ كَرِيمَةٍ لَهُ أَبْرَزْتُمْ ، وَأَيْ دَمٍ لَهُ سَفَكْتُمْ ؟ لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا شَوْهَاءَ خَرَقَاءَ ^(١٣) ، شَرُّهَا طِلَاعُ ^(١٤) الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، أَفَعَجِبْتُمْ أَنْ قَطَرَتِ السَّمَاءُ دَمًا ، وَأَمَدَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ، فَلَا يَسْتَخَفُّنَكُمْ الْمَهْلُ ، فَإِنَّهُ لَا تَحْفَرُهُ الْمِبَادَرَةُ ^(١٥) ، وَلَا يُخَافُ عَلَيْهِ قَوْتُ النَّارِ ،

-
- [١] الدمنة : آثار الدار بعد الرحيل عنها من البعر والرماد وغيرها ، أخذت هذا القول من قول جدها عليه الصلاة والسلام : « إياكم وخضراء الدمن » وهي المرأة الحسناء في منبت السوء .
- [٢] ملحودة : مدفونة في لحدها ، تريد أنهم لا ينتفع بهم . [٣] جديرون .
- [٤] السنار : أفح العيب . [٥] راحضه كمنه وأرحضه : غسله . [٦] دره : دره عن القوم كنح إذا تكلم عنه ودفع فهو مدره . [٧] أي مذهب ومزيل ، يقال : « أفرخ روعك » — على الأمر وبضم الراء من روعك — أي اسكن وأمن ، والروع : القلب . [٨] النكس : الهلاك ، ونكسه نكساً : قلبه على رأسه ، والنكس بالضم عود المرض بسد النقه ، ويقال : تمسأ له ونكساً ، بضم النون وقد يفتح ازدواجاً . [٩] البيعة . [١٠] رجعتكم . [١١] أي فظيماً منكراً .
- [١٢] ينشققن ، وتخِر : تسقط ، هذا : أي تهدت هذا . [١٣] بيا أي بفضلكم هذه ، وخرقاء من الحرق : وهو ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور . [١٤] طلاع الشيء : ملؤه .
- [١٥] أي لا تدفعه إلى العقوبة المبادرة إلى الذنب ، والضهير لله تعالى .

كلا ، إن ربك لنا ولهم لبِالرِّصَادِ^(١) » ثم ولَّت عنهم ، فظل الناس حَيَارَى ، وقد ردُّوا أيديهم إلى أفواههم ، وقال شيخ كبير من بني جُفَيْيٍّ - وقد أخضَلَّت^(٢) لحيته من دموع عينيه - :

كُفُّوْلُهُمْ خَيْرُ الْكُهُولِ ، وَنَسْلُهُمْ إِذَا عُدَّ ، نَسْلٌ لَا يَبُورُ وَلَا يَخْزَى

(بلاغات النساء : ص ٢٧)

١٢٢ — خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام بين يدي يزيد ولما وجَّه عُبَيْدُ اللَّهِ بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ، ومَثَلُوا بين يديه أمر برأس الحسين فأبرز في طَسَّتْ ، فجعل ينكُت ثنياه بقَضِيب في يده ، وهو يقول من أبيات^(٣) :

لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْذُرُ شَهِيدُوا جَزَعَ الْخَزَرَجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ^(٤)

لَأَهْلُوا وَأَسْتَهْلُوا فَرَحًا ثُمَّ قَالُوا : يَا يَزِيدُ لَا تَشَلْ^(٥)

فَجَزَيْنَاهُمْ بِبَدْرِ مِثْلَهَا وَأَقْمَنَا مَيْلَ بَدْرِ فَاغْتَدَلْ^(٦)

فَقَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : صدق الله ورسوله يا يزيد ! « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاءُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ » أَظَنَنْتَ يَا يَزِيدُ أَنَّهُ حِينَ أَخَذَ عَلَيْنَا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ وَأَكْنَفِ السَّمَاءِ ، فَأَصْبَحْنَا

[١] المرصاد : الطريق والمكان يرصد فيه العدو ، ورصده : رقبه ، أي يرصد أعمال العباد فلا يفوته منها شيء . [٢] ابتلت . [٣] تمثل يزيد بهذه الأبيات وهي لعبد الله بن الزهري ، قالها في غزوة أحد ، وهو يومئذ مشرك ، وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش في شمره ، ثم أسلم بعد فتح مكة . [٤] كانت العلبة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للمعركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخرج قبيلة من الأنصار . [٥] كل من رفع صوته فقد أهل إهلالا واستهل استهلالا ، وشلت يده تشل كتعب يتعب ، وأشلت وشلت مبذون المجهول : يبست وهي جملة دطائية ، يقال في الداء : « لا تشل يدك ولا تكل » - والبيت من قول يزيد - . [٦] لانفس ما قدمناه لك من أن عليا كرم الله وجهه كان قد وتر آل أبي سفيان بيدر ، فقل حظظة بن أبي سفيان أبا معاوية ، والوليد بن عتبة خله ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه .

نَسَاقُ كَمَا يَسَاقُ الْأُسَارَى ، أَنْ بَنَاهَا عَلَى اللَّهِ ، وَبِكَ عَلَيْهِ كَرَامَةٌ ؟ وَأَنْ هَذَا
لِعَظِيمِ خَطَرِكَ ؟ فَشَمَخْتَ بِأَنْفِكَ ، وَنَظَرْتَ فِي عِطْفَيْكَ ^(١) ، جَذْلَانِ فَرَحًا ، حِينَ
رَأَيْتَ الدُّنْيَا مُسْتَوْسِقَةً لَكَ ^(٢) ، وَالْأُمُورَ مُتَّسِقَةً عَلَيْكَ ، وَقَدْ أُمِّهَلَتْ وَنُقِّسَتْ ^(٣)
وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكُمُ تُغْلِبُونَ ^(٤) لَهُمْ خَيْرٌ
لِأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا تُغْلِبُونَ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » أَمِنْ الْعَدْلِ ، يَا بَنَ
الطُّلُقَاءِ تَخْدِيرُكَ ^(٥) نِسَاءَكَ وَإِمَاءَكَ ، وَسَوَّيْتَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
قَدْ هَتَكَتَ سِتُورَهُنَّ ، وَأَفْجَحْتَ ^(٦) صَوْتَهُنَّ ، مَكْتَبَاتِ تَخْدِي ^(٧) بَنِ الْأَبَاعِرُ ،
وَيَخْذُونَ ^(٨) بَنِ الْأَعَادِي ، مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، لَا يُرَاقِبُنَّ وَلَا يُؤَوِّدُنَّ ، يَتَشَوَّفُهُنَّ ^(٩)
الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، لَيْسَ مَعَهُنَّ وَلِيٌّ ^(١٠) مِنْ رَجَالِهِنَّ ، وَكَيْفَ يُسْتَبْطَأُ فِي بَغِضَتِنَا
مَنْ نَظَرَ إِلَيْنَا بِالشَّنْفِ ^(١١) وَالشَّنَّانِ ، وَالْإِخْنِ وَالْأَضْغَانَ ؟ أَتَقُولُ :
« لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ شَهْدَاؤُكُمْ غَيْرَ مُتَأَمِّمٍ وَلَا مُسْتَعْظِمٍ ؟ وَأَنْتَ تَنَكَّتَ ثَنِيَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
بِمَخْصَرَتِكَ ^(١٢) ، وَلَمْ لَا تَكُونَ كَذَلِكَ وَقَدْ نَكَّأْتَ ^(١٣) الْقَرْحَةَ ، وَاسْتَأْصَلْتَ
الشَّافَةَ ^(١٤) ، بِإِهْرَاقِكَ دِمَاءَ ذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَنُجُومِ الْأَرْضِ

[١] أَيْ جَانِبِكَ ، وَهُوَ كُنْيَاةٌ عَنْ إِجَابَةِ بِنَفْسِهِ . [٢] مِنْ اسْتَوْسَقَتِ الْإِبِلُ : أَيْ اجْتَمَعَتْ ،
وَمُتَّسِقَةٌ : مُنْتَظِمَةٌ . [٣] أَيْ أَفْجَحْتَ لَكَ فِي أَمْرِكَ ، مِنْ نَفْسِ اللَّهِ كَرِهَتْهُ : فَرَّجَهَا .
[٤] تُغْلِبُونَ . [٥] صَوْتَهُنَّ فِي خَدُورِهِنَّ . [٦] أَبْجَحْتَهُ ، صَحَلَ صَوْتُهُ كَفَرَحَ : بَجَحَ .
[٧] خَدَى الْبَعِيرَ وَالْبُرْسَ كَجَرَى : أَسْرَعَ وَزَجَّ بِقَوَائِمِهِ ، أَوْ هُوَ صَرَبَ مِنْ سِيرِهِمَا .
[٨] يَسُوقُ . [٩] يَتَطَاوَلُ وَيَنْظُرُ إِلَى بَنِيهِ وَيَشْرَفُ عَلَيْهِنَّ . [١٠] قَرِيبٌ أَوْ نَصِيرٌ .
[١١] سَبَقَ تَفْسِيرُهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « بِالشَّنْقِ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ (وَالشَّنْقُ : أَنْ تَكْفُفَ الْبَعِيرَ بِرِزَامِهِ حَتَّى
تَلْزُقَ ذُرَّاءَ بَقَادِمَةِ الرَّحْلِ ، وَالتَّغْرِى بِكَسْرِ الدَّالِ : الْعَظْمُ الشَّخِصُ خَلْفَ الْأُذُنِ) ، وَالشَّنَّانُ : السُّكْرَانِيَّةُ ،
وَالْإِخْنُ : الْأَحْقَادُ . [١٢] الْمَخْصَرَةُ : مَا يَأْخُذُهُ الْمَلِكُ يَشِيرُ بِهِ إِذَا خَاطَبَ . [١٣] نَكَّأَ الْقَرْحَةَ
كَنَحَ : فَشَرَّهَا قَبْلَ أَنْ تَبْرَأَ فَنَدَيْتَ ، كُنْيَاةٌ عَنْ نَبِيْشَةَ عَمَّاكَادِ بْنِ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أُمِيَّةٍ .
[١٤] الشَّافَةُ : قَرْحَةٌ تَخْرُجُ فِي أَسْفَلِ الْقَدَمِ فَتُكْوَى فَتُذْهَبُ ، وَاسْتَأْصَلْتُ اللَّهَ شَافَتَهُ : أَذْهَبَهُ كَمَا تَذْهَبُ
تِلْكَ الْقَرْحَةُ

من آل عبد المطلب ، وَلَتَرِدَنَّ عَلَى اللَّهِ وَشِيكَاً ^(١) مَوْرِدَهُمْ ، وَلَتَوَدَّ أَنَّكَ تَحْمِيْتُ
وَبَكَيْتُمْ وَأَنْتَ لَمْ تَقُلْ : « فَاسْتَهْلُوا وَأَهْلُوا فَرَحًا » اللَّهُمَّ خذْ بِحَقِّنَا ، وَاتَّقِمْ
لَنَا مِمَّنْ ظَلَمْنَا ، وَاللَّهُ مَا فَرَيْتَ إِلَّا فِي جِلْدِكَ ، وَلَا حَزَزْتَ إِلَّا فِي لَحْمِكَ ،
وَسَتَرِدْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِرَغْمِكَ ^(٢) ، وَعِثْرَتُهُ وَلُحْمَتُهُ فِي حَظِيرَةِ
الْقُدُسِ ^(٣) ، يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَهُمْ مَأْمُومِينَ مِنَ الشَّعَثِ ^(٤) ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ » وَسَيَعْلَمُ مِنْ بَوَّأِكَ ^(٥) وَمَكْنُوكِ مِنَ رِقَابِ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا كَانَ الْحَكَمَ
اللَّهُ ، وَالْخَصَمَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَجَوَارْحُكَ شَاهِدَةٌ عَلَيْكَ ، فَبَيْتُ
لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا - أَيُّكُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ، مَعَ أَنِّي وَاللَّهُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ
وَابْنَ عَدُوِّهِ ، أَسْتَصْغِرُ قَدْرَكَ ، وَأَسْتَغْظِمُ تَقْرِيعَكَ ^(٦) ، غَيْرَ أَنَّ الْعَيُونَ عَبْرَى ^(٧) ،
وَالصُّدُورَ حَرَّى ، وَمَا يَجْزِي ذَلِكَ أَوْ يُعْنِي عَنَّا ، وَقَدْ قَتَلَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
وَحِزْبُ الشَّيْطَانِ ^(٨) يَقْرَبُنَا إِلَى حِزْبِ السُّفْهَاءِ ^(٩) ، لِيُعْطُوهُمْ أَمْوَالَ اللَّهِ عَلَى انْتِهَاكَ
مَحَارِمِ اللَّهِ ، فَهَذِهِ الْأَيْدِي تَنْطِفِ ^(١٠) مِنْ دِمَائِنَا ، وَهَذِهِ الْأَفْوَاهُ تَتَحَلَّبُ ^(١١) مِنْ
لَحُومِنَا ، وَتَتَلَكَّ الْجُثَثُ الزَّوَاكِي ^(١٢) ، يِعْتَامُهَا عَسَلَانُ الْفَلَوَاتِ ، فَلَمَّا اتَّخَذْتَنَا
مَعْنَا لِنَتَّخِذَنَّ مَعْرَمًا ، حِينَ لَا تَجِدُ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، تَسْتَصْرِخُ ^(١٣) :

[١] سريعا . [٢] الرعم : الدل . [٣] المثرة : رمط الرجل وشره الأذنون ، واللحمة :
الفرابة ، والقدس : الطهر ، - أي في الجنة - . [٤] التفرق . [٥] أي أحلك في كرسى
الخلافة وهو معاوية . [٦] التقريع : التأنيب . [٧] عين عبري : حرت عبرتها ، والصدر حرّى :
شديدة الحرارة ، كناية عن شدة الحزن . [٨] تريد عبيد الله بن زياد ورجله .
[٩] أي إلى يزيد وشيعته . [١٠] نطف الماء كنصر وضرب : سال ، ونطف كفرح وعنى :
تلطح ببيب . [١١] تحلب العرق : سال ، وتحلب بدنه عرقا : سال عرقه . [١٢] الزواكي جمع
زأكية من زكا إذا صلح وتنعم ، واعتام : أخذ العيمة بالكسر وهي خيار المال ، وعسل الذئب عسلا بكسر
جربانا : أعنى وأسرع ، والماسل : الذئب وجمعه كركع وفوارس ، والراد هنا معنى الجمع لا المصدر ، أي
ذؤبان الفلوات ، ولم أجد في كتب اللغة لماسل جمعا غير هذين ، إلا أن يراد بالمصدر الوصف .
[١٣] تستعيث .

يا بن مرجانة ، وَيَسْتَصْرِخُ بِكَ ، وَتَتَعَاوَى وَأَتْبَاعُكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ ، وَقَدْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ زَادٍ زَوْدَكَ مَعَاوِيَةَ قَتَلَتْ ذُرِّيَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا اتَّقَيْتُ^(١) غَيْرَ اللَّهِ ، وَلَا شَكَاوَى إِلَّا إِلَى اللَّهِ ، فَكَيْدُ كَيْدِكَ ، وَأَسْعَى سَعْيِكَ ، وَنَاصِبٌ جُهْدُكَ^(٢) ، فَوَاللَّهِ لَا يُرْحَضُ عَنْكَ عَارٌ مَا أَتَيْتَ إِلَيْنَا أَبَدًا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَتَمَ بِالسَّعَادَةِ وَالْمَغْفِرَةِ لِسَادَاتِ شَبَّانِ الْجَنَانِ ، فَأَوْجَبَ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْفَعَ لَهُمُ الدَّرَجَاتِ ، وَأَنْ يُوجِبَ لَهُمُ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنَّهُ وَلِيُّ قَدِيرٍ .

(بلاغات النساء ص ٢٥)

١٢٣ — رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام

وقال الحسين بن عليّ عند قبر أخيه الحسن ، عليهما السلام :
« رَحِمَكَ اللَّهُ أَبَا مُحَمَّدٍ ، إِنْ كُنْتَ لِنَاصِرِ الْحَقِّ مَظَانَهُ^(٣) ، وَتَوَثَّرَ اللَّهُ عِنْدَ تَدَاخُضِ^(٤) الْبَاطِلِ ، فِي مَوَاطِنِ التَّقِيَّةِ بِحُسْنِ الرُّوْيَةِ ، وَتَسْتَشِفِّ^(٥) جَلِيلَ مَعَازِمِ الدُّنْيَا بِعَيْنٍ لَهَا حَاقِرَةٌ ، وَتُفِيضُ عَلَيْهَا يَدًا طَاهِرَةً الْأَطْرَافِ ، تَقِيَّةَ الْأَسْرِ^(٦) ، وَتَرْدَعُ بِادِرَةِ غَرْبِ أَعْدَائِكَ ، بِأَيْسَرِ الْمُثُونَةِ عَلَيْكَ ، وَلَا غَرَوَ وَأَنْتَ ابْنُ سُلَالَةِ النَّبَوَةِ ، وَرَضِيعُ لِبَانِ الْحِكْمَةِ ، فَإِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَجَنَّةٍ نَعِيمٍ ، أَعْظَمَ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ الْأَجْرَ عَلَيْهِ ، وَوَهَبَ لَنَا وَلَكُمْ السَّلَوةَ وَحُسْنَ الْأَسَى^(٧) عَنْهُ .
(عيون الأخبار ٢٠٢ : ص ٣١٤)

[١] أَيْ لَا أَخَافُ إِلَّا اللَّهَ . [٢] نَاصِبُهُ الْعِدَاوَةُ : أَظْهَرَهَا لَهُ .

[٣] فِي الْأَصْلِ « لِنَبَاصِرٍ » بِأَلْيَاءٍ وَأَرَاءٍ بِالنُّونِ ، وَقَوْلُهُ « مَظَانَهُ » أَيْ فِي مَظَانِهِ ، أَوْ هُوَ بَدَلٌ .

[٤] هِيَ تَفَاعُلٌ مِنَ الدَّخْضِ ، دَخَضَ بَرَجُلُهُ كَنَحَى : خَمَسَ بِهَا ، وَدَخَضَتْ رَجُلُهُ : زَلَقَتْ ، وَالْمَعْنَى : عِنْدَ تَطَاوُلِ

الْبَاطِلِ وَمَدَالِيَةِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ . [٥] اسْتَشَفَّه : نَظَرَ مَا وَرَاءَهُ . [٦] الْأَسْرَةُ جَمْعُ سَرَارٍ كَكِتَابٍ :

الْحَطُوطِ الَّتِي تَبْدُو فِي ظَاهِرِ الْيَدِ وَالْجِهَةِ . [٧] الْأَسَى بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَكُسْرُهَا جَمْعُ أَسْوَةٍ بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ

أَيْضًا : زَيْمًا يَتَعَزَّى بِهِ .

١٢٤ — عبدالله بن هاشم بن عتبة وعمر بن العاص في مجلس معاوية

روى المسعودي في مروج الذهب قال :

« لما قُتِلَ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ ، كَانَ فِي نَفْسِ مُعَاوِيَةَ مِنْ يَوْمِ صِفِّينَ عَلَى هَاشِمِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ الْمِرْقَالِ وَلَدِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ هَاشِمٍ إِحْنٌ ، فَلَمَّا اسْتَعْمَلَ مُعَاوِيَةُ زِيَادًا عَلَى الْعِرَاقِ ، كَتَبَ إِلَيْهِ : « أَمَا بَعْدُ : فَانْظُرْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَاشِمِ ابْنَ عُتْبَةَ فَشُدَّ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ ، ثُمَّ ابْعَثْ بِهِ إِلَى » ؛ فَحَمَلَهُ زِيَادٌ مِنَ الْبَصْرَةِ مُقَيَّدًا مَغْلُولًا إِلَى دِمَشْقَ ، وَقَدْ كَانَ زِيَادٌ طَرَقَهُ بِاللَّيْلِ فِي مَنْزِلِهِ بِالْبَصْرَةِ ، فَدَخَلَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِعُمَرَ بْنِ الْعَاصِ : هَلْ تَعْرِفُ هَذَا ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : هَذَا الَّذِي يَقُولُ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ ^(١) :

إِنِّي شَرَيْتُ النَّفْسَ لَمَّا اعْتَلَا وَأَكْثَرَ اللَّوْمَ وَمَا أَقْلًا ^(٢)

أَعُورُ يَبْنِي أَهْلَهُ مَحَلًّا قَدْ عَالَجَ الْحَيَاةَ حَتَّى مَلَأَ ^(٣)

لَا بَدَّ أَنْ يَقُلَ أَوْ يُفَلَّ يَتْلَهُمْ بِذِي الْكُؤُوبِ تَلًّا ^(٤)

لَا خَيْرَ عِنْدِي فِي كَرِيمٍ وَلِي

[١] وذلك أن عمار بن ياسر جاء إلى هاشم بن عتبة (وكان هاشم أعور ، فقُتِلَ عينه يوم اليرموك بالشَّام) فقال : يا هاشم ، أعورا وجننا لا خير في أعور لا يفتش البأس ، اركب يا هاشم ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : إِنِّي شَرَيْتُ النَّفْسَ . . . الخ . وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه . [٢] شريت النفس : أي ابتها في سبيل الله ، واعتله : تجنى عليه (أي ادعى ذنبا لم يفعله) ، وفاعله ضمير عمار بن ياسر ، فعنى لما اعتل أي لما رمانى عمار بالجبن .

[٣] يبنى أهله محلا أي يبنى محل أهله أي يطلب مصير أهله الذين استشهدوا في سبيل الله فسكنوا جنات الخلد ، فهو يبنى إمامهم والاجتماع بهم هنالك . [٤] يفل : يهزم ويغلب ، وتله صرعه أو ألقاه على عنقه وخده (وفي الأصل : أسلمهم بذى الكؤوب سلا وهو تحريف ، إذ رواية الطبري ، وابن الأثير يتلهم بالناء ، أو هر صحيح على معنى : أسل أرواحهم وانتزعها) ، وذو الكؤوب : الريح ، وكؤوب الريح : النواشر في أطراف الأنايب .

فقال عمرو ومثلاً :

وقد يَنْبُتُ المَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا ^(١)
« دونك يا أمير المؤمنين الضبُّ الضبُّ » ^(٢) ، فاشْخَبْ أَوادجَه ^(٣) على أسباجه ^(٤) ،
ولا تَرُدَّه إلى أهل العِراق ، فإنه لا يصبر على النفاق ، وهم أهل غَدْرٍ وشقاق ، وحزبُ
إبليسَ ليومِ هَيَّجَانِهِ ، وإن له هَوًى سيُؤدِيه ^(٥) ، ورأياً سيُطْغِيه ^(٦) ، وَبِطَانَةٌ
سُتُوقِيه ، وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .

فقال عبد الله : « يا عمرو إن أُقْتِلَ فِرْجَلٌ أُسَلِّمَهُ ^(٧) قومُه ، وأدركه يومُه ،

[١] الدمن جمع دمنة وهي ما اسود من آثار الدار بالبحر والرماد وغيرها ، وقد تمثل بهذا البيت زفر بن الحارث السكلاي في قصيدة قالها ، وقد قتل ابنه يوم وقعة مرج راهط ، التي نشبت بعد موت معاوية الثاني بين مروان بن الحكم وبين من حالف على الأموية ودعا إلى الزيرية من السجاءك بن قيس الفهري وأتباعه ، ومنهم زفر السكلاي ، وقد دارت عليهم الدائرة ، وقتل الضحاك « انظر تاريخ الطبري ، ومروج الذهب ، والعقد الفريد » .

[٢] الضبُّ : حيوان برى يشبه الورل ، وهو يتلون ألواناً بخر الشمس كما تتلون الحرباء ، وقد صرب به للمثل فقالوا : « أخذع من ضبِّ » ، وذلك أنهم كانوا يصيدونه ، فيأتي الحارث (حرش الضبِّ واحترشه : صاده) ويحرك يده على باب جحره ليطه حية فيخرج ذنبه ليضربها بأحده ، ولكن الضبُّ شديد الحذر فإنه يعتمد بذنبه باب جحره ليضرب به حية أو شيئاً آخر إن جاءه ، فيجىء المحرش ، فإن كان الضبُّ مجرباً أخرج ذنبه إلى نصف الجحر ، فإن دخل عليه شيء صربه والا بقي في جحره ، وهذا هو خدعه — «نون به شدة حذره — وقيل إن معناه أن جحره فلما يخلو من عقرب ، لما بينها من الألفة والاستمانة بها على المحترش ، فإذا أدخل المحترش يده لدغته وأشدوا :

وأخذع من ضب اذا جاء حارث أعصد له عند الدنابة عقرباً

ويقولون : « فلان خبَّ ضبِّ » (والخبُّ بالفتح ويكسر المخادع) فيشبهون الحقد الكامن في قلبه الذي يسرى صرره ، يخدع الضبُّ في جحره (ومن أمثالهم فيه أيضاً) « أعتق من ضبِّ » — يريدون الأثني ، وعقوبتها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الصبة إذا باصت حرست بيضها من كل ما قدرت عليه من ورل وحية وغير ذلك ، فإذا نبت أولادها ، وخرجت من البيض ، ظنتها شيئاً يريد يبيضها ، فوثبت عليها تقتلها ، فلا ينجو منها إلا الفريد — وقالوا : « أعتد من ذبِّ الضبِّ » ذكروا أن فيه إحدى وعشرين مقعدة — « وأجن من ضب » ، « وأبلد من ضب » ، « وأحيا من ضب » — أي أطول عمرا .

[٣] الأوداج جمع وديج بالتحريك : هرق في العنق ، وشخبت أوداج القتل دما من ناي قتل ونقع : جرت ، وشخب اللبن وكل مائع : درّ وسان ، وشخبته أنا يتعدى ولا يتعدى .

[٤] الأسباج جمع سبج « كفرصة » وسبجة القميص لبنة — بنقته .

[٥] أي وإن له ميلاً إلى آل علي سيهلكه . [٦] طغى : جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر وأسرف في الماصي والظلم . [٧] خذله .

أَفْلا كَانَ هَذَا مِنْكَ إِذْ تَحْمِيْدُ عَنِ الْقِتَالِ ، وَنَحْنُ نَدْعُوكَ إِلَى النَّزَالِ ، وَأَنْتَ تَلُوْذُ بِشَمَالِ النَّطَافِ ^(١) ، وَعَقَائِقُ الرَّصَافِ ^(٢) ، كَالْأَمَةِ السَّوْدَاءِ ، وَالنَّعْجَةِ الْقَوْدَاءِ ^(٣) لَا تَدْفَعُ يَدَ لَامِسٍ .

فَقَالَ عَمْرُو : « أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ وَقَعْتَ فِي لَهَازِمٍ ^(٤) شَدَقَمٍ لِلْأَقْرَانِ ذِي لِبَدٍ ، وَلَا أَحْسَبُكَ مُنْفَلِتًا مِنْ مَخَالِبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : « أَمَا وَاللَّهِ يَا بْنَ الْعَاصِ ، إِنَّكَ لَبَطِرٌ فِي الرَّخَاءِ ، جَبَانٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ ، غَشُومٌ ^(٥) إِذَا وَلِيْتَ ، هَيَّابٌ إِذَا لَقِيتَ ، تَهْدِرٌ ^(٦) ، كَمَا يَهْدِرُ الْعَوْدُ الْمَنْكُوسُ ، الْمُقَيَّدُ بَيْنَ تَجَرَى السَّوْلِ ، لَا يُسْتَعْجَلُ فِي الْمُدَّةِ ، وَلَا يُرْتَجَى فِي الشَّدَّةِ ، أَفْلا كَانَ هَذَا مِنْكَ ، إِذْ غَمَرَكُ أَقْوَامٌ لَمْ يُعْنَفُوا صَغَارًا ، وَلَمْ يُمَزَّقُوا كِبَارًا . لَهُمْ أَيْدٍ شِدَادٌ ، وَالسِّنَّةُ حِدَادٌ ، يَدْعُمُونَ الْعَوَجَ ^(٧) ، وَيُذْهِبُونَ الْحَرَجَ ^(٨) ، يُكْثِرُونَ الْقَلِيلَ ، وَيَشْفُقُونَ الْغَلِيلَ ، وَيُعْزُّونَ الذَّلِيلَ ؟ »

[١] الطاف جمع نطفة (كمرصة) وهي الماء الصافي ، قل أو أكثر ، وفي الحديث « قطعنا اليهم هذه النطفة » أي البحر وماءه ، وفي حديث عليّ : « وليهلها عند النطاف والأمشاب » يعنى الابل والماشية . يريد أنها إذا وردت على المياه والعشب يدعها لترد وترعى .

[٢] الرصفة بالتحريك : الحجارة التي يرصف بعضها إلى بعض في مسيل فيجتمع فيها ماء المطر ، والعقائيق : القدران . يقال لكل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسمه دقيق ، والجمع أعقة وعقائيق ، وقيل العقائيق هي الرمال الحمراء . [٣] مؤنث الأنود وهو الدلول المنقاد .

[٤] جمع لهزم كجمر وهو القاطع من الأسنة ، والشدة الأسد ، والواسع الشدق ، وشدة للاقتران أي أسد متلاح للاقتران ، والبد جمع لبد بالكسر ، ولبد الأسد ما تلبد من شعره على منكبيه ، وكنيته « ذو لبد » ويكنى أيضا أبا الأبطال ، وأبا شبل ، وأبا العباس ، وأبا الحارث ، وأبا حفص ، وأنا الزعفران .

[٥] ظلوم ، عشمه كضربه غشما ظلمه . [٦] هدر البعير وهذر بالشديد صوت ، وفي المثل « كلمهدر في الينة » والينة بضم العين وتشديد النون : الحظيرة ، يضرب لمن يصيح ويحلب ولا ينفذ قوله ولا فعله ، كالبعير يحبس في الحظيرة ممنوعا من الضراب وهو يهدر ، والعود : المسن من الابل ، والمنكوس الذي طوده المرض بعد النكه ، والشول جمع شائلة ، وهي من الابل ما آتى عليها من حملها أو وضعا سبعة أشهر فجف لبنها .

[٧] الموج بالفتح في كل ما كان منتصباً مثل الانسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج بالكسر ما كان في بساط أو أرض أو معاش أودين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، ودعوه (كنهه) مال فأقلعه .

[٨] حرج صدره كفرح حرجا ضاق .

فقال عمرو : « أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تحفُّق^(١) أحشائه ، وتَبُقُّ^(٢) أمعاؤه ، وتضطرب أصلاؤه^(٣) ، كأنما انطبق عليه ضمُّد^(٤) »

فقال عبد الله : « يا عمرو ، إنا قد بلَّوْناك ومقالتك ، فوجدنا لسانك كذُوبًا غادرًا ، خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجندٍ لا يسأمونك ، ولورمت المنطق في غير أهل الشام ، لَجَحَظَ^(٥) إليه عَقْلُكَ ، وتلجلج لسانك ، ولاضطرب نَحْذَاكَ اضطراب القعود^(٦) الذي أثقله حمله » .

فقال معاوية : « إيهًا^(٧) عنكما ، وأمر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :

أمرُكَ أمرًا حازمًا	فَعَصَيْتَنِي	وَكَاَنَ مِنَ التَّوْفِيقِ قَتْلُ ابْنِ هَاشِمٍ
أليس أبوه (يا معاوية) الذي		أَعَانَ عَلَيَّ يَوْمَ حَزِّ الْغَلَاصِمِ ^(٨)
فلم يَنْتَنِي حَتَّى جَرَّتْ من دمائنا		بِصِفَتَيْنِ أَمْثَالُ الْبَحُورِ الْخَضَارِمِ ^(٩)
وهذا ابنه ، والمرء يشبهه سِنْخَه		وَيُوشِكُ أَنْ تَقْرَعَ بِهِ سِنَّ نَادِمِ ^(١٠)

فقال عبد الله يحبيه :

مُعَاوِيَ : إِنَّ الْمَرْءَ عَمْرًا أَبَتْ لَهُ صَغِينَةُ صَدْرِ غِشْهًا غَيْرُ نَأَمٍ

[١] تضطرب . [٢] تخرج ، بق البت بقوقا : طلع . [٣] جمع صلا بالفتح وهو وسط الظهر من الانسان ومن كل ذى أربع ، وقيل هو ما انحدر من الوركين . [٤] ضمد جرحه : شده بالضاد والضادة (بالكسر) أى العصابة ، والجمع ضمد ككتب .

[٥] من جحط العين جحوظا إذا برزت مقلتها ، والمراد اضطرب عقاك وشرد ولم يسلس لك قياد التكبير .

[٦] القعود من الإبل الذى يقتحمه الراعى فى كل حاجة . [٧] أمر بالسكوت .

[٨] الغلاصم جمع غلصمة بفتح الغين والصاد ، ومع رأس الخلقوم — الموضع الثانى فى الحلق — أو أصل اللسان . [٩] الخضارم جمع خضرم بكسر الخاء والراء : البحر العظيم . واثبات الياء فى يئى مع الجازم لغة أو للضرورة أو إشباع والحرف الأصلى محذوف للجازم .

[١٠] قرع فلان سنه : حرقه ندما (حرق نابه — كنصر وضرب — سحقه حتى سمع له صريف) وسكن

الفعل للضرورة ، والسنخ الأصل من كل شئ . ، (وفى الأصل شيخه وهو تصحيف)

يَرَى لَكَ قَتْلِي (يَا بَنَ هِنْدٍ) وَإِنَّمَا
عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَسِيرَهُمْ
يَرَى مَا يَرَى عَمْرُؤُ مُلُوكُ الْأَعَاجِمِ
إِذَا مُنِعَتْ مِنْهُ عَهْدُ الْمُسَالَمِ
وَقَدْ كَانَ مِنَّا يَوْمَ صِفِّينَ نَعْرَةً^(١)
قَضَى مَا انْقَضَى مِنْهَا، وَلَيْسَ الَّذِي مَضَى
وَلَا مَا جَرَى إِلَّا كَأَضْغَاثِ حَالِمٍ^(٢)
فَإِنْ تَعَفُّ عَنِّي تَعَفُّ عَنْ ذِي قَرَابَةٍ
وَإِنْ تَرَ قَتْلِي تَسْتَحِلُّ تَحَارِي^(٣)
فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :

أَرَى الْعَفْوَ عَنْ عَلِيًّا قَرِيشٍ وَسَيْلَةً^(٤)
وَلَسْتُ أَرَى قَتْلَ الْعُدَاةِ ابْنَ هَاشِمٍ
بَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ بَعْدَ مَا بَانَ جُرْمُهُ
فَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ جَمْرَةً
إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْعَصِيبِ الْقُمَاطِرِ^(٥)
بِإِدْرَاكِ تَأْرِي فِي لُؤْيٍ وَعَامِرٍ^(٦)
وَزَلَّتْ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْعَوَاثِرِ
عَلَيْنَا فَأَرَدْتَهُ رِمَاحُ نَهَابِرٍ^(٧)
١٢٥ ... عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَاشِمٍ فِي مَجْلِسِ مَعَاوِيَةَ

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية :
« مَنْ يُخْبِرُنِي عَنِ الْجُودِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمُرُوءَةِ » ؟ فقال عبد الله : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَمَّا الْجُودُ : فَاِبْتِذَالُ الْمَالِ ، وَالْعَطِيَّةُ قَبْلَ السُّؤَالِ ؛ وَأَمَّا النَّجْدَةُ : فَالْجَرَاءَةُ عَلَى

[١] نمر القوم كعب حاجوا واجتمعوا في الحرب ، ونمر الرجل خالف ، وفي الأصل « نكرة » وهو
تصحييف . [٢] قضى : مات وذهب ، وأضغاث حالم : رؤيا لا يصح تأويلها لاحتلاطها .
[٣] كان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية إذ هو ابن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ماث بن وهيب بن
عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن
قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، فهو يجتمع مع معاوية في جده كلاب .
[٤] يوم عصيب : شديد ، ويوم قاطر وقطير شديد أيضا . [٥] العداة جمع طاد وهو العدو
ولؤي هو الجد التاسع لمعاوية وعبد الله بن هاشم (والجد الثامن للنبي عليه الصلاة والسلام) وطاسر هو ،
طاسر بن لؤي . [٦] النهابر : الممالك جمع نهيرة بضم النون والباء ، وكذا النهاير جمع نهيرة .

الإقدام ، والصبر عند ازورار الأقدام^(١) . وأما المروعة فالصلاح في الدين ، والإصلاح للحال ، والمحاماة عن الجار » . (مروج الذهب ٢ : ٥٧)

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيسُ بن سعد بن عُبَادَة بعد وفاة عليٍّ ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار على معاوية ، فقال لهم معاوية :

١٢٦ — مقال معاوية

« يا معشر الأنصار ، بِمَ تطلبون ما قَبَلِي ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معي ، كثيراً مع عليٍّ ، ولقد فَلَلْتُمْ حَدِّي يومَ صِفِين ، حتى رأيت المنايا تَلْظِي^(٢) في أَسِنَّتِكُمْ ، وهجوتموني في أسلافي بأشدَّ من وقع الأَسِنَّة ، حتى إذا أقام الله منا ما حاولتم مَيْلَهُ ، قَلْتُمْ ارْزَعْ فينا وصيةَ رسول الله^(٣) صلى الله عليه وسلم ، هيهات يا بني الحَقِير الغَدْرَة » .

١٢٧ — رد قيس بن سعد

فقال قيس : « نطلب ما قَبَلَك بالإسلام الكافي به الله ، لا بما نَمَتُ به إليك من الأحزاب . وأما عداوتنا لك فلو شئت كَفَفْتَهَا عَنْكَ . وأما هجاؤنا إياك فقولُ يزول باطله ، ويثبت حقه . وأما استقامة الأمر فَعَلَى كُرْهِ كَانِ مِنَّا . وأما فَلَلْنَا حَدَّكَ يومَ صِفِين ، فَإِنَّا كُنَّا مع رجل نرى طاعته لله طاعةً ، وأما وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ، فمن آمَنَ به رعاها بعده . وأما قولك يا بني الحَقِير

[١] أى عند انحرافها وترزُلها . [٢] تَلْظِي أى تتلهب . [٣] وقد وصى عليه الصلاة والسلام بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم .

الغدرة ، فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية .

فقال معاوية يمّوه : « ارفعوا حوائجكم » .

(مروج الذهب ٢ : ٦٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٢١)

١٢٨ — معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء

روى المسعودي في مروج الذهب قال :

حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدى ، وعبد الله بن الكواء اليشكري .
ورجالاً من أصحاب على ، مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً ، فقال :
« نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقاً ، أى الخلفاء رأيتمونى ؟ » فقال ابن
الكواء : « لولا أنك عزمت علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله فى
قتل الأخيار ، ولكننا نقول : إنك - ما علمنا - واسع الدنيا ضيق الآخرة ^(١) ،
قريب الثرى بعيد المرعى ^(٢) ، تجعل الظلمات نوراً ، والنور ظلمات » . فقال
معاوية : « إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام ، الذابّين عن بيضته ، التاركين
لمحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق ، المنتهكين لمحارم الله ، والمُحلّين ما حرّم
الله ، والمحرّمين ما أحل الله » . فقال عبد الله بن الكواء : « يابن أبى سفيان ،
إن لكل كلام جواباً ، ونحن نخاف جبروتك ، فإن كنت تُطلق ألسنتنا ذبّنا
عن أهل العراق ، بألسنة حداد ، لا يأخذها فى الله لومة لائم ، وإلا فإننا صابرون
حتى يحكم الله ويضعنا على فرجه » . قال : « والله لا يُطلق لك لسان » .

ثم تكلم صعصعة فقال : « تكلمت يابن أبى سفيان فأبلغت ، ولم تُقصّر

[١] أى إنك ذو حظ وافر فى الدنيا وليس لك من ثواب الآخرة من نصيب .

[٢] قريب الثرى : قريب الحول فى الثرى : أى قريب الأجل ، وبعيد المرعى كناية عن أنه بعيد

الأمل ، والمعنى أنك واسع الآمال بعيد مرعى الأمانى ، مع يمينك أن الارتحال عن هذه الدار وشيك .

عما أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أننى يكون الخليفةَ مَنْ مَلَكَ النَّاسَ قَهْرًا ، ودانهم ^(١) كِبْرًا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرًا ؟ أما والله مالك فى يوم بدر مَضْرَب ولا مَرَمَى ^(٢) ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لَا حُلَى وَلَا سِيرَى » ، ولقد كنت أنت وأبوك فى العير والنفير ^(٣) ممن أَجْلَب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أنت طليق بن طليق ^(٤) ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنت تصلح الخلافة لطليق ؟ » ، فقال معاوية : « لولا أننى أرجع إلى قول أبى طالب حيث يقول :

قَابِلَتْ جَهْلَهُمْ حِمَامًا وَمَغْفِرَةً وَالْعَفْوُ عَنْ قُدْرَةٍ ضَرَبَ مِنَ الْكَرَمِ لَقَتَلْتُمْ » . (مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٢٩ — صعصعة بن صوحان ومعاوية

ودخل صعصعة بن صُوحان على معاوية ، فقال له : « يا بن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرنى عن أهل البصرة ، وإياك والجل على قوم لقوم » قال : « البصرة واسطة ^(٥) العرب ، ومُنْتَهَى الشرف

[١] دانه : ملكه وأذله واستعده . [٢] أى مالك ضرب ولا رمى .

[٣] العير الابل تحمل الميرة ، والمراد بها هنا عير قريش التى كان يقردها أبو سفيان بن حرب — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحين انصرافها من الشام — فلما دنا أبو سفيان من المدينة ، وعرف أن عيون رسول الله صلى الله عليه وسلم ترصده ساحل بعيره (أنى بها الساحل) وترك بدرا يسارا ، وقد كان يهت إلى قريش حين فصل من الشام يخبرهم بما يخافه من محمد ، فأقبلت قريش من مكة ، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير (أى حصنها) وأمرهم بالرجوع ، فأبت قريش أن ترجع ، ورحمت بنو زهرة وعدلوا إلى الساحل منصرفين إلى مكة فصادفهم أبو سفيان فقال : يا بنى زهرة لا فى العير ولا فى النفير (فذهبت مثلا) قالوا أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، ومضت قريش إلى بدر فقاتلهم النبي وأظفره الله بهم ، والنفير القوم يستنفرون للحرب وهم هنا مشركو مكة الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه .

[٤] الطلقاء هم الذين عفا عنهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .

[٥] هو على التشبيه بواسطة البدر وهى الجوهرة الفاخرة التى تجعل وسطه .

والسُّودَدَ ، وهم أهل الخِطَطَ^(١) في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سرّوات^(٢) العرب كدَوْران الرّحى على قُطْبِهَا » ، قال : فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : « قُبّة الإسلام ، وذُرْوَة الكلام ، وَمَصَانُ ذوى الأعلام - إلا أن بها أجلافاً^(٣) تمنع ذوى الأمرِ الطاعة ، وتخرجهم عن الجماعة - وتلك أخلاق ذوى الهيئة والقناعة » . قال : فأخبرني عن أهل الحجاز ، قال : « أسرعُ الناس إلى فتنة ، وأضعفهم عنها ، وأقلهم غناءً^(٤) فيها ، غير أن لهم ثباتاً في الدين ، وتمسكاً بعُرْوَة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويخْلَعُونَ الفِسْقَةَ الفُجَّارَ » فقال معاوية : مَنْ البرّرة والفِسْقَة ؟ فقال : « يابن أبي سُفيان ، ترك الخِدَاعَ ، مَنْ كَشَفَ القِنَاعَ ، على أصحابه من الأئمة الأبرار ، وأنت وأصحابك من أولئك » . ثم أحب معاوية أن يمضى صعصعة في كلامه ، بعد أن بان فيه النضب ، فقال : أخبرني عن القُبّة الحمراء في ديار مُضَرَ^(٥) ، قال : « أُسْدٌ مُضَرٌ بُسْلَاءٌ بين غَيْلَيْنِ^(٦) ، إذا

[١] الخطط جمع خطة بالكسر : وهي الأرض تنزل من غير أن يزلها نارل قبل ذلك ، ومنه خطط الكوفة والبصرة ، وقد خطها لنفسه واختطها وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها .
[٢] السرو بالفتح : المروعة في شرف ، سرو فهو سرى وجمعه أسرياء وسرواء كفضلاء والسرارة بالفتح اسم جمع وجمعه سرّوات . [٣] جمع جلف بالكسر وهو الرجل الجاني . [٤] غناء : كفاية [٥] ذكروا أن نزار بن ممد لما حضرته الوفاة جمع بنيه : مضر ، وإياد ، وربيعة ، وأنمار ، فقال : يا بني ، هذه القبة الحمراء - وكانت من آدم - لمضر - وهذا الفرس الأدم والحباء الأسود لربيعة ، وهذه الخادم - وكانت شمطاء - لإياد ، وهذه البدرية (بالفتح : كبس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار) والمجلس لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون ، فأتوا الأُمى الجرهمي ، ومنزله بنجران ، فتشاجروا في ميراثه ، فاختصموا إلى الأُمى الجرهمي ، وهو حكم العرب ، فقصوا عليه قصتهم ، وأخبروه بما أوصى به أبوم فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والابل الجر ، فسمى مضر الحمراء لذلك ، وقال : وأما صاحب الفرس الأدم والحباء الأسود ، فله كل شيء أسود ، فصارت لربيعة الحيسل الدم ، فقبل ربيعة الفرس ، وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد ، فصار له المشاية البلق من الحباقي والنقد (الحلقى : بفتح الحاء والياء وتشديد اللام : غنم صفار لا تكبر ، أو نصار للز ودمامها ، والنقد كسبب : جنس من الغنم قبيح الشكل) فسمى إياد الشمطاء ، وقضى لأنمار بالدرهم وبما فضل ، فسمى أنمار الفضل فصدروا من عنده على ذلك . - مجمع الأمثال ١ : ١٠ .
[٦] بسلاء جمع باسل : وهو الأسد والشجاع والفيل بالكسر ويفتح : الشجر الكثير الملتف والأجمة .

أَرْسَلْتَهَا افْتَرَسَتْ، وَإِذَا تَرَكْتُهَا احْتَرَسَتْ. فقال معاوية : « هنالك يابن صوحان ، العز الراسى ، فهل فى قومك مثْلُ هذا ؟ قال : « هذا لأهله دونك يابن أبى سفيان ، ومن أحب قوماً حُشِرَ معهم » قال : فأخبرنى عن ديار ربيعة ، ولا يَسْتَخِفُّنَكَ الْجَهْلُ ، وسابقة الحمية بالتعصب لقومك ^(١) ، قال : « والله ما أنا عنهم براص ، ولكنى أقول فيهم وعليهم ، هم والله أعلام الليل ، وأذئاب فى الدين والميل ، لن تُغْلَبَ رايتهما إذا رَشَّحَتْ ، خوارج الدين ، برازخ اليقين ، من نصره فَلَجَ ^(٢) ، ومن خذله زَلَجَ ^(٣) » . قال : فأخبرنى عن مضر ، قال : « كِنانة ^(٤) العرب ، وَمَعْدِنُ العز والحسب ، يقذف البحر بها آذِيَهُ ^(٥) ، وَالْبَرْءُ رَدِيَهُ » ، ثم أمسك معاوية ، فقال له صعصعة : سَلْ يا معاوية ، وإلا أخبرتك بما تحيد عنه ، قال : وما ذاك يابن صوحان ؟ قال : « أهل الشام » ، قال : « فأخبرنى عنهم » ، قال : « أطوع الناس لمخلوق ، وأعصاهم للخالق ، عُصَاة الجَبَّار ، وخِلَفة ^(٦) الأشرار ، فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار » . فقال معاوية : « والله يابن صوحان ، إنك لحامل مُدَّتِكَ منذ أزمان ^(٧) » . إلا أن حلم ابن أبى سفيان يردُّ عنك » ، فقال صعصعة : « بل أمر الله وقدرته ، إن أمر الله كَانَ قَدَرًا مقدوراً » .

(مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣٠ - صعصعة بن صوحان وعبد الله بن عباس

وروى المسعودى فى مروج الذهب أيضاً ، قال :

« عن مصقلة بن هُبَيْرَةَ الشَّيْبَانِي قال : سمعت صَعْصَعَةَ بنَ صُوحَانَ وقد

[١] وكان صعصعة من بنى عبد القيس بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار .
[٢] فلج على خصمه : ظفر وفاز . [٣] زاقى وزل . [٤] الكناية فى الأصل : جملة السهام
[٥] الآذى : الموج . [٦] الحلقة فى الأصل : ما عاقى خلف الراكب ، والمراد بها هنا أتباع .
[٧] كناية عن مجاهرته بالعداوة .

سأله ابن عباس : ما السُّودَدُ ^(١) فيكم ؟ فقال : « إطعامُ الطعام ، ولينُ الكلام ، وبَذْلُ النِّوَالِ ، وكفُّ المرءِ نفسه عن السؤال ، والتودُّدُ للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك شَرَمًا ^(٢) » . قال : فما المُرُوءَةُ ؟ قال : « أَخَوَانُ اجْتَمَعَا ، فَإِنْ لَقِيَا قَهْرًا ^(٣) ، (وإن كان) حَارِسُهُمَا قَلِيلٌ ، وصاحبُهُمَا جَلِيلٌ ، محتاجان ^(٤) إلى صيانة ، مع تَزَاهَةٍ وديانة » . قال : فهل تحفظُ في ذلك شعراً ؟ قال : نعم ، أما سمعتَ قولَ مُرَّةَ بِنِ ذَهْلٍ بنِ شَيْبَانَ حيث يقول :

إِن السِّيَادَةَ وَالْمُرُوءَةَ عُمَلَقَا حَيْثُ السَّمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ الْأَعَزَلُ ^(٥)

وَإِذَا تَقَابَلَ مُجْرِيَانِ لِنَايَةٍ عَثَرَ الْمَحْجِينَ وَأَسْلَمَتَهُ الْأَرْجُلُ ^(٦)

وَيَجِي الصَّرِيحُ مَعَ الْعِتَاقِ مُعَوِّدَا قَرَبَ الْجِيَادِ فَلَمْ يَجِئْهُ الْأَفْكَلُ ^(٧)

في أبيات . فقال له ابن عباس : لو أن رجلاً ضرب آباط ^(٨) إبله ، مُشَرَّقًا وَمُغَرَّبًا لِفَائِدَةِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ مَا عَنَّفْتُهُ ، إنا منك يابن صُوحَانَ لَعَلَى عِلْمٍ وَحِلْمٍ وَاسْتِنْبَاطٍ مَا قَدْ عَفَا ^(٩) مِنْ أَخْبَارِ الْعَرَبِ ، فَمَنْ الْحَلِيمُ فِيكُمْ ؟ قال : « مَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَسُمِّيَ إِلَيْهِ بِحَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ ، فَلَمْ يَقْبَلْ ، وَوَجَدَ قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ ، فَصَفَحَ وَلَمْ يَقْتُلْ ، ذَلِكَ الْحَلِيمُ يَابْنَ عَبَّاسَ » . قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : « ولا

[١] السودد بفتح الدال غير مهموز ، والسودد بضم الدال مهموزاً والسيادة والسود .

[٢] شرعاً بسكون الراء وفتحها أى سواء . [٣] أى أنهما قوتان عظيمتان لصاحبهما ، تقهران ما يلقاه من الشدائد والصعاب وقوله « وإن كان » أى وإن كان ما لقيه عظيماً ، ولله زيادة من خطأ النسخ أو الطباع . [٤] فى الأصل « لحاحان » وهو تحريف . [٥] السما كان الأعرل والرامح : نجمان نيران ، وسمى أعزل لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب كالأعرل الذى لا سلاح به كما كان مع الرامح . [٦] فرس هجين إذا لم يكن عتيقاً كريماً ، وأسلمته : خذلته . [٧] لم يعمه الأفكل أى لم تصبه الرعدة « ويلاحظ أن في هذا الشعر عيباً من عيوب الغافية وهو الإقواء ، لأن حركة الروى فى البيت الأول كسر ، وفى الثانى والثالث ضم ، وقد وقع فى شمس الزاينة الدياني ، وحسان بن ثابت ، وشمر بن أبي خازم . . . » . [٨] آباط جمع إبط كحل . إبل : باطن المنكب . [٩] درس واحي .

قليلًا ، وإنما وصفت لك أقوامًا ، لا تجدهم إلا خاشعين راهبين ، لله مُريدين ، يُنِيلون ولا ينالون ، فأما الآخرونَ فإنهم سبقَ جهلهم حاتمهم ، ولا يبالي أحدٌهم (إذا ظفرَ بِنُغَيْتِه) حين الحفيظة^(١) مَنْ كَانَ ، بعد أن يُدركَ زعمه ، ويقضى بُغْيَتِه ، ولو وَتَرَه أبوه لَقَتَلَ أباه ، أو أخوه لَقَتَلَ أخاه ، أما سمعت إلى قول رِيَّان ابن عمرو بن رِيَّان ، وذلك أن عمرًا أباه قتله مالكُ بن كُومَة ، فأقام رِيَّانُ زمانًا ثم غزا مالكا ، فأناه في مائتي فارس صَبَاحًا ، وهو في أربعين بيتًا ، فقتله وقتل أصحابه وقتل عمه فيمن قتل ، - ويقال بل كَانَ أخاه - وذلك أنه كَانَ جَاوِرَهُمْ ، فقليل لريان في ذلك : قتلت صاحبنا ، فقال :

فلو أُمِّي ثَقِفْتُ بِحَيْثُ كَانُوا لَبَلَّ ثِيَابَهَا عِلْقٌ صَبِيبٌ^(٢)
ولو كَانَتْ أُمِّيَّةٌ أُخْتُ عَمْرٍو بهذا الماء ، ظَلَّ لها نَحِيبٌ
شَهَرَتْ السَّيْفُ فِي الْأَذْنَيْنِ مِنِّي ولم تَعْطِفْ أَوَاصِرُنَا قُلُوبٌ^(٣)

فقال ابن عباس : فمن الفارسُ فيكم ؟ حَدَّثَ لِي حَدًّا أَسْمَعُهُ مِنْكَ ، فَإِنَّكَ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا يَا بَنَ صُوحَانَ ، قال : « الفارسُ مَنْ قَصُرَ أَجَلُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَضَعَمَ^(٤) عَلَى أَمَلِهِ بِضِرْسِهِ ، وَكَانَتْ الْحَرْبُ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْسِهِ ، ذَلِكَ الْفَارِسُ إِذَا وَقَدَتْ^(٥) الْحُرُوبُ ، وَاشْتَدَّتْ بِالْأَنْفُسِ الْكُرُوبُ ، وَتَدَاعَوْا لِلنَّزَالِ ، وَتَرَاخَفُوا لِلْقِتَالِ ، وَتَخَالَسُوا الْمُهْجَ^(٦) ، وَاقْتَحَمُوا بِالسُّيُوفِ اللَّجَجَ » ، قال :

[١] الجمية والنصب . [٢] ثغفه كسمه : صادفه ، والعلق : الدم أو الشديد الجرة ، وصبيب : أى مصبوب . [٣] أواصر جمع أصرة وهى القرابة وحبل صغير يشد به أسفل الحباء . [٤] ضغبه كنع عضه . [٥] وقدت النار (كوعد) توقدت . [٦] للمهج جمع مهجة وهى الروح ، وتخالسوها تبادلوا اختلاسها واستلابها .

أحسنْتَ والله يا بن صُوحان ، إنك لَسَلِيلُ أَقْوَامٍ كِرَامٍ ، خُطْبَاءُ فُصَحَاءَ ، مَاوَرِثْتَ
هذا عن كِلَالَةٍ ^(١) ، زِدْنِي ، قال : « نعم ، الفارس كثير الحذر ، مُدِيرُ النَّظَرِ ،
يَلْتَفِتُ بقلبه ، ولا يدير خَرَزَاتِ صُلْبِهِ ^(٢) » . قال : أحسنْتَ والله يا بن صُوحان
الوصَفَ ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر ؟ قال : نعم ، لزهير بن جَنَاب
الكَلْبِيِّ ^(٣) يرثي ابنه عمرًا حيث يقول :

فَارِسٌ تُكَلَّلُ الصَّحَابَةُ مِنْهُ بِحُسَامٍ يَمُرُّ مَرَّ الْحَرِيقِ ^(٤)
لَا تَرَاهُ لَدَى الْوَعْيِ فِي حَجَالٍ يُغْفِلُ الضَّرْبَ لَا وَلَا فِي مَضِيقٍ
مَنْ يَرَاهُ يَخْلُهُ فِي الْحَرْبِ يَوْمًا أَنَّهُ أَخْرَقَ مُضِلُّ الطَّرِيقِ ^(٥)

في أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يا بن صوحان ؟ صِفْهُمَا لِأَعْرِفَ
وَرِثَتَهُمْ ، قال : أما زيد فكما قال أخو غَنِيٍّ ^(٦) .

فَتَى لَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بوجهه (إِذَا نَالَ خَلَاتِ الْكِرَامِ) شُحُوبٌ ^(٧)
إِذَا مَا تَرَاءَاهُ الرِّجَالُ تَحَفَّظُوا فَلَمْ يَنْطَقُوا الْعَوَزَاءَ وَهُوَ قَرِيبٌ ^(٨)

[١] تقول العرب : لم يرثه كلاله أى لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحقاق ، قال الفرزدق :

ورثتم قناة الملك عسير كلاله عن ابني مناف صد شمس وهاشم

والكلالة ما لم يكن من النسب لحا ، وبنو العم الأباعد ، وحكى عن أعرابي أنه قال : مالى كثير ويرثي كلاله
متراخ نسبهم ، وكل وارث ليس بوالد الميت ولا ولده فهو كلاله موروثه . [٢] أى فقرات ظهره .

[٣] شاعر جاهلي وهو أحد المعمرين . [٤] كلاله : حفظه وحرسه .

[٥] الآخرى : الأحمق ، أما قوله في أول البيت « من يراه » فهو مثل : « ألم يأتيك والأنباء تنمى »
ومثل : « كأن لم ترى قلى أسيرا يمانيا » . الخ ، وقد قال النحويون في ذلك إن لائبات حرف الملة
مع الجازم لمة ، وقيل ضرورة ، وقيل هو حرف إشباع ، والحرف الأصلي محذوف للجازم ، وعندى أنه
ربما كان الأصل « من رآه » وعليه فلا محذور ، مع استقامة وزن البيت .

[٦] هو كعب بن سعد الغنوي (شاعر جاهلي) والأبيات المذكورة من قصيدة له يرثي بها
أخاه أبا المغوار وأرلها :

تقول سليمان ما لجسمك شاحبا كأكلك يحميك الطعام طيب

(انظرها في الأمالي ٢ : ١٥٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٩) .

[٧] خلّات جمع حلّة بالفتح وهي الحصلة ، وشعب لونه كجمع ونصر وكرم وعنى شعوبا : تغير من هزال
أو جوع أو سفر . [٨] الموراء : الكلمة القبيحة .

حَلِيفُ النَّدَى، يَدْعُو النَّدَى فَيُجِيبُهُ قَرِيبًا، وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيُجِيبُ (١)

يَبِيتُ النَّدَى (يَأْتُمُّ عَمْرِي) ضَجِيعَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْمُنْقِيَّاتِ حَلُوبٌ (٢)

كَأَنَّ يُيُوتَ الْحَيَّ (مَا لَمْ يَكُنْ بِهَا) بَسَابِسُ مَا يُلْفَى بِهِنَ غَرِيبُ (٣)

في أبيات، كان والله يابن عباس، عظيم المروءة (٤)، شريف الأخوة، جليل الخطر، بعيد الأثر، كميّش (٥) المروءة، أليف الندوة (٦)، سليم جوانح الصدر، قليل وسأوس الدهر، ذا كراماً لله طرقي النهار وزلفاً (٧) من الليل، الجوع والشبع عنده سيّان، لا يُنافِسُ في الدنيا، وأقلُّ أصحابه مَنْ يُنافِسُ فيها، يُطِيلُ السكوت، ويحفظ الكلام، وإن نطق نطق بعقام (٨)، يهزّب منه الدُّعَارُ (٩) الأشرار، ويألفه الأحرار الأخيار. قال ابن عباس: «ما ظنك برجل من أهل الجنة، رحم الله زيداً، فأين كان عبد الله منه؟»، قال: «كان عبد الله سيداً شجاعاً، مؤلفاً (١٠) مطاعاً، خيرُهُ وساع (١١)، وشره دُفَاع، قَلْبِي النَّحِيزَةُ (١٢)، أَحْوَذِي (١٣) الغريزة، لَا يُنْهَنِيهِ (١٤) مُنْهَنِيهِ عَمَّا أَرَادَهُ، وَلَا يَرْكَبُ مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا

[١] الندى: الجود. [٢] المنقيات: دوات البقي (بالكسر) وهو الشعير، ناقة منقية أي سمينة. [٣] بسابس جمع بسبس بكسر الباء وهو الفقر الحال (وفي الأصل بسائس وهو تصحيف). [٤] مسهل عن المروءة. [٥] يقال رجل كميّش الأزار: أي مشر جاد، ورجل كميّش: عزوم ماض سريع في أموره. [٦] الندوة والنادى والمتندى والندى: مجلس الموم ومتحدثهم، وفي الأصل «البدوة» وأراء مصحفاً، أو هو فعلة من البدو وهو الظهور، أي ذو مظهر حسن يؤلف ولا يبعج. [٧] جمع زلفة بالضم وهي الطائفة من الليل. [٨] داء عقام: لا يبرأ، أي نطق بقوارص من الكلام جارحة مؤلمة لا دواء لها. [٩] جمع داعر وصف من الدعارة بفتح الدال وكسرهما وهي الحبث والفسق. [١٠] ألفتة وآلفتة: أسست به فهو مألوف ومؤلف. [١١] على التشبيه بالفرس الوسع: وهو الجواد الواسع الخطو والذرع، والدفاع: السيل العظيم، والشيء العظيم يدفع به مثله «وفرس دفاع كشداد». إذا تدافع جريه. [١٢] القلب محض كل شيء، والنحيزة الطبيعة، أي خالص الطبيعة صانها. [١٣] الأحوذى: الحقيف الحاذق والمشمس للأمور القاهر لها لا يشذ عليه شيء. [١٤] نهنيه كفه وزجره.

عَتَادَهُ ^(١) ، سِمَامُ عِدَاً ^(٢) ، وَبَاذِلُ قِرَى ^(٣) ، صَعْبُ الْمَقَادَةِ ، جَزَلُ الرَّفَادَةِ ^(٤) ،
أَخُو إِخْوَانٍ ، وَفَتَى فِتْيَانٍ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الْبُرْجُمُجِيُّ عَامِرُ بْنُ سَنَانٍ :

سِمَامُ عِدَاً ، بِالنَّبْلِ يَقْتُلُ مَنْ رَمَى وَبِالسَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّذَيْنِيَّ يَشْعَبُ ^(٥)
مَهِيْبٌ مُفِيدٌ لِلنَّوَالِ مُعَوَّدٌ بِفِعْلِ النَّدَى وَالْمَكْرُمَاتِ مُجْرَبٌ

فِي أَيْيَاتٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَنْتَ يَا بَنَ صُوحَانَ بَاقِرٌ ^(٦) عِلْمُ الْعَرَبِ .

(مروج الذهب ٢ : ٨٠)

١٣١ - صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ وَرَجُلٌ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ

وَوَقَفَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ عَلَى صَعْصَعَةٍ ، فَأَسْمَعَهُ كَلَامًا (مِنْهُ) :

« بَسَطْتَ لِسَانَكَ يَا بَنَ صُوحَانَ عَلَى النَّاسِ فَتَهَيَّبُوكَ ، أَمَّا لَنْ شَدْتُ لِأَكُونَنَّ

لَكَ لِصَاقًا ^(٧) ، فَلَا تَنْطِقْ إِلَّا جَدَدْتُ ^(٨) لِسَانَكَ بِأَذْرَبٍ ^(٩) مِنْ ظُبَةِ السَّيْفِ ،

بِعَضْبٍ قَوِيٍّ ، وَلِسَانٍ عَلِيٍّ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكَ فِي ذَلِكَ حَلٌّ وَلَا تَرْحَالُ » فَقَالَ

صَعْصَعَةُ : « لَوْ أَجِدَ غَرَضًا ^(١٠) مِنْكَ لَرَمَيْتُ ، بَلْ أَرَى شَبَجًا . وَلَا إِخَالَ مِثَالًا

إِلَّا كَسْرَابٍ ^(١١) بَقِيعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظُّمَأَنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ،

[١] العتاد : العدة . [٢] سمَامُ جمع سم مثَلُ السِّنِّ ، والعِدَا بالكسر والضم اسم جمع عدو أى هو

للأعداء سم قاتل . [٣] قرى الصيف (كرمى) قرى : أساهه ، والقرى أيضا : ماقرى به الضيف .

[٤] رَفَدَهُ (كضربه) أَطْطَاهُ وَوَصَلَهُ ، وَالرَّفَادَةُ فِي الْأَصْلِ خَرَجَ كَانَتْ تَخْرُجُهُ قَرِيشٌ فِي كُلِّ مَوْسَمٍ مِنْ

أَمْوَالِهَا فَيَصْنَعُ بِهِ طَعَامًا لِلْحَاجِّ ، وَالْمُرَادُ بِهَا هَذَا الْعَطِيَّةُ . [٥] الرَّدَيْنِيَّ نَسْبَةٌ إِلَى رَدِينَةَ امْرَأَةِ سَمِيرٍ ،

وَكَانَا يَقُومَانِ الرِّمَاحَ بِخَطِّ هَجَرَ ، وَيَشْعَبُ : أَيْ يَمْرُقُ وَيَصْدَعُ . [٦] أَصْلُ الْبَقْرِ : الْفَتْحُ وَالشَّقُّ

وَالنُّوسَعَةُ ، وَكَانَ يُقَالُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْبَاقِرُ : لِأَنَّهُ بَقِرَ الْعِلْمُ

وَعُرِفَ أَصْلُهُ وَاسْتَنْبَطَ فِرْعَهُ .

[٧] اللِّصَاقُ : مَا يَلْصِقُ بِهِ ، وَالْمَعْنَى لِأَكُونَنَّ لَكَ مَلَاصِقًا مَلَاظِمًا . [٨] جَدَّ الشَّيْءُ مِنْ بَابِ رَدٍّ :

قَطَعَهُ . [٩] أَذْرَبٌ : أَحَدٌ مِنْ ذُرْبٍ كَفَرَحٍ صَارَ حَدِيدًا مَاضِيًا ، وَالظُّبَةُ : حِدَّةُ السَّيْفِ .

[١٠] الْغَرَضُ الْهَدَفُ . [١١] السَّرَابُ : مَا يَرَى نِصْفُ النَّهَارِ كَأَنَّهُ مَاءٌ ، وَالْقِيعَةُ جَمْعُ قَاعٍ وَهُوَ أَرْضٌ

سَهْلَةٌ مَطْمَئِنَّةٌ قَدْ انْفَرَجَتْ عَنْهَا الْجِبَالُ وَالْأَكَامُ ، وَيَجْمَعُ أَيْضًا عَلَى قِيعٍ (بِالْكَسْرِ) وَقِيعَانِ وَأَنْوَاعٍ وَأَنْوَعٍ

أَمَّا لَوْ كُنْتَ كُفْتًا لَرَمَيْتُ حَصَا تِلْكَ ^(١) بِأَذْرَبَ مِنْ ذَاقِ ^(٢) السَّانِ ، وَلَرَشَقْتُكَ
بِنِبَالٍ ، تَرَدُّعُكَ عَنِ النَّضَالِ ، وَخَطَمْتُكَ بِخِطَامِ ^(٣) ، يَحْزِمُ مِنْكَ مَوْضِعَ الزِّمَامِ ^(٤) .
فَاتَّصَلَ الْكَلَامُ بِابْنِ عَبَّاسٍ ، فَاسْتَضْحَكَ ^(٥) مِنْ الْفَزَارِيِّ ، وَقَالَ : « أَمَّا لَوْ كَلَّفَ
أَخُو فَزَارَةَ نَفْسَهُ نَقْلَ الصَّخُورِ مِنْ جَبَلِ شَمَامٍ ^(٦) إِلَى الْهَضَابِ ، لَكَانَ أَهْوَنَ
عَلَيْهِ مِنْ مَنَازَعَةِ أَخِي عَبْدِ الْقَيْسِ ، خَابَ أَبُوهُ ، مَا أَجْهَلُهُ ! يَسْتَجْهَلُ أَخَا عَبْدِ الْقَيْسِ
وَقُوَاهُ الْمَرِيرَةَ ^(٧) ! ثُمَّ تَمَثَّلَ :

صُبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أُمَّمٍ إِنَّ الشَّقَاءَ عَلَى الْأَشْقَيْنِ مَصْنُوبٌ ^(٨)

(مروج الذهب ٢ : ٨٢)

١٣٢ — رَجُلٌ مِنْ آلِ صُوحَانَ يَجِبُهُ ^(٩) عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَهُوَ يَخْطُبُ

وَيَخْطُبُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْغِلْظَةَ ، قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ آلِ
صُوحَانَ ، فَقَالَ : « مَهْلًا مَهْلًا يَا بَنِي مَرْوَانَ ، تَأْمُرُونَ وَلَا تَأْتَمُرُونَ ، وَتَنْهَوْنَ وَلَا
تَنْهَوْنَ ، وَتَمْظُونَ وَلَا تَمْظُونَ ، أَفَنَقْتَدِي بِسِيرَتِكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، أَمْ نَطِيعُ أَمْرِكُمْ
بِالسَّنَتِكُمْ ؟ فَإِنْ قَتَمْتُمْ اقْتَدُوا بِسِيرَتِنَا ، فَأَنْتَى وَكَيْفَ ؟ وَمَا الْحِجَةُ ؟ وَمَا الْمَصِيرُ مِنْ
اللَّهِ ؟ أَفَنَقْتَدِي بِسِيرَةِ الظَّلَمَةِ الْفَاسِقَةِ ، الْجَوْرَةِ الْخَوْنَةِ ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَالَ اللَّهِ

[١] الحَصَائِلُ جَمْعُ حَصِيلَةٍ ، يُقَالُ حَصَلَ الشَّيْءُ تَحْصِيلًا ، وَالْأَسْمُ الْحَصِيلَةُ ، قَالَ لَبِيدُ :

وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا سَيَعْلَمُ غَيْبُهُ إِذَا حَصَلَتْ عِنْدَ الْإِلَهِ الْحَصَائِلُ

وَالْمَعْنَى : لَرَمَيْتُ مَا حَصَلْتَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ . [٢] ذَاقَ السَّنَانَ وَالْإِسَانَ كَفَرَحَ : ذَرَبَ فَهُوَ ذَاقَ
وَأَذْلَقَ ، وَذَاقَ السَّنَانَ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ . [٣] الْخِطَامُ كُلُّ مَا وَضَعَ فِي أَنْفِ الْبَعِيرِ
لِيَقْتَادَ بِهِ ، وَخَطَمَهُ بِالْخِطَامِ جَهْلُهُ عَلَى أَنْفِهِ ، أَوْ جَرَّ أَنْفَهُ لِيَضَعَ عَلَيْهِ الْخِطَامَ ، وَخَطَمَهُ بِالْكَلامِ قَهْرُهُ وَمَنْعُهُ
حَتَّى لَا يَبْسُ . [٤] خَزَمَ الْبَعِيرُ : جَلَّ فِي جَانِبِ مَنْخَرِهِ الْخِزَامَةُ (كِتَابَةُ) وَالزِّمَامُ مَا يَزِمُ بِهِ .

[٥] اسْتَضْحَكَ الرَّجُلُ وَتَضَحَّكَ بِمَعْنَى . [٦] جَبَلٌ بِالْعَالِيَةِ . [٧] أَيْ الْقُوَّةُ ، يُقَالُ رَجُلٌ

مَرِيرٌ أَيْ قَوِيٌّ ذُو مَرَةٍ « وَالْمَرَةُ بِالْكَسْرِ الْقُوَّةُ » . [٨] الْأُمُّ : الْقَرَبُ .

[٩] جِبْهَهُ كَقَطْعِهِ لِقِيهِ بِمَا يَكْرَهُ .

دُولًا^(١)، وعبيده خَوْلًا^(٢)؟ وإن قلتم اسمعوا نصيحتنا، وأطيعوا أمرنا، فكيف ينصح لغيره مَنْ يَغُشُّ نفسه؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدّالته؟ وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، واقبلوا العِظَةَ ممن سمعتموها، فعَلَامَ وَلِينَاكم أمرنا، وَحَكَمْنَاكم في دِمَائِنَا وأَمْوَالِنَا؟ أما علمتم أن فينا من هو أَنْطَقُ منكم باللغات، وأفصح بالعظات؟ فتخلّوا عنها^(٣)، وأطلقوا عقالها، وخلّوا سبيلها، يَنْتَدِبُ^(٤) إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين شرّدتموهم في البلاد، ومزقتموهم في كل واد، بل تثبّت في أيديكم لا تقضاء المدة، وبلوغ المهلة، وعظم المحنة، إن لكل قائم قدرًا لا يعدوه، ويومًا لا يخطوه، وكتابًا بعده يتلوه: «لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ». ثم التمس الرجل فلم يوجد. (نهاية الأرب ٧: ٢٤٩)

١٣٣ — وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب: «مَيِّزْ لِي أَصْحَابَ عَلِيٍّ، وابدأ بآل صُوحَان، فَإِنَّهُمْ مَخَارِقُ الْكَلَامِ^(٥)». قال: «أما صَمْعَصَمَةٌ فعظيم الشأن، عَضْبُ اللِّسَانِ^(٦)، قَائِدُ فُرْسَانٍ، قَاتِلُ أَقْرَانٍ، يَرْتُقِي^(٧) مَا فَتُقِي، وَيَفْتُقِي مَا رُتِقِي، قليل النظير. وأما زيد وعبد الله، فإنهما

[١] جمع دولة بالضم، أي جعلوه متداولًا بينهم.

[٢] الحول ما أعطاك الله تعالى من النعم (محرّكة) والعبيد والاماء وغيرهم من الحاشية للواحد والجميع والذكر والأُنثى، ويقال للواحد خائل. [٣] أي عن الحلاوة. [٤] انتدب إليه: أسرع.

[٥] مخاريق جمع مخراق بالكسر وهو السيف، والسيد، والمنصرف في الأمور الذي لا يقع في أمر إلا خرج منه (والثور البري يسمى مخراقًا لأن الكلاب تطلبه فيقاتلها، وفلان مخراق حرب أي صاحب حروب يخف فيها). [٦] العضب: القاطع. [٧] الرتق ضد الفتق.

هران جاريان ، يصب فيهما الخُلجان ^(١) ، وَيُنْكَثُ بهما البُلدان ، رجلا جِدِّ
لَا لَعِبَ معه ، وأما بنو صُوحان فكما قال الشاعر :

إذا نزل العدو فإن عندي أسوداً تخلص الأسد النفوسا ^(٢)

(مروج الذهب ٢ : ٧٥)

١٣٤ — وصية محمد الباقر ^(٣) لعمر بن عبد العزيز

دخل أبو جعفر ، محمد الباقر ، بن عليّ زين العابدين ، بن الحسين عليهم السلام ،

على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقال : يا أبا جعفر ، أوصني ، قال :

« أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً ، وأوسطهم أخاً ، وكبيرهم أباً ،

فأرحم ولدك ، وصِلْ أخاك ، وبرّ أباك ، وإذا صنعت معروفاً فربّه ^(٤) .

(الأمال ٢ : ٣١٢)



[١] الخليج نهر في شق من النهر الأعظم . [٢] خلس الشيء كضرب خلصا استلبه .

[٣] توفي سنة ١١٣ هـ . [٤] أى أدبه ، يقال رب بالمكان وأربّ : أقام به ودام .

خطب الزبيريين وما يتصل بها^(١)

خطب عبد الله بن الزبير (قتل سنة ٧٣ هـ)

عبد الله بن الزبير ومعاوية

دخل الحسين بن عليّ رضي الله عنه يوما على معاوية ، ومعه مولى له يقال له ذكوان ، وعند معاوية جماعة من قريش ، فيهم ابن الزبير ، فرحب معاوية بالحسين ، وأجلسه على سريره ، وقال : ترى هذا القاعد (يعني ابن الزبير) فإنه ليذكره الحسد لبني عبد مناف^(٢) ، فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إن شئت أعلمتك فضل الزبير على أيك أبي سفيان فعلت ، فتكلم ذكوان مولى الحسين بن عليّ ، فقال :

١٣٥ - مقال ذكوان

« يا ابن الزبير : إن مولاي ما يمنعه من الكلام إلا أن يكون طلق اللسان ، رابط الجان ، فإن نطق نطق بعلم ، وإن صمت صمت بحلم ، غير أنه كفّ الكلام ، وسبق إلى السنام ، فأقرت بفضله الكرام ، وأنا الذي أقول :

فيم الكلام لِسَاقِي فِي غَايَةٍ وَالنَّاسَ بَيْنَ مُقَصَّرٍ وَمُبَلَّدٍ^(٣)
إِنَّ الَّذِي يَجْرِي لِيُذْرِكُ شَأْوَهُ يُنْمَى لِغَيْرِ مُسَوِّدٍ وَمُسَدَّدٍ^(٤)

[١] تقدم لك في باب خطب بني هاشم وشيعتهم ، خطب أمراء الكوفة من قبل ابن الزبير - انظر خطب عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع في ص ٥٧ - ٥٨ - ٦٢ - ٦٨ - ٧٤ - ٧٥ . [٢] عبد مناف جد يجمع بني هاشم وبني أمية . فالرسول عليه الصلاة والسلام هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأما عبد الله بن الزبير فن بن أسد أبوه الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي . [٣] بلد تبليدا : لم يتجه لشيء ، والفرس : لم يسبق ، والسعاية : لم تخطر . [٤] الشأو : الغاية ، وينمى : ينسب .

بل كيف يُذرك نورَ بذرٍ ساطع خير الأنامِ وفَرَجِ آلِ محمد
فقال معاوية : صدق قولك يا ذكوان ، أكثر الله في موالى الكرام مثلك ، فقال
ابن الزبير : إن أبا عبد الله ^(١) سكت وتكلم مولاه ، ولو تكلم لأجبناه ، أو
لكففتنا عن جوابه إجلالا له ، ولا جوابَ لهذا العبد . قال ذكوان : هذا العبد
خير منك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَوَالِي الْقَوْمِ مِنْهُمْ » ، فأنا مولى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ابن العوام بن خويلد ، فنحن أكرم ولاء ،
وأحسن فعلا . قال ابن الزبير : إني لست أجيب هذا ، فهات ما عندك .

١٣٦ — مقال معاوية

فقال معاوية :

« قاتلك الله يا ابن الزبير ! ما أعياك ^(٢) وأبغاك ! أتَفَخَرُ بين يَدَيَّ أمير المؤمنين
وأبي عبد الله ! إنك أنت المتعدى لطورك ، الذي لا تعرف قدرك ، فقس شِبرَكَ
بِفِترِكَ ^(٣) ، ثم تَعَرَّفْ كيف تقع بين عرَّانين ^(٤) بنى عبد مناف ، أما والله لئن
دَفَعْتَ في بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لَتَقَطَعَنَّكَ بأمواجها ، ثم لَتُوهِينَ ^(٥)
بك في أجاجِها ، فما بقاؤك في البحور إذا غمرتك ، وفي الأمواج إذا بهَّرتك ^(٦) ؟
هنالك تَعْرِفُ نفسك ، وتندم على ما كان من جرَّأتك ، وتُتَمَسَّى ^(٧) ما أصبحت

[١] كنية الحسين . [٢] ما أمجزك . [٣] الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة .

[٤] جمع عرنين بكسر العين ، وهو السيد الشريف ، (وفي الأصل : الأنف أو ما صلب من عظمه) .

[٥] أوهاه : أسقطه ، والأجاج : الملح المر . [٦] بهره بهرا (بالفتح) : غلبه .

[٧] مساء تمسية : قال له كيف أمسيت ، أو مساك الله بخير ، والمراد : وتودع ما كنت فيه من أمان

نادما أسفا عليه ، وربما كان الأصل « وتمنى » بحذف إحدى التاءين أى وتمنى ، أو الأصل « ويتمنى »
من تمى إذا قطع أى يمحى ويندثر ما كنت فيه من أمان .

إليه من أمان ، وقد حيل بين العير والنزوان^(١) . فأطرق ابن الزبير ملياً ، ثم رفع رأسه ، فالتفت إلى من حوله ، ثم قال :

١٣٧ — مقال ابن الزبير

« أسألكم بالله: أتعلمون أن أبي حواري رسول الله ﷺ وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله ﷺ؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق، وأمه هند آكلة الأكباد؟ وجدتي الصديق، وجدته المشدوخ^(٢) بيدر، ورأس الكفر، وعمتي خديجة ذات الخطر^(٣) والحسب، وعمته أم جميل حمالة الخطب؟ وجدتي صفية^(٤)، وجدته حمامة^(٥)؟

[١] الدير : الحمار وغلب على الوحشي ، والنزوان : الثوب ، وهو مثل يضرب للتوى تخور قواء ، وأول من قله صخر بن عمرو أخو الحفساء ، وذلك أنه غزا بني أسد ، فاكسح إبلهم ، فجاءهم الصريح فركبوا ، فالتقوا ، فظعن أبو ثور الأسدي صخرًا طعنة في جنبه ، وحوى منها فرض حولاً حتى قله أهله ، فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى : كيف بملك؟ فقالت : لا حتى يبرجى ، ولا ميت فينمى ، لقد لقينا منه الأمرين ، وفي رواية أخرى فرض زمانا حتى ملته امرأته ، وكان يكرمها ، فربها رجل وهي قائمة ، وكانت جميلة ، فقال لها : يباع الكفل؟ فقالت : نعم عما قليل ، وكان ذلك يسمعه صخر ، فقال : أما والله لئن قدرت لأقدمك قتلى ، ثم قال لها : ناوليني السيف أنظر إليه ، هل تقله يدي؟ فتأولته ، فاذا هو لا يقله ، فقال :

أرى أم صخر لا تمل عيادتي وملت سليمى مضجى ومكانى
مأى امرئ ساوى بأمر حليلة فلا طاش إلا فى شقا وهوان
أهم بأمر الحرم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

لما طال به البلاء ، وقد نتأت قطعة من جنبه في موضع الطعنة ، قيل له : لو قطعتما لرجونا أن تبرأ ، فقال شأ نكم ، وأشفق عليه قوم فهو فأي ، فأخذوا شفرة فقطعوها فأت .

[٢] هو حمد معاوية لأنه عتبه بن ربيعة قتله على يوم بدر ، والمشدوخ المكسور أى المقتول .

[٣] القدر والمنزلة ، وهى السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية عمة أبيه ، وزوج الرسول عليه الصلاة والسلام . [٤] هى صفية بنت عبد المطلب أم الزبير وعممة الرسول عليه الصلاة والسلام .

[٥] روى ابن أبي الحديد (م ١ : ص ١٥٧) قال :

« لما ارتحل ذقيل بن أبي طالب عن علي عليه السلام أتى معاوية ، فكان في مجلسه يوماً وجلساء معاوية حوله ، فقال : يا أبا يزيد : أخبرني عن عسكرى وعسكر أخيك ، فقد وردت عليهما ، قال : « أخبرك : مررت والله بعسكر أخى ، فإذا ليل كليل رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونهار كهزار رسول الله صلى الله عليه وآله ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في القوم ، ما رأيت إلا مصلياً ، ولا سمعت إلا فارعاً ، ومررت بعسكرك ، فاستقبلني قوم من المناقبين من نهر برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة

وزوج عمتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب ، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين ، وخالته أشق الأَشَقَيْنِ ؟ وأنا عبد الله ، وهو معاوية .

١٣٨ - مقال معاوية

قال له معاوية :

« وَيُحْكُ يَا بَنَ الزَّيْبِرِ ! كَيْفَ تَصِفُ نَفْسَكَ بِمَا وَصَفْتُهَا ، وَاللَّهِ مَا لَكَ فِي الْقَدِيمِ مِنْ رِيَاةٍ ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ سِيَاسَةٍ ، وَلَقَدْ قُدْنَاكَ وَسُدْنَاكَ : قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، لَا تَسْتَطِيعُ لَذَلِكَ إِنكَارًا ، وَلَا عَنْهُ فِرَارًا ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْحُضُورُ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ قَرِيشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ يَوْمَ^(١) الْفَجَّارِ عَلَى رِيَاةِ حَرْبِ بَنِ أُمَيَّةٍ ، وَأَنَّ أَبَاكَ

العقبه » ثم قال : من هذا عن عبيك يا معاوية ؟ قال : هذا عمرو بن العاص ، قال : هذا الذي اختصم فيه ستة نمر ، فغلب عليه جرار قريش ، فمن الآخر ؟ قال الصحاح بن قيس الفهري ، قال : أما والله لقد كان أبو جندب الأخذ لسبب التبوس « وكان يسب الفحول في الجاهلية ، والسب كعذب : الكراء الذي يؤخذ على ضراب الفحل ، أو ضراجه ، أو ماؤه ، وعسب الرجل كضرب أعطاه الكراء على الضراب ، وفي الحديث : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن عسب الفحل فإن إطارة الفحل مندوب إليها » ، فمن هذا الآخر ؟ قال أبو موسى الأشعري ، قال : هذا ابن السراقه ، ولما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه ، علم أنه إن استجبره عن نفسه قال فيه سوءا ، فأحب أن يسأله ليقول فيه ما يلمه من سوء ، فيذهب بذلك غضب جلسائه ، قال : يا أبا يزيد ، فما تقول في ؟ قال : دعني من هذا ، قال : اتقولن ، قال : أتدرف حماة ؟ قال : ومن حماة يا أبا يزيد ؟ قال : قد أخبرتك ، ثم قام ففضى ، فأرسل معاوية إلى النسابة فدعاه ، فقال : من حماة ؟ قال : ولي الأمان ؟ قال : نعم ، قال : حماة جدتك أم أبي سفيان ، كانت بنيا في الجاهلية صاحبة راية ، فقال معاوية لجلسائه : قد ساويتكم وزدت عليكم . فلا تمضوا . »

[١] حرب الفجار : هي حرب هاجت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن (من قيس هيلان) وسيما أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق تكاظ في كل عام لطيفة (واللطيمة كصحيفة : المير التي تحمل الطيب والبز للتجارة) لتباع له هناك ، ويتتري له بثمان ذلك آدم من آدم الطائف ، وكان يرسل تلك اللطيمة في جوار رجل من أشراف العرب ، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب فيهم البراء ابن قيس - وهو من بني كنانة ، والبراء كشداد - وهروة الرِّحَال بن عتبة - وهو من بني هوازن ، والرياح كشداد أيضا - فقال : من يحيرها ؟ قال البراء : أنا أجيرها على بني كنانة يعني قومه ، فقال له النعمان : ما أريد إلا من يحيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال له عروة الرِّحَال : أنا أجيرها لك على أهل

وأُسرَتك تحت رايته ، راضون بإمارته ، غير منكرين لفضله ، ولا طامعين في عزله ، إن أمرَ أطاعوا ، وإن قال أنصتوا ، فأنزل فينا القيادة ، وعزَّ الولاية ، حتى بعث الله عزَّ وجل محمدًا صلى الله عليه وسلم ، فانتخبه من خير خلقه ، من أُسرتي لا أُسرتك ، وبنى أبى لا بنى أيبك ، فجحدته قريش أشد الجحود ، وأنكرته أشد الإنكار ، وجاهدته أشد الجهاد ، إلا من عصم الله من قريش ، فما ساد قريشًا وقادهم إلا أبو سفيان بن حرب ، فكانت الفتتان تلتقيان ، ورئيسُ الهدى منا ، ورئيسُ الضلالة منا ، فمهديكم تحت راية مهدينا ، وضالكم تحت راية ضالنا ، فنحن الأرباب ، وأنتم الأذئاب ، حتى خلَّص الله أبا سفيان بن حرب بفضله من عظيم شركه ، وعصمه بالإسلام ، من عبادة الأصنام ، فكان في الجاهلية عظيمًا شأنه ، وفي الإسلام معروفًا مكانه ، ولقد أعطى يوم الفتح ما لم يُعطَ أحد من آبائك ، وإن مُنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وكانت داره حرماً ، لدارك ولا دار أيبك ، وأما هند فكانت امرأة من قريش ، في الجاهلية عظيمة الخطر ، وفي الإسلام كريمة الخبر ، وأما جدك الصديق

الشيخ والقيصوم من أهل نجد وتبالة ، فقال البراض : أعلى بنى كنانة تحيرها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم فدفعها النعمان إلى عروة ، فخرج بها ، وتبعه البراض ، وتربص به وقتله ، فهاجت الحرب بين كنانة وهوازن ، وعاونت قريش كنانة ، وكان على كل قبيلة من قريش وكنانة سيدهما ، والقائد العام للجميع حرب بن أمية والد أبي سفيان ، وقد قتل في هذه الحرب العوام بن خويلد والد الزبير ، وقد حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وله من العمر أربع عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل عشرون ، والعجار بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة ، سميت قريش هذه الحرب بجارا ، لأنها كانت في الأشهر الحرم فقالوا : قد فجرنا إذ قاتلنا فيها أى فسقنا ، وقيل لأنها لم تكن في الشهر الحرام ، وإنما سببها كان في الشهر الحرام ، وهو قتل البراض لعروة الرحالة ، وهذا هو الفجار الرابع ، وهو الأكبر ، وكان قبله ثلاثة أجرة أخرى — انظر السيرة الحلبية ١ : ١٢٢ ، والمقد الفريد ٣ : ٩١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٦ ، وجمع الأمثال ٢ :

فبتصديق عبد مناف سُمِّيَ صديقاً ، لا بتصديق عبد العُزَّى ، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ ببدر ، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه ، فلو برزت إليه أنت وأبوك ما بارزوكم ، ولا رَأَوْكُمْ لهم أكفاءً ، كما قد طلب ذلك غيرُكم ، فلم يقبلوهم ، حتى برز إليهم أكفأؤهم من بنى أبيهم ، فقضى الله منايهم بأيديهم ، فنحن قَتَلْنَا ، ونحن قَتَلْنَا ، وما أنت وذاك ؟ وأما عمك أم المؤمنين فبنا شَرُفَتْ ، وسميت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صفية فهي أَدْنَتْكَ من الظِّلِّ ، ولولا هي لكنتَ ضاحياً ^(١) ، وأما ما ذكرت من ابن عمك وخال أهلك ^(٢) سيد الشهداء ، فكذلك كانوا رحمهم الله ، ونفخهم وإرثهم لى دونك ، ولا نفرك فيهم ولا إرث بينك وبينهم . وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية ، فقد علمت قريش أئبنا أجود في الإِزْم ^(٣) ، وأحزم في القدم ، وأمنع للحُرَم ، لا والله ما أراك متتبعاً حتى تروم من بنى عبد مناف مارام أبوك ، فقد طالَهم الذُّحُول ^(٤) ، وقدم إليهم الخيول ، وخدعتم أم المؤمنين ، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مددتم على نساكنكم السُّجُوف ^(٥) ، وأبرزتم زوجته للَحُتُوف ، ومُتْقَارعة السيوف ، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً ، فلم يُنْجِه ذلك أن طَحَنه أبو الحسين بِكُلِّ كَلِه طَحَنَ الحَصِيد ^(٦) ، بأيدي العبيد ، وأما أنت فأفلت بعد أن

[١] ضحا كسى ورضى : أصابته الشمس ، والظل : العزّ والمنعة ، أى أن شرفهم جاء من مصاهرة العوام لبني هاشم ، وزواجه بصفية بنت عبد المطلب . [٢] ابن عمه : هو عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الدار ، وخال أبيه هو حمزة بن عبد المطلب ، وقتل يوم أحد . [٣] الأزمة (بالفتح ويحرك) الشدة ، وجمعها أزم (كشمس وعنب) . [٤] جمع ذحل (بالفتح) وهو الثأر ، والعداوة ، والحقد : أى كشفهم بذلك . [٥] جمع سجب (بالفتح ويكسر) الستر . [٦] الحصيد : الزرع المحصود .

نَحْمَشَتَكَ^(١) بِرَأْيِنَهُ ، ونالتك مخاليبه ، وإيم الله ليقوّمك بنوعبد مناف بِثِقَافِهَا^(٢) ،
أولتُصَبِحَنَّ منها صباح أليك بوادي السَّبَّاعِ^(٣) ، وما كَانَ أبوك المَذْهَنَ حَدَّهُ^(٤) ،
ولكنه كما قال الشاعر :

تناول سِرْحَانٌ فريسةً ضَيْغَمٍ فقضقضه بالكفّ منه وحطماً^(٥)

(العقد الفريد ٢ : ١١٣)

١٣٩ — عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لَا تَدْعَنَّ مَرْوَانَ يرمى جَاهِرَ قريش بمشاقصه^(٦) ،
ويضرب صفاتهم بِمَعْوَلِهِ ، أمّا والله لو لا مكانك ، لكان أخفّ على رقابنا من فَرَّاشَةٍ ،
وأقلّ في أنفسنا من خَشَاشَةٍ^(٧) ، وإيّمُ الله لئن ملّك أعنة خيل تنقاد له ، لَتَرَكَبَنَّ
منهُ طَبَقًا^(٨) تخافه . فقال معاوية : « إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد
طَمِعَ فيه من هو دونه ، وإن يتركه يتركه لمن فوقه ، وما أراكم بِمُنْتَهَيْنَ حتى
يَبْعَثَ الله عليكم من لا يَعْطِفُ عليكم بقرابة ، ولا يَذْكُرُكم عند مُلِمَةٍ ، يَسُومُكم
خَسْفًا^(٩) ، ويسوقكم عَسْفًا^(١٠) » . فقال ابن الزبير : « إذن والله يُطَلِّقُ عِقَالُ الحرب

[١] خمشته : خدشه . [٢] الثفاف : مانسوى به الرماح . [٣] مقتل أبيه الزبير .

[٤] حدّه : بأسه ، والمدّهن : الغشوش ، من أدهن أى غش ، والمعنى أنه كان شديد البأس لم تشب
بسالته شائبة خور ولسكنه . . . الخ « وفي الأصل « المدّهن خده » بالخاء وأراء مصحفاً » .

[٥] السرحان : الذئب ، والضيفم : الأسد ، وقضقضه فقضقض : كسره ودقه ، والقضقضة : صوت
كسر العظام . وفي الأصل فقضقضه بالخاء ، وهو تصحيف .

[٦] المشاقص جمع مشقص كثير وهو النصل الطويل أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش .

[٧] الخشاش : واحدة الخشاش بتثنية الخاء ، وهي حشرات الأرض والمصافير ونحوها (وفي الأصل

خشاشة وهو تصحيف) . [٨] الطبقى : الحال ومنه قوله تعالى : « لَتَرَكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ »

[٩] أى يوليكم ذلاً . [١٠] العسف : الظلم ، وسلوك الطريق على غير هداية .

بكتائب تَمُور^(١) كَرَجَل الجراد ، خَافَتْهُمُ الْأَسَلُ ، لها دوى كدوى الريح ،
تتبع غَطْرِيفاً^(٢) من قریش ، لم تكن أُمُّهُ رَاعِيَةً ثَلَّةً^(٣) . فقال معاوية : « أنا
ابن هند ، أطلقت عِقَالَ الحرب ، فأكلتُ ذِرْوَةَ السَّنام ، وَشَرِبْتُ عُنْفُوانَ
المَكْرَعِ^(٤) ، وليس للآكل بعدى إِلَّا الفِلْدَةُ^(٥) ، ولا للشارب إِلَّا الرُّثْقُ^(٦) .
فسكت ابن الزبير . (شرح ابن أبي الحديد ٤ : من ٤٩٣ ، والقدر الفريد ٢ : ١١٥)

١٤٠ — عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمر بن العاص

قَدِمَ عبد الله بن الزبير على معاوية وافداً ، فَرَحَّبَ به وأدناه ، حتى أجلسه
على سريره ، ثم قال : حاجتك أبا خُبَيْبٍ^(٧) ؟ فسأله أشياء ، ثم قال له : سَلْ
غير ما سألت قال :

« نعم ، المهاجرون والأنصار تَرُدُّ عليهم فَيَهْمُهم ، وتحفظ وصية نبيِّ الله
فيهم ، تَقْبَلُ من مُحْسِنِهِم ، وتتجاوز عن مُسِيئِهِم » فقال معاوية : « هيهات
هيهات ؟ لا والله ما تأمن النعجة الذئب وقد أكل أَلْيَتَهَا^(٨) . » فقال ابن الزبير :
« مهلاً يا معاوية ، فَإِنَّ الشَّاةَ لَتَدِرُ^(٩) للحالب ، وإن المذبة في يده ، وإن الرجل
الأريب ليصانع ولده الذي خرج من صُلْبِهِ ، وما تدور الرخاء إِلَّا بِقُطْبِهَا^(١٠) ،
وَلَا تَصْلُحُ القوسُ إِلَّا بِعَجَبِهَا^(١١) . » فقال : « يا أبا خُبَيْبٍ ، لقد أجزرت
الطَّرُوقَةَ قبل هبابِ الفَعْلِ^(١٢) ، هيهات ! وهى لا تَصْطَلِكُ لِحْيَانَهَا اصطكاكاً

[١] تمور : اضطرب . [٢] الغطريف : السيد الشريف .
[٣] الثلة : جماعة الغنم أو الكثرة منها . [٤] عنفوان الشيء : أوله أو أول بهجته ، والمكراع
المورد ، مفعل من كرع في الماء أو في الإثناء . [٥] الفلدة : القطعة من اللحم .
[٦] ماء رفق كمدل وكنف وجبل : كدر . [٧] هي كنية ابن الزبير كنى بابنه خبيب ، وكان أسن
ولده ، ويكنى أيضاً أبا بكر . [٨] الألية : ماركب العجز من شحم ولحم . [٩] درّ اللبن وغيره
من بابى صرب وقتل ، ودرّت الناقة بلبنها أدركته . [١٠] قطب الرخا : ماتدور عليه ، والرخاء ممدود
الرخا . [١١] العجب : مؤخر كل شيء . [١٢] ناقة طروقة الفحل : بلغت أن يضربها الفحل ،
وأجره رسنه : جملة يحرمه ، وهب الفحل من الإبل وغيرها هباباً وهيباً : أراد السفاد .

الْقُرُومِ السَّوَامِي^(١) . فقال ابن الزبير : « الْعَطَنُ بَعْدَ الْعَلِّ^(٢) ، وَالْعَلُّ بَعْدَ النَّهْلِ ، وَلَا بَدَّ لِلرَّحَاءِ مِنَ الثَّفَالِ^(٣) » . ثم نهض ابن الزبير ، فَلَمَّا كَانَ الْعِشَاءُ أَخَذَتْ قَرِيشٌ مَجَالِسَهَا ، وَخَرَجَ مَعَاوِيَةُ عَلَى بَنِي أُمِيَّةَ ، فَوَجَدَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ فِيهِمْ ، فَقَالَ : وَيَحْكُمُ يَا بَنِي أُمِيَّةَ ! أَفِيكُمْ مَنْ يَكْفِينِي ابْنَ الزَّبِيرِ ؟ فَقَالَ عَمْرُو : أَنَا أَكْفِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ : مَا أَظْنُكَ تَفْعَلُ قَالَ : « بَلَى ، وَاللَّهِ لَا زَبِدَنَّ^(٤) وَجْهَهُ ، وَلَا أُخْرِسَنَّ لِسَانَهُ ، وَلَا أُرْدَنَّهُ أَلَيْنُ مِنْ خَمِيلَةٍ^(٥) » . فَقَالَ : دُونَكَ فَاعْرِضْ لَهُ إِذَا دَخَلَ ، فَدَخَلَ ابْنُ الزَّبِيرِ - وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ كَلَامُ مَعَاوِيَةَ وَعَمْرُو - فَجَلَسَ نَضَبَ عَيْنَيْ عَمْرُو ، فَتَحَدَّثُوا سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ عَمْرُو :

وَإِنِّي لَنَارٌ مَا يُطَاقُ اصْطِلَاؤُهَا لَدَيْ كَلَامٍ مُعْضِلٍ مُتَفَاقِمٍ^(٦)

فَأُطِرَقَ ابْنُ الزَّبِيرِ سَاعَةً يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ :

وَإِنِّي لِبَحْرٌ مَا يُسَامَى عُجَابُهُ مَتَى يَلْقَى بِحْرَى حَرُّ نَارِكَ تَحْمُدُ

فَقَالَ عَمْرُو : وَاللَّهِ يَا ابْنَ الزَّبِيرِ إِنَّكَ مَا عَلِمْتُ لَمُتَجَلِّبٍ جَلَّابِيبَ الْفِتْنَةِ ،

مُتَآزِرٍ بَوَصَائِلِ^(٧) التَّيِّهِ ، تَعَاطَى الذَّرَى الشَّاهِقَةَ ، وَالْمَعَالَى الْبَاسِقَةَ ، وَمَا أَنْتَ

مِنْ قَرِيشٍ فِي لُبَابِ جَوْهَرِهَا ، وَلَا مُؤْتَقٍ^(٨) حَسَبِهَا . فَقَالَ ابْنُ الزَّبِيرِ : « أَمَا

مَا ذَكَرْتَ مِنْ تَعَاطَى الذَّرَى ، فَإِنَّهُ طَالَ بِي إِلَيْهَا وَسَمَا ، مَا لَا يَطُولُ بَكَ مِثْلُهُ :

[١] تصطك : تضطرب . والفروم جمع قرم بالفتح وهو الفعل ، والسوامى جمع سام : وصف من سما الفعل سماء : تطاول على شؤله « والشوّل كركع جمع شائل وهي النافة تشول بذنبها لاقاح » .

[٢] العطن : مبرك الابل حول الحوض ، والعل والعلل : الشرب الثاني ، والنهل : الشرب الأول .

[٣] الثفال : جلد أو نحوه يبسط تحت الرمح ليقع عليه الطحين . [٤] أى لأصيرنه أريد ، من

الريدة بالفم : وهي لون إلى الغبرة . [٥] الخيلة : القطيفة ، وفي الأصل : « ولأوردنه » وهو

تحريف . [٦] تفانم الأمر : عظم . [٧] الوصائل جمع وصيلة : وهي ثوب مخطط يمان .

[٨] آتقى الشيء : إيتافاً : أعجبني ، فهو مؤثق وأتقى أى حسن معجب .

أنف حمي ، وقلب ذكي ، وصارم مشرفي ، في تليد فارع ^(١) ، وطريف مانع ،
إذ قعد بك انتفاخ سحر ك ^(٢) ، ووجيب ^(٣) قلبك ، وأما ما ذكرت من أنني
لست من قريش في لباب جوهرها ، ومؤنق حسبها ، فقد حضرتني وإياك
الأكفاء ، العالمون بي وبك ، فاجعلهم بيني وبينك ، فقال القوم : قد أنصفك
يا عمرو ، قال : قد فعلت ، فقال ابن الزبير : « أما إذ أمكنتني الله منك فلا زبدن
وجهك ، ولأخرسن لسانك ، ولترجعن في هذه الليلة ، وكأن الذي بين
منك وبينك مشدود إلى عروق أخدعيك ^(٤) » ، ثم قال : أقسمت عليكم يا معاشر
قريش ، أنا أفضل في دين الإسلام أم عمرو ؟ فقالوا : اللهم أنت ، قال : فأبي
أفضل أم أبوه ؟ قالوا : أبوك حواري رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمته ،
قال : فأبي أفضل أم أمه ؟ قالوا : أمك أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وذات
النطاقين ، قال : فعمتي أفضل أم عمته ؟ قالوا : عمك سلمى ابنة العوام ، صاحبة
رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من عمته ، قال : نخاتني أفضل أم خالته ؟
قالوا : خالتك عائشة أم المؤمنين ، قال : جَدَّتِي أفضل أم جدته ؟ قالوا : جدتك
صفية بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : جَدِّي أفضل
أم جده ؟ قالوا : جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :

قَضَتِ الْعَطَارِفُ مِنْ قَرِيشَ بَيْنَنَا فَاصْبِرْ لِفَضْلِ خِصَامِهَا وَقَضَائِهَا
وَإِذَا جَرَيْتَ فَلَا تُجَارِ مُبَرِّزًا بَدَّ الْجِيَادَ عَلَى احْتِفَالِ جِرَائِهَا ^(٥)

[١] فارع : عال . [٢] السحر وبمرك ويضم : الرثة ، وانتفخ سحره : عدا طوره وجاوز قدره .

[٣] حنقان واضطراب .

[٤] الأخدطان : عرقان في موضع المجامة . [٥] برّز تبرّزا : فاق أصحابه وبذّ : فاق وغلب ،

واحتفل النوم : اجتمعوا ، والجراء والمجارة : مصدر جاري .

أَمَّا وَاللَّهُ يَا بَنِي الْعَاصِ ، لَوْ أَنَّ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا وَاجَهَنِي بِمِثْلِهِ ، لَقَصَّصْتُ إِلَيْهِ مِنْ سَامِي بَصَرِهِ ، وَاتْرَكَتُهُ يَتَلَجَّجُ لِسَانُهُ ، وَتَضَطَّرَمُ النَّارُ فِي جَوْفِهِ ، وَلَقَدْ اسْتَعَانَ مِنْكَ بِغَيْرِ وَافٍ ، وَلَجَأَ إِلَى غَيْرِ كَافٍ . ثُمَّ قَامَ نَخْرَجَ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣)

١٤١ — خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لَمَّا قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي أَهْلِ مَكَّةَ ، وَعَظَّمَ مَقْتَلَهُ ، وَعَابَ عَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ خَاصَّةً ، وَلَامَ أَهْلَ الْعِرَاقِ عَامَّةً ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنْ أَهْلَ الْعِرَاقِ غُدُرَتْ فُجْرٌ إِلَّا قَلِيلًا ، وَإِنْ أَهْلَ الْكُوفَةِ شَرَّارَ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، وَإِنَّهُمْ دَعَاوَا حُسَيْنًا لِيَنْصُرُوهُ وَيُؤَلُّوهُ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ ثَارُوا إِلَيْهِ ، فَقَالُوا لَهُ : إِمَّا أَنْ تَضَعَ يَدَكَ فِي أَيْدِينَا ، فَتَبْعَتْ بِكَ إِلَى ابْنِ زِيَادِ بْنِ سُمَيَّةَ سَلَمًا ، فَيَمْضِيَ فِيكَ حُكْمُهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَحَارِبَ ، فَرَأَى وَاللَّهُ أَنَّهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ . وَإِنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى الْغَيْبِ أَحَدًا — أَنَّهُ مَقْتُولٌ ، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ الْمَيْتَةَ الْكَرِيمَةَ عَلَى الْحَيَاةِ الذَّمِيمَةِ ، فَرَحِمَ اللَّهُ حُسَيْنًا ، وَأَخْزَى قَاتِلَ حُسَيْنٍ ، لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ مِنْ خِلَافِهِمْ إِيَّاهُ وَعِصْيَانِهِمْ مَا كَانَ فِي مِثْلِهِ وَاعْظُ وَنَاهِ عَنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُ مَا حُمَّ^(١) نَازِلٌ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا لَنْ يُدْفَعَ .

أَفَبَعْدَ الْحُسَيْنِ نَظْمُنُّ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَنَصَدِّقُ قَوْلَهُمْ ، وَتَقْبَلُ لَهُمْ عَهْدًا ؟ لَا ، وَلَا نَرَاهُمْ لَذَلِكَ أَهْلًا ، أَمَّا وَاللَّهُ لَقَدْ قَتَلُوهُ ، طَوِيلًا بِاللَّيْلِ قِيَامُهُ ، كَثِيرًا فِي النَّهَارِ صِيَامُهُ ، أَحَقُّ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْهُمْ ، وَأَوْلَى بِهِ فِي الدِّينِ وَالْفَضْلِ ، أَمَّا وَاللَّهُ

ما كَانَ يَبْدُلُ بِالْقُرْآنِ الْغِنَاءَ ، وَلَا بِالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ الْخُدَاءَ ، وَلَا بِالصِّيَامِ شَرِبَ الْحَرَامَ ، وَلَا بِالْمَجَالِسِ فِي حَلَقِ الذِّكْرِ الرِّكْضَ فِي تَطْلَابِ الصِّيدِ (يَعْرِضُ بِيَزِيدَ) فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ^(١) .

فثار إليه أصحابه ، فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق أحد ، إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر ، وقد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائد بالبيت . (تاريخ الطبري ٦ : ٢٧٣)

١٤٢ - مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين ثار عبد الله بن الزبير بمكة (سنة ٦٤) وسار إليه مسلم بن عقبة المُرِّي في جيش من أهل الشام ، بعد أن غزا المدينة ، وكان منه في وقعة الحرّة ما كان ، فقال لهم نافع بن الأزرق : اخرجوا بنا نأت البيت ، ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا ، فخرجوا حتى قدموا على عبد الله بن الزبير ، فسُرَّ بمقدمهم وتبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف ولا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة .

ثم إن القوم لقي بعضهم بعضا فقالوا : إن هذا الذي صنعتُم أمس بغير رأي ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما

[١] أي شرا وخسرانا ، وكل شر عند العرب غي ، وكل خير رشاد ، وقيل هو على حذف مضاف أي جراء غي كقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، والأثام الإثم أي يلقي جزاء إثمه (والأثام أيضا جزاء الإثم)

كَانَ أَمِيسُ يَقَاتِلُكُمْ هُوَ وَأَبُوهُ ، يَنَادِي بِالنَّارَاتِ عِثْمَانُ ، نَدَخِلُ إِلَيْهِ فَتَنْظُرُ مَا عِنْدَهُ
فَإِنْ قَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ ، وَبَرِيٌّ مِنْ عِثْمَانَ وَعَلَى ، وَكَفَّرَ أَبَاهُ وَطَلَحَةَ بَايَعْنَاهُ ، وَإِنْ
تَكُنِ الْآخَرَى ، ظَهَرَ لَنَا مَا عِنْدَهُ ، فَتَشَاغَلْنَا بِمَا يُجْبِدِي عَلَيْنَا .

فَدَخَلُوا عَلَى ابْنِ الزَّيْرِ وَهُوَ مُبْتَذِلٌ ، ^(١) وَأَصْحَابُهُ مُتَفَرِّقُونَ عَنْهُ ، فَقَالُوا : إِنَّا
جِئْنَاكَ لَتُخْبِرَنَا بِرَأْيِكَ ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى الصَّوَابِ بَايَعْنَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى غَيْرِهِ
دَعَوْنَاكَ إِلَى الْحَقِّ ، مَا تَقُولُ فِي الشَّيْخَيْنِ ؟ قَالَ : خَيْرًا . قَالُوا : فَمَا تَقُولُ فِي عِثْمَانَ
الَّذِي أَحْمَى ^(٢) الْحِمَى ، وَآوَى الطَّرِيدَ ^(٣) ، وَأَظْهَرَ لِأَهْلِ مِصْرَ شَيْئًا وَكُتِبَ
بِخِلَافِهِ ، وَأَوْطَأَ آلَ أَبِي مُعَيْطٍ ^(٤) رِقَابَ النَّاسِ ، وَآثَرَهُمُ بَنَى الْمَسَامِينَ ، وَفِي
الَّذِي بَعْدَهُ ، الَّذِي حَكَّمَ فِي دِينِ اللَّهِ الرِّجَالَ ، وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ تَائِبٍ وَلَا نَادِمٍ ،
وَفِي أَبِيكَ وَصَاحِبِهِ ، وَقَدْ بَايَعَا عَلِيًّا وَهُوَ إِمَامٌ عَادِلٌ مُرَضًى لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ كُفْرٌ ،
ثُمَّ نَكَثَا بِعَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا ، وَأَخْرَجَا عَائِشَةَ تَقَاتِلُ ، وَقَدْ أَمَرَهَا اللَّهُ وَصَوَّاحِبَهَا
أَنْ يَقْرَنَ ^(٥) فِي بَيْوتِهِنَّ ، وَكَانَ لَكَ فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُوكَ إِلَى التَّوْبَةِ ، فَإِنْ أَنْتَ
قُلْتَ كَمَا يَقُولُ فَلَكَ الزُّلْفَى ^(٦) عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّصْرُ عَلَى أَيْدِينَا ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ لَكَ التَّوْفِيقَ ،
وَإِنْ أُيِّدْتَ إِلَّا نَصَرَ رَأْيُكَ الْأَوَّلَ ، وَتَصَوِّبَ أَبِيكَ وَصَاحِبِهِ ، وَالتَّحْقِيقَ بِعِثْمَانَ
وَالْتَوَلَّى فِي السَّنِينَ السَّتِ الثِّلَاثِ أَحَلَّتْ دَمَهُ ، وَنَقَضَتْ أَحْكَامَهُ ، وَأَفْسَدَتْ إِمَامَتَهُ ،
خَذَلَكَ اللَّهُ وَاتَّصَرَ مِنْكَ بِأَيْدِينَا ، فَقَالَ ابْنُ الزَّيْرِ : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ (وَلَهُ الْعِزَّةُ

[١] المبتذل لا يس البذلة (بالكسر) أو المبتذلة وهي الثوب الخلق وما لا يصاب من الثياب .

[٢] أحمى المكان جعله حمى لا يقرب - انظر تفسير الحمى الجزء الأول ص ١٢٦ .

[٣] هو الحكم بن أبي العاص - انظر ص ٩٥ . [٤] ممن ولام عثمان الوليد بن عقبة بن أبي

معيط ولام الكوفة ، وهو أخو عثمان لأمه . [٥] من قرأ بالمكان يقر (بالكسر والفتح) قرأ

أى استقر . أصله يقررن حذف الأولى من الرائين وقلبت حركتها إلى القاف .

[٦] الزافة والزلى : التربة والمنزلة .

والقدرة) في مخاطبة أكفر الكافرين ، وأعتى العتاة ، بأرأف من هذا القول فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما : « أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ بِسَبِّ الْمَوْتَى » . فنهى عن سب أبي جهل من أجل عِكرِمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك ، والجاذ في المحاربة ، والمتبعض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنبًا ! وقد كَانَ يُغْنِيكُمْ عن هذا القول الذى سمِيت فيه طلحة وأبي أن تقولوا : « أَتَبْرَأُ مِنَ الظَّالِمِينَ ؟ » فَإِنْ كَانَا مِنْهُمْ دَخَلَا فِي غُمار^(١) المسلمين ، وإن لم يكونا منهم لم تُخَفِطُونِي^(٢) بسب أبي وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله جلَّ وعزَّ قال للمؤمن فى أبويه : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ، وقال جلَّ ثناؤه : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » وهذا الذى دعوتم إليه أمرٌ له ما بعده ، وليس يُقْنِعْكُمْ إِلَّا التَّوْقِيفُ والتصریح^(٣) ، ولعمري إن ذلك لأخرى بقطع الحجج ، وأوضح لمنهاج الحق ، وأولى أن يعرف كل صاحبته من عدوه ، فرُوحوا^(٤) إلى من عَشِيتكم هذه ، أكشِفْ لَكُمْ مَا أَنَا عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فلما كان العشيُّ راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نَجْدَةٌ^(٥) . قال : هذا خروج منابذ^(٦) لكم ، فجلس على رفيع من الأرض ، فحمد

[١] بالضم ويُنْتَجِجُ جماعتهم . [٢] تَفْضِيضُونِي . [٣] تبين الأمر . [٤] الرواح العشى ، وراح إلى القوم : ذهب إليهم رواحا . [٥] هو نَجْدَةُ بن عامر الحننى من كبار زعمائهم . [٦] نابذ : كاشفه بالمداوة .

الله، وأثنى عليه، وصلى نبيه، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر، ثم ذكر عثمان في السنين الأوائل من خلافته، ثم وصلهن بالسنين التي أنكروا سيرته فيها، فجعلها كالماضية، وخبر أنه آوى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر الحمى وما كان فيه من الصلاح، وأن القوم استعتبوه من أمور، وكان له أن يفعلها أولاً مُصيباً، ثم أعتبهم بعد ذلك محسناً، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه، بعد أن ضمن لهم العتيبي^(١)، ثم كُتِبَ لهم ذلك الكتاب بقتلهم، فدفعوا الكتاب إليه، حلف بالله أنه لم يكتبه، ولم يأمر به، وقد أمر الله عزَّ وجلَّ بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله، ومكانه من الإمامة، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه^(٢)، وعثمان الرجل الذي لزمته يمين، لو حلف عليها لحلف على حق، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليترض». فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه، وأنا وليُّ وليِّه، وعدوُّ عدوِّه، وأبي وصاحبه صاحب رسول الله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله عزَّ وجلَّ يوم أُحُد، لما قُطِعَتْ إصْبَعُ طَلْحَةَ: «سَبَقَتْهُ إِلَى الْجَنَّةِ»، وقال: «أَوْجَبَ طَلْحَةَ^(٣)»، وكان الصديق إذا ذكر يوم أُحُد قال: «ذاك يومٌ كله أَوْجُلُهُ لَطَلْحَةَ». والزبير حواريّ

[١] العتيبي: الرضا.

[٢] وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية اخار عثمان بن عفان رسولا من قبله إلى قريش، يعلمهم بمقصده، وأنه أنى مكة معتمراً، فقالوا: إن محمداً: لا يدخلها علينا غزوة أبداً، ثم لأنهم حبسوه. فشاع عند المسلمين أنه قتل. فقال عليه الصلاة والسلام حينما سمع بذلك: لا أبرح حتى يهاجموا الحارب. ودعا المسلمين إلى البيعة على التال فبايعوه هناك تحت شجرة سميت بعد شجرة الرضوان.

[٣] الموجهة من الحسنات التي توجب الجنة. وأوجب: أنى بها.

رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته ، وقد ذكر أنهما في الجنة ، وقال جل وعز : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » . وما أخبرنا بعد أنه سَخِطَ عليهم ، فإن يكن ما سَعَوْا فيه حقاً ، فأهل ذلك هُم ، وإن يكن زلةً ففى عفو الله تحصيلُها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ومهما ذكرتموها فقد بدأتم بأمر عائشة رضى الله عنها ، فإن أبى أن تكون له أمّاً نبذ اسم الإيمان عنه ، وقد قال الله جل ذكره ، وقوله الحق : « النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم انصرفوا عنه . (الكامل للبرد ٢ : ١٧٣ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٢ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٥٥)

١٤٣ — أبو صخر الهذلى وعبد الله بن الزبير

وروى أبو الفرج الأصبهاني قال :

لما ظهر ابن الزبير بالحجاز ، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية ، وتشاغل بنو أمية بالحرب بينهم ، فى مَرَجٍ راهط وغيره ، دخل عليه أبو صخر الهذلى ، فى هَذِيل ، وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم ، وكان عارفاً بهَوَاهِ فى بنى أمية ، فمنعه عطاءه ، فقال : عَلَامَ تَمْنَعُنِي حَقّاً ؟ وأنا امرؤ مُسْلِمٌ ما أحدثتُ فى الإسلام حَدَثًا ، ولا أخرجت من طاعةٍ يداً . قال : عليك بنى أمية ، فاطلب عندهم عَطَاءَكَ . قال :

« إِذْنِ أَجْدَمِ سِبَاطًا ^(١) أَكْفَهُمْ ، سَمِحةً أَنْفُسَهُمْ ، بُذْلَاءَ لَأَمْوَالِهِمْ ، وَهَائِينَ لِمُجْتَدِيهِمْ ^(٢) ، كَرِمةً أَعْرَاقَهُمْ ، شَرِيفةً أَصُولَهُمْ ، زَاكِيةً فُرُوعَهُمْ ،

[١] رجل سبط اليمين : سَخَى (وسبط كشس) .

[٢] المجتدى : طالب الجدوى وهى العطية .

قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم نَسَبَهُمْ وَسَبَّاهُمْ ، ليسوا إذا نُسِبُوا بِأَذْنَابٍ ولا وَشَائِظٍ ^(١) ولا أَتْبَاعٍ ، ولا هم في قريش كَفِقَعَةٍ ^(٢) القاع ، لهم السُّودَدُ في الجاهلية ، والمَلِكُ في الإسلام ، لا كمن لا يُعَدُّ في عِيَرِهَا ولا تَقِيرُهَا ^(٣) ، ولا حَكَمَ آبَاؤُهُ في تَقِيرِهَا ولا قَطْمِيرِهَا ^(٤) ، ليس من أَحْلَافِهَا ^(٥) الْمُطَيِّبِينَ ، ولا من سَادَتِهَا الْمُطْعِمِينَ ، ولا من جُودَائِهَا ^(٦) الوَهَّائِينَ ، ولا من هَاشِمِهَا الْمُتَخَبِينَ ، ولا عبد شَمْسِهَا الْمَسُودِينَ ، وكيف تقاتل الرءوس بالأَذْنَابِ ، وأين النَّصْلُ من الجَفْنِ ^(٧) ، والسَّنَانُ من الزَّجِّجِ ^(٨) ، والذُّنَابِيُّ ^(٩) من الْقُدَامَى ^(١٠) وكيف يُفْضَلُ الشَّحِيحُ على الجَوَادِ ، والسُّوْقَةُ على الْمَلِكِ ، والجامعُ بُخْلًا على الْمُطْعِمِ فضلاً ؟ .

فغضب ابن الزبير ، حتى ارتعدت فرائضه ^(١١) ، وعَرِقَ جبينه ، واهتز من قَرْنِهِ إلى قدمه ، وَأَمْتَقَعَ لَوْنَهُ ، ثم قال له : يَا بَنَ الْبَوَالَةِ عَلَى عَقَبِيهَا ، وَيَا جِلْفَ ^(١٢) ، يَا جَاهِلَ ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا الْحُرُمَاتُ الثَّلَاثُ : حُرْمَةُ الْإِسْلَامِ ، وَحُرْمَةُ الْحَرَمِ ، وَحُرْمَةُ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، لَأَخَذْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاكَ ، ثم أمر به إلى سجن « عَارِمِ »

[١] وشائظ جمع وشيطة ، يقال : هم وشيطة في قومهم أي حشوبهم ، وفي الأصل : « وسائظ » وهو تصحيف . [٢] الققع (بالفتح والكسر) البيضاء الرخوة من السكأة وجمعه ققعة كمسة ، والقاع : أرض سهلة مطمئنة ، قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ويصرب اللذ بالققع في الليل ، لأنه لا عتق على من احتماه ، أو لأنه بوطاً بالأرجل . [٣] أخذنا من المثل وهو « لا في العير ولا في الدفير » وأول من قاله أبو سريان بن حرب ، يصرب للرجل : يحط أمره ، ويصفر قدره . وقد تقدم شرحه . [٤] الدفير : الكتنة في ظهر النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة بين النواة والنمرة .

[٥] الأحلاف في قريش ست قبائل : عبد الدار ، وكنة ، وجمح ، وسهم ، ومخزوم ، وعدي ، لأنهم لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد الدار من الحجابة والسقاية ، وأبت عبد الدار ، عقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتعادلوا ، فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعها لأحلافهم وهم أسد ، وزهرة ، وتيم عند الكعبة ، ففدسوا أيديهم فيها وتعاقدوا ، وتعاهدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلفاً آخر مؤكداً فسموا الأحلاف ، وقوله المطيبين : لنفس أيديهم في الطيب .

[٦] جوداء جمع جواد : وهو السخي ، ويجمع أيضاً على أجواد وأجاود . [٧] محمد السيف .

[٨] الحديدية في أسفل الرمح . [٩] الذنب . [١٠] أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح .

[١١] جمع فريضة وهي اللحمة بين الجنب والسكتف . [١٢] الجلف : الرجل الجأى .

فجُبِسَ به مدة ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له من قریش خُثُولَةٌ في هذيل ، فأطلقه بعد سنة ، وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبداً .

فلما وليَ عبد الملك ، أمر له بما فاتَه من العطاء ، ومثله صِلَةٌ من ماله ، وكساه وحمله . (الاغاني ٢١ : ٩٤)

١٤٤ — خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قدِمَ وفد من العراق على عبد الله بن الزبير ، فأَتَوْهُ في المسجد الحرام ، في يوم الجمعة ، فسالموا عليه ، فسألهم عن مُصْعَبِ أخيه ، وعن سيرته فيهم ، فقالوا : أحسنُ الناس سيرةً ، وأقضاه بحق ، وأعدله في حكم ، فصلى عبد الله بالناس الجمعة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

قد جَرَّبُونِي ثم جَرَّبُونِي من غَلَوَتَيْنِ ومن المِثْنِ^(١)

حتى إذا شابوا وشيَّبُونِي خلَّوا عِنايَني ثم سيَّبُونِي^(٢)

أيها الناس : « إني قد سألت هذا الوفد من أهل العراق ، عن عاملهم مصعب ابن الزبير ، فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أحب ، ألا إن مصعباً أطبى^(٣) القلوب ، حتى ما تعدل به ، والأهواء حتى ما تحول عنه ، واستمال الألسن بثنائها ، والقلوب بنصحتها ، والنفوس بمحبتها ، فهو المحبوب في خاصته ، المحمود في عامته ، بما أطلق الله به لسانه من الخير ، وبسَطَ يده من البذل » . ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٢ ، والأمالى ١ : ٢٨٦)

١٤٥ — خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما قتل عبدُ الملك بن مروان مُصْعَبَ بن الزبير (سنة ٧١ هـ) ، وانتهى

[١] الفلوة : العاية : وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، ويقال هي قدر ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة .
[٢] تركوني . [٣] أطبى : استمال .

خبر مقتله إلى عبد الله بن الزبير ، أضرب عن ذكره أياما ، حتى تحدث به إماء مكة في الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس عليه مليا لا يتكلم ، والكأبة على وجهه ، وجبينه يترشح عرقا ، فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه : ماله لا يتكلم ، أترأه يهاب المنطق ؟ فوالله إنه لليبب الخطباء . قال : اعلمه يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب ، فيشتد ذلك عليه وغير مألوم ، ثم تكلم فقال .

« الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، ومُلك الدنيا والآخرة ، يُؤثقي الملك من يشاء ، وَيَنْزِع الملك ممن يشاء ، وَيُعِزُّ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء ، أما بعد : فإنه لم يُعِزَّ اللهُ مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ معه ، وإن كان معه الْأَنَامُ طُرَا (١) ، ولم يُذِلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ معه ، وإن كان مُقَرَّدًا ضَعِيفًا ، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق ، بلد العذر والشقاق ، فساءنا وسرنا ، أتانا أن مصعبا قتل رحمة الله عليه ومغفرته ، فأما الذي أحزننا من ذلك ، فإن لفراق الحميم لدعة ولوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يزعوي من بعد ذو الرأي والدين ، إلى جميل الصبر ، وكريم العزاء ، وأما الذي سرنا منه فإننا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله في ذلك الحيرة إن شاء الله تعالى .

أسلمه الطغام (٢) ، الضم الآذان ، أهل العراق ، إسلام النعم المخطمة (٣) ، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه ، فإن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه (٤) ،

[١] جميعا . [٢] الأوغاد . [٣] خطم البعير بالخطام : جعله على أنفه ، والخطام ككتاب : ما وضع في أنف البعير ليقناده به .

[٤] بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجمل ، انصرف إلى وادي السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز فقتله في الصلاة ، ويعني بعمة عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك ، وفي رواية « وابن عمه » ويعني به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الدار « انظر أسد الغابة

وكانوا الخيار الصالحين ، إنا والله لانموت حَتَفَ آناًفِنَا^(١) ، ولكن قَمَصَا^(٢) بالرماح ، وموتاً تحت ظِلَالِ السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتِلَ منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قطُّ ، ألا وإنما الدنيا عَارِيَّةٌ من الملك القَهَّار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يَبِيدُ ملكه ، فإن تُقْبِلَ الدنيا على لم آخذها أَخَذَ الأَشِرَ البَطِر^(٣) ، وإن تُدْبِرْ عني لم أَبكِ عليها بكاء الخَرِقِ المَهِين^(٤) . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » ثم نزل .

(الأغانى ١٧ : ١٦٦ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٢٠ — م ٤ ص ٤٩٢ ، والعقد الفريد ٢ : ص ١٥٠ و ٢٦٨ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ١٩٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٠ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٢٣)

١٤٦ — خطبة أخرى له

وقال الجاحظ : لما جاءه قتل أخيه مصعب ، قام خطيباً بعد خطبته الأولى ، فقال :

وأما أخوه فهو المنذر بن الزبير ، وذلك أن جيش يزيد بعد أن أوقع بأهل المدينة في وقعة الحرة كما قدمنا ، سار إلى مكة لفزو ابن الزبير ، فقال لأخيه المنذر : ما لهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيري وغيرك — وكان أخوه المنذر ممن شهد الحرة . ثم لحق به — مجرد إليهم أخاه في الناس ، فقاتلهم ساعة قتالاً شديداً ، ثم إن رجلاً من أهل الشام دعا للمنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خرواً صاحبه لها ميتاً . وكان مقتله سنة ٦٤ هـ — تاريخ الطبرى ٧ : ١٤ — .

[١] الحنف : الموت ، ويقال مات حنف أنفه : أى على فراشه من غير قتل ، ولا ضرب ، ولا غرق ، ولا حرق ، وخمس الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بقتل نفسه ، أو لأنهم كانوا يتخيلون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، والجريح من جراحته . [٢] القمص : الموت الوحى (أى السريع كفى) ومات مصعب : أصابته ضربة ، أو رمية ، فمات مكانه ، وفى الكامل ، وعيون الأخبار : « إنا والله ما نموت حباً » وزاد الكامل « كيتة آل أبي العاص » والحجج بحركة : انتفاخ بطن البعير من أكل لحاء المرفج (كجعفر) ، وربما قتله ذلك ، يعرض ببني مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم فى ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالتخمة . [٣] الأشر : البطر . [٤] من الحرق بحركة وهو الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يهت فأتاحا عينيه ينظر ، والمهين : الحقير ، ويروى : « بكاء الحرف المهتر » والحرف : من فسد عقله من الكبر ، والمهتر : من ذهب عقله من كبر ، أو مرض ، أو حزن ، من المهتر بالضم ، وقد أهتر فهو مهتر (بضم الميم وفتح التاء) : شاذ .

« إن مصعباً قدّم أئزّه ، وأخر خيرّه ، وتشاغل بنكاح فلانة وفلانة ^(١) ، وترك حلبة ^(٢) أهل الشام ، حتى غشيتّه في داره ، ولئن هلك مُصْعَبُ إن في آل الزبير خلفاً منه » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٧ — خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق ، قام خطيباً فقال :

« إن أبا ذبّان ^(٣) ، قَتَلَ لَطِيمَ الشَّيْطَانِ ^(٤) ، كَذَلِكَ نُؤَلَّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٨ — عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر ، في اليوم الذي قتل فيه ، وقد رأى من الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال :

يا أمّه : خَذَلَنِي النَّاسُ حَتَّى وَلَدِي ^(٥) وَأَهْلِي ، فَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ إِلَّا الْيَسِيرُ مِمَّنْ لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الدَّفْعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرِ سَاعَةٍ ، وَالْقَوْمُ يُعْطَوْنَنِي مَا أُرِدْتُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَمَا رَأَيْكَ ؟ فَقَالَتْ : أَنْتَ وَاللَّهِ يَا بَنِي أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ

[١] كان تحته عقيلتا قريش عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين .

[٢] الحلبة : خيل تجتمع للسباق من كل أوب للنصرة . [٣] الذبّان : الذباب ، والعرب تكتنو الأبحر « أبا ذباب » وبعضهم يكتبه « أبا ذبان » وقد علب ذلك على عبد الملك بن مروان ، لفساد كان في فيه ، وقيل لأن لثته كانت تدمى فيقع عليها الذباب . [٤] هو عمرو بن سعيد الأشدق ، سمي بذلك لميل كان في فيه ، فقيل له من أجله : « لطيم الشيطان » قال اوزير الكاتب ابن عبدون في مرثيته المشهورة لدولة بني الأمطس بالأندلس التي مظهرها :

« الدهر ينجع بعد المين بالأثر فابكاء على الأشباح والصور »

ولم تدع لأبي الذبّان فاضيه ليس الاطيم لها عمرو بمتصر

[٥] وكان قد خرج إلى الحجاج ابنه حمزة وخبيب فأخذاه منه لأنفسهما أمانا .

على حق وإليه تدعو ، فامضِ له ، فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تمكّن من رقبتك يتلمّب بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت من قُتل معك ، وإن قلتَ كنتُ على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفتُ ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟ القتلُ أحسن ، والله لَضَرْبَةٌ بالسيف في عزٍّ ، أحبُّ إلىَّ من ضربة بسوطٍ في ذلٍّ ، قال : إني أخاف إن قتلوني أن يُعْثَلُوا بي ، قالت : يا بني إن الشاة لا يضرها سنخها بعد ذبحها .

فدنا منها وقبل رأسها ، وقال : هذا والله رأيي ، والذي قتت به داعياً إلى يومى هذا ، ما ركنتُ إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضبُ لله أن تُستحل حُرْمَةُ ، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتني بصيرةً مع بصيرتي ، فانظري يا أمه ، فإنني مقتول من يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان مُنْكَرٍ ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يَغْدِر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به ، بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثراً عندي من رضا ربى ، اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً مني لنفسى - أنت أعلم بى - ولكن أقوله تعزيةً لأمى لتسلو عني ، فقالت أمه : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتي ، وإن تقدمتك في نفسى حرجٌ حتى أنظر إلأم يصير أمرك . قال : يا أمه جزاك الله خيراً ! فلا تدعى الدعاء لى قبلُ وبعْدُ ، فقالت : لا أدعه أبداً ، فن قُتل على باطل فقد قُلت على حق ، ثم قالت : « اللهم ارحمه طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة

ومكة ، وبرّه بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ،
فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين . ثم ودّعها وخرج .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٢ ، والفجرى ١١١ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٧١ ، وبلاغات النساء من ١٣٠)

١٤٩ — خطبته يوم قتله

وخرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إن الموت قد تَفَشَّأَ كم سحابه ، وأحْدَقَ بكم رَبَّاهُ ^(١) ، واجتمع
بعد تفرُّق ، وارجحن بعد تَمَشُّق ^(٢) ، ورجس ^(٣) نحوكم رَغْدُهُ ، وهو مُفْرِغ
عليكم وَدَقَهُ ^(٤) ، وقائد إليكم البلايا ، تتبعها المنايا ، فاجعلوا السيوف لها غَرَضًا ،
واستعينوا عليها بالصبر . وتمثل بأبيات ، ثم اقتحم يقاتل وهو يقول :

قد جَدَّ أصحابك ضربَ الأعناقِ وقامت الحربُ لها على ساقٍ ^(٥)

(المقد الفريد ٢ : ٢٧١)

١٥٠ — خطبة أخرى

وروى الطبرى قال :

« لما كَانَ يوم الثلاثاء صَبِيحَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ
وقد أخذ الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، صلى بأصحابه الفجر ، ثم قام فحمد الله
وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا آل الزبير : لو طَبَّتم لى نفساً عن أنفسكم ، كنَّا أهل بيتٍ من العرب
اصْطَلَمْنَا ^(٦) فى الله ، لم تُصَبِّنا زَبَاءَ بَيْتَةٍ ^(٧) ، أما بعد يا آل الزبير : فلا يَرْغُبْكم

[١] الرقاب : السحاب الأبيض . [٢] ارجحن : مال من ثقله واهتز ، وتمشق ثوبه : تمزق .

[٣] رجست السماء : رعدت شديدا وتمحضت . [٤] الودق : المطر .

[٥] هو من مشطور السريع الوقوف . [٦] أى استؤصلنا . [٧] الزباء من الدواهي :

الشديدة ، ويقال لا أفعله ألبتة ، وبتة لكل أمر لا رجعة فيه .

وقع السيوف ، فإني لم أحضر موطنًا قط إلا أرتُثِتُ^(١) فيه من القتل ، وما أجد من دواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقمها ، صُونُوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، لا أعلم امرأ كسر سيفه ، واستبقى نفسه ، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل ، غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ عن البارقة^(٢) ، وَلْيَشْغَلْ كُلُّ امْرِئٍ قِرْنَهُ ، ولا يُلْهِينَكُمْ السَّوَالُ عَنِي ، ولا تقولنَّ : أين عبد الله بن الزبير ، إلا من كان سائلاً عني فإني في الرِّعِيلِ^(٣) الأول :

أَبَى لَابِن سَأْمَى أَنَّهُ غَيْرُ خَالِدٍ مُلَاقِي الْمَنَآيَا أَيُّ صَرْفٍ تَيَمَّمَا
فَلَسْتُ بِمَبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَّةٍ وَلَا مُرْتَقٍ مِّنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سُلَامَا

احملوا على بركة الله . ثم قاتل حتى أُنْخِنَ بِالْجِرَاحَاتِ وَقُتِلَ . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٤)

١٥١ — خطبة مصعب بن الزبير

بعث عبد الله بن الزبير أخاه مُصْعَبًا وَآلِيًا عَلَى الْبَصْرَةِ سَنَةَ ٦٧ هـ ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طَسِيم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » وأشار بيده نحو الشام « وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » وأشار بيده نحو الحجاز « وَنُمْكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » وأشار بيده نحو العراق .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٤٦)

[١] ارتث (مبني المجهول) حمل من المعركة رثيثاً أي جريحاً وبه رفق .

[٢] البارقة : السيوف . [٣] الرعيل : القطعة من الخيل القليلة ، أو مقدمتها .

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية (توفي سنة ٦٠ هـ)

١٥٢ - خطبته بالمدينة عام الجماعة

قدم معاوية المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلقاه رجال قريش ، فقالوا : الحمد لله الذي أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فارد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنني والله ما وليتها بحجة علمتها منكم ، ولا مسرة بولائي ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدةً ، ولقد رُضت ^(١) لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سُنَيَّات ^(٢) عثمان ، فأبت عليّ ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فإنني خير لكم ولايةً ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائلُ بلسانه ،

[١] من راض المهر إذا ذلّه . [٢] سنية مصغر سنة ، والمراد حكم عثمان .

فقد جعلت ذلك له دَبْرٌ^(١) أذنى ، وتحت قدمي ، وإن لم تجدونني أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا مني بعضه ، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُثْرى ، وإذا قل أغنى ، وإياكم والفتنة ، فإنها تُفْسِدُ المعيشة ، وتكدر النعمة . ثم نزل .
(المقد الفريد ٢ : ١٣٩)

١٥٣ — خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم ، وإنما قدمنا على صديق مستبشر ، أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون ، فإن أعطوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطُوا منها إذا هم يَسْتَخْطُونَ ، ولست واسعاً كل الناس ، فإن كانت نَحْمَدُهُ ، فلا بد من مَدَمَّة ، فلو ما هَوْنًا إذا ذكر غفر ، وإياكم والتي إن أخفيت أُوْبِقت ، وإن ذُكِرَتْ أُوْثِقت » . ثم نزل .
(المقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٤ — خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« يَـأْهُلَ المَدِينَةِ ، إني لست أحب أن تكونوا خَلَقًا كَخَلَقِ العِرَاقِ ، يَعْيِبُونَ الشَّيْءَ وَهُمْ فِيهِ ، كل امرئ منهم شِيعَةٌ نَفْسُهُ ، فاقْبَلُونَا بِمَا فِيْنَا ، فَإِنْ مَا وَرَاءَنَا شَرٌّ لَكُمْ ، وإن معروف زماننا هذا مُنْكَرٌ زَمَانٌ قَدْ مَضَى ، ومنكر زماننا معروف زمانٍ لم يَأْت ، ولو قد أَتَى فَالَرَّتْ خَيْرٌ مِنَ الْفَتْقِ ، وفي كلِّ بَلَاغٍ ، ولا مَقَامَ عَلَى الرِّزْيَةِ » .
(المقد الفريد ٢ : ١٤٠)

[١] حمل كلامك دبر أذنه : لم يصنع إليه ، ولم يرجع عليه .

١٥٥ — خطبته حين ولى المغيرة بن شعبة الكوفة

ولما ولى معاوية المغيرة بن شعبة الكوفة في جمادى سنة ٤١ هـ دعاه ،
فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

«أما بعد : فإن لى الحلم قبل اليوم ما تُقرعُ العصا^(١) ، وقد قال المتلمس :

لدى الحلم قبل اليوم ما تُقرعُ العصا وما عَلمَ الإنسانُ إلا لِيَعْلَمَا

وقد يُجْزَى^(٢) عنك الحكيمُ بغير التعليم ، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة ،

فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يُرضيني ، ويُستعِدُّ سلطانى ، وتصلحُ به رعتى ،

ولست تاركاً إيصاءك بخصلة : لا تتَحَمَّ^(٣) عن شتمِ على وذمه ، والترحُّمِ على

عثمان ، والاستغفار له ، والعيبِ على أصحابِ على ، والإقضاء لهم ، وترك الاستماع

منهم ، وإطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه ، والإدناء لهم ، والاستماع منهم .

فقال المغيرة : « قد جَرَّبْتُ وجُرِّبْتُ ، وعَمِلْتُ قبلك لغيرك ، فلم يُذَمِّمْ

بى دَفْعٌ ، ولا رَفْعٌ ، ولا وَضْعٌ ، فسَتَبَلَّوْا^(٤) فتحمَّد ، أو تَذَمَّ . قال : « بل

نحمد إن شاء الله » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٤١)

١٥٦ — خطبة له في يوم صائف

وخطب الجمعة في يوم صائفٍ شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على

[١] من أمثال العرب المشهورة : « إن العصا قرعت لدى الحلم » وهو مثل يضرب لمن إذا نه انقبه ،
وأول من قرعت له العصا عاصم بن الطرب العدوانى ، وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن مخاشن ،
وقيل عمرو بن حمة الدوسى ، وقيل عمرو بن مالك . ذكروا أن عاصم بن الطرب كان أحد حكام العرب
المشهورين ، لا تمحل بفهمه فهما ، ولا يحكمه حكماً ، فلما طعن في السن أنكر من عقله شيئاً ، فقال لبيته :
إنه قد كبرت سنى ، وعرض لى سهو ، فإذا رأيتمولى خرجت من كلامى ، وأخذت فى غيره ، فافترعوا لى
المجن بالعصا ، وقال المتلمس يريد : لدى الحلم قبل اليوم ما تُقرعُ العصا البيت .

[٢] يجزى مـهل عن يجزى أى يفتى ، يقال : أجزأت عنك مجزاً فلان : أى أغثت ذلك مقناه .

[٣] احتنى وتحنى : امتنع . [٤] أى تخبر .

رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عز وجل خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهملكم ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . قوموا إلى صلاتكم . (العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٧ — آخر خطبة له

صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته ، وقال :
« أيها الناس : إني من زرع قد استحصد ^(١) ، وقد طالت عليكم إمرتي ، حتى مللتكم ومللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيت فراقى ، وإنه لا يأتاكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيراً منى ، وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إني قد أحببت لقاءك ، فأحبب لقاءى » . ثم نزل ، فها صعد المنبر حتى مات ^(٢) . (الأمالي ٢ : ٣١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦)

١٥٨ — خطبته وقد حضرته الوفاة

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قریش يتباشرون بموتك ، فقال : ويحك ! ولم ؟ قال : لا أدري . قال فوالله ما لهم بعدى إلا الذى يسوءهم ، وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وأوجز ، ثم قال :
« أيها الناس : إنا قد أصبحنا فى دهر عنود ^(٣) ، وزمن شديد ^(٤) ، يُعَدّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عُتُوًّا ، لا ننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة ^(٥) حتى تحمل بنا ، فالناس على أربعة أصناف : منهم من

[١] استحصد الزرع وأحصد : حان أن يحصد . [٢] سيرد عليك بقية خطبه بعد فى موضعها .

[٣] جائر . من عند من الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : إذا مال . . [٤] وفى نهج البلاغة : وزمن كنود وهو الكفور . [٥] الداهية التى قرع أى تصيب .

لا يمنعه من الفساد في الأرض إلامانة نفسه، وكلال حده، ونضيض وفره،^(١)
ومنهم المصلت^(٢) لسيفه، المجلب بخيله ورجله، المعلن بشره، قد أشرط^(٣)
نفسه، وأوبق دينه، لحطام ينتهزه، أو مقنب^(٤) يقوده، أو منبر يفرعه^(٥)،
ولبتس المتجرأن تراهما لنفسك ثمنًا، ومما لك عند الله عوضًا، ومنهم من يطلب
الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه،
وقارب من خطؤه، وثمر من ثوبه، وزخرف نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله
ذريعة للمعصية، ومنهم من قد أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه، وانقطاع
سببه، فقصرت به الحال عن أمله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس الزهاد،
وليس من ذلك في مراح ولا مغدئ، وبقي رجال غصّ أبصارهم ذكر المرجع،
وأراق دموعهم خوف المخشّر، فهم بين شريد نافر، وخائف منقيع^(٦)،
وساكت مكعوم^(٧)، وداع مخلص، وموجع تكلان، قد أخلتهم التقيّة^(٨)،
وشملتهم الذلّة، فهم بحراجاج^(٩)، أفواههم ضامزة^(١٠)، وقلوبهم قرحة، قد
وعظوا حتى ملّوا، وقهروا حتى ذلّوا، وقتلوا حتى قلّوا، فلتكن الدنيا في أعينكم
أصغر من حثالة القرظ^(١١) وقراضة الجلمين، واتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن

[١] أى قلة ماله . [٢] أصلت السيف : سله . [٣] هيأها وأعدّها (من الشرط (محرّكة)
وهو العلامة) أى هيأها للفساد في الأرض . وأوبقته : أهلكه . والحطام : المال . وأصله ما تكسر من اليبس .
[٤] القنب من الخيل : بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلثمائة . [٥] يعلوه .
[٦] مقهور . [٧] من كهم البعير كنهم : شدّ فاه لثلا بعض أو يأكل . وفي البيان والتبيين
مكعوم من عكم الماع يكمه شدّه بثوب . [٨] التقيّة : الداراة . [٩] الأجاج : الملح .
[١٠] ساكنة من حذر كنصر وضرب : سكت ولم يتكلم . والبعير أمسك جرتة في فيه ولم يجتث .
[١١] القرظ : ورق السلم أو ثمر السنط يدبغ به ، والجلم : مقراض يجزبه الصوف . والقراضة :
ما يسقط منه عند الجز .

قال الجاحظ : « وفي هذه الخطبة أبتاك الله ضروب من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب

مظ بكم من بعدكم، فرفضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشنف بها منكم .
البيان والتبيين ٢ : ٢٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤١ ، ونهج البلاغة ١ : ٤٠ ، وإيجاز القرآن ١٢٣

١٥٩ - وصيته لابنه يزيد

لما حضرت معاوية الوفاة ، ويزيدُ غائبٌ ، دعا معاوية مُسْلِمَ بن عُقْبَةَ
المرِّي ، والضَّحَّاكَ بن قيس الفِهْرِي ، فقال : أبلغا عني يزيد وقولا له :
« يا بني ، إني قد كفيتك الشَّدَّ والرزَّحَال ، ووطأت لك الأمور ، وذللَّت لك الأعداء ،
وأخضعت لك رِقَابَ العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحدٌ ، فانظر أهل الحجاز ،
فإنهم أصلك وَعِترَتُك ^(١) ، فنأتاك منهم فأكرِّمهُ ، ومن قعد عنك فتعهِّدْهُ ، وانظر
أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فإنَّ عزَلَ عاملٍ ،
أهونُ عليك من سلِّ مائة ألف سيف ، ثم لا تدري علامَ أنت عليه منهم ؟ ثم
انظر أهل الشام ، فاجعلهم الشَّعار ^(٢) دون الدُّنَّار ، فإن رَأَبَكَ من عدوك رَيْنَبٌ ،
فارْمِهِمْ ^(٣) بِهِمْ ، فإن أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يُقيموا
في غير بلادهم ، فيتأدبوا بغير أدبهم .

وإني لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش :
الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .

الذي من أجله دُعا معاوية . ومنها أن هذا المذهب - في تصنيف الناس ، وفي الأخبار عنهم ، وعمام عليه
من الفهر والادِّلال ، ومن النقية والخوف - أشبه بكلام علي وبعثانيه ، وبخاله منه بحال معاوية . ومنها أنا لم
نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه سلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ، وإنما نكتب
لحكم ونخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم .
ونسبها الفريد الرضي إلى الإمام علي ، وقال في من كلامه الذي لا يشك فيه .

[١] عترة الرجل : عشيرته الأديون . [٢] الشعار : الثوب يلبس على شعر الجسد ، والدُّنَّار :
الذي يلبس فوق الشعار . [٣] الصمير تهو ، وهو للواحد والجمع ، والذكر والأنثى ، وقد يعني
ويجمع ويؤنث .

فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقَّده^(١) الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيرُه بايعك ؛
وأما الحسين بن عليّ ، فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكهُ الله بمن قَتَلَ أباه ،
وخَذَلَ أخاه ، ولا أَظُنُّ أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه ، فإن خرج وظفرت
به ، فاصفح عنه ، فإن له رَحِمًا^(٢) ماسَّة ، وحقًا عظيمًا ، وقرابة من محمد صلوات الله
عليه وسلامه ؛ وأما ابن أبي بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم ،
ليست له همّةٌ إلا في النساء واللَّهو ؛ وأما ابن الزبير ، فإنه خَبَّ ضَبَّ^(٣) ، فإن
ظفرت به فقطعهُ إِرْبًا إِرْبًا^(٤) . « أوقال » : وأما الذي يَجِثُمُ لك جُثُومُ
الأسد ، ويراوذك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته فُرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ،
فإن هو وثب عليك ، فظفرت به فقطعهُ إِرْبًا إِرْبًا ، واحقن دماء قومك
ما استطعت .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٦ وتاريخ الطبري ١٧٩ : ٦ ، العقد الفريد ٢ : ١٤١ - ٢٤٩ ، البخري ص ١٠٢)

خطب يزيد بن معاوية (توفي سنة ٦٤ هـ)

١٦٠ — خطبته بعد موت معاوية

« الحمد لله الذي ما شاء صنع : من شاء أعطى ، ومن شاء منع ، ومن شاء
خَفَضَ ، ومن شاء رفع . إن أمير المؤمنين كَانَ حَبَلًا من حبال الله ، مدَّه ما شاء
أن يمدَّه ، ثم قطعهُ حين أراد أن يقطعه ، وكان دون مَنْ قَبْلَهُ ، وخيرًا ممن يَأْتِي
بعده ، ولا أَرْكَيه عند ربه وقد صار إليه ، فإن يعفُ فبرحمته ، وإن يعاقبه فبذنبه ،
وقد وَايَت بعده الأمر ، ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل^(٥) بطلب علم ،

[١] وقَّده : صرعه وغلبه ، وتركه عيلاً كأوقده . [٢] قرابة .

[٣] الخار تفسيرها في صفحة ١٣٩ . [٤] أى تضوا عسوا .

[٥] في العقد الفريد : ولا آسى على طلب علم ، ولا أى عن طلب علم .

وعلى رِسْلِكُمْ ، إذا كره الله شيئاً غيرَه ، وإذا أحب شيئاً يَسْرَه .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، عيون الأخبار ٢ : ص ٢٣٨)

١٦١ - خطبة أخرى له

« الحمد لله أحمدَه وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضللَّ فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله اصطفاه لوحيه ، واختاره لرسالته ، بكتاب فضله وأعزه وأكرمه ، ونصره وحفظه ، ضرب فيه الأمثال ، وحلل فيه الحلال ، وحرَّم فيه الحرام ، وشرع فيه الدين إعداراً وإنذاراً ، لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل ، ويكون بلاغاً لقوم عابدين ^(١) . أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الأمور بعلمه ، وإليه يصير معادها ، واقطاع مدتها ، وتصرُّم دارها ، ثم إني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة ^(٢) ، حُفَّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأينمت بالفاني ، وتحببت بالماجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجيعتها ، أكالة غوالة غرارة ، لا تبقى على حال ، ولا يبقى لها حال . ان تعدوا الدنيا إذا تناهت إلى أمنيَّة أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عزَّ وجلَّ : « وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزيع يومئذ آمنين ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ

وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ^(١) ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » . (القصد الفريد ٢ : ١٤٢)

١٦٢ — خطبة معاوية بن يزيد ^(٢) (توفي سنة ٦٤)

أمر معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ولايته ، فنودي بالشأم : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فرع إليه أبو بكر ، فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختروا له من أحببتم ، فما كنت لأتزوّدّها ميتاً ، وما استمتعت بها حياً » .

ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيّب حتى مات ^(٣) .

(تاريخ الطبري ٧ : ٣٤ ، والبخاري ص ١٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٧)

خطب عبد الملك بن مروان (توفي سنة ٨٦ هـ)

١٦٣ — خطبته بمكة

خطب بمكة فقال في خطبته :

« أيها الناس : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان)

[١] أي عنكم (مشقكم) . [٢] استخلف في شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، ولم يلبث في الخلافة إلا ثلاثة أشهر وقبل أربعين يوما . [٣] قيل دس إليه فسق سما ، وقال بعضهم طعن ، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوما وقيل ابن إحدى وعشرين سنة .

ولا بالخليفة المداين (يريد معاوية بن أبي سفيان) ولا بالخليفة المأفون^(١)
(يريد يزيد بن معاوية) فمن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا . ثم نزل^(٢) .
(المقد الفريد ٢ : ١٤٢ و ٢٦٣)

١٦٤ - خطبة له موجزة

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس إن الله حدّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فما زلتُم تزدادون في
الذنب ، وتزداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف » .
(المقد الفريد ٢ : ٢٦٣)

١٦٥ - خطبته حين قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص^(٣)

« ارمؤا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لمن غبر^(٤) منكم عظة ،
ولا تكونوا أغفالا من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة^(٥) السطّوات ، وتجوس

[١] المأفون : الضعيف الرأي والعقل . [٢] قال أبو إسحق الظاهر : « أما والله لولا ناسك من
هذا المستضعف وسبك من هذا المداين لكانت منها أبعاد من العروق (امتح العين وتشدد الباء نحم أحم
مضى يتلو التما) والله ما أخذتها بوراثه ، ولا ساقه ، ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بورية » .
[٣] وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، وانحاز السجاني بن قيس الفهري عن مروان بن
الحكم ، واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، انتفى مروان وعمر بن سعيد الأشدق (وهو عمرو بن سعيد
ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) فقال الأشدق لمروان : دلّك فيما
أقولك لك ؟ فهو خير لي ولك ، فقال مروان : وما هو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن
تكون لي من بعدك . فقال مروان : لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، مرض الأشدق بذلك ودعا الناس
إلى بيعه مروان فأجابوا ، وباع مروان بعده لخالد بن يزيد ، وأمر عمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه
ابنه عبد الملك ، ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير بنفسه . قال له عمرو :
إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدني هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك حاجدت معه ، وقد كان
من بلائي معه ما لم يخف عليك ، فأجعل لي هذا الأمر من بعدك ، فلم يحبه عبد الملك إلى شيء ، فلما كان
من دمشق على ثلاث مراحل أعلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، فرجع إلى دمشق وحاصرها حتى
صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده ففتح له ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتله سنة ٦٩ .
[٤] بقي ، وأغفال جمع غفل كقفل . [٥] الجوح والاجتياح : الإهلاك والاستئصال .

خلالكم بوادِرُ النُّقَمَاتِ ، وتطأُ رِقَابَكُمْ بِثِقَلِهَا العَتُوبَةُ ، فتجعلكم هَمْدًا ^(١) رُفَاتًا ،
وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتًا ، فإياي من قول قائل ، وَرَشَقَةٌ جاهل ،
فإعما بيني وبينكم أن أسمع النُّعْوَةَ ^(٢) ، فأصمِّمُ تصميم الحُسَامِ المطرور ^(٣) ،
وأصول صِيَالِ الحَنْقِ الموتور ^(٤) ، وإِنَّمَا هي المصاحفة والمكافخة ، بظُّبَاتِ
السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصَّبَاحِ ، فتأب تأب ، وهَدِلِ
خائب ^(٥) ، والتوب مقبول ، والإحسان مبدول ، لمن عرف رُشْدَهُ ، وأبصر حظه ،
فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، وليكن أهل الطاعة يدًا على أهل
الجهل من سفهائكم ، واستدعيوا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، ونفيس
زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخَفَضِ والدَّعَةِ ، وآجل الجزاء
والمثُوبَةِ ، عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونزغِهِ ^(٦) ، وأمدكم بحسن معونته
وحفظه ، انهضوا رحمكم الله إلى قبضِ أُعْطِيَاتِكُمْ ، غيرَ مقطوعةٍ عنكم ، ولا
مكدَّرةٍ عليكم . (صح الأعرى ١ : ٢١٨)

١٦٦ — خطبته لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير ^(٧)

لما قتل عبد الملك مُصْعَبُ بن الزبير سنة ٧١ هـ دخل الكوفة فصعد
المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

[١] الهامد : البالي من كل شيء ، والرفات : الحطام . [٢] النعوة والتقية : أول الخبر قبل أن
تستنبته . [٣] المشحوذ ، من الطرّ وهو تحديد السكين وغيرها . [٤] صاحب الوتر وهو الثَّار .
[٥] هداه يهدله كضربه : أرخاه ، وهدل المشفر كفرح : استرخى أي ضاف الخائب وخاره ، ولعله خائب
من الحوب يفتح الحاء وضما وهو الاثم . حاب بكذا أثم حوباً أي ضعف الأثيم المذنب .
[٦] نزغ بينهم : أسد وأعرى .

[٧] نسب الفلقشندي هذه الخطبة إلى معاوية وذكر أنه خطبها بصنمين (صح الأعرى ١ : ٢١٥)
وعزاها القالي في الأمالي إلى عبد الملك بن مروان وهو ما ترجمه لما يدل عليه سياق الخطبة .

« أيها الناس إن الحرب صعبة مُرَّة ، وإن السَّلم أَمْنٌ وَمَسَرَّة ، وقد زَبَنَّا^(١) الحرب وزَبَنَّاها ، فعرَفْناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمنا . أيها الناس فاستقيموا على سُبُل الهدى ، ودَعُوا الأهواء المُرْدية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تردادون بعد الموعظة إلا شراً ، ولن ترداد بعد الإِغذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبةً ، فمن شاء منكم أن يعود بعدُ لمثلها فليَعُدْ ، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رِفاعَةَ الأنصاري :

من يَصْلَ نارِي بلا ذنب ولا تِرَةٍ	يَصْلَ بنار كريمٍ غير غَدَارٍ ^(٢)
أنا النذير لكم مَنِي مجَاهِرَةٍ	كي لا أَلَامَ على نهي وإنذار
فإن عَصَيْتُمْ مَقَالِي اليوم فاعترفوا	أن سوف تلقون خِزْيًا ظاهر العار
لَتَرْجِعُنَّ أَحَادِيثًا مُلْعَنَةً	لَهُوَ المقيم وهو المَذْلُج السَّارِي ^(٣)
من كَانَ في نفسه حَوَجا يَطلبها	عندي فَإِنِّي له رَهْنٌ بِإِصْحَارٍ ^(٤)
أُقيم عَوَجَتَهُ إن كَانَ ذا عَوَج	كما يَقُومُ قِدَحَ النَّبْعَةِ البَارِي ^(٥)
وصاحب الوِثْرِ ليس الدهرَ مدرَكه	عندي ، وإِنِّي لدِرَاكٍ بِأَوْتَارِ

(الأمل ١ : ١٢)

[١] أي دَفَعْنَا ودَفَعْنَاهَا ، والزَّين : الدَفْع ، ومنه اشتقاق الزبانية (جمع زبنة أو زبى بكسر الزاي وسكون الباء) لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ومنه أيضا حرب زبون بفتح الزاي .
 [٢] الترة والوتر : الذَّار . [٣] أَدْلَج : سار من أول الليل فإن سار من آخره فقد ادْلَجَ بالتشديد والساري : الذي يسير بالليل . [٤] الحَوَجا : الحاجة . وقوله بإصْحار : أي لا أَسْتَرِعه ، ولا أَمْتِنُ في الأماكن الحصينة من أَصْحَرِ القوم : برزوا إلى الصحراء . [٥] العوج بالفتح في كل ما كان منتصبا مثل الإنسان والمصا والمود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين ، وقبل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، والقِدَح : السهم قبل أن يراش وينصل جمه فداح ، والنبعة واحدة النبع وهو شجر القسي والسهام .

١٦٧ — خطبته عام حجة

وحجج عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بذرة^(١) مكتوب عليها من الصدقة ، فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفء ، فقتل عبد الملك وهو على المنبر :

« يا معشر قريش ، مثَلنا ومثلكم أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين ، فنزلا في ظل شجرة تحت صفاة^(٢) ، فلما دنا الرّواح خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً ، فألقته إليهما ، فقالا : إن هذا لمن كنز ، فأقاما عليها ثلاثة أيام ، كل يوم تخرج إليهما ديناراً ، فقال أحدهما لصاحبه : إلى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ونحفِر هذا الكنز فنأخذه ، فنهاه أخوه ، وقال : ماتدرى لعلك تعطب ولا تدرك المال ، فأبى عليه ، وأخذ فأسأ ممة ، ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة ، جرحت رأسها ولم تقتلها ، فثارت الحية فقتلتها ، ورجعت إلى جحرها ، فقام أخوه ، فدفننه وأقام حتى إذا كان من الغد ، خرجت الحية معصوباً رأسها ، ليس معها شيء ، فقتل لها : ياهذه ، إني والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضرينى ولا أضرك ، وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت : إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبداً ، وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبداً ، وأنا أذكر هذه الشجّة^(٣) ، وأنشدهم شعر النابنة :

فَقَالَتْ أَرَى قَبْرًا تَرَاهُ مُقَابِلِي وَضَرْبَةً فَأَسُ فَوْقَ رَأْسِي فَاغْرِه

[١] البذرة : كيس فيه ألف أو عذرة آلاف درم أو سبعة آلاف دينار .

[٢] الصفاة : الحجر الصلب الضخم . [٣] راجع مجمع الأمثال للبدينى ٢ : ٦١ في اللث :

« كيف أعادرك وهذا أثر فاسك » .

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطاب ، فكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم ، فسميتم له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ، فعَدَّوتم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم « مسلماً » ^(١) يوم الحرَّة فقتلناكم ، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً ، وأنتم تذكرون يوم الحرَّة ، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر قتل عثمان .
(مروج الذهب ٢ : ١٢٩)

١٦٨ - خطبته وقد علم بخروج ابن الأشعث

ولما ورد إليه كتاب الحجاج ينبئُهُ بخروج ابن الأشعث ، خرج إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قدَّرى ، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام ، حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك ، لم يجاوزوا إلى سخطك » .
ثم نزل . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

١٦٩ وصيته لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميراً سيَّره إلى أرض الروم ، فقال :
« أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالضارب الكيس الذى إن وجد ربحاً اتَّجَرَ ، وإلاَّ تحفَّظ برأس المال ، ولا تطلب النسيئة حتى تُحرِّز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك ، أشدَّ حذراً من احتيالك على عدوك » .
(العقد الفريد ١ : ٤١)

[١] هو مسلم بن عقبة المرتضى صاحب وقعة الحرَّة ، وذلك أن أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد بن معاوية وغلَّموه وحصروا من كان بها من بنى أمية وأخافوهم ، فوجه إليها مسلم بن عقبة فحاصرها من جهة الحرَّة ، « موضع بظاهر المدينة » ودخلها ، ودعا الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء ، وقد أباح المدينة ثلاثاً : فقتل ، ونهب ، وسبي . قيل إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ، ويقول لعالمها امتصت في وقعة الحرَّة . « وكانت في ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ » .

١٧٠ — وصيته للشَّعْبِي

وروى المسعودي في مروج الذهب قال :

ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، تآقت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف في أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمناذمته غير الشَّعْبِيّ ، فلما حُمل إليه وناداه ، قال له :

« يا شَعْبِيّ ، لا تساعِدْني على ما قُبِح ، وَلَا تَرُدَّ عَلَيَّ الْخَطَأَ في مجلسي ، وَلَا تكلِّفني جوابَ التَّشْمِيتِ ^(١) والتهنئة ، وَلَا جوابَ السؤالِ والتعزية ، ودع عنك (كيف أصبح الأمير ، وكيف أمسى) . وكلني بقدر ما أَسْتَطِيعُكَ ، واجعل بدل المدح لي ، صوابَ الاستماع مني ، واعلم أَنَّ صوابَ الاستماع أَكْثَرُ من صواب القول ، وإذا سَمِعْتَنِي أَتَحَدَّثُ ، فلا يفوتَنَّكَ منه شيءٌ ، وأَرِني فهمك من طَرَفِكَ وسمِّعك ، ولا تُجْهِدْ نفسك في نَظَرٍ ^(٢) صوابي ، ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي ، فَإِنْ أَسْوأَ النَّاسَ حالا من استكدَّ الملوك بالباطل ، وإن أسوأَ النَّاسَ حالا منهم من استخفَّ بحقهم ، واعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، وَيُسْقِطُ حقَّ الحرمة ، فَإِنْ الصمت في موضعه ، ربما كَانَ أَبلغ من النطق في موضعه ، وعند أصابته وفرصته » . (مروج الذهب ٢ : ١٠٩)

١٧١ — وصيته لآخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاء مصر فقال :

« ابْسُطْ بِشْرِكَ ، وَإِنْ كُنْفَكَ ، وآثِرِ الرِّفْقَ في الأمور ، فَإِنَّه أَبلغ بك ،

[١] التَّشْمِيتُ : الدَّاءُ لِلْعَاطِسِ . [٢] في الأصل « في نظرية صوابي » وأراه محرفاً ، والنظر : الانتظار .

وانظر حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يَقِفَنَّ أحد
ببابك إلا أعلمك مكانه ، لتكون أنت الذى تأذن له أو تَرُدّه ، وإذا خرجت إلى
مجلسك فابدأ بالسلام ، يأنسوا بك ، وتثبت في قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك
مُشْكِل ، فاستظهر عليه بالمشاورة ، فإنها تفتح مغاليق ^(١) الأمور ، وإذا
سخطت على أحد فأخّر عقوبته ، فإنك على العتوبة بعد التوقف عنه ، أقدرُ منك
على رَدّها بعد إمضائها . (البخارى ١١٣)

١٧٢ — وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكى عليه عند رأسه ، فقال :
« يا هذا أحنين الحمامة ؟ إذا أنا ميتٌ فشمّر واتّرر ، والبسْ جلد نمر ، وضع
سيفك على عاتقك ، فن أبدي ذات نفسه لك ، فاضرب عنقه ، ومن سكت مات
بدائه ، ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : « إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك
لقليل ، وإن كنا منك لفي غرور » . ثم أقبل على جميع ولده فقال : « أوصيكم
بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ،
وهي أحسن كهف ، وليعطِف الكبير منكم على الصغير ، ويعرف الصغير حق
الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذِ بحمِل الأمور ، وإياكم والبنى والتحاسد ،
فبهما هلك الملوك الماضون ، وذوو العز المكين . يا بني : أخوكم مسئلة ناكم الذى
تَقْرءون ^(٢) عنه ، ومَجَنِّكم ^(٣) الذى تستجئون به ، اصدُرُوا عن رأيه ، وأكرموا

[١] جمع مغلاق بكسر الميم وهو ما يغلَق به الباب . [٢] فرّ الدابة : كشف عن أسنانها لينظر

ما سنها . [٣] المجن : الترس .

الحجاج ، فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر ، كونوا أولادا أبراراً ، وفى الحروب أحراراً ، ولله معروف مناراً ، وعليكم السلام . (مروج الذهب ٢ : ١٥٤)

١٧٣ ... خطبة للوليد بن عبد الملك بعد دفن أبيه (توفى سنة ٩٦ هـ) لما رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد ، ونادى

فى الناس : الصلاة جامعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس إنه لا مؤخر لما قدّم الله ، ولا مقدّم لما أخر الله ، وقد كان

من قضاء الله ، وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه ، وخملة عرشه من الموت

موتٌ ولى هذه الأمة ، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار ، للذى كان عليه

من الشدة على الأريب ، واللين على أهل الفضل والدين ، مع ما أقام من منار

الإسلام وأعلامه ، وحجّ هذا الببت ، وغزو هذه الثغور ، وشنّ الغارات على

أعداء الله ، فلم يكن فيها عاجزاً ، ولا وائياً ، ولا مفرطاً ، فعليكم أيها الناس

بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع الفذّ ، وهو من الجماعة أبعد ، واعلموا

أنه من أبدى لنا ذات نفسه ، ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه .

ثم نزل . (القند الفرد ٢ : ١٤٢ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ٥٩)

١٧٤ — خطبة لسليمان بن عبد الملك (توفى سنة ٩٩ هـ)

الحمد لله . ألا إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل ، تُضحك باكياً ، وتُبكي

صاحكاً ، وتُخيف آمناً ، وتؤمن خائفاً ، وتُفقر مثرى ، وتُثري مُقتراً ^(١) ، مَيْالَة

غَرَارَة ، لَعَابَة بأهلها . عباد الله ، فاتخذوا كتاب الله إماماً ، وارتضوا به حكماً ،

واجعلوه لكم قائداً ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم ينسخه كتاب بعده ، واعلموا

واجعلوه لكم قائداً ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم ينسخه كتاب بعده ، واعلموا

عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان ، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفّس ، ظلام الليل إذا عَسَسَ (١) .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٦)

خطب عمر بن عبد العزيز (توفي سنة ١٠١ هـ)

١٧٥ — أولى خطبه

قال المُتَّبِعِيّ : أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :
« أيها الناس ، أصلحوا سرائركم ، تصلح لكم علائيتكم ، وأصلحوا آخرتكم ،
تصلح دنياكم ، وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حى لمُعْرِق فى الموت » .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٧)

١٧٦ — خطبة أخرى

وروى المسعودى فى مروج الذهب ، أنه لما أفضى إليه الأمر ، كان أول
خطبة خطب الناس بها أن قال :
« أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد
أصله ؟ وإنما الناس فى هذه الدنيا أغراض (٢) تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نُصَب
المصائب ، مع كل جرعة شَرَق (٣) ، وفى كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة
إلا بفراق أخرى ، ولا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ منكم يوماً من عمره إلا يَهْدَمُ آخر من أجله » .
وأورد القالى فى الأمالى هذه الخطبة بصورة أطول ، وهى :
« ما الجزع مما لا بُدَّ منه ، وما الطمع فيما لا يُرْجَى ، وما الحيلة فيما سيزول ؟

[١] تنفّس المصح : أسفر ، وعسس الليل : أقبل ظلامه (أو أدبر) . [٢] جمع غرض وهو الهدف وانتضت : تناضت وتبارت فى الرمي . [٣] شرق بريقه : غص .

وإنما الشيء من أصله ، فقد مَضَتْ قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ إنما الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نَهَب للمصائب ، مع كل جرعة شَرَق ، وفي كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمّر مُعَمَّر يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، وأتم أعوان الختوف على أنفسكم ، فأين المَهْرَب مما هو كائن ؟ وإنما تنقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم ، مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر خيبة الخائب فيه ، والسلام .

(مروج الذهب ٢ : ١٦٨ ، والأمل ٢ : ١٠٢ ، وسيرة عمر بن العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

١٧٧ - خطبة أخرى

وروى أنه لما دَفَنَ سليمان بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سَمِعَ للأرض رَجَّةً ، قتال : ما هذه ؟ فتيل : هذه مَرَاكِبُ الخلافة يا أمير المؤمنين ، قُرِبَتْ إليك لتركبها ، قتال : مَالِي وَلَهَا ؟ نحوها عني ، قُرِبُوا إِلَيَّ بغلتي ، فقربت إليه فركبها ، وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنح عني ، مالي ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أيها الناس : إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأيٍ كان مني فيه ، ولا طَلِبَةٌ له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من يثعتي ، فاختاروا لأنفسكم . »

فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فلِ أَمْرَنَا باليُمن والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضي به الناس جميعاً ،

حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائرهم ، يصلاح الله الكريم علايتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات ، وإن من لا يذكر من آباءه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أباحياً لمعرق في الموت ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أ منع أحداً حقاً ، إني لست بخازن ، ولكني أضع حيث أمرت . أيها الناس : إنه قد كان قبلي ولاية تجترئون^(١) مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة للخلق في معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٥٣ - ٢٠١ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٧٨ - خطبة أخرى

وروى أنه لما ولي الخلافة صعد المنبر ، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله

وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمسة ، وإلا فلا يقر بنا : يرفع إلينا حاجة

من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير يجهد ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي

إليه ، ولا يفتان عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه .

فانقشع عنه الشعراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل ، حتى يخالف قوله فعله .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٦)

١٧٩ - خطبة أخرى

وصعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب ، فما أحلّ الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرّم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إني لست بقاضٍ ، ولكني منفذ لله ، ولست بمبتدع ، ولكني متبّع ، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاع في معصية الله عز وجل ، ألا إني لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً . يا أيها الناس : إن أفضل العبادة أداء الفرائض ، واجتناب المحارم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٥٦ ، وص ١٩٨ ، ولابن عبد الحكم ص ٢٨ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٦٨)

١٨٠ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، إنكم ميتون ، ثم إنكم مبعوثون ، ثم إنكم محاسبون ، فلمعمرى لئن كنتم صادقين لقد قصّرتُم ، وإن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يا أيها الناس ، إنه من يقدر له رزق برأس جبل ، أو بحضيض أرض يأتيه ، فأنجلوا في

الطلب . (إجاز القرآن ص ١٢٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٨١ — خطبة أخرى

وخطب فقال :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دارٌ كَتَبَ اللهُ عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الطَّعَنَ ، فكم عامِرٍ مُؤَثَّقٍ عما قليلٍ يَخْرُبُ ، وكم مُقِيمٍ مُغْتَبِطٍ عما قليلٍ يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرِّخْلَةَ ، بأحسنِ ما يحضركم من النُّقْلَةِ : وَتَرَوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . إنما الدنيا كَفْيٌ^(١) ظِلَالٌ قَلَصَ فذهب ، بينا ابنُ آدمَ في الدنيا منافِسٌ ، وبها قَرِيرُ عَيْنٍ ، إذ دعاه الله بقَدَرِهِ ، ورماه بيوم حَتْفِهِ ، فسلبه آثاره ودياره وديناه ، وصيرَ لقوم آخرين مَصَانِعَهُ وَمَغْنَاهُ^(٢) ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تَصُرُّ ، إنها تسر قليلا ، وتجرح حزنا طويلا .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٧ و ص ٢٢١)

١٨٢ — خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل ، ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَجَدْتُ هَذَا الْقَلْبَ لَا يَعْبُرُ عَنْهُ إِلَّا اللِّسَانُ ، وَلَعَمْرِي — وَإِنْ لِعَمْرِي مَنِ لِحَقًّا^(٣) — لَوَدِدْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ عَبْدٌ ابْتُئِلَ بِسَعَةِ ، إِلَّا نَظَرَ قَطِيعًا مِنْ مَالِهِ ، يَجْعَلُهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْيَتَامَى وَالْأَرَامِلَ ، بَدَأَتْ أَنَا بِنَفْسِي وَأَهْلِي بَيْتِي ، ثُمَّ كَانَ النَّاسُ بَعْدُ » .

[١] الوء : ما كان شمسا فيفسخه الظل ، وقلص الظل كضرب : اقبض . [٢] المصانع : المباني من القصور والحصون ، والمغنى : المنزل . [٣] العبر بالفتح والضم : الحياة ، والتزموا الفتوح في القسم خاصة تخفيفا ، لكثرة استعماله فيه .

ثم كَانَ آخر كلمة تكلم بها حين نزل : « لولا سُنَّةُ أَحْيَيْتُهَا ، أَوْ بَدَعَةُ أَمَثُهَا ،
لم أَبَالِ أَنْ لَا أَبْقَى فِي الدُّنْيَا إِلَّا فُؤَادًا ^(١) » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠١)

١٨٣ — خطبة له

وخطب فقال :

« أما بعد : أيها الناس ، فلا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَدُ ، وَلَا يَبْعُدَنَّ عَنْكُمُ يَوْمُ
الْقِيَامَةِ ، فَإِنْ مِنْ زَافَتٍ ^(٢) بِهِ مَنِيَّتُهُ ، فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ ، لَا يَسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئٍ ،
وَلَا يَزِيدُ فِي حَسَنٍ ، أَلَا لَا سَلَامَةَ لِمَرِيٍّ فِي خِلَافِ السُّنَّةِ ، وَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ
فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، أَلَا وَإِنْكُمْ تَعُدُّونَ الْمَهَارِبَ مِنْ ظُلْمِ إِمَامِهِ عَاصِيًا ، أَلَا وَإِنْ أَوْلَاهُمَا
بِالْمَعْصِيَةِ الْإِمَامُ الظَّالِمُ ، أَلَا وَإِنِّي أَعَالِجُ أَمْرًا لَا يُعِينُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ ، قَدْ فَنِي عَلَيْهِ
الْكَبِيرُ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ الصَّغِيرُ ، وَفُصِّحَ عَلَيْهِ الْأَعْجَمِيُّ ، وَهَاجَرَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ ، حَتَّى
حَسِبُوهُ دِينًا ، لَا يَرَوْنَ الْحَقَّ غَيْرَهُ » . ثم قال : « إِنَّهُ لَحَبِيبٌ إِلَى أَنْ أَوْفَرَ أَمْوَالَكُمْ
وَأَعْرَاضَكُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٠ ، ولابن الجوزي ص ٢٠٤)

١٨٤ — خطبة أخرى ✓

وصعد ذات يوم المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إِنَّمَا يُرَادُ الطَّيِّبُ لِلْوَجَعِ الشَّدِيدِ ، أَلَا فَلَا وَجَعَ أَشَدُّ مِنْ
الْجَهْلِ ، وَلَا دَاءٌ أَخْبَثُ مِنَ الذَّنُوبِ ، وَلَا خَوْفٌ أَخْوَفُ مِنَ الْمَوْتِ » . ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠٧)

[١] الفؤاد كغراب ويفتح : ما بين الحلبتين من أوقت أو ما بين يديك وقبضها على الفرع .

[٢] من زافت المأمة : إذا نمرت جناحيها وذنبها وسحبها على الأرض ، وفي رواية : « وافته »

١٨٥ - خطبة أخرى

وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ^(١) ، والله ما كان لهم أن يُعْطُونَاهَا ، وما كان لنا أن نَقْبَلَهَا ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه دون الله محاسبٌ ، إلا وإني قد رَدَدْتُهَا ، وبدأت بنفسي وأهل بيتي » اقرأ يا مُزَاحِم - وكان مولاه -

وقد جيء قبل ذلك بسَفَط فيه تلك الكتب ، فقرأ مزاحم كتاباً منها ، ثم ناوله عمر ، وهو قاعد على المنبر وفي يده جَلَمٌ ^(٢) ، فجعل يَقْصُّه ، واستأنف مزاحم كتاباً آخر فقرأه ، ثم دفعه إلى عمر فقصه ، فما زال حتى نُودِيَ بصلاة الظهر .
(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٠٨)

١٨٦ - خطبة له

وكان يخطب فيقول :

« أيها الناس : من أَلَمَّ بذنب فليَسْتَغْفِرِ اللهَ عزَّ وجلَّ وليَتُبْ ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هي خطايا مطوّقة في أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرارُ عليها » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٨٧ - خطبة له

وخطب الناس بعد أن جمعهم فقال :

« إني لم أجمعكم لأمرٍ أحدثته ، ولكنني نظرت في أمر معادكم ، وما أنتم إليه صائرون ، فوجدت المصدق به أحق ^(٣) ، والمكذب به هالكاً » . ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ٣٩)

[١] يريد آباءه وما ورثوه إياه . [٢] مقص . [٣] أي أحق بثواب الله وفعيم جنته .

١٨٨ - خطبة له

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تستصغروا الذنوب ، والتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتوبة منها ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ كَرِهَ ، وقال عز وجل : « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .
(المقدس الفريد ٢ : ٢٧٩)

١٨٩ - خطبة له

وخطب فقال :

« إن لكل سفر زاداً لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فرغبوا ورهبوا ، ولا يطولنَّ عليكم الأمد ، فتقشروا قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدرى لعله لا يصبح بعد إمساؤه ، ولا يمسي بعد إصباحه ، وربما كانت بين ذلك خطافات المنايا ، فكم رأينا ورأيتم مَنْ كَانَ بالدنيا مغترّاً ، فأصبح في حبائل خطوبها ومناياها أسيراً ، وإنما تقرر عين^(١) من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح مَنْ آمِنَ من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يبرأ من كَلَمٍ إِلَّا أَصَابَهُ جَارِحٌ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى ، فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي ، فتخسر صفقتي ، وتظهر عورتى ، وتبدو مسكنتى ، فى يوم يبدو فيه الغنى والفقير ، والموازن منصوبة ، والجوارح ناطقة ، فلقد عُنيتم بأمر لو عُنيَت

[١] قرت عينه : بردت واقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوفة إليه .

به النجوم لا تكدرت ، ولو غنيت به الجبال لذابت ، أو الأرض لا تقطرت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرون إلى إحداها ؟ » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤٣ ،
وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٦)

١٩٠ — خطبة له

وروى أنه قال :

« من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح ديناه ، فقد أحسن صلته ، وأذى واجب حقه ، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة مُنْجِيَّة في العواقب ، فالزَموها ، الرزق مقسوم ، فلن يعدو^(١) المؤمن ما قُسم له ، فأنجلوا في الطلب ، فإن في القنوع^(٢) سعة وبُلغة ، وكفافاً ، إن أجل الدنيا في أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فكأن لم يكن ، وكلُّ أمواتٍ عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق^(٣) ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وعايَنتم تعجيل إخراجهِ ، وقِسْمة ثرائهِ ، ووجهه مفقود ، وذكره مَنْسِيٌّ ، وبابه مهجور ، كأن لم يخالط إخوان الحِفاظ^(٤) ، ولم يَعْمُر الديار ، فاتقوا هول يوم لا يُحْقَر فيه مثقال ذرة في الموازين » .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٥)

١٩١ — خطبة له

وقال : « من عمل على غير علم كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح ، ومن لم يَعُدْ

[١] وفي رواية : « فلن يغدر » ، أغدره وخادره : تركه . [٢] القنوع : الرضا بالقسم (وهو أيضا السؤال والتذلل) . [٣] ساق المريض : شرع في نزاع الروح . [٤] أى المراقبة على وده .

كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومُعَوَّل المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه ، فأعاضه مما انتزع منه الصبر ، إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا يُؤَتَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤١ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

١٩٢ — خطبة له

وحدث شبيب بن شيببة ، عن أبي عبد الملك قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكنا نقوم لهم ، ونبدؤهم بالسلام ، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه في يوم عيد ، وعليه قيص كَتَّان ، وِعِمَامَةٌ على قلنسوة لاطئة^(١) ، فَمَلْنَا بين يديه ، وسامنا عليه . فقال : مَهْ أَنْتُمْ جَمَاعَةٌ وَأَنَا وَاحِدٌ ، السَّلامُ عَلَيَّ ، وَالرَّدُّ عَلَيْكُمْ ، وَسَلَامُ فَرَدَدِنَا ، وَقُرَّبَتْ لَه دَابَّتُهُ ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَمَشَى وَمَشِينَا ، حَتَّى صَعَدَ الْمَنْبَرَ ، فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : « وَدِدْتُ أَنْ أَغْنِيَاءَ النَّاسِ اجْتَمَعُوا ، فَرَدُّوا عَلَى فَقَرَاءَتِهِمْ ، حَتَّى نَسْتَوِيَ نَحْنُ بِهِمْ ، وَأَكُونَ أَنَا أَوْلَهُمْ » ، ثُمَّ قَالَ : « مَالِي وَلِلدُّنْيَا ؟ أَمْ مَالِي وَلِهَا ؟ وَتَكَلَّمُ فَأَرْقُ : حَتَّى يَكِيَ النَّاسُ جَمِيعًا ، يَمِينًا وَشِمَالًا » ، ثُمَّ قَطَعَ كَلَامَهُ وَنَزَلَ ، فَدَنَا مِنْهُ رَجَاءُ ابْنِ حَيَّوَةَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَلِمَتُ النَّاسِ بِمَا أَرْقُ قُلُوبَهُمْ وَأَبْكَاهُمْ ، ثُمَّ قَطَعْتَهُ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يَارَجَاءُ إِنِّي أَكْرَهُ الْمِبَاهَاةَ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٣)

١٩٣ — آخر خطبة له

وخطب بِمُخَاصِرَةٍ^(٢) خطبة لم يخطب بعدها حتى مات ! رحمه الله تعالى

[١] لاطئة : لازقة . [٢] خاصرة : بلد بالشأم من عمل حلب .

نحمد الله ، وأُمنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم لم تُخلَقوا عَبَثًا ، ولم تُتْرَكوا سُدىً ، وإن لكم مَعَادًا يحكم الله فيه بينكم ، نَخَاب وخسِر من خرج من رحمة الله ، التي وَسِعَتْ كل شيء ، وَحُرِّمَ الجنة التي عَرَضُهَا السمواتُ والأرض ، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بيباق ، ألا تَرَوْنَ أنكم في أسلاب^(١) المهالكين ، وسيُخلَفُها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم في كل يوم تشيِّعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نَحْبُهُ^(٢) ، وبلغ أجله ، ثم تغيَّبونه في صدع^(٣) من الأرض ، ثم تدَّعون غير مؤسَّد ولا مُمَهَّد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وَوَاجَه الحساب ، مرتَهناً بعمله ، غنيا عما ترك ، فقيراً إلى ما قدَّم ، وإيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فأستغفر الله لي ولكم ، وما تبلِّغنا عن أحد منكم حاجة ، يتسع لها ما عندنا إلا سَدَدناها ، ولا أحد منكم إلا وِدِدْتُ أن يده مع يدي ، ولُحِمْتُ^(٤) الذين يُلُونِي ، حتى يستوى عيشنا وعيشكم ، وإيم الله أني لو أردت غير هذا من عيش أو غَضارة^(٥) ، لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً ، عالماً بأسبابه ، لكنه مضى من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته » ، ثم بكى ، فلتقى دموع عينيه بطرف ردائه ، ثم نزل ، فلم يُرَ على تلك الأعواد حتى قبضه الله .

(البيان والنبين ٢ : ٦٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ ، وقاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وشرح

ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والأغانى ٨ : ١٥٢ ، وعبون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٦ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٢٢ ، ولان عبد الحكم ص ٤١ و ١٣٦)

[١] جمع سلب بالتحريك وهو ما يسلب . [٢] الحب : الأجل ، والحاجة ، والنذر .

[٣] شق . [٤] اللحمة : القرابة . [٥] الغضارة : النعمة ، والسمة ، والحصب .

١٩٤ — خطبة أخرى

وروى أن آخر خطبة خطبها رحمه الله : حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : الحقوا ببلادكم ، فإنى أنساكم عندي ، وأذكركم ببلادكم ، ألا
وإني قد استعملت عليكم رجالا ، لا أقولُ ثم خيارُكم ، ولكنهم خير ممن هم شرٌّ
منهم ، ألا فمن ظلمه عامِلُهُ بِمَظْلَمَةٍ فلا إذنَ له عليَّ ^(١) ، ألا وإني مَنَعْتُ نفسي
وأهل بيتي هذا المالَ ، فإن صَنَعْتُ به عليكم إني إذن لضعفين ، والله لولا أن
أنعش ^(٢) سُنَّة ، أو أسير بحق ، ما أحيت أن أعيش فُواقًا .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٠ ، ولابن عبد الحكم ص ٢٩)

١٩٥ — كلامه في مرضه الذي مات فيه

ودخل عليه مَسْلَمَةُ بن عبد الملك في المَرَضَةِ التي مات فيها ، فقال له : يا أمير
المؤمنين : « إنك فَطَمْتَ أفوَءَ ولدك عن هذا المال ، وتركهم عَالَةً ^(٣) ، ولا
بد من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلىّ أو إلى نُظَرَائِكَ من أهل بيتك ،
لكفيتك مَثُوتَهُمْ إن شاء الله » ، فقال عمر : أجلسوني . فأجلسوه ، فقال :
« الحمد لله ، أبا الله تخوفني يا مَسَامَةَ ! أما ما ذكرت من أني فطمت أفوَءَ
ولدي عن هذا المال ، وتركهم عَالَةً ، فإنى لم أمنعهم حَقًّا هولهم ، ولم أعطيهم
حَقًّا هو لغيرهم ؛ وأما ما سألت من الوَصَاةِ إليك ، أو إلى نُظَرَائِكَ من أهل
بيتى ، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نَزَلَ الكتاب ، وهو يَتَوَلَّى الصالحين ، وإنما
بنو عمر أجدر رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من أمره يُسرًا ، وَرَزَقَهُ من

[١] أى يدخل على بلا إذن ، لايحول بيني وبينه حاجب . [٢] نعشه كنع وأنعشه : رضعه .

[٣] قراء جمع عائل من حال يعيل عيلة (بفتح الين) أى افتقر .

حيث لا يَحْتَسِب ، ورجل غَيْرُ وَفَجَر ، فلا يكون عمرُ أول من أعانه على ارتكابه ، ادعُوا لى بَنِي ، فدَعَوْهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ، فجعل يصعدُ بصره فيهم ويصوبُ به ، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : « بنفسى فِتيةٌ تركتهم ولا مالَ لهم ! يا بَنِي : إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا مُعَاهَد إلا ولكم عليه حقٌّ واجبٌ إن شاء الله ، يا بَنِي مَيِّلتُ ^(١) رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا ، وبين أن يدخل أبوك النار ، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا يا بَنِي عَصَمَكُم الله ورزقكم . قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ، ولا افتقر .

(العقد المفرد ٢ : ٢٨٠ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨٠)

١٩٦ — مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شَوْذَبُ الخارجيِّ - واسمه بِسْطَام ، من بني يشكر - فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أُولَى بذلك مني ، فهُلِمَ إلى أَنَاظِرَكَ ، فَإِنْ كَانَ الحقُّ بأيدينا ، دخلت فيما دخل فيه الناس ، وَإِنْ كَانَ في يدك ، نظرنا في أمرك ، فكتب بِسْطَام إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حَبَشِيًّا اسمه عاصم ، ورجلا من بني يَشْكُر ، فقدمَا على عمر بِمُخْناصِرَةٍ ، فَأُخْبِرَ بمكانهما ، فقال : فتشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما ، فلما دخلا قالَا : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر : أخبراني ، ما الذي أخرجكم مُخْرَجَكُم هذا ؟ وما نَقَمْتُم علينا ؟ فقال عاصم : ما تقمنا سيرتك ، إنك لتتحرَّى العدل والإحسان ،

[١] التميل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، تقول العرب : إني لأميل بين ذينك الأمرين ، وأمايل بينهما أيها آتى .

فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس ومَشورة ، أم ابتزتم أمرهم ؟ فقال عمر : ماسألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وَعَهْدٌ إِلَى رَجُلٍ كَانَ قَبْلِي ، فَقُمْتُ وَلَمْ يَنْكَرْهُ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَمْ يَكْرَهُهُ غَيْرُكُمْ ، وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ الرِّضَا بِكُلِّ مَنْ عَدَلَ وَأَنْصَفَ ، مَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ ، فَاتْرَكُونِي ذَلِكَ الرَّجُلَ ، فَإِنْ خَالَفتَ الْحَقَّ وَرَغِبْتَ عَنْهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ ، فَقَالَا : يَبْنِنَا وَيَبْنِيكَ أَمْرٌ ، إِنْ أَنْتَ أَعْطَيْتَنَاهُ ، فَنَحْنُ مِنْكَ وَأَنْتَ مِنَّا ، وَإِنْ مَنَعْتَنَاهُ ، فَلَسْتَ مِنَّا وَلَسْنَا مِنْكَ ، فَقَالَ عُمَرُ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَا : رَأَيْنَاكَ خَالَفتَ أَعْمَالَ أَهْلِ بَيْتِكَ ، وَسَمِيتَهَا مَظَالِمَ ، وَسَلَكْتَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ ، فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّكَ عَلَى هَدًى وَهُمْ عَلَى ضَلَالٍ ، فَالْعَنَتُهُمْ وَتَبَرَأَ مِنْهُمْ ، فَهَذَا الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَوْ يُفَرِّقُ ، فَتَكَلَّمَ عُمَرُ ، فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ لَمْ تَخْرُجُوا تَخْرُجُكُمْ هَذَا لَطْلُبُ دُنْيَا وَمَتَاعِهَا ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَرَدْتُمْ الْآخِرَةَ ، فَأَخْطَأْتُمْ سَبِيلَهَا ، إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَانَا ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِهِمْ اقْتَدِهْ » . وَقَدْ سَمِيتَ أَعْمَالَهُمْ ظُلْمًا ، وَكُنِيَ بِذَلِكَ ذِمًّا وَنَقْصًا ، وَلَيْسَ لَعْنُ أَهْلِ الذُّنُوبِ فَرِيضَةً لَا بَدَّ مِنْهَا ، فَإِنْ قُلْتُمْ إِنَّهَا فَرِيضَةٌ ، فَأَخْبِرْنِي مَتَى لَعَنْتَ فِرْعَوْنَ ؟ قَالَ : مَا أَذْكَرَ مَتَى لَعَنْتُهُ ، قَالَ : أَفَيَسَعُكَ أَنْ لَا تَلْعَنَ فِرْعَوْنَ وَهُوَ أَخْبَثُ الْخَلْقِ وَشَرُّهُمْ ، وَلَا يَسْمَعُنِي أَنْ لَا أَلْعَنَ أَهْلَ بَيْتِي وَهُمْ مَصْلُونٌ صَائِمُونَ . قَالَ : أَمَّا هُمْ كَفَّارٌ بِظُلْمِهِمْ ؟ قَالَ : لَا ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ ، فَكَانَ مَنْ أَقْرَبَ بِهِ وَبِشَرَائِعِهِ قَبْلَ مِنْهُ ، فَإِنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ ، فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : إِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا النَّاسَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِمَا تَزَلُّ مِنْ

عنده ، قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء قال عاصم : فأبرأ ممن خالف عملك ، ورُدَّ أحكامهم . قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليس من أسلافكما ومن تتويان . وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسب الذراري ؟ قال : نعم . قال : فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر ، فردَّ تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟ قال : نعم . قال : فهل برئ عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قال : لا . قال : فأخبراني عن أهل النهرَوان ، أليسوا من صالحى أسلافكم ، ومن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قال : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفؤاً أيديهم فلم يسفكوا دمًا ، ولم يُخيفوا آمنًا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قال : نعم . قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن قذيك ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن خبَّاب بن الأرت : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبَّحوا حيًّا من أحياء العرب فاستعرضوهم ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال ، حتى جعلوا يلقون الصبيان في قدور الأقط^(١) ، وهي تفور ؟ قال : قد كان ذلك . قال : فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قال : لا . قال : فهل تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قال : لا . قال : أرايتم الدين واحدًا أم اثنين ؟ قال : بل واحدًا . قال : فهل يسعكم فيه شيء يعجز عنى ؟ قال : لا . قال : فكيف

[١] الأقط بفتح الهمزة وكسرها : شئ ، يتخذ من الخيض الغنى .

وسيعكم أن توليتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء ، في الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعني فيما زعمتم إلا لعنُ أهل بيتي والتبرؤ منهم ؟ ويحكمكم ! إنكم قوم جهال ، أردتم أمراً فأخطأتموه ، فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من آمن عنده . قالوا : ما نحن كذلك . قال عمر : بل سوف تُقرون بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن فعل ذلك حَقَّن دمه ، وأحرز ماله ، ووجبت حُرْمَتُهُ ، وكانت له أسوة المسلمين ؟ قالوا : نعم . قال : أفلستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فتستحلون دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان ، فيأمن عندكم وتحرّمون دمه ؟ فقال اليشكرى : أرايت رجلاً وليّ قوماً وأموالهم فعدل فيها ، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أتراه أدى الحق الذي يلزمه الله عز وجل ؟ أتراه قد سلم ؟ قال عمر : لا . قال : أفنسلم هذا الأمر إلى يزيد ^(١) من بعدك ، وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاء غيري ، والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى . قال : أفترى ذلك من صنّع من ولاء حقاً ؟ فبكى عمر وقال : أنظراني ^(٢) ثلاثاً ، نخرجاً من عنده ثم عاداً إليه ، فقال عاصم : أشهد أنك على حق ، فقال عمر لليشكرى : ما تقول أنت ؟

[١] هو يزيد بن عبد الملك ، وقد ولي الحلالة بعد عمر بن عبدالعزيز (سنة ١٠١ - سنة ١٠٥ هـ) .

[٢] أمهاني .

قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفئات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم . فأما حاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فتوفي بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول : أهلكني أمر يزيد وخُصِيت فيه ، فاستغفر الله ، نخاف بنو أمية أن يُخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاه سماً ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات .

(الكامل لابن الأثير ٥ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧١ ، والعقد المريد ١ : ٢١٦ ، وتاريخ الطبري ٨ : ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولان الجوزي ٧٧)

١٩٧ - تأيينه ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك ، وسوى عليه قبره بالأرض ، وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون ، إحداها عند رأسه ، والأخرى عند رجله ، استوى عمر قائماً ، وأحاط به الناس ، فقال :

« رحمك الله يا مبنّي ، فقد كنت برّاً بأبيك ، والله ما زلتُ مذ وهبك الله لي بك مسروراً ، ولا والله ما كنتُ قطُّ أشدَّ سروراً بك ، ولا أرجى لحظّي من الله فيك ، منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الله إليه ، ففقر الله لك ذنبك ، وجازاك بأحسنِ عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورَحِمَ الله كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد أو غائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، والحمد لله ربّ العالمين . »

(البيان والنبين ٢ : ١٨٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٦٤)

١٩٨ — خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد^(١)

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما بي إطرأ نفسي ، وإني لظالم لها إن لم يرحمني الله ، ولكن خرجت غضبا لله ودينه ، داعياً إلى الله ، وإلى سنة نبيه ، لما هُدمت معالم الهدى ، وأطفئ نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد^(٢) ، المستحل لكل حرمة ، والراكب لكل بدعة ، الكافر بيوم الحساب ، وإنه لابن عمي في النسب ، وكفيتي^(٣) في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ، وسألته ألا يكلمني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجايني من أهل ولايتي ، حتى أراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ، بحوله وقوته ، لا بحولي وقوتي .

أيها الناس : إن لكم عليّ ألا أضع حجراً على حجر ، ولا لبنّة على لبنّة ، ولا أكرى^(٤) نهراً ، ولا أكنز مالا ، ولا أعطيّه زوجاً ، ولا ولداً ، ولا أثقله من بلد إلى بلد ، حتى أسدّ فقر ذلك البلد وخصاصة^(٥) أهله ، فإن فضل فضل ،

[١] قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك الملقب بـ"البلتين" بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وكان قبل الخلافة منهم كافي اللهو ، وشرب الخمر ، وانتهاك حرّات الله ، فلما أمست إليه الخلافة ، لم يزد إلا اغتاسا في اللذات ، واستهتارا بالمعاصي ، ذلك إلى ما ارتكبه من إغصاب أكابر أهله ، والإساءة إليهم ، وتهميرهم ، فاحتدموا عليه مع أعيان رعيته ، وهجموا عليه وقتلوه ، وكان المتولى لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد دلى الخلافة بعده ، وتوفى هلال ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ . [٢] يشير إلى ما حدث من الوليد بن يزيد من أنه استفتح فألا في المصحف نخرج « وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » ، فغضب غرضا للشباب وأقبل يرميه حتى مزقه ، وهو يقول :

أنوعد كل جبار عنيـد فهأنذاك جبار عنيـد

إذا لاقيت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد

[٣] كفيتّه وكفؤّه بفم الكاف وكفؤّه بكسرهما : مثله . [٤] كرى النهر : استحدث حفره

[٥] الفقر والحاجة .

نقلته إلى البلد الذي يليه ، ولا أُجْرِكُمْ^(١) في بعوثكم ، فأفْتِنَكُمْ وأفْتِنَ أَهْلِيكُمْ ، ولا أَغْلِقْ بابي دونكم ، فإِذَا كَلَّ قُوَّيْكُمْ ضَعِيفُكُمْ ، ولا أَحْمِلْ عَلَى أَهْلِ جَزِيَّتِكُمْ مَا أَجْلِيهِمْ بِهِ عَنْ بِلَادِهِمْ ، وَأَقْطَعْ بِهِ نَسْلَهُمْ ، وَلَكُمْ عَلَى إِذْزَارِ الْعَطَاءِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، وَالرِّزْقِ فِي كُلِّ شَهْرٍ ، حَتَّى يَسْتَوِيَ بَكُمْ الْحَالُ ، فَيَكُونَ أَفْضَلُكُمْ كَأَدْنَاهُمْ ، فَإِنِ أَنَا وَفَيْتُ لَكُمْ ، فَعَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ، وَحَسَنُ الْمَوَازَرَةِ وَالْمَكَاتِفَةِ^(٢) ، وَإِنِ لَمْ أَفِ لَكُمْ ، فَلَكُمْ أَنْ تَخْلَعُونِي إِلَّا أَنْ تَسْتَتِيبُونِي ، فَإِنِ أَنَا تَبَدَّدْتُ قَبْلَتِي مِنْكُمْ ، وَإِنِ عَرَفْتُمْ أَحَدًا يَقُومُ مَقَامِي ، مِمَّنْ يُعْرَفُ بِالصَّلَاحِ ، يُعْطِيكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِثْلَ الَّذِي أُعْطَيْتُكُمْ ، فَأَرَدْتُمْ أَنْ تَبَايَعُوهُ ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعُهُ ، وَدَخَلَ فِي طَاعَتِهِ .

أيها الناس : إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وأقول قولي هذا ، وأستعصر الله العظيم لي ولكم .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤٤ — ٢٩١ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٩ ، المعرى ص ١٢٠)

١٩٩ لا وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه

لما وَلَّى يزيد بن معاوية سَلَمَ بْنَ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ عَلَى خِرَاسَانَ قَالَ لَهُ :

« إِنِ أَبَاكَ كَفَى أَخَاهُ (يَعْنِي مَعَاوِيَةَ) عَظِيمًا ، وَقَدْ اسْتَكْفَيْتَكَ صَغِيرًا ، فَلَا

تَسْكِنَنَّ عَلَى عَذْرَ مَنْ لَكَ ، فَقَدْ اتَّكَلْتُ عَلَى كِفَايَةِ مَنْكَ ، وَإِيَّاكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ

أَقُولَ إِيَّايَ مِنْكَ ، فَإِنِ الظَّنُّ إِذَا أَخْلَفَ مَنْكَ أَخْلَفَ مِنْكَ فَيْكَ ، وَأَنْتَ فِي أَدْنَى

حَظِّكَ فَاطْلُبْ أَقْصَاهُ ، وَقَدْ أَتَعَبَكَ أَبُوكَ ، فَلَا تُرِيحَنَّ نَفْسَكَ ، وَكَنْ لِنَفْسِكَ

تَكُنْ لَكَ ، وَادْكُرْ فِي يَوْمِكَ أَحَادِيثَ غَدِكَ تَسْعَدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٦)

خطبة عتبة بن أبي سفيان ^(١) (توفي سنة ٤٤ هـ)

٢٠٠ — خطبة له في تهدد أهل مصر

بلغ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ شَيْءً فَأَغْضَبَهُ ، فَقَامَ فِيهِمْ ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ :

« يَا أَهْلَ مِصْرَ ، إِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا لِلسَّيْفِ حَصِيداً ^(٢) ، فَإِنَّ اللَّهَ فِيكُمْ ذَيْباً لِعِثْمَانَ ، أَرْجُو أَنْ يُولِّيَنِي نُسْكَهُ ، إِنَّ اللَّهَ جَمَعَكُمْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ الْفِرْقَةِ ، فَأَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَكَانَ وَاللَّهِ أَذْكَرَكُمْ إِذَا ذُكِّرَ بِخُطَّةٍ ، وَأَصْفَحَكُمْ بَعْدَ الْمَقْدَرَةِ عَنْ حَقِّهِ ، نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ فِيكُمْ ، وَنِعْمَةً ^(٣) مِنْهُ عَلَيْكُمْ ، وَقَدْ بَلَّغْنَا عَنْكُمْ نَجْمٌ ^(٤) قَوْلٍ ، أَظْهَرَهُ تَقَدُّمُ عَفْوٍ مِنَّا ، فَلَا تُصَيِّرُوا إِلَى وَحْشَةِ الْبَاطِلِ بَعْدَ أَنْسِ الْحَقِّ ، يَا حَيَاءَ الْفِتْنَةِ وَإِمَامَةَ الشُّنَنِ ، فَأَطِئُوا اللَّهَ وَطِئُوا ، لَا رَمَقَ ^(٥) مَعَهَا ، حَتَّى تُنْكِرُوا مِنِّي مَا كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ ، وَتُسْتَخْشِنُوا مَا كُنْتُمْ تَسْتَلِينُونَ ، وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ، ^(٦) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » . (المقد الفريد ٢ : ١٥٨)

٢٠١ — خطبة له في تقريرعهم وتهدهم

وخطب أيضاً وقد بلغه عن أهل مصر أمور فقال :

[١] ولله أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص (وقد مات عمرو في شوال سنة ٤٣ هـ) وأقام عتبة والياً على مصر سنة واحدة وشهراً واحداً ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٤ هـ (هكذا في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة : «أما توفي سنة ٤٤ هـ وقيل سنة ٤٣ هـ ، ولكني قرأت في تاريخ الطبري أن عتبة حج بالناس سنة ٤٦ هـ ، وقال أيضاً في حوادث سنة ٤٧ هـ : «واختلفوا فيمن حج بالناس في هذه السنة ، فقال الوافدي : أمام الحج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان وقال غيره : بل الذي حج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان » . [٢] أصله الزرع المحصود .

[٣] هكذا في الأصل وقد يكون « ومنه » . [٤] من نجم الشيء إذا ظهر وطلع .

[٥] الرمي : بقية الحياة . [٦] بمسارقتها النظر إلى المحرم .

« يا حاملي الأم أنوفٍ رُكِّبت بين أعين، إنما قلَّمت أظفارى عنكم، ليلين مَسَى إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم، إذ كَانَ فسادكم راجعاً عليكم، فأما إذا أُيِّتم إلا الطعن على الأمراء، والعُتب على السلف والخلفاء، فوالله لأقطعن بطون السَّيَّاط على ظهوركم، فإن حَسَمْتُ مُسْتَشْرَى^(١) دائنكم، وإلا فالسيف من ورائكم، فكم من عظة لنا قد صَمَّت عنها آذانكم، وزجْرة منا قد مَحَّتْها قلوبكم، ولست أبخل عليكم بالعقوبة، إذا جدتم علينا بالمعصية، ولا مؤثراً لكم من المراجعة إلى الحسنى، إن صرتم إلى التى هى أبر وأتقى » .

(صبح الأعشى ١ : ٢١٦ ، والقصد الفريد ٢ : ١٥٩ ، والأمالى ١ : ٢٤٥)

٢٠٢ - خطبة له فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية

واحتبست كتب معاوية حتى أَرْجَفَ أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته ، فصعد عتبة المنبر ، والكتاب في يده فقال :

« يا أهل مصر : قد طالت معايتنا إياكم بأطراف الرماح وظببات السيوف ، حتى صرنا شَجَى^(٢) فى لهواتكم ، ما تُسَيِّغُنَا حلوقكم ، وأقْدَاء^(٣) فى أعينكم ، ما تُطْرِفُ عليها جفونكم ، أخين أشتدت عُمرى الحق عليكم عَقْدًا ، واسترخت عُتْدُ الباطل منكم حَلًّا ، أَرْجَفْتُم بِالْخَلِيفَةِ ، وأردتم توهين^(٤) السلطان ، وخضتم الحق إلى الباطل ، وأَقْدَمْتُمْ عهدكم به حديث ؟ فارتجفوا أنفسكم إذ خسرتم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ، والعهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على

[١] استشرى الداء : عظم وتناقم . [٢] هو ما اعترض فى الخلق من عظم أو نحوه ، واللاهوات جمع لاهة وهى الائمة المشرفة على الخلق ، وأساغ : ابتلاه . [٣] جمع قذى وهو ما يقع فى العين والشراب ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرف بيمينه : حرك جفنيها . [٤] لاضعاف .

أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ما ظهر ، نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً ، وإن أسررتهم شرّاً ، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون ، وعلى الله تتوكل وبه نستعين . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٣ - خطبته فيهم وقد منعوا الخراج

وخطبهم وكانوا قد منعوا الخراج فقال :

« يأهل مصر ، قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ، ببعض الجور عليكم ، فقد ولّيتكم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن ردّدتكم تراذّكم^(١) بيده ، وإن استصعبتم تراذّكم بسيفه ، ثم رجا في الآخرة ما أمّل في الأولى ، إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأثنا غدر فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عتمدت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز^(٢) ، ومن حذّر كمن بشر » فنادوه سمعاً وطاعة ، فناداهم عدلاً عدلاً . (العقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٤ - خطبته فيهم إذ طعنوا على الولاية

وقدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر أن قبلك قوماً يطعنون على الولاية ويعيبون السلف ، فخطبهم فقال :

« يأهل مصر : خفّ على ألسنتكم مدّح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم تأتونّه ، كالجمار يحمل أسفاراً أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، وإيم الله لا أداوى أدواءكم بالسيف ما صلّحتكم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتني

[١] يقان : تراذّا البيع : من الرد والفسخ ، ومراده : ردّكم . [٢] الناجز والنجيز : الحاضر ، ومن أمثالهم : ناجزاً بناجز ، أى حاضراً بمحضر ، كقولك يدا بيد ، وطاجلاً بماجل ، وقلوا أيبك الساعة ناجزاً بناجز : أى معجلاً .

الدَّيْرَةَ ، ولا أبطئ عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا ، وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال فعل ويفعل ، وكونوا خير قوس سهماً بهذا اليوم الذي ما قبله عقاب ، ولا بعده عتاب .
(العقد الفريد ٢ : ١٦٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة ٣ : ٣٦١)

٢٠٥ — خطبته بمكة

وحج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريب عهدهم بالفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذي يُضَاعَفُ فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسيء فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له ، فلا تمُدُّوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من دوننا ، ورب متمنٍ حَتَفُهُ في أمنيته ، فاقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ، وإياكم ولوا ، فإن لَوْا قد أتعبت من كَانَ قبلكم ، وإن تريح من بعدكم ، وأنا أسأل الله أن يعين كُلاً على كلِّ » .

فصاح به أعرابي : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تُبْعِدْ ، فقال : يا أخاه ، فقال : سمعتُ فقل ، فقال : « تالله لأن تُحْسِنُوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أَحْسَنَّا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقَّكم باستتمامه ، وإن كَانَ منا فإِولاكم بمكافأتنا ، رجل من بني عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة ، ويقرب إليكم بالخُثُولَة ، وقد كثر عياله ^(١) ، ووطئه زمانه ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر » فقال عتبة : « أستغفر الله منكم ، وأستعينه عليكم ، قد أمرنا لك بغناك ، فليت إسرأنا إليك يقوم بإبطائنا عنك » .

(الأمالي ١ : ٢٤٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٩ — ٨١ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

[١] العيال جمع عيل كجيد : وهو من يلزم الاتفاق عليه .

٢٠٦ — خطبته في علته التي مات فيها

ولما اشتكى شكاته التي مات فيها تحامل إلى المنبر ، فقال :

« يَـأْهُلْ مِصرَ لَا غنى عَنِ الرَّبِّ ، وَلَا مَهْرَبَ مِنْ ذَنْبٍ ، إِنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَتْ مِنْى إِلَيْكُمْ عَقُوبَاتٌ كُنْتُ أَرْجُو يَوْمُئِذٍ الْأَجَرَ فِيهَا ، وَأَنَا أَخَافُ الْيَوْمَ الْوِزْرَ مِنْهَا ، فَلَيْتَنِى لَا أَكُونُ اخْتَرْتُ دُنْيَاى عَلَى مَعَادى ، فَأَصْلَحْتُمْ بِفَسَادى ، وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْكُمْ ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِيكُمْ ، فَقَدْ خَفْتُ مَا كُنْتُ أَرْجُو نَفْعًا عَلَيْهِ ، وَرَجَوْتُ مَا كُنْتُ أَخَافُ اغْتِيَالًا بِهِ ، وَقَدْ شَقِىَ مِنْ هَلَاكٍ بَيْنَ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ سَلَامٌ مِنْ لَا تَرَوْنَهُ عَائِدًا إِلَيْكُمْ » ، فلم يعد .

(البقد القريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٧ — وصيته لمؤدب ولده

وَقَالَ لِعَبْدِ الصَّمَدِ مُؤَدِّبِ وَلَدِهِ :

« لِيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَبْدَأُ بِهِ مِنْ إِصْلَاحِ بَنِي إِصْلَاحِ نَفْسِكَ ، فَإِنْ أَعَيْنَهُمْ مَعْقُودَةَ بَعِينِكَ ، فَالْحَسَنَ عِنْدَهُمْ مَا اسْتَحْسَنْتَ ، وَالْقَبِيحَ عِنْدَهُمْ مَا اسْتَقْبَحْتَ ، وَعَلِمَهُمْ كِتَابَ اللَّهِ ، وَلَا تُكْرِهِهُمْ عَلَيْهِ فَيَمْلَوْهُ ، وَلَا تَتْرَكْهُمْ مِنْهُ فَيَهْجُرُوهُ ، ثُمَّ رَوِّهُمْ مِنَ الشَّعْرِ أَعْفَى ، وَمَنِ الْحَدِيثِ أَشْرَفُ ، وَلَا تَخْرِجْهُمْ مِنْ عِلْمٍ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يُخْجَكُمُوهُ ، فَإِنْ أزدحامَ الْكَلَامُ فِي السَّمْعِ مَضَلَّةً لِلْفَهْمِ ، وَتَهْدِئْهُمْ بى ، وَأَدِّبْهُمْ دُونى ، وَكُنْ لَهُمْ كَالطَّبِيبِ الَّذِى لَا يَمَجِّلُ بِالْدَوَاءِ قَبْلَ مَعْرِفَةِ الدَّاءِ ، وَجَنِّبْهُمْ مُحَادَثَةَ النِّسَاءِ ، وَرَوِّهُمْ سِيَرِ الْحُكَمَاءِ ، وَاسْتَزِدْنِى بِزِيَادَتِكَ إِيَّاهُمْ أَزِدْكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَّكِلَ عَلَى عِذْرِ مَنْى لَكَ ، فَقَدْ انْكَلْتُ عَلَى كِفَايَةِ مَنْكَ ، وَزِدْ فى تَأْدِيبِهِمْ أَزِدْكَ فى بَرِّى إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » . (البياد والتبيين ٢: ٣٥ ، والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١: ١٣٩)

٢٠٨ — وصية سعيد بن العاص^(١) لبنيه

لما وُلِدَ لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع^(٢) ، تفرّس فيه النجابة ، وكان يفضلّه على ولده ، فجمع بنيه ، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلاً ، ولم يدعُ عمرًا معهم ، وقال :

« يا بنيّ ، قد عرفتُم خِبرةَ الوالد بولده ، وإن أخاكم عمرًا ، لذو همةٍ واعدةٍ ،^(٣) يسمو جدّه ، ويبعد صِيتَه^(٤) ، وتشدّ شَكِيمَتَه^(٥) ، وإني آمركم إن نزل بي من الموت ما لا محيص عنه ، أن تُظَاهِرُوهُ وتُؤَاوِرُوهُ وتُعَزِّرُوهُ ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألف بكم الكرام ، ويخسأ^(٦) عنكم اللئام ، ويُلْبِسُكم عِزًّا لا تُنْهَجُه^(٧) الأيام . فتالوا جميعًا : « إنك تُؤثِّره علينا ، وتحاييه دوننا » فقال : « سأريكم ما ستره البغي عنكم » ، وصرفهم ، ثم أمهلهم حتى ظن أن قد ذهَبوا عما كان ، وراهِق^(٨) عمرو البلوغ ، واستدعاهم دون عمرو ، فلما حضروا قال : « يا بني ، ألم تروا إلى أخيكُم عمرو ؟ فإنه لا يزال يُلْجِفُ^(٩) في مسألتِي مالي ، فأحشُ عَيْلَه^(١٠) »

[١] هو سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد تقدّم لك أن عثمان استعمله على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وولاه معاوية المدينة ، وكان يوليه إذا عزله مروان بن الحكم عن المدينة ويولي مروان إذا عزله ، ومات سنة ٥٧ وقيل سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٩ هـ .

[٢] شب وانتقل عن حد الصفر . [٣] من قولهم شجرة واعدة إذا ظهر لرائيها أن قدحان لثمارها ، وأرض واعدة إذا رعى خيرها من البيت ، وظهر لرائيها أن قد قرب لإمكان المرعي بها ، وفرس واعد : يمدك جرياً بمد جرى ، وسحاب واعد كأنه وعد بالمطر ، وبوم واعد يعد بالحر أو بالبرد أدله .

[٤] الصيت (بالكسر) والصات والصوت (بالفتح) : الذكر الحسن . [٥] الشكيمة : الألفة وفي اللجام : الحديدة المأترضة في فم الفرس ، وهو مثل يصرب للفرامة في الأمور والمضاء فيها .

[٦] أي يمد ويطرده . من خسأ الكلب كنع طرده ، وخسأ هو بفتح : بعد .

[٧] أي لا قبله . أنهج انتوب ونهجه (كنعته) : أخلقه وأبلاه ، ونهج الثوب مثلثة الهـ ، وأنهج : بلى . [٨] راقيق الغلام : قارب الحلم (بضمحتين) . [٩] يلج : قطع .

[١٠] الميل والميلة : الانتقار والفاقة ، وأحش أي أقطع وأحج من حش الحشيش (كرد) : قطعه ، وحش فلانا : أصلح من حاله ، (وفي الأصل فأحسن بالنون أي أجعل فقره حسناً وأزيل قبحه بعطائي إياه والأول أحسن) .

لصغره ، وَأَحْسَبُهُ ^(١) بالشئء دون الشئء من مالى ، إلى أن اسْتَمْتَبْتُ أَنَّ أُمَّه
بَاغِيَّتُهُ ^(٢) على ذلك ، فزجرتها فلم تكفف ، وهذا تَخْرَجُهُ الآن من عندى ، جاء
يسألنى الصَّمَامَةُ ^(٣) ، كَأَنَّ لَا وَلَدَ لى غَيْرُهُ ، وَقَدْ عَزَمْتُ على أن أقسم مالى
فيكم دونه ، لتعلم أُمُّهُ من يكيد ، فقالوا كلهم : يا أَبانا هذا عملك يا يِثَارِكْ له علينا ،
وَإِخْتِصَاصُكْ إِيَّاهُ دوننا ، فقال : « يا بنى ، وَاللَّهِ مَا آثَرْتَهُ دونكم بشئء من مالى
قَطُّ ، وَلَا كَانَ مَا قَلْتَهُ لَكُمْ إِلَّا اخْتِلَافًا تساهلت فيه ، لما أُمَّاتَهُ من صلاح
أمركم » ، ثم قال لهم : ادخلوا المِخْدَع ^(٤) ، فدخلوا المخدع ، ثم أرسل إلى عمرو
فأحضره ، فلما حضر قال :

« يَا بُنَى : إني عليك حَدَبٌ ^(٥) مشفق ، لصغر سنك ، وَنَفَاسَةٌ ^(٦) إخوتك
على مكانك منى ، وإني لا آمَنُ بَعَثَةَ الأجل ، ولى كَنَزٌ آذَ خَرْتَهُ لك دون إخوتك ،
وهأنا مُطْلَعٌ عليه ، فاكتمْ أمره . »

فقال : « يَا أَبَت ، طال عُمرُك ، وَعَلَا أَمْرُك ، إني لأرجو أن يُحْسِنَ اللهُ

[١] حسبه (بالشديد) وأحسبه : أطمعه وسقام حتى شبع وروى .

[٢] ساء الشئء : أغانه على طلبه (ولا مانع أن يكون الأصل « أن أُمَّه بادنته على ذلك ») .

[٣] الصَّمَامَةُ : سيف عمرو بن معديكرب اليبدى وكان قد صار إلى سعيد بن العاص ، وذلك أن خالد
ابن الوليد لما عزا بى زبيد حين ارتدوا ، وكان خالد بن سعيد بن العاص « عم سعيد المذكور » من جملة
أمرائه ، أوقع بهم وأمر رجحانة أخت عمرو بن معديكرب ، ففداها خالد وأثابه عمرو الصَّمَامَةُ ، ولم يزل
ذلك السيف عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه منهم الخليفة المهدي العباسى بمخمسين ألف درهم ، ووهبه
المهدي لابنه الهادي فدعا به بعد ما ولى الخلافة فوضعه بين يديه وأذن للشراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا
فى السيف شعرا ، فبذهم ابن يامين البصرى ، فأعطاه الهادي السيف والجائزة ، ففرقها على الشعراء ،
وقال : دخلتم معى ، وحرهتم من أحلى ، وفى السيف عرض ، ثم بعث إليه الهادي ، فاشترى منه السيف
بمخمسين ألفا ، ثم وصل إلى النوكل فدفعه إلى فلامه باغزا الركي ، وقتله به ، ومن عند باغزا انقطع خبره .

« اقرأ خبر الصَّمَامَةِ فى سرح الميوز ص ٣١٢ ، والأغانى ١٤ : ٢٦ ، وأنباء نجباء الأبناء ص ١٠٣
ومروج الذهب ٢ : ٢٦٢ . [٤] المخدع يفهم الميم وكسرهما : الخزانة — بيت صغير يحرز فيه الشئء —

[٥] متعطف شقيق . [٦] نفس عليه بخير (كفرح) حسد ، ونفس عليه الشئء نفاسة : لم يره
أهلا له .

عنك الدِّفاع ، ويُطيل بك الإمتاع . فأما ما ذكرته من شأن الكنز ، فما يُعجبني أن أقطع دون إخوتي أمرا ، وأزرع في صدورهم غمرا ^(١) .

فقال : « انصرف يا بني ، فإدك أبوك ، فوالله مالي من كنز ، ولكنني أردت أن أبلو رأيك في إخوتك وبنى أهلك » ، فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من المخدع ، فاعتذروا إلى أبيهم ، وأعطوه مَوثَقَهُمْ على اتباع مشورته . (أنباء نجباء الأنبا من ١٠٠)

خطب عمرو بن سعيد الأشدق ^(٢)

(قتل سنة ٦٩ هـ)

٢٠٩ — خطبة له بالمدينة

قدم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق المدينة أميراً ، فخرج إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمعد عليه وَغَمَضَ عَيْنِيهِ وعليه جُبَّة خَزَّ قَرْمَزٍ ^(٣) ، ومُطَرَف ^(٤) خَزَّ قَرْمَزٍ ، وعمامة خَزَّ قَرْمَزٍ ، فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجاباً بها ، ففتح عينيه ، فإذا الناس ينظرون إليه ، فقال : « ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إليَّ أبصاركم ، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم ؟ أغرَّكم أنكم فعلتم ما فعلتم فغفونا عنكم ؟ أمّا إنه لو أُبْتُثُم ^(٥) بالأولى

[١] المر محركة والغمر بكسر الفين : الخند والضم .

[٢] لقب بالأشدق لفصاحته ، والأشدق في الأصل : من عظمت أشداته (جمع شدق بالكسر ويفتح وهو جانب الفم) مشتق من الشدق (بفتح السين وهو سمة الشدق) وكانوا يتشادقون في الكلام ويمتدحون في الخطيب سمة الفم والشدقين ، وقالوا خطيب أشدق : أي بليغ ، وقال شاعرهم في عمرو بن سعيد هذا :
أشادق حتى مال بالقول شدقه وكلّ خطيب لا أياك أشدق

وقال آخرون : بل كان أقفم مائل الذقن « والقفم بالتحريك : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى » . وقد ولى لماوية مكة ولائنه يزيد مكة والمدينة ، وكان له الفضل في نيل مروان بن الحكم الخلافة ، وقد قدمنا لك خبر مقتله .

[٣] القرمز : صبغ أحمر . [٤] المطرف : رداء من خزّ مربع ذو أعلام .

[٥] الثواب : الجزاء .

ما كانت الثانية ، أغرَّكم أنكم قتلتم عثمان ، فوافقتم تأثرنا^(١) منا رفيقاً ، قد فني غضبه وبقى حمله ، اغتتموا أنفسكم ، فقدوا الله ملكناكم بالشباب المقتبل ، البعيد الأمل ، الطويل الأجل ، حين فرغ من الصغر ، ودخل في الكبر ، حلیم حديد^(٢) ، لين شديد ، رقيق كشيء ، رفيق عنيف ، حين اشتد عظمه ، واعتدل جسمه ، ورمى الدهر ببصره ، واستقبله بأشهره ، فهو إن عَضَّ نَهَس^(٣) ، وإن سطا فَرَس^(٤) ، لا يُقَلِّقُ له الحصى ، ولا تُقَرِّعُ له العصا^(٥) ، ولا يمشي السُّمَّيْ^(٦) ، فما بقي بعد ذلك إلا ثلاث سنين وثمانية أشهر ، حتى قَصَمَهُ اللهُ .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٠ — خطبة له بمكة

واستعمل سعيد بن العاص - وهو وال على المدينة - ابنه عمرو بن سعيد واليا على مكة ، فلما قدم لم يلقه قرشي ولا أموي إلا أن يكون الحرث بن نوفل ، فلما لقيه قال له : يا حَارِ ، ما الذي منع قومك أن يلقوني كما لقيتني ؟ قال : ما منعه من ذلك إلا ما استقبلتني به ، والله ما كنيته ، ولا أتممت اسمي ، وإنما أنهاك عن التشذُّر^(٧) على أكفائك ، فإن ذلك لا يرفعك عليهم ، ولا يضعهم لك ، قال : والله ما أسأت الموعظة ، ولا أتهمك على النصيحة ، وإن الذي رأيت مني لَخَلَقٌ^(٨) ، فلما دخل مكة قام على المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] التأثر : الأخذ بالتأثر ، ووافقتم أي وجدتم .

[٢] رجل حديد يكون في اللسان والفهم والغضب ، وحدث عليه : غضب .

[٣] نهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه وتنه . [٤] فرس فريسته : دق عقها .

[٥] يشير إلى المثل المشهور « إن العصا قرعت لذي الحلم » وقد سبق شرحه في ص ١٧٤ .

[٦] السُمَّي والسُمَّي : الباطل والكذب ، يقال : ذهب في السُمَّي أي في الباطل ، وجري فلان

السُمَّي أي جرى إلى غير أمر يعرفه . [٧] تشذَّر : توعد وتهدد وتغضب وتسرع إلى الأمر

والمراد هنا التكبر . [٨] الخلق البالي ، والمراد أنه لا يعود إليه .

« أما بعد ، معشر أهل مكة ، فإننا سكنناها غبطةً ، وخرجنا عنها رغبةً ،
ولذلك كنا إذا رفعت لنا اللّهوة ^(١) بعد اللّهوة أخذنا أسنانها ، ونزلنا أعلاها ،
ثم شَرَج ^(٢) أمر بين أمرين ، فقتلنا وقتلنا ، فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى
شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحماً ، وقرع العظم عظماً ، فوالى رسول الله صلى
الله عليه وسلم برسالة الله إياه ، واختياره له ، ثم ولى أبو بكر إيسابقتيه وفضله ، ثم
ولى عمر ، ثم أجليات قِداح نزعنا من شعاب ^(٣) جولة سعة ، ففاز بمخاطبها ^(٤)
أصلبها وأعتقها ، فكنا بعض قِداحها ، ثم شَرَج أمر بين أمرين فقتلنا وقتلنا ، فوالله
ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحماً ، وقرع العظم
عظماً ، وعاد الحرام حلالاً ، وأُسكِت كل ذى حسي عن ضرب مُهَنْدٍ ، عزَّ كَا
عزَّ كَا ، وَعَسْفًا عَسْفًا ، وَخَزًا وَنَهْسًا ، حتى طابوا عن حقنا نفساً ، والله ما أعطوه
عن هَوَادَةٍ ، ولا رضوا فيه بالقضاء ، أصبحوا يقولون : حَقَّنَا غُلِبْنَا عَلَيْهِ ، فجزينا
هذا بهذا ، وهذا في هذا . يأهل مكة : أنفسم أنفسم ، وسفهاً كم سفهاً كم ،
فإن معنى سوطاً ^(٥) نكلاً ، وسيفاً وبالاً ، وكل منصوب على أهله » ، ثم نزل .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١١ — ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية

تلاحي ^(٦) الوليد بن عُقْبَة ، وعمرو بن سعيد بن العاص في مجلس معاوية ،
فتكلم الوليد فقال له عمرو : كَذِبْتَ أَوْ كَذِبْتَ ^(٧) ، فقال له الوليد : اسكت
يا طليق اللسان ، منزوع الحياء ، ويا ألام أهل بيته ، فلعمري لقد بلغ بك البخل

[١] اللّهوة بالصم والفتح : العطية أو أفضل العطايا وأجرها . [٢] من الشرج بالتحريك : وهو
انشقاق القوس ، قوس شرج : فيها شق ، والمراد حدث وحجم . [٣] الشامب جمع شعبة بالضم : وهي
ما بين النصفين وطرف المصن ، يشير إلى أصحاب الشورى الستة . [٤] الخطى : ذو الخطوة أى
المكانة . [٥] أى سوماً ذا نكال . وسيفاً ذا وبال . [٦] تنازع . [٧] كذب الرجل أخبر بالكذب .

الغاية الشائنة المذلة لأهلها ، فسأت خلاثك لبخلك ، فَمَنَعْتَ الحقوق ، ولزمت
العقوق ، فأنت غير مَشِيدِ البنيان ، ولا زفيح المكان ، فقال له عمرو : والله إن
قريشاً لتعلم أني غير حُلُو المذاقة ، ولا لذيذ المَلَاكَةِ ^(١) ، وإني لك الشَّجَا ^(٢) في
الحلق ، ولقد علمت أني ساكن الليل ، داهية النهار ، لا أَتَبِعُ الأفياء ، ولا أتمى
إلى غير أبي ، ولا يُجْهَلُ حَسْبِي ، حامٍ لحقائق الدِّمار ^(٣) ، غير هَيُوب عند الوعيد ،
ولا خائف رِعْدِيد ^(٤) ، فَلَمْ تُعَمِّرْ بالبخل وقد جُبِلت عليه ، فلعمري لقد أورثتك
الضرورة لوَمَا ، والبخل فُحْشاً ، فقطعت رَحِمَكَ ، وجُرْتُ في قضيتك ، وأضعت
حق من وَلِيَّت أمره ، فلست تُرْجَى للعِظائم ، ولا تعرف بالمكارم ، ولا تستعِف
عن المحارم ، لم تقدر على التوقير ، ولم يُحْكَمْ منك التدبير ، فَأُفْجِم الوليد ، فقال
معاوية : — وساء ذلك — كُفَّالاً أباً لك ، لا يرتفع بك القول إلى ما لا نريد ،
ثم أنشأ عمرو يقول :

وَلَيْدُ إِذَا مَا كُنْتُ فِي الْقَوْمِ جَالِسًا فكن ساكناً منك الوقارُ على بال
ولا يبدُرَنَّ الدهر من فيك منطق بلا نظر قد كان منك وإغفال ^(٥)
: (الأمل ٢ : ٤٠)

٢١٢ — خطبته حين غلب على دمشق

ولما غلب على دِمَشق ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : إنه لم يَقُمْ أحد من قريش قبلي على هذا المنبر ، إلا زعم أن
له جنة ونارا ، يُدْخِلُ الجنة من أطاعه ، والنار من عصاه ، وإني أخبركم أن الجنة

[١] اللوك : أهون المضغ أو مضغ صلب . [٢] ما احتض في الحلق من هظم ونحوه .
[٣] ما تجب حمايته . [٤] جبان . [٥] يدر : يفرط ويسبق .

والنار بيد الله ، وأنه ليس إلى من ذلك شيء ، غير أن لكم على حُسنِ المؤاساة والعطية .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٧٦)

٢١٣ — خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان

روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيام عبد الملك فقال : لقد هَمَمْتُ اليوم يا أخى أن أفك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد : بئس والله ما هَمَمْتَ به في ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، فما ذاك ؟ قال : إن خيلي مرّت به فعَبِثَ بها وأصغَرَنِي ، فقال له خالد : أنا أكفّيك ، فدخل على عبد الملك ، والوليدُ عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوليد ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، مرت به خيلُ ابن عمه عبد الله ابن يزيد فعَبِثَ بها وأصغره ، وكان عبد الملك مُطَرَقاً فرفع رأسه وقال : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَمَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » فقال خالد : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، حَقَّقَ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَرْنَاَهَا تَدْمِيرًا » . فقال عبد الملك : أفي عبد الله تكلمني ؟ والله لقد دخل أمسي علىّ فما أقام لسانه لِحْنًا ، فقال خالد : أفعلى الوليد تعول يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يَلْحَنُ ، فإن أخاه سليمان ، فقال خالد : وإن كان عبد الله يَلْحَنُ ، فإن أخاه خالد ، فالتفت الوليد إلى خالد ، وقال له : اسكت وَيَحْكُ يا خالد ! فوالله ما تُعَدُّ في العير ولا في النّفير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين : ثم التفت إلى الوليد فقال له : ويحك : فمن صاحب العير والنفير غيرُ جدّي أبي سفيان صاحب العير ، وجدّي غثبة صاحب النفير^(١) ؟

ولكن لوقلت : غَنِيَمَاتٌ وَحُبَيْلَاتٌ وَالطَّائِفُ ، وَرَحِمَ اللَّهُ عَثْمَانَ لَقَلْنَا صَدَقْتَ^(١) .

(فرح ابن أبي الحديد م : ١ ص ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٠٢ وجمع الأمثال ٢ : ١١٥)

٢١٤ — خالد بن عبد الله بن أسيد^(٢) وعبد الملك بن مروان

جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، وعند رأسه خالد بن عبد الله بن أسيد ، وعند رجله أمية بن عبد الله بن أسيد ، وأدخلت عليه الأموال التي جاءت من قبيل الحجاج ، حتى وُضِعَتْ بين يديه ، فقال :

« هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة ، لا ما فعل هذا ، (وأشار إلى خالد) استعملته على العراق ، فاستعمل كل مُلِطٍ^(٣) فاسق ، فأذوا إليه العشرة واحداً ، وأدى إلى من العشرة واحداً ، واستعملت هذا على خراسان (وأشار إلى أمية^(٤)) فأهدى إلى بَرْدَوَيْنِ حَطَمَيْنِ^(٥) ، فإن استعملتكم ضَيَّعْتُمْ ، وإن عزاتكم قلتم استخف بنا ، وقطع أرحامنا »

فقال خالد بن عبد الله : « استعملتني على العراق ، وأهله رجلان : سامع مطيع مُنَاصِح ، وعدو مُبْغِضٌ مُكَاشِحٌ^(٦) ، فأما السامع المطيع المناصح فإننا جَزَيْنَاهُ ، ليزداد وُداً إلى وده ؛ وأما المبغض المكاشح ، فإننا داريناه ضِغْنَهُ ،

[١] وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبي العاص « جدَّ عبد الملك » إلى الطائف — انظر ص ٦٧ — أظم بها ، فكان يرعي غنيمات اغتدما يشرب من لبنها ، ويأري إلى حيلة « مصفر حيلة كفرصة وهي الكرمة » وقوله رحم الله عثمان : أي لرده إياه ، وقد أبى أبوبكر وعمر أن يرداه .
[٢] هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد ولاء عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير على البصرة وأعمالها سنة ٧١ هـ ، وهزله عنها سنة ٧٤ وولاهها أخاه بشر بن مروان ، وكان على ولاية الكوفة ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه .

[٣] لطَّ حقه وأظفه : جمعه . [٤] هو أمية بن عبد الله أخو خالد هذا ، ولاء عبد الملك على خراسان ، حتى كانت سنة ٧٨ هـ ، فحجج سلطانه للحجاج ، فبعث المهلب بن أبي صفرة إليها .

[٥] فرس حطم ككثف : إذا هزل وأسن فضض وتهتم .

[٦] الكاشح : الذي يصير لك الدواة ، كشح له بالدواة وكاشحه بمعنى .

وَسَلَّمْنَا حِقْدَهُ ، وَكَثَرْنَا لَكَ الْمَوْدَةَ فِي صَدُورِ رَعِيَّتِكَ ، وَإِنْ هَذَا جَبَى الْأَمْوَالِ ،
وَزَرَعَ لَكَ الْبَغْضَاءَ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ ، فَيُوشِكُ أَنْ تَنْبُتَ الْبَغْضَاءُ فَلَا أَمْوَالَ
وَلَا رِجَالَ » .

فلما خرج ابن الأشعث . قال عبد الملك : « هذا والله ما قال خالد » .

(القد الفريد ٢ : ١١٧)

٢١٥ — نصيحة لعمر بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان

ورأى عمرو بن عتبة بن أبي سفيان رجلاً يشتم رجلاً ، وآخر يسمع منه

فقال للمستمع :

« نَزَّهْ سَمْعَكَ عَنْ اسْتِمَاعِ الْخَنَا ، كَمَا تَنْزَهُ لِسَانَكَ عَنِ الْكَلَامِ بِهِ ، فَإِنَّ السَّامِعَ

شَرِيكَ الْقَائِلِ ، وَإِنَّمَا نَظَرُ إِلَى شَرٍّ مَا فِي وَعَائِهِ فَأَفْرَغَهُ فِي وَعَائِكَ ، وَلَوْ رُدَّتْ كَلِمَةُ

جَاهِلٍ فِي فِيهِ ، لَسَعِدَ رَأْدُهَا ، كَمَا شَقِيَ قَائِلُهَا » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

٢١٦ — تأديب معاوية لجلسائه

أَذِنَ مَعَاوِيَةَ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - وَقَدْ وَافَى مَعَاوِيَةَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ -

فَقَدَّمَهُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَ^(١) مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ ، وَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ فَجَلَسَ بَيْنَ

مَعَاوِيَةَ وَالْأَحْنَفِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَذِنَّا لَكَ قَبْلَكَ ، إِلَّا لِيَجْلِسَ إِلَيْنَا دُونَكَ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا

يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ قَدْرِهِ ، إِلَّا مِنْ ذِلَّةٍ يَجِدُهَا ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلَ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ

نَفْسِهِ ذِلًّا وَضَعَةً ، وَإِنَّا كَمَا نَمْلِكُ أُمُورَكُمْ ، نَمْلِكُ تَأْدِيبَكُمْ ، فَأُرِيدُوا مِنَّا مَا نُرِيدُهُ

مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لَكُمْ ، وَإِلَّا قَصَرْنَا كَمُكْرُهَا ، فَكَانَ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ وَأَعْنَفَ بِكُمْ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٢١٧ — كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه

ولما سقطت ثنيتًا معاوية لَفَّ وجهه بعمامة ، ثم خرج إلى الناس ، فقال :
 « لئن ابتليتُ لقد ابتليَ الصالحون قبلي ، وإنني لأرجو أن أكون منهم .
 ولئن عُوقبتُ لقد عوقب الخاطئون قبلي ، وما آمن أن أكون منهم . ولئن سَقَطَ
 عُضْوَانِ مني ، لَمَا بَقِيَ أَكْثَرُ . ولو أَتَى على نفسي لَمَا كَانَ لي عليه خِيَارٌ تَبَارَكَ
 وتعالى ، فَرحِمَ الله عبدًا دعا بالعافية ، فوالله لئن كَانَ عَتَبَ علىَّ بعضُ خَاصَّتِكُمْ ،
 لقد كُنْتُ حَدِّبًا ^(١) على عامَّتِكُمْ » . (البيان والنبين ٣ : ٢٢١)

٢١٨ — تقرير عبد الملك بن مروان لأحد عماله

وروى الجاحظ قال .

« قال أبو الحسن : كَانَ عبد الملك بن مَرْوَانَ شَدِيدَ الْيَقَظَةِ ، كثير التعاهد
 لَوَلَاتِهِ ، فبلغه أن عاملاً من عماله قَبِلَ هَدِيَّةً ، فَأَمَرَ بِإِشْخَاصِهِ إِلَيْهِ ، فلما دخل
 عليه قال له : « أَقْبَلْتَ هَدِيَّةً مِنْذُ وَلِيَّتِكَ ؟ » قال : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بلادك
 حَامِرَةٌ ، وَخَرَاجُكَ مَوْفُورٌ ، وَرَعِيَّتُكَ عَلَى أَفْضَلِ حَالٍ » قال : « أَجِبْ فِيمَا سَأَلْتُكَ
 عَنْهُ ، أَقْبَلْتَ هَدِيَّةً مِنْذُ وَلِيَّتِكَ ؟ » قال : نعم . قال : « لئن كُنْتُ قَبِلْتُ وَلَمْ
 تَعَوِّضْ إِنَّكَ لَلْأَيْمِ ، وَلئن أَنَلْتَ مُهْدِيكَ لَا مِنْ مَالِكَ ، أَوْ اسْتَكْفَيْتَهُ مَا لَمْ يَكُنْ
 يُسْتَكْفَاهُ ، إِنَّكَ لَجَارٌّ خَائِنٌ ، وَلئن كَانَ مَذْهَبُكَ أَنْ تَعَوِّضَ الْمُهْدِيَ إِلَيْكَ مِنْ
 مَالِكَ ، وَقَبِلْتَ مَا اتَّهَمَكَ بِهِ عِنْدَ مَنْ اسْتَكْفَاكَ ، وَبَسَطَ لِسَانَ قَائِمِكَ ، وَأَطْمَعُ
 فِيكَ أَهْلَ عَمَلِكَ ، إِنَّكَ لَجَاهِلٌ ، وَمَا فِيمَنْ أَتَى أَمْرًا لَمْ يَخْلُ فِيهِ مِنْ دَنَاءَةٍ ، أَوْ
 خِيَانَةٍ ، أَوْ جَهْلٍ ، مُضْطَنَعٌ ، نَحْيَاهُ عَنْ عَمَلِهِ » . (البيان والنبين ٣ : ٢٢٠)

طلب معاوية البيعة ليزيد

لما كانت سنة ثلاث وخمسين ، أظهر معاوية عهداً مُفْتَعِلاً ، فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، فلم يزل يَرُوضُ الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويُعطى الأقارب ، ويُداني الأبعاد ، حتى استوثق له من أكثر الناس . فقال لعبد الله بن الزبير : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، إني أناديك ولا أناجيك ^(١) ، إن أخاك مَنْ صدَقَكَ ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكير قبل التندم » فضحك معاوية وقال : « ثعلبٌ رَوَّاعٌ ! تعامت السَّجَاعَةُ ^(٢) عند الكبر ، فى دونِ ما سَجَعْتَ به على ابن أخيك ما يكفيك » .

ثم التفت إلى الأحنف بن قيس ، فقال : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » . قال : « نخافكم إن صدقناكم ، ونخافُ الله إن كذبنا » .

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يَفِدُوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم ^(٣) ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حَزْم ، فخلا به معاوية ، وقال له : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحبُّ إلى رشدًا من نفسك سوى نفسى ، وإن يزيد أصبح غنياً فى المال ، وَسَطًا فى الحَسَب ، وإن الله سائلٌ كلَّ راجعٍ عن رعيته ، فاتق الله ، وانظر مَنْ تولى أمرَ أمة محمد » فأخذ

[١] ناجيته : ساررته . [٢] وفى العقد « السجاعة » وهو نصيف ، ولم أجد « سجاعة » فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها هو « سجع » كشمس مصدر سجع كقطع ، وأرى أنها سجاعة ككتابة ، وقد ورد فى كلام المبرد : « فإن المختار كان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون . . . الخ » [٣] هكذا ورد فى العقد الفريد ، وفى مروج الذهب : أن وفود تلك الوفود كان سنة تسع وخمسين ، والمفهوم مما ورد فى الامامة والسياسة أن وفودها كان قبل سنة ٥٠ ، وفى حياة الحسن بن على رضى الله عنه كما يتبين لك مما سيرد بعد (وقد تولى الحسن سنة ٤٩ ، أو سنة ٥٠ أو سنة ٥١) .

معاوية بهز^(١) حتى تنفس الصعداء^(٢) ، وذلك في يوم شاتٍ ، ثم قال : « يا محمد : إنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك ، ولم يكن عليك إلا ذاك . قال معاوية : إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم ، فابني أحبُّ إليَّ من أبنائهم ، اخرج عني » .

ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري ، فقال له : « إذا جلست على المنبر ، وفرغت من بعض موعظتي وكلامي ، فاستأذني للقيام ، فإذا أذنت لك فاحمد الله تعالى . واذكر يزيد . وقل فيه الذي يحقُّ له من حسن الثناء عليه . ثم ادعني إلى توليته من بعدى . فإنني قد رأيت وأُجمعتُ على توليته . فأسألُ الله في ذلك وفي غيره الحيرة^(٣) وحسن القضاء . ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، وعبد الله بن مسعدة الفزاري ، وثور بن معن السلمي ، وعبد الله بن عصام الأشعري ، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك ، وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى يزيد .

وجلس معاوية في أصحابه ، وأذن للوفود فدخلوا عليه ، فخطبهم ، فلما فرغ من بعض موعظته - وهؤلاء النفر في المجلس قد قعدوا للكلام - قام الضحاك بن قيس فاستأذن فأذن له .

٢١٩ — خطبة الضحاك بن قيس الفهري

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به ، إنا قد بلونا^(٤) الجماعة والألفة ، فوجدناها أحقنَ للدماء ، وآمنَ للسُّبُل ، وخيراً في العاقبة والآجلة ، ولا خير لنا أن نُترك سُددى ، والأيام عُوْج^(٥) راجع ، والأنفس يُغْدَى عليها وَيُرَاحُ ،

[١] البهر بالفتح : العجب . [٢] تنفس طويل . [٣] أى أسأله أن يختار لنا الأفضل ، خاربه

على غيره خيرة بكسر الحاء مع سكون الياء وفتحها : فضله وخار الله له في الأمر : جعل له فيه الخير .

[٤] خبرنا . [٥] بمعنى راجع جمع طائفة اسم فاعل من عاج إذا رجع أى أن الأيام تموج عني الإنسان فقلبه ما أعطى من الحياة ومتع العيش .

والله يقول : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » . ولسنا ندري ما يختلف به العصران ^(١) ، وأنت يا أمير المؤمنين ميت ، كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ، نسأل الله تعالى بك المتاع ، وقد رأينا من دَعَا يزيد ابن أمير المؤمنين ، وحُسن مذهبه ، وقصد ^(٢) سيرته ، ويؤمن تَقِيَّتَه ^(٣) ، مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين ، والشَّبهَ بأمير المؤمنين ، في عقله وسياسته وشيمته المَرْضِيَّة ، مادعانا إلى الرضا به في أمورنا ، والقنوع به في الولاية علينا ، فَلْيُؤَلِّهِ أمير المؤمنين - أكرمهم الله - عهدَه ، وليجعلنا لنا ملجأ ومَفْرَعا بعده ، نَأْوِي إليه إن كَانَ كَوْنٌ ^(٤) ، فإنه ليس أحد أحقَّ بها منه ، فاعزم على ذلك ، عزم الله لك في رشدك ، ووقفك في أمورنا .

٢٢٠ — خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمانٍ مختلفةٍ أهواؤه ، قد اختلفت علينا سياساؤه ^(٥) ، واختلفت علينا أدباؤه ، وأناخت علينا أنباؤه ، ونحن نُشير عليك بالرشاد ، وندعوك إلى السداد ، وأنت يا أمير المؤمنين

[١] العصر : اليوم والليلة والمعنى إلى احمرار الشمس والغداة . [٢] القصد : استقامة الطريق .

[٣] الفقيه : الفس ، وهي أيضا العقل ، والمشورة ، وفاز الرأي ، والطبيعة .

[٤] أى إن حدث حدث . [٥] السياساء : منتظم تقار الطاهر ، وحله على سياساء الحق أى على

حده ، والعرب تضر به مثلا لشدة الأسر ، قال الشاعر :

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا على يابس السياساء بدود الطاهر

يقول : حملناهم على مركب صعب كسياساء الحمار ، أى حملناهم على مالا يثبت على مثله .

[٦] اقطوط : انزعول من قطب ، وقطب القوم : اجتمعوا ، وقطب بين عينيه : جمع ، والمراد :

اجتمعت وتراكمت علينا أدواؤه ، ولم أجد كلمة « اقطوط » في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها « اقطوطى » أى قارب في مشيه لإسرافه .

أَحَسَدْنَا نَظْرًا ، وَأَبْدَيْنَا ^(١) بَصَرًا ، وَيَزِيدُ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَرَفْنَا سِيرَتَهُ ، وَبَلَوْنَا عِلَانِيَتَهُ ، وَرَضِينَا وَلَايَتَهُ ، وَزَادْنَا بِذَلِكَ انْبِسَاطًا ، وَبِهِ اغْتِبَاطًا ^(٢) ، مَعَ مَا مَنَحَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْبَةِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْحُبَّةِ فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَاعْزِمِ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تَضِقْ بِهِ ذَرْعًا ^(٣) ، فَاللَّهُ تَعَالَى يُقِيمُ بِهِ الْأَوَدَ ^(٤) ، وَيُرَدِّعُ بِهِ الْأَلَدَ ^(٥) ، وَيُؤْمِنُ بِهِ السَّبِيلُ ، وَيَجْمَعُ بِهِ الشَّعْلَ ، وَيُعْظِمُ بِهِ الْأَجْرَ ، وَيُحْسِنُ بِهِ الذُّخْرَ . « ثُمَّ جَلَسَ .

٢٢١ — خطبة ثور بن معن السلمي

فَقَامَ ثُورُ بْنُ مَعْنٍ السَّامِيُّ ، فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ ، صَاحِبُهُ مُشَاغِبٌ ^(٦) ، وَظِلُّهُ ذَاهِبٌ ^(٧) ، مَكْتُوبٌ عَلَيْنَا فِيهِ الشَّقَاءُ وَالسَّعَادَةُ ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَيِّتٌ ، نَسْأَلُ اللَّهَ بِكَ الْمَتَاعَ ، وَيَزِيدُ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَقْدَمُنَا شَرَفًا ، وَأَبْدَلُنَا عُرْفًا ^(٨) ، وَقَدْ دَعَانَا إِلَى الرِّضَا بِهِ ، وَالْقَنُوعِ بِوَلَايَتِهِ ، وَالْحَرَصِ عَلَيْهِ ، وَالِاخْتِيَارِ لَهُ ، مَا قَدْ عَرَفْنَا مِنْ صِدْقِ لِسَانِهِ وَوَفَائِهِ ، وَحُسْنِ بِلَائِهِ ، فَاجْعَلْ لَنَا بَعْدَكَ خَلَفًا ، فَإِنَّهُ أَوْسَعُنَا كَنَفًا ^(٩) ، وَأَقْدَمُنَا سَلَفًا ، وَهُوَ رَثَقٌ لِمَا فُتِقَ ، وَزِمَامٌ لِمَا شَمِتَ ^(١٠) ، وَنَكَالٌ لِمَنْ فَارَقَ وَنَافَقَ ، وَسَلَمٌ لِمَنْ وَاطَبَ . وَحَافِظٌ لِلْحَقِّ .
أَسْأَلُ اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلَ الْبَقَاءِ وَالسَّعَادَةِ ، وَالْخَيْرَةِ فِيمَا أَرَادَ ، وَالتَّوْطُنَ فِي الْبِلَادِ ، وَصَلَاحَ أَمْرِ جَمِيعِ الْعِبَادِ . « ثُمَّ جَلَسَ .

[١] لعله « وأثنتنا » . [٢] سبط فلانا فانحسط : سره والاحتباط : المسرة .

[٣] ضاق بالأمر ذرعًا : ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصًا . [٤] الاعوجاج .

[٥] الألد : الخصم الشحيح الذي لا يريغ إلى الحق .

[٦] صاحبه يعنى به معاوية ، أى يشاغبه المشاغبون ، اسم مفعول من الشغب : وهو تهييج الشر .

[٧] كناية عن دنو أجله . [٨] المعروف . [٩] الكنف : الظل والجانب .

[١٠] شعث الأمر ، كفرح شعثًا : انتشر وتفرق .

٢٢٢ — خطبة عبد الله بن عصام الأشعري

فقام عبد الله بن عَصَام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد أصبحنا في دُنْيَا مُنْقَضِيَةٍ ،
 وأهواءٍ منجذمة ^(١) ، نخاف حَذَّهَا ، وننتظر جِدَّهَا ، شديدٍ مُنَحَدَرُهَا ، كثيرٍ
 وَعَظْرُهَا ، شاحخةٍ مَرَاقِبُهَا ^(٢) ، ثابتةٍ مَرَاتِبُهَا ، صعبةٍ مَرَاكِبُهَا ، فالموتُ يا أمير
 المؤمنين وراءك ووراء العباد ، لا يخلد في الدنيا أحد ، ولا يَبْقَى لنا أَمَدٌ ^(٣) ،
 وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ، ومأخوذ بولايتك ، وأنت أنظر
 الجماعة ، وأعلى عينًا بِحُسْنِ الرَّأْيِ لأهل الطاعة ، وقد هُدِيتَ ليزيدَ في أكمل
 الأمور ، وأفضلِها رأيًا ، وأجمعِها رِضًا ، فاقطع بيزيدَ قَالَةَ ^(٤) الكلام ، ونُخْوَةَ ^(٥)
 المُبْطِلِ ، وشَعَثَ المنافق ، واكْبِتْ ^(٦) به الباذخ ^(٧) المعادي ، فإن ذلك أَلَمٌ
 للشَّعَثِ ، وأسهل للوَعَثِ ^(٨) ، فاعزم على ذلك ، ولا تتراعى بك الظنون .

٢٢٣ — خطبة عبد الله بن مسعدة الفزاري

ثم قام عبد الله بن مَسْعَدَةَ الفزاري ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إن الله قد آثرك بخلافته ، واختصَّك
 بكرامته ، وجعلك عِصْمَةً لأوليائه ، وذانِكَايةً لأعدائه ، فأصبحت بأَنْعُمِهِ
 جَذَلًا ، وَلِمَا حَمَلَكَ مُحْتَمِلًا ، يكشف الله تعالى بك العمى ^(٩) ، وَيَهْدِي بك

[١] جذمه فانجذم : قطعه . [٢] المراقب : جمع مرقب (بكسر الميم) المكان المشرف ، يقف
 عليه الرقيب . [٣] الأمد : الغاية والمنتهى .

[٤] قالة : جمع قائل ، أو مصدر قال كالقول ، والقال ، والقليل . [٥] الكبر والعظمة .
 [٦] كبته : صرعه وأخزاه ، ورد العدو بغِيْظِهِ ، وأذله . [٧] بذخ كفرح ونصر : تكبر وعلا ،
 وشرف باذخ : طال . [٨] وعث الطريق من بابي تعب وقرب إدا شق على السالك ، فهو وعث
 (يسكون العين وكسرها) . [٩] العمى هنا : ذهاب بصر القلب .

العِدَا ، ويزيدُ ابنُ أمير المؤمنين أحسنُ الناس برعيتك رَأْفَةً ، وأحقُّهم بالخلافة بعدك ، قد ساسَ الأمورَ ، وأحكمته الدهورُ ، ليس بالصغير الفَهِيه ^(١) ، ولا بالكبير السَفِيهِه ، قد احتجَن ^(٢) المكارم ، وارتُجِحَ لِحُلِّ العِظَائِم ، وأشد الناس في العدو نكايَةً ، وأحسنهم صُنْعاً في الولاية ، وأنت أغنى بأمرِك ، وأحفظُ لوصيتك ، وأحرزُ لنفسك ، أسأل الله لأمير المؤمنين العافيةَ في غير جَهْدٍ ^(٣) ، والنعمةَ في غير تَغْيِيرٍ .

٢٢٤ — خطبة عمرو بن سعيد الأشدق

فقال معاوية لعمر بن سعيد الأشدق : قم يا أبا أمية ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن يزيدَ بن معاوية أَمَلٌ تَأْمُلُونَهُ ، وَأَجَلٌ تَأْمَنُونَهُ ، طویل الباع ، رَحْبُ الدَّرَاع ، إن استَضَفْتُم إلى حامه وَسِعَكم ، وَإِنْ أَحْتَجْتُم إلى رأيه أُرشدكم ، وإن افتقرتم إلى ذاتِ يده أَغْناكم ، جَذَعٌ ^(٤) قَارِحٌ ^(٥) ، سُوْبَقٌ فَسَبَقٌ ، وَمُوجِدٌ فَمَجِدٌ ، وَقُورِعٌ فَفَازَ سَهْمُهُ ، فهو خَلَفٌ أمير المؤمنين ، ولا خَلَفَ منه . » فقال له معاوية :

« اجلس أبا أمية . فلقد أوسعت وأحسننت . »

قال معاوية : « أَوْكَلْكم قَدْ أَجْمَعُ على هذا رأيه ؟ » فقالوا : « كُلُّنَا قَدْ

[١] الفهيه والفة : الذي ، فمه كفرح مهملة . [٢] احتجَن المال : ضمه واحتواه .

[٣] المشقة . [٤] الجذع : الشاب الحدث .

[٥] أي شديد مجرب ، وهو في الأصل وصف للفرس ، قرح الفرس قروحا : إذا ألقى أقصى أسنانه (وله أربع أسنان يتحول من بعضها إلى بعض ، يكون جذعا — وذلك إذا كان في السنة الثانية — ثم ثنيا « بفتح فكسر مع تشديد الياء » — في السنة الثالثة — ثم رابعياً « بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء » — إذا سقطت رابعيته ، ونبت مكانها سن وذلك إذا استتم الرابعة — ثم قارحا — إذا سقطت السن التي تلي رابعيته ونبت مكانها ثابته ، وهو قارحه الذي صار به قارحا ، واپس بعد انقروح سقوط سن ، ولا نبت سن ، وذلك إذا استتم الخامسة ودخل في السادسة) .

أجمع رأيه على ما ذكرنا » قال : « فأين الأحنف ؟ » فأجابه ، قال : « ألا تتكلم ؟ »
فقام الأحنف .

٢٢٥ — خطبة الأحنف بن قيس

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا في مُنْكَرٍ زمانٍ قد
سَلَفَ ، ومعروفٍ زمانٍ مُؤْتَنَفٍ ^(١) ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نِعَمَ الخَلَفِ ،
فَإِنْ تَوَلَّاهُ عَهْدُكَ ، فَمَنْ غَيْرِ كَبِيرٍ مُفْنٍ ، أَوْ مَرَضٍ مُضِيٍّ ، وَقَدْ حَلَبْتَ الدَّهْورَ ^(٢) ،
وَجَرَّبْتَ الْأُمُورَ ، فَاعْرِفْ مَنْ تُسْنِدُ إِلَيْهِ عَهْدَكَ ، وَمَنْ تَوَلِيهِ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِكَ ،
وَاعْصِ رَأْيَ مَنْ يَأْمُرُكَ ، وَلَا يَقْدِّرُ لَكَ ، وَيُشِيرُ عَلَيْكَ وَلَا يَنْظُرُ لَكَ ، وَأَنْتَ
أَنْظَرُ لِلْجَمَاعَةِ ، وَأَعْلَمُ بِاسْتِقَامَةِ الطَّاعَةِ ، مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ وَأَهْلَ الْعِرَاقِ لَا يَرْضَوْنَ
بِهَذَا ، وَلَا يَبَايِعُونَ لِيَزِيدَ مَا كَانَ الْحَسَنُ ^(٣) حَيًّا » .

٢٢٦ — خطبة الضحاك بن قيس

فغضب الضحاك بن قيس ، فقام الثانية ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النِّفَاقِ ، مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، مُرُوءَتُهُمْ فِي
أَنْفُسِهِمُ الشَّقَاقُ ، وَأَلْفَتُهُمْ فِي دِينِهِمُ الْفِرَاقُ ، يَرَوْنَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِمْ ^(٤) ،
كَأَنَّمَا يَنْظُرُونَ بِأَقْفَائِهِمْ . اخْتَالُوا جَهْلًا وَبَطَرًا . لَا يَرْقُبُونَ مِنَ اللَّهِ رَاقِبَةً ، وَلَا
يَخَافُونَ وَبَالَ عَاقِبَةٍ ، اتَّخَذُوا إِبْلِيسَ لَهُمْ رَبًّا ، وَاتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ حِزْبًا ، فَمَنْ يُقَارِبُوهُ

[١] مستأنف . [٢] هكذا في مروج الذهب ، وفي الامامة والسياسة : « وقد حلبت الدهر أشطره »
وأصله من حلب شطري الناقة (بفتح الشين) ولها شطران : قادمان وآخران (بكسر الحاء) والشطركل خلفين
من أخلافها ، والخلف (بكسر الحاء) لها كالضرع للبقرة ، وهو مثل يضرب للمجرب ، وأشطره بدل من
الدهر منصوب . [٣] هذا وما ورد في كلام الضحاك والأحنف بعد ، يدل على أن تلك الخطب كانت
في حياة الحسن بن علي كما أشرنا إليه قبل . [٤] أي على أغراضهم وميولهم .

لَا يَسُرُّوهُ . وَمَنْ يَفَارِقُوهُ لَا يَضُرُّوهُ . فَادْفَعْ رَأْيَهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَحْوِهِمْ ، وَكَلَامِهِمْ فِي صُدُورِهِمْ ، مَا لِلْحَسَنِ وَذَوِي الْحَسَنِ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي اسْتَخْلَفَ بِهِ مَعَاوِيَةَ فِي أَرْضِهِ ؟ هِيَ هَاتِ لَا تُورِثُ الْخِلَافَةَ عَنْ كِلَالَةٍ . وَلَا يَحْجُبُ غَيْرُ الذِّكْرِ الْعَصْبَةَ . فَوُطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ عَلَى الْمَنَاصِحَةِ لِإِمَامِكُمْ ، وَكَاتِبِ نَبِيِّكُمْ ^(١) وَصِيهِرِهِ ^(٢) ، يَسْلَمْ لَكُمْ الْعَاجِلُ ، وَتَرْجَحُوا مِنَ الْآجِلِ » .

٢٢٧ — خطبة الأحنف بن قيس

ثُمَّ قَامَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ، فَحَمْدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّا قَدْ فَرَرْنَا ^(٣) عَنْكَ قَرِيشًا ، فَوَجَدْنَاكَ أَكْرَمَهَا زَنْدًا ، وَأَشَدَّهَا عَقْدًا ، وَأَوْفَاهَا عَهْدًا ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَمْ تَفْتَحِ الْعِرَاقَ عَنُوةً ^(٤) ، وَلَمْ تَظْهَرْ عَلَيْهَا قَعْمًا ^(٥) ، وَلَكِنَّكَ أَعْطَيْتَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ مِنْ عَهْدِ اللَّهِ مَا قَدْ عَلِمْتَ ، لِيَكُونَ لَهُ الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ ، فَإِنْ تَفَّيْ فَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ ، وَإِنْ تَغْدِرْ ^(٦) تَعْلَمْ وَاللَّهِ أَنَّ وِرَاءَ الْحَسَنِ خِيُولًا جِيَادًا ، وَأَذْرُعًا شِدَادًا ، وَسِيُوفًا حِدَادًا ، إِنْ تَدْنُ لَهُ شِبْرًا مِنْ غَدْرٍ ، تَجِدْ وِرَاءَهُ بَاعًا مِنْ نَصْرِ ، وَإِنَّكَ تَعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا أَحْبَبُوكَ مِنْذُ أَبْغَضُوكَ ، وَلَا أَبْغَضُوا عَلِيًّا وَحَسَنًا مِنْذُ أَحْبَبُوهُمَا ، وَمَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَإِنَّ السِّيُوفَ الَّتِي شَهَرُوهَا عَلَيْكَ مَعَ عَلِيٍّ يَوْمَ صَفِّينَ ، لَعَلَى عَوَاتِقِهِمْ ، وَالْقُلُوبَ الَّتِي أَبْغَضُوكَ بِهَا ، لَبَيِّنَ جَوَانِحِهِمْ ، وَإِيمَ اللَّهِ إِنَّ الْحَسَنَ لَأَحَبُّ إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ مِنْ عَلِيٍّ » .

[١] وَكَانَ مَعَاوِيَةُ مِنْ كِتَابِ الْوَحْيِ . [٢] وَكَانَتْ أُخْتُهُ أُمُّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سَفْيَانَ زَوْجَ الْبَيْتِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

[٣] فَرِ الدَّابَّةِ : كَشَفَ عَنْ أَسْنَانِهَا لِيَنْظُرَ مَا سَنَهَا ، وَفَرَّ عَنْ الْأَمْرِ : بَحَثَ عَنْهُ .

[٤] فَتَحَ الْبَلَدَ عَنُوةً أَيْ قَهْرًا . [٥] مَاتَ قَعْمًا : أَصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ أَوْ رَمِيَتْ فَمَاتَ مَكَانَهُ .

[٦] غَدَرَهُ وَغَدَرَ بِهِ كَصَرَّ وَضَرَبَ وَسَمِعَ .

٢٢٨ — خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 «أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلفين ، وكثير منهم منحرف ،
 لا يدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يُجيبون داعياً إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ،
 مخالفون لهم في السنة والقضاء ، وقد وقفت إيزيد في أحسن القضية ، وأرضاها
 لحمل الرعية ، فإذا خار الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا
 حِلماً وعاماً ، وأوسعنا كنفاً ، وخيرنا سلفاً ، قد أحكمته التجارب ، وقصّدت به
 سُبُل المذاهب ، فلا يصرفنك عن بيعته صارف ، ولا يقفّن بك دونها واقف ،
 ممن هو شاسع^(١) عاصي ، يَبُوص^(٢) للفتنة كل مناصي ، أسائه ملتوي ، وفي
 صدره داء دوي ، إن قال فشرّ قائل ، وإن سكّمت فداء غائل^(٣) ، قد عرفنا من
 هم أولئك ، وما هم عليه لك ، من المجانبة للتوفيق ، والتكاف للتفريق ، فاجلّ ببيعته
 عنا النعمة ، واجمع به شمل الأمة ، ولا تَجِدْ عنه إذ هُديت له ، ولا تَنْبُشْ عنه إذ
 وُفِّقَ له ، فإن ذلك الرأي لنا ولك ، والحق علينا وعليك . أسأل الله العون
 وحسن العاقبة لنا ولك بمنّه .»

٢٢٩ — خطبة معاوية

فقام معاوية ، فقال :

«أيها الناس : إن لا إبليس من الناس إخواناً وخُلَائِنا ، بهم يَسْتَعِدُّ ، وإياهم
 يَسْتَعِين ، وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجّوا طمعاً أوجفوا^(٤) وإن استغنى عنهم

[١] من شسع المنزل كنع : بد . [٢] ناص ماصا : تحرك . [٣] من غاله أي أهلكه .

[٤] أسرعوا ، وجف البير والفرس وجيفا : عدا ، وأوجفته : إذا أعديته ، قال تعالى :

«فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ» أي ما أعلمتم .

أَرْجِفُوا^(١) ، ثُمَّ يُلْقِحُونَ^(٢) الْفِتْنَ بِالْفُجُورِ ، وَيَشَقُّونَ لَهَا حَطَبَ النِّفَاقِ ، عِيَّابُونَ مَرْتَابُونَ ، إِنْ لَوُوا عُرْوَةَ أَمْرٍ حَنَفُوا ، وَإِنْ دُعُوا إِلَى غِيٍّ أَسْرَفُوا ، وَلَيْسُوا أَوْلَئِكَ بِمُنْتَهَيْنَ وَلَا بِمُقْلَعِينَ وَلَا مَتَّعِظِينَ ، حَتَّى تَصِيبَهُمْ صَوَاعِقُ^(٣) خَزْيٍ وَبِيلٍ ، وَتَحُلَّ بِهِمْ قَوَارِعُ^(٤) أَمْرِ جَلِيلٍ ، تَجْتَثُّ^(٥) أَصُولَهُمْ كَأَجْتِثَاتِ أَصُولِ الْفَقْعِ ، فَأُولَى لِأَوْلَئِكَ ثُمَّ أُولَى ، فَإِنَّا قَدْ قَدَّمْنَا وَأَنْذَرْنَا ، إِنْ أَغْنَى التَّقَدُّمُ شَيْئًا أَوْ نَفَعَ النَّذْرُ^(٦) .

٢٣٠ — خطبة يزيد بن المقنع

ثم قام يزيد بن المقنع ، فقال :

« أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا — وَأَشَارَ إِلَى مَعَاوِيَةَ — ، فَإِنْ هَلَكَ فَهَذَا — وَأَشَارَ إِلَى يَزِيدَ — ، فَمَنْ أَبَى فَهَذَا — وَأَشَارَ إِلَى سَيْفِهِ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : اجْلِسْ فَإِنَّكَ سَيِّدُ الْخُطَبَاءِ .

٢٣١ — خطبة الأحنف

ثم تكلم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَنْتَ أَعْلَمُنَا بِيَزِيدَ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ ، وَمَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ لِلَّهِ رِضًا وَلِهَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَلَا تَشَاوِرِ النَّاسَ فِيهِ ،

[١] أَرْجَفَ الْقَوْمَ : خَاضُوا فِي أَخْبَارِ الْعَمَلِ وَنَحْوِهَا ، قَالَ تَعَالَى : « وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » .

[٢] فِي الْأَصْلِ « يُلْقِحُونَ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ ، وَصَوَابُهُ : « يُلْقِحُونَ » مِنْ أَلْفَحِ النَّاقَةِ وَالنَّحْلَةِ .

[٣] جَمْعُ صَاعِقَةٍ ، وَهِيَ الْمَوْتُ وَكُلُّ عَذَابٍ مُهِلِكٍ . وَأَرْضٌ وَبَيْلَةٌ : وَخِيْمَةُ الْمَرْحَمِ . [٤] جَمْعُ قَارِعَةٍ ،

وَهِيَ الدَّاهِيَةُ الْفَاجِئَةُ . قَالَ تَعَالَى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » .

[٥] تَهْتَلَعُ ، وَالتَّقَعُّ بِالْفَتْحِ وَيَكْسُرُ : الْبَيْضَاءُ الرَّخْوَةُ مِنَ الْكِدَاءِ .

[٦] النَّذْرُ الْإِنْذَارُ . قَالَ تَعَالَى : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي » أَيْ إِنْذَارِي ، وَفِي الْإِمَامَةِ

وَالسِّيَاسَةِ عَقِبَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ : « فِدَا مَعَاوِيَةَ الضُّحَاكُ فُلَوَاءَ الْكُوفَةِ » ، وَدَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ فُلَوَاءَ الْجَزِيرَةِ .

وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَلَا تَزُوْذْهُ الدُّنْيَا وَأَنْتَ صَائِرٌ إِلَى الْآخِرَةِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْآخِرَةِ إِلَّا مَا طَابَ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ قَدَّمْتَ يَزِيدَ عَلَى الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَنْ هُمَا ، وَإِلَى مَا هُمَا ، وَإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ : « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قال صاحب العقد : فتفرق الناس ، ولم يذكروا إلا كلام الأحنف ، ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دُعِيَ إِلَى الْبَيْعَةِ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مُعَاوِيَةَ » . فقال لَهُ مُعَاوِيَةُ : « تَعُوذُ مِنْ شَرِّ نَفْسِكَ ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْكَ وَبَايِعْ » فقال : « إِنِّي أَبَايِعُ وَأَنَا كَارِهِ لِلْبَيْعَةِ » ، فقال لَهُ مُعَاوِيَةُ : بايع أيها الرجل فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : « فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُهُوَ شَيْئًا وَيَجْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .
أما ابن قتيبة فيقول :

قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، فتلقاه الناس ، فلما استقرَّ في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، فلما جلسوا تكلم معاوية فقال :

٢٣٢ — خطبة معاوية

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِحَمْدِهِ ، وَوَعَدَنَا عَلَيْهِ ثَوَابَهُ ، نَحْمَدُهُ كَثِيرًا ، كَمَا أَنْعَمَ عَلَيْنَا كَثِيرًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَمَا بَعْدُ : فَإِنِّي قَدْ كَبِرَ سِنِّي ، وَوَهَنَ عَظْمِي ، وَقَرُبَ أَجْلِي ، وَأَوْشَكَتُ أَنْ أُدْغَى فَأُجِيبَ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَسْتَخْلَفَ عَلَيْكُمْ بَعْدِي يَزِيدُ ، وَرَأَيْتُهُ لَكُمْ

رِضًا ، وَأَتَمَّ عِبَادَلَهُ قَرِيشَ وَخِيَارُهَا وَأَبْنَاءَ خِيَارِهَا ، وَلَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُحْضِرَ حَسَنًا وَحُسَيْنًا إِلَّا أَنَّهُمَا أَوْلَادُ أَبِيهِمَا ، عَلَى حُسْنِ رَأْيِي فِيهِمَا ، وَشَدِيدِ مَحَبَّتِي لِهَمَا ، فَرُدُّوْا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا ، يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ .

٢٣٣ — خطبة عبد الله بن عباس

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَلْهَمَنَا أَنْ نَحْمَدَهُ ، وَاسْتَوْجِبَ عَلَيْنَا الشُّكْرَ عَلَى آلَائِهِ ، وَحُسْنِ بَلَاءِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ فَأَنْصِتْنَا . وَقُلْتَ فَسَمِعْنَا ، وَإِنْ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، اخْتَارَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرِسَالَتِهِ ، وَاخْتَارَهُ لَوْحِيهِ ، وَشَرَّفَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، فَأَشْرَفُ النَّاسِ مَنْ تَشَرَّفَ بِهِ ، وَأَوَّلَاهُمْ بِالْأَمْرِ أَخَصُّهُمْ بِهِ ، وَإِنَّمَا عَلَى الْأُمَّةِ التَّسْلِيمُ لِنَبِيِّهَا إِذْ اخْتَارَهُ اللَّهُ لَهَا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا اخْتَارَ مُحَمَّدًا بِعِلْمِهِ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . »

٢٣٤ — خطبة عبد الله بن جعفر

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ أَهْلُ الْحَمْدِ وَمُسْتَهَاهُ ، نَحْمَدُهُ عَلَى إلهَامِنَا حَمْدَهُ ، وَنَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاحِدًا صَمَدًا ^(١) ، لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنْ هَذِهِ الْخِلَافَةُ إِنْ أُخِذَ فِيهَا بِالْقُرْآنِ : فَ« أَوَّلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » ، وَإِنْ أُخِذَ فِيهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ، فَأَوَّلُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَإِنْ أُخِذَ بِسُنَّةِ الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ

[١] الصمد : السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج أى يقصد ، صمده من باب نصر : قصده .

وعمر، فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول؟ وإيم الله لو ولّوه بعد نبينهم، لوضعوا الأمر موضعه، لحقه صدقه، ولأطيع الله، وعصى الشيطان، وما اختلف في الأمة سيفان، فاتق الله يا معاوية، فإنك قد صرت راعياً ونحن رعية، فانظر لرعتك، فإنك مستول عنها غداً، وأما ما ذكرت من ابني عمي، وتركك أن تحضرهما، فوالله ما أصبت الحق، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم، فقل أودع، وأستغفر الله لي ولكم.

٢٣٥ — خطبة عبد الله بن الزبير

فتكلم عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذي عرفنا دينه، وأكرمنا برسوله، أحمدده على ما أبلى وأولى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة، تتناولها بآثرها السنيّة، وأفعالها المرصيّة، مع شرف الآباء، وكرم الأبناء، فاتق الله يا معاوية، وأنصف من نفسك، فإن هذا عبد الله ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليّ خلف حسناً وحسيناً، وأنت تعلم من هما، وما هما، فاتق الله يا معاوية، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

٢٣٦ — خطبة عبد الله بن عمر (المتوفى سنة ٧٤ هـ)

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

« الحمد لله الذي أكرمنا بدينه، وشرّفنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية، ولا قيصرية، ولا كسروية، يتوارمها الأبناء

عن الآباء ، ولو كان كذلك كنتُ القائمَ بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى ، إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنما هي في قریش خاصةً ، لِمَن كَانَ لها أهلاً ، ممن ارتضاء المسامون لأنفسهم ، مَن كَانَ أثقياً وأرضى ، فإن كنتَ تريد الفتيان من قریش ، فلعمري إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يُغني عنك من الله شيئاً .

٢٣٧ — خطبة معاوية

فتكلم معاوية فقال :

« قد قلتُ وقتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحبُّ إليَّ من أبنائهم ، مع أن ابني إن قالتموه ^(١) وجد مقالا ، وإنما كَانَ هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وَلَّى النَّاسُ أبا بكر وعمر ، من غير معَدِنِ الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمرَ منها . فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله . ثم أمر بالرحلة وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئاً من صلاتهم وأعطياتهم ^(٢) ، ثم انصرف راجعاً إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يَعْرِضْ لها إلى سنة إحدى وخمسين .

* * *

قال ابن قتيبة : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمة الله (سنة ٥١) إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب يبيعته إلى الآفاق ، وكان عامله على

[١] قائل : فاعل من القول ، كحادث وخاطب وكالم . [٢] أعطيات جمع أعطية وهو جمع عطاء .

المدينة مروان بن الحكم ، فكتب إليه بذلك وأمره أن يجمع مَنْ قَبْلَهُ من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، ثم يبايعوا يزيد ، فلما قرأ كتاب معاوية أُنْبِى من ذلك وأَبَتْهُ قريش ، وكتب إلى معاوية: إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنتك ، فأرِنِي رأيك ، فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ، وَيخبره أنه قد وَلَّى المدينة سعيد بن العاص ، فخرج مروان مُغاضِبًا في أهل بيته وأخواله من بنى كِنانة حتى أتى دمشق ، ودخل على معاوية ، فسلم عليه بالخلافة ، ثم قال :

٢٣٨ — خطبة مروان بن الحكم

«إن الله عظيمٌ خَطَرُهُ ، لَا يَقْدِرُ^(١) قَادِرٌ قَدَرُهُ ، خَلَقَ من خَلْقِهِ عِبَادًا ، جعلهم لدعائهم دينه أوتادًا ، هم رُقَبَاؤُهُ على البلاد ، وَخَلَفَاؤُهُ على العباد ، أَسْفَرَ^(٢) بهم الظلم ، وَأَلْفَ بهم الدين ، وَشَدَّدَ بهم اليقين ، وَمَنَعَ بهم الظفرَ ، وَوَضَعَ بهم من استكبر ، فَكَانَ مَنْ قَبْلَكَ من خلفائنا ، يعرفون ذلك في سالف زماننا ، وَكُنَّا نكون لهم على الطاعة إخوانًا ، وَعَلَى من خالف عنها أعوانًا ، يُشَدُّ بنا الْعَصْدُ ، وَيُقَامُ بنا الْأَوْدُ ، وَنُسْتَشَارُ في القضية ، وَنُسْتَأْذَنُ^(٣) في أمر الرعية ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا اليوم في أمور مستحيرة^(٤) ، ذات وجوه مستديرة ، تُفْتَحُ بأزمة الضلال ، وَتُحْلَسُ^(٥) بأسوأ الرجال ، يُؤْكَلُ جَزُورُهَا^(٦) ، وَتُتَمَتَّقُ أَحْلَامُهَا^(٧) ، فإنا

[١] قدره من بابى نصر وضرب وقدره نقديرا: عطيه ، قال تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» أى ما عظموه حتى تعظييه . [٢] سفر الصبح وأسفر: أضاء وأشرق ، أو هو متبد من سفرت الحرب أى ولت ، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها ، فالعنى كشف بهم الظلم . [٣] الاستئذان المشاورة . [٤] فى الأصل «مستحيرة» أى مستحير صاحبها من استئذان الله فى أمره : طلب أن يجعل له فيه الخير ، وأرى أنها «مستحيرة» بالحاء أى مستحير صاحبها أى متحير ، من استحار إذا تبار إلى الشيء ، بمعنى عليه ولم يهتد لسبيله ، ويؤيد هذا قوله بعد « ذات وجوه مستديرة » أى مستغلقة مبهمه ليست مسقيمة . [٥] حلس البعير كفريه : غشاه بحلس (بكسر الحاء) وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة « وفى الأصل » وتجلس بأسوأ الرجال « بحيين وهو تصحيف » . [٦] الجزور : البعير أو خاص بالناقة المجزورة . [٧] امتق الفصيل مالى الفرع شربه كله ، والأحلاب جمع حلب (بفتحين) وهو اللبن الملوب.

لا نَسْتَأْمَرَ فِي رِضَاعِهَا ، وَنَحْنُ فِطَامُهَا وَأَوْلَادُ فِطَامِهَا ، وَآيَمُ اللَّهِ لَوْلَا عَهْدُ مُوَكَّدَةٍ ، وَمَوَائِقُ مُعَقَّدَةٍ ^(١) ، لَأَقَمْتُ أَوْدَ وَلِيَّهَا ، فَأَقِمِ الْأَمْرَ يَا بَنَ أَبِي سَفْيَانَ ، وَاعْدِلْ عَنْ تَأْمِيرِكَ الصَّبِيَّانَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ فِي قَوْمِكَ نُظَرَاءَ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَلَى مَنَاوَأَتِكَ وَزَرَاءَ .

فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً ، ثم كظم غيظه بحلمه ، وأخذ بيد مروان ، ثم قال :

٢٣٩ — خطبة معاوية

« إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ أَصْلاً ، وَجَعَلَ لِكُلِّ خَيْرٍ أَهْلاً ، ثُمَّ جَعَلَكَ فِي الْكَرَمِ مَنَى مُخْتِداً ^(٢) ، وَالْعَزِيزِ مَنَى وَالِدَاً ، اخْتَرْتَ مِنْ قُرُومٍ ^(٣) قَادَةً ، ثُمَّ اسْتَلَيْتَ سَيِّدَ سَادَةٍ ، فَأَنْتَ ابْنُ يَنَابِيعِ الْكَرَمِ ، فَمَرَّحَبًا بِكَ وَأَهْلاً مِنْ ابْنِ عَمٍّ ، ذَكَرْتَ خُلَفَاءَ مَفْقُودِينَ ، شُهَدَاءَ صِدِّيقِينَ ، كَانُوا كَمَا نَعْتٌ ، وَكَانَتْ لَهُمْ كَمَا ذَكَرْتَ . وَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي أُمُورٍ مُسْتَحِيرَةٍ ، ذَاتِ وُجُوهِ مُسْتَدِيرَةٍ ، وَبِكَ وَاللَّهِ يَا بَنَ الْعَمِّ نَرْجُو اسْتِقَامَةَ أَوْدِهَا ، وَذُلُولَةَ ^(٤) صَعُوبَتِهَا ، وَسُفُورَ ظُلُمَتِهَا ، حَتَّى يَتَطَاطَأَ ^(٥) جَسِيمُهَا ، وَيُرْكَبَ بِكَ عَظِيمُهَا ، فَأَنْتَ نَظِيرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَغُدَّتْهُ فِي كُلِّ شِدِيدَةٍ وَعِضْدَةٍ ، وَالثَّانِي بَعْدَ وَلِيِّ عَهْدِهِ ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ قَوْمَكَ ، وَأَعْظَمْتُ فِي الْخِرَاجِ سَهْمَكَ ، وَأَنَا مُجِيزٌ وَفْدَكَ ، وَمُحْسِنٌ رِفْدَكَ ^(٦) ، وَعَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ غِنَاكَ ، وَالنَّزُولِ عِنْدَ رِضَاكَ ^(٧) . »

[١] اسم مفعول من عقد بالتشديد مضعف عقد الحبل والبيع والعهد إذا شده .

[٢] المختد : الأصل . [٣] جمع قرم بالفتح وهو السيد . [٤] هكذا في الأصل ، وفي كتب

اللافة : « الدل بالكسر والضم اللين وهو ضد الصعوبة ، ذلة فهو ذلول ، يكون في الإنسان والدابة » .

[٥] طأطأ رأسه خفضه فتطأطأ . [٦] الرغد : العطاء والصلة .

[٧] قال المسعودي : « وجعله ولي عهد يزيد وورده إلى المدينة ، ثم إنه عزله عنها ، وولاهها الوليد بن

عتبة بن أبي سفيان ، ولم يف مروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد » ، وقال ابن قتيبة : « فكان أول

مارزق ألف دينار في كل هلال ، وفرض له في أهل بيته مائة مائة » .

٢٤٠ — مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وروى أن مروان لما ورد عليه كتاب معاوية ، قرأه على أهل المدينة وقال :
« إن أمير المؤمنين قد كبر سنّه ، ودَقَّ عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله
تعالى ، فيَدَعِ الناس كالنعم لاراعى لها ، وقد أحب أن يُعْلِمَ عَلمًا ، ويُقيم إمامًا » ،
فقالوا: وَفَقَّ الله أمير المؤمنين وسدّده ، لِيَفْعَلَ ، فكتب بذلك إلى معاوية ، فكتب
إليه أن سَمَّ يَزِيدَ ، فقرأ الكتاب عليهم وسَمَّى يزيد ، وخطبهم فخصّهم على الطاعة ،
وحذّره الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنّة أبي بكر الهادية المهدية ، فقام
عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال : « كذبت والله يا مروان ، وكذب معاوية معك ،
إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، وباع لرجل من بني عديّ رضى دينه وأماته ،
واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يكون ذلك ، لا تُحْدِثُوا علينا سنّة
الروم ، كلما مات هرقل قام مكانه هرقل » ، فقال مروان : « أيها الناس : إن
هذا المتكلم هو الذى أنزل الله فيه : « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ، أَتَعِدَانِي
أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ^(١) » ، فقال له عبد الرحمن :

[١] أخرج : أبث ، قال صاحب الأملى : « فسمعت ذلك عائشة رضى الله عنها فقالت : ألا بن الصديق
يقول هذا ؟ استرونى فستروها ، فقالت : كذبت والله يا مروان إن ذلك لرجل معروف نسيه » ، وقال
المفسرون في هذه الآية : « والمراد (بالذى قال) الجنس القائل ذلك القول ، وعن الحسن : هر في الكافر
العاق لوالديه ، المكذب بالبعث ، وعن قتادة : سمعت عبد سوء : عاق لوالديه ، فاجر لربه ، وقيل نزلت في
عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فأف فيهما ،
وقال : ابعثوا إلى حدعان بن عمرو ، وعثمان بن عمرو — وهما من أجداده — حتى أسألهما عما يقول محمد ،
ويشهد ببطلانه أن المراد بالذى قال الجنس القائلين ذلك ، وأن قوله : « الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ »
هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم ، وعن عائشة رضى الله عنها إنكار نزولها
فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان أن يبايع الناس ليزيد ، قال عبد الرحمن : لقد بعثتم بها هرقلية ، أتبايعون
لأبنائكم ، فقال مروان : بأيها الناس هو الذى قال الله فيه « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ... الآية » فسمعت
عائشة فغضبت ، وقالت : « والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته » ، أما أنت يا مروان ، فأشهد أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت في صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله » اهـ

«يا بن الزرقاء»^(١)، أفينا تتأول القرآن؟ وتكلم الحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وأنكروا بيعة يزيد، وتفرق الناس، فكتب مروان إلى معاوية بذلك.

قال ابن قتيبة: فقدم معاوية المدينة حاجاً، ثم أرسل إلى الحسين بن عليّ وعبد الله بن عباس فحضرا، وابتدأ معاوية فتال:

٢٤١ — خطبة معاوية

«أما بعد: فالحمد لله وليّ النعم، ومُنزل النّقم، وأشهد أن لا إله إلا الله، المتعالي عما يقول الملحّدون علّواً كبيراً، وأن محمداً عبده المختصّ المبعوث إلى الجن والإنس كافّة، لينذّرهم بقرآن: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»، فأدّى عن الله، وصدّع^(٢) بأمره، وصبر على

(وقولها بعض كجبل ويروى كمنق وغراب أى قطعة منها).

وجاء في السيرة الحلبية (١: ٣٠٢): «عن الواقدي، استأذن الحكم بن أبي العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرف صوته، فقال: «أندنوا له لعله الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمن منهم — ونليل ما هم — دوو مكر وخديعة، يعطون الدنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق»، وكان لا يولد لأحد ولد ماله فيه إلا أنى به النبي صلى الله عليه وسلم، فأتى إليه بمروان لما ولد، فقال: «هو الوزغ بن الوزغ، للمعول بن للمعول» وعن جبير بن مطعم: كُتِبَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآن الحكم بن أبي العاص، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وبل لأمتي مما في صلب هذا». وجاء في أسد السادة في ترجمته: «ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، في هجائه لعبد الرحمن بن الحكم، فقال:

إن الامين أبوك فارم عظامه إن ترم ترم مخلصا مجنوناً

وقد روى في لئنه ونفيه أحاديث كثيرة لا حاجة إلى ذكرها، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي صلى الله عليه وسلم، مع حلمه وإغصانه على ما يكره، ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم، وجاء في الفخرى ص ١٠٨ «ورويت أحاديث وأخبار في لعنة الحكم بن أبي العاص، ولعنة من في صلبه، وضعفها قوم».

[١] في الفخرى ص ١٠٨ «وكان من أراد ذم مروان وعبيه يقول له «يا بن الزرقاء» قالوا: وكانت الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التي يستدل بها على بيوت البغايا في الجاهلية، فلذلك كانوا يذمون بها».

[٢] قوله تعالى: «فأصدع بما تؤمر» أى شقّ جماعاتهم بالتوحيد أو أجهر بالقرآن أو أظهر

أو احكم بالحق وأصل بالأمر أو اقصد بما تؤمر أو افرق به بين الحق والباطل.

الأذى في جنبه ، حتى أوضح دين الله ، وأعز أوليائه ، وقمع المشركين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فمضى صلوات الله عليه ، وقد ترك من الدنيا ما بذل له ، واختار منها الترك لما سُخِّرَ له ، زهادة واختياراً لله ، وأنفة واقتداراً على الصبر ، وبغياً لما يدوم ويبقى ، وهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خلفه رجلاً محفوظان ، وثالث مشكوك ، وبين ذلك خوض طالما عاجناه ، مشاهدة ومكالفة ، ومعاينة وسماعاً ، وما أعلم منة فوق ماتعلمان ، وقد كان من أمر يزيد ما سبقتهم إليه وإلى تجويزه ، وقد علم الله ما أحاول به من أمر الرعية ، من سدّ الخلل ، ولمّ الصدع ، بولاية يزيد ، بما أيقظ العين ، وأحمد الفعل ، هذا معنای في يزيد ، وفيكافضل القرابة ، وحظوة العلم ، وكمال المروءة ، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ، ما أعياني مثله عندكما ، وعند غيركما ، مع علمه بالسنة وقراءة القرآن ، والحلم الذي يرجح بالصم^(١) الصلاب ، وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة ، قدّم على الصديق والفاروق ، ومن دونهما من أكابر الصحابة ، وأوائل المهاجرين ، يوم غزوة ذات السلاسل^(٢) ، من لم يقارب

[١] الصم جمع أصم ، وهو الحجر الصلب المصمت .

[٢] غزوة ذات السلاسل وهي وراء وادي الفري من أرض بني عذرة : غزاها سرية عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه يستنفر العرب إلى الشام ، فلما كان على ماء بأرض حذام ، يقال له السلسل — وبذلك سميت تلك الغزوة غزوة ذات السلاسل — خاف فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فبعث إليه رسول الله أنا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأوابين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : لا تختلفا ، فخرج أبو عبيدة ، حتى إذا قدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئت مدداً لي قال أبو عبيدة : لا ، ولكني على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه — وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا — فقال له عمرو : بل أنت مدد لي ، فقال له أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي لا تختلفا ، وإنك إن عصيتني أطعك ، قال : فإني الأمير عليك ، وأنت مدد لي ، قال : فدوئك ، فصلى عمرو بالناس .

القوم ، ولم يماندْهم^(١) ، برتبة في قرابة موصولة ، ولا سُنَّة مذكورة ، فقادهم الرجل بأمره ، وجمع بهم صَلَاتهم ، وَحَفِظَ عليهم فيهم ، وقال ولم يُقَلِّمهُ ، وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، فهلا بنى عبد المطلب ، فإننا وأنتم شَعْبًا تَفْعَلُ وَجِدًا ، وما زلت أرجو الإنصاف في اجتماعكما ، فما يقول القائل إلا بِفَضْلٍ قولكما ، فَرُدَّا على ذِي رَحِمٍ مُسْتَعْتَبٍ ، ما يَحْمَدُ به البصيرة في عِتَابكما ، وأستغفر الله لي ولكما .

فتيسر ابن عباس للكلام ، ونَصَبَ يده للمخاطبة ، فأشار إليه الحسين وقال : على رِسْلِكَ ، فَأَنَا المراد ، وَنَصِيبِي في التَّهْمَةِ أَوْفَرُ ، فأمسك ابن عباس ، فقام الحسين :

٢٤٢ - خطبة الحسين

فحمد الله ، وصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أما بعد يا معاوية ، فلن يُؤَدِّيَ القائلُ - وإن أطنبَ - في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميعِ جزءٍ ١ ، قد فهمتُ مَا أَلْبَسْتَ^(٢) به الخلفَ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من إنجاز الصفة ، والتكُتْبُ عن استبلاغ البيعة ، وهيئات هيات يا معاوية ١ فضَحَ الصَّبحُ فَحْمَةَ الدُّجَى ، وَبَهَرَتْ^(٣) الشمسُ أنوارَ الشُّرج ، ولقد فضلتَ حتى أفرطتَ ، واستأثرتَ حتى أَجَحَفْتَ ، ومنعتَ حتى بَخِلْتَ ، وَجَرْتَ حتى جاوزتَ ، ما بذلتَ لذي حقٍّ مِنْ أتمِّ حقِّه بنصيبٍ ، حتى أخذ الشيطانُ حظه الأوفر ، ونصيبه الأكمل ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد ،

[١] المعاندة : المفارقة ، أى ولم يمتز عليهم برتبة .

[٢] أَلْبَسَ : غَطاه . [٣] يقال بهر القمر كمنع : غلب ضوءه ضوء الكواكب ، والسرَج جمع

سراج ، وهو المصباح .

من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصيف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تُخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، نخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه^(١) الكلاب المتهاشمة^(٢) عند التحارش، والهام السبق لأترابهم^(٣)، والقيّنات^(٤) ذوات المعارف، وضروب الملاحى، تجذّه ناصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية، فوالله ما برحت تقدّم باطلا في جور، وحنقاً في ظلم، حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدّم على عمل محفوظ. في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرّضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعنا عن آبائنا ثرائاً، ولقد - لعمر الله - أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة، وجئت لنا بما حججتم به القائم عند موت الرسول عليه الصلاة والسلام، فأذعن للحجة بذلك. وردّه الإيمان إلى النصف، فركبتم الأعايل، وفعلتم الأفاعيل، وقتلتم كان ويكون، حتى أتاك الأمر يامعاوية، من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك^(٥)، فاعتبروا يا أولى الأبصار، وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأميره له، وقد كان ذلك، ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة، بصحبة الرسول وبيعه له، وما صار لعمر يومئذ حتى أنف القوم إنرتته، وكرهوا تقديمه، وعدّوا عليه أفعاله، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا جرم^(٥) معشر المهاجرين، لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري».

[١] استقرأ الأشياء : تتبع أفرادها . [٢] المتهاشمة : تحريش بعضها على بعض .

[٣] جمع قينة : وهى الجارية المنية أو أعم ، والمعارف الآلات التى يضرب بها كالمود، جمع معزف كنزير .

[٤] مسهل من هنا ، يقال هنا الطعام إذا ساع ولد ، أى فهنيئاً لك ما نلت من الخلافة .

[٥] لا جرم : قال الفراء « هى كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لا بد ولا عالة ، فجرت على ذلك وكثرت حتى

فكيف يُحْتَجَّ بالمنسوخ من فعل الرسول ، في أَوْكَد الأحوال ، وأولاها بالاجتماع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحبٍ تابعاً ، وحولك مَنْ لا يُؤْمَنُ في صحبته ، ولا يُعْتَمَدُ في دينه وقرابته ، وتتخطاهم إلى مُسْرِفٍ مَفْتُونٍ ؟ تريد أن تلبس الناسَ شُبُهَةً ، يَسْعُدَ بها الباقي في دنياه ، وَتَشَقَّ بها في آخرتك ، إن هذا لهُوَ الخُسرانُ المبين ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ .

فنظر معاوية إلى ابن عباس ، فقال : ما هذا يا ابن عباس ؟ وَلَمَّا عِنْدَكَ أَذْهَى وَأَمْرٌ ! فقال ابن عباس : لعمرُ الله ، إنها لَدُرِّيَّةُ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأحد أصحاب الكِساء^(١) ، ومن البيت المُطَهَّر ، فَالهُ عَمَّا تريد ، فَإِنَّ لَكَ فِي النَّاسِ مَفْنَعًا ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، فقال معاوية : أَعُوذُ^(٢) الْحَلِيمِ التَّحَلُّمِ ، وَخَيْرُهُ التَّحَلُّمُ عَنِ الْأَهْلِ . انصرفا في حفظ الله .
ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، فجلسوا .

٢٤٣ — خطبة معاوية

فحمد الله ، وأثنى عليه معاوية ، ثم قال :

« يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ : قَدْ كُنْتَ تَحَدِّثُنَا أَنَّكَ لَا تَحِبُّ أَنْ تَبِيتَ لَيْلَةً وَلَيْسَ فِي عُنُقِكَ يَمْعَةٌ جَمَاعَةٍ ، وَأَنَّ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا . وَإِنِّي أَحْذَرُكَ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمَسَامِينِ ، وَتَسْمَى فِي تَفْرِيقِ مَلَتَهُمْ^(٣) ، وَأَنْ تَسْفِكَ دِمَاءَهُمْ ، وَإِنْ أَمَرَ يَزِيدُ قَدْ كَانَ قَضَاءً مِنَ الْقَضَاءِ ، وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ خَيْرَةٌ مِنْ أَمْرِهِ ، وَقَدْ وَكَّدَ النَّاسُ

تحوَّلَتْ إِلَى مَعَى الْقِسْمِ ، وَصَارَتْ بِمَنْزِلَةِ حَقٍّ ، فَلِذَلِكَ يُجَابُ عَنْهَا بِاللَّامِ كَمَا يُجَابُ بِهَا عَنِ الْقِسْمِ ، أَلَا تَرَامُ يَقُولُونَ : « لَا جَرَمَ لَأَيْتُكَ » . [١] انظر ص ٢٥ . [٢] أَعُوذُ : أَنْعَمَ ، وَالْعَائِدَةُ : الْمُنْفَعَةُ . [٣] الْمَلَأَ : الْجَمَاعَةُ .

يَعْتَمِدُ فِي أَعْنَاقِهِمْ . وَأَعْطَوْا عَلَى ذَلِكَ عُهْدَهُمْ وَمَوَائِقَهُمْ » . ثُمَّ سَكَتَ .

٢٤٤ — خطبة عبد الله بن عمر

فَتَكَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَّا بَعْدُ : يَا مَعَاوِيَةُ ، لَقَدْ كَانَ قَبْلَكَ خُلَفَاءُ ، وَكَانَ لَهُمْ بَنُونَ ، لَيْسَ ابْنُكَ بِخَيْرٍ مِنْ أَبْنَائِهِمْ ، فَلَمْ يَرَوْا فِي أَبْنَائِهِمْ مَا رَأَيْتَ فِي ابْنِكَ ، فَلَمْ يُحَاجُّوا فِي هَذَا الْأَمْرِ أَحَدًا ، وَلَكِنْ اخْتَارُوا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ عَالِمُوهُمْ ، وَأَنْتَ تَحْذَرُنِي أَنْ أَشُقَّ عَصَا الْمَسَامِينِ ، وَأُفَرِّقَ مِلَّاهُمْ ، وَأَسْفِكَ دِمَاءَهُمْ ، وَلَمْ أَكُنْ لِأَفْعَلْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَلَكِنْ إِنْ اسْتَقَامَ النَّاسُ ، فَسَادَ خُلُوفِي صَالِحٌ مَا تَدْخُلُ فِيهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ » .

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، لَيْسَ عِنْدَكَ خِلَافٌ ، ثُمَّ قَالَ مَعَاوِيَةُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ نَحْوَمَا قَالَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : إِنَّكَ وَاللَّهِ لَوَدِدْنَا أَنْ نَكِلَكَ إِلَى اللَّهِ فِيمَا جَسَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ يَزِيدَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَجْعَلَنَّهَا سُورَى ، أَوْ لِأَعِيدَنَّهَا جَذْعَةً ، ثُمَّ قَامَ لِيُخْرِجَ ، فَتَعَلَّقَ مَعَاوِيَةُ بِطَرَفِ رِدَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : عَلَى رِسْلِكَ ، اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِ بِمَا شِئْتَ ، لَا تَظْهَرَنَّ لِأَهْلِ الشَّامِ ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ لَابْنِ الزَّيْرِ نَحْوَمَا قَالَهُ لَابْنِ عُمَرَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْتَ ثَعْلَبٌ رَوَّاعٌ ، كَمَا خَرَجْتَ مِنْ جُحْرٍ أَنْجَحَرْتَ^(١) فِي آخِرِ ، أَنْتَ أَلْبَتَ^(٢) هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، وَأَخْرَجْتَهُمَا إِلَى مَا خَرَجَا إِلَيْهِ . فَقَالَ ابْنُ الزَّيْرِ : أَتُرِيدُ أَنْ تَبَايَعَ لِيَزِيدَ ؟ أَرَأَيْتَ إِنْ بَايَعَنَاهُ أَيُّكُمَا نَظِيعٌ ؟ أَنْظِيعُكَ أَمْ نَظِيعُهُ ، إِنْ كُنْتَ مَلَيْتَ الْخِلَافَةَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ، وَبَايِعْ لِيَزِيدَ ، فَنَحْنُ نَبَايَعُهُ ، فَكَثَرَ كَلَامُهُ وَكَلَامُ ابْنِ الزَّيْرِ ، حَتَّى قَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ

[١] أَيْ دَخَلَ ، جَعَلَ الضَّبَّ كَنَعٍ : دَخَلَ الْجَعْرَ ، وَجَعَرَ فَلَانَ الضَّبَّ : أَدْخَلَهُ فِيهِ ، فَانْجَحَرَ .

[٢] التَّأْلِيبُ : التَّحْرِيزُ وَالْإِسَادُ .

في بعض كلامه : والله ما أراك إلا قاتلاً نفسك ، وآكأني بك قد تخبّطت في الحباله . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادي أن ينادى في الناس ، أن يجتمعوا لأمر جامع . فاجتمع الناس في المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر .

٢٤٥ — خطبة معاوية

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيدَ وفضله وقراءته للقرآن ، ثم قال :
 « يا أهل المدينة ، لقد هممت ببيعة يزيد ، وما تركتُ قريةً ولا مدرة^(١) إلا بعثت إليها ببيعته ، فبايع الناس جميعاً وسلموا ، وأخبرت المدينة ببيعته ، وقلتُ بِيَضَّتُهُ^(٢) ، وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة ، منهم من كان أجدر أن يصله . والله لو علمتُ مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له .
 فقام الحسين فقال : « والله لقد تركت من هو خيرٌ منه أباً وأماً ونفساً !
 فقال معاوية : « كأنك تريد نفسك ؟ » فقال الحسين : « نعم . أصلحك الله !
 فقال معاوية : « إذن أخبرك ، أما قولك : خيرٌ منه أما ، فاعمرى أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش ، لكان نساء قريش أفضلهن ، فكيف وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم فاطمة في دينها وسابقتها ؟ فأملك لعمر الله خير من أمه^(٣) ، وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، فقضى لأبيه على أيك » . فقال الحسين : « حَسْبُكَ جَهْلُكَ . آثرت العاجل على الآجل » .
 فقال معاوية : « وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً ، فيزيدُ والله خير لأمة محمد منك » . فقال الحسين : « هذا هو الإفك والزور ! يزيدُ شاربُ الخمر .

[١] المدرة : المدينة . [٢] جماعته وأصله . [٣] وأم يزيد هي ميسون بنت بحدل الكلبية .

ومشترى اللهو . خبرني « فقال معاوية : « مهلاً عن شتم ابن عمك . فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك » ، ثم التفت معاوية إلى الناس . وقال :

« أيها الناس : قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعته بيعه هدى ، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين ، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظراً لهم بعين الانصاف .



وروى من طريق آخر : أن معاوية لما خرج إلى المدينة ودنا منها ، استقبله أهلها ، فيهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسن بن علي ، وعبد الرحمن ابن أبي بكر ، فأقبل على عبد الرحمن بن أبي بكر ، فسبّه وقال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً » ؛ فلما دخل الحسين عليه قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، بدنة^(١) يتفرق دُمها والله مُهَرِّقُه » ؛ فلما دخل ابن الزبير قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، ضَبُّ تَلْعَةٍ ، مُدْخَلُ رَأْسِهِ تَحْتَ ذَنَبِهِ » ؛ فلما دخل عبد الله بن عمر قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، وسبّه » ، فقال : « إني لست بأهل لهذه المقالة » قال : « بلى ، ولما هوش منها » ، فدخل معاوية المدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرّهط معتمرين ، فلما كان وقت الحجّ خرج معاوية حاجاً ، فأقبل بعضهم على بعض ،

[١] البدنة من الابل والبقر كالأنحية من الغنم تهدي إلى مكة ، للذكر والأنثى .

[٢] التلعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها .

فقالوا : لعله قد ندم ، فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر ، قال : « مرحباً بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة » ، وقال لابن أبي بكر : « مرحباً بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق ، هاتوا له دابة » ، وقال لابن الزبير : « مرحباً بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، هاتوا له دابة » ، وقال للحسين : « مرحباً بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب المسلمين ، قرّبوا لأبي عبد الله دابة ، وجعلت أظافُهُ ^(١) تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، وَيُحَسِّنُ إِذْنَهُمْ وَشَفَاعَتَهُمْ وَحَمْلَهُمْ عَلَى الدَّوَابِّ ، وَخَرَجَ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ ، فَقَضَى حَجَّهُ ، وَلَمَّا أَرَادَ الشَّخْصُوصَ أَمَرَ بِأَثْقَالِهِ فَقُدِّمَتْ ، وَأَمَرَ بِالْمَنِيرِ فَقَرَّبَ مِنَ الْكَعْبَةِ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، فَاجْتَمَعُوا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَنْ يَكَلِّمُهُ ؟ فَأَقْبَلُوا عَلَى الْحُسَيْنِ فَأَبَى ، فَقَالُوا لابن الزبير : هات ، فَأَنْتَ صَاحِبُنَا . قَالَ : عَلَى أَنْ تَعْطُونِي عَهْدَ اللَّهِ أَنْ لَا أَقُولَ شَيْئًا إِلَّا تَابِعْتُمُونِي عَلَيْهِ . قَالُوا : لَكَ ذَلِكَ ، فَأَخَذَ عَهْدَهُمْ رَجُلًا رَجُلًا ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَرَحَّبَ بِهِمْ ، وَقَالَ : قَدْ عَلِمْتُمْ نَظْرِي لَكُمْ ، وَتَعَطْفِي عَلَيْكُمْ ، وَصِلْتِي أَرْحَامَكُمْ ، وَيزِيدُ أَخَوَكُمْ وَابْنَ عَمِّكُمْ ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقْدِمَهُ بِاسْمِ الْخُلَافَةِ ، وَتَكُونُوا أَنْتُمْ تَأْمُرُونَ وَتَنْهَوْنَ ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : أَجِيبُونِي ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : أَجِيبُونِي ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : لَا ابْنَ الزَّيْبِرِ : هَاتِ فَأَنْتَ صَاحِبُهُمْ . قَالَ :

٢٤٦ . خطبة عبد الله بن الزبير

« نَحْيَرُكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ ، أَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ لَكَ رَغْبَةً ، وَفِيهَا خِيَارٌ ، إِنْ شَدَّتْ فَاصْنَعْ فِينَا مَا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَبْضَةُ اللَّهِ وَلَمْ يَسْتَخْلَفْ

[١] الأظلاف جمع لطفة بالتحريك وهي الهدية .

أحدًا ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فاصنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأذنين من كان لها أهلا ، وإن شئت ، فما صنع عمر ، جعلها شورى في ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا .

فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ، فقال معاوية : « إني أتقدم إليكم ، وقد أعذر من أنذر ، إني قائم فقاتل مقالة ، فإياكم أن تعترضوا علي حتى أتمها ، فإن صدقت فعلي صدقي ، وإن كذبت فعلي كذبي ، وأقسم بالله لئن رد علي رجل منكم كلمة في مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمته ، حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يُبقي إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقي المنبر ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً فقال :

٢٤٧ خطبة معاوية

قال بعد حمد الله ، والثناء عليه ، إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار^(١) ، قالوا إن حسيناً ، وابن أبي بكر ، وابن عمر ، وابن الزبير لم يبايعوا يزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نُبرِمُ أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وساموا وأطاعوا » فقال أهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ ائذن لنا فنضرب أعناقهم ،

لا نرضى حتى يبايعوا علانية ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ، وأحلى دماءهم عندهم ، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا ، ثم قرّبت رواحله ، فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دُعيتُمْ وأرضيتُمْ بايعتم . قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟ قالوا : خِفْنَا القتل وكَادَكُم بِنَا وكَادَنَا بِكُمْ .

(المقد الفريد ٢ : ٢٤٧ - ١٥٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٢١ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٩ ، والأمالى ٢ : ٧٣ ، وذيل الأمالى ص ١٧٧ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢١٠ ، والبيان والنبين ١ : ١٦٣ - ١٦٤)

تهنئة وتعزية

٢٤٨ — خطبة عبد الله بن همام السلولى

لما توفى معاوية واستخلف يزيد ابنه (سنة ٦٠) اجتمع الناس على بابه ، ولم يقدرُوا على الجمع بين تهنئة وتعزية ، حتى أتى عبد الله بن همام السِّلولى فدخل عليه فقال :

« يا أمير المؤمنين ، آجَرَكَ اللهُ على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانَكَ على الرعية ، فلقد رُمِئت عَظِيماً ، وأُعْطيت جَسِيماً ، فاشكر الله على ما أُعْطيت ، واضْبِرْ له على ما رُمِيت ، فقد فُتدَت خَليفة الله ، ومُنحت خلافة الله ، ففارقت جليلاً ، ووُهِبت جزيلاً ، إذ قَضَى معاوية نَحْبَهُ ، فغفر الله ذنبه ، ووُلِّيت الرئاسة ، فأُعْطيت السياسة ، فأوْرَدَكَ اللهُ موارد السرور ، ووفَّقَكَ لصالح الأمور ، وأنشد :

فاصبر يزيد فقد فارقت ذا ثِقَةٍ واشكر حِباء الذى بالملك أصفاكاً^(١)

لا رُزءٌ أصبح في الأقوام نعلمه كما رُزئت ، ولا عُقبى كمعقبا كما
أصبحت وإلى أمر الناس كلهم فأنت ترعاهم والله يرعاكما
وفي معاوية الباقي لنا خلف إذا نُعيت ، ولا نسمع بمنعكما (١)
» وعبد الله بن همام هو أول من فتح الباب في الجمع بين تهنئة وتعزية ، فولجّه
الناس ، كما روى من غير وجه .

(زمر الآداب ١ : ٦١ ، ونهاية الأرب ٥ : ٢١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤١
— ٣٥ — ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٦)

٢٤٩ — خطبة عطاء بن أبي صيفي الثقفى

وروى المسعودى أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون
أيهنثونه أم يعزونه ، فقام عطاء بن أبي صيفي ، فقال :
« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رُزئت
خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، ومُنحت هبة الله ، وقد قضى معاوية نحبّه ،
فغفر الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فأحتسب (٢) عند
الله أعظم الرزية ، واتخذَه على أفضل العطية » .

(مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، البيان والتبيين ٢ : ١٠٢ ، تهذيب الكامل ١ : ١٦ ،
وصحح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والمقد الفريد ٢ : ٣٥)

٢٥٠ — خطبة عبد الله بن مازن

ثم قام عبد الله بن مازن ، فقال :
« السلام عليك يا أمير المؤمنين ؟ رُزئت خير الآباء ، وسُميت خير الأسماء ،
ومُنحت أفضل الأشياء ، فهناك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت

[١] هو أبو ليلى معاوية بن يزيد . [٢] احتسب به أجراً عند الله : اعتداه ينوى به وجه الله
(واحتسب ابنه إذا مات كبيراً ، فلان مات صغيراً قبل أن ترطه) .

قريش مفجوعة يَبْعُدُ ساستها ، مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك ،
وَالْعُقْبَى من بعده ، ثم أنشأ يقول :

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد المُلْحِدُونَ عَوْقَهَا
عنك فيأبى الله إلا سَوْقَهَا إليك ، حتى قَلَدُوكَ طَوْقَهَا

ثم قام عبد الله بن همام فخطب خطبته السالفة . (مروج الذهب ٢ : ٩٣)

٢٥١ — خطبة غيلان بن مسلمة الثقفي

وروى الجاحظ : أنه لما توفي عبد الملك ، وجلس ابنة الوليد دخل عليه
الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فأقبل غيلان بن مسلمة الثقفي ، فسلم
عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، أصبحتَ قد رزأتَ خيرَ الآباء ، وَسُمِّيتَ خيرَ الأسماء ،
وَأُعْطِيتَ أَفْضَلَ الْأَشْيَاء ، فعظم الله لك على الرزية الصبر ، وأعطاك في ذلك
نوافل ^(١) الأجر ، وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى عبد الملك ^(٢)
بخير القضية ، وأنزله بأشرف المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٠٣)



[١] النافلة في الصلاة وغيرها الزيادة . [٢] أى قضى على عبد الملك باستقاط الجار .

خطب ولاية الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣

٢٥٢ - خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده

كان الإمام عليّ عليه السلام وليّ زياداً فارس - أو بعض أعمال فارس - فضبطها ضبطاً صالحاً ، وجبى خراجها وحماها ، فلما قتل الإمام بقي زياد في عمله ، وخاف معاوية جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من ممالأته الحسن بن عليّ ، عليه السلام ، فكتب إليه يتهدده ^(١) ، فغضب زياد غضباً شديداً ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، ثم قال :

« العجبُ من ابنِ آكلةِ الأكباد ^(٢) ، وقاتلةِ أسدِ الله ، ومُظهرِ الخلاف ، ومُسرِّ النفاق ، ورئيسِ الأحزاب ، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب إليّ يُرْعِدُ وَيُيْرِقُ ^(٣) عن سحابةِ جَفَلٍ ^(٤) لا ماءَ فيها ، وعمّاً قليلٍ تصيرها الرياح قَزَعاً ^(٥) ، والذي يدلّني على ضعفه تهّدده قبل القدرة ، أفمن إشفاقٍ عليّ تُنْذِر

[١] ومما ورد في كتابه إليه قوله : « أمس عبد ، واليوم أمير ! خُطّة ما ارتقاها مثلك يا ابنِ سمية ، وإذا أتاك كتابي هذا ، غُذِّ اللّاس بالطاعة والبيعة ، وأسرع الإجابة ، فإنك إن فعلت فدمك حقت ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش ، ونلتك بأهون سمي ، وأقسم قسماً مبروراً أن لا أوتى بك إلا في زمارة ، تمنحني حافياً من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيمك في السوق ، وأبيعك عبداً ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه » . [٢] هي هند أم معاوية ، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد بقرت بطن حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذت كبده لتأكلها ، فلا كتبها ثم أرسلتها ، وكان قد قتل وحشى مولى جبير بن مطعم ، فدعا سيده وقال له اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بعني طعيمة فأنت حرّ . [٣] رعد الرجل وبرق (كنصر) وأرعد وأبرق : تهّدّد وتوعد . [٤] الجفل : السحاب هراق ماءه وهفى . [٥] التزع : قطع من السحاب رقيقة .

وَتُعْذِرُ؟ كَلَّا ، وَلَكِنْ ذَهَبَ إِلَى غَيْرِ مَذْهَبٍ ، وَقَعَقَعَ^(١) لِمَنْ رَوَى بَيْنَ صَوَاعِقِ تِهَامَةَ^(٢) ، كَيْفَ أَرْهَبُهُ وَيَبْنِي وَيَبْنِي ابْنُ بَنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَبْنُ ابْنِ عَمِّهِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟ وَاللَّهُ لَوْ أَذِنَ لِي فِيهِ أَوْ نَدَبَنِي إِلَيْهِ ، لَأَرَيْتُهُ الْكَوَاكِبَ نَهَارًا ، وَلَأَسْعِطَنَّهُ^(٣) مَاءَ الْخُرْدِلِ دُونَهُ ، الْكَلَامُ الْيَوْمَ ، وَالْجَمْعُ غَدًا ، وَالْمَشُورَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ثُمَّ نَزَلَ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦٨ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٩٧)

٢٥٣ — خطبته وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبة يستقدمه

وكتب إلى معاوية يردّ عليه ردّا شديد اللهجة^(٤) ، فغمّ ذلك معاوية وأحزنه ، وأوفد إليه المغيرة بن شعبة بكتاب يتلطّف به فيه ، ويستدنيه منه ، ويستلحقه بنسب أبيه أبي سفيان^(٥) ، وجعل المغيرة يترفق به ، وينصح له أن يصل حبله

[١] انقعقة صوت الرعد ، وتحريك النسيء الياس الصلب مع صوت ، ومعه « مايقعقع له بالشان » وسيأتي تفسيره في خطبة الحجاج . [٢] روى : ارتوى ، والمراد نشأ وترعرع بينها ، ولعله (ربي) وذكروا أنه لما نصب الحجاج اغتايق لقتال عبد الله بن الزبير ، أطلتهم سحابة فأرعدت وأرقب وأرسلت الصواعق ، هرع الناس وأمسكوا عن القتال ، فقام بهيم الحجاج ، فقال : « أيها الناس لا بهولاكم هذا فأني أما الحجاج بن يوسف ، وقد أصبحرت لربي ، فلو ركبنا عطيا لحال بيننا وبينه ، ولكننا حبال تهمامة لم نزل الصواعق نزل بها » . [٣] سعطه الدواء كدمه وانصره وأسعطه إياه : أدخله في أمه .

[٤] ونس كتابه إليه : « أما بعد ، بعد وصل إلى كتابك يا معاوية ، ودهمت مامه ، فوجدتك كالمريق يطيه الموح فيتشث بالطعاب ، ويتعلق بأرجل الضعاع طمعا في الحياء ، إنما يكفر النعم ويستدعي النقم من حادّ الله ورسوله ، وسمى في الأرس فسادا . فأما سمك لي فلولا حلم ينهاني عنك ، وحوي أب أدعي سفيها لأثرت لك محازي لا يغسلها الماء . وأما تعبيرك لي بسمية ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة وأما رعمك أنك تختطفني بأصمف ريش وتتناوأي بأهون سمي ، فهل رأيت بازيا يمرعه صغير الفناير ؟ أم هل سميت بدئ أكله خروف ؟ فامص الآن لطيتك ، واجهد جهدك ، فليست أنزل إلا بحيث تكره ، ولا أحثد إلا فيما يسوءك ، وستعلم أيما الحاضع لصاحبه الظالم إليه والسلام » .

[٥] وكانت ديباجة كتابه إليه : « من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان » وبه يقول : « وحلك سوء ظلك بي ، وفضلك لي على أن عقت قرابتي ، وقطعت رحمي ، وبقت نسيي وحرمتي ، كأنت استأخني ، وليس صخر بن حرب أبأك وأبي ! » وفي آخره يقول : « فإن أحببت جانبي ووثقت بي ، فأمره بإمرة ، وإن كرهت جانبي ، ولم تثق بقولي ، ففعل جميل ، لأعلي ولا لي والسلام » .

بجبله ، ولا يقطع رَحْمه ، فترثت زياد يومين أو ثلاثة يروى في أمره ، ثم جمع الناس ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : ادفَعُوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبُوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ في أمور الناس منذُ قتل عثمان ، وفكرتُ فيهم فوجدتهم كالأضاحي . في كل عيدٍ يُذبحون ، ولقد أفتى هذان اليومان : يوم الجمل وصِفِّين ما يُنْصِف على مائة ألف ، كُلُّهُمْ يزعمُ أنه طالبُ حقٍّ ، وتابعُ إمامٍ ، وعلى بصيرةٍ من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتلُ والمقتولُ في الجنة ، كلاً : ليس كذلك ولكن أشكل الأمر ، والتبسَ على القوم ، وإني خائفٌ أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لأمريَّ بِسَلامةٍ دينه ؟ وقد نظرتُ في أمر الناس ، فوجدتُ أُمَّهَدَ العاقبتين العافيةً ، وسأعملُ في أموركم ما تحمدون عاقبته ومَغَبَّتَه ، فقد سجدت طاعةً لكم إن شاء الله » ثم نزل .

وكتب إلى معاوية يستوثق منه ^(١) ، فأعطاه معاوية جميع ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقربه وأدناه ، وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق . (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٦٩)

٢٥٤ — خطبته وقد استلحقه معاوية

ولما أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشأم ، جمع الناس وصعد المنبر ، وأصعد زياداً معه ، فأجلسه بين يديه على المِرْقاة ^(٢) التي تحت مرقاته ،

[١] وفي كتابه يقول : « إن كنت كتبت كتابك هذا من نقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك براً فسأزج في قلبي مودة وقبولا ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا وفسادية ، فإن النفس تأبى ما فيه العطب ، ولقد قت يوم قرأت كتابك مةً ما يبعأ به الخطيب المدره ، وترك من حضر ، لا أهل ورد ، ولا صدر ، كالتحيرين بعهمه ضل بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير » .

[٢] المِرْقاة بفتح الميم وتكسر : الدرجة .

وحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إني قد عرفت نسبنا أهل البيت في زياد ، فمن كان عنده شهادة فليقيم بها » ، فقام ناس ، فشهدوا أنه ابن أبي سفيان ، وأنهم سمعوا ما أقر به قبل موته ^(١) ، فلما انقضى كلام معاوية ومنكشدته ، قام زياد وأنصت الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] فقام أبو مریم السلولی — وكان خواراً في الجاهلية فقال : أشهد يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف ، فأثاني ، فاشتريت له لحماً وحمراً وطعاماً ، فلما أكل قال يا أبا مریم : أصيب لي نعيماً ، ففرحت فأتيته سمية ، فقلت لها : إن أبا سفيان من قد عرفت شره وجوده ، وقد أمرني أن أصيب له بنياً ، فهل لك ؟ فقالت : نعم يحيى الآن عبيد معه — وكان راعياً — فإذا تعشى ووضع رأسه أتيت به ، فرحمت إلى أبي سفيان فقلت لم أحد إلا جارية الحرث بن كلدة سمية ، فقال : اثني بها على ذفرها وقدرها ، فقال له زياد : مهلاً يا أبا مریم ، إنما بعثت شاهداً ، ولم تمت شاهداً ، فقال أبو مریم : لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إلي ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها ، وأعافت الالب عليها ، فلم ألبث أن خرج عليّ يسبح حبيبه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، فقال : ما أصبت مثلاً يا أبا مریم لولا استرخاء من ثديها ، وذفر في إبطها » — والدور بالتحريك ويسكن : الثن ، والذفر بالتحريك : كل ربيع ذكبة من طيب أو ثمن ، أو يخص رائحة الإبط للثنية — وكانت أمه سمية قد وهبها أبو الحبر بن عمرو السكندی للحارث بن كلدة — وكان طبيباً يعالجه — فولدت له على فراشه نافعاً ، ثم ولدت أبا بكره ، فأنكر لونه ، وقيل له إن جاريك بغي ، فأتى من أبي بكره ومن نافع ، وزوجها عبيداً وكان عبداً لابنته ، فولدت على فراشه زيادا .

وذكروا أن عمر بن الخطاب كان قد بعث زيادا في إصلاح فساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمع بمثناها ، وهو غلام حدث ، وأبو سفيان حاضر ، وعلى عليه السلام ، وعمرو ابن الناس ، فقال عمرو : لله أبو هذا الغلام لو كن قرشياً لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان : أما والله إنه لقرشي ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك ، فقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعت في رحم أمه ، قال : فهلا تستلحقه ، قل : أخاف هذا العير الجالس أن يخرق علي إمامي .

ومن كتاب اعلیٰ عليه السلام إلى زياد ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديمته باستلحاقه : « وقد كن من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فكنة من حديث النمس ، ونزغة من نزغات الشيطان لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث » فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها ورب الكعبة ، ولم تزل في نفسه حتى ادطام معاوية ، وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبي سفيان ، قال الطبري : « وفي سنة ٤٤ استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل » .

« أيها الناس : هذا أمرٌ لم أشهدْ أوَّلَه ، ولا عِلْمَ لى بآخِرِه ، وقد قال أمير المؤمنين ، ما بلغكم ، وشهدت الشهود بما سمِعتم ، فالحمد لله الذى رفع مِنّا ما وضع الناس ، وحفظ مِنّا ما ضيّعوا ، فأما عِيْدُ فَإِنَّمَا هو والد مَبْرُور ، أَوْ رَيْبٌ^(١) مشكور » ثم نزل . (شرح ابن أبى الحديد ٤ : ص ٧٠ ، والنفد الفريد ٢ : ١٥١ ، ٣ : ٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٦ ، وذيل الأمل ١٨٩)

٢٥٥ خطبته حين ولى البصرة (وهى البتراء)

وقدم زياد البصرة « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ » والياً لمعاوية ابن أبى سفيان ، وضم إليه خراسان وسجستان ، والفُسُق بالبصرة كثير فاشي ظاهر ، فخطب خطبةً بَتْرَاء لم يحمَد الله فيها ، وقيل بل قال :
« الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نِعَمه وإكرامه . اللهم كما زِدْتَنَا نِعَمًا ، فَالْهَمُّنَا شُكْرًا » أما بعدُ : فَإِنَّ الْجَهْلَةَ الْجَهْلَاءَ^(٢) ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه خُأْمَاؤُكُمْ^(٣) ، من الأمور العظام ، ينبئت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تَقْرءُوا كتابَ الله ، ولم تَسْمَعُوا ما أَعَدَّ اللهُ من الثواب الكريم لأهل طَاعَتِهِ ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السَّرْمَدِيَّ^(٤) الذى لا يزول ، أَتَكُونُونَ كَمَنْ طَرَفَتْ^(٥) عَيْنِيهِ الدُّنْيَا ، وَسَدَّتْ مَسَامِعَهُ الشَّهَوَاتُ ، واختار الفانية على الباقية ، وَلَا تَذْكُرُونَ أَنْكُمْ أَحْدَثْتُمْ فى الإسلام الحَدَثَ الذى لم

[١] الريب هنا : روج الأم .

[٢] هذا الوصف تأكيد للبالغة ، ومثله : وتد واتد ، ومهج هامج ، ويلة ليلاء ، ويوم أيوم (أى شديد ، أو آخر يوم فى الشهر) . [٣] عقلاؤكم . [٤] الدائم . [٥] طرف عينه : أصابه بشئ . فدمعت ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرفه عنه كضربه : صرفه وردده .

تَسْبِقُوا إِلَيْهِ ، مِنْ تَرْكِكُمْ الضَّعِيفَ يُقَهَّرُ وَيُؤْخَذُ مَالُهُ ، هَذِهِ الْمَوَاقِيرُ ^(١)
 المنصوبة ، والضعيفة المسلوقة في النهار المُبْصِر ، والعدد غير قليل ، ألم يكن
 منكم مُنْهَآةٌ ^(٢) ، تمنع الغَوَاةَ عن دَلَجِ ^(٣) الليل ، وغارة النهار ؟ قَرَّبْتُمْ الْقَرَابَةَ ،
 وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وَتُغْضُونَ عَلَى الْمُخْتَلِسِ ، كُلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ
 يَذُبُّ ^(٤) عَنْ سَفِيهِهِ ، صَنِيعَ مَنْ لَا يَخَافُ عَاقِبَةً ، وَلَا يَرْجُو مَعَادًا ، مَا أَنْتُمْ
 بِالْخَمَاءِ ، وَلَقَدْ اتَّبَعْتُمُ السُّفَهَاءَ ، فَلَمْ يَزَلْ بِكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنْ قِيَامِكُمْ دُونَهُمْ ، حَتَّى
 انْتَهَكُوا حُرْمَ ^(٥) الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ أَطْرَقُوا وَرَاءَكُمْ ، كُنُوسًا ^(٦) فِي مَكَائِسِ الرِّيبِ ،
 حَرَامٌ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، حَتَّى أُسَوِّيَهَا بِالْأَرْضِ هَذْمًا وَإِحْرَاقًا .
 إِنِّي رَأَيْتُ آخِرَ هَذَا الْأَمْرِ لَا يَصُاحُ إِلَّا بِمَا صَلُحَ بِهِ أَوَّلُهُ ، لَئِنْ فِي غَيْرِ ضَعْفٍ ،
 وَشِدَّةٍ فِي غَيْرِ غُنْفٍ ، وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أَخَذَنَّ الْوَلِيُّ ^(٧) بِالْمَوَالِي ، وَالْمُقِيمَ بِالظَّاعِنِ ،
 وَالْمُقْبِلَ بِالْمُذْبِرِ ، وَالْمُطِيعَ بِالْعَاصِي ، وَالصَّحِيحَ مِنْكُمْ فِي نَفْسِهِ بِالسَّقِيمِ ، حَتَّى يَلْقَى
 الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ ، فَيَقُولُ : « أَنْجُ سَعْدٌ فَقَدْ هَلَكَ سَعِيدٌ » ^(٨) أَوْ تَسْتَقِيمَ لِي

[١] جمع ماخور : وهو بيت الرية معرب أو عرر من محرت السقية لتردد الناس إليه .
 [٢] جمع ناه ، وغواة جمع غاو . [٣] السير من أول الليل . وقد أدلجوا ، فإن ساروا من آخره
 فادلجوا بالشديد . [٤] يدوم . [٥] جمع حرمة ، وهي ما لا يحل انتهاكه ، روى الشعبي قال :
 « لما خطب زياد خليفته النراء بالصرة ونزل ، سمع تلك الميلانة أصوات الناس يحارسون ، فقال :
 ما هذا ؟ قالوا : إن البلد مصر ، وإن المرأة من أهل مصر لتأخذها العينان الفساق ، ويقال لها : زدى
 ثلاثة أصوات ، فإن أجابك أحد ، وإلا فلا لوم عليهما فيما نصنع ! » . [٦] كنوس جمع كاس أي
 مستتر كعمود وجلس جمع فاعد وجالس ، وأصله من كفس الطي كضرب : دخل في كباسه (ككسبات)
 وهو مستتره من الشجر ، وجمع كاس أيضا على كفس (كركع) ومنه الجوارى الكفس (وهي الخفس)
 وهي الكراك السيارة ، أو النجوم الخمسة : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد . لأنها
 تكفس في الغيب كالظباء في الكفس (ككسب) ، أو هي كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتختفي نهاراً (وخيوسها أنها
 تغيب كما يخفى الشيطان إذا ذكر الله عز وجل) ومكاس الريب : مكانها المستتر جمع مكس كجلس .
 [٧] الولي : السيد ، والمولى هنا : العبد .

[٨] سعد وسعيد هما ابنا صبة بن أدّ خرجا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سعد فردها وقتل سعيد ،
 فكان ضربة إذا رأى سوادا تحت الليل قال : سعد أم سعيد ؟ .

قَنَّا تُكُم، إِنْ كِذْبَةُ الْمَنِيرِ بَلَقَاءُ^(١) مشهورة ، فَإِذَا تَعَلَّقْتُمْ عَلَى بَكْذِبَةٍ فَقَدْ حَلَلْتُمْ لَكُمْ مَعْصِيَتِي^(٢) ، فَإِذَا سَمِعْتُمُوهَا مَنِي فَاغْتَمِرْوْهَا^(٣) فِيَّ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ عِنْدِي أَمْثَالَهَا ، مَنْ ثَقِبَ مِنْكُمْ عَلَيْهِ فَأَنَا ضَامِنٌ لِمَا ذَهَبَ مِنْهُ^(٤) ، فَإِيَّايَ وَدَاجِجَ اللَّيْلِ ، فَإِنِّي لَا أُوتَى بِمُذْجِجٍ إِلَّا سَفَكْتُ دَمَهُ ، وَقَدْ أَجَلْتُكُمْ فِي ذَلِكَ بِمَقْدَارِ مَا يَأْتِي الْخَبْرُ الْكُوفَةَ وَيَرْجِعُ إِلَيْكُمْ^(٥) ، وَإِيَّايَ وَدَعَايَ الْجَاهِلِيَّةِ^(٦) ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا دَعَا بِهَا إِلَّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ ، وَقَدْ أَحْدَثْتُمْ أَحْدَاثًا لَمْ تَكُنْ ، وَقَدْ أَحْدَثْنَا لِكُلِّ ذَنْبٍ عَقُوبَةً ، فَمَنْ غَرَّقَ قَوْمًا غَرَّقْنَاهُ ، وَمَنْ أَحْرَقَ قَوْمًا أَحْرَقْنَاهُ ، وَمَنْ ثَقَبَ بَيْتًا نَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْرًا دَفَنَّا حَيًّا فِيهِ ، فَكَفُّوا عَنِّي أَيْدِيَكُمْ وَالسِّنَّتَكُمْ ، أَكْفَفْتُ عَنْكُمْ يَدَيَّ وَلِسَانِي ، وَلَا تَظْهَرُ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ رِيْبَةٌ بِخِلَافِ^(٧) مَا عَلَيْهِ عَامَّتْكُمْ ، إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ ، وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِحْنٌ^(٨) ، فَجَعَلْتُ ذَلِكَ

[١] من الملق بالتحريك وهو ارتفاع التحجيل في الفرس إلى المحدثين (والجحيل : باس و قوائم الفرس) ، والفرس البلقاء مشهورة لتغيرها عما سواها بيلها . [٢] في الطبري « قال الشعبي : فوالله ما تعلموا عليه بكذبة ، ولا وعدنا خبرا ولا سرا إلا أنه » . [٣] عدوها من عيوني ، واعتمره : طعن عليه . [٤] في الطبري : « وكان زياد أول من سد أمر السلطان ، وأكده الملك معاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرّد السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشهة ، وحده الناس في سلطانه خوفا شديدًا ، حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، ولا يعرض له أحد . حتى يأتيه صاحبه ، فأخذه ، وتبيت المرأة . ولا تعلق عليها بها ، وساس الناس سياسة لم يرمثها ، وهابه الناس هبة لم يهابوها أحدا قبله ، وكان يقول : « لو صاع حبل بيني وبين خراسان سلمت من أخذه » . [٥] في الطبري : « استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، وأهل الناس - حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وقد يؤخر العشاء حتى يكون آخر من يسلي ، ثم يسلي ، يأمر رجلا يقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرنل القرآن ، فإذا فرغ أهل بدر ما يرى أن إنسانا يبلغ الحربية (الجنيبة موضع بالبصرة يسمى بالبصرة الصعري) ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنسانا إلا قتله وأخذ ليلة أعرايا ، وأتى به زياد ، فقال : هل سمعت النداء ؟ قال : لا والله ، قدمت بحلوبة لي ، وعشيتي الليل ، فاضطرتها إلى موضع ، فأقت لأصبح ، ولا علم لي بما كن من الأمير ، قال : أظنك والله صادقا ، ولكن في فذلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه » . [٦] قولهم : يا لفلان ، والفرس مناصرة العصبية . [٧] أي تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم . [٨] جمع إحنة ، وهي الحقد والضينة .

دَبَّرَ أُذُنِي ^(١) وَتَحْتَ قَدَمِي ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ عَنِ إِسَاءَتِهِ ، إِنِّي لَوَعَلْتُ أَنْ أَحْدِمَ قَدْ قَتَلَهُ الشَّيْطَانُ مِنْ بُغْضِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قِنَاعًا ، وَلَمْ أَهْتِكْ لَهُ سِتْرًا ، حَتَّى يُبْدِيَ لِي صَفْحَتَهُ ^(٢) ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنَاظِرْهُ ، فَاسْتَأْنَفُوا أُمُورَكُمْ ، وَأَعِينُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، قَرُبَ مُبْتَلِئُكُمْ بِقُدُومِنَا سَيُؤَسِّرُ ، وَمَسْرُورٍ بِقُدُومِنَا سَيُبْتَلِئُ .

— أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً ، وَعَنْكُمْ ذَادَةٌ ، نَسُوسُكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَعْطَانَا ، وَنَذُودُ عَنْكُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّذِي خَوَّلَنَا ^(٣) ، فَلِذَا عَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحْبَبْنَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فِيمَا وَلَيْنَا ، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفِيئَنَا بِمَنَاصِحَتِكُمْ لَنَا ، وَاعْلَمُوا أَنِّي مَهْمَا قَصَّرْتُ عَنْهُ ، فَلَنْ أَقْصَرَ عَنْ ثَلَاثٍ : لَسْتُ مُحْتَجِبًا عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُمْ ، وَلَوْ أَتَانِي طَارِقًا بَلِيلٌ ، وَلَا حَاسِبًا عَطَاءً وَلَا رِزْقًا عَنْ إِبَانِهِ ^(٤) ، وَلَا مُجْمَرًا ^(٥) لَكُمْ بَعْمًا ، فَادْعُوا اللَّهَ بِالْصَّلَاحِ لِأَعْمَتِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ سَاسَتُكُمُ الْمُؤَدِّبُونَ لَكُمْ ، وَكَهَفُكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ ، وَمَتَى يَصْلَحُوا تَصْلَحُوا ، وَلَا تُشْرِبُوا قُلُوبَكُمْ بِبُغْضِهِمْ ، فَيَشْتَدَّ لَذَلِكَ غَيْظُكُمْ ، وَيَطُولَ لَهُ حَزْنُكُمْ ، وَلَا تُذَرِّكُوا لَهُ حَاجَتَكُمْ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتُجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا لَكُمْ . أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعِينَكُمُ كُلًّا عَلَى كُلِّ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفِذْ فِيكُمْ الْأَمْرَ ، فَأَنْفِذُوهُ عَلَى أَذْلَالِهِ ^(٦) ، وَابْتِغَاءِ اللَّهِ إِنْ لِي فِيكُمْ لَصَرَعِي كَثِيرَةٌ ، فَلْيَحْذَرِ كُلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَرَعَايَ .

[١] أى خلف أذنى وقد اقتبسها من كلام معاوية كما مر بك .
[٢] أى يجاهرني بالعداوة . [٣] ملكنا ، والى ما كان شمساً فينسخه الظل ، والحراج ، أى تدفع عنكم بطل الله ونعمته التى وهبنا أو ندفع عنكم بما صارى أيدينا من أموال الحراج .
[٤] وقته وموعده . [٥] جر الجهد : حبسهم فى أرض العدو ولم يفلهم .
[٦] أى وحواله وطرقه جمع ذل بالكسر ، وذلل الطريق : محبته ، وأمور الله جارية على أذلالها أى مجاريها .

فقام إليه عبد الله بن الأهتمام فقال : « أَشْهَدُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ لَقَدْ أُوتِيَتْ الْحِكْمَةُ وَفَصَّلَ الْخُطَابُ » ، فقال له : « كَذَبْتَ . ذَاكَ نَبِيُّ اللَّهِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ »
فقام الأحنف بن قيس ، فقال : « إِنَّمَا الشَّاءُ بَعْدَ الْبَلَاءِ ، وَالْحَمْدُ بَعْدَ الْعَطَاءِ ،
وَإِنَّا لَنُثْنِي حَتَّى نَبْتَلِيَ » ، فقال له زياد : صدقت ، فقام أبو بلال مِرْدَاس ^(١)
ابن أَدِيَّةٍ وَهُوَ يَهْمِسُ وَيَقُولُ : أَنَبَأَنَا اللَّهُ بِغَيْرِ مَا قُلْتَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَإِبْرَاهِيمَ
الَّذِي وَفَّى ، الْأَتْرُورَ وَازِرَةَ وَزَرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »
وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ تَأْخُذُ الْبِرَّ بِالسَّقِيمِ ، وَالْمُطِيعَ بِالْعَاصِي ، وَالْمُقْبِلَ بِالْمُدْبِرِ ،
فَسَمِعَهَا زِيَادٌ ، فَقَالَ : « إِنَّا لَا نَبْلُغُ مَا نُرِيدُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ حَتَّى نَخْوَضَ إِلَيْكُمْ
الْبَاطِلَ خَوْصًا » .

(البيان والنبیین ٢ : ٢٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٠ ، وصحح الأعشى ١ : ٢١٦ ،
وتاريخ الطبري ٦ : ١٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد
م ٤ : ص ٥٧ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤١ ، وديل الأمالي ١٨٨)

٢٥٦ - خطبته بالكوفة وقد ضمت إليه

ولما مات المغيرة بن شُعْبَةَ أَمِيرُ الْكُوفَةِ سَنَةَ ٥٠ هـ ، ضم معاوية الكوفة
إلى زياد ، فكان أول من جُمِعَ لَهُ الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ ^(٢) ، فاستخلفَ على البصرة ،
وشَخَّصَ إِلَى الْكُوفَةِ فَأَتَاهَا ، فَصَمَدَ الْمَنْبَرِ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« إِنْ هَذَا الْأَمْرُ أَتَانِي وَأَنَا بِالْبَصْرَةِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَشَخَّصَ إِلَيْكُمْ فِي أَلْفِينَ مِنْ
شُرْطَةِ الْبَصْرَةِ ، ثُمَّ ذَكَرْتُ أَنَّكُمْ أَهْلُ حَقٍّ ، وَأَنْ حَقَّكُمْ طَالَمَا دَفَعَ الْبَاطِلُ ،
فَأَتَيْتُكُمْ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ مِنِّي مَا وَضَعَ النَّاسُ ، وَحَفِظَ مِنِّي
مَا ضَيَّعُوا حَتَّى فَرَّغَ مِنَ الْخُطْبَةِ ^(٣) » . (تاريخ الطبري ٦ : ١٣١)

[١] وهو من رؤساء الحوارج .

[٢] وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة . [٣] قال الطبري : خصص على المنبر ،
(أي رعى بالحسب) ، فجلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوما من خاصته ، وأمرهم ، فأخذوا أبواب

٢٥٧ — خطبة أخرى له بالكوفة

وروى الطبري أيضاً قال :

« جُمِعَت الكوفة والبصرة لزياد بن أبي سفيان ، فأقبل حتى دخل القصر

بالكوفة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا قد جُرِّبْنَا وَجَرَّبْنَا ، وَسُسْنَا وَسَاسَنَا السَّائِسُونَ ، فوجدنا

هذا الأمر لا يَصْلُحُ آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة اللينة المشبهة سرها

بملائيتها ، وغيب أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بالسنتهم ، ووجدنا الناس لا يَصْلِحُهم

إلا لين في غير ضعف ، وشدة في غير عُنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا

أمضيته على أذلاله ، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من

كذبة إمام على المنبر ، ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرّظهم ، وذكر قتلته واعينهم .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٤٢)

٢٥٨ — خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة

وكان زياد قد وَلَّى الكوفة عمرو بن الحرِيث ، ورجع إلى البصرة ، فبلغه

أن حُجْر بن عديّ يجتمع إليه شيعة على ، ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ،

وأنهم حصّبوا عمرو بن الحرِيث ، فشخص إلى الكوفة ، حتى دخلها ، فأتى

القصر ، ثم خرج فصعد المنبر ، وعليه قباء سُندُس ، ومُطَرَف خَزٍّ أخضر ، قد

فرّق شعره ، وحجر جالس في المسجد حوله أصحابه أكثر ما كانوا ، فحمد الله ،

وأثنى عليه ، ثم قال :

المسجد . ثم قال : ليأخذ كل رجل منكم جليسه ، ولا يقولان لا أرى من جالسي ، ثم أس ، بكرسي فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعة أربعة ، يحلفون بالله ما منا من حصبك ، فن حاب خلاه ، ومن لم يخلف حبسه وعرله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان .

« أما بعد : فَإِنْ غِيبَ الْبَغْيَ وَالنَّغْيَ وَخَيَّمَهُ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ جَعُوا ^(١) فَأَشِيرُوا ،
وَأَمِينُونِي فَاجْتَرُوا عَلَيَّ ، وَابْتَغُوا اللَّهَ لَنْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِأَدَاوِيْنَكُمْ بِدَوَائِكُمْ ، وَقَالَ :
مَا أَنَا بِشَيْءٍ إِنْ لَمْ أَمْنَعْ بَاخَةَ ^(٢) الْكَوْفَةِ مِنْ حُجْرٍ ، وَأَدْعُهُ نَكَالًا لِمَنْ بَعْدَهُ ،
وَيُلْ أَمْكُ يَا حَجْرٌ ، سَقَطَ الْعِشَاءُ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ ^(٣) » . (تاريخ الطبري ٦ : ١٤٣)

٢٥٩ — خطبة أخرى له

وخطب زياد فقال :

« استوصُوا بِثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ خَيْرًا : الشَّرِيفَ وَالْعَالِمَ وَالشَّيْخَ ، فَوَاللَّهِ لَا يَأْتِينِي
شَيْخٌ بِشَابٍّ قَدْ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا أَوْجَعْتُهُ ، وَلَا يَأْتِينِي عَالِمٌ بِجَاهِلٍ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا
نَكَلْتُ بِهِ ، وَلَا يَأْتِينِي شَرِيفٌ بِوَضِيعٍ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا انْتَقَمْتُ لَهُ مِنْهُ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٣ ، والقدر الفريد ٢ : ١٥١ ، شرح ابن أبي عمير ٤ ص ٧٤)

٢٦٠ — خطبة أخرى

وخطب على المنبر فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : لَا يَمْنَعُكُمْ سُوءُ مَا تَعْمَلُونَ مِنْ أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ
مِنَّا ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ يَقُولُ :

اعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصُرْتُ فِي عَمَلِي يَنْفَعُكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

٢٦١ — وصية لزياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عُبيد أنه قال : كتب عبد الملك بن مروان
وصية زياد بيده ، وأمر الناس بحفظها وتدبر معانيها وهي :

« إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِعِبَادِهِ عَقُولًا ، عَاقَبَهُمْ بِهَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ ، وَأَثَابَهُمْ

[١] من جم الماء جوما : كثر واجتمع . [٢] الباحة : الساحة . [٣] هو مثل : وأصله أن رجلا خرج يلتبس العشاء ، فوقع على ذئب فأكله ، يضرب و طلب الحاجة يؤدي بصاحبها إلى الف .

بها على طاعته ، فالناس بين مُحْسِنٍ بنعمة الله عليه ، ومُسِيءٍ بِخِذْلَانِ الله إياه ، والله
النعمةُ على المحسن ، والحجّةُ على المسيء ، فما أولى مَنْ تَمَّتْ عليه النعمةُ في نفسه
ورأى العِبرةَ في غيره ، بأن يضع الدنيا بحيثُ وضعها الله ، فيعطى ما عليه منها ،
ولا يتكثّر بما ليس له منها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من
لقاء الله ، فأحذركم الله الذي حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجَزَةُ ،
قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدِّرون على توبة ، وليس لكم
منها أَوْبَةٌ ، وأنا أستخلف الله عليكم ، وأستخلفه منكم .

قال الجاحظ : وقد روى هذا الكلام عن الحجاج ، وزيادٌ أحق به منه .
(البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٦٢ — ما كان يقوله لمن ولّاه عملاً

وكان زياداً إذا ولى رجلاً عملاً قال له :

« خذ عهدك ، وسِرّ إلى عمالك ، واعلم أنك مصروفٌ رأسٌ سَنَتِكَ ، وأنتك
تصير إلى أربع خِلال ، فاختر لنفسك . إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً ، استبدلنا
بك لضعفك ، وسَلَّمْتُكَ من مَعَرَّتِنَا أمانتُكَ ، وإن وجدناك قوياً خائناً استهنا
بقوتك ، وأوجعنا ظهرك ، وثقلنا غُرْمَكَ ، وإن جمعت علينا الجُرْمَيْنِ ، جمَعْنَا
عليك المَضَرَّتَيْنِ ، وإن وجدناك أميناً قوياً ، زِدْنَا في عمالك ، ورفعنا ذكرك ،
وكثَرْنَا مالك ، وأوطأنا عَقِيكَ » . (الأمل ٢ : ٨٢)

٢٦٣ — خطبة الضحّاك بن قيس الفهري بالكوفة ^(١) (قتل سنة ٦٤ هـ)

وخطب الضحّاك بن قيس الفِهْرِيُّ على منبر الكوفة — وقد كان بلغه أن

[١] ولّاه معاوية الكوفة سنة ٥٥ هـ إلى سنة ٥٨ هـ ثم جعله على شرطته ، ولما مات معاوية الثاني بايعه
أهل دمشق على أن يعلى بهم ، ويقيم لهم أُمُرم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ،

قوماً من أهلها يشتمون عثمان وَيَبْرءون منه ، فقال :

« بلغني أن رجلاً منكم ضلّلاً يشتمون أئمة الهدى ، ويميّبون أسلافنا الصالحين ، أما والذي ليس له نِدٌّ ولا شريك ، لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم ، لأضعنّ فيكم سيف زياد ، ثم لا تجدوني ضعيف السّورة ^(١) ، ولا كليل الشّفة ^(٢) ، أما إني لصاحبكم الذي أغرت على بلادكم ^(٣) ، فكنت أول من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء الثّعلبية ومن شاطئ الفرات ، أعافب من شدّت ، وأعفو عن شدّت ، لقد ذعرت المخدّرات في خدورهن ، وإن كانت المرأة ليبيكي أبها فلا ترهبه ولا تسكته إلا بذكر اسمي ، فاتقوا الله يا أهل العراق ، أنا الضحّاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتل عمرو بن محمّس . »

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد ، فقال : « صدق الأمير ، وأحسن القول ! ما أعزّفنا والله بما ذكرت ! ولقد لقيناك بغربيّ تدمّر فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً ^(٤) ! » ثم جلس ، وقال : أيفخر علينا بما صنّع ببلادنا أول ما قدّم ؟

ويمعه من إظهار ذلك أن بي أمية كانوا يحضرته ، وكان يعمل في ذلك سرا ، ثم نشبت الحرب بينه وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودائرة الدائرة على جيش السجّاك ودل منتصف دى الحجة سنة ٦٤ هـ .

[١] سورة السلطان : سطوته واعتداؤه . [٢] الشّفة : حد السيف ، وكليل : عر فاطم .

[٣] وكان ذلك سنة ٣٩ هـ ، دهاء معاوية ، وقال : سر حتى تمر بباحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فن وجدته من الأعراب في طاعة عليّ وأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً وأغر عليها فسرّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، فأقبل الصّحّاك فنهب الأموال ، وقتل من لقي من الأعراب ومسر بالثعلبية فأغار على مسالح عليّ وأخذ أمتعتهم ، ومضى حتى انتهى إلى النطفطانة ، وأتى عمرو بن عيسى ابن مسعود — وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود — وكان في خيل عليّ ، وأمامه أهله ، وهو يريد الحج ، فقتله وقتل ناساً من أصحابه ، فلما بلغ ذلك علياً سرّح حجر بن عدى الكندي في أربعة آلاف ، فلم يزل مغلداً في أثر الصّحّاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقعه ، فاقتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الصّحّاك تسعة عشر رجلاً ، وقتل من أصحاب حجر رجلاً ، وحجز الليل بينهم ، فمهرّب الصّحّاك وأصحابه ، فلما أصبحوا لم يجدوا لهم أثراً — شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٧٨ — .

[٤] هذا القول تهكم به كما ترى .

وايمُ الله لأذْكُرَّنه أبنُضَ موطنه إليه ، فسكت الضحاك قليلا ، وكأنه خَزَى واستحيا ، ثم قال : نعم ، كان ذلك اليوم بأخرَة^(١) - بكلام ثقيل - ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٥)

٢٦٤ - خطبته عند موت معاوية

ولما مات معاوية (سنة ٦٠ هـ) خرج الضحاك بن قيس الفهري - وكان صاحب شُرطته - حتى صعد المنبر ، وأكفان معاوية على يديه تلُوح ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان عمود العرب ، وحدّ العرب ، قطع الله عزّ وجلّ به الفتنة ، ومألكه على العباد ، وفتّح به البلاد ، ألا إنه قد مات ، فهذه أكفائه ، فنحن مُذْرِجوه فيها ، ومُذْخِلوه قبره ، ومُخْلُون بينه وبين عمله . ثم هو في البرزخ^(٢) إلى يوم القيامة ، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضّر عند الأولى^(٣) » .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٢ ، والقصد الفريد ٢ : ٢٥٠)

٢٦٥ - خطبة النعمان بن بشير بالكوفة^(٤) (قتل سنة ٦٤ هـ)
خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة ، فقال :

[١] يقال : جاء أخرة وبأخرة بالحراك : أى آخر كل شيء .

[٢] البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت إلى البعث ، من مات فقد دخل البرزخ .

[٣] وفي القصد « فمن أراد حضوره صلاة الطهر فليحضره » .

[٤] ولي الكوفة وحصن معاوية وبزبد ، وكان هراة مهمما ، وميله لإنهما ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلىبيعة عبد الله بن الزبير بالنشأ ، وكان أول من حالف من أمراء الأجناد - وكان والياً على حمص - وانضم إلى الصالح بن قيس الفهري ، وأمدّه بجيش من أهل حمص عليه شرحبيل بن ذي الكلاع وشبث الحرب بين الصالح ، وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الصالح وقبل كما قدما ، فلما بلغ الخبر النعمان بن بشير خرج من حمص هارباً لئلا ومعه امرأته وولده ونقله ، فسار ليلته جمعا متعبراً لا يدري أين يأخذ ، فاتبعه خالد بن عدي الكلابي فيمن خف معه من أهل حمص ، فلققه وقلة وبعث رأسه إلى مروان ، وكان قتله في ذي الحجة سنة ٦٤ هـ .

« يَأْهَلُ الْكَوْفَةِ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا وَجَدْتُ مَثْلِي وَمِثْلَكُمْ إِلَّا الضَّبَّعَ وَالشَّعْلَبَ ،
 أَتَيَا الضَّبَّ فِي جُجْرِهِ ، فَقَالَا : أَبَا الْحِسْلِ ^(١) . قَالَ : أَجَبْتُكُمَا . قَالَا : جِئْنَاكَ
 نَخْتَصِمُ . قَالَ : فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحَكَمَ . قَالَتِ الضَّبَّعُ : فَتَحْتُ عَيْنِي . قَالَ : فِعَلَتِ
 النِّسَاءُ فَعَلْتُ . قَالَتْ : فَلَقَطْتُ تَمْرَةً . قَالَ : حُلُوا اجْتَنَيْتِ . قَالَتْ : فَاخْتَطَفْتُهَا
 ثُمَالَةً ^(٢) . قَالَ : لِنَفْسِهِ بَغَى الْخَيْرَ . قَالَتْ : فَطَمَتَهُ لَطْمَةً . قَالَ : حَقًّا قَضَيْتِ .
 قَالَتْ : فَلَطَمَنِي أُخْرَى . قَالَ : كَانَ حَرًّا فَانْتَصَرَ . قَالَتْ : فَافْضِ الْآنَ بَيْنَنَا . قَالَ :
 حَدَّثْتُ حَدِيثَيْنِ امْرَأَةً ، فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْ فَأَرْبَعَةٌ ^(٣) » .

(المعجم المريد ١ : ٢٦٩ - ٢ : ١٥٨ ، مجمع الأئمة للميداني ٢ : ١٣)

٢٦٦ — خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية

(قتل سنة ٦٧ هـ)

قدم عبيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد ، فجعل يتصدى منه
 بخُلوة ، لِيَسْبُرَ مِنْ رَأْيِهِ مَا كَرِهَ أَنْ يُشْرَكَ فِي عِلْمِهِ ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ بَعْدَ انْصِدَاعِ
 الطُّلَافِ ، وَاسْتَنْالَ الْخَاصَّةَ ، وَاقْتَرَقَ الْعَامَّةَ ، وَهُوَ يَوْمَ مَعَاوِيَةَ الَّذِي كَانَ يَخْلُو
 فِيهِ بِنَفْسِهِ ، فَفُطِنَ مَعَاوِيَةُ لِمَا أَرَادَ ، فَبَعَثَ إِلَى ابْنِهِ يَزِيدَ وَإِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ
 وَإِلَى سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، فَلَمَّا أَخَذُوا
 مَجَالِسَهُمْ أَذِنَ لَهُ ، فَسَلِمَ ، وَوَقَفَ وَاجِمًا يَتَصَفَّحُ وَجُوهَ الْقَوْمِ ثُمَّ قَالَ :

[١] أَبُو حَسِلٍ وَأَبُو حَسِيلٍ : كُنْيَةُ الضَّبَّعِ ، وَفِي مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ أَنَّ الْمُتَعَاصِمِينَ : الْأَرْبَابَ وَالشَّعْلَبَ .

[٢] ثُمَالَةٌ : اسْمُ الثَّعْلَبِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى . [٣] وَقَدْ ذَهَبَ أَقْوَالُ السَّبِّ كُلِّهَا أَمَّا لَا ، قَالَ الْمِيدَانِيُّ فِي
 شَرْحِ الْمَثَلِ الْأَخِيرِ (١ : ١٣٠) : « أَيُّ زِدْ ، وَأَرَادَ بِالْحَدِيثَيْنِ حَدِيثًا وَاحِدًا تَكَرَّرَ مَرَّتَيْنِ ، فَكَأَنَّكَ
 حَدَّثْتَهُمَا بِحَدِيثَيْنِ ، وَالْمَعْنَى كَرَّرَ لَهَا الْحَدِيثَ لِأَنَّهَا أَضْعَفُ فَهْمًا ، فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْ فَاجْعَلِيهَا أَرْبَعَةً ، وَقَالَ أَبُو
 سَعِيدٍ : فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْ بَعْدَ الْأَرْبَعَةِ ، فَالْمَرْبَعَةُ (وَالْمَرْبَعَةُ كَمَا كُنْهَتْ : الْعَصَا) وَبُرُوِي : فَارِيعٌ « أَمْرٌ مِنْ رِبْعٍ
 دَنَعَ » أَيُّ كَفَّ ، يُضْرَبُ فِي سُوءِ السَّمْعِ وَالْإِجَابَةِ » .

« صَرِيحُ الْمُقَوِّقِ مُكَاتَمَةُ الْأَذْنَيْنِ ، لَا خَيْرَ فِي اخْتِصَاصٍ وَإِنْ وَقَرَ ،
أَحْمَدُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ عَلَى الْآلَاءِ ^(١) ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى اللَّأْوَاءِ ^(٢) ، وَأَسْتَهْدِيهِ مِنْ عَمَى
مُجْهَدٍ ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى عَدُوِّ مُرْصِدٍ ^(٣) ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمُتَّقِدُ بِالْأَمِينِ
الصَّادِقِ مِنْ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ ^(٤) ، وَمَنْ بَدَّ غَارٍ ^(٥) ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى الزَّكِيِّ نَبِيِّ
الرَّحْمَةِ ، وَنَذِيرِ الْأُمَّةِ ، وَقَائِدِ الْهَدْيِ ، أَمَا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَقَدْ عَسَفَ بِنَا ظَنُّ
فَرْعٍ ^(٦) ، وَقَذَعُ ^(٧) صَدْعٌ ، حَتَّى طَمَعَ السَّحِيقُ ^(٨) ، وَيَثَّسَ الرِّفِيقُ ، وَدَبَّ
الْوُشَاهُ بِمَوْتِ زِيَادٍ ، فَكَلَّهْمُ مُسْتَحْقِرٍ ^(٩) لِلْعَدَاوَةِ ، وَقَدْ قَلَّصَ الْآزِرَةَ ^(١٠) ، وَشَمَّرَ
عَنْ عِطَافِهِ ^(١١) لِيَقُولَ : مَضَى زِيَادٌ بِمَا اسْتُلْحِقَ بِهِ ، وَدَلَّ عَلَى الْأَنَاءَةِ ^(١٢) مِنْ
مُسْتُلْحِقِهِ ، فَلَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَلِمَ فِي دَعَتِهِ ^(١٣) ، وَأَسْلَمَ ^(١٤) زِيَادًا فِي ضَيْعَتِهِ ،
فَكَانَ تَرَبُّبٌ ^(١٥) عَامَّتِهِ ، وَأَحْدَرَعِيَّتُهُ ، فَلَا تَشْخَصَ ^(١٦) إِلَيْهِ عَيْنُ نَازِرٍ ، وَلَا إِصْبَعُ

[١] العلم . [٢] الشدة . [٣] ارصدت له : أعددت . [٤] الشنا : حرف كل شيء ،
والجرف كعرق وقمل ما تحرقه السيول وأكاته من الأرض ، وهار الجرف اصدع ولم يسقط فهو هار
كقائض ، وهو مقلوب من هائر ، فإذا سقط فقد انهار وتهور . [٥] البد : السب ، والعارى :
اللازم الشامل ، من عرا السمن قابله لرق به وعطاه . [٦] فرع بين القوم وقرق بمعنى واحد ، أى
أن هذا الظن فرق بيننا وبينك خافيتنا . [٧] هى فى الأصل « فرع » وأراها محرفة عن ودع وهى
التي تناسب المقام . ودعه ودعا (بالسكون) رماء بالفحش وسوء القول كأفدعه ، والقدح محركة الحنا
والفحش والقدح ، وصدع شقق وعرق أى أن مارمانا به الوساة لديك من سوء القول فرق بيننا وبينك .
[٨] البعيد . [٩] فى الأصل هكذا بمعنى محضر ، أى محقر لما لمعاداته إيانا ، أو أنه لا يبالى
بمعاداتنا لما نابا من الضعف بموت زياد ، وربما كان « متحقر للعداوة » أى موثب مستوفر أو « مسحفر
للعداوة » من اسحفر إذا مضى مسرعا . [١٠] الآزرة والأزر بضمين جمع إزار وهو الماچه .
[١١] العطف : الرداء ، وجمعه عطف بضمين ، وأعطفه ، وكذا المطف بالكسر ، وهو مل إزار ،
ومئزر ، ولحاف ، وملحف .

[١٢] فى الأصل « الأبيه » وأراه محرفا عن « الأناءة » وهى الحلم . [١٣] الدعة الحفض .

[١٤] أسلمه : خذله أى فليته ترك زيادا ضائع النسب مغمورا ولم يستلحقه .

[١٥] الترب : من ولد معك . أى فكان تربا لأحد عامة الناس ، ولم يكن تربا لك فلا بعدر له فدر

[١٦] أى فلا ترتفع .

مُشِير، وَلَا تَنْدَلِقِ^(١) عَلَيْهِ أَلْسُنُ كَلَمَتِهِ حَيًّا ، وَنَبَشَتَهُ مَيْتًا ، فَإِنْ تَكُنْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَايِدَ زِيَادَا بِأَوَّلِ رُفَاتٍ ، وَدَعْوَةِ أَمْوَاتٍ ، فَقَدْ حَابَاكَ زِيَادٌ بِجِدِّ هَصُورٍ ، وَعَزَمَ جَسُورٍ ، حَتَّى لَانَتْ شَكَاؤُ الشَّرْسِ ، وَذَلَّتْ صَعْبَةُ الْأَشْوَسِ^(٢) ، وَبَذَلَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَمِينَهُ وَيَسَارَهُ ، تَأْخُذُ بِهِمَا الْمَنِيْعَ ، وَتَقَهَّرُ بِهِمَا الْبَدِيْعَ ، حَتَّى مَضَى وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ، فَإِنْ يَكُنْ أَخَذَ بِحَقِّ أَنْزَلِهِ مَنَازِلَ الْأَقْرَبِينَ ، فَإِنْ لَنَا بَعْدَهُ مَا كَانَ لَهُ ، بِدَالَةِ الرَّحِمِ ، وَقَرَابَةِ الْحَمِيمِ ، فَمَا لَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَعْمَى الضَّرَاءِ^(٣) ، وَنُشْتَفُ النَّضَارَ^(٤) ؟ وَلَكَ مِنْ خَيْرِنَا أَكْمَلُهُ ، وَعَلَيْكَ مِنْ حُوبِنَا^(٥) أَثْقَلُهُ ، وَقَدْ شَهِدَ الْقَوْمَ ، وَمَا سَاءَ نِي فَرَبِّهِمْ لِيُقَرَّرُوا حَقًّا ، وَيُرَدُّوا بَاطِلًا ، فَإِنْ لِلْحَقِّ مَنَارًا وَاضِحًا ، وَسَبِيلًا قَصْدًا^(٦) . فَقُلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيِّ أَمْرٍ لَكَ شَيْءٌ ، فَمَا نَارِزُ^(٧) إِلَى غَيْرِ جُحْرِ نَا ، وَلَا نَسْتَكْثِرُ بِغَيْرِ حَقِّنَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

٢٦٧ — رَدَّ معاوية على ابن زياد

فَنَظَرَ مُعَاوِيَةُ فِي وَجْهِ الْقَوْمِ كُلِّهِمْ ، فَتَصَفَّحَهُمْ بِلِحْظِهِ رَجُلًا رَجُلًا وَهُوَ يَتَسَمَّى ، ثُمَّ أَتَجَّهُ تِلْقَاءَهُ ، وَعَقَدَ حُبُوتَهُ^(٨) ، وَحَسَرَ عَنْ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ يُومِيئُ بِهَا ، ثُمَّ قَالَ مُعَاوِيَةُ :

-
- [١] اندلق السيل : اندفع ، والسف اسلّ بلاسل أو شق جفنه نخرج منه ، وكلته جرحته وآدته .
 [٢] وصف من السوس بالتحريك ، وهو النظر بمؤخر العين تكبرا ، أو تغيظا .
 [٣] الضراء : الشجر الملتف في الوادي ، يقال توارى الصيد منه في ضراء ، وفلان يمشي الضراء إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر . [٤] اشتف ما في الإماء : شربه كله ، والصار : الذهب أو الفضة ، والمراد : نفع منه ، ولا تمكن من أحده ، أي يحال بيننا وبين الولاية .
 [٥] الحوب بضم الحاء وفتحها : الإثم ، أي وهليك من آثامنا التي ارتكبتها في سبيل تأييد سلطانك اتقلها ، وفي بعض النسخ : « من جوابنا » أي من جوابنا حين يسألنا المولى عما أتينا من أخذ الناس بالعسف والإرهاق لتمكين ملكك [٦] القصد : استفادة الطريق .
 [٧] من أرزت الحية أي لاذت بمجرها ورجعت إليه . [٨] احتبى بالثوب : اشتعل ، أو جمع بين بين ظهره وساقيه بسمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة ، وحسر : كشف .

« الحمد لله على ما نحن فيه ، فكل خير منه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ،
فكل شيء خاضع له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ذلك على نفسه بما بان عن عجز
الخلق أن يأتوا بمثله ، فهو خاتم النبيين ، ومصدق المرسلين ، وحجة رب العالمين ،
صلوات الله عليه وبركاته ، أما بعد : فرُبَّ خيرٍ مستور ، وشرٍّ مذكور ، وما هو
إلا السهم الأخبى لمن طاربه ، والخطُّ المرغِب لمن فاز به ، فيهما التفاضلُ
وفيهما التغايبُ ، وقد صَفَقَتْ ^(١) يداي في أيك صَفَقَةً ذى الخلة من رواضع
الفُصْلان ، عَامِلَ اصْطِناعِي ^(٢) له بالكفر لما أوليته ، فما رهيتُ به إلا اتصل ^(٣) ،
ولا اتضيتُهُ ^(٤) إلا غُلِقَ جَفْنُهُ ، ولزَّت ^(٥) لَسَعَتُهُ ، ولا قُلْتُ إلا عَانَدَ ، ولا قُتُّ
إلا قَعَدَ ، حتى اخْتَرَمَهُ ^(٦) الموت ، وقد أَوْفَعَ بَخْتَرِهِ ^(٧) ، ودَلَّ على حِقْدِهِ ، وقد
كنت رأيتُ في أيك رأياً حَضَرَهُ الخَطَلُ ، والتبس به الزَّلَلُ ، فأخذ منى بِحَظِّ
الْعَفَاةِ ، وَمَا أَبْرَى نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ ، فما بَرِحَتْ هَنَاتُ ^(٨)
أيك تَحْطِبُ في جبل القَطِيعَةِ ، حتى انتكثت ^(٩) المُرَمَ ، وأنحلَّ عَقْدُ الودادِ ،
فيالها تَوْبَةٌ تُؤْتِنَفُ ^(١٠) من حَوْبَةٍ أَوْرَثَتْ نَدَمًا ، أَسْمَعَ بها الهَاتِفُ ، وشاعت
للشامتِ ، فليهنأ ^(١١) الواشِمَ ما به احتقر ، وأراك تحمَد من أيك جدًّا

[١] صفق له بالبيع ، وصفت يده ، وعلى يده صففا وصفعه : صرب يده على يده ، وذلك عند وجوب
البيع ، والفصلان جمع فصل : وهو ولد الباقة إذا فصل عن أمه ، والخلة : الحاجة .

[٢] اصطبعه لنفسه : اختاره لخاصة أمر استكفاه لِيَا . [٣] انفصل السهم : سقط لصله .

[٤] انتضى السف : استله ، والجفن : عمدة السيف . [٥] لزمت : طعمه .

[٦] أهلكه . [٧] الحتر : العدر والحديعة ، أو أوجع العدر ، وأوقع به : أهلكه .

[٨] أعماله وسيناته جمع هه . [٩] انحل وانقص . [١٠] تؤتنب : تستأنب ، والحوبة :

الايثم والذنب . [١١] من ماء الطعام أى ساع ولد ، والواشم فاعل من الوشم ، وشم يده إذا غرزها
بإبرة ثم در عليها النواج ، والمراد به هنا المعادى — والوشيمة : العداوة — أى ههنا لأعدائه الذين حفرهم
ونالوا من عرضه ، فهو أهل لما قيل فيه : « يرد معاوية بذلك على قول عبيد الله قبل : » ولا تندلق عليه
ألسن كلته حيا ، ونبشه ميتا » .

وجُسُورا ^(١) هما أوفياً به على شَرَفِ التَّقَحُّمِ ^(٢) ، وَغَبَطِ النِّعْمَةِ ، فدَعَهُمَا فَقَدَ
أَذْكُرْتَنَا مِنْهُ مَا زَهَّدَنَا فِيكَ مِنْ بَعْدِهِ ، وبهما مشيتَ الضراء ، واشتفتَ النضار ،
فاذهب ، إليك ، فَأَنْتَ نَجْلُ الدَّغَلِ ^(٣) ، وَنَثْرُ النَّغْلِ ^(٤) ، والأجرُ شَرٌّ .

٢٦٨ مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد : « يا أمير المؤمنين إن للشاهد غيرَ حكم الغائب ، وقد حضرَكَ
زياد ، وله مواطنٌ معدودةٌ بخير ، لا يُفْسِدُهَا التَّظَنِّي ^(٥) ، ولا تَغَيِّرُهَا التَّهَمُّ ، وأهلوه
أهلوك التحقوا بك ، وتوسَّطُوا شَأْنَكَ ، فسافَرْتُ بِهِ الرُّكْبَانُ ، وَتَمَيَّعْتُ بِهِ أَهْلُ
الْبُلْدَانِ ، حتى اعتقده الجاهلُ ، وشَكَّ فِيهِ الْعَالِمُ ، فلا تَتَحَجَّرَ ^(٦) يا أمير المؤمنين
ما قد اتسم ، وكَثُرَتْ فِيهِ الشَّهَادَاتُ ، وَأَعَانَكَ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .

فانحرف معاوية إلى من معه ، فقال : هذا وَقَدْ ^(٧) نَفْسُهُ يَبِيعُهُ ، وَطَمَنَ فِي إِمْرَتِهِ ،
يَعْلَمُ ذَلِكَ كَمَا أَعَامَهُ ، يَا لِلرَّجَالِ مِنْ آلِ أَبِي سَفْيَانَ ! لَقَدْ حَكَمُوا وَبَذَلَهُم ^(٨) يَزِيدُ
وَحْدَهُ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى عَبِيدِ اللَّهِ . فقال : يا بن أخى ، إِنْى لَأَعْرِفُ بِكَ مِنْ أَيْيِكَ ،
وَكَأَنِّى بِكَ فِي غَمْرَةٍ لَا يَخْطُوهَا ^(٩) السَّابِجُ ، فَالزَّمْ ابْنَ عَمِّكَ . فَإِنْ لِمَا قَالَ حَقًّا ،
نَخْرِجُوا وَلِزِمَ عَبِيدُ اللَّهِ يَزِيدَ يَرِدُ مَجْلِسَهُ ، وَيَطَأُ عَقِبَهُ أَيَّامًا ، حتى رَمَى بِهِ مَعَاوِيَةُ
إِلَى الْبَصْرَةِ وَالْيَا عَلَيْهَا ^(١٠) .

(العدد الفريد ٢ : ١٤٠)

[١] الجسور : الجسارة . [٢] تقحمت به دابته : نذت به وربما طوحت به في وهدة أو وقفت
به ، والمجمة كمرفة : الورطة والهلكة ، والمراد التعرّض للهلاك .
[٣] الدخل والساد . [٤] نعل الأدم نعلًا : سد في الدباج ، والجرح سد .
[٥] التظنى : إعمال الظن ، وأصله الظنن . [٦] أى فلا تصيق ، عجر عليه : ضيق ، ونحجر
ما وسعه الله : حرّاه وضيقه ، وفى الحديث : « امرئ تحجرت واسعا » أى صيقت ما وسعه الله ، وفى
الأصل « فلا يتحجر » وهو تصحيف . [٧] فى الأصل « ودد » وأمله وقد ، يقال وقده أى عليه
وسكنه . [٨] فامهم . [٩] فى الأصل « لا يحطرها » وأراه « لا يخطوها » .
[١٠] قال الطبرى : « ولى معاوية عبيد الله بن زياد البصرة سنة ٥٥ هـ » .

٢٦٩ — وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته ^(١)

روى الطَّبَرِيُّ قال :

لَمَّا كَانَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ بَزَاغُولَ مِنْ مَرْوِ الرُّوذِ (مِنْ خُرَاسَانَ)
أَصَابَتْهُ الشَّوْصَةُ ^(٢) (وَقَوْمٌ يَقُولُونَ الشَّوْكَةَ ^(٣)) فَدَعَا حَبِيبًا وَمِنْ حَضْرِهِ مِنْ
وَلَدِهِ ، وَدَعَا بِسِهَامٍ فَحُزِمَتْ ، وَقَالَ : أَتَرَوْنِكُمْ كَأَسْرِيهَا مَجْتَمِعَةً ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ :
أَقْتَرُونَكُمْ كَأَسْرِيهَا مَتَفَرِّقَةً ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : فَهَكَذَا الْجَمَاعَةُ ، فَأَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ
وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ تُنْسِي ^(٤) فِي الْأَجَلِ ، وَتُثْرِي الْمَالَ ، وَتُكَثِّرُ الْعَدَدَ ،
وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْقَطِيعَةِ ، فَإِنَّ الْقَطِيعَةَ تُعْقِبُ النَّارَ ، وَتُورِثُ الذُّلَّةَ وَالْقِلَّةَ ، تَبَاذَلُوا
وَتَوَاصَلُوا تَحَاثَبُوا ، وَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَلَا تَخْتَلِفُوا ، وَتَبَارَثُوا تَجْتَمِعُ أُمُورُكُمْ ، إِنْ بَنَى
الْأُمَمُ يَخْتَلِفُونَ ، فَكَيْفَ بَيْنَ الْعَلَاتِ ^(٥) ؟ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَلِتَكُنْ فِعَالُكُمْ
أَفْضَلُ مِنْ قَوْلِكُمْ ، فَإِنِّي أَحَبُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ لَعْمَلِهِ فَضْلٌ عَلَى لِسَانِهِ ، وَاتَّقُوا
الْجَوَابَ ، وَزَلَّةَ اللِّسَانِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ تَزِلُّ قَدَمُهُ فَيَنْتَعِشُ مِنْ زَلَّتِهِ ، وَيَزِلُّ لِسَانُهُ
فِيهِ سَلَاكٌ ، اعْرِفُوا مَنْ يَغْشَاكُمْ حَقُّهُ ، فَكُنْ بِغَدُوِّ الرَّجُلِ وَرَوَاجِهِ إِلَيْكُمْ تَذَكُّرَةً
لَهُ ، وَآثِرُوا الْجُودَ عَلَى الْبَخْلِ ، وَأَحْبِبُوا الْعَرَبَ ، وَاصْطَنِعُوا الْعَرَبَ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنَ
الْعَرَبِ تَعِدُّهُ الْعِدَّةَ فَيَمُوتُ دُونَكَ ، فَكَيْفَ الصَّنِيعَةُ عِنْدَهُ ؟ وَعَلَيْكُمْ فِي الْحَرْبِ
بِالْأَنَاءَةِ وَالْمَسْكِدَةِ ، فَإِنَّهَا أَنْفَعُ فِي الْحَرْبِ مِنَ الشَّجَاعَةِ ، وَإِذَا كَانَ اللَّقَاءُ نَزَلَ
الْقَضَاءُ ، فَإِنْ أَخَذَ رَجُلٌ بِالْحَزْمِ فَظَهَرَ عَلَى عَدُوِّهِ . قِيلَ : أَتَى الْأَمْرُ مِنْ وَجْهِهِ ،

[١] سترد خطبه إن شاء الله في باب « خطب الحوارج وما ينصل بها » وذكر الطبري أنه توفي سنة ٨٢ هـ ، وابن خلكان أنه توفي سنة ٨٣ هـ ، وكان الحجاج قد ولاء بعد فراغه من حرب الأزارقة على خراسان ، فوردتها واليا عليها سنة ٧٩ هـ ولم نزل واليا عليها حتى أدركته الوفاة هناك .

[٢] الشوصة بالفتح وقد تصم الشين : وجع في البطن . [٣] الشوكة : حمرة تعلق الجسد .

[٤] تؤخر وتطيل . [٥] بنو العلات : بنو أمهات شقي من رجل واحد .

ثم ظفر فحميد ، وإن لم يظفر بعد الأناة ، قيل : ما فرط ولا ضيع ، ولكن القضاء غالب ، وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنين وأدب الصالحين ، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفت عليكم يزيد ، وجمعت حبيبا على الجند ، حتى يقدم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد « فقال له الفضل : لو لم تقدمه لقد مناه . (تاريخ الطبري ٨ : ١٦ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، والبيان والبيان ٢ : ٩٨)



وعهد إلى ولده يزيد ، فكان من جملة ما قال له :
« يا بُنَيَّ ، استعقل الحاجب ، واستظرف الكاتب ، فإنَّ حاجِبَ الرجل وجهه ، وكاتبه لسانه » ، وكان يقول لبيه : « يا بُنَيَّ أحسنُ ثيابكم ما كان على غيركم » ، ومن كلماته الماثورة قوله : « الحياة خيرٌ من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة ، ولو أعطيت ما لم يُعْطَه أحد ، لأحببت أن تكون لي أذنٌ أسمع بها ما يُقال في غداً إذا ميت » ، وقوله : « عجبتُ لمن يشتري العبيد بماله ، ولا يشتري الأحرار بإفضاله » . (وفيات الأعيان ٢ : ١٤٦ ، وشرح العيون ١٢٧)

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

(المتوفى سنة ٩٥ هـ)

٢٧٠ — خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير (سنة ٧٣ هـ)

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ، ارتجعت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر ، فقال : « ألا إن ابن الزبير كان من أحبار ^(١) هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة

[١] جمع خبر بفتح الحاء وكسرهما وهو العالم أو الصالح .

ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكنَّ بحَرَمِ الله ، ولو كان شيء مانعاً للعصاة ، لمنع آدم حُرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجهُ منها بِخَطِيئَتِهِ ، وآدمُ على الله أَكْرَمُ من ابن الزير ، والجنةُ أعظمُ حُرمةً من الكعبة . (سرح العيون ص ١٢٢)

٢٧١ — خطبته حين ولي العراق (سنة ٧٥ هـ)

حدَّث عبد الملك بن مُهمِر اللّيثي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مَوَالِيهِ ، إِذْ أَتَى آتٍ ، فقال : هذا الحجاج قد قَدِمَ أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمِلاً بِعِمَامَةٍ قد غَطَّى بِهَا أَكْثَرَ وَجْهِهِ ، مُتَقَلِّداً سَيْفًا ، مُتَنَكِّبًا ^(١) قَوْسًا ، يُوْثِمُ الْمَنْبِرَ ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فَكَثَّ سَاعَةً لَا يَتَكَلَّمُ ، فقال الناس بعضهم لبعض : قَبَّحَ اللهُ بَنِي أُمِيَّةَ ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال مُهمِر بن ضَابِيٍّ الْبُرْجُمِيُّ : أَلَا أَحْصِيْهُ لَكُمْ ؟ فقالوا : أَمْهَلْ حَتَّى نَنْظُرَ ^(٢) ، فلما رأى عيون الناس إليه ، حَسَرَ الْأَثَامَ عَنْ فِيهِ وَنَهَضَ ، فقال :

« أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا متى أَضْعَ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي ^(٣) »

[١] و يروى : أنه خرج يريد العراق واليا عليها في اثني عشر راكبا على الحائب ، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ، وبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر فقال : على بالناس ، فحسبوه وأصحابه خوارج فهموا به . [٢] تنكب قوسه : ألقاها على منكبيه . [٣] قال ابن نباتة : « فلما سمعوا هذه الحطة — وكان بعضهم قد أخذ حصي أراد أن يحصبه به — تساقط من أيديهم حزنا ورعبا » . [٤] البيت لسحيم ابن وثيل الرياحي قاله الحجاج متمثلا ، وقوله « أنا ابن جلا » أي الواضح الأمر المتكشفه ، وقيل ابن جلا الصبح ، لأنه يجلو الظلمة ، وهو مثل يضرب المشهور المتعالم ، أي أنا الظاهر الذي لا يخفى ، وكل أحد يعرفني ، ولم ينون جلا لأنه أزداد الفعل ، فكفى على ما كان عليه قبل التسمية كقول الشاعر :

وَاللَّهِ مَا زَيْدٌ بَنَامٌ صَاحِبُهُ وَلَا مُخَالِطٌ الْيَاكِنْ جَانِبُهُ

ثم قال : يأهل الكوفة ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَجِلُّ الشَّرَّ بِحَمَلِهِ ، وَأَحْذَوْهُ بَنَعْلِهِ ، وَأَجْزِيهِ بِعَيْلِهِ ، وَإِنِّي لَا أَرَى أَبْصَارًا طَامِعَةً ، وَأَعْنَاقًا مَتَطَاوِلَةً ، وَرءُ وَسًا قَدْ أَيَّعَتْ وَحَانِ قِطَافُهَا ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهَا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الدَّمَاءِ بَيْنَ الْعِمَائِمِ وَاللَّحَى تَتَرَقَّرُ ،
ثم قال :

هذا أَوَانُ الشَّدِّ فَاشْتَدَّى زَيْمٌ قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطْمٍ
ليس بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهَرٍ وَصَمٍ ^(١)
ثم قال : قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعَصَلِيٍّ أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوَى
مُهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيٍّ ^(٢)
ثم قال : قَدْ شَمَّرْتَ عَنْ سَافَهَا فَشُدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فُجْدُوا
وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرَّ عُرْدُ مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ
لَا بُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ ^(٣)

وتقديره أنا ابن الذي يقال له جلا الأمور وكشفها ، وقال بعضهم : ابن جلا - وإن أحلى - رجل عينه ، قال في اللسان : « وكان ابن جلا هذا صاحب ملك يطلع في العارات من ثنية الجبل على أهلها » والنايا جمع ثنية : وهي الطريق في الجبل ، أراد به أنه حلد يطلع الشيا في ارتفاعها وصعودها ، والعمامة : المعفر واليضة قال ثعلب : العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم . [١] الشعر لرويشد بن رميص العبدي والشد : العدو ، وزيم اسم فارس أو ناقة ، وقيل اسم للحرب ، والحطم ، والحطمة : الراعي اللوم الماشية يهشم بعضها بعض ، ولا يبقى من السير شيئا ، وقد ضرب المثل رعاة الغنم في الحق فقل : « أحق من راعي ضأن ثمانين » قال الجاحظ في البيان والنبين ١ : ١٣٩ « فأما استحقاق رعاة الغنم في الجملة فكيف يكون ذلك صوابا ؟ وقد رعى الغنم عدة من جلة الأنبياء عليهم السلام » والوصم : كل ما قطع عليه اللحم . [٢] العصلي : الشديد القوى ، والأروع : الذكي ، أو من يعجبك شجاعته ، والدو والدوية والدواية ويخفف : الغلاة المتسعة التي تسمع لها دويًا بالليل « وإنما ذلك الدوى من أخفاف الإبل ، تنفسح أصواتها فيها ، وتقول جهلة الأعراب : إن ذلك عزيز الجى » أى خراج من كل غنم شديدة ، وهجر الرجل : خرج من البدر إلى المدن ، والأعرابي بطبيعته غر ساذج ليس في تجربته كأهل المدن . وسيرد عليك إن شاء الله في الجزء الثالث في خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة :

« إني لست أتأوتيا أعلم ، ولا بدوتيا أفهم » .

[٣] جدبه الأمر : اشتد ، وعردة : أى شديد ، والبكر : الفقى من الإبل ، ولا يد من كذا : أى لا يحيد منه .

إني والله يَأهلَ العراق ، وَمَعْدِنَ الشقاق والنفاق ، ومساوى الأخلاق ،
 ما يُقَمِّعُ لى بالشَّنَانِ ^(١) ، ولا يُغَمِّزُ جانبى كَتَغَمَّازِ التين ، ولقد فُرِرتُ ^(٢) عن
 ذَكَاء ، وفُتِّشتُ عن تجرِبة ، وَجَرَيْتُ إلى الغاية القُصْوَى ، وإن أمير المؤمنين
 - أطال الله بقاءه - تَثَرَكِنَاتُهُ ^(٣) ، بين يديه ، فَعَجَمَ ^(٤) عِيدَانَهَا ، فوجدنى
 أمرها عوداً ، وأصلبها مكسراً ^(٥) فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم ^(٦) فى الفتن ،
 واضبطعتم فى مَرَاقِدِ الضلال ، وَسَنَنْتُمْ سُنَنَ النِّى ، أما والله لَأَلْحُوْزُكُمْ ^(٧) لَحْوُ
 العصا ، وَلَأَقْرَعُنْكُمْ قَرَعَ المَرْوَةِ ^(٨) ، وَلَأَغْصِبَنَّكُمْ غَضَبَ السَّلْمَةِ ^(٩) ، وَلَأَضْرِبَنَّكُمْ
 ضَرْبَ غَرَائِبِ الإِبِلِ ^(١٠) ، فَإِنَّكُمْ لَكَأَهْلُ قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا
 رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
 وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، وإني والله لا أَعِدُّ إِلَّا وَفِيَّتْ ، ولا أَهْمُّ إِلَّا
 أَمْضِيَّتْ ، ولا أَخْلُقُ ^(١١) ، إِلَّا فَرَيْتُ ، فَإِيَاىَ وَهَذِهِ الشُّفَعَاءُ ، وَالزَّرَّافَاتِ ^(١٢)
 وَالْجَمَاعَاتِ ، وَقَالَ وَقِيلَا ^(١٣) ، وما تقول ؟ وفيم أنتم وذاك ؟ أما والله لَتَسْتَقِيمُنَّ

[١] القمعة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشان جمع شنّ بالفتح :
 وهو العربة النالسة ، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفرع فتسرع ، مثل يضرب لمن
 لا يروعه ما لا حقيقة له ، وقد تمثل به معاوية من قبله .

[٢] فر الدابة : فتح حركتها وكشف أسنانها ليظهر سننها ، ومرت عن الأمر : بحث فيه .
 [٣] السكانة جمع السهام ، وفي رواية : « كبّ كاتته » أى قلها . [٤] عجم العود : عضه
 ليعرف صلابته من خوره . [٥] وفي رواية « وأصلبها عمردا » . [٦] أوسع إبطاعا : أسرع
 فى سيره كوضع . [٧] لما العصا : قشرها ، وفي رواية : « لحو المرد » .

[٨] المرو : حجارة بيض برّاقة تورى النار . [٩] السلعة : شجر كثير الشوك . قال الجاحظ فى
 البيان والبيان « لأن الأشجار تعصب أغصانها ، ثم تحبّط بالعصى اسقوط الورق وهتسيم العيدان »
 (٣ : ٢١) . [١٠] قال الجاحظ أيضا : (٣ : ٢٧) « وهى تضرب عند الحرب ، وعند الحلاط ،
 وعند الحوض أشد الضرب » وقال الحارث بن صحر :

بضرب يريل الهام عن سسكناته كما زيد عن ماء الحياض العرائب .

[١١] أخلق : أفدّر ، ومرت : قطعت . [١٢] الشفعا جمع شفع ، وكانوا يجتمعون إلى السلطان
 فيشفعون فى أصحاب الجرائم ، فنهام عن ذلك ، والزرافات جمع زرافة بفتح الزاى وضمها : الجماعة من
 الناس . [١٣] القول فى الخير ، والقال ، والقليل ، والقال فى الشر .

على طريق الحق ، أولادَ عَنِّ لكل رجل منكم شُغلاً في جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعْطِيَا تِكْم^(١) ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة^(٢) ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطاءه بثلاثة أيام إلا سَفَكَتُ دمه ، وأنْهَيْتُ^(٣) ماله ، وهدمت منزله .

(الكامل المبرد ١ : ١٨١ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ٧ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٨ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٢ ، ومعاهد التنصيص ١ : ١١٥ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١٥٦ ، وشرح العيون ١١٦)

✓ ٢٧٢ — خطبته وقد سمع تكبيراً في السوق

فلما كَانَ اليوم الثالث خرج من القصر ، فسَمِعَ تكبيراً في السوق ، فزاعه ذلك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :
« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، يَا أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، وَمَسَاوِيِّ الْأَخْلَاقِ ، وَنِيِ الْأَكِيمَةِ^(٤) ، وَعَبِيدَ الْعَصَا ، وَأَوْلَادَ الْإِمَاءِ ، وَالْفَقْعَ بِالْقَرَقَرِ^(٥) ، إني سمعت تكبيراً لا يُراد الله به ، وإنما يُراد به الشيطان^(٦) ألا إنها عِجَاجَةٌ تحتها قَصْفٌ^(٧) ، وإنما مثلي ومثلكم ما قال عمرو بن بَرَّاق الهَمْدَانِي :

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ فَمَلْ أَنَا فِي ذَا يَا لَهْمْدَانَ ظَالِمٌ !
مَتَى تَجْمَعُ الْقَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِمًا وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبُكَ الْمَظَالِمُ

[١] أعطيات جمع أعطية ، وهي جمع عطاء . [٢] قائد الجيوش : الذي حارب الحوارج الأزارقة ، وقتل شوكتهم ، وسيأتى . [٣] جعلته نبراً يفار عليه .
[٤] اللثيمة . [٥] الفرقر : أرض مطمئنة لينة ، والفقع ويكسر : البيضاء الرخوة من الكدأة ، ويقال للذليل هو أذل من فقع بفرقر ، لأنه لا يمتنع على من اجتناه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل .
[٦] وفي رواية : « إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد الله به في التزبيب ، ولكنه التكبير الذي يراد به التزهيب » . [٧] العجاج : الفجار ، والقصف : شدة الريح .

أما والله لا تَقْرَعُ عَصًا عَصًا إِلَّا جَعَلْتُهَا كَأَمْسِ الذَّابِرِ ^(١) .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٩ — ١ : ٢٠٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وإعجاز القرآن ١٢٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٢ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩٠)

٢٧٣ — خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم فقال :

« أيها الناس : من أعياه داوؤه ، فعندي دواؤه ، ومن استطال أجله ، فملى أن أعجله ، ومن ثقل عليه رأسه ، وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضيه ، قصرت عليه باقيه ، إن للشيطان طيفا ، وللسلطان سيفًا ، فمن سقمت سريره ، صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضيق عنه الهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه ، سبق بدنه بسفك دمه ، إني أنذركم لا أنظر ^(٢) ، وأحذركم لا أعذر ، وأتوعدكم لا أعفو ، إني أفسدكم تزيين ^(٣) ، ولأتكم ، ومن استرخى لبيبه ^(٤) ، ساء أدبه ، إن الحزم والعزم سلباني سوطي ^(٥) ، وأبدلاني به سيفي ، فناءؤه في يدي ، ونجاده ^(٦) في عنقي ، وذبابه ^(٧) قِلَادَةُ مَنْ عَصَانِي ، والله لا أمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذي يليه ، إلا ضربت عنقه » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٤٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ ، وشرح العيون ١٢٢)

[١] وفي رواية الطبري خاصة : « ألا يرمع رجل منكم على ظله ، وبحسن حقن دمه ، ويعبر موضع قدمه ، وأسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها ، وأدبا لما بعدها » — يرمع (كيمنع) يقف ويبتظر ، والطلع (كشمس) : الغمز في الشيء ، ويقال : ارمع على ظلك ، أي إليك ضعيف ، فاته عما لا تطيقه . [٢] أنظره : أمهله .

[٣] التزيين : الصنع في الأمر (وفي البدن والبصر أيضا) . [٤] الالب : ما شد في صدر الدابة ليمنع استئثار الرجل ، والمراد أن الهوادة والابن تفسد أدب الرعية . [٥] هكذا في نهاية الأرب ، وفي صبح الأعشى : « سكتا في وسطى » والأول أصح ، أي أنه رأى من الحزم ، والعزم : المبالغة في استعمال الشدة ، والقوة في التأديب ، فطرح السوط ، واستبدل به ما هو أشد منه وهو السيف . [٦] النجاد : علاقه السيف . [٧] ذباب السيف : حده .

٢٧٤ - خطبته بعد وقعة دير الجماجم^(١)

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال :

« يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم ، نغاط اللحم والدم والعصب ، والمسامع والأطراف ، والأعضاء^(٢) والشفاف^(٣) ، ثم أفضى إلى المخاخ^(٤) والأصماغ ، ثم ارتفع فعمشش^(٥) ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم نفاقا وشقاقا ، وأشعركم خلافا ، اتخذتموه دليلا تتبعونه ، وقائدا تطيعونه ، ومؤمرا^(٦) تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ، أو تعظمكم وقعة ، أو يحجزكم إسلام ، أو ينفعكم بيان ؟ أستم أصحابي بالأهواز^(٧) ؟ حيث رُمتم المكر ، وسعيتم بالغدر ،

[١] وقعة دير الجماجم : هي وقعة نشبت بين الحجاج وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣ هـ هزم فيها ابن الأشعث ، وذلك أن عبد الله بن أبي بكره عامل الحجاج على سجستان كان قد غزا رتبيل ملك الترك ، وأوغل في بلاده وأصبرا ، وهلك أكثرهم ، فوجه الحجاج إلى رتبيل ابن الأشعث على رأس جيش عظيم لمحارته ، فسار إليه وامتلكت بعض بلاده ، وكان يرى أن يتدرج في الفتح ، فينتقمهم في كل عام مائة من أرضهم ، ولا يتوغل في بلادهم لكيلا يعرض جيشه للدمار والهلكة ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، فأبى عليه الحجاج ، وكتب إليه يصغف رأيه ويأمره بالوئول في أرضه وإلا عزله ، وكان من جراء ذلك أن بايع الجند ابن الأشعث على خلع الحجاج وقتاله ثم حلق عبد الملك بن مروان ، وسار ابن الأشعث بهم من سجستان إلى العراق ، وتحجز الحجاج للقائه ، فسار بأهل الشام حتى نزل تستر (مدينة الأهواز) فانهزمت مدمته ، فرجع إلى البصرة حتى نزل الزاوية (موضع قرب البصرة) ودارت رحى الحرب بين الفريقين هزم أهل العراق أهل الشام . لجنا الحجاج على ركبته وانتقى نحو شبر من سيفه ، واستمد للقاء الموت كريما ، فقويت بذلك قلوب حنده واستبسلوا حتى كان لهم النصر . وانهزم ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة ، حتى هزم مريعة منكرة بدير الجماجم وتبدد أمره ، وورث إلى فارس حتى نزل مدينة بست ، فسمع رتبيل بمقدمه وأمره عزله وأكرمه ، فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يمت إليه بابن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل ، وأراد رتبيل أن يرسله إليه ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن أنقى نفسه من فوق قصر ، فقات فاحتز رتبيل رأسه ، وبعث به إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ . [٢] في المقد الفريد (والأعضاء) .

[٣] الشفاف : غلاف القلب أو جفته .

[٤] رواية نهاية الأرب « المخاخ » وهو الوارد في كتب اللغة : مع يجمع على مخاخ ومخخة (كمنبة) ، أما سائر المصادر التي روت هذه الخطبة ، ونزويها (الأنخاخ) ، وهو ما لم أره في كتب اللغة . وقد روت جميع المصادر « الأصماغ » بهذا الص ، والذي في كتب اللغة : « الصماغ من الأذن الحرق الباطن الذي يفضى إلى الرأس جمع أصمخ وصمخ ، ومثل الصماغ الأصمخ كصمغور ، وجمعه أصاميج ، فصواب الكلمة « الصماغ » أو « الأصاميج » .

[٥] أمره في كذا مؤامرة : شاوره . [٦] يغير إلى وقعة « تستر » .

واستجمعتم للكفر ، وظننتم أن الله يَخْذُلُ دينَهُ وَخِلافتَهُ ، وأنا أرميكم بطَرْفِي ،
وأنتم تَتَسَلَّلُونَ لَوَاذًا^(١) ، وتنهزمون سِرَاعًا ؟ ثم يوم الزاوية ، وما يوم الزاوية !
بها كَانَ فَشَلُكُمْ وتنازُعُكُمْ وتخاذلكم ، وَبَرَاءَةُ الله مِنْكُمْ ، وَتُكُوصُ وَلِيَّكُمْ
عنكم ، إِذْ وَلَّيْتُمْ كَالْإِبِلِ الشَّوَارِدِ إِلَى أوطانها ، النوازعِ إِلَى أعطانها^(٢) ، لَا يَسْأَلُ
المرءُ عَنْ أَخِيهِ ، وَلَا يَلْوِي^(٣) الشَّيْخُ عَلَى بَنِيهِ ، حَتَّى عَضَّكُمْ^(٤) السِّلَاحُ ،
وَقَصَّكُمْ الرِّمَاحُ ، ثُمَّ يَوْمَ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ ، وما يوم دَيْرِ الْجَمَاجِمِ ! بها كَانَتْ المَعَارِكُ
وَالْمَلَا حِم^(٥) ، بِضَرْبِ يُزْبِيلِ الْهَامِ^(٦) ، عَنْ مَقِيلِهِ^(٧) ، وَيُذْهِلِ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ ،
يَأْهَلُ الْعِرَاقَ ، وَالْكَفَرَاتِ بَعْدَ الْفَجَرَاتِ ، وَالْعَدَرَاتِ بَعْدَ الْخَتَرَاتِ^(٨) ، وَالنَّزَوَاتِ^(٩)
بَعْدَ النَّزَوَاتِ ، إِنْ بَعَثْتُمْ إِلَى ثُغُورِكُمْ غَلَّامًا^(١٠) وَخُتْمًا ، وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرْجَفْتُمْ ، وَإِنْ
خَفِئْتُمْ نَافَقْتُمْ ، لَا تَذْكُرُونَ حَسَنَةً ، وَلَا تَشْكُرُونَ نِعْمَةً ، هَلْ اسْتَخَفَّكُمْ نَاكِثٌ ، أَوْ
اسْتَفْوَاكُمْ غَاوٍ ، أَوْ اسْتَنْصَرَكُمْ ظَالِمٌ ، أَوْ اسْتَعْضَدَكُمْ^(١١) خَالِعٌ ، إِلَّا تَبِعْتُمُوهُ وَأَوْيْتُمُوهُ ،
وَنَصَرْتُمُوهُ وَزَكَّيْتُمُوهُ ؟ يَأْهَلُ الْعِرَاقَ ، هَلْ شَغِبَ شَاغِبٌ ، أَوْ نَعَبَ نَاعِبٌ ، أَوْ
زَفَرَ زَا فَرٌ ، إِلَّا كُتِمَ أَتْبَاعُهُ وَأَنْصَارُهُ ؟ يَأْهَلُ الْعِرَاقَ : أَلَمْ تَنْهَكُمُ الْمَوَاعِظَ ، أَلَمْ
تَرْجُرْكُمْ الْوَقَائِعَ ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر ، فقال : « يَأْهَلُ الشَّامَ ، إِنَّمَا أَنَا

[١] أى يلوذ بعضهم ببعض : لاوذ لواذاً وملاوذة . [٢] أعطان جمع عطن كسب : مبرك الابل
حول الحوض كالعطن ، ونوازع : أى متناقة . [٣] لا يلوى على أحد ، أى لا يقف ولا يفتار .
[٤] فى نهاية الأرب « عطفكم » بالطاء ، عطفه الحرب كعطفه بالصاد . [٥] جمع ملحمة وهى الوقعة
العظيمة القتل . [٦] جمع هامة ، وهى الرأس . [٧] موضعه ، أى الأعناق ، قاله الشاعر :
بضرب بالسيف رهوس قوم أزلنا هامهن عن القيل
[٨] جمع خترة ، والخترة كشمس : المدر والحديعة أو أقبح القدر . [٩] جمع نزوة من نزا نزوانا أى
ونب . [١٠] عل كنصر غلولا : خان . [١١] استعضده : سأله أن يعضده .

لكم كالظَّليم^(١) الرامح عن فراخه ، يَنْثِقِي عنها المَدَرُ^(٢) ، ويباعد عنها الحجر ، وَيُكَيِّثُهَا من المطر ، وَيَحْمِيهَا من الضَّبَابِ^(٣) ، ويحرُسُهَا من الذَّنَابِ ، يَأْهَلُ الشَّامَ ، أَنْتُمْ الْجَنَّةُ والرَّداءُ ، وَأَنْتُمْ الْعُدَّةُ والحِذَاءُ .

(البيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ ، والعقد العريد ٢ : ١٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٥)

٢٧٥ — خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام

وخطب فقال :

« يَا أَهْلَ الكوفة ، إِنْ الفتنَةُ تُلْقِحُ بالنَّجْوَى^(٤) ، وَتُنْتِجُ بالشَّكْوَى ، وَتُخَصِّدُ بالسَّيْفِ ، أَمَا وَاللَّهِ إِنْ أَبْغَضْتُمُونِي لَا تَضُرُونِي ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمُونِي لَا تَنْفَعُونِي ، وَمَا أَنَا بِالْمُسْتَوْحِشِ لِعِدَاوَتِكُمْ ، وَلَا الْمُسْتَرِيحِ إِلَى مَوَدَّتِكُمْ ، زَعَمْتُ أَنِّي سَاحِرٌ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ » . وَقَدْ أَفْلَحْتُ ، وزَعَمْتُ أَنِّي أَعْلَمُ الْأَسْمَ الْأَكْبَرَ ، فَلِمَ تَقَاتِلُونَ مَنْ يَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « لَأَزْوَاجُكُمْ أَطْيَبُ مِنَ الْمَسْكِ ، وَلَا بَنَاؤُكُمْ أَنْسُ بِالْقَلْبِ مِنَ الْوَلَدِ ، وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي ذُبْيَانَ :

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فَجُورًا فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مِنِّي

هُمْ دِرْعِي الَّتِي اسْتَلَّامْتُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ النَّسَارِ وَهُمْ مِجْنِي^(٥)

ثم قال : « بَلْ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ الشَّامِ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » ثم تزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

[١] ذكر النمام ، والرامح أى المدافع من رمح أى طعنه بالرمح . [٢] قطع الطين اليابس .

[٣] جمع ضب ، وهو حيوان كالوزغة والحرباء . [٤] النجوى : المسارة .

[٥] استلام : لبس اللأمة ، وهى الدرع ، النصار : ماء لبنى طامر له يرم ، والمجن : النرس .

٢٧٦ — خطبة له بالبصرة

وخطب بالبصرة ، فقال :

قال الله تعالى : « فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ، فهذه لله ، وفيها مَثُوبَةٌ ^(١) ، وقال : « وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا » ، وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك ابن مروان ، أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد ، فأخذوا في باب غيره ^(٢) ، لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ، ولو قتل ربيعة ومضر لكان لي حلالا . « عَذِيرِي ^(٣) من أهل هذه الحُمَيْرَاء ، يرمى أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول : يكون إلى أن يقع هذا خير ^(٤) » ، والله لأجعلنهم كالرَّسَمِ ^(٥) الدَّائِرِ ، وكالْأَمْسِ الغَابِرِ ، عَذِيرِي من عبد هُذَيْل يقرأ القرآن كأنه رَجَزُ الْأَعْرَابِ ، أما والله لو أدركته لضربت عنقه — يعني عبد الله بن مسعود ^(٦) — ، عَذِيرِي من سليمان بن داود ، يقول لربه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » كان والله — فيما علمت — عبداً حَسُوداً بَخِيلاً .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٣ ، والمقد الرريد ٢ : ١٥٢)

٢٧٧ — خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله كفانا مَثُوبَةَ الدُّنْيَا ، وأمرنا بطلب الآخرة ، فليته كفانا مَثُوبَةَ الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، مالي أرى عُلمَاءَكم يذهبون ، وجُهاًكم لا يتعلمون ،

[١] ثواب . [٢] وفي مروج الذهب : « لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب ، فدخلوا في غيره » والذهب بالكسر : مسيل الماء في بطن الأرض ، والطريق في الجبل . [٣] العذير : العاذر والنصير ، والحال التي تحاوها تمرر عليها . [٤] وفي مروج الذهب : « يلقى أحدهم الحجر إلى الأرض ويقول : إلى أن يبلغها يكون فرج الله » . [٥] الرسم : الاثر أو بقيته ، والدائر : الدارس الممحو . [٦] هو من بني هذيل .

وَشِرَارِكُمْ لَا يَتُوبُونَ ؟ مَالِي أَرَأَيْكُمْ تَحْرُسُونَ عَلَى مَا كُفِّيتُمْ ، وَتَضِيعُونَ مَا بِهِ أُمِرْتُمْ ؟
 إِنَّ الْعِلْمَ يَوْشِكُ أَنْ يُرْفَعَ ، وَرَفَعَهُ ذَهَابُ الْعُلَمَاءِ ، أَلَا وَإِنِّي أَعْلَمُ بِشِرَارِكُمْ مِنَ
 الْبَيْطَارِ بِالْفَرَسِ ، الَّذِينَ لَا يَقْرءُونَ الْقُرْآنَ إِلَّا هَجَرًا ^(١) ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا
 دُبْرًا ^(٢) ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، أَلَا وَإِنَّ
 الْآخِرَةَ ، أَجَلَ مُسْتَأْخِرٍ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ ، أَلَا فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ ،
 وَاعْمَلُوا أَنْكُمْ مُلَاقُوهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
 بِالْحُسْنَى ، أَلَا وَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي الْجَنَّةِ ، أَلَا وَإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي
 النَّارِ ، أَلَا وَإِنْ مَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ،
 وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ^(٣) . (العقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٧٨ - خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ : إِنِّي لَمْ أَجِدْ دَوَاءً أَدْوِي لِدَائِكُمْ ، مِنْ هَذِهِ الْمَغَازِي وَالْبِعُوثِ ،
 لَوْلَا طِيبُ لَيْلَةِ الْإِيَابِ ، وَفَرَحَةُ الْقَفَلِ ^(٤) ، فَإِنَّهَا تُعْقِبُ رَاحَةً ، وَإِنِّي لَا أُرِيدُ
 أَنْ أَرَى الْفَرَحَ عِنْدَكُمْ ، وَلَا الرَّاحَةَ بِكُمْ ، وَمَا أَرَأَيْكُمْ إِلَّا كَارْهِينَ لِمَقَالَتِي ، وَأَنَا
 وَاللَّهِ لَرُؤْيَاكُمْ أَكْرَهُ ، وَلَوْلَا مَا أُرِيدُ مِنْ تَنْفِيزِ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ ، مَا حَمَلْتُ
 نَفْسِي مِقَاسَاتِكُمْ ، وَالصَّبْرَ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّهِ أَسْأَلُ حَسْنَ الْعَوْنِ عَلَيْكُمْ » ،
 ثُمَّ نَزَلَ . (العقد الفريد ٢ : ١٥٣)

[١] أي هجر آله وتركها ، ومعناه أنهم لا يقرءونه ، ولا يتلونونه . [٢] الدبر من كل شيء : عقبه
 ومؤخره ، أي ولا يأتون الصلاة إلا في آخر وقتها .
 [٣] وذكر صاحب العقد أيضاً هذه الخطبة من قوله : « أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ » إلى آخرها
 وعزاها إلى شداد بن أوس الطائي . انظر العقد الفريد ٢ : ١٥٨ .
 [٤] الرجوع .

٢٧٩ — خطبة أخرى

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَ أَهْلَ الْعِرَاقِ ، بَلَّغْنِي أَنْكُمْ تَرَوُونَ عَنْ نَبِيِّكُمْ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ مَلَكَ عَلَى عَشْرِ رِقَابٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، جِيءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، حَتَّى يَفْكَهُ الْعَدْلُ ، أَوْ يُؤْبِقَهُ الْجَوْرُ » . وَابْتَغِ اللَّهُ إِنِّي لِأَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أُخْشَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ مَغْلُولًا ، مِنْ أَنْ أُخْشَرَ مَعَكُمْ مُطْلَقًا » . (البغدادي ١٧ : ٣)

٢٨٠ — خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

ولما مات عبد الملك بن مروان ، قام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَعَى نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ، وَقَالَ : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » . فَمَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَاتَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمُهْتَدُونَ الْمَهْدِيُونَ ، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ عُمَرُ ، ثُمَّ عُثْمَانُ الشَّهِيدُ الْمَظْلُومُ ، ثُمَّ تَبِعَهُمْ مُعَاوِيَةُ ، ثُمَّ وَلِيَكُمْ الْبَازِلُ ^(١) الَّذِي كَرِهَ الَّذِي جَرَّبَتْهُ الْأُمُورُ ، وَأَحْكَمَتْهُ التَّجَارِبُ ، مَعَ الْفَقْهِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَالْمُرُوءَةِ الظَّاهِرَةِ ، وَاللِّينِ لِأَهْلِ الْحَقِّ ، وَالْوَطْءِ لِأَهْلِ الزَّيْغِ ، فَكَانَ رَابِعًا مِنَ الْوَلَاةِ الْمُهْدِيَةِ الرَّاشِدِينَ ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ مَا عِنْدَهُ ، وَأَلْحَقَهُ بِهِمْ ، وَعَهَّدَ إِلَى شَبْهِهِ فِي الْعَقْلِ وَالْمُرُوءَةِ وَالْحَزْمِ وَالْجَلَدِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَخِلَافَتِهِ ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوهُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِيَّاكُمْ وَالزَّيْغَ ، فَإِنَّ الزَّيْغَ لَا يَحْقِيقُ إِلَّا بَاطِلًا ، وَرَأَيْتُمْ سِيرَتِي فِيكُمْ ، وَعَرَفْتُمْ خِلَافَكُمْ وَطَيْبَكُمْ ، عَلَى مَعْرِفَتِي بِكُمْ ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا أَقْوَى

[١] الرجل الكامل في تجربته .

عليكم منى ، أو أعزف بكم ، ما وليتكم ، فإياي وإياكم ، من تكلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه غمًّا » ثم نزل . (العقد الفريد ٢ : ١٥٤)

٢٨١ — خطبته حين أراد الحج

وأراد الحجاج أن يحج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم خطب فقال :

« يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، إني أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم ابني محمداً ، هذا وما كنتم له بأهل ، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُقبل من مُحْسِنِهِمْ ، وأن يُتجاوز عن مُسيئِهِمْ ، وإني أمرته ألا يقبل من محسنكم ، ولا يتجاوز عن مسيئكم ، ألا وإنكم ستقولون بعدى مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى : ألا وإنكم ستقولون بعدى : لا أحسن الله له الصَّحابة ، ألا وإني مُعجِّل لكم الإجابة : لا أحسن الله الخِلافةَ عليكم » ثم نزل . (عبود الأخبار م ٢ : ص ٢٤٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٣ — ٣ : ١٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤)

٢٨٢ — خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد

قال صاحب العقد : فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشي أتاه برّيد من اليمن ب وفاة محمد وأخيه ، ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهيض^(١) جناحه ، فخرج فصعد المنبر ، ثم خطب الناس ، فقال :

« أيها الناس : محمدان في يوم واحد ! أما والله ما كنت أحبُّ أنهما معي في الحياة الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة ، وإيمُ الله ليُوشِكَنَّ

الباقى منى ومنكم أن يَفْنَى ، والجديدُ أن يَبْلَى ، والحى منى ومنكم أن يموت ، وأن تُدَال (١) الأرض مِنَّا كما أُدِلْنَا منها ، فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَتُفْرَخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » (٢) ثم تمثل بهذين البيتين :

عَزَائِي نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَيَّةٍ وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ
إِذَا مَا لَقِيتُ اللَّهَ عَنِّي رَاضِيًا فَإِنْ سُرُورَ النَّفْسِ فِيمَا هُنَاكَ

(العقد المرید ٢ : ١٥٤ - ٣ : ١٨ ، وشرح الميود ص ١٢٢)

٢٨٣ — خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق ، وأرجفوا بموته ، فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال :

« إن طائفة من أهل العراق ، أهل الشقاق والنفاق ، تزغ (١) الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فهُ ؟ وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرني ألا أموت ، وأن لي الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضىً بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس ، قال : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، قال : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، ولقد دعا الله العبد الصالح ، فقال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْزِعْنِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » فأعطاه ذلك إلا البقاء ، فما

[١] أداله الله منه : نصره عليه . [٢] الصور : القرن ينفخ فيه ، وقيل إنه تمثيل لانبعاث الموتى بانبعث الجيش إذا نفخ في البوق ، وقيل : هو جمع صورة مثل بسرة وبسر (والبسر بالضم : التمر قبل لوطابه) أى نفخ في صور الموتى الأرواح ، وقرأ الحسن : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » . والأجداث جمع حدث كسبب وهو الثبر ، ونسل كضرب وانهر : أسرع .
[٣] تزغ : أضد وأغرى .

عسى أن يكون أيها الرجل ؟ وكلكم ذلك الرجل ، كَأَنِّي وَاللَّهِ بِكُلِّ حَيٍّ مِنْكُمْ مَيِّتًا ، وَبِكُلِّ رَطْبٍ يَابِسًا ، وَنُقِلَ فِي ثِيَابٍ أَكْفَانُهُ إِلَى ثَلَاثِ أَذْرَعٍ طَوِيلًا ، فِي ذِرَاعٍ عَرْضًا ، وَأَكَلَتِ الْأَرْضُ لَحْمَهُ ، وَمَصَّتْ صَدِيدَهُ ، وَانصرفت الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إِنَّ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ يَعْلَمُونَ مَا أَقُولُ » ، ثم نزل .
(حيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، والمقد للفريد ٢ : ١٥٤ ، ٣ : ١٧ ، وشرح العيون ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

خطبه الوعظية

وخطب الحجاج يومًا فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي أَجَلٍ مَنَّقُوصٍ ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ ، رُبُّ دَائِبٍ مُضِيعٌ ، وَسَاعٍ لَغِيرِهِ ، وَالْمَوْتُ فِي أَعْنَاقِكُمْ ، وَالنَّارُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ ، خُذُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ غَنَّاكُمْ لِفَقْرِكُمْ ، وَمِمَّا فِي أَيْدِيكُمْ لِمَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ، فَكَأَنَّ مَا قَدْ مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ ، وَكَأَنَّ الْأَمْوَاتَ لَمْ يَكُونُوا أَحْيَاءَ ، وَكُلُّ مَا تَرَوْنَهُ فَإِنَّهُ ذَاهِبٌ ، هَذِهِ شَمْسٌ عَادٍ وَتَمُودٌ وَقُرُونٌ كَثِيرَةٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي طَلَعَتْ عَلَى التَّبَابَةِ وَالْأَكَاسِرَةِ ، وَخَزَائِنِهِمُ السَّائِرَةِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَقُصُورِهِمُ الْمَشِيدَةِ ، ثُمَّ طَلَعَتْ عَلَى قُبُورِهِمْ ، أَيْنَ الْمُلُوكُ الْأَوَّلُونَ ، أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ الْحَاسِبُ اللَّهُ ، وَالصَّراطُ مَنْصُوبٌ ، وَجَهَنَّمَ تَرْفِرُ ^(١) وَتَتَوَقَّدُ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَنْعَمُونَ ، فِي رَوْضَةٍ يُخَبَّرُونَ ^(٢) ، جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْوا عَلَيْهَا ضُمًّا وَعُجْمِيَانَا .

[١] زفرت النار كغرب : سمع لتوقدها صوت . [٢] أحبره : سره ، والجبور : السرور .

فكان الحسن البصري رحمه الله يقول : « ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟
يَرْقَى عَتَبَاتِ المنبر ، فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ، يوافق
الله في قوله ، ويخالفه في فعله » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠)

وقال مالك بن دينار ؟ غَدَوْتُ إلى الجمعة ، فجلست قريباً من المنبر ، فصعد
الحجاج ، ثم قال :

« أَمُرُّوْا حَسَبَ نَفْسِهِ ، أَمُرُّوْا رَاقِبَ رَبِّهِ ، أَمُرُّوْا زَوْرًا^(١) عَمَلُهُ ، أَمُرُّوْا فِكْرًا
فِيْمَا يَقْرَؤُهُ غَدَاً فِي صَحِيفَتِهِ ، وَيَرَاهُ فِي مِيزَانِهِ ، أَمُرُّوْا كَانٍ عِنْدَ هَمِّهِ آمِرًا ، وَعِنْدَ
هَوَاهُ زَاجِرًا ، أَمُرُّوْا أَخَذَ بَعِيْنَانَ قَلْبِهِ ، كَمَا يَأْخُذُ الرَّجُلُ بِخِطَامِ جَمَلِهِ ، فَإِنْ قَادَهُ إِلَى
حَقِّ تَبِعَةٍ ، وَإِنْ قَادَهُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَفَّهَ ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا خُلِقْنَا لِلْفَنَاءِ ، وَإِنَّمَا
خُلِقْنَا لِلْبَقَاءِ ، وَإِنَّمَا نَنْتَقِلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٥٢١ ، المقدم المريد ٢ : ١٥٢ ، البيان والتبيين ٢ : ٨٨ ،
شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠)

وخطب يوماً ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، أَقْدَعُوا^(٢) هَذِهِ الْأَنْفُسَ ، فَإِنَّهَا أَسْأَلُ^(٣) شَيْءًا إِذَا أُعْطِيَتْ ،
وَأَعْصَى^(٤) شَيْءًا إِذَا سُئِلَتْ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا جَعَلَ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا ، فَقَادَهَا
بِخِطَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَعَظَفَهَا بِزِمَامِهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنِ

[١] زَوْرُهُ : حَسَنُهُ .

[٢] أَقْدَعَهُ كَمَهُ وَأَقْدَعَهُ : كَفَّهُ وَكَبَحَهُ . [٣] وَفِي عِيُونِ الْأَخْبَارِ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، احْفَظُوا
فِرْوَجَكُمْ ، وَخُدُوا الْأَنْفُسَ بِسَمِيرِهَا ، فَإِنَّهَا أَسْوَكُ شَيْءٍ » وَأَسْوَكُ : أَوْضَعُ ، مِنْ سَاكِ
الرَّجْلِ سَوَاكًا : سَارِ سِيرًا ضَعِيفًا . [٤] وَفِي رَوَايَةٍ « رَأَعَطَى شَيْءٌ » وَهُوَ مُحْرِيفٌ .

تَحَارِمِ اللَّهَ ، أَيْدَسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ ^(١) .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، وشرح العيون ١٢١ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

وخطب فقال :

« اللَّهُمَّ ارِنِي النَّفَى غِيًّا فَأَجْتَنِبَهُ ، وَارِنِي الْهَدَى هُدًى فَأَتَّبِعَهُ ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي فَأُضِلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ، وَاللَّهُ مَا أَحِبُّ أَنْ مَاضِيَ مِنَ الدُّنْيَا لِي بِعِمَامَتِي هَذِهِ ، وَلَمَّا بَقِيَ مِنْهَا أَشْبَهُ بِمَا مَضَى مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ » .

(المقدم المريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٩ ، ١ : ٢٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، وشرح العيون ص ١٢٢)

ومن كلامه :

« إِنَّ أَمْرًا أَتَتْ عَلَيْهِ سَاعَةٌ مِنْ عَمْرِهِ ، لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا رَبَّهُ ، وَيَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَفْكُرُ فِي مَمَادِهِ ، لَجْدِيرٌ أَنْ يَطُولَ حَزْنُهُ ، وَيَتَضَاعَفَ أَسْفُهُ ، إِنْ اللَّهُ كَتَبَ عَلَى الدُّنْيَا الْفَنَاءَ ، وَعَلَى الْآخِرَةِ الْبَقَاءَ ، فَلَا بَقَاءَ لِمَا كَتَبَ عَلَيْهِ الْفَنَاءَ ، وَلَا فَنَاءَ لِمَا كَتَبَ عَلَيْهِ الْبَقَاءَ ، فَلَا يَغُرُّ نَكْمَ شَاهِدٍ ^(٢) الدُّنْيَا ، عَنْ غَائِبِ الْآخِرَةِ ، وَاقْهَرُوا طُولَ الْأَمَلِ ، بِقِصَرِ الْأَجَلِ ^(٣) » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨ ، و البيان والتبيين ٢ : ٩٩ ، شرح العيون ١٢١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

[١] قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس يروون هذا الكلام عن علي عليه السلام » .

[٢] أي حاضرهما . [٣] قال الشعبي : سمعت الحجاج يقول بكلام ما سبقه إليه أحد ، سمعته يقول : « إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء . . الخ » ، وروى الجاحظ عن أبي عبد الله التقي عن عمه قال سمعت الحسن البصري يقول : لقد وقفت بكلمة سمعتها من الحجاج ، قلت : وإن كلام الحجاج ليقذك ؟ قال : نعم ، سمعته على هذه الأعواد يقول : « إن أَمْرًا ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحرى أن تطول عليها حسرته » .

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي (قتل سنة ٩٦ هـ)

٢٨٩ — خطبته يحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو « طَخَارُسْتَان »

قدم قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ الْبَاهِلِيُّ خُرَاسَانَ والياً عليها من قبل الحجاج ^(١) سنة ٨٦ هـ ،
فلما تهيأ لغزو أَخْرُوتَونَ وشُومَانَ — وهما من بلاد طَخَارُسْتَان ^(٢) — خطب الناس
وحثهم على الجهاد ، فقال :

« إِنَّ اللَّهَ أَحَلَّكُمْ هَذَا الْمَحَلَّ لِيُعِزَّ دِينَهُ ، وَيَذِبَ بِكُمْ عَنِ الْحُرُمَاتِ ، وَيَزِيدَ
بِكُمُ الْمَالَ اسْتِفَاضَةً ، وَالْعَدُوَّ وَقْماً ^(٣) ، وَوَعَدَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ النَّصْرَ بِحَدِيثٍ
صَادِقٍ ، وَكِتَابٍ نَاطِقٍ ، فَقَالَ : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » وَوَعَدَ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ أَحْسَنَ
النَّوَابِ ، وَأَعْظَمَ الذُّخْرِ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا
نَصَبٌ وَلَا فُخْمَصَةٌ ^(٤) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا
يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ
لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ قَتْلِ فِي سَبِيلِهِ أَنَّهُ
حَتَّى مَرْزُوقٍ ، فَقَالَ : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ

[١] ولي قتيبة خراسان بعد يزيد بن المهلب ، وغزا بلاد ماوراء النهر ، وامتنع بخارى ، وسمرقند ،
وخوارزم ، ووصل في فتوحه إلى كاشغر من بلاد الصين ، وقتل سنة ٩٦ هـ .

[٢] ناحية كبيرة شرقي خراسان على نهر جيحون ، وقد ضبطها ابن خلكان هكذا — انظر وفيات
الأعيان ١ : ٩٠ في ترجمة بشار بن برد — وضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح الطاء .

[٣] وقه : تهره وأذله . [٤] مجاعة .

عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » فتنجزوا موعودَ ربكم ، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر ،
وأمضى ألم ، وإياكم والهَوَيْنِي . (تاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

٢٩٠ — خطبته وقد تهيأ لغزو بلاد السغد

ولما صالح قتيبة أهل خوارزم ، وسار إلى السغد^(١) سنة ٩٣ هـ خطب
الناس ، فقال :

« إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه مُمكنٌ ، وهذه
السغدُ شاغرة^(٢) برجلها ، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنا
صالحنا عليه طرْخُون ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله تعالى : « فَنَنْكَتْ
فَإِنَّمَا يَنْكَتُ عَلَى نَفْسِهِ » ، فسيروا على بركة الله ، فإنني أرجو أن يكون خوارزم
والسغد كالنضير^(٣) وقرينة^(٤) ، وقال الله تعالى : « وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا
قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » . (تاريخ الطبري ٨ : ٨٥)

[١] وكان قتيبة حين فتح بخارى سنة ٩٠ هـ ، وأوقع بأهلها ، هابه أهل السد « وهي بين نهري
سيحون وجيحون ، وكانت قصبتها سمرقند ، وهي بالسج ، ورتما قلت بالصاد » وأراد طرخون ملك
السغد ، وسأله الصلح على فدية يؤديها إليه ، فأجاب قتيبة إلى ما طالب وصالحه ، ثم نقضوا عهدهم .

[٢] شجر السك كنع : رفع إحدى رجله ليقول . [٣] بنو النصير : حي من يهود خيبر ، وكان
بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد يأمن بها كل فريق الآخر ، ولكنهم لم يعوا بها حسداً
منهم ونغيأ ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه في ديارهم ، إذا ائتمر جماعة منهم على قتله
بأن يلقى عليه أحدهم صخرة من علو ، فاطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم ، فرجع ، ثم أرسل إليهم بأمرهم
بالجلاء ، لما تقدم منهم من القدر ، فتجهشوا للرحيل ، فأرسل إليهم إخوانهم المواقفون يقولون : لا تخرجوا من
دياركم ونحن معكم ، فسار عليه الصلاة والسلام لقتالهم ، وتحصن بنو النصير في حصونهم ، وظفوا أنها
ما نعتهم من الله ، فحاصروا ست ليال ، ثم أسر بقطع نخيلهم كي يسلموا ، فغذف الله في قلوبهم الرعب ،
فسألوه أن يجلبهم ويكف عن دمائهم ، وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ، ففعل ، وصار
اليهود يفرحون بيوتهم بأيديهم ، لئلا يسكنها المسلمون .

[٤] كان يهود بني قريظة يسأكنون المسلمين في المدينة ، فانهزوا فرصة اشتغال المسلمين بصدّ جوع
الأحزاب — في غزوة الخندق — ونقضوا عهدهم معهم ، وذلك أن حي بن أخطب سيد بني النصير الذين

٢٩١ — خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

وأتى قتيبة الشغد فحصرها شهراً ، وخاف أهلها طول الحصار ، فكتبوا إلى ملك الشاش وَفَرَّغَانَةَ ^(١) «إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب ، فإن وُصِلَ إلينا كنتم أضعف وأذل ، فهما كان عندكم من قوة فابذلوها» ، فجمعوا جموعهم ، وولّوا عليهم ابنًا لخاقان ^(٢) ، وساروا وقد أجمعوا أن يبيتوا عسكر قتيبة ، ونمى ذلك إليه ، فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس ، وخطبهم فقال :

«إن عدوكم قد رأوا بلاء ^(٣) الله عندكم ، وتأيدته إياكم في مزاحفتكم ومكاثرتكم ^(٤) ، كل ذلك يُفْلِحُكُمْ ^(٥) الله عليهم ، فأجمعوا على أن يحتالوا غررتكم ويأتاكم ، واختاروا دهاقينهم ^(٦) وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ،

أجلوا عن ديارهم ، توجه إلى كعب بن أسد القرظي ، فحسن له نقض العهد ، ولم يزل به حتى أحابه اقتال المسلمين ، فاشتدّ وحل المسلمين ، وزلزلوا لرللا شديداً ، وأرسل الله على الأعداء رجلاً بارداً في ليلة مظلمة وحبوداً لم يروها ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ، وكفى الله المؤمنين شر الأحزاب ، ولم يعم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سار إلى بني قريظة ، فتحصنوا بمحسونهم ، وحاصرهم المسلمون حمساً وعشرين ليلة ، فلما صاقوا بالحصار ذرعاً ، طلبوا أن ينزلوا على منازل عليه بنو النضير ، من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على ، حكمه ففعلوا ، فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله ، إنهم كانوا مواليينا دون الحرج ، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ، وكانوا حلفاء الحرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله لإيام عبد الله بن أبي بن سلول فوجههم له — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الأوس : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذاك إلى سعد بن معاذ — وكان جريحاً من سهم أصيب به في غزوة الخندق — وأرسل من يأتي به ، فقال : إني أحكم فيهم أن تقتل الرجل ، وتقسم الأموال ، وتسبي النساء والذراري ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد ، ثم أمر بتنفيذ الحكم ، فنفذ فيهم .

- [١] الشاش وفرغانة : كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان للصين . [٢] خاقان : اسم لكل ملك من ملوك الترك ، وقد خفّنوه على أنفسهم : أي رأسوه (بالتشديد) . [٣] أي نعمته . [٤] كاثروم فكثروم : غالبوم فغلبوهم . [٥] أي ينصركم عليهم ، ويظفركم بهم . [٦] جمع دهاقان بكسر الدال وضمها : زعيم فلاحي المعجم ، ورئيس الاقليم . معرب .

وَقَدْ فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِدِينِهِ ، فَأَبْلُوا^(١) لِلَّهِ بَلَاءً حَسَنًا تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الثَّوَابَ ، مَعَ الذَّبِّ
عَنْ أَحْسَابِكُمْ » . (تاريخ الطبري ٨ : ٨٧)

٢٩٢ .. خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

وقام بخراسان حين خَلَعَ سليمان بن عبد الملك^(٢) ، ودعا الناس إلى خلعه
فقال للناس :

« إني قد جمعتكم من عين التَّمَر^(٣) ، وَفَيْضِ الْبَحْرِ ، فَضَمَمْتُ الْأَخَ إِلَى
أَخِيهِ ، وَالْوَلَدَ إِلَى أَبِيهِ ، وَقَسَمْتُ بَيْنَكُمْ فَيْئَكُمْ ، وَأَجَرَيْتُ عَلَيْكُمْ أَغْطِيَا تَكُم
غَيْرَ مُكَدَّرَةٍ وَلَا مُؤَخَّرَةٍ ، وَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْوُلَاةَ قَبْلِي ، أَتَاكُمْ أُمِّيَّةٌ^(٤) ، فَكُتِبَ إِلَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّ خَرَجَ خَرَّاسَانَ لَا يَقُومُ^(٥) بِمَطْبَخِي ، ثُمَّ جَاءَكُمْ أَبُو سَعِيدٍ^(٦)
فَدَوِّمَ^(٧) بِكُمْ ثَلَاثَ سِنِينَ ، لَا تَدْرُونَ أَفِي طَاعَةِ أَنْتُمْ أَمْ فِي مَعْصِيَةٍ ، لَمْ يُجِبْ فَيَّئًا ،
وَلَمْ يَنْكَأ^(٨) عَدُوًّا ، ثُمَّ جَاءَكُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، يَزِيدُ ، فَخُلُوتُ بَارَى إِلَيْهِ الْفَسَاءُ ، وَإِنَّمَا
خَلِيفَتُكُمْ يَزِيدُ بْنُ ثَرْوَانَ هَبْنَقَةُ الْقَيْسِيِّ^(٩) » فلم يُجِبْهُ أَحَدٌ فغضب ، فقال :

[١] الْإِبْلَاءُ : الْإِيْثَامُ وَالْإِحْسَانُ ، يُقَالُ : أَبْلَيْتُ عِنْدَهُ بِلَاءً حَسَبًا ، وَأَبْلَاهُ اللَّهُ بِلَاءً حَسَنًا ، وَأَبْلَيْتُهُ
مَعْرُوفًا ، وَالْمَعْنَى : فَاصْطَقُوا الْقِتَالَ ، وَقَدِمُوا مَعْرُوفًا تَبْتَغُونَ بِهِ ثَوَابَ اللَّهِ .
[٢] وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ ابْنَهُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَلِيَّ عَهْدِهِ ، وَدَسَّ فِي ذَلِكَ إِلَى
الْقَوَادِ وَالشُّمَرَاءِ ، فَبَايَعَهُ عَلَى خُلْعِ سُلَيْمَانَ الْحَجَّاجِ وَقَتِيْبَةٍ ، ثُمَّ مَاتَ الْوَلِيدُ وَقَامَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، خَافَهُ
قَتِيْبَةُ وَخَشِيَ أَنْ يُولِيَ سُلَيْمَانَ بَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ خَرَّاسَانَ . [٣] بَلَدٌ عَلَى الْفَرَاتِ قَرِبَ الْكُوفَةِ .
[٤] هُوَ أُمِيَّةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمِيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَكَانَ عَامِلًا عَلَيْهَا
لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ حَتَّى كَانَتْ سَنَةُ ٧٨ فَغَزَاهُ وَجَعَ سُلْطَانِهِ لِلْحَجَّاجِ ، فَبِعَتْ الْمُهَلَّبُ إِلَيْهَا .
[٥] فِي الْأَصْلِ « لَا يَقِيْمُ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ أَوْ « لَا يَقِيْمُ مَطْبَخِي » . [٦] أَبُو سَعِيدٍ كَتَبَتْهُ لِلْمُهَلَّبِ
ابْنُ أَبِي صَفْرَةَ . [٧] مِنْ دَوَّامَتِ السُّكَّالِبِ أَيْ أَمَعَتْ فِي الْمَسِيرِ ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى « فَدَوِّخَ بِكُمْ الْبِلَادَ »
وَسَتَأْتِي . [٨] نَكَأَ الْعَدُوَّ وَنَكَاهُ نَكَايَةً : قَتَلَ وَجَرَحَ .

[٩] هُوَ يَزِيدُ بْنُ ثَرْوَانَ هَبْنَقَةُ ذِي الْوُدَعَاتِ ، وَبَكَى أَبَا ذَعْفَرٍ أَحَدَ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَمَالَةَ ، يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلَ فِي
الْحَقِّ فَيُقَالُ : « أَحَقُّ مِنْ هَبْنَقَةٍ » وَلَهُ نَوَادِرٌ فِي الْحَقِّ مِنْهَا أَنَّهُ جَعَلَ فِي عُنُقِهِ قِلَادَةً مِنْ وَدَعٍ وَعِظَامٍ وَخَرْفٍ
وَهُوَ ذُو لَحْيَةٍ طَوِيلَةٍ ، فَسُئِلَ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : لِأَعْرِفَ بِهَا نَفْسِي ، وَلَكِنَّهُ أَضَلَّ ، فَبَاتَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَأَخَذَ

« لَا أَعَزَّ اللَّهُ مِنْ نَصْرْتُمْ ، وَاللَّهُ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى عَنَزٍ مَا كَسَرْتُمْ قَرْنَهَا ، يَا أَهْلَ السَّافِلَةِ ، وَلَا أَقُولُ أَهْلَ الْعَالِيَةِ . يَا أُوبَاشُ ^(١) الصَّدَقَةُ ، جَمَعْتُمْ كَمَا تُجْمَعُ إِبِلُ الصَّدَقَةِ مِنْ كُلِّ أُوْبٍ ^(٢) . يَا مَعْشَرَ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، يَا أَهْلَ النَّفْخِ ^(٣) وَالْكَذْبِ وَالْبَخْلِ ، بَأَى يَوْمَيْكُمْ تَفْخَرُونَ : يَوْمَ حَرَبِكُمْ ، أَمْ يَوْمَ سَلَمِكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَعَزُّ مِنْكُمْ ، يَا أَصْحَابَ مُسَيِّلِمَةَ . يَا بَنِي ذَمِيمٍ ، وَلَا أَقُولُ تَمِيمٍ . يَا أَهْلَ الْخَوَرِ ^(٤) وَالْقَصْفِ ^(٥) وَالْعَدْرِ . كُنْتُمْ تُسَمُّونَ الْعَدْرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ « كَيْسَانُ » ^(٦) » يَا أَصْحَابَ سَجَّاحٍ ^(٧) ، يَا مَعْشَرَ عَبْدِ الْفَيْسِ الْقُسَاةَ ، تَبَدَّلْتُمْ بِأَبْرِ النَّخْلِ ^(٨) أَعِنَّةَ الْخَيْلِ . يَا مَعْشَرَ الْأَزْدِ ، تَبَدَّلْتُمْ بِقُلُوسٍ ^(٩) السُّفُنِ ، أَعِنَّةَ الْخَيْلِ وَالْحِصْنِ ^(١٠) ، إِنْ هَذَا لِبِدْعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْأَعْرَابُ ، وَمَا الْأَعْرَابُ ؟ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ ، يَا كُنَاسَةَ الْمِصْرَيْنِ ، جَمَعْتُمْ مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْحِ وَالْقَيْصُومِ ، ^(١١) وَمَنَابِتِ الْقِلْقِيلِ ^(١٢) ، تَرْكَبُونَ الْبَقَرِ

أُخُوهُ فَلَادَهُ فَقَلَدَهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ، رَأَى الْفَلَادَةَ فِي عُنُقِ أَحِيهِ ، قَالَ يَا أَحَى : أَنْتَ أَمَّا ، فَهِيَ أَنَا ؟ وَمِنْهَا : أَنَّهُ ضَلَّ لَهُ بَعِيرٌ ، فَحَمَلَ يَنَادِي : مَنْ وَحْدٌ يَبْرِي بِهَرِّ لَهْ ، فَقِيلَ لَهُ فَلَمْ تَنْشُدْهُ ؟ قَالَ : فَأَيْنَ حَلَاوَةُ الْوُجْدَانِ ؟ وَمِنْهَا : أَنَّهُ اخْتَصَمَتْ الْغَفَاوَةُ وَبَوْرَاسُ فِي رَجُلٍ ادَّعَاهُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، ثُمَّ قَالُوا : رَضِينَا بِأَوَّلِ مَنْ يَطْلُعُ عَلَيْنَا ، فَبِمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ هَبْقُهُ ، فَقَصَّوْا عَلَيْهِ قَصَّتَهُمْ ، فَقَالَ : الْحَكْمُ عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَنْ يَدْهَبَ بِهِ إِلَى نَهْرِ الْحَصْرَةِ ، فَيَلْقَى فِيهِ ، فَإِنْ كَانَ رَاسُهَا رَسَبَ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ طَفَاوِيَا طَفَا ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَحَدٍ هَذَيْنِ الْحَيَيْنِ .

وَقَوْلُ قَتِيْبَةٍ : « إِنَّمَا خَلِيفَتُكُمْ هَنْتَقَةُ » ذَلِكَ لِأَنَّ هَبْقَةَ كَانَتْ يَحْسُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ إِبِلِهِ ، فَيَرَعِيهَا فِي الشَّجَرِ ، وَيَنْجِي الْمَاهِزِلَ ، فَقِيلَ لَهُ : وَحَكِّ مَا تَصْنَعُ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَكْرَمُ مَا أَكْرَمَ اللَّهُ ، وَأَهْنِ مَا أَهَانَ اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ سَلِيمَانُ يُعْطِي الْأَغْنِيَاءَ ، وَلَا يُعْطِي الْفُقَرَاءَ وَيَقُولُ : « أَصْلَحَ مَا أَصْلَحَ اللَّهُ ، وَأَفْسَدَ مَا أَفْسَدَ اللَّهُ » — انْظُرْ تَجْمَعُ الْأَمْثَالَ ١ : ١٤٦ ، وَالْبَيَانُ وَالنَّبِيْنِ ١ : ١٢٦ — .

[١] الْأُوبَاشُ السَّافِلَةُ ، جَمْعُ وَبَشٍ كَسَبَ . [٢] الطَّرِيقُ وَالْجَهَّةُ . [٣] الْفَجْرُ وَالْكَبَرُ .

[٤] الصَّعْفُ . [٥] الْإِهْوُ . [٦] كَيْسَانُ ، عَلِمَ لِلْعَدْرِ . [٧] هِيَ سَجَّاحُ بَنَاتِ الْحَارِثِ .

ادْعَى الدَّوَةَ مَدَّ مَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجُرِيرَةِ فِي بَنِي تَغْلِبَ .

[٨] أَرِ الْجِلَّ أَبْرًا : أَصْلَحَهُ . [٩] الْقُلُوسُ جَمْعُ قُلْسٍ كَشَمْسٍ ، وَهُوَ حَبْلٌ ضَحْمٌ مِنْ لَيْفِ أَوْ

خَوْصٍ أَوْ فِيرَمَا مِنْ قُلُوسِ سَفْنِ الْبَحْرِ . [١٠] جَمْعُ حَصَانٍ . [١١] مِنْ بَنَاتِ الْبَادِيَةِ زَهْرُهُ مَرَّجِدَا .

[١٢] نَبَتْ لَهُ حَبُّ أَسْوَدَ حَسَنِ الشَّمِّ .

والحُرُّ في جزيرة ابن كَوان ^(١) ، حتى إذا جمعتم كما يُجْتَمَعُ قَرْعَ الخَرِيفِ ^(٢) قَلْتُمْ : كَيْتَ وَكَيْتَ ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَبْنُ أَبِيهِ ^(٣) وَأَخُو أَخِيهِ ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَعْصِبَنَّكُمْ عَصَبَ السَّلَامَةِ ، إِنَّ حَوَّلَ الصَّلِيَّانِ الزَّمْزَمَةَ ^(٤) ، يَأْهَلُ خِرَاسَانَ ، هَلْ تَدْرُونَ مَنْ وَائِشَكُمْ ؟ وَلَيْكُمُ يَزِيدُ بْنُ ثَرْوَانَ ، كَأَنِّي بِأَمِيرٍ مَزْجَاءٍ ^(٥) ، وَحَكَمَ قَدْ جَاءَكُمْ ، فَغَلَبَكُمْ عَلَى فَيْشِكُمْ وَأَطْلَالَكُمْ ، إِنْ هَاهُنَا نَارًا ، ارْمُوهَا أَرْمَ مَعَكُمْ ، ارْمُوا غَرَضَكُمْ الْأَقْصَى ، قَدْ اسْتَخْلَفَ عَلَيْكُمْ أَبُو نَافِعٍ ذُو الْوَدَعَاتِ ، إِنْ الشَّامُ ابْنُ مَكْفُورٍ ، حَتَّى مَتَى يَنْبَطِحُ أَهْلُ الشَّامِ بِأَفْنِيَّتِكُمْ وَظِلَالِ دِيَارِكُمْ ؟ يَأْهَلُ خِرَاسَانَ انْسُبُونِي تَجِدُونِي عِرَاقِيَّ الْأُمِّ ، عِرَاقِيَّ الْأَبِّ ، عِرَاقِيَّ الْمَوْلِدِ ، عِرَاقِيَّ الْهَوَى وَالرَّأْيِ وَالِدِينَ ، وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ الْيَوْمَ فِيمَا تَرَوْنَ مِنَ الْأَمْنِ وَالْعَافِيَةِ ، قَدْ فَتَحَ اللَّهُ لَكُمْ الْبِلَادَ ، وَأَمِنَ سُبُلَكُمْ ، فَالْظَّعِينَةَ ^(٦) تَخْرُجُ مِنْ مَرْوَ إِلَى بَلْخٍ بِغَيْرِ جَوَارٍ ، فَاتَّحَدُوا اللَّهَ عَلَى النِّعْمَةِ ، وَسَأَلُوهُ الشُّكْرَ وَالْمَزِيدَ » ثُمَّ نَزَلَ . (تاريخ الطبري ٨ : ١٠٥)

وورد كلام قتيبة في هذا الصدد في العقد الفريد ، والبيان والتبيين في ثلاث خطب هذا نصها :

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] هي جزيرة في الخليج الفارسي بين عمان والبحرين . [٢] القرع : كل شيء يكون قطعاً منفردة (ومنه قيل لقطع السحاب في السماء قرع) وخرت الثمار أخرفها كنصر : احتيتها ، والتمر مخروف وخريف ، وفي كلام سيدنا علي رضي الله عنه « كما يجتمع قرع الخريف » . [٣] أي ابن أبي . [٤] الصليان : نبت من أفضل المرعي يغلي (يجز) للجيل التي لانفارق الحى ، والززمة : صوت خفي لا يكاد يفهم ، يهوى صوت الفرس (بالتحريك) إذا رآه ، وأصلها صوت الجوس عند أكلهم — يتراطنون على الأكل ، وهم صوت لا يستعملون لساناً ، ولا شفة ، لكنه صوت تديره في خياشيمها وحلقها ، يفهم بعضها عن بعض — وهو مثل يضرب للرجل يحوم حول الشيء ولا يظهر مرامه ، والمعنى في المثل : أن ما تسمع من الأصوات والجلب ، لطاب ما يؤكل ويتمتع به ، قال الميداني : ويروى « حول الصليان الززمة » الصليان جمع صليب ، والززمة : صوت طابديها . [٥] هو مزجاء البطي أي كثير الإزجاء لها ، زجاء وأزجاء : ساقها ودفعها : والمراد أنه قاس ظلوم . [٦] الظعينة : المرأة مادامت في المردج .

«أتدرون من ثُبَايعُونَ؟ إنما ثُبَايعُونَ يَزِيدُ بْنُ ثَرْوَانَ - يَعْنِي هَبْنَقَةَ الْقَيْسِي -
كَأَنِّي بِأَمِيرٍ مَزَجَاءٍ، وَحَكَمَ قَدْ أَتَاكُمْ، يَحْكُمُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَدِمَائِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ
وَأَبْشَارِكُمْ^(١)، ثُمَّ قَالَ: الْأَعْرَابُ وَمَا الْأَعْرَابُ؟ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ، جَمَعْتُمْ
كَمَا يَجْمَعُ قَرْعُ الْخَرِيفِ^(٢) مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْخِ وَالْقَيْصُومِ، وَمَنَابِتِ الْقَلْقَلِ،
وَجَزِيرَةِ ابْنِ كَاوَانَ، تَرْكَبُونَ الْبَقَرَ، وَتَأْكُلُونَ الْهَيْبِدَ^(٣)، خَمَلْتُمْ عَلَى الْخَيْلِ،
وَأَلْبَسْتُمْ السِّلَاحَ، حَتَّى مَنَعَ اللَّهُ بِكُمْ الْبِلَادَ، وَأَفَاءَ بِكُمْ النَّيْءَ» قَالَوا: مَرْنَا
بَأَمْرِكَ. قَالَ: غُرُّوا غَيْرِي. (العقد الفريد ٢: ١٥٥، والبيان والتبيين ٢: ٦٧)

وخطب مرة أخرى، فقال:
«يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، أَلَسْتُ أَعْلَمُ النَّاسَ بِكُمْ؟ أَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ أَهْلِ الْعَالِيَةِ،
فَنَعَمُ الصَّدَقَةُ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ فَعَلَجَةٌ^(٤) بَظْرَاهُ، لَا تَجْمَعُ
رَجُلِيهَا، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ عَبْدُ الْقَيْسِ فَمَا ضَرْبُ الْعَيْرِ بِذَنْبِهِ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ
الْأَزْدِ، فَعَلُوجٌ^(٥) خَلَقَ اللَّهُ وَأَنْبَاطُهُ^(٦)، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ مَلَكَتْ أَمْرَ النَّاسِ لَنَفَقَشْتُ
أَيْدِيَهُمْ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ تَمِيمٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَسْمُونُ الْغَدَرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ كَيْسَانَ»
(العقد الفريد ٢: ١٥٥، والبيان والتبيين ٢: ٦٧)

وخطب مرة أخرى، فقال:
«يَا أَهْلَ خِرَاسَانَ، قَدْ جَرَّبْتُمُ الْوَلَاةَ قَبْلِي، أَتَاكُمْ أُمِيَّةٌ، فَكَانَ كَاسِمُهُ أُمِيَّةَ
الرَّأْيِ، وَأُمِيَّةُ الدِّينِ، فَكُتِبَ إِلَى خَلِيفَتِهِ: إِنْ خَرَجَ خِرَاسَانَ وَسِجِسْتَانَ لَوْ كَانَ

[١] أبشار جمع شر وهو جمع بشرة وهي ظاهر الجلد . [٢] في العقد الفريد : « كما يجمع فرخ
الحريق » وفي البيان والتبيين والطبرى « قرع الخريف » والصواب ما ذكرنا .
[٣] المنظل . [٤] مؤنث العليج ، وهو حمار الوحش السمين الأقوى ، وأمة بظراء : طويلة البظر
كشمس وهو ما بين شفرى الرحم . [٥] جمع هليج (بالكسر) وهو الرجل من كفار العجم .
[٦] جيل من الناس كانوا يزلون سواد العراق ثم استعمل في أخلاط الناس وعوامهم .

في مطبخه لم يَكْفِه ، ثم أتاكم بعده أبو سعيد ، فدوَّخ بكم البلاد ، لا تدرون أفي طاعة الله أنتم أم في معصيته ، ثم لم يَجِبَ فيثًا ، ولم يَنْكَأْ عدوًّا ، ثم أتاكم بنوه بعده ، مثل أطباء^(١) الكلبة ، منهم ابن الرِّحْمَةِ^(٢) ، حِصَّان يضرب في عانة^(٣) ، ولقد كَانَ أبوه يخافه على أمّهات أولاده ، ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد ، وأَمَّنْ لكم السُّبُلَ ، حتى إن الظعينة لتخرج من مَرْو إلى سَمَرْقَنْد في غير جوار^(٤) (العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

٢٩٦ - كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم^{*}

وَحَرَاجَتْ خَارِجَةً بِخُرَّاسَانَ ، فَقِيلَ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ : لَوْ وَجَّهْتُمْ إِلَيْهِمْ وَكَيْعَ ابْنِ أَبِي سُودٍ^(٥) ، قَالَ : - وَكَانَ وَكَيْعٌ رَجُلًا عَظِيمَ الْكِبَرِ . فِي أَنْفِهِ خُنْزُرَانَةٌ^(٦) ، وَفِي رَأْسِهِ نُعْرَةٌ^(٧) - وَإِنَّمَا أَنْفُهُ فِي أُسْلُوبٍ^(٨) ، وَمِنْ عَظْمٍ كِبَرُهُ اشْتَدَّ عُجْبُهُ ، وَمَنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ لَمْ يُشَاوِرْ كَفِيًّا^(٩) ، وَلَمْ يُؤَاْمَرْ نَصِيحًا ، وَمَنْ تَفَرَّدَ بِالنَّظَرِ لَمْ يَكْمُلْ لَهُ الصَّوَابُ ، وَمَنْ تَبَجَّحَ^(١٠) بِالْأَنْفَرَادِ ، وَفَخَّرَ بِالْأَسْتَبْدَادِ ، كَانَ مِنَ الصَّوَابِ

[١] جمع طبي كقفل والطبي : لدات الحف والطف كأيدي المرأة . [٢] يريد به يزيد بن المهلب .

[٣] العانة : الأذن ، والقطيع من حر الوحش ، والمراد بها النساء .

[٤] هو وكيع بن أبي سود التيمي ، أحد الأبطال البواسل ، كان مع قتيبة في فتح بخارى وأبلى في القتال بلاء محمودا - انظر خبره في الطبري ٨ : ٦٨ - وولاه الناس أمرهم حين ثاروا بقتيبة وقتلوه .

[٥] الخنزوان ، والخنزوانة ، والخنزوانية : الكبر ، يقال : هو ذو خنزوانات .

[٦] النعرة : الحيلة والكبر .

[٧] الأسلوب : الشموخ في الأنف ، ويقال : إن أنفه لى أسلوب إذا كان متكبرا ، قال الرازي :

أنوفهم ملفخر في أسلوب وشمر الأستاء في الجيوب

(وهو في معنى المثل المشهور : أنف في السماء واست في الماء ، والجيوب كصور : الأرض ، والأستاء

جمع سته كشمس وسبب وهو الاست ، وقوله : ملفخر أصله : من الفخر ، ونظيره قول جيل بئنة :

وما أنس ملأ شياء لا أنس قولها (وقد قربت فضوى) أمصر تريد ؟

أي من الأشياء ، وقول قطري بن المعجاء :

غداة طفت علماء بكر بن وائل ومجنا صدور الحيل نحو تميم

أي على الماء) . [٨] الكفى : الكافي ، ويؤامر : يشاور . [٩] تبجح به : افتخر وتباهى .

بعيدا ، ومن الخِذلان قريبا ، والخطأ مع الجماعة ، خير من الصواب مع الفرقة ، وإن كانت الجماعة لا تخطئ ، والفرقة لا تُصيب ، ومن تكبر على عدوه حقره ، وإذا حقره تهاون بأمره ، ومن تهاون بخصمه ، وَوَثِقَ بِفَضْلِ قُوَّتِهِ قَلَّ احْتِرَاسُهُ ، ومن قل احتراسه كثر عثاره ، وما رأيت عظيم الكبر صاحب حرب ، إلا كان منكوبا ، فلا والله حتى يكون عدوه عنده ، وخصمه فيما تغلب عليه ، أسمع من فرس ، وأبصر من عقاب ، وأهدى من قطاة ، وأحذر من عمق^(١) ، وأشد إقداما من الأسد ، وأوثب من الفهد ، وأحقد من جمل ، وأروغ من ثعلب ، وأغدر من ذئب ، وأسخر من لافظة^(٢) ، وأشح من صبي ، وأجمع من ذرة^(٣) ، وأحرس من كلب ، وأصبر من صنّب ، فإن النفس تسمح من العناية على قدر الحاجة ، وتحفظ على قدر الخوف ، وَتَطْلُبُ على قدر الطمع ، وتطمع على قدر السبب .

(جمهرة الأمثال ١ : ١١٧)

[١] العمق : نوع من العرمان ، وهو دولوبين : أبيض وأسود طويل الدب ، يشبه صوته العين والنعاف — ولدا سمي عمقا ، وقيل لأنه يمتق فراخه ، فيتركهم بلا طعام ، وجميع العرمان يفعل ذلك — وقد ضربوا به المثل في الحذر ، وقالوا : « أحذر من عمق » — انظر جمهرة الأمثال — كما قالوا : « أحذر من غراب » وقالوا أيضا : « ألس من عمق » لأن في طعمه شدة الاختطاف لما يراه من الحلي — وقالوا : « أحق من عمق » لأنه كالنعامة التي تصيح بيضا وأمرأها ، وتشتمل ببس غيرها ، وليأها عى هدية بقوله :

كتاركة بعصا بالمرء وملبسة بيمس أخرى جناحا

— انظر حياة الحيوان الكبرى للدميري ٢ : ٢٠٩ ، وجمع الأمثال — .

[٢] رواء الميذاني : « أسمع من لافظة » وقال : قد اختافوا فيها فقال بعضهم : هي العنز التي تشلى للحلب — أشلى دابته : أراها الخجلة لتأنيه ، وأشلاها دعاها للحلب — فتحنى لافظة بحرتها فرحا بالحلب ، وقال بعضهم : هي الحمامة لأنها تخرج ما في بطنها لفرخها ، وقال بعضهم : هي الديك ، لأنه يأخذ الحبة بمقارمه فلا يأكلها ، ولكن ياقبها إلى الدجاجة ، والهاء فيها المبالغة هاها ، وقال بعضهم : هي الرحى لأنها تلفظ ما تطحنه أى تقذف ، وقال بعضهم : هي البحر لأنه يلفظ بالذرة ، قال الشاعر :

تجود تجرل قل السؤال وكفكك أسمع من لافظة .

[٣] الدر : صغار النمل ، وفي كلام عمر بن عبد العزيز : فإلله زيادا جمع لهم (أى لأهل الدراق) كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة » ، وقال الشاعر :

تجمع للوارث جمعا كما تجمع في قريتها الدر .

ومن كلماته البليغة قوله حين قدِم خُراسان :

« من كَانَ في يديه شيء من مال عبد الله بن خازم ^(١) فَنَيْبُذْهُ ، وإن كَانَ في فِيهِ فَلْيَلْفِظْهُ ، وإن كَانَ في صدره فَلْيَنْفُثْهُ » فَعَجِبَ الناس من حسن ما فَصَّلَ وقسم .

(البيان والدين ٢ : ٥٤)

٢٩٧ — خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نُصَيْر — وَكَانَ والياً عليها من قِبَل الوليد بن عبد الملك — طَمَحَ بَصَرَهُ إلى فتح بلاد الأندلس ، فبعث مَوْلاهُ طارق بن زياد على جيش جُلَّهُ من البربر سنة ٩٢ هـ ، فَعَبَّرَ بهم البحر ، وَنَمَى خبره إلى لُذْرِيْق ملك القُوط ، فأقبل لمحاربتَه بجيش جرّار ، وخاف طارق أن يستحوذ الرعب على جنده لقلّتهم ، فأحرق السفن التي أَقْلَتَهُمْ ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمل في العودة ، وقام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد ، ورغبهم في الشهادة ، فقال :

« أيها الناس ، أين المفرُّ؟ البحر من ورائكم ، والعدوُّ أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق ^(٢) والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام

[١] وكان من أمره أنه لما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بمالهم فأخرجهم ، وعل كل قوم على ناحية ، ووقعت الفتنة ، وعلب عبد الله بن خازم على خراسان ، ثم كتب إليه عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير — وقيل قبله — يدعوه إلى الدخول في طاعته على أن يطعمه خراسان عشر سنين ، وأنى وحاف ألا يعطيه طاعة أبداً ، وكان ابن خازم يمانل بحير بن ورقاء الصرمي بأبرشهر ، وخليفته على مرو بكير بن وشاح ، فكتب عبد الملك إلى بكير بعده على خراسان ، ووعدته ومناه ، ودعا إلى عبد الملك ، وأحابه أهل مرو ، وبلغ ابن خازم نخاف أن يأتيه بكير ، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبرشهر ، فترك بحيراً وأقبل إلى مرو ، فأتبعه بحير ملحقه ، ودارت بينهما الحرب فقتل ابن خازم في المعركة — انظر تاريخ الطبري ٧ : ص ٤٤ ، وص ١٩٦ .

[٢] أي الصدق في القتال ، والصدق : العدة ، يقال صدقه القتال .

فِي مَادِبٍ ^(١) اللَّثَامِ ، وَقَدِ اسْتَقْبَلَكُمْ عَدُوُّكُمْ بِجَيْشِهِ ، وَأَسْلَحَتُهُ وَأَقْوَاتُهُ مَوْفُورَةٌ ،
وَأَنْتُمْ لَا وَزَرَ ^(٢) لَكُمْ إِلَّا سَيُوفُكُمْ ، وَلَا أَقْوَاتَ إِلَّا مَا تَسْتَخْلِصُونَهُ مِنْ أَيْدِي
عَدُوِّكُمْ ، وَإِنْ أَمْتَدَّتْ بِكُمْ الْأَيَّامُ عَلَى افْتِقَارِكُمْ ، وَلَمْ تُنْجِزُوا لَكُمْ أَمْرًا ، ذَهَبَتْ
رِيحُكُمْ ، وَتَمَوَّصَتِ الْقُلُوبُ مِنْ رُغْبِهَا مِنْكُمْ الْجُرْأَةُ عَلَيْكُمْ ، فَادْفَعُوا عَنْ
أَنْفُسِكُمْ خِذْلَانًا هَذِهِ الْعَاقِبَةُ مِنْ أَمْرِكُمْ ، بِمُنَاجَزَةِ ^(٣) هَذَا الطَّائِغِيَّةِ ، فَقَدْ أَلَقْتُ
بِهِ إِلَيْكُمْ مَدِينَتَهُ الْحَصِينَةَ ، وَإِنْ انْتَهَزَ الْفُرْصَةَ فِيهِ لَمُتَكِنْ ، إِنْ سَمَحْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ
بِالْمَوْتِ ، وَإِنِّي لَمْ أَحْذَرُكُمْ أَمْرًا أَنَا عَنْهُ بِنَجْوَةٍ ^(٤) ، وَلَا حَمَلْتُكُمْ عَلَى خُطْئٍ أَرْخَصُ
مَتَاعٍ فِيهَا النَّفُوسُ ، أَرْبَأُ ^(٥) فِيهَا بِنَفْسِي ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَشَقِّ
قَلِيلًا ، اسْتَمْتَعْتُمْ بِالْأَرْفَةِ الْأَلَدِّ طَوِيلًا ، فَلَا تَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ نَفْسِي ، فِيمَا
حَظَّكُمْ فِيهِ أَوْفَرُ مِنْ حَظِّي .

وَقَدْ بَلَغَكُمْ مَا أَنْشَأَتْ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ مِنَ الْحُورِ ^(٦) الْحِسَانِ ، مِنْ بَنَاتِ
الْيُونَانِ ، الرَّافِلَاتِ ^(٧) فِي الدَّرِّ وَالْمَرْجَانِ ، وَالْحُلَلِ الْمَنَسُوجَةِ بِالْعِقْيَانِ ^(٨) ،
الْمَقْصُورَاتِ ^(٩) فِي قُصُورِ الْمُلُوكِ ذَوِي التَّيْجَانِ ، وَقَدْ اتَّخَبَكُمْ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ
الْمَلِكِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَبْطَالِ عُزْبَانَا ^(١٠) ، وَرَضِيَكُمْ لِمُلُوكِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ
أَضْهَارًا ^(١١) وَأَخْتَانًا ^(١٢) ، ثِقَّةً مِنْهُ بَارِتِيَا حَكَمَ لِلطَّعْمَانِ ، وَإِسْمَا حَكَمَ ^(١٣) بِمُجَالِدَةِ

[١] جمع مأدبة بالفتح والضم وهي طعام صنع لدعوة أو عرس . [٢] لا ملجأ . [٣] أي مبارزته .

[٤] النجوة : ما ارتفع من الأرض . [٥] ربأ بنفسه : علا بها وارتفع أي أتبعى عن مشاركتكم .

[٦] جمع حوراء من الحور بالتحريك وهو شدة سواد العين وبياضها .

[٧] رفلت : جرت ذيلها وتبحرت ، أو خطرت بيدها . [٨] الذهب . [٩] الخدرات : الخبوات

[١٠] جمع عزيز والعزيب والعزب والأعزب : من لازوجة له . [١١] جمع صهر كامل وهو زوج

بنت الرجل ، وزوج أخته . [١٢] جمع ختن كسبب ، وهو العهر ، أو كل من كان من قبل المرأة

كلا ب والآخر . [١٣] سمح وأسمح : جاد وكرم .

الأبطال والفُرسان ، ليكون حَظُّهُ منكم ثوابَ الله على إعلاءِ كَلِمَتِهِ ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكونَ مَغْنَمُهَا خالصاً لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وَلِيُّ إِنْجَادِكُمْ على ما يكون لكم ذكراً في الدارين .
واعلموا أني أول محبب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنني عند مُلتَقَى الجمعين ، حاملٌ بنفسى على طاغية القوم لذريق ، فقاتله إن شاء الله ، فاحملوا معى ، فإن هلكْتُ بعده ، فقد كُفِيتُم أمره ، ولن يُعَوِّزَكُم بَطَلٌ عاقلٌ تُسَنِّدُونَ أموركم إليه ، وإن هلكْتُ قبل وصولي إليه ، فاخلفوني في عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المَهْمُ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخْذَلُونَ » .

(نفع الطيب ١ : ١١٢ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٣٥)

٢٩٨ - نص آخر لخطبة طارق

وروى ابن قُتَيْبَةَ هذه الخطبة في الإمامة والسياسة بصورة أخرى ، قال :
لما بلغ طارقاً دُؤُوْ لذريق ، قام في أصحابه ، فحمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ، وَرَغَّبَهُمْ في الشهادة ، وَبَسَطَ لَهُمْ في آمالهم ، ثم قال :
« أيها الناس : أين المفر؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، فليس ثمَّ والله إلا الصدق والصبر ، فإنهما لا يُغْلَبَان ، وهما جندان منصوران ، ولا تَضُرُّ معهما قِلَّةٌ ، ولا تنفع مع الخَوَر والكَسَل والفَشَل ، والاختلاف والعُجْب كثرةٌ ، أيها الناس : ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، إن حملتُ فاحملوا ، وإن وقفتُ فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال ، ألا وإني عامِدٌ إلى طاغيتهم ، بحيث لا أُنْهِيهِ حتى أخالطه ، وأُقتل دونه ، فَإِنْ قُتِلْتُ فلا تَهِنُوا^(١) ولا تحزنوا ،

وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . وَتَوَلَّوْا الذُّبُرَ لَعَدُوكُمْ ، فَتَبَدَّدُوا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ ، وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَرْضَوْا بِالذَّنْبِ ، وَلَا تَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ ، وَارْغَبُوا فِي مَا مُجَلِّ لَكُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالرَّاحَةِ ، مِنَ الْمِهْنَةِ وَالذَّلَّةِ ، وَمَا قَدْ حُلَّ لَكُمْ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَفَلَّوْا ^(١) (وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَمُعِيزُكُمْ) تَبُوءُوا بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ ، وَسُوءِ الْحَدِيثِ غَدًا بَيْنَ مَنْ عَرَفَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَآنَذَا حَامِلٌ حَتَّى أَغْشَاهُ ، فَاحْمِلُوا بِحِمْلَتِي . (الإمامة والسياسة ٢ : ٥٣)

٢٩٩ — خطبة عثمان بن حيان المرى بالمدينة

وولي الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المرى المدينة سنة ٩٤ هـ ، وقد خطب على المنبر ، فقال بعد حمد الله :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَجَدْنَاكُمْ أَهْلَ غِشٍّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، وَقَدْ ضَوَى ^(٢) إِلَيْكُمْ مَنْ يَزِيدُكُمْ خَبَالًا : أَهْلُ الْعِرَاقِ ، هُمْ أَهْلُ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ ، هُمْ وَاللَّهِ عَشْرُ النِّفَاقِ ، وَيَبْيُضِّتُهُ الَّتِي تَفَلَّقَتْ عَنْهُ ، وَاللَّهُ مَا جَرَّبَتْ عِرَاقِيًّا قَطُّ إِلَّا وَجَدْتُ أَفْضَلَهُمْ عِنْدَ نَفْسِهِ ، الَّذِي يَقُولُ فِي آلِ أَبِي طَالِبٍ مَا يَقُولُ ، وَمَا هُمْ لَهُمْ بِشِيعَةٍ ، وَإِنَّهُمْ لَأَعْدَاءُ لَهُمْ وَلَغَيْرِهِمْ ، وَلَكِنْ لِمَا يَرِيدُ اللَّهُ مِنْ سَفَكِ دِمَائِهِمْ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُوتِي بِأَحَدٍ آوَى أَحَدًا مِنْهُمْ أَوْ أَكْرَاهَ مَنْزِلًا ، أَوْ أَتْرَلَهُ ، إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، وَأَتْرَلْتُ بِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ ^(٣) .

ثم إن البُلْدَانَ لَمَّا مَصَّرَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَهُوَ مُجْتَهِدٌ عَلَى مَا يَصْلَحُ رَعِيَّتَهُ ،

[١] إِنْ تَعْلَبُوا وَتَهْرَمُوا . [٢] ضَوَى كَرَمَى : انْضَمَّ وَجَلَأَ ، وَالْخَبَالُ : الْفَسَادُ .

[٣] وَلَمْ يَزَكْ بِالْمَدِينَةِ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ تَاجِرًا ، وَلَا غَيْرَ تَاجِرٍ ، وَأَسْرَبَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَحَبَسَ بَعْضَهُمْ وَعَاقَبَهُمْ ، ثُمَّ بَعَثَ بِهِمْ فِي جَوَاحِرٍ إِلَى الْحَبَاجِ بْنِ يُونُسَ .

جعل يمر عليه من يريد الجهاد ، فيستشيرهُ : الشَّامُ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ الْعِرَاقُ ؟
فيقول : الشَّامُ أَحَبُّ إِلَيَّ .

إِنِّي رَأَيْتُ الْعِرَاقَ ذَا عَضَالٍ ، وَبِهَا فَرَّخَ الشَّيْطَانُ ، وَاللَّهُ لَقَدْ أَعْضَلُوا بِي^(١) ،
وَإِنِّي لَأَرَانِي سَافِرًا قُرَّتْهُمْ فِي الْبُلْدَانِ ، ثُمَّ أَقُولُ : لَوْ فَرَّقْتُهُمْ لَأَفْسَدُوا مِنْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ بِمَحْدَلٍ وَحِجَاجٍ ، وَكَيْفَ ؟ وَلِمَ ؟ وَسُرْعَةً وَجِيفَ^(٢) فِي الْفِتْنَةِ ، فَإِذَا خُبِرُوا
عِنْدَ السَّيُوفِ ، لَمْ يُخْبَرْ مِنْهُمْ طَائِلٌ^(٣) ، لَمْ يَصْلُحُوا عَلَى عَثَمَانَ . فَلَقِيَ مِنْهُمْ
الْأَمْرَيْنِ^(٤) ، وَكَانُوا أَوَّلَ النَّاسِ فَتَقَ هَذَا الْفَتَقَ الْعَظِيمَ ، وَتَقَضُّوا عُرَا
الْإِسْلَامِ عُرْوَةً غُرْوَةً ، وَانْغَلَوْا^(٥) الْبُلْدَانَ ، وَاللَّهُ إِنِّي لَا تَقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِكُلِّ مَا
أَفْعَلَ بِهِمْ ، لَمَّا أَعْرِفَ مِنْ رَأْيِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ ، ثُمَّ وَلِيَهُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةَ ،
فَدَا مَجْهَمَهُمْ^(٦) فَلَمْ يَصْلَحُوا عَلَيْهِ ، وَوَلِيَهُمْ رَجُلَ النَّاسِ^(٧) جَلَدًا ، فَبَسَطَ عَلَيْهِمُ
السَّيْفَ وَأَخَافَهُمْ ، فَاسْتَقَامَ وَآلَهُ ، أَحْبَبُوا أَوْ كَرَهُوا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَبَرَهُمْ وَعَرَفَهُمْ .
أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَاللَّهُ مَا رَأَيْنَا شِعَارًا قَطُّ مِثْلَ الْأَمْنِ ، وَلَا رَأَيْنَا حِلْسًا^(٨)
قَطُّ شَرًّا مِنَ الْخَوْفِ ، فَالْزَمُوا الطَّاعَةَ ، فَإِنْ عِنْدِي يَأْهَلُ الْمَدِينَةِ خَيْرَةٌ مِنْ
الْخِلَافِ ، وَاللَّهُ مَا أَنْتُمْ بِأَصْحَابِ قِتَالٍ ، فَكُونُوا مِنْ أَحْلَاسِ بِيُوتِكُمْ ، وَعَاضُوا عَلَى
النَّوَاجِذِ ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ فِي مَجَالِسِكُمْ مَنْ يَسْمَعُ فَيُبَلِّغُنِي عَنْكُمْ ، إِنَّكُمْ فِي فُضُولِ

[١] عضل به الأمر وأعضل : اشتد ، وأعضله أيشأ .

[٢] وجب يجف وحيثاً : اضطرب . والوجيف : ضرب من سير الخيل والابل .

[٣] الطائيل والطائلة والطول : العضل والقدرة . [٤] الأمران : الفقر والهرم ، وهو كناية عن

اشتداد الأمر . [٥] أفسدوا ، من نقل الاديم كفرح : فسد في الدباغ ، وأتبعه : أفسده .

[٦] المداجمة مثل المداجمة وداجه عليه : وافقه . [٧] يريد الحاج بن يوسف .

[٨] الحلس : بساط البيت ، وكساء على ظهر البعير تحت رحله ، والمراد : مارأيها مركباً شراً من الخوف

وفلان جلس من أحلاس البيت : لاندى لا يبرح البيت .

كلامٍ غيرُهُ أَلْزَمُ لَكُمْ ، فَدَعُوا عَيْبَ الْوُلَاةِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا يُنْقَضُ شَيْئًا شَيْئًا
حتى تكون الفتنة ، وإن الفتنة من البلاء ، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد .
(تاريخ الطبري ٨ : ٩٢)

٣٠٠ — وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد (قتل سنة ١٠٢ هـ)

ولما وَلِيَ يزيد بن المهلب خُرَاسَانَ في عهد سليمان بن عبد الملك ، فتح
جُرْجَانَ^(١) وطَبْرَسْتَانَ^(٢) (سنة ٩٨) ، وقد أوصى ابنه مَخْلَدًا حين استخلفه
على جُرْجَانَ ، فقال :

« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ، فَاظْهَذَا الْحَيَّ مِنَ الْيَمَنِ ،
فَكَنْ لَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كُنْتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَفْعِهِمْ فَرِشْ وَأَصْطَنِعْ عِنْدَ الَّذِينَ بِهِمْ تَرْحِي^(٣)

وَانْظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنْ رِبِيعَةٍ ، فَإِنَّهُمْ شِيعَتُكَ وَأَنْصَارُكَ ، فَاقْضِ حَقَّوَقَهُمْ ، وَانْظُرْ
هَذَا الْحَيَّ مِنْ تَمِيمٍ ، فَاْمَطُرْهُمْ^(٤) ، وَلَا تُزَرَّهُ^(٥) لَهُمْ ، وَلَا تُذْنِبِهِمْ فَيَطْمَعُوا ، وَلَا
تُقْصِرْهُمْ فَيَقْطَعُوا ، وَانْظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنْ قَيْسٍ ، فَإِنَّهُمْ أَكْفَاءُ قَوْمِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ،
وَمُنَاصِفُوهُمْ الْمُنَابِرَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَرِضَاهُمْ مِنْكَ الْبِشْرُ .

يَا بُنَيَّ : إِنْ لِأَيِّكَ صَنَائِعٌ فَلَا تُفْسِدْهَا ، فَإِنَّهُ كَفَى بِالْمَرْءِ نَقْصًا أَنْ يَهْدِمَ
مَا بَنَى أَبُوهُ ، وَإِيَّاكَ وَالْدَّمَاءَ فَإِنَّهَا لَا بَقِيَّةَ مَعَهَا ، وَإِيَّاكَ وَشَتَمَ الْأَعْرَاضِ ، فَإِنَّ
الْحَرْأَ لَا يُرْضِيهِ عَنْ عِرْضِهِ عَوْضٌ ، وَإِيَّاكَ وَضَرْبَ الْأَبْشَارِ ، فَإِنَّهُ عَارٌ بَاقٍ ،

[١] في الجنوبي الشرقي من بحر قزوين . [٢] جنوبي بحر قزوين .

[٣] رَأَى السُّهْمَ يَرِيشُهُ : أَلْزَقَ عَلَيْهِ الرِّيشَ ، وَرَأَى السُّدُقَ : أَطْعَمَهُ وَسَقَاهُ وَكَسَاهُ وَأَصْلَحَ حَالَهُ

وَقَعَهُ ، وَأَصْطَنَعَ عِنْدَهُ صَنِيعَةً : اتَّخَذَهَا ، وَالْبَيْتَ لِأَبْنَى دَوَادِ الْإِيَادِي . [٤] مَطَرْتَهُمُ الدَّمَاءَ : أَصَابَتْهُمْ

بِالْمَطَرِ ، وَمَطَرْتَهُمْ غَيْرَ : أَصَابَتْهُمْ ، وَمَا مَطَرَتْهُ خَيْرًا — وَبِغَيْرِ — : أَيَّ مَا أَصَابَهُ مِنْهُ خَيْرٌ

[٥] الزَّمُو : الْكَبُرُ وَالزَّيْءُ ، زَهَى كَعْنَى ، وَكَدَمَا : قَلِيلَةٌ .

وَوَثْرٌ مَطْلُوبٌ ، وَاسْتَعْمِلْ عَلَى النَجْدَةِ وَالْفَضْلِ دُونَ الْهَوَى ، وَلَا تَعَزِلْ إِلَّا عَنْ عِجْزٍ أَوْ خِيَانَةٍ ، وَلَا يَمْنَعُكَ مِنْ اصْطِنَاعِ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَكَ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَصْطَنِعُ الرِّجَالَ لِفَضْلِهَا ، وَلِيَكُنْ صَدِيقُكَ عِنْدَ مَنْ يَكْفُتُكَ عَنْهُ ، أَحْمِلِ النَّاسَ عَلَى أَحْسَنِ أَدَبِكَ يَكْفُوكَ أَنْفُسَهُمْ ، وَإِذَا كَتَبْتَ كِتَابًا فَأَكْثِرِ النَّظَرَ فِيهِ ، وَلِيَكُنْ رَسُولُكَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ يَفْقَهُ عَنِّي وَعَنْكَ ، فَإِنْ كَتَبَ الرَّجُلُ مَوْضِعَ عَقْلِهِ ، وَرَسُولُهُ مَوْضِعَ سِرِّهِ ، وَأَسْتَوْدَعَكَ اللَّهُ ، فَلَا بَدْءَ لِلْمَوْدَعِ أَنْ يَسْكُتَ ، وَلِلْمَشِيعِ أَنْ يَرْجِعَ ، وَمَا عَفَّ مِنَ الْمَنْطِقِ ، وَقَلَّ مِنَ الْخَطِيئَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْيُكَ ، وَكَذَلِكَ سَلَكَ هَذَا الْمَسَلَكُ الْمَحْمُودُ .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٧٣)

٣٠١ — نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيهِ

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ ^(١) يُؤدِّبُ بَعْضَ بَنِيهِ :

« لَا تَكُونَنَّ أَوَّلَ مُشِيرٍ ، وَإِيَّاكَ وَالْهَوَى وَالرَّأْيَ الْفَطِيرَ ^(٢) ، وَتَجَنَّبْ ارْتِجَالَ الْكَلَامِ ، وَلَا تُشِرْ عَلَى مُسْتَبَدٍّ ، وَلَا عَلَى وَغْدٍ ، وَلَا عَلَى مَتَلَوْنٍ ، وَلَا عَلَى لَجْجُوجٍ ، وَخَفِ اللَّهَ فِي مُوَافَقَةِ هَوَى الْمُسْتَشِيرِ ، فَإِنَّ التَّمَّاسَ مُوَافِقَتَهُ لَوْثٌ ، وَسُوءُ الْإِسْتِمَاعِ مِنْهُ خِيَانَةٌ . »

وَقَالَ : « مِنْ كَثَرِ كَلَامِهِ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمِنْ سَاءِ خُلُقِهِ قَلَّ صَدِيقُهُ . »

(البيان والبيان ٢ : ٩٨)

[١] هو عمر بن هبيرة الفزارى ، وكان عاملاً على الجريفة لعمر بن عبد العزيز ، وولى العراق (وأضيفت إليه خراسان) ليُزيد بن عبد الملك . [٢] كل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير — والمجبن الفطير : ضد الخير أى الذى لم يختبر — « وكان عبد الله بن وهب الراسي أمير الحوارج يقول : نعوذ بالله من رأى الدبرى — والدبرى بالتحريك وتسكن الباء : الذى يعرض من بعد وقوع الشيء — ولا تقل دبرى بضمين فإنه من لحن الحديثين »

خطب خالد بن عبد الله القسري^(١)

(توفي سنة ١٢٦ هـ)

٣٠٢ - خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة

خطب خالد بن عبد الله القسري بمكة ، فقال :

«يأيها الناس ، إنكم بأعظم بلاد الله حرمة ، وهي التي اختار الله من البلدان فوضع بها بيته ، ثم كتب على عباده حججه ، من استطاع إليه سبيلا ، أيها الناس : فعليكم بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، وإياكم والشبهات ، فإنني والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم ، إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها ، فسلموا وأطيعوا ، ولا تقولوا كَيْتَ وَكَيْتَ ، إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاؤه ، واعلموا أنه بلغني أن قوماً من أهل الخلاف يقدمون عليكم ، ويقيمون في بلادكم ، فأياكم أن تنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائع عن الجماعة ، فإنني لا أجد أحداً منهم في منزل أحد منكم إلا هدمت منزله ، فانظروا ممن تنزلون في منازلكم ، وعليكم بالجماعة والطاعة ، فإن الفرقة هو البلاء العظيم .
وسمع يوماً يقول : « والله لو أعلم أن هذه الوحش التي تأمن في الحرم لو نطقت لم تقر بالطاعة ، لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حرم الله وأمنه مخالف للجماعة زار^(٢) عليهم » .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٠)

[١] ولاء الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩ هـ ، وولى المراقين في عهد هشام بن عبد الملك ، وكانت أمه نصرانية ، قالوا وكان يتهم في دينه ، وهو من خطباء العرب الممدودين المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، توفي سنة ١٢٦ هـ . [٢] زرى عليه : عابه .

٣٠٣ - خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد

ومن غُلُوّه أنه خطب على منبر مكة ، فقال :

« أيها الناس ، أيُّهما أعظم ؟ أخليفةُ الرجل على أهله ، أم رسولُه إليهم ؟
والله لو لم تعلموا فضلَ الخليفة إلا أن إبراهيم خليلَ الرحمن استسقى ربّه ، فسقاه
مِلْحًا أَجَاجًا ^(١) ، واستسقاه الخليفة فسقاه عَذْبًا قُرَاتًا » يعني برًّا حفرها الوليد
ابن عبد الملك بالثَنِيَّتَيْنِ : ثَنِيَّة طُوًى ^(٢) ، وَثَنِيَّة الْحَجُّونَ ، فكان يُنقل ماؤها ،
فيوضع في حَوْض من أَدَمٍ إلى جنب زمزم ، ليعرف فضله على زمزم .

(تاريخ الطبري ٨ : ٦٧ ، وشرح العيون ص ٢٠٥)

٣٠٤ - خطبته بمكة في الحجاج

وَصَعِدَ خالد المنبر في يوم جمعة - وهو على مكة - فذكر الحجاج ، فحمد طاعته ،
وأثنى عليه خيراً ، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ،
يأمره فيه بِشَتْمِ الحجاج ، ونَشْرِ عيوبه ، وإظهار البراءة منه ، فصعد المنبر ،
فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن إبليسَ كَانَ مَلَكًا من الملائكة ، وَكَانَ يُظْهِرُ من طاعة الله ما كَانَتْ
الملائكة تَرَى له به فَضْلاً ، وَكَانَ الله قد عَلِمَ من غِيْثِهِ وَخُبَيْثِهِ مَا خَفِيَ على ملائِكَته ،
فلما أَرَادَ الله فضيحتَه أمره بالسجود لآدَمَ ، فظهر لهم ما كَانَ يُخْفِيهِ عنهم ، فلعنوه ،
وإن الحجاج كَانَ يُظْهِرُ من طاعة أمير المؤمنين ما كُنَّا نَرَى له به فَضْلاً ، وَكَانَ
الله قد أَطْلَعَ أمير المؤمنين من غِيْثِهِ وَخُبَيْثِهِ على مَا خَفِيَ عَلَيْنَا ، فلما أَرَادَ الله فضيحة

[١] ماء أجاج : ملح مرّ ، والفرات : الماء العذب جداً .

[٢] ذو طوى ثلاث الطاء وينون : موضع قرب مكة ، والحجون : جبل مشرف بمكة ، وفي شرح العيون

أنه قال : « قد جئكم بماء العاذبة ، لاتشبه ماء أم الحفاس » يعني زمزم .

أَجْرَى ذَلِكَ عَلَى يَدَيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَعْنَهُ ، فَالْعَنُوهُ لَعْنَةُ اللَّهِ « ثُمَّ نَزَلَ .
(المقدّمريد ٢ : ١٥٨ - ٣ : ١١)

٣٠٥ — خطبة له في الحث على مكارم الأخلاق

وَقَامَ عَلَى الْمَنْبَرِ بِوَاسِطَةِ ، فَحَمْدِ اللَّهِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، نَافِسُوا فِي الْمَكَارِمِ ، وَسَارِعُوا إِلَى الْمَغَانِمِ ، وَأَشْتَرُوا الْحَمْدَ
بِالْجُودِ ، وَلَا تَكْسِبُوا بِالْمَظَلِّ ذِمًّا ، وَلَا تَعْتَدُوا بِالْمَعْرُوفِ مَا لَمْ تَعْبُدُوهُ ، وَمَهْمَا
يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدَ أَحَدٍ نِعْمَةٌ فَلَمْ يَبْلُغْ شُكْرَهَا ، فَاللَّهُ أَحْسَنُ لَهَا جَزَاءً ،
وَأَجْزَلُ عَلَيْهَا عَظَاءً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ ، نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، فَلَا
تَمَلُّوا النِّعَمَ فَتَحْوِلُوهَا تَقَمًّا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَفْضَلَ الْمَالِ مَا أَكْسَبَ أَجْرًا ، وَأَوْرَثَ
ذِكْرًا ، وَلَوْ رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ حَسَنًا جَمِيلًا يَسُرُّ النَّاضِرِينَ ، وَلَوْ رَأَيْتُمُ
الْبَخْلَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ مُشَوَّهًا قَبِيحًا تَنْفِرُ عَنْهُ الْقُلُوبُ ، وَتُغْضِي عَنْهُ الْأَبْصَارُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ أَجْوَدَ النَّاسُ مَنْ أُعْطِيَ مَنْ لَا يَرْجُوهُ ، وَأَعْظَمَ النَّاسُ
عَفْوًا مَنْ عَفَا عَنْ قُدْرَةٍ ، وَأَوْصَلَ النَّاسُ مَنْ وَصَلَ مَنْ قَطَعَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَطِيبْ
حَرْثَهُ ، لَمْ يَزَلْ^(١) نَبْثُهُ ، وَالْأَصُولُ عَنْ مَغَارِبِهَا تَنْمُو ، وَبِأَصُولِهَا تَسْمُو .
أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ » .

(صح الأعمش ١ : ٢٢٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥ ، وشرح العيون ص ٢٠٥)

٣٠٦ — خطبة له يوم عيد

خَطَبَ فَذَكَرَ اللَّهَ وَجَلَّالَهُ ، ثُمَّ قَالَ :

« كُنْتَ كَذَلِكَ مَا شِئْتَ أَنْ تَكُونَ ، لَا يَعْلَمُ كَيْفَ أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ ، ثُمَّ

ارتأيت أن تَخْلُقَ الخَلْقَ ، فإذا جئتَ به من عجائب صنْعِكَ ؟ والكبيرُ والصغيرُ مِنْ خَلْقِكَ ، والظاهرُ والباطِنُ مِنْ ذَرِّكَ ، من صُنُوفِ أَفْوَاجِهِ ^(١) ، وأفراده ، وأزواجه ، كيف أدجبتَ ^(٢) قوائِمَ الذَّرَّةِ والْبَعُوضَةِ ، إلى ما هو أعظم من ذلك ، من الأشباح ، التي امتزجت بالأرواح . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٦)

٣٠٧ — قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه

وكان خالد إذا تكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام ، لعدوِّة لفظه ، وبلاغة منطقته ، فيينا هو يخطب يوماً إذ سقطت جَرَادَةٌ على ثوبه ، فقال : «سبحانَ مَنْ الجَرَادَةُ من خَلْقِهِ ، أدمجَ قوائِمَها ، وطوَّقَها جَنَاحَها ، وَوَشَّى ^(٣) جلدها ، وسلَّطَها على ما هو أعظم منها » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٣)

٣٠٨ — خطبة يوسف بن عمر الثقفي ^(٤) (قتل سنة ١٢٧ هـ) قام خطيباً ، فقال :

اتقوا الله عبادَ الله ، فكم من مُؤمِّلٍ أَمَلًا لَا يَبْلُغُهُ ، وجامعٍ مَالًا لَا يَأْكُلُهُ ، ومَانِعٍ عما سوف يتركه ، وَلَعْلَهُ من باطلٍ جَمَعَهُ ، ومن حقٍّ مَنَعَهُ ، أَصَابَهُ حَرَامًا ، وَأَوْرَثَهُ عَدُوًّا ، فاحتمل إضره ^(٥) ، وباءَ بِوِزْرِهِ ، وورد على ربه آسِفًا لَاهِفًا ، قد خَسِرَ الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، والبيان والنبين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥)

[١] جمع فوج كشمس ، وهو الجماعة . [٢] من أدمج الحبل : أحكم قتله في رقة .
 [٣] نقش ونغم وزين . [٤] هو ابن ابن عم الحجاج ، ولاء هشام بن عبد الملك اليميني سنة ١٠٦ هـ ، ثم ولاء العراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسري ، وقتل سنة ١٢٧ هـ .
 [٥] الإضر : الذنب .

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرّة

٣٠٩ - خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري

وقد علم بقدوم جيش الشام إلى المدينة (قتل سنة ٦٣ هـ)

لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلفه ، ووثبوا على من كان بالمدينة من بني أمية وحصلهم وأخافوهم ، وجه إليهم يزيد جيشاً من أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرّي ، ونمى إليهم خبر مقدمه عليهم ، فجمعهم عبد الله بن حنظلة ، فقال : « تبايعوني على الموت ، وإلا فلا حاجة في بيعتكم » فبايعوه على الموت ، ثم صعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنما خرجتم غَضَباً لدينكم ، فأبُلُوا إلى الله بلاءً حسناً ، ليُوجب لكم به الجنة ومَغْفِرَتَهُ ، وَيُحِلَّ بكم رِضْوَانَهُ ، واستعِدُّوا بأحسنِ عُدَّتكم ، وتأهَّبوا بأَكملِ أَهْبَتكم ، فقد أُخْبِرْتُ بأن القوم تزلوا بِذِي خُشْب^(١) ومعه مَرْوان بن الحَكَم ، واللهُ إن شاء مُهْلِكُهُ بِنَقْضِهِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢) » .

[١] ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . [٢] وذلك أن أهل المدينة كانوا قد أخرجوا مروان بن الحكم وكبراء بني أمية عن المدينة ، وحلّفوه عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن لقوا جيش يزيد ليردّونهم عنهم إن استطاعوا ، فان لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ، ولم يرجعوا معهم ، فحلفوا لهم على ذلك .

فتصايح الناس ، وجعلوا ينالون منه ويسبّونه ، فقال لهم : « إن الشتم ليس بشيء ، نصدّقهم اللّقاء ، والله ما صدّق قوم قطّ إلا نصّروا » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك ألقانا ظهورنا » ثم نزل . (الامامة والسياسة ١ : ١٥٤)

٣١٠ — خطبة مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام

وأقبل مسلم بجيشه إلى المدينة ، فحاصرها من جهة الحرّة^(١) ، ودعا أهلها إلى الطاعة ومراجعة الحق ، وأجلّهم ثلاثاً فلم يُذعنوا لقوله ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وحملت خيل ابن حنظلة على أهل الشام فانكشفوا ، وقُتل صاحب رأيهم ، فأخذ مسلم الراية ، ونادى :

« يا أهل الشام ، أهذا القتالُ قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ؟ وأن يُعزّوا به نصر إمامهم ؟ قبحَ الله قتالكم منذُ اليوم ، ما أوجعَ لقلبي ، وأغیظه لنفسي ! أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُخرمُوا المطاء ، وأن تجمروا في أقاصي الثغور ، شدّوا مع هذه الراية ، ترّح^(٢) الله وجوهكم إن لم تُعتبوا^(٣) » .
(تاريخ الطبری ٧ : ٩)

٣١١ — خطبة مسلم يحرضهم

ثم إن خيل مُسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى دَنوا منه ، وأخذ مسلم يسير في أهل الشام ويحرضهم ، ويقول :

« يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا

[١] الحرّة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة . [٢] ترّح : فرح فرحاً : حزن ، وترّحه : تريحها : أحزنه . [٣] اعتبه : أعطاه العتي (كقربى) وهى الرضا ، أى إن لم ترضوني بصدقكم القتال .

أَكْثَرِهَا عَدَدًا ، وَلَا أَوْسَعِيهَا بَلَدًا ، وَلَمْ يَخْصُصْكُمْ اللَّهُ بِالَّذِي خَصَّكُمْ بِهِ مِنَ
النَّصْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَحُسْنِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ أَعْتَمِكُمْ ، إِلَّا بِطَاعَتِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ
الْقَوْمَ وَأَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ غَيَّرُوا ، فَغَيَّرَ اللَّهُ بِهِمْ ، فَتِمُّوا ^(١) عَلَى أَحْسَنِ مَا كُنْتُمْ
عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، يُثِمِّمِ اللَّهُ لَكُمْ أَحْسَنَ مَا يُذِيلُكُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَلَجِ ^(٢) .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٢ - خطبة ابن حنظلة يحرّض أصحابه

وَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَنْظَلَةَ فِي أَصْحَابِهِ حِينَ رَأَاهُمْ قَدْ أَقْبَلُوا يَمْشُونَ تَحْتَ
رَايَاتِهِمْ ، فَقَالَ :

« يَا هَؤُلَاءِ : إِنْ عَدُوَّكُمْ قَدْ أَصَابُوا وَجْهَ الْقِتَالِ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ
بِهِ ، وَإِنِّي قَدْ ظَنَنْتُ أَلَّا تَلْبِشُوا إِلَّا سَاعَةً ، حَتَّى يَفْصِلَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، إِمَّا
لَكُمْ وَإِمَّا عَلَيْهِمْ ، أَمَّا إِنْكُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَدَارِ الْهَجْرَةِ ! وَاللَّهِ مَا أَظُنُّ رَبَّكُمْ
أَصْبَحَ عَنْ أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمَسَامِينِ بِأَرْضِي مِنْهُ عَنْكُمْ ، وَلَا عَلَى أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ
بُلْدَانِ الْعَرَبِ بِأَسْخَطَ مِنْهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ ، إِنْ لِكُلِّ امْرَأٍ مِنْكُمْ
مَيْتَةٌ هُوَ مَيِّتٌ بِهَا ، وَاللَّهِ مَا مِنْ مَيْتَةٍ بِأَفْضَلَ مِنْ مَيْتَةِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ سَاقَهَا اللَّهُ
إِلَيْكُمْ ، فَاعْتَمِمُوهَا ، فَوَاللَّهِ مَا كَلَّمَا أَرَدْتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهَا . »

وَدَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَقَتِلَ ابْنُ حَنْظَلَةَ فِيمَنْ قَتَلَ ، وَدَخَلَ مُسْلِمُ
الْمَدِينَةِ ^(٣) ، وَكَانَتْ وَقْعَةُ الْحَرَّةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ٦٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠)

[١] تمّ على الأمر وتمّ عليه كضرب أى استمر عليه .

[٢] الفلج : الظفر والنصر . [٣] انظر ص ١٨٥ .

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

٣١٣ - خطبة عبید الله بن زياد بن أبيه

قام عبید الله بن زياد بن أبيه خطيباً بعد موت يزيد بن معاوية - وهو يومئذ أمير العراق - فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، انْسُبُونِي ، فوالله ما مهاجرُ أبي إلا إليكم ، وما موالي إلا فيكم ، وما أنا إلا رجل منكم ، ولقد وليتكم وما أحصى ديوانُ مُقاتلتكم إلا سبعين ألفَ مُقاتل ، ولقد أحصى اليومَ ديوانُ مُقاتلتكم ثمانين ألفاً ، وما أحصى ديوانُ عُمالكم إلا تسعين ألفاً ، ولقد أحصى اليومَ مائةً وأربعين ألفاً ^(١) ، وما تركتُ لكم ذا ظِنَّةٍ ^(٢) أخافه عليكم ، إلا وهو في سِجْنِكُمْ هذا ، وإن أمير المؤمنين : يزيد بن معاوية قد تَوَفَّى ، وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليومَ أكثرُ الناس عدداً ، وأعرضه فناءً ، وأغناه عن الناس ، وأوسعهُ بلاداً ، فاخْتاروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم ، يُجَاهِدَ عدوكم ، وَيُنْصِفَ مَظْلُومَكُمْ من ظالمكم ، وَيَكْفَ سَفَهَاءَكُمْ ، وَيَجْنِيْ لَكُمْ فَيْئَكُمْ ، وَيَقْسِمُهُ فيما بينكم ، فأنا أول راضٍ من رَضِيتُموه وتَابِعَ ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كنتم على جَدِيلَتكم ^(٣) حتى تُعْطُوا حاجتكم ، فإياكم إلى أحد من أهل البُلدان حاجةً ، وما يستغنى الناس عنكم . »

[١] وفي البيان والبيان : « والله لقد وليكم أبي وما مقاتلتكم إلا أربعون ألفاً ، فبلغ بها ثمانين ألفاً وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً ، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف ، وأنتم أوسع الناس بلاداً ، وأكثر جنوداً وأبعد مقاداً ، وأغنى الناس عن الناس . . . الخ » . [٢] الطنة : التهمة .
[٣] الجديلة : الطريقة ، يقال : ما زال على جديلة واحدة ، أى على حال واحدة ، وطريقة واحدة .

فقامت خطباء أهل البصرة ، فقالوا : قد سمعنا مَقَالَتَكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، وَإِنَّا
وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا أَقْوَى عَلَيْهَا مِنْكَ ، فَهَلُمَّ فَلْنَبَايَعَكَ ، فقال : لا حاجة لى فى
ذلك ، فاختراروا لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرّروا ذلك عليه ثلاث
مرات ، فلما أبوا بَسَطَ يده فبايعوه .

فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أ كْفَهُم بِالْحِيطَانِ وَبَابِ الدَّارِ ،
ويقولون : ظن ابن مَرْجَانَةَ أَنَّا نُوَيِّيه أَمْرَنَا فى الْفُرْقَةِ ! وأقام عبيد الله أسيراً غيرَ
كثير ، حتى جعل سلطانه يَضْعُفُ ، ويأْمُرُ بِالْأَمْرِ فَلَا يُقْضَى ، وَيَرَى الرَّأْيَ
فَيُرَدُّ عَلَيْهِ ، ويأْمُرُ بِحَبْسِ الْمَخْطِئِ فَيُحَالِ بَيْنَ أَعْوَانِهِ وَيَبْنِيهِ .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٥)

٣١٤ — خطبة أخرى له

وبلغه أن سَلَمَةَ بْنَ ذُوَيْبٍ يدعو الناس إلى ابن الزبير ، فأمر فَنُودِيَ :
الصلاة جامعة ، فتجمع الناس ، فأنشأ عبيد الله يَقْصُصُ أول أمره وأمرهم ، وما قد
كان دعاهم إلى من يرتضونه ، فبايعه معهم ، وقال : « وإني أَيْتَمُّ غَيْرِي ، وإني
بلغنى أنكم مسختم أ كُفَّكُمْ بِالْحِيطَانِ وَبَابِ الدَّارِ ، وقلتم ما قلتم ، وإني أَمُرُ
بِالْأَمْرِ فَلَا يُنْفَذُ ، وَيُرَدُّ عَلَى رَأْيِي ، وَتَحُولُ الْقِبَائِلُ بَيْنَ أَعْوَانِي وَطَلِبَتِي ^(١) » ، ثم
هذا سَلَمَةُ بْنُ ذُوَيْبٍ يدعو إلى الخلفاء عليكم ، إرادة أن يَفَرِّقَ جماعتكم ،
ويضربَ بعضكم جِبَاهَةَ بعض بالسيف .

فقال الأحنف بن قيس والناس جميعاً : نحن نَأْتِيكَ بِسَلَمَةَ ، فَأَتَوْهُ ، فإذا

تَجْمَعُهُ قَدْ كَثُفَ ، وَإِذَا الْفَتْقُ قَدْ اتَّسَعَ عَلَى الرَّاتِقِ ، وَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ ، فَقَعَدُوا عَنْ
ابْنِ زِيَادٍ فَلَمْ يَأْتَوْهُ .

وَرَوَى أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ : « يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ لَبِسْنَا الْخَزْنَ وَالْيُمْنَةَ ^(١)
وَاللَّيْنَ مِنَ الثِّيَابِ ، حَتَّى لَقَدْ أَجْنَأْنَا ^(٢) ذَلِكَ ، وَأَجْمَعْتُهُ جُلُودَنَا ، فَمَا بَنَا إِلَى أَنْ
نُعْقِبَهَا الْحَدِيدَ ؟ يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاللَّهِ لَوْ اجْتَمَعْتُمْ عَلَى ذَنْبٍ عَيْرٍ لَتَكْسِرُوهُ
مَا كَسَّرْتُمُوهُ » . (تَارِيخُ الطَّاهِرِيِّ ٧ : ٢٠)

٣١٥ - خُطْبَةُ عَمْرِو بْنِ حَرِيثٍ

وَلَمَّا بَايَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ - وَكَانَ خَلِيفَتَهُ عَلَى الْكُوفَةِ عَمْرُو بْنُ
حُرَيْثٍ - بَعَثَ وَافِدَيْنِ مِنْ قَبْلِهِ إِلَى الْكُوفَةِ : عَمْرُو بْنُ مِسْمَعٍ ، وَسَعْدُ بْنُ الْقَرَّحَاءِ ^(٣)
الْتِمِيمِيُّ ، لِيُعْلِمَ أَهْلَ الْكُوفَةِ مَا صَنَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ ، وَيَسْأَلَانِهِمُ الْبَيْعَةَ لِابْنِ زِيَادٍ ،
حَتَّى يَصْطَلِحَ النَّاسُ ، فُجِعَ النَّاسَ عَمْرُو بْنُ حَرِيثٍ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« إِنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ قَدْ أَتَيَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَمِيرِكُمْ ، يَدْعُوَانَكُمْ إِلَى أَمْرٍ يَجْمَعُ اللَّهَ
بِهِ كَلِمَتَكُمْ ، وَيُصْلِحُ بِهِ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، فَاسْمَعُوا مِنْهُمَا ، وَاقْبَلُوا عَنْهُمَا ، فَإِنَّهُمَا
بِرُّشْدٍ مَا أَتَيَاكُمْ » .

٣١٦ - خُطْبَةُ عَمْرِو بْنِ مِسْمَعٍ

فَقَامَ عَمْرُو بْنُ مِسْمَعٍ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَذَكَرَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاجْتِمَاعَ
رَأْيِهِمْ عَلَى تَأْمِيرِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، حَتَّى يَرَى النَّاسُ رَأْيَهُمْ ، فِيمَنْ يُولُونَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ :

[١] الْيَمْنَةُ : بَرْدٌ يَمِينِيٌّ . [٢] أَجْمَعُ : أَرَا حَاجَةً ، وَأَصْلُهُ مِنْ أَجْمَعَ الْفَرَسُ : تَرَكَهُ فَلَمْ يَرْكَبْهُ فَقَعَا مِنْ تَحْتِهِ ،
وَالْجَمَامُ بِالْفَتْحِ : الرَّاحَةُ . [٣] الْقَرَّحَاءُ فِي الْأَصْلِ : الرُّوضَةُ فِي وَسْطِهَا نُورٌ أَيْضًا .

« قد جئناكم لنجمع أمرنا وأمركم ، فيكونَ أميرُنا وأميركم واحداً ، فإنما الكوفة من البصرة ، والبصرة من الكوفة » .

وقام ابن القرحاء ، فتكلم نحواً من كلام صاحبه ، فقام يزيد بن الحارث الشَّيباني فَحَصَّبَهُمَا أولَ الناس ، ثم حصَّبهما الناس بعدُ ، ثم قال : أنحن نبائع لابن مَرْجَانة ؟ لا ولا كرامة ! ورجع الوفد إلى البصرة ، فأعلم الناس الخبر ، فقالوا : أهل الكوفة يخلعونهم ، وأنتم تُؤثِّلونهم وتبايعونه ؟ فَوَثَّبَ به الناس ، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدي فأجاره ومنعه ، ثم خرج إلى الشام في خُفَّارةٍ رجال من الأزد وبكر بن وائل . (تاريخ الطبري ٧ : ٣٠)

٣١٧ — خطبة الأحنف بن قيس

واستخلف ابن زياد مسعود بن عمرو الأزدي على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس : لا نولى إلا رجلاً ترضاه جماعتنا ، فقال مسعود : قد استخلفني ، فلا أدع ذلك أبداً ، وبينما هو على المنبر يبائع من أتاه ، إذ رماه رجل من الخوارج فقتله ، فخرجت الأزد إلى الخوارج ، فقتلوا منهم وجرَّحوا ، وطردهم عن البصرة ، وجاءهم الناس ، فقالوا لهم : تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ؟ فبعثت الأزد تسأل عن ذلك ، فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزد عند ذلك ، وازدلفوا إلى بني تميم ، وخرجت مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزد بكر بن وائل ، فالتقى القوم ، واقتتلوا أشد القتال ، فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : اللَّهُ آله يا معشر الأزد في دماننا ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شئتم من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا بَيِّنَةٌ أنا قتلنا صاحبكم ، فاختاروا أفضل رجل فينا ، فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن لكم بينة ، فإننا نحلف بالله ما قَتَلْنَا ولا أمرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم تريدوا ذلك ، فنحن نَدِي صاحبكم بمائة ألف درهم ، فاصطلحوا ، فأتاهم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يا معشر الأزد : أنتم جِئْتُمْنا في الدار ، وإخْوَتْنَا عند القتال ، وقد أتيناكم في رَحالِكُمْ ، لِإِطْفَاءِ حَشِيشتِكُمْ ^(١) ، وَسَلِّ سَخِيْمَتَكُمْ ^(٢) ، وَلَكُمْ الْحُكْمُ مُرْسَلًا ^(٣) ، فَقُولُوا ، عَلَى أَحْلَامِنَا وَأَمْوَالِنَا ، فَإِنَّهُ لَا يَتَعَاظَمُنَا ^(٤) ذَهَابُ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِنَا كَانَ فِيهِ صَلَاحٌ بَيْنِنَا » ، فَقَالُوا : أَتَدُونُ صَاحِبِنَا عَشْرَ دِيَّاتٍ ؟ قَالَ : هِيَ لَكُمْ ، فَانصَرَفَ النَّاسُ وَاصْطَلَحُوا ^(٥) .

وروى الجاحظ وابن عبد ربّه هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما هي ذى : قال بعد حمد الله والثناء عليه : « يا معشر الأزدِ وَرَبِيعَةُ ، أَنْتُمْ إِخْوَانُنَا فِي الدِّينِ ، وَشُرَكَائُنَا فِي الصَّهْرِ ، وَأَشِقَاقُنَا فِي النَّسَبِ ، وَجِيرَانُنَا فِي الدَّارِ ، وَيَدُنَا عَلَى الْعَدُوِّ ، وَاللّٰهُ لَا أَزْدُ الْبَصْرَةَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تِمِيمِ الْكُوفَةِ ، وَلَا أَزْدُ الْكُوفَةَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تِمِيمِ الشَّامِ ، فَإِنْ اسْتَشْرَفَ شَنَاؤُكُمْ ^(٦) ، وَأَبَى حَسَدُ صُدُورِكُمْ ، فِي أَمْوَالِنَا ، وَسَعَةِ أَحْلَامِنَا ، إِنَّا وَلَكُمْ سَعَةً » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣١ ، والبيان والبيان ٢ : ٦٨ ، والقدر الفريد ٢ : ١٥٧)

٣١٨ — خطبة روح بن زنباع الجذامى بالمدينة ^(٧)

لما نَحَى هَلَاكُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ إِلَى الْحَصَيْنِ بْنِ ثَمِيمٍ — وَهُوَ عَلَى حَرْبِ ابْنِ

[١] أى زركم الموقدة . من حش النار : أوقدها ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة (وإن كانت لم ترد فى كتب اللغة بهذا المعنى ، لكن القياس لا يمنعها ، والوارد : الحشيشة طاقة السكّال) . [٢] السحيمة : الحقد . [٣] أى مطلقا كما تشاءون . [٤] تعاطفه : عظم عليه .

[٥] واجتمع أهل البصرة على أن يجعلوا عليهم منهم أميرا يصلى بهم حتى يجتمع الناس على امام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن طاهر شهرا . ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب — وهو بيّنة — فصلى بهم شهرين ، ثم قدم عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير ، فكثت شهرا ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المدروف باقباغ ، ثم مصعب بن الزبير ، أما أهل الكوفة فلم ينهزم لما ردّوا وفد البصرة ولوا عليهم طاهر بن مسعود القرشى ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصارى من قبل ابن الزبير كما تقدم . [٦] استشرف : انتصب ، أى زاد واستحكم ، والشناؤن : البغض والكراهية .

[٧] هو روح بن زنباع سبيد جذام — إحدى قبائل اليمن — وقد خلفه مسلم بن عقبة الرامى ، على المدينة بعد فراغه من قتال أهلها — فى وقعة الحرة — وشخصه إلى مكة لقتال ابن الزبير — وقد نزل الموت

الزبير بمكة - انصرف بجيشه إلى الشام ، فلما صاروا إلى المدينة ، جعل أهلها يَهْتَفُونَ^(١) بهم ، ويتوعدونهم ، ويدكرون قتلاهم بالحربة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهيجها ، صعد رَوْح بن زُبَاع الجُدَامِيّ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان في ذلك الجيش - فقال :

بمسلم في الطريق ، وولى أمر الجيش الحصين بن نمير - ولما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، دعا حسان ابن مالك بن مجدل الكلابي - وكان على فلسطين والأردن - روح بن زُبَاع فاستحلفه على فلسطين ، ونزل هو الأردن ، فوثب ثعل بن قيس الجُدَامِيّ على روح ، وأخرجه من فلسطين ، وبايع لابن الزبير . « الطبري ج ٧ : ص ١٣ و ٣٤ ، والأغاني ١٧ : ١١١ » ، وكان لروح اليد الطولى في ظفر مروان ابن الحكم بالخلافة ، قال صاحب المقد « ج ٢ : ص ٢٥٩ » لما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وبايع أهل مصر أيضا ابن الزبير ، واستحلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الهجري على أهل الشام ، فلما رأى ذلك رحل بنو أمية وناس من أشرف الشام ووجوههم منهم روح بن زُناح وغيره ، قال بعضهم لبعض : إن الملك كان بيننا أهل الشام ، فانتقل عما إلى الحجاز ، لا نرضى بذلك هل لكم أن تأخذوا رجلا ما يسيطر في هذا الأمر ؟ فقال : استحيروا الله ، وأتوا عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فرأوه حدثا ، فأتوا خالد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فرأوه حدثا حريصا على هذا الأمر ، فلما خرجوا من عنده فلو : هذا حديث وأتوا مروان بن الحكم ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استحيروا الله ، واسألوه أن يختار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خيرا وأعد لها ، فقال له روح بن زُبَاع : إن ممي أربعمائة من جذام ، فأنا أتمهم أن يقدموا في المسجد فدا ، وصر أنت انك عبد العرب أن يخطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك تبادوا من جانب المسجد : صدقت صدقت ! فيطر الناس أن أمرهم واحد ، فلما اجتمع الناس قام عبد المريز حمد الله وأثنى عليه ، ثم قل :

« ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قریش وسيدها ، والذي نفسى بيده لقد

شاب شعر ذراعيه من الكبر » فقال الجُدَامِيّون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أمر دبر بليل ! وبايعوا مروان بن الحكم اه . ومن أجل ذلك كان روح أثيرا عند عبد الملك بن مروان « كما يقول البرد في الكامل ١٢٢ : ٢ » ، ويقول ابن نباتة في سرح العيون ص ١١٣ : « وكان روح بمنزلة نائب عبد الملك » ويقول صاحب العقد : « وكان روح بن زُبَاع وزير عبد الملك » - ٢ : ٧٠ ، ٣ : ٦ - قال ابن طباطبا في الفجرى ص ١٣٦ : « والوزارة لم تتهد قواعدا ، وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس ، وأما قبل ذلك ، فلم تكن مقتنة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوي المحي والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقرر قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً ، وأول وزير ووزر لأول خليفة عباسي حفص بن سليمان أبو سامة الحلال وزير السفاح » . [١] يصيحون .

« يَأهل المدينة : ما هذا الإيعادُ ^(١) الذي توعِدُوننا ؟ إنا والله ما دعوناكم إلى « كَلْب » لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من « بَلَقَيْن » ^(٢) ولا إلى رجل من « نَلَم » أو « جُذَام » ولا غيرهم من العرب ، ولكن دعوناكم إلى هذا الحَيِّ من قريش - يعنى بنى أمية - ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فَإِنَّا نُوْعِدُون ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّا لَأَبْنَاءُ الطَّعْنِ والطَّاعُونَ ، وَفَضَلَاتُ المَوْتِ والمُنُون ، فَمَا شِئْتُمْ » ^(٣) ، ومضى القوم إلى الشَّام .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨)

٣١٩ — خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة

ولما اجتمع الرأى على البيعة لمروان بن الحكم ، قام رَوْح بن زَيْنَاع ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّكُمْ تَذْكُرُونَ عبد الله بن عُمر بن الخطاب ، وَصُحْبَتَهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَقَدَمَهُ في الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف ؛ وأما ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير ، وَيَدْعُونَ إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ، إنه لَأَبْنُ الزبير : حَوَارِيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَأَبْنُ أَسْمَاء بنت أبي بكر الصَّدِّيق ذات النِّطَاقَيْن ، وهو بعدُ كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير

[١] يقال : وعده خيرا وبه ، ووَعَدَهُ شرا وبه — ومن هذا قوله تعالى :

« النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَيَّسَ الْمَصِيرُ » فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا في الخير وعد وفي الشر أَرَدَد ، وقالوا أوعده خيرا وشرا بالآلف أيضا ، وأدخلوا الباء مع الألف في الشر خاصة ، فقالوا أوعده بالسجن ونحوه . [٢] أصله بنو الدين كما قالوا : بلحارث في بنى الحارث ، وبلعنبر في بنى العنبر . قال المبرد في الكامل ٢ : ١٨٣ « وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظاهر فيه لام المعرفة ، فإنهم يميزون معه حذف النون التي في قولك (بنو) اقرب يخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلان من بلحارث وبلعنبر وبلهجوم » أى بنى الهجيم كزبير .

[٣] وروى الجاحظ أن روحا خطب هذه الخطبة يدعو إلى بيعة يزيد بن معاوية ، وفي آخرها يقول :

« وعندنا إن أجيتم وأطعتم من المعونة والفائدة ما شئتم » .

منافق ، قد خلع خليفتين : يزيد وابنة معاوية بن يزيد ، وَسَفَكَ الدماء ، وشقَّ عَصَا المسلمين ، وليس صاحبَ أمة محمد صلى الله عليه وسلم المنافقُ ؛ وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كَانَ في الإسلام صَدْعٌ قَطُّ ، إِلَّا كَانَ مروان ممن يَشْعَبُ ^(١) ذلك الصَّدْع ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان يوم الدار ^(٢) ، والذي قاتل على بن أبي طالب يوم الجَمَل ، وإنا نرى للناس أن يُبايعوا الكبير ، وَيَسْتَشِيرُوا ^(٣) الصغير - يعنى بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد ابن يزيد بن معاوية - .

فأجمع رأى الناس على البيعة لمروان . ثم لخالد بن يزيد من بعده . ثم لعمر و ابن سعيد بن العاص من بعد خالد . (تاريخ الطبرى ٧ : ٣٨)

٣٢٠ خطبة الغضبان بن القبعثرى يحض على قتل الحجاج

لما هلك بشر بن مَرْوَان ، وَوَلَّى الحجاج العراق ، بلغ ذلك أهلَ العراق ، فقام الغَضْبَان بن القَبْعَثَرى الشَّيبَانى بالمسجد الجامع بالكوفة خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاق ، وَيَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، إِنْ عَبْدَ الْمَلِكِ قَدْ وَلَّى عَلَيْكُمْ مِنْ لَا يَقْبَلُ مِنْ مُحْسِنِكُمْ ، وَلَا يَتَجَاوَزُ عَنْ مُسِيئَتِكُمْ ، الظُّلُومَ الْغَشُومَ ^(٤) الْحَجَّاجَ ، إِلَّا وَإِنْ لَكُمْ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ مَنْزِلَةٌ ، بِمَا كَانَ مِنْكُمْ مِنْ خِذْلَانٍ مُصْنَبٍ ^(٥)

[١] يصلح . [٢] يوم تسور الثوار عليه داره وقتلوه .

[٣] ينتظروه حتى يشب . [٤] الظلوم .

[٥] وذلك أن مصعب بن الزبير لما كان على العراق حج سنة ٧١ ، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه وجوه أهل العراق ، وسأله أن يعطيهم ، فأبى وقضى يده ، فلما حرمهم ابن الزبير ما عنده فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبد الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب وقاتله ، فما هو إلا أن التفوا حتى حولوا وجوههم ، وصاروا إلى عبد الملك ، ونفى مصعب في شزيمة قليلة ، فجاءه عبيد الله بن زيان - وكان مع

وَقَتْلِهِ ، فاعترضوا هذا الخبيثَ في الطريق فاقتلوه ، فإن ذلك لا يُعَدُّ منكم خُلُماً ، فإنه متى يعلو على مَتْنٍ مِنْكُمْ ، وصدر سَرِيرِكُمْ ، وقاعة قَصْرِكُمْ ، ثم قتلتموه عُدَّ خُلُماً ، فأطيعوني وتغَدَّوا به ، قبل أن يتعشَّى بكم .

فقال له أهل الكوفة : « جَبُنْتَ يا غَضْبَانُ ، بل ننتظر سيرته ، فإن رأينا مُنْكَرًا غَيْرَ نَاهِ » قال : ستعلمون ، فلما قَدِمَ الحجاج الكوفة بلغته مقالته ، فأمر به ، فأقام في حبسه ثلاث سنين . (مروج الذهب ٢ : ١٤٦)

فتنة ابن الأشعث

جهز الحجاج عشرين ألف رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل البصرة ، لمحاربة رُتَيْلِ مَلِكِ التُّرْكِ^(١) ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي ، فخرج بهم حتى قَدِمَ سَجِسْتَانَ (سنة ٨٠ هـ) فجمع أهلها حين قَدِمَها وخطبهم فقال .

٣٢١ - خطبة ابن الأشعث بسجستان

صَعِدَ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إن الأمير الحجاج ولأني تُغْرِكُمْ ، وأمرني بجهاد عدوكم الذي

مصب - فقال : أين الناس أيها الأمير ؟ فقال : قد غدرتم بأهل العراق لا ترفع عبيد الله السيف ليضرب مصعباً ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة ، فنش السيف في البيضة ، فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعباً بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما انظر إلى رأس مصعب خر ساجداً ، قال عبيد الله بن ظبيان - وكان من فاك العرب - ما ندمت على شيء قط ندمي على عبد الملك ابن مروان ، إذ أتيت به رأس مصعب ، نفر ساجداً ، أن لا أكون ضربت دنقه ، وأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد . [١] انظر ص ٢٧٩

استباح بلادكم ، وأباد خياركم ، فإياكم أن يتخلف منكم رجلٌ فيُحِلَّ بنفسه العقوبة ،
اخرجوا إلى مُسْكَرِكُمْ ، فمسكروا به مع الناس » . (تاريخ الطهري ٨ : ٤)

* *

٣٢٢ — خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج

فلما حاز من أرض رُبَيْل أرضاً عظيمةً ، وملأ يديه من الغنائم والأسلاب ، حبس
الناس عن الوُغُول في أرضه ، وقال : نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم ، حتى نجزيهم ونعرفهم
ويجتري المسلمون على طرقها ، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل ننتقمهم في
كل عام طائفة من أرضهم ، ثم لا نزال بلادهم حتى يهلكهم الله ، وكتب إلى الحجاج
بذلك ، فورد عليه كتاب الحجاج يضعف رأيه ، ويأمره بالوُغُول في أرضهم ، ويتهدده
بالعزل إن لم يفعل ، فدعا ابن الأشعث الناس إليه .

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إني لكم ناصح ، ولصلاحيكم مُحِبٌّ ، ولكم - في كل ما يُحِيط
بكم نفعه - ناظرٌ ، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأيٌ ، أَسْتَشَرْتُ فيه
ذوى أحلامكم ، وأولي التجربة للحرب منكم ، فرضوه لكم رأياً ، ورأوه لكم في
العاجل والآجل صلاحاً ، وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب
يعجزني ويضعفني ، ويأمرني بتعجيل الوُغُول بكم في أرض العدو ، وهي البلاد
التي هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم ، أمضي إذا مضيتُمْ ، وآبى
إذا أبيتُمْ » .

فثار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع .

٣٢٣ - خطبة عامر بن واثلة الكِنَانِي

فقام عامر بن وَاثِلَةَ الْكِنَانِي - وكان أول متكلم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً - فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« أما بعد : فَإِنَّ الْحِجَابَ وَاللَّهِ مَا يَرَى بِكُمْ إِلَّا مَا رَأَى الْقَائِلُ الْأَوَّلُ ، إِذْ قَالَ لِأَخِيهِ : « احْمِلْ عَبْدَكَ عَلَى الْفَرَسِ ، فَإِنْ هَلَكَ هَلَكَ ، وَإِنْ نَجَا فَكَانَ » . إِنْ الْحِجَابَ وَاللَّهُ مَا يَبَالِي أَنْ يُخَاطِرَ بِكُمْ ، فَيَقْطَعَكُمْ بِلَاداً كَثِيرَةً اللَّهُوبُ ^(١) وَاللَّصُوبُ ^(٢) ، فَإِنْ ظَفَرْتُمْ فَغَنِمْتُمْ أَكْلَ الْبِلَادِ ، وَحَازَ الْمَالَ ، وَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي سُلْطَانِهِ ، وَإِنْ ظَفَرَ عَدُوَّكُمْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ الْأَعْدَاءُ الْبُغَضَاءُ الَّذِينَ لَا يَبَالِي عَنْتَهُمْ ، وَلَا يُبْقِي عَلَيْهِمْ ، اخْلَعُوا عَدُوَّ اللَّهِ الْحِجَابَ ، وَبَايَعُوا عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، فَإِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنِّي أَوَّلُ خَالِعٍ . فَنَادَى النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ : فَعَلْنَا فَعَلْنَا ، قَدْ خَلَعْنَا عَدُوَّ اللَّهِ .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨)

٣٢٤ - خطبة عبد المؤمن بن شُبَّث بن رِبْعِيّ

وقام عبد المؤمن بن شُبَّث بن رِبْعِيّ التِّمِيمِي ثانياً ، فقال :

« عِبَادَ اللَّهِ ، إِنَّكُمْ إِنْ أَطَعْتُمُ الْحِجَابَ ، جَعَلَ هَذِهِ الْبِلَادَ بِلَادَكُمْ مَا بَقِيْتُمْ ، وَجَمَّكُمْ تَجْمِيرَ فِرْعَوْنَ الْجَنُودَ ، فَإِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ جَمَّ الْبَعُوثَ ، وَلَنْ تَعَايِنُوا الْأَحِبَّةَ فِيمَا أَرَى أَوْ يَمُوتَ أَكْثَرُكُمْ ، بَايَعُوا أَمِيرَكُمْ ، وَانصَرَفُوا إِلَى عَدُوِّكُمْ ، فَانْفَوْهُ عَنْ بِلَادِكُمْ » ، فَوَثَبَ النَّاسُ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَبَايَعُوهُ . (تاريخ الطبري ٨ : ٨)

[١] اللهوب جمع لهب كحمل ، وهو مهواة ما بين كل جبلين ، أو الصدع في الجبل ، أو الشعب الصغير فيه (والشعب كحمل : الطريق في الجبل) . [٢] جمع لصب كحمل أيضاً ، وهو الشعب الصغير في الجبل أضيق من الهب وأوسع من الشعب .

٣٢٥ - خطبة ابن الأشعث بالمربد

ولما كانت الحرب بينه وبين الحجاج بالمربد ^(١) خطب الناس ، فقال :
« أيها الناس : إنه لم يبقَ من عدوِّكم إلا كما يبقَى من ذنب الوزغة ^(٢)
تضرب به يميناً وشمالاً ، فما تلبث إلا أن تموت ^(٣) » .

(البيان والبيان ٢ : ٨٧ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢١)

٣٢٦ - خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق

ولما نزل ابن الأشعث بدير الجاجم ، واجتمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل
الثغور والمسالح ^(٤) بدير الجاجم والقراء من أهل المصرين ، واجتمعوا جميعاً على حرب
الحجاج - جمعهم عليه بفضهم وكرهيتهم له - وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ، ممن يأخذ
العطاء ، ومعهم مثلهم من مواليهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، بعث عبد الملك بن مروان
ابنه عبد الله وأخاه محمداً ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجاج عنهم ، وأن
يجري عليهم أعطياتهم ، كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد من العراق
شاء ، يكون عليه والياً ما دام حياً ، وكان عبد الملك والياً ، فعرضاً ذلك على أهل العراق ،
فقالوا : نرجع العشيّة ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائد ، ولا رأس قوم ، ولا
فارس إلا أتاه .

فحمد الله ابن الأشعث ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فقد أعطيتكم أمراً ، انتهزكم اليوم إياه فرصةً ، ولا آمن أن
يكون على رأى غدًا حسرةً ، وإنكم اليوم على النصف ، وإن كانوا اعتدوا
بالزاوية ، فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم ، وأنتم أعزاء

[١] موضع بالبصرة . [٢] الوزغة : سمّ أبرص سميت بها لحفتها وسرعة حركتها .

[٣] قال الجاحظ : فرّ به رجل من بني أشير فقال : « قبح الله هذا ورأيه ، يأمر أصحابه بملة الاحتراس

ويعدم الأضاليل ، ويعنيهم الباطل » وناس كثير يرون أن ابن الأشعث هو الحسن دون العشيري .

[٤] جمع مسلحة بالفتح وهي الثغر .

أقوياء ، والقوم لكم هائبون ، وأنتم لهم منتقصون ، فلا والله لازتم عليهم أجر ثاء ، ولازتم عندهم أعزاء ، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم .

فوثب الناس من كل جانب ، فقالوا : إن الله قد أهلكهم ، فأصبحوا في الأزل ^(١) والضنك والمجاعة والقلة والدلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسعر الرفيع ، والمادة القريبة ، لا والله لا تقبل ، فأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وكان ما كان مما أسلفنا لك ذكره . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥)

٣٢٧ — عامر الشعبي والحجاج

وكان عامر الشعبي ^(٢) ممن خرج مع ابن الأشعث ؛ فلما أتى الحجاج بأمرى الجماجم ، أتى فيهم بالشعبي مؤثماً . وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أمرى الجماجم أن يعرضهم على السيف ، فمن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا فيخلى سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه . قال الشعبي : فلما جئت باب القصر لقيني يزيد بن أبي مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبي لما بين دفتيك من العلم ، وليس اليوم يوم شفاة . قلت له : فما المخرج ؟ قال : يؤ ^(٣) للأمير بالشرك والنفاق على نفسك ، وبالحرى أن تنجو ، ثم لقيني محمد بن الحجاج ، فقال لي مثل مقالة يزيد ، فلما دخلت على الحجاج قال لي : وأنت يا شعبي ممن ألب علينا مع ابن الأشعث ؟ أشهد على نفسك بالكفر . قلت : « أصلح الله الأمير ، نأبنا المنزل ^(٤) ، وأجذب بنا الجناب ، وأستحلسنا ^(٥) الخوف ،

[١] الضيق والشدة . [٢] هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبي (نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان) وهو كوفي تميمي جليل القدر وافر العلم ، توفى سنة ١٠٥ هـ ، وكانت أمه من بني جلولاء . [٣] ارجع . [٤] نأبنا منزله به : لم يراقبه . [٥] أي لم يفارقنا .

وَكَتَحَلْنَا السَّهْرَ ، وَضَاقَ الْمَسْلَكُ ، وَخَبَطْتُنَا فِتْنَةً لَمْ نَكُنْ فِيهَا بِرَّوَّةَ أَتْقِيَاءَ ، وَلَا
جَرَّةَ أَقْوِيَاءَ » قَالَ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ مَا بِرَزْتُمْ بِخُرُوجِكُمْ عَلَيْنَا وَلَا قَوَيْتُمْ ، خَلُّوا
سَبِيلَ الشَّيْخِ . (مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والعقد الفريد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢)

٣٢٨ - أيوب بن القريّة والحجاج

وَكَانَ الْحَجَّاجُ قَدْ بَعَثَ أَيُوبَ بْنَ الْقَرِيَّةِ ^(١) رَسُولًا إِلَى ابْنِ الْأَشْعَثِ ، حِينَ
خَلَعَ الطَّاعَةَ بِسِجِسْتَانَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، قَالَ لَهُ : لَتَقُومَنَّ خُطِيبًا ، وَلَتَخْلَعَنَّ
عَبْدَ الْمَلِكِ ، وَلَتَسُبَّنَ الْحَجَّاجُ ، أَوْ لَأُضْرِبَنَّ عُنُقُكَ ، قَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّمَا أَنَا
رَسُولُ ! قَالَ : هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ ، فَقَامَ وَخَطَبَ وَخَلَعَ عَبْدَ الْمَلِكِ ، وَشَتَمَ الْحَجَّاجَ ،
وَأَقَامَ هُنَالِكَ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ابْنُ الْأَشْعَثِ مَهْزُومًا ، كَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى عُمَّالِهِ
بِالرَّمَّى وَأُصْبَهَانَ وَمَا يَلِيهِمَا ، يَأْمُرُهُمُ إِلَّا يَمُرُّ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ قِبَلِ ابْنِ الْأَشْعَثِ إِلَّا
بَعَثُوا بِهِ أَسِيرًا إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ ابْنُ الْقَرِيَّةِ فِيمَنْ أُخِذَ .

فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَى الْحَجَّاجِ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ ؟ قَالَ : سَلْنِي عَمَّا شِئْتَ ،
قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، قَالَ : أَعْلَمُ النَّاسَ بِحَقِّ وَبَاطِلٍ ، قَالَ : فَأَهْلُ
الْحِجَازِ ، قَالَ : أَسْرَعُ النَّاسِ إِلَى فِتْنَةٍ ، وَأَعْجَزُهُمْ فِيهَا ، قَالَ : فَأَهْلُ الشَّامِ ، قَالَ :
أَطْوَعُ النَّاسِ لَخُلَفَائِهِمْ ، قَالَ : فَأَهْلُ مِصْرَ ، قَالَ : عَبِيدٌ لِمَنْ غَلَبَ ، قَالَ : فَأَهْلُ
الْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : نَبِطٌ ^(٢) اسْتَعْرَبُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ عُومَانَ ، قَالَ : عَرَبٌ اسْتَنْبَطُوا ،
قَالَ : فَأَهْلُ الْمَوْصِلِ ، قَالَ : أَشْجَعُ فُرْسَانَ ، وَأَقْتَلُ لِلْأَقْرَانِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْيَمَنِ ،
قَالَ : أَهْلُ سَمْعٍ وَطَاعَةٍ ، وَلِزُومٍ لِلْجَمَاعَةِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْيَمَامَةِ ، قَالَ : أَهْلُ جَفَاءَ ،

[١] هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالي ، والقريّة جدّه ، وكان أعرابيا أميا معدودا من جملة خطباء

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة . [٢] النبط : جيل من الناس ، كانوا ينزلون سواد العراق .

واختلاف أهواء ، وأصبرُ عند اللقاء ، قال : فأهل فارس ، قال : أهل بَأْسٍ شديد ،
 وشرٌّ عَتِيد ، وريِّف ^(١) كبير ، وقرَّي يسير ، قال : أخبرني عن العرب ، قال :
 سَلَنِي ، قال : قريش ، قال : أعظمُها أخْلامًا ، وأكرمُها مَقامًا ، قال : فبنو عامر
 ابن صعصعة ، قال : أطولُها رِمَاحًا ، وأكرمُها صَبَاحًا ، قال : فبنو سُلَيْم ، قال :
 أعظمُها مَجَالِسَ ، وأكرمُها مَحَابِسَ ^(٢) ، قال : فَثَقِيف ، قال : أكرمُها جُدُودًا ،
 وأكثرُها وُفُودًا ، قال : فبنو زُبَيْد ، قال : أَلزُمُها لِلرَّايَات ، وأدركُها لِلتُّرَات ^(٣) ،
 قال : فَقُضَاعَة ، قال : أعظمُها أخطارًا ، وأكرمُها نِجارًا ^(٤) ، وأبعدُها آثارًا ،
 قال : فالأنصار ، قال : أثبتُها مقاما ، وأحسنُها إسلامًا ، وأكرمُها أَيَّامًا ، قال :
 فَتَمِيم ، قال : أظهرُها جَلَدًا ، وأثراها عَدَدًا ، قال : فَبَكْر بن وائل ، قال : أثبتُها
 صفوفا ، وأحدُها سيوفا ، قال : فعبد القَيْس ، قال : أسبقُها إلى الغايات ،
 وأصبرُها تحت الرَّايَات ، قال : فبنو أُسَد ، قال : أهل عَدَد وَجَلَد ، وَعُسْر
 وَنَسَكَد ، قال : فَلَخْم ، قال : مُلُوكٌ ، وفيهم نُوكٌ ^(٥) ، قال : فَجَذَام ، قال :
 يُوقِدُون الحرب وَيَسْعَرُونَهَا ^(٦) ، وَيُلْقِحُونَهَا ثُمَّ يَمْرُونَهَا ^(٧) ، قال : فبنو الحارث
 قال : رُعَاةٌ لِلْقَدِيم ، وَحِمَاةٌ عَنِ الْحَرِيم ، قال : فَعَمَكٌ ، قال : لُيُوثٌ جَاهِدَة ، في
 قُلُوبٍ فَاسِدَة ، قال : فَتَغْلِب ، قال : يَصْدُقُون - إِذَا لَقُوا - ضَرْبًا ، وَيَسْعَرُونَ
 لِلْأَعْدَاءِ حَرْبًا ، قال : فَفَعَّسَان ، قال : أَكْرَمُ الْعَرَبِ أَحْسَابًا ، وَأَثْبَتُهَا أَنْسَابًا ، قال :
 فَأَيُّ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَتْ أَمْنَعُ مِنْ أَنْ تُضَامَ ؟ قال قريش ، كانوا أهل

[١] الريف : أرض فيها زرع وخصب . [٢] المحابس جمع محبس كقعد وهو التجاعة .

[٣] الزنات جمع ترة : وهي النار . [٤] النجار : الأصل . [٥] النوك بالضم والفتح : الحمى .

[٦] سحر الحرب كنع ، وأسعرها : أوقدها . [٧] مري الناقة كرمي : مسح ضرعها لتدير .

وَاسْتَحَلْنَا السَّهْرَ ، وَضَاقَ الْمَسَلَكُ ، وَخَبَطْنَا فِتْنَةً لَمْ نَكُنْ فِيهَا بَرَّةً أَتْقِيَاءَ ، وَلَا
كَفْرَةَ أَقْوِيَاءَ » قال : صدقت والله ما برزتم بخروجكم علينا ولا قويتم ، خلوا

سبيل الشيخ . (مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والعقد الفريد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢)

٣٢٨ . أيوب بن القرية والحجاج

وكان الحجاج قد بعث أيوب بن القرية^(١) رسولا إلى ابن الأشعث ، حين
خلع الطاعة بسجستان ، فلما دخل عليه ، قال له : لتقومن خطيبا ، ولتخلعن
عبد الملك ، ولتسبن الحجاج ، أولا ضربن عنقك ، قال : أيها الأمير ، إنما أنا
رسول ! قال : هو ما أقول لك ، فقام وخطب وخلع عبد الملك ، وشتم الحجاج ،
وأقام هنالك ، فلما انصرف ابن الأشعث مهزوما ، كتب الحجاج إلى عماله
بالرعي وأصبهان وما يليهما ، يأمرهم ألا يمر بهم أحد من قبل ابن الأشعث إلا
بعثوا به أسيرا إليه ، وأخذ ابن القرية فيمن أخذ .

فلما أدخل على الحجاج ، قال : أخبرني عما أسألك ؟ قال : سألني عما شئت ،
قال : أخبرني عن أهل العراق ، قال : أعلم الناس بحق وباطل ، قال : فأهل
الحجاز ، قال : أسرع الناس إلى فتنة ، وأثجزهم فيها ، قال : فأهل الشام ، قال :
أطوع الناس لخلفائهم ، قال : فأهل مصر ، قال : عبيد لمن غلب ، قال : فأهل
البحرين ، قال : نبط^(٢) استعربوا ، قال : فأهل عمان ، قال : عرب استنبطوا ،
قال : فأهل الموصل ، قال : أشجع فرسان ، وأقتل للأقران ، قال : فأهل اليمن ،
قال : أهل سمع وطاعة ، ولزوم للجماعة ، قال : فأهل اليمامة ، قال : أهل جفاء ،

[١] هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالي ، والقرية جدته ، وكان أعرايا أميا معدودا من جملة خطباء

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة . [٢] النبط : جيل من الناس ، كانوا ينزلون سواد العراق .

واختلاف أهواء ، وأصبرُ عند اللقاء ، قال : فأهل فارس ، قال : أهل بأسٍ شديد ،
 وشَرَّ عَتِيد ، وريِّف ^(١) كبير ، وقرَّي يسير ، قال : أخبرني عن العرب ، قال :
 سَلَنِي ، قال : قریش ، قال : أعظمُها أخْلامًا ، وأكرمُها مَقامًا ، قال : فبنو عامر
 ابن صَعَصَعَة ، قال : أطولُها رِمَاحًا ، وأكرمُها صَبَاحًا ، قال : فبنو سُلَيْم ، قال :
 أعظمُها مَجَالِسَ ، وأكرمُها مَحَابِسَ ^(٢) ، قال : فَثَقِيف ، قال : أكرمُها جُدُودًا ،
 وأكثرُها وُفُودًا ، قال : فبنو زُبَيْد ، قال : ألزَمُها للرَّايَات ، وأدركُها لِلتَّرات ^(٣) ،
 قال : فَقُضَاعَة ، قال : أعظمُها أخطارًا ، وأكرمُها نِجارًا ^(٤) ، وأبعدُها آثارًا ،
 قال : فالأنصار ، قال : أثبتُها مقامًا ، وأحسنُها إسلامًا ، وأكرمُها أَيَّامًا ، قال :
 فَتَمِيم ، قال : أظهرُها جَلَدًا ، وأثراها عَدَدًا ، قال : فَبَكْر بن وائل ، قال : أثبتُها
 صفوفًا ، وأحدُها سيوفًا ، قال : فعبد القَيْس ، قال : أسبقُها إلى الغايات ،
 وأصبرُها تحت الرَّايَات ، قال : فبنو أُسَد ، قال : أهل عَدَد وجَلَد ، وَعُسْر
 وَنَكَد ، قال : فَلَخَم ، قال : مُلُوكٌ ، وفيهم نُوك ^(٥) ، قال : فَجَذَام ، قال :
 يُوقِدُون الحرب وَيَسْعَرُونَهَا ^(٦) ، وَيُلْقِحُونَهَا ثم يَمْرُونَهَا ^(٧) ، قال : فبنو الحارث
 قال : رُعَاةٌ لِلْقَدِيم ، وَحِمَاةٌ عَنِ الْحَرِيم ، قال : فَمَكَّة ، قال : لُيُوثٌ جَاهِدَة ، في
 قُلُوبٍ فَاسِدَة ، قال : فَتَغْلِب ، قال : يَصْدُقُونَ - إِذَا لَقُوا - ضَرْبًا ، وَيَسْعَرُونَ
 لِلْأَعْدَاءِ حَرْبًا ، قال : فَفَعَّسَان ، قال : أَكْرَمُ الْعَرَبِ أَحْسَابًا ، وَأَثْبَتُهَا أَنْسَابًا ، قال :
 فَأَيُّ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَتْ أَمْنَعُ مِنْ أَنْ تُضَامَ ؟ قال قریش ، كانوا أهل

[١] الريف : أرض فيها زرع وخصب . [٢] المحابس جمع محبس كقعد وهو الشجاعة .
 [٣] الزنات جمع ترة : وهي النار . [٤] النجار : الأصل . [٥] النوك بالضم والفتح : الحق .
 [٦] سحر الحرب كنع ، وأسعرها : أوقدها . [٧] مري الناقة كرمي : مسح ضرعها لتدبر .

رَهْوَة^(١) لَا يُسْتَطَاعُ ارْتِقَاؤُهَا ، وَهَضْبَةٌ لَا يُرَامُ انْتِزَاؤُهَا^(٢) ، فِي بِلْدَةِ حَمَى اللَّهِ ذِمَارِهَا ، وَمَنْعُ جَارِهَا ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي عَنْ مَآثِرِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، قَالَ : كَانَتْ الْعَرَبُ تَقُولُ : خَيْرَ أَرْبَابِ الْمُلُوكِ ، وَكِندَةَ لُبَابِ الْمُلُوكِ ، وَمَذْحِجَ أَهْلِ الطَّعْمَانِ ، وَتَهْمَدَانَ أَخْلَاسَ^(٣) الْخَيْلِ ، وَالْأَزْدَ آسَادِ النَّاسِ ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي عَنْ الْأَرْضَيْنِ ، قَالَ : سَلْنِي ، قَالَ : الْهِنْدَ ، قَالَ : بِحَرِّهَا دُرٌّ ، وَجِبَالُهَا يَا قُوتٌ ، وَشَجَرُهَا عُودٌ ، وَوَرَقُهَا عِطْرٌ ، وَأَهْلُهَا طَعَامٌ ، كَقَطْعِ الْحَمَامِ^(٤) ، قَالَ : فَخُرَّاسَانَ ، قَالَ : مَاؤُهَا جَامِدٌ ، وَعُدُوُّهَا جَا حِدٌ ، قَالَ : فَعُمَّانَ ، قَالَ : حَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَصَيْدُهَا عَتِيدٌ ، قَالَ : فَالْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : كُنَاسَةٌ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ ، قَالَ : فَالْيَمَنِ ، قَالَ : أَصْلُ الْعَرَبِ ، وَأَهْلُ الْبُيُوتَاتِ وَالْحَسَبِ ، قَالَ : فَكُفَّةٌ ، قَالَ : رَجَالُهَا أَعْلَمَاءُ جُفَاةٌ ، وَنِسَاؤُهَا كِسَاءُ عُرَاةٍ ، قَالَ : فَالْمَدِينَةِ ، قَالَ : رَسَخَ الْعِلْمُ فِيهَا ، وَظَهَرَ مِنْهَا ، قَالَ : فَالْبَصْرَةَ ، قَالَ : شَتَاؤُهَا جَلِيدٌ ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَمَاؤُهَا مِلْحٌ ، وَحَرِّهَا صُلْحٌ ، قَالَ : فَالْكُوفَةَ ، قَالَ : ارْتَفَعَتْ عَنْ حَرِّ الْبَحْرِ ، وَسَفَلَتْ عَنْ بَرْدِ الشَّامِ ، فَطَابَ لَيْلُهَا ، وَكَثُرَ خَيْرُهَا ، قَالَ : فَوَاسِطٌ ، قَالَ : جَنَّةٌ ، بَيْنَ حِمَاةٍ وَكِنَّةٍ ، قَالَ : وَمَا حِمَاتُهَا وَكِنَّتُهَا^(٥) ؟ قَالَ : الْبَصْرَةُ وَالْكُوفَةُ يُحْسِدَانِهَا ، وَمَا ضَرُّهَا ، وَدِرَجَلَةُ وَالزَّابُ^(٦) يَتَجَارِيَانِ بِإِفَاعِنَةِ الْخَيْرِ عَلَيْهَا ، قَالَ : فَالشَّامُ ، قَالَ : عَرُوسٌ ، بَيْنَ نِسْوَةٍ جُلُوسٍ ، قَالَ : تَسْكِنُكَ أُمَّكَ يَا بَنَ الْقَرِيَّةِ ، لَوْلَا اتِّبَاعُكَ لِأَهْلِ الْمَرَاقِ ! وَقَدْ كُنْتَ أَنْهَاكَ عَنْهُمْ أَنْ تَتَّبِعَهُمْ ، فَتَأْخُذَ مِنْ تَفَاقِهِمْ ، ثُمَّ دَعَا بِالسَّيْفِ ، وَأَوْمَأَ إِلَى السَّيَافِ أَنْ أُمْسِكُ ،

[١] الرهوة : المكان المرتفع (والمنخفض أيضاً ، ضد) . [٢] أي اعتلاؤها نزا نزوا ونزوا ما : وثب ، وانزى : افعل من النزو ، وفي حديث وائل بن حجر : « إن هذا انزى على أرضي فأخذها » [٣] كناية عن إدامتهم ركوبها . [٤] الطعام : أوغاد الناس ورجال الطير ، والقطع بالكسر : اسم ما قطع من الشيء ، ويقال : ثوب قطع وأنطاع أي مقطوع ، أو هو قطع بالضم جمع قطع . [٥] الكنة : امرأة الابن أو الأخ . [٦] الزاب الأسفل ، والزاب الأعلى : نهيران يصبان في دجلة

فقال ابن القُرَيْيَّة : ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن رَكْبٌ وَوُقُوفٌ ، يَكُنْ مَثَلًا بَعْدِي ، قال : هات ، قال : لكل جَوَادٌ كَبَوَّةٌ ، ولكل صَارِمٌ نَبَوَّةٌ ، ولكل حليم هفوة ، قال الحجاج : ليس هذا وقت المزاح ، يا غلام أوجب جَرَحَهُ ، فَضْرِبَ عُنُقَهُ .

وقيل إنه لما أراد قتله قال له : العرب تزعم أن لكل شيء آفة ، قال : صدقت العرب ، أصلح الله الأمير ، قال : فما آفة الحلم ؟ قال : الغضب ، قال : فما آفة العقل ؟ قال : العُجْب ، قال : فما آفة العلم ؟ قال : النسيان ، قال : فما آفة السخاء ؟ قال : المَنِّ عند البلاء^(١) ، قال : فما آفة الكرام ؟ قال : مجاورة اللئام ، قال : فما آفة الشجاعة ؟ قال : البغى ، قال : فما آفة العبادة ؟ قال : الفُتْرَة ، قال : فما آفة الذهن ؟ قال : حديث النَّفْس ، قال : فما آفة الحديث ؟ قال : الكذب ، قال : فما آفة المال ؟ قال : سوء التدبير ، قال : فما آفة الكامل من الرجال ؟ قال : العُدْم ، قال : فما آفة الحجاج بن يوسف ؟ قال : أصلح الله الأمير ، لا آفةَ لِمَنْ كَرُمَ حَسَبُهُ ، وطاب نسبه ، وزكا فرغه ، قال : امتلأت شِقَاقًا ، وأظهرت نِفَاقًا ، اضربوا عنقه ، فلما رآه قتيلاً ندم ، وكان قتله سنة ٨٤ هـ .

وفي رواية أخرى أنه لما دخل على الحجاج ، قال له : يا ابن القُرَيْيَّة ، ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : « أصلح الله الأمير ، ثلاثة حروف ، كأنهن رَكْبٌ وَوُقُوفٌ ، دنيا وآخرة ومعروف ، قال : اخرج مما قلت ، قال : « أَفْعَلُ ، أما الدنيا فإلّا حاضر ، يأكل منه البرُّ والفاجر ، وأما الآخرة فيزان عادل ، ومشهدٌ ليس فيه باطل ،

[١] الإيلاء : الإيغام والإحسان ، بلوت الرجل ، وأبليت عنده بلاء حساً ، وأبلاه الله بلاء حسناً .

وأما المعروف فإن كَانَ عَلَى اعترفتُ ، وإن كَانَ لى اعترفتُ ^(١) » قال : أما لى فاعترف بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أقلنى عثرتى ، وأسغنى ريقى ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، ولل سيف من نبوة ، وللحليم من هفوة ؟ ^(٢) » قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسنت القائل برمتقباذ : تَعَدُّوا الْجَدَى قبل أن يتعشاكم ؟ قال : فأرخني فإنى أجد حرها ، قال : قدّمه يا حرسى فاضرب عنقه ، فلما نظر إليه يتشحط ^(٣) فى دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى نسمع من كلامه ! ثم أمر به فأخرج فرمى به ^(٤) .

(وفیات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ٣٧)

٣٢٩ — كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : « الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل : الدّينُ شريعته ؛ والحليمُ طبيعته ، والرأى الحسنُ سجيته ، إن سُئِلَ أجاب ، وإن نَطَقَ أصاب ، وإن سَمِعَ العلمَ وعى ، وإن حَدَّثَ رَوَى ؛ وأما الأحمق : فإن تكلمَ مجل ، وإن حدثَ وهل ^(٥) ، وإن استنزلَ عن رأيه نزل ، فإن حَمَلَ على القبيح حمل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمنته خانك ، وإن حَدَّثته شاكك ، وإن وثقت به لم يرعك ، وإن استكثمت لم يكتثم ، وإن علّم لم يعلم ، وإن حَدَّث لم يفهم ، وإن فقه لم يفقه » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

[١] أى وأعطيت الناس منه . [٢] وفى رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع إلا له هبوة » والمهوبة : النبوة . [٣] يضطرب . [٤] وروى أبو الفرج الإصبهاني أنه قبل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي العقب صاحب قصيدة الملاحم ، وابن النرية ، ومجنون بن طامر » — انظر الأغانى ج ١ ص ١٦٣ . [٥] ضعف وفرع .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٠ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب ^(١)

لما فرَّ يزيدُ بنُ المهلب من سِجْنِ الحجاج وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوّذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقَسِّمُ أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فاما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسي فِدَاؤُكَ ، لَا تُخَفِّرْ ^(٢) ذِمَّةَ أَبِي ، وَأَنْتَ أَحَقُّ مَنْ مَنَعَهَا ، وَلَا تَقْطَعْ مَنَاجِيءَ مَنْ رَجَا السَّلَامَةَ فِي جِوَارِنَا ، لِمَا كَانَا مِنْكَ ، وَلَا تُذِلَّ مَنْ رَجَا الْعِزَّ فِي الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْنَا لِعِزَّنَا بِكَ » . (تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

[١] وخبر ذلك أن الحجاج كان وقد على عبد الملك ، فر في مصروفه بدير فزله ، فقبل له : إن في هذا الدبر شيخاً من أهل الكتب عالماً ، فدعا به وسأله : أعلم ما إلى ، من يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، ووقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرهه لما يرى فيه من النجاسة ، ويخشى منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتوهمهم بأهم ذبيرة الهوى ، ويخوفه غدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأل ، فعزل يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغرمهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقبل له : إنه رمى بنشابة ، فثبت نصلها في ساقه ، فهو لا يمشي شيئاً إلا صاح ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أي تعمز شديداً) فلما فعل به ذلك صاح - وأخته هذبت المهلب عند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلقها ، ثم إن يزيد وإخوته أعمالوا الحيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خابوا ما الله ، وهربوا مني ، ولحقوا بسليمان ، واستشفع سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفاه فيه ، فلما ولي الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولي يزيد أمر العراق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ . [٢] خفر به كضرب ، وأخفره : نقض عهده وغدره .

وأما المعروف فإن كان على اعترفت ، وإن كان لي اعترفت^(١) قال : أما لي
فاعترف بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أقلني عثرتي ، وأسغني
ريقي ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، ولل سيف من نبوة ، وللحليم من هفوة ؟^(٢)
قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسنت القائل برستقباذ : تَعَدُّوا الْجَدَى قَبْلَ
أَنْ يَتَعَشَاكُمْ ؟ قال : فَأَرِحْنِي فَإِنِّي أَجِدُ حَرَّهَا ، قال : قَدَّمَهُ يَا حَرَسِي فاضرب
عُنُقَهُ ، فلما نظر إليه يتشحط^(٣) في دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى
نسمع من كلامه ! ثم أمر به فأخرج فرمى به^(٤) .

(وفیات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٣٧)

٣٢٩ — كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : « الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل :
الدِّينُ شريعته ؛ والحلمُ طبيعته ، والرأي الحسنُ سجيته ، إن سئل أجاب ، وإن
نطق أصاب ، وإن سمع العلم وعى ، وإن حدث روى ؛ وأما الأحمق : فإن
تكلم مجمل ، وإن حدث وهل^(٥) ، وإن استنزل عن رأيه نزل ، فإن حمل على
القبیح حمل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمته خائنه ، وإن حدّته شائنه ، وإن وثقت
به لم يرعك ، وإن استسكتم لم يكتهم ، وإن علم لم يعلم ، وإن حدث لم يفهم ،
وإن فقه لم يفقه » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

[١] أى وأعطيت الناس منه . [٢] وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع
إلا له هبوة » والمهوبة : النبوة . [٣] يضطرب .
[٤] وروى أبو الفرج الإصبهاني أنه قيل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي العقب
صاحب قصيدة الملاحم ، وابن الفرية ، ومجنون بنى حاصر » — انظر الأغانى ج ١ ص ١٦٣ .
[٥] ضحك وفرح .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٠ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب ^(١)

لما قرَّ يزيدُ بنُ المُهَلَّب من سِجْن الحِجَاج وعِذابِه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوّذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقَسِّم أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسي فِدَاؤُكَ ، لَا تُخْفِرْ ^(٢) ذِمَّةَ أَبِي ، وَأَنْتَ أَحَقُّ مَنْ مَنَعَهَا ، وَلَا تَقْطَعْ مَنَاجِيءَ مَنْ رَجَا السَّلَامَةَ فِي جِوَارِنَا ، لِمَا كَانَتْ مِنْكَ ، وَلَا تُذِلَّ مَنْ رَجَا الْعِزَّ فِي الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْنَا لِعِزِّنا بِكَ » . (تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

[١] وخبر ذلك أن الحجاج كان وقد على عبد الملك ، قرر في مصرفه بدير فزله ، فقبل له : إن في هذا الدبر شيئا من أمل الكتب علما ، ودعا به وسأله : أقسم ما لي ، من يليه يدي ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فرقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرهه لما يرى فيه من النجاسة ، وبحسبي منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتهمهم بأهم زبيريّة الهوى ، وبخوفه غدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأله ، فعزل يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغرمهم ، وكان يزيد يصبر صبرا حسنا ، وكان الحجاج يغضبه ذلك ، فقبل له : إنه رمى بنشابة ، فثبت فصلها في ساقه ، فهو لا يمسيها شيء إلا صاح ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أي تعمر شديدا) فلما فعل به ذلك صاح - وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلقتها ، ثم إن يزيد وإخوته أعملوا الحيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستعجرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خانوا مال الله ، وهربوا مني ، ولحقوا بسليمان ، واستشفع سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أسير المراق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ . [٢] خفر به كضرب ، وأخفره : تقصده وهدمه .

٣٣١ — خطبة يزيد بن يدى الوليد

وتكلم يزيد ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين ، إنَّ بلاءكم عندنا أحسنُ البلاء ، فمن ينس ذلك فلنسنا
ناسيه ، ومن يكفر فلنسنا كافريه ، وقد كان من بلائنا أهل البيت فى طاعتكم ،
والطعن فى أعين أعدائكم ، فى المواطنِ المظام ، فى المشارق والمغارب ، ما إنَّ
المنة علينا فيها عظيمة . »

فأمنه الوليد وكف عنه . (تاريخ الطبرى ٨ : ٧٤)

٣٣٢ — خطبة مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدى

عمر بن عبد العزيز

ولما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب^(١) ، أقبل ابنه مخلد من
خراسان ، ودخل على الخليفة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] وسبب ذلك : أن يزيد بن المهلب لما فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ ، كتب بانفتح إلى سليمان
ابن عبد الملك ، وفى كتابه يقول : « وقد صار عندي من حسن ما أفاء الله على المسلمين ، بعد أن صار
لى كل ذى حق حقه من الوء والعينة ، ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء
الله » وقد قال له كاتبه المعيرة بن أبى ترّة : لا تكتب بتسمية مال ، فأبى من ذلك بين أمرين ، إما استكره
فأمره بحمله ، وإما سحت نفسه لك به وسوء عسكه فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله ،
فكأنى بك قد استغفرت ماسميت ، ولم يقع منه موقفاً ، وبقي المال الذى سميت محلاً عندهم عليك فى
دواوينهم ، فإن ولى وال بعده أخذك به ، وإن ولى من يتعامل عليك لم رص منك بأضعافه ، فلا تمس
كتابك ، ولكن اكتب بالمتح ، وسله المدوم ، فتشاهه بما أحببت مشافهة ونقصر ، فأبى أن
تقصر عما أحببت أخرى من أن تكثر ، فأبى يزيد ، وأمضى الكتاب ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز
(سنة ٩٩) — وكان عمر يعض يزيد وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء حبايرة ولا أحب مثلهم — دعا
يزيد وسأله عن تلك الاموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : كنت من سليمان بالمكان
الذى قد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسميع : إزالة الجول بنشر الذكر) ، وقد
علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشيء سمعت به ، ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجدي أمرى إلا
حبسك ، فاقى الله ، وأد ماقلك ، فإنها حقوق المسلمين ، ولا يسعى تركها ، ولم يزل يزيد فى حبسه ،
حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك ، لأنه كان قد عذب أصحابه آل أبى

« إن الله يا أمير المؤمنين صنع لهذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، عَلَامَ تحبس هذا الشيخ ؟ أنا أتحمّل ما عليه ، فصالحني على ما إياه تسأل » فقال عمر : لا ، إلا أن تحمل جميع ما نسأله إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك يئنة فخذ بها ، وإن لم تكن يئنة فصّدق مقالة يزيد ، وإلا فاستخلفه ، فإن لم يفعل فصالحه ، فقال له عمر : ما أجد إلا أخذه بجميع المال .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٣٢)

٣٣٣ — خطبة يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال

وقد سير يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك
ومسلمة بن عبد الملك لقتاله

قام في أصحابه فخرّضهم ورغبهم في القتال ، فكان فيما قال :
« إن هؤلاء القوم لن يردّهم عن غيهم إلا الطعن في عيونهم ، والضرب
بالمشرفيّة ^(١) على هامهم ، ثم قال : إنه قد ذكر لي أن هذه الجرادة الصفراء
— يعنى مسلمة بن عبد الملك ، وعافر ناقة ثمود ^(٢) — يعنى العباس بن الوليد —

عقيل (إذ كانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أختي الحجاج بن يوسف عبد يزيد بن عبد الملك ، فولدت له ابنة الوليد) وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله أن لا يملكه الله من يزيد بن المهلب ، ليقطن منه طابقا (بفتح الباء وكسرها أى عصوا) نخشى ذلك فهرب من السجن سنة ١٠١ هـ ، ومات عمر وأضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك ولحق ابن المهلب بالبصرة ، فملب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها (وهو عدى بن أوطاة الفزارى) حسه وخلع يزيد ، فسير إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومسلمة بن عبد الملك لحربه فقتل ابن المهلب في أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

[١] المشرفية سوف منسوبة إلى مشارف الشام ، وهى ترى من أرض العرب تدنو من الريف ، والهام جمع هامة وهى الرأس .

[٢] هو قمار (كشجاع) بن سالف ، ويلقب بأحمر ، قال زهير في وصف الحرب :

فَتَمْتَنِجْ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشَامٌ كُلُّهُمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَفْطِمُ

(قال الأصمعي : أخطأ زهير في هذا ، لأن عافر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من ثمود ، وقال المبرد : لا غلط ، ، لأن ثمود يقال لهم عاد الآخرة ، ويقال لثمود هود عاد الأولى) ويضرب به المثل في التؤم ،

(وكان العباس أزرق^(١) أحمراً، كانت أمه رومية) والله لقد كان سليمان أراد أن ينقيّه ، حتى كلمته فيه ، فأقرّه على نسبه ، فبلغني أنه ليس هههما إلا التماسي في الأرض ، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً ، وليس إلا أنا ، ما برحت العرصة^(٢) حتى تكون لي أولهم » ، قالوا : نخاف أن تعيننا^(٣) كما عثانا عبد الرحمن بن محمد^(٤) ، قال : إن عبد الرحمن فضح الدمار^(٥) وفضح حسبه ، وهل كان يعدّو أجله ؟ » ، ثم نزل . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥٢)

٣٣٤ — خطبة أخرى له

ورويت له خطبة أخرى في هذا الغرض ، وهاكها :

عن خالد بن صفوان قال : خطبنا يزيد بن المهلب بواسط ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أيها الناس : إني أسمع قول الرّعاع ، قد جاء العباس ، قد جاء مسامة ، قد جاء أهل الشام ! وما أهل الشام إلا تسعة أسياف ، منها سبعة معي ، واثنان عليّ ، وما مسامة إلا جرادة صفراء ، وأما العباس فنسطوس^(٦) بن نسطوس ،

فيقال : « أشأم من أحمراء » لأن الله أهلك به له ثمود ، وذلك أنهم قالوا لبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان : يا صالح إن كنت صادراً فأطهر لنا من هذه المجرّة ناقة ، وصفوها له ، فأخرجها الله بإذنه من الصخرة (إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَنَّتْ بَنِيَّهَا وَأَصْطَبِرُ) . فآمن بعضهم عند ظهور هذه الآية ، ثم قال لهم : (هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، فَعَمَرُوهَا فَاصْبِرُوا نَادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) . (والشرب : النصيب من الماء) .

[١] أي أزرق العينين . [٢] العرصة : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

[٣] عناء : أتعبه . [٤] هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السالف الذكر .

[٥] ما يلزمك حفظه وحمايته . [٦] هو في القصد ، ومروج الذهب بالبلاء ، وفي البيان والتبيين

بالنون ، وليس من ألقاظ العربية ، وأقول : هو إما علم روميّ ، فهو يشير إلى أصل العباس بن الوليد إذ

أتاكم في برابرة^(١) وصقالبة^(٢) وجراجة^(٣) ، وأقباط وأنباط^(٤) ،
وأخلاق من الناس ، إنما أقبل إليكم الفلاحون والأوباش كأشلاء^(٥) اللحم ،
والله ما لقوا قطّ حدّاً كحكمكم ، ولا حديداً كحديكم ، أعيروني سواعيدكم ساعة
من نهار تصفّقون^(٦) بها خراطيمهم ، فإنما هي غدوة أو روضة ، حتى يحكم الله
بيننا ، وهو خير الحاكمين .

(البيان والتبيين ١ : ١٦٠ ، المقد العريد ٢ : ١٥٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٧)

٢٣٥ — خطبة أخرى له

وقال مقاتل : سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط ، فقال :
« يا أهل العراق ، يا أهل السبق والسباق ، ومكارم الأخلاق ، إن أهل
الشام في أفواههم لُقمة دسمة^(٦) ، قد رتبت^(٦) لها الأشداق ، وقاموا لها على ساق ،
وهم غير تاركها لكم بالمرء والجِدال ، فالبسوا لهم جلود النمر^(٧) » .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٨)

٢٣٦ — خطبة الحسن البصري يثبط الناس عن يزيد بن المهلب
وكان مروان بن المهلب وهو بالبصرة ، يحث الناس على حرب أهل الشام ،
ويسرّحهم إلى يزيد ، وكان الحسن البصري يثبط الناس عنه ، وكان يقول
في تلك الأيام :

كانت أمه رومية ، أو محرف عن « نسطوري بن نسطوري » أي نصراني نسطوري من الساطرة
لأحدى فرق المسيحية نسبة إلى نسطوريوس صاحب المذهب ، وكان أسقفاً بانفسطيطية . تولى حول
سنة ٤٥٠ م . [١] البرابرة : جيل بالمغرب ، والصقالبة : جيل بلادهم تاسم بلاد الحرر « شمالي بحر
الجزر ، وهو بحر قزوين » أي جنوبي روسيا . [٢] الجراجة : قوم من العجم صاروا بالموصل في أوائل
الإسلام ، والجراجة : قوم من العجم بالجزيرة ، أو نبط الشام . [٣] أنباط جمع نبط كجبل
وقد تقدم . [٤] أشلاء جمع شلو كحمل ، وهو العضو ، وكل مسلوخ أكل منه شيء ، وبقيت
منه بقية . [٥] صفقه بالسيف : ضربه ، والخراطيم جمع خرطوم ، وهو الأنف .
[٦] رتبت : أي ثبتت ولم تتحرك « وذلك لامتلاء الأفواه » . [٧] أي تنكروا لهم ،
واستعدوا لمناضلتهم .

« أيها الناس : الزموا رِحالكم ، وكفّوا أيديكم ، واتّقوا الله مَولاكم ، ولا يَقْتُل بعضُكم بعضًا على دُنيا زائلةٍ ، وطمعٍ فيها يسير ، ليس لأهلها بياقٍ ، وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براصٍ ، إنه لم يكن فتنةٌ إلاّ كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التيه والخيلاء ، وليس يسلم منها إلاّ المجهول الخفيّ ، والمعروف التقيّ ، فمن كان منكم خفيًّا فَلْيَلْزَمْ الحَقَّ ، وليحبس نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكفاه والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفًا ، وكفى له به من الدنيا خلفًا ، ومن كان منكم معروفًا شريفًا ، فترك ما يتنافس فيه نُظْرَاؤُه من الدنيا - إرادةً الله بذلك - فواهاً لهذا ، ما أسعده وأرشدّه ، وأعظم أجره ، واهدى سبيله ! فهذا غدا - يعنى يوم القيامة - القَريرُ عينا ، الكريمُ عند الله مآبًا . »

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٥٣)

٣٣٧ - خطبة مروان بن المهلب

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب ، قام خطيباً كما يقوم ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد ، ثم قال لهم :

« لقد بلغنى أن هذا الشيخ الضالّ المرائى - ولم يُسمّه - يثبط الناس ، والله لو أن جاره تزع من خُصّ داره قَصَبَة ، لظالّ يرْعِفُ ^(١) أنفه ، أينكرُ علينا ، وعلى أهل مصرنا ، أن نطلب خيرنا ، وأن تُنكر مَظْلَمَتنا ؟ أمّا والله ليكفّن عن ذكرنا ، وعن جمعه إلينا سُقَّاط ^(٢) الأُبُلّة ، وعُلُوج فُرَاتِ البصرة ، قوما ليسوا من أنفسنا ، ولا ممن جرت عليه النعمة من أحدٍ منا ، أو لَأُنْحِيَنَّ عليه مِيزَداً خَسِناً . »

[١] رَعَف : خرج من أنفه الدم . [٢] جمع ساقط وهو اللثيم في حسبه ونفسه ، والأبلة : موضع بالبصرة .

فلما بلغ ذلك الحسن ، قال : والله ما أكره أن يُكرمني الله بهوانه ، فقال
ناس من أصحابه : لو أرادك ثم شئت لمنعناك ، فقال لهم : قد خالفكم إذن إلى ما
مانهيتكم عنه ، أمرُكم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري ، وأدعوكم إلى أن يقتل
بعضكم بعضاً دوني ؟ فبلغ ذلك مروان بن المهلب ، فاشتد عليهم وأخافهم ،
وطلبهم حتى تفرقوا ، ولم يدع الحسن كلامه ذلك ، وكف عنه مروان .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥١٣)

خطب الأحنف بن قيس التميمي^(١)

٣٣٨ — الأحنف ومعاوية

كَانَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ، قَدْ شَهِدَ مَعَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ ، كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَقَعَةَ
صِفِّينَ ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِمَعَاوِيَةَ ، دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : « وَاللَّهِ
يَا أَحْنَفُ مَا أَذْكُرُ يَوْمَ صِفِّينَ إِلَّا كَأَنَّكَ حَزَازَةٌ^(٢) فِي قَلْبِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ،
فَقَالَ لَهُ الْأَحْنَفُ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَ تَرُدُّ الْأُمُورَ عَلَى أَعْقَابِهَا ؟ أَمَّا وَاللَّهِ إِنْ الْقُلُوبَ الَّتِي
أَبْغَضْنَاكَ بِهَا لَبِئْنَ جَوَانِحُنَا ، وَالسُّيُوفَ الَّتِي قَاتَلْنَاكَ بِهَا لَعَلَى عَوَاتِقِنَا ، وَلَئِنْ

[١] هو أبو بحر الضحاك بن قيس سيد بني تميم ، والضروب به المثل في الحلم ، وهو من سادات
التابعين ، أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه ، وشهد بعض فتوح خراسان في زمن عمر
وعثمان رضي الله عنهما ، وشهد مع علي رضي الله عنه وقعة صفين ، ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين ،
وبقي إلى زمن مصعب بن الزبير ، فخرج معه إلى الكوفة ، فأتى بها سنة ٦٧ هـ (وقيل له الأحنف ، لأنه
كان أحنف الرجل — مائلها — يطاء على وحشيها) . [٢] الحزازة : وجم في القلب من غبط ونحوه .

مَدَدَتْ بِشَبْرٍ مِنْ غَدَرٍ، لَمْ تُدَنَّ بِأَعَا مِنْ خَيْرٍ^(١)، وَلَئِنْ شَدَّتْ لَتَسْتَصْفِينَ كَدَرٍ
قُلُوبَنَا بِصَفْوِ حَامِكِ»، قَالَ مَعَاوِيَةُ: فَإِنِّي أَفْعَلُ.

ثُمَّ قَامَ وَخَرَجَ، وَكَانَتْ أُخْتُ مَعَاوِيَةَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تَسْمَعُ كَلَامَهُ،
فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَتَهَدَّدُ وَيَتَوَعَّدُ؟ قَالَ: هَذَا الَّذِي إِذَا
غَضِبَ، غَضِبَ لِعُضْبِهِ مِائَةُ أَلْفٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، لَا يَذُرُّونَ فِيمَ غَضِبَ.

(وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ لِابْنِ خُلَسَاك ١: ٢٣٠، وَنَهَايَةُ الْأَرْبِ ٧: ٢٣٧، وَالْعَقْدُ الْفَرِيدُ ٢: ١١٨)

٣٣٩ — الْأَحْنَفُ وَمَعَاوِيَةُ أَيْضًا

جَلَسَ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا، وَعِنْدَهُ وَجُوهُ النَّاسِ، وَفِيهِمُ الْأَحْنَفُ، فَدَخَلَ رَجُلٌ
مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقَامَ خَطِيبًا، فَكَانَ آخِرَ كَلَامِهِ أَنَّ لَعَنَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
فَاطْرَقَ النَّاسُ، وَتَكَلَّمَ الْأَحْنَفُ، فَقَالَ:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّ هَذَا الْقَائِلَ مَا قَالَ آتِفًا، لَوْ عَلِمَ أَنَّ رِضَاكَ فِي لَعْنِ
الْمُرْسَلِينَ لِلْعَنَنَّهُمْ، فَاتَنَّى اللَّهُ، وَدَعَى عَلِيًّا، فَقَدْ لَقِيَ اللَّهَ، وَأُفْرِدَ فِي حُفْرَتِهِ، وَخَلَا
بِعَمَلِهِ، وَكَانَ وَاللَّهِ — مَا عَلِمْنَا — الْمُبَرِّزَ بِشِقِّهِ^(٢)، الطَّاهِرَ فِي خُلُقِهِ: الْمَيْمُونِ
النَّقِيبَةِ^(٣) الْعَظِيمِ الْمَصِيبَةِ».

قَالَ مَعَاوِيَةُ: «يَا أَحْنَفُ، لَقَدْ أَغْضَيْتَ الْعَيْنَ عَلَى الْقَدَى، وَقُلْتَ بَغِيرَ
مَا تَرَى، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَتَضَعَنَّ الْمَنِيرَ فَلَتَلْعَنَنَّهُ طَائِعًا أَوْ كَارِهًا»، فَقَالَ الْأَحْنَفُ:
«إِنْ تُعَفِّنِي فَهُوَ خَيْرٌ، وَإِنْ تَجْبِرْنِي عَلَى ذَلِكَ، فَوَاللَّهِ لَا تَجْرِي بِهِ شَفَتَايَ»،
فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: قُمْ فَاصْعَدْ. قَالَ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَا نُصِيفَنَّكَ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ»، قَالَ

[١] الْبَاعُ: قَدْرُ مَدِّ الْيَدَيْنِ، وَالْحَرُّ: أَقْبَحُ الْغَدَرِ.

[٢] الشُّنَى الْجَانِبُ، وَرَوَايَةُ الْعَقْدِ «الْمُبَرِّزُ سَيْفُهُ» وَبَرَزَ تَبَرَّزًا فَاقَ أَصْحَابَهُ فَضْلًا أَوْ شَجَاعَةً.

[٣] النَّقِيبَةُ: النَّفْسُ.

معاوية : « وما أنت قائلٌ إن أنصفتني ؟ » ، قال : « أصعدُ فأحمد الله ، وأثنى عليه ، وأصلي على نبيه ، ثم أقول :

« أيها الناس : إن معاوية أمرني أن ألعن عليا ، ألا وإن عليا ومعاوية اختلفا واقتتلا ، وادّعى كل واحد أنه مبغى عليه ، وعلى فتنه ، فإذا دعوتُ فأمنوا رحمكم الله ! » ثم أقول : « اللهم العن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغيَ منهما على صاحبه ، والفئةَ الباغيةَ على المبغى عليها ، اللهم ألعنهم لعنا كبيرا ، آمنوا ، رحمكم الله » ، يا معاوية ، لا أزيد على هذا ، ولا أنقص منه حرفا ، ولو كان فيه ذهابُ نفسى .

فقال معاوية : « إذن نُعفبك يا أبا بحر . »

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٨)

٣٤٠ . قوله فى مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية ، ويزيدُ بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجابا به ، فقال : يا أبا بحر ما تقول فى الولد ؟ فعلم ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ، وَثَمَرُ قلوبنا ، وَقُرَّةُ^(١) أعيننا ، بهم نَصُولُ على أعدائنا ، وهم الخلفُ منا لمن بعدنا ، فكن لهم أرضا ذليلة ، وسما ظلميلة ، إن سألوك فأعطهم ، وإن استعتبوك^(٢) فأعْتَبِهِمْ ، لا تمنعهم رِفْدك^(٣) ، فيمَلُّوا قُرْبَكَ ، ويكرهوا حياتك ، ويستبْطِئُوا وفاتك . »

فقال : لله دَرَكُ يا أبا بحر ! هم كما وصفت . (الأمل ٢ : ٤٣)

[١] قرَّت عينه : بردت ، وانقطع بكأوها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه .

[٢] استعتبه : طلب إليه العتي (أى الرضا) وأعتبه : أعطاه العتي .

[٣] الرَفْد : العطاء .

٣٤١ — شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وَأَتَى مَصْعَبَ بْنَ الزَّبِيرِ يَكْلِمُهُ فِي قَوْمٍ حَبَسَهُمْ ، فَقَالَ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ،
إِنْ كَانُوا حُبِسُوا فِي بَاطِلٍ ، فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا حُبِسُوا فِي حَقٍّ ، فَالْعَفْوُ
يَسَعُهُمْ » ، فَنَلَّاهُمْ ^(١) . (نهاية الأرب ٧ : ٢٣٨)

٣٤٢ — نصيحته لقومه

وَقَالَ بِخُرَاسَانَ : « يَا بَنِي تَيْمٍ تَحَابُّوا تَجْتَمِعْ كُلَّتْكُمْ ، وَتَبَاذَلُوا تَعْتَدِلْ أُمُورُكُمْ ،
وَابْدِءُوا بِجِهَادِ بَطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ ، يَصْلُحْ أَلْكُمُ دِينُكُمْ ، وَلَا تَغْلُوا ^(٢) يَسْلَمْ أَلْكُمُ
جِهَادُكُمْ » . (نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٤٣ — خطبته في قوم كانوا عنده

وَحَدَّثَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَيْمٍ قَالَ : حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ ، وَعِنْدَهُ
قَوْمٌ مُجْتَمِعُونَ فِي أَمْرِ لَهُمْ ، فَحَمِدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« إِنْ الْكَرَمُ يَمْنَعُ الْحُرْمَ ^(٣) ، مَا أَقْرَبَ النَّقْمَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ ، لَا خَيْرَ فِي
لَذَّةِ تَعْقِبٍ نَدْمًا ، لَنْ يَهْلِكَ مَنْ قَصَدَ ^(٤) ، وَلَنْ يَفْتَقِرَ مَنْ زَهَّدَ ، رُبَّ هَزَلٍ قَدْ
عَادَ جِدًّا ، مِنْ أَمِنْ الزَّمَانِ خَانَهُ ، وَمَنْ تَعَظَّمَ عَلَيْهِ أَهَانُهُ ، دَعَا الْمِزَاحَ ، فَإِنَّهُ
يُورَثُ ^(٥) الضَّغَائِنَ ، وَخَيْرُ الْقَوْلِ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ ، احْتَمَلُوا لِمَنْ أَدَلَّ ^(٦) عَلَيْكُمْ ،
وَاقْبَلُوا عَذْرَ مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْكُمْ ، أَطِيعْ أَخَاكَ وَإِنْ عَصَاكَ ، وَصِلْهُ وَإِنْ جَفَاكَ ،
أَنْصِفْ مَنْ نَفَسَكَ قَبْلَ أَنْ يُنْتَصَفَ مِنْكَ ، وَإِيَّاكُمْ وَمَشَاوِرَةَ النِّسَاءِ ، وَاعْلَمْ

[١] وى وفيات الأعيان لابن حلكان ١ : ٢٤٤ ، أن هذا القول للشعبي ، كالم به عمر بن هبيرة
الغزاري أمير العراق . [٢] أى لا تخونوا .
[٣] الحرم جمع حرمة بالضم : وهى ما لا يحل انتهاكه . [٤] القصد والاقتصاد : ضد الانراط .
[٥] التارث : إيقاد النار . [٦] تدلل .

أن كُفِرَ النعمة لؤم ، وَصُحِبَ الجاهل شؤم ، ومن الكرم الوفاء بالذَّمِّ ، ما أقبح القطيعةَ بعد الصِّلة ، والجفاء بعد اللَّطَفِ ^(١) ، والعداوة بعد الودِّ ! لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل ، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ^(٢) ، فأنفق في حقِّ ، ولا تكونن خازناً لغيرك ، وإذا كَانَ الغدرُ في الناس موجوداً ، فالثقة بكل أحد عَجْزٌ ، اعرف الحق لمن عَرَفَه لك ، واعلم أن قطيعةَ الجاهل تَعْدِلُ صِلَةَ العاقل . (الأماي ٢ : ٢٢)

٣٤٤ — كلمات حكيمة للأحنف

قال : « في ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليعتبر مُعْتَبِرٌ : ما دخلت بين اثنين قَطُّ حتى يُدْخِلَانِي بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء - يعني الملوك - ما لم أَدْعَ إليه ، وما حَلَلْتُ حُبُوتِي ^(٣) إلى ما يقوم الناس إليه . » وقال : « ألا أدلكم على المَحْمَدة بلا مَرَزَّة ^(٤) ؟ الخلق السَّجِيح ^(٥) والكف عن القبيح ، ألا أخبركم بأدواء الداء ؟ الخُلُقُ الدني ، واللسان البذي ، وقال : « ما خان شريف . ولا كذب عاقل ، ولا اغتاب مؤمن . » وقال : « ما ادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء ، أفضل من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب ، وقال : « كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لَزِمَ شيئاً عُرِفَ به . » وسمع رجلاً يقول : ما أبالي أُمْدِحْتُ أم ذُمْتُ . فقال له : « لقد استرحت من حيثُ تَعِبَ الكرامُ » ، وقال : « جنبوا مجلسنا ذِكْرَ الطعام والنساء ، فأني لا بُغِضَ الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه

[١] اللطف : اسم من اللطف بالعم . [٢] آخرتك . [٣] احتبى الرجل : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة بالفنح ويضم . [٤] رزأه مرزئة : أصاب منه خيراً ، والشئ قصه ، أى دون أن تفرموا في سبيلها مالا . [٥] اللب السهل .

وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيهِ . وكان يقول : إذا عَجِبَ الناس من حِلْمِهِ : « إني لأَجِدُ ما تَجِدُونَ ولكنني صَبُورٌ » . وكان يقول : « وجدت الحِلْمَ أنصَرَ لي من الرجال » . وقال : « الكذوبُ لا حيلةَ له ، والحسودُ لا راحةَ له ، والبخیلُ لا مروءةَ له ، والمَلُولُ لا وفاءَ له ، ولا يسودُ سَيِّئُ الأخلاقِ ، ومن المروءة إذا كان الرجلُ بخیلاً أن يَكْتُمَ ذلكَ ويتَجَمَّلَ » . وقال : « أربعٌ من كُنَّ فِيهِ كانَ كاملاً ، ومن تعلقَ بِخِصْلَةٍ مِنْهُنَّ كانَ منَ صالِحِي قومِهِ : دينٌ يُرْشِدُهُ ، أو عقلٌ يُسَدِّدُهُ ، أو حَسَبٌ يَصُونُهُ ، أو حِيَالٌ يَقْنَأُهُ ^(١) » . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمنٌ يحسُدُهُ ، ومُنافقٌ يُبَغِضُهُ ، وكافرٌ يجَاهِدُهُ ، وشيطانٌ يَفْتِنُهُ ؛ وأربعٌ ليسَ أَقلُّ مِنْهُنَّ : اليقينُ ، والعدلُ ، ودرهمُ حلالٍ ، وأخٌ في الله » . وقال : « لَأَن أَدْعَى منَ بعيدٍ ، أحبُّ إليَّ منَ أنْ أَقْصَى منَ قريبٍ » . وكان يقول : « إياكَ وصدَرَ المجلسِ ، وإن صدَرَكَ صاحِبُهُ ، فَإِنَّهُ مَجْلِسٌ قُلْعَةٌ ^(٢) » . وقال : « من لم يصبر على كلمةٍ سمعَ كلماتٍ » . وقال : « رب غيظَ تَجَرُّعَتِهِ خَافَةَ ما هو أشدُّ مِنْهُ » . وقال : « من كَثُرَ كلامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ، ومن طَالَ صَمْتُهُ كَثُرَتْ سلامَتُهُ » . وقال : « ثلاثٌ لا أُنَافَةَ فِيهِنَّ عِنْدِي » . قيل : « وما هُنَّ يا أبا بَحرٍ ؟ » . قال : « المبادرةُ بالعملِ الصالحِ ، وإخراجُ مِيتِكَ ، وأن تُنْكِبَ الكَفَّاءَ ^(٣) » . وكان يقول : « لَأَفْعَى تَحَكُّكَ في نَاحِيَةِ بَيْتِي ، أحبُّ إليَّ منَ أَيْمٍ رَدَدْتُ عَنْهَا كُفْتًا » . (وفيات الأعيان ١ : ٢٣١ ، وجمع الأمثال للبيداني ١ : ١٤٨ ، والأمال ٢٣٦ : ١ ، والبيان والبيان ٢ : ص ٣٧ ، ٥٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥)

[١] قى الحياءَ كَرَصَى ورمى : لزمه كَأَفْنَى . [٢] مجلس قُلْعَةٌ : يحتاج صاحِبُهُ إلى أن يقوم مرَّةً بعد مرَّةً . [٣] الأيم : من لا زوجَ لها بَكرًا ، أو ثيبًا . قال الجاحظ : وكان يقال : « ما بعد الصوابِ إلا الخطأ » ، وما بعدَ مَنْعِهِنَّ من الأَكْفَاءِ ، إلا بذَهنٍ للسفلةِ والعوغاءِ .

٣٤٥ — صفية بنت هشام المنقرية تؤبن الأحنف

وروى أنه لما أُحِلَّت جَنَازَةُ الْأَحْنَفِ، وَدُلِّيَ فِي قَبْرِهِ، أَقْبَلَتْ ابْنَةُ عَمِّهِ صَفِيَّةُ بِنْتُ هِشَامِ الْمُنْقَرِيَّةِ عَلَى نَجِيبٍ لَهَا مُخْتَصِرَةً^(١)، فَوَقَفَتْ عَلَى قَبْرِهِ، فَقَالَتْ :
«لِلَّهِ دَرَكٌ مِنْ مُجَنٍّ^(٢) فِي جُنَنٍ، وَمُدْرَجٌ^(٣) فِي كَفَنٍ ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! نسأل الله الذي جَمَعَنَا بِمَوْتِكَ، وَابْتَلَانَا بِفَقْدِكَ، أَنْ يُوسِّعَ لَكَ فِي قَبْرِكَ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، وَأَنْ يَجْعَلَ سَبِيلَ الْخَيْرِ سَبِيلَكَ، وَدَلِيلَ الرِّشَادِ دَلِيلَكَ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ بِوَجْهِهَا عَلَى النَّاسِ، فَقَالَتْ : «مَعَشَرُ النَّاسِ، إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ، شُهُودٌ عَلَى عِبَادِهِ، وَإِنَّا قَائِلُونَ حَقًّا، وَمُثْنُونَ صِدْقًا، وَهُوَ أَهْلُ الْحُسْنِ التَّنَاءِ، وَطَيِّبُ الدُّعَاءِ، أَمَا وَالَّذِي كُنْتُ مِنْ أَجَلِهِ فِي عِدَّةٍ، وَمِنْ الْمِضْمَارِ^(٤) إِلَى غَايَةٍ، وَمِنْ الْحَيَاةِ إِلَى نَهَايَةٍ، الَّذِي رَفَعَ عَمَلَكَ، عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِكَ، لَقَدْ عِشْتُ حَمِيدًا مَوْدُودًا، وَلَقَدْ مُتُّ فَقِيدًا سَعِيدًا، وَإِنْ كُنْتُ لِعَظِيمِ السَّلَمِ، فَاضِلَ الْحِلْمِ، صَاحِبِ الْأَدِيمِ^(٥)، مَنِيْعِ الْحَرَمِ، وَارِيَّ الزَّنَادِ، رَفِيعِ الْعِمَادِ، وَإِنْ كُنْتُ فِي الْمَحَافِلِ لَشَرِيفًا، وَعَلَى الْأَرَامِلِ لَعَطُوفًا، وَفِي الْعَشِيرَةِ مُسَوِّدًا، وَإِلَى الْخُلَفَاءِ مُؤَفِّدًا، وَلَقَدْ كَانُوا لِقَوْلِكَ مُسْتَمْعِينَ، وَلِرَأْيِكَ مُتَّبِعِينَ» ثُمَّ انصرفت .

(ذيل الأملی ص ٢٨ ، وبلاغات النساء ص ٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

[١] النجيب : الجمل السريع الخفيف في السير القوي ، واختصر : أمسك المحصرة ، « والمحصرة كككنسة : عما يسكنها الخطيب يثير بها إذا خطب » ، وتخصر بالقضيب أيضا : أمسك
وفي رواية الجاحظ : « وقامت مرعاة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة فقالت . . . » ، وفي رواية أبي علي الغالي : « جاءت امرأة من قومه من بني مفر علىها قبول من النساء ، فوقفت على قبره فقالت . . . » — وانقبول بالفتح ويضم : الحسن — .
[٢] من أجنته إذا ستره ، والجنت جمع جنة كقبة وهي الوقاية ، والمانن كسبب : القبر والكفن .
[٣] مطوى . [٤] في الأملی : « ومن الغمان » ، وفي بلاغات النساء : « ومن الغمار » وأرى أن صوابه « ومن الغمار » نقوله بمد : « إلى غاية » . [٥] الأديم : الجلد ، والمراد صحيح العرض .

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٤٦ - وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافداً لأهل البصرة ، ودخل معه النمر بن قُطَبة ، وعلى النمر عباءة قَطَوَانِيَّة ^(١) ، وعلى الأحنف مِذْرَعَةٌ ^(٢) صوف وشَمَلَةٌ ^(٣) ، فلما مَثَلَا بين يدي معاوية اقْتَحَمَتَهُمَا ^(٤) عَيْنُهُ ، فقال النمر : يا أمير المؤمنين إن العباة لانكلمك ، وإنما يكلمك من فيها ، فأوَمَأَ إليه لجلس ، ثم أقبل على الأحنف ، فقال : ثم مَه ؟ فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أهلُ البصرة عدد يسير ، وَعَظُمَ كَسِيرٌ ، مع تتابع من المَحُول ^(٥) ، واتصالٍ من الذُّحُول ^(٦) ، فأكْثَرُ فيها قد أطرق ، والمُقِلُّ قد أملق ، وبلغ منه المَخْتَق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشَ الفقير ، ويَجْبُرَ الكَسِير ، ويسهِّلَ العَسِير ، ويصفح عن الذُّحُول ، وَيُدَاوِيَ المَحُول ، ويأمر بالعطاء ، ليكشفِ البلاء ، وَيُزِيلَ اللُّأْوَاءَ ^(٧) ، وإن السَّيِّدَ مَنْ يَعُمُّ وَلَا يَخُصُّ ، ومن يدعو الجَفَلَى ^(٨) ولا يدعو الذَّفْرَى ، إن أحسن إليه شكر ، وإن أسى إليه غفر ،

[١] نسبة إلى قطوان : موضع بالكوفة منه الأكسية . [٢] المدرعة : ثوب ولا يكون إلا

من صوف . [٣] الشملة : كساء دون القبطية يشتمل به . [٤] ازدرتها .

[٥] جمع محل كشمس وهو القحط والجذب . [٦] جمع ذهل كشمس أيضاً وهو الثَّار .

[٧] الشدة . [٨] الدعوة العامة ، والنقري : الدعوة الخاصة .

ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عِماداً ، يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم
المُعْضِلَات ، فقال له معاوية : هاهنا يا أبا بجر ، ثم تلا : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي
لَحْنِ الْقَوْلِ ^(١) » . (زمر الآداب ١ : ٥٧)

٣٤٧ — وفد أهل العراق على معاوية وفيهم الأحنف

ولما قَدِم وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف ، خرج الآذن ،
فقال : إن أمير المؤمنين يَعَزِمُ عليكم ألاَّ يتكلم أحد إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه
قال الأحنف :

« لولا عَزْمَةُ أمير المؤمنين لأخبرته أن دافَّةً ^(٢) دَفَّتْ ، ونازلة نزلت ، ونايئة
نابت ، ونايئة نَبَّتْ ، وكلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه » ، فقال :

حَسْبُكَ يا أبا بجر فقد كَفَيْتَ الغائبَ والشاهد .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٣)

وفد أهل العراق على معاوية ومعهم زياد وفيهم الأحنف

وفد أهل العراق على معاوية ، ومعهم زياد بن أبيه ، وفيهم الأحنف بن قيس ،
فقال زياد :

٣٤٨ — خطبة زياد

« يا أمير المؤمنين : أَشَخَّصْتُ إليك أقواماً الرغبةُ ، وأفمَدَ عنك آخَرينَ
العُدْرُ ، فقد جعل الله تعالى في سَعَةِ فضلك ما يُجْزِي به المتخلف ، ويُكَافَأ به
الشاخِصُ » .

[١] أى فى معناه وخوام . [٢] الدافّة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت
علينا من بنى فلان دافّة ، والدافّة أيضاً ، قوم من الأعراب يريدون مصر ، والدافّة : الجيش يدعون نحو
العدو أى يدبون .

٣٤٩ — خطبة معاوية

فقال معاوية : « مَرَحَبًا بكم يا معشر العرب ، أَمَا وَاللَّهِ لئن فَرَّقْتُ بينكم الدعوة ، لقد جمعتكم الرَّحِيم ، إن الله اختاركم من الناس ليختارنا منكم ، ثم حَفِظَ عليكم نسبكم ، بأن تَحْيَرُ لكم بلادًا يُجْتَاز عليها المنازل ، حتى صَفَّاكم من الأمم كما تُصَفَّى الفِضَّة البيضاء من خَبَثِهَا ، فَصُّوْنَا أخلاقكم ، وَلَا تُدْنَسُوا أنسابكم وأعراضكم ، فَإِنَّ الْحَسَنَ مِنْكُمْ أَحْسَنُ لِقَرَبِكُمْ مِنْهُ ، وَالْقَبِيحُ مِنْكُمْ أَقْبَحُ لِبَعْدِكُمْ عَنْهُ » .

٣٥٠ — خطبة الأحنف بن قيس

فقال الأحنف : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْدَمُ مِنْكُمْ قَائِلًا جَزِيلًا ^(١) ، وَرَأْيَا أَصِيلًا ، وَوَعْدًا جَمِيلًا ، وَإِنْ أَخَاكَ زِيَادًا لَمْ تُبْعِ آثَارُكَ فِينَا ، فَتَسْتَمْتِعَ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ ، فَإِنَّكُمْ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ — فَإِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الْمَدَائِحِينَ فُصُولَ الْقَوْلِ — :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطَى إِلَّا وَشِيحُهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَايِبِهَا النَّخْلُ ^(٢)
(زمر الآداب ١ : ٥٨)

٣٥١ — وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة

قدم وفد العراق على معاوية ، وفيهم دَغْفَلٌ ^(٣) ، فقال له معاوية : يَا دَغْفَلُ أَخْبِرْنِي عَنْ ابْنِي زُرَّارٍ : رَيْبَعَةٌ وَمُضَرٌّ ، أَيُّهُمَا كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً ؟ فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مُضَرٌّ بَنَ زُرَّارَ كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً . قال معاوية : وَأَيُّ مُضَرٍّ كَانَ أَعَزَّ ؟ قال : بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ ، كَانُوا أَكْثَرَ الْعَرَبِ أَمْجَادًا ، وَأَرْفَعَهُمْ عَمَادًا ،

[١] الجزيل : العاقل الأصل الرأى . [٢] الخطى : الريح نسبة إلى الخط : مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح لأنها تباع به لا أنه منبتها ، والوشيج : شجر الرماح جمع وشيجة .
[٣] هو دغفل بن حنظلة النسابة من بني شيبان .

وأعظمهم رماداً . قال : فأئ بني كِنانة كَانَ بعدهم أعزُّ ؟ قال : بنو مالك بن كِنانة ، كانوا يَعْلُونَ من سَامَانٍ ، وَيَكْفُونَ من نَاقَاهِمْ ، وَيَصْدُقُونَ من عَادَاهِم . قال : فمن بعدهم ؟ قال : بنو الْحَارِثِ بن عبد مَنَاة بن كِنانة ، كانوا أعزُّ بَنِيهِه وأمنَعَهُمْ ، وأجودَهُمْ وأنْفَعَهُمْ . قال : ثم من بعدهم ؟ قال : بنو بكر بن عبد مَنَاة ، كَانَ بِأَسْهُمٍ مرهوباً ، وعدوهم منكوباً ، وثأرهم مطلوباً . قال : فأخبرني عن مالك بن عبد مَنَاة بن كِنانة ، وعن مُرَّة وعامر ابني عبد مَنَاة . قال : كانوا أشرفاً كراماً ، وليس للقوم أكفاء ولا نُظَرَاء . قال : فأخبرني عن بني أسد . قال : كانوا يُطْعِمُونَ السَّديف^(١) ، وَيَكْرَهُونَ الضيوف ، وَيَضْرِبُونَ في الزُّحُوف^(٢) ، قال : فأخبرني عن هُذَيْل . قال : كانوا قليلاً أكياس^(٣) ، أهل مَنَعة وبأس ، يَنْتَصِفُونَ من الناس ، قال : فأخبرني عن بني ضَبَّة ، قال : كانوا جَمْرَةً من جَمَرَاتِ العرب الأربع^(٤) ، لَا يُصْطَلَى بنارهم ، وَلَا يُفَاتُونَ بشارهم ، قال : فأخبرني عن مُزَيْنَةَ ، قال : كانوا في الجاهلية أهل مَنَعة ، وفي الإسلام أهل دَعَاة . قال : فأخبرني عن تميم ، قال : كانوا أعزَّ العرب قديماً ، وأكثَرها عَظِيماً ، وأمنَعها حَرِيماً ، قال : فأخبرني عن قيس . قال : كانوا لَا يَفْرَحُونَ إذا أُدِيلُوا^(٥) ، وَلَا يَحْزَعُونَ إذا ابْتُلُوا ، وَلَا يَبْخَلُونَ إذا سُئِلُوا ، قال : فأخبرني عن أشرافهم في الجاهلية ، قال : غَطَفَانِ ابن سعد ، وعامر بن صَعَصَعة وسُلَيْم بن منصور ؛ فأما غَطَفَانِ فكانوا كراماً

[١] شحم السنام . [٢] مصدر زحف أو جمع زحف كشمس وهو الجيش يزحفون إلى العدو .
[٣] جمع كيس وهو الماقل . [٤] قال صاحب المقد : « جمرات العرب ، هم بنو نعيم بن عامر بن صَعَصَعة ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضَبَّة بن أد بن طابخة ، وبنو عبس بن بغيض ، وإنما قيل لهذه القبائل جمرات ، لأنها تحممت في أنفسها ، ولم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجوير : التجميع ، ومنه قيل : جمرة العقبة لاجتماع الحصى فيها ، ومنه قيل : لانهمروا المسلمين فتفتنهم ، وتفتنوا نساءهم ، يعني لا تجمعهم في الغازی . . الخ » — المقد ٢ : ٥٧ . [٥] أداله الله من عدوه : نصره عليه .

سَادَةٌ ، وَلِلْخَمِيسِ ^(١) قَادَةٌ ، وَعَنِ الْبَيْضِ ذَادَةٌ ^(٢) ؛ وَأَمَّا بَنُو عَامِرٍ فَكَثِيرٌ سَادَتُهُمْ ،
نَحْشِيَّةٌ سَطَوَتُهُمْ ، ظَاهِرَةٌ نَجَدَتُهُمْ ؛ وَأَمَّا بَنُو سُلَيْمٍ فَكَانَ يُدْرِكُونَ النَّارَ ،
وَيَمْنَعُونَ الْجَارَ ، وَيُعْظَمُونَ ^(٣) النَّارَ ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي عَنْ قَوْمِكَ بِكَرِ بْنِ
وَائِلٍ وَاصْدُقْنِي ، قَالَ : كَانُوا أَهْلَ عَزٍّ قَاهِرٍ ، وَشَرَفٍ ظَاهِرٍ ، وَمَجْدٍ فَاحِرٍ ، قَالَ :
فَأَخْبَرَنِي عَنْ إِخْوَتِهِمْ تَغْلِبٍ ، قَالَ : كَانُوا أَسْوَدًا تُرْهَبٌ ، وَسِمَامًا ^(٤) لَا تُقْرَبُ ،
وَأَبْطَالًا لَا تُكْذَبُ ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي كَمْ أُدِيلُوا عَلَيْكُمْ فِي قَتْلِكُمْ كُلِّيًّا ؟ قَالَ : أَرْبَعِينَ
سَنَةً ، لَا نَنْتَصِفُ مِنْهُمْ فِي مَوْطِنٍ نَلْقَاهُمْ فِيهِ ، حَتَّى كَانَ يَوْمَ التَّحَالِيقِ ، يَوْمَ الْحَرْثِ
ابْنُ عُبَادٍ بَعْدَ قِتْلَةِ ابْنِهِ يُجَحِّيرُ ، وَكَانَ أَرْسَلَهُ فِي الصَّلَاحِ بَيْنَ الْقَوْمِ ، فَتَمَتَّلَهُ مُهْلَهْلٌ ،
وَقَالَ : بُؤْشِشِعَ ^(٥) نَعْلُ كَلِيبٍ ، فَقَالَ الْغَلَامُ : إِنْ رَضِيتَ بِهَذَا بَنُو بَكْرٍ رَضِيتُ ،
فَبَلَغَ الْحَرْثَ ، فَقَالَ : نَعَمْ الْقَتِيلُ قَتِيلًا إِنْ أَصْلَحَ اللَّهُ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبٍ وَبَاءَ بِكَلِيبٍ ،
فَقِيلَ لَهُ : إِنَّمَا قَالَ مُهْلَهْلٌ مَا قَالَ (الْكَلَامَةُ ^(٦)) ، فَتَشَمَّرَ الْحَرْثُ لِلْحَرْبِ ، وَأَمَرْنَا
بِحُلُقٍ رءُوسَنَا أَجْمَعِينَ ، وَهُوَ يَوْمُ التَّحَالِيقِ ، وَلَهُ خَبَرٌ طَوِيلٌ ، وَقَالَ :

قَرَّبَا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنِّي لَقِحتُ حَرْبُ وَائِلٍ عَنِ حِيَالٍ ^(٧)
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا - عِلِمَ الْأَلْه - وَإِنِّي بِحَرْهَا الْيَوْمَ صَالِي
قَرَّبَا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مِنِّي إِنْ يَبِيعَ الْكَرَامَ بِالشَّيْنِ غَالِي

فَأَدْرَيْنَا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ ، فَلَمْ نَزَلْ مِنْهُمْ مَمْتَنِعِينَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا . قَالَ : فَمِنْ ذَهَبٍ يَذْكُرُ

[١] الخميس : الجيش . سمي بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والوخرة .

[٢] البيضة : حوزة كل شيء وساحة القوم ، وبيضة الدار : وسطها . [٣] كناية عن الكرم .

[٤] جمع سم مثلث السين . [٥] الشيسع : سير يشد به النمل .

[٦] هي قوله (بؤششع نعل كليب) . [٧] النعامة : اسم فرسه ، واقعت الناقة ، قبل اللقاح

وحالت حبالا لم تنفع سنة ، أو سنتين ، أو سنوات .

ذلك اليوم ؟ قال : الحرث بن عباد ، أسرمه لهما في ذلك اليوم ، وقال له : دُلّني على مهمل بن ربيعة ، قال : مالي إن دَلَلْتُكَ عليه ؟ قال : أَطْلِقْكَ ، قال : على الوفاء ؟ قال : نعم ، قال له : أنا مهمل ، قال : وَيَحْك ! دُلّني على كفء كريم ، قال : امرؤ القيس ^(١) ، وأشار بيده إليه عن قُرب ، فأطلقه الحرث ، وانطلق إلى امرئ القيس فقتله ، وبكر كلها صَبَرَتْ وَأَبْلَتْ فحَسُنَ بِلَاؤُهَا ، إلا ما كَانَ من ابني لُجَيْم : حَدِيفَةُ وَنَجْل ، وَيَشْكُرُ بن بكر ، فإن سعد بن مالك بن ضُبَيْعَةَ جَدَّ طَرْفَةَ بن العبد ، هجَاهُ في ذلك اليوم ، فقال :

إِنَّ لُجَيْمًا عَجَزَتْ كُلُّهَا أَنْ يُرْفِدُونِي فَارِسًا وَاحِدًا ^(٢)

وَيَشْكُرُ الْعَامَ عَلَى خَتَرِهَا لَمْ يَسْمَعْ النَّاسَ لَهُمْ حَامِدًا ^(٣)

وقال فيهم أيضاً :

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطًا فَاسْتَرَا حُوا ^(٤)

إِنَّا وَإِخْوَتُنَا غَدًا كَشْمُودٍ حَجْرٍ يَوْمَ طَا حُوا ^(٥)

بِالْمَشْرِفِيَّةِ لَا تَقِرَّ وَلَا تُبَاحُ وَلَنْ تُبَاحُوا ^(٦)

مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ ^(٧)

فقال معاوية : أنت والله يا دغفل أعلم الناس قاطِبةً بأخبار العرب .

(ديل الأمل ٢٦)

[١] هو امرؤ القيس بن أمان التغلبي . [٢] الإِرْفَادُ : الإِغَاةُ والإِيعْطَاءُ .

[٣] الحرث : المدر أو أقبه . [٤] أَرَاهِطُ جمع الجمع لِرَهْط . [٥] الحجر : واد بين المدينة والشَّامَ : مساكن يهود قوم صالح . [٦] مشارف الشام : قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السبوف المشرفية ، وفي ذيل الأمل ١ « ولا نباح ولن نباحوا » بالنون وقد أصلحته « ولن تباحوا » بالتاء على الالتفات من التكلم إلى الخطاب ، أى ولن تباحوا يا قوم مادونا لكم حماة ، وقال مصحح الأمل : « ولن نباحوا » كذا في الأصل ، ولعل هنا تحريفا ، ووجه الكلام « كن يباح » . [٧] قولهم لا براح كقولهم لا ريب ، ويجوز رفعه فتكون لا بمنزلة ليس .

٣٥٢ - دغفل وجماعة من الانصار

ووقف جماعة من الأنصار على دَغْفَل بعد ما كَفَّ ، فسأموا عليه ، فقال :
مَنْ الْقَوْمُ ؟ قالوا : سَادَةُ الْيَمَنِ ، فقال : « أَمِنْ أَهْلِ عَجْدِهَا الْقَدِيمِ ، وَشَرَفِهَا
الْعَمِيمِ ، كَيْنْدَةَ ؟ » ، قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ الطَّوَالُ قَصَبًا ، الْمُحَصَّنُونَ نَسَبًا ،
بَنُو عَبْدِ الْمَدَانِ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ أَقْوَدُهَا لِلزُّخُوفِ ، وَأَخْرَقُهَا
لِلصَّفُوفِ ، وَأَضْرِبُهَا بِالسِّيُوفِ ، رَهْطُ عَمْرُوبِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ ؟ » قالوا : لا ،
قال : « فَأَنْتُمْ أَخْضَرُهَا قَرَاءً ^(١) ، وَأَطْيَبُهَا فَنَاءً ، وَأَشَدُّهَا لِقَاءً ، رَهْطُ حَاتِمِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ الْغَارِسُونَ لِلنَّخْلِ ، وَالْمَطْعَمُونَ فِي الْمَحَلِّ ^(٢) ،
وَالْقَائِلُونَ بِالْعَدْلِ ، الْأَنْصَارُ ؟ » قالوا : نعم . (الأماي ٢ : ٢٨٧)

٣٥٣ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خَبَرُونِي عَنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ
الْعَرَبِ ، فِيهِمْ أَشَدُّ النَّاسِ ، وَأَسْخَى النَّاسِ ، وَأَخْطَبُ النَّاسِ ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي
قُوَّةِهِ ، وَأَحْلَمُ النَّاسِ ، وَأَخْضَرُهُمْ جَوَابًا .

قالوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي
قَرِيشٍ ، قال : لا ، قالوا : فِي جَمِيْعٍ وَلَوْ كُهَا ، قال : لا ، قالوا : فِي مِضَرَ ، قال :
لا ، قال مَصْقَلَةُ بْنُ رُقِيَّةَ الْعَبْدِيِّ : فَهِيَ إِذْنٌ فِي رِبِيعَةٍ ، وَنَحْنُ هُمْ ، قال : نعم ،
قال جُلَسَاؤُهُ : مَا نَعْرِفُ هَذَا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
قال : نعم .

[١] قَرَى الصَّيْفُ كَرَمِي قَرَى بِالْكَسْرِ ، وَالْقَصْرُ : وَقَرَاءٌ بِالْفَتْحِ وَالْمَدِّ : أَضَافَهُ .

[٢] الْحَلْ : الْجَدْبُ وَالشَّدَةُ .

أَمَّا أَشَدُّ النَّاسِ ، فَحَكِيمُ بْنُ جَبَلٍ ، كَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقُطِعَتْ سَاقُهُ ، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ الَّذِي قَطَعَهَا ، فَرَمَاهَا بِهَا جَذْلَهُ ^(١) عَنْ دَابَّتِهِ ، ثُمَّ جَثَا إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ ، فَمَرَّ بِهِ النَّاسُ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا حَكِيمُ ، مَنْ قَطَعَ سَاقَكَ ؟ قَالَ : وَسَادِي ^(٢) هَذَا ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

يَا سَاقُ لَا تُرَاعِي ^(٣) إِنَّ مَعِيَ ذِرَاعِي أَتَّحِي بِهَا كُرَاعِي

وَأَمَّا أَسَخَى النَّاسِ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُوَّارٍ ، اسْتَعْمَلَهُ مَعَاوِيَةُ عَلَى السُّنْدِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْجُنْدِ ، وَكَانَتْ تَوْقَدُ مَعَهُ نَارَ حَيْثُمَا سَارَ ، فَيُطْعِمُ النَّاسَ ، فَيَنْبِثُ هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَبْصَرَ نَارًا ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ ، اعْتَلَّ بَعْضُ أَصْحَابِنَا ، فَاشْتَهَى خَبِيصًا ^(٤) ، فَعَمِلْنَا لَهُ ، فَأَمَرَ خَبَّازَهُ أَلَّا يُطْعِمَ النَّاسَ إِلَّا الْخَبِيصَ ، حَتَّى صَاحُوا وَقَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ . رُدُّنَا إِلَى الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ ، فَسُمِّيَ مُطْعِمِ الْخَبِيصِ .

وَأَمَّا أَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، فَالْجَارُودُ بْنُ بَشْرٍ بْنُ الْعَلَاءِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَارْتَدَّتِ الْعَرَبُ ، خَطَبَ قَوْمَهُ ، فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ مَاتَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ ، فَمَنْ ذَهَبَ لَهُ فِي هَذِهِ الرَّدَّةِ دِينَارٌ أَوْ دِرْهَمٌ أَوْ بَعِيرٌ أَوْ شَاةٌ ، فَلَهُ عَلَى مِثْلِهِ »

فَمَا خَالَفَهُ مِنْهُمْ رَجُلٌ .

وَأَمَّا أَحْضَرُ النَّاسِ جَوَابًا ، فَصَعَصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ ، دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ فِي وَفْدٍ

[١] جَذْلُهُ : صَرَعَهُ عَلَى الْجِدَالَةِ (كَسَحَابَةٍ) وَهِيَ الْأَرْضُ . [٢] الْوَسَادُ : الْمَتَكَا ، وَالْخُدَّةُ

كَالْوَسَادَةِ وَيَنْثَلُ . [٣] لَا تُرَاعِي : لَا تَفْزَعِي ، وَالْكَرَاعُ : جَمَاعَةُ الْحَيْلِ .

[٤] الْخَبِيصُ : نَقِي الدَّقِيقِ يَخْلُطُ بِالْعَسَلِ ، وَالْخَبِيصَةُ : أَخْصَمُهُ ، وَخَبِصَ الْخُلُوءُ كَضَرْبٍ ، وَخَبِصَهَا :

بِالتَّشْدِيدِ خَلَطَهَا وَعَمَلَهَا .

أهل العراق ، فقال معاوية : مَرَحَبًا بِكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، قَدِمْتُمْ أَرْضَ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةَ ،
منها المَنْشَرُ ، وإليها المَخْشَرُ ، قَدِمْتُمْ عَلَى خَيْرِ أُمِيرٍ يَبْرَأُ كَبِيرِكُمْ ، وَيَرْحَمُ صَغِيرَكُمْ ،
ولو أن الناس كلَّهم ولد أبي سفيان لكانوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَأُشَارَ النَّاسَ إِلَى
صُعُوبَةِ قِتَامِ :

فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أَمَا قَوْلُكَ يَا مُعَاوِيَةُ : إِنَّا قَدِمْنَا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ، فَلَعُمْرِي ، مَا الْأَرْضُ
تَقْدَسَ النَّاسَ ، وَلَا يَقْدَسَ النَّاسَ إِلَّا أَعْمَالُهُمْ ، وَأَمَا قَوْلُكَ : مِنْهَا الْمَنْشَرُ ، وَإِلَيْهَا
الْمَخْشَرُ ، فَلَعُمْرِي ، مَا يَنْفَعُ قَرِيبُهَا ، وَلَا يَضُرُّ بُعْدُهَا مُؤْمِنًا ، وَأَمَا قَوْلُكَ : لَوْ أَنَّ
النَّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدُ أَبِي سَفْيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَقَدْ وَلَدَهُمْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَفْيَانَ
آدَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَهُمْ الْحَلِيمُ وَالسَّفِيهَ ، وَالْجَاهِلُ وَالْعَالِمُ » .

وأما أحلم الناس ، فإن ولد عبد القيس قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِصَدَقَاتِهِمْ وَفِيهِمُ الْأَشْجُ^(١) ، ففَرَّقَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ أَوَّلُ
عَطَاءٍ فَرَّقَهُ فِي أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَشْجُ ادْنُ مِنِّي ، فَدَنَا مِنْهُ ، فَقَالَ : « إِنَّ فِيكَ
خَلَّتَيْنِ يَجِبُهُمَا اللَّهُ : الْأَنَاءَةُ وَالْحِلْمُ » وَكَفَى بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاهِدًا ،
وَيُقَالُ : إِنَّ الْأَشْجَ لَمْ يَغْضَبْ قَطُّ^(٢) . (المقد الفريد ٢ : ٥٦)

٣٥٤ — وفود العرب ومعاوية

عن عمرو بن عُثْبَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، قَالَ :
عَقُمَتِ النِّسَاءُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَ عَمِّي ! شَهِدْتُهُ يَوْمًا ، وَقَدْ قَدِمَتِ عَلَيْهِ وَفُودُ

[١] هو عبد الله بن عوف الأشج . [٢] هذا المقال يزيد على العنوان الذي عنوته به ، وقد أردت

من ذلك استيفاء حديث عبد الملك .

العرب ، فتغضى حوائجهم ، وأحسنَ جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه ، سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :

« جزاكم الله يا معشر العرب عن قريش أفضلَ الجزاء ، بتقدّمكم إياهم في الحرب ، وتقديكم لهم في السلم ، وحَقْنِكُم دماءهم بِسَفْكِهَا مِنْكُمْ ، أَمَا وَاللَّهِ لَا يُؤْثِرُ عَلَيْكُمْ غَيْرَكُمْ مِنْهُمْ حَازِمٌ كَرِيمٌ ، وَلَا يَرِغَبُ عَنْكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا عَاجِزٌ لَثِيمٌ ، شَجَرَةٌ قَامَتْ عَلَى سَاقٍ ، فَتَفَرَّعَ أَعْلَاهَا ، وَاجْتَمَعَ أَصْلُهَا ، عَضَدَ اللَّهُ مَنْ عَضَدَهَا ، فَيَا هَا كَلِمَةً لَوْ اجْتَمَعَتْ ! وَأَيْدٍ لَوْ ائْتَلَفَتْ ! وَلَكِنْ كَيْفَ بِإِصْلَاحِ مَا يَرِيدُ اللَّهُ إِفْسَادَهُ ؟ » .
(العقد الفريد ٢ : ٤١)

٣٥٥ — وفود عبد العزيز بن زُرارة على معاوية

وفد عبد العزيز ^(١) بن زُرارة على معاوية ، وهو سيد أهل الكوفة ، فلما أذن له وقف بين يديه ، وقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : لَمْ أَزَلْ أَهْزُ ذَوَائِبَ ^(٢) الرِّحَالِ إِلَيْكَ ، إِذْ لَمْ أَجِدْ مُعَوَّلًا إِلَّا عَلَيْكَ ، أَمْتَطِي اللَّيْلَ بَعْدَ النَّهَارِ ، وَأَسِمْ ^(٣) الْمَجَاهِلَ بِالْآثَارِ ، يَقُودُنِي إِلَيْكَ أَمَلٌ ، وَتَسُوقُنِي بَلَوَى ، وَالْمُجْتَهِدُ يُعَذِّرُ ، وَإِذْ بَلَغْتُكَ فَقَطَّنِي ^(٤) » ، فقال معاوية : أَحْطُطْ عَنْ رَاحِلَتِكَ رَحْلَهَا .

وروى الجاحظ هذا القول بصورة أخرى ، فقال :

« وَلَمَّا وَصَلَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ زُرَّارَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ قَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَمْ

[١] في صبح الأعشى « عبد المزّى » وفي الامالى : « قل رجل لعبد الملك بن مروان . . . الخ » .

[٢] جمع ذؤابة : وهي الجلدة الملتفة على آخرة الرجل ، وفي صبح الأعشى « ذوائب الرجاء » .

[٣] وسمه بسمة : علمه بعلامة . [٤] خسي .

أزل أَسْتَدِلُّ بالمعروف عليك ، وأمتطي النهار إليك ، فإذا ألوى ^(١) بي الليل ،
فَقَبَضَ البصرَ ، وعَنَى الأثرَ ، أقام بدني ، وسافر أُملى ، والنفس تُلوم ، والاجتهاد
يَعْذِرُ ، وإذ بلغتكَ فَقَطَّنِي .

وخرج عبد العزيز بن زرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصَّائفة ^(٢) ، فهلك
هناك ، فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك ، فقال معاوية لزرارة : أتأني اليوم نَعَى
سيد شباب العرب ، قال زرارة : يا أمير المؤمنين هو ابني أو ابنك ؟ قال : بل
ابنك ، قال : للموت ما تَلِدُ الوالدة .

(المقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣٧ ، والأمل ١ : ٢٠١)

٣٥٦ — وفود زيد بن مُنِيَّة على معاوية

قدم زيد بن مُنِيَّة على معاوية من البصرة ، (وهو أخو يَعْلَى بن منية ^(٣)
صاحب جمل عائشة ، ومتولّى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن
أبي سفيان قد تزوج ابنة يعلى بن مُنِيَّة) ، فلما دخل على معاوية شكّا إليه ديناً
لزمه ، فقال : يا كعبُ ، أَعْطِهِ ثلاثين ألفاً ، فلما وَلَّى قال : وليوم الجمل ثلاثين
ألفاً أخرى ، ثم قال له : الْحَقَّ بِصِهْرِكَ ، (يعني عتبة ، وكان يومئذ عامل مصر)
فَقَدِمَ عليه مصر ، فقال :

« إني سرت إليك شهرين أخوضُ فيهما المتآلفَ ، ألبسُ أُرْدِيَةَ الليل مرةً ،

[١] المراد جن على ، وأحدثت بي ظلمته ، يقال : ألوى به : ذهب به ، وألوت به العقاء : طارت
به ، وألوى بما في الإياء : استأثر به .

[٢] الصائفة : غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفا لمكان البرد والثلج .

[٣] في صبح الأعشى والعقد « منه » بالباء وهو تصحيف والصواب « منية » وهو اسم أمه ، واسم
أبيه أمية ، والتصحيح من تاريخ الكامل لابن الأثير . وكان يعلى عاملاً لعثمان رضى الله عنه على اليمن ، فلما
ولى على رضى الله عنه الخلافة عزله ، وولى على اليمن عبيد الله بن عباس ، فانصرف يعلى إلى مكة ومعه
مال كثير ، وانضم إلى السيدة عائشة رضى الله عنها في قتال على في وئمة الجمل .

وَأَخُوْضُ فِي لُجَجِ السَّرَابِ^(١) أُخْرَى ، مُوقِرًا^(٢) مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِكَ ، وَهَارِبًا مِنْ دَهْرِ فَطَمٍ^(٣) ، وَدَيْنِ لَزِمٍ^(٤) ، بَعْدَ غِنَى جَدَّ عُنَا بِهِ أَنْوَفَ الْحَاسِدِينَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا إِلَيْكَ مَهْرَبًا ، وَعَلَيْكَ مَعْوَلًا ، فَقَالَ عَتَبَةٌ : « مَرْحَبًا بِكَ وَأَهْلًا ، إِنْ الدَّهْرَ أَطَارَكُمْ غِنَى ، وَخَلَطَكُمْ بِنَا ، ثُمَّ اسْتَرَدَّ مَا أَمَكْنَهُ أَخْذُهُ ، وَقَدْ أَبْقَى لَكُمْ مِنْهَا مَا لَا ضَيْقَةَ^(٥) مَعَهُ ، وَأَنَا وَاضِعٌ يَدِي وَيَدَكَ بِيَدِكَ اللَّهُ » ، فَأَعْطَاهُ سَتِينَ أَلْفَا كَمَا أَعْطَاهُ مَعَاوِيَةَ . (العقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧)

٣٥٧ — وفود ضرار بن حمزة الصَّدَائِيَّ عَلَى مَعَاوِيَةَ

دَخَلَ ضِرَارُ بْنُ حَمَزَةَ الصَّدَائِيَّ^(١) (وَكَانَ مِنْ خَوَاصِّ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهِهِ) عَلَى مَعَاوِيَةَ وَافِدًا ، فَقَالَ لَهُ : يَا ضِرَارُ ، صِفْ لِي عَلِيًّا ، قَالَ : أَعْفَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : لَتَصِفَنَّهُ ، قَالَ : « أَمَّا إِذَا لَا بُدَّ مِنْ وَصْفِهِ ، فَكَانَ وَاللَّهِ بَعِيدَ الْمَدَى^(٢) ، شَدِيدَ الْقُوَى ، يَقُولُ فَضْلًا ، وَيَحْكُمُ عَدْلًا ، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَيَسْتَأْنَسُ بِاللَّيْلِ وَوَحْشَتِهِ ، وَكَانَ وَاللَّهِ غَزِيرَ الْعَبْرَةِ ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ ، وَيَخَاطِبُ نَفْسَهُ ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا قَصُرَ ، وَمِنَ الطَّعَامِ مَا خَشُنَ ، كَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا ، يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ ، وَيُنَبِّئُنَا إِذَا اسْتَنْبَأْنَاهُ ، وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيْبِهِ إِيَّانَا ، وَقُرْبِهِ مِنَّا ، لَا نَسْكَادُ نَكَلْمَهُ لَهَيْئَتِهِ ، وَلَا نَبْتَدِّئُهُ لِعِظَمَتِهِ ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّينِ ، وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ ،

[١] السراب : ما تراه نصف النهار كأنه ماء .

[٢] عَفَنًا . من الوقر بالكسر وهو الحمل الثقيل أو أعم ، وأوفر الدابة إيقارًا .

[٣] يروى بالفاء والفاء ، فطمه وقطمه : قطمه ، وصبط في صبح الأعشى بالفاء ، وبالطاء المكسورة

وصف من قاطم كفرح : اشهى اللحم أو غيره . [٤] وفي صبح الأعشى : « ودَيْنِ لَزِمٍ » وأزم

كضرب وفرح : عض بالقم كله شديدًا . [٥] الضيقة : الفقر وسوء الحال ، ويفتح .

[٦] صداء كفراب : حى بالين . [٧] الغاية .

لا يطمع القَوِيُّ في باطله ، ولا يَيْئَسُ الضَّعِيفُ من عدله ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سُدُوْلَهُ ^(١) ، وغارت نجومُه ، وقد مثَّل في مخراجه قابضاً على لحيته ، يتماثل تَمَلُّمَل السَّليْم ^(٢) ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غُرِّي غيري ، ألي تَعَرَّضْتِ ، أم إلى تَشَوَّقْتِ ؟ هيهات هيهات ! قد باينتكَ ثلاثاً لا رَجْعَةَ فيها ، فَعُمُرُكَ قصير ، وَخَطَرُكَ ^(٣) حَقِير ، آه من قلة الزَّاد ، وَبُعْدُ السفر ، وَوَحْشَةُ الطريق ! » فبكى معاوية ، وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كَانَ كذلك ، فكيف حزنُكَ عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذُبِحَ وَاحِدُهَا في حجرها . (الأمل ٢ : ١٤٩ ، وسروج الذهب ٢ : ٤٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٢٧٦ ، وزهر الآداب ١ : ٤٧)

الوافدات على معاوية

٣٥٨ — وفود سودة بنت عمار على معاوية

وَفَدَتِ سَوْدَةُ ابْنَةُ عِمَارَةَ بن الأَشْجَرِ الهَمْدَانِيَّة ، على معاوية بن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه ، فَأَذِنَ لها ، فلما دخلت عليه سَلَّمَتْ ، فقال لها : كيف أَنْتِ يا بنة الأَشْجَرِ ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها : أَنْتِ القائلة لأخيك يوم صفين ؟ :

شَمَّرَ كَفِيعُ أَبِيكَ يَا بِنْتَ عِمَارَةَ يَوْمَ الطَّعْمَانِ وَمُلْتَقَى الْأَقْرَانِ
وَأَنْصُرْ عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَرَهْطَهُ وَأَقْصِدْ لِهِنْدٍ وَابْنِهَا بِهِوَانِ
إِنَّ الْإِمَامَ أَخَا النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلِمَ الْهَدَى وَمَنَارَةَ الْإِيمَانِ

[١] السدول جمع سدل بالضم والكسر : وهو السر . [٢] السليم : اللدوغ ، وسمى بذلك تفاؤلاً له بالسلامة ، كما تسمى البيداء مفارة : تفاؤلاً بالفوز . [٣] الخطر : القدر .

فَقَدِ الْجِيُوشَ وَسِرَّ أَمَامَ لَوَائِهِ قُدُّمَا بِأَبْيَضَ صَارِمٍ وَسِنَانٍ ^(١)

قالت : إى والله ، ما مثلى مَنْ رَغِبَ عن الحق ، أو اعتذر بالكذب ، قال لها : فما حَمَلَكَ على ذلك ؟ قالت : حُبُّ عَلَى عليه السلام ، واتباع الحق ، قال : فوالله ما أرى عليكِ من أثرٍ عَلَى شيئاً ، قالت : أُنْشِدُكَ الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى ، وتَذْكَار ما قد نُسِيَ ، قال : هيهات ! ما مثْلُ مَقَامِ أَخِيكَ يُنْسَى ، وما لقيتُ من أحد ما لقيتُ من قومك وأخيك ، قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كَانَ أَخِي خَفِيَ المَقَامَ ، ذليلَ المَسْكَانِ ، ولكن كما قالت الخنساء :

وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتِمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ ^(٢)

قال : صدقتِ ، لقد كَانَ كذلك ، فقالت : مات الرأسُ ومُتِرَ الذَّنْبُ ، وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما اسْتَعْفَيْتُ منه ، قال : قد فعلتُ ، فقولى حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين ، إِنَّكَ أصبحتَ للناسِ سَيِّدًا ، وَلَأُمُورِهِمْ مُتَقَادًا ، والله سَأَلْتُكَ عن أَمْرِنَا ، وما اقترض عليك من حَقِّنَا ، ولا تَزَالُ تُقَدِّمُ عَلَيْنَا مَنْ يَنْهَضُ بِعِزِّكَ ، وَيَبْسُطُ سُلْطَانَكَ ، فيَحْصِدُنَا حِصَادَ السُّذُبْلِ ، ويدوسنا دِيَامَ ^(٣) البقر ، وَيَسْؤُمُنَا ^(٤) الْحَسِيسَةَ ، وَيَسْلُبُنَا الْجَلِيلَةَ ، هذا ابنُ أَرْطَاةٍ ^(٥) قَدِيمِ بِلَادِي ، وقتل

[١] القدم : الشجاع ، وى بلاغات النساء : « فقه الختوف وسر أمام لوائه » .

[٢] العلم : الجبل . [٣] الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل . [٤] يكفنا .

[٥] هو بسر بن أَرْطَاة ، وقيل ابن أبي أَرْطَاة ، وكان معاوية و أيام عَلَى سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة عَلَى ويأخذ البيعة له ، فسار إلى المدينة ، ففعل بها أفعالا شنيعة ، وسار إلى اليمن ، وكان عليها عبيد الله ابن العباس من قبل عَلَى ، فهرب عبيد الله فزها بسر وذبح عبد الرحمن ، وقتل ابني عبيد الله وهما صعيان بين يدي أمهما عائشة بنت عبد المطلب ، فأصابها من ذلك حزن عظيم ، فأنشأت تقول :

يا من أحس بني الذين هما كالدريين تشظى عنهما الصدق

يا من أحس بني الذين هما سمى وقلبي ، فقلبي اليرم مختطف

يا من أحس بني الذين هما منع العظام ، ففنى اليوم مزدحف

رجالى، وأخذ مالى، ولولا الطاعة لكان فينا عزٌّ ومنعة، فإمّا عزلته عنا فشكرناك، وإمّا لا، فعرفناك، فقال معاوية: إِيَّاي تهتدين بقومك؟ والله لقد هممت أن احملك على قتب^(١) أشرس فأردك إليه، يُنفذُ فيك حكمه، فأطرقت تبكى، ثم أنشأت تقول:

صَلَّى الْإِلَهِ عَلَى رُوحٍ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونًا
قَدْ خَلَفَ الْحَقُّ لَا يَبْغِي بِهِ ثَمَنًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونًا

قال: ومن ذلك؟ قالت: على بن أبي طالب، رحمه الله تعالى، قال: وما صنع بك حتى صار عندك كذلك؟ قالت: أتيتهُ يوما في رجل ولأه صدقاتنا، فكان يديننا وبينه ما بين الغت^(٢) والسّمين، فوجدته قائما يُصَلِّي، فانقتل من الصلاة، ثم قال برأفةٍ وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم، إنّي لم أمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب، فكتب فيها:

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قَدْ جَاءَ ثَكْمُ يَبْنَةِ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، ^(٣) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْمُوا ^(٤)
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ، إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْفَظْ بِمَا فِي يَدِكَ مِنْ عَمَلِنَا ، حَتَّى يَأْتِيَ
مَنْ يَقْبِضَهُ مِنْكَ وَالسَّلَامَ . »

فأخذته منه والله ما خزّمه بخزّام، ولا ختمه بختّام^(٥) فقرأته، فقال معاوية:

[١] القتب: الإكاف الصغير على قدر سنام البئر، والمراد به هنا البعير لوصفه بالأشرس ففيه مجاز أو
الأشرس: الحشن الغليظ. [٢] الغت: المهزول. [٣] القسط: العدل. [٤] دثا يعشو عشا: أفسد.
[٥] الخزّام جمع خرامة بالكسر، وهي في الأصل: حلقة تجمل في أحد جانبي منخري البعير،
وخرامة الدل: سدير رقيق يخرم بين الشرايين، الختام: الطين يمتّ به على الشيء، (والخاتم:
ما يوضع على الطبة).

اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألي خاصة ، أم لقوى عامة ؟ قال : وما أنتِ وغيركِ ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء واللوم ، إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا يسعني ما يسع قومي ، قال : هيهات ! لمظكم^(١) ابن أبي طالب الجرأة على السلطان ، فبطيئاً ما تفتطمون ، وغرركم قوله :

فلو كنتُ بواباً على باب جنةٍ لقلتُ لهمدانِ ادخلوا بسلامٍ
وقوله : ناديتُ همدانَ والأبوابُ مغلقةً ومثلُ همدانِ سئى فتحة الباب^(٢)
كالهندِ وإني لم تفلل مزاربهُ وجهٌ جميلٌ وقلبٌ غيرُ وجاب^(٣)
اكتبوا لها ولقومها . (العقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥)

٣٥٩ - وفود أم سنان بنت خيشمة على معاوية

حبس مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة ، في خلافة معاوية ، غلاماً من بنى ليث في جناية جناها ، فأتمته جدة الغلام ، وهي أم سنان بنت خيشمة^(٤) المذحجية ، فكأتمته في الغلام فأغاظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها ، فقال لها : مرحباً بك يا بنت خيشمة ، ما أقدمكِ أرضنا ، وقد عهدتُك تشتميننا^(٥) ، وتخصين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا

[١] التلظ : الذنوق ، وأن يحرك الانسان لسانه في فمه بعد الأكل ، يتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم ما بقي في الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لمط فلاناً (بالتشديد) لماظة : أى شبيهاً يتلطفه ، ولمطه من حقه شبيهاً : أعطاه (والمامة تبدل الظاء ضادا) .

[٢] سناء ثمنية : سهله وفتحته . [٣] سيف هندواني بكسر الهاء ، ويجوز ضمها لإتباطا للدال منسوب إلى الهند ، ووجاب من وجب القلب وجيباً إذا خفق .

[٤] في صبح الأعشى « جشمية » ، وهو تحريف ، وتحريره : ما ذكرنا .

[٥] وفي بلاغات النساء : « تشتمين قربي » أى تبغضين .

يَسْفَهُونَ بَعْدَ حِلْمٍ ، وَلَا يَنْتَقِمُونَ بَعْدَ عَفْوٍ ، وَإِنْ أَوْلَى النَّاسُ بِاتِّبَاعِ مَا سَنَّ آبَاؤُهُ
لَأَنْتَ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، نَحْنُ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ قَوْلُكَ ؟

عَزَبَ الرُّقَادُ ، فَفُقِلَتِي لَا تَرَقُدُ وَاللَّيْلُ يُصْدِرُ بِالْهَمُومِ وَيُورِدُ^(١)

بِآلِ مَذْحِجٍ ، لَا مُقَامَ ، فَشَمَّرُوا إِنَّ الْعَدُوَّ لِيَآلٍ أَحَدَ يَقْصِدُ

هَذَا عَلَى كَالْهَلَالِ تَحْفُهُ وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعَدُ^(٢)

خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِنَّ يَهْدِيكُمْ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا

مَا زَالَ مُذْ شَهِدَ الْحُرُوبَ مُظْفَرًا وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ

قَالَتْ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا خَلَفًا بَعْدَهُ ، فَقَالَ
رَجُلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ : كَيْفَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ وَهِيَ الْقَائِلَةُ :

إِنَّمَا هَلَكْتَ أَبَا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيًا مَهْدِيًا

فَاذْهَبْ ، عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ مَا دَعَتْ فَوْقَ الْغُصُونِ حَمَامَةٌ قُمْرِيًا^(٣)

قَدْ كُنْتَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ خَلَفًا كَمَا أَوْصَى إِلَيْكَ بَنِي ، فَكُنْتَ وَفِيًّا

وَالْيَوْمَ لَا خَافَ يُؤَمِّلُ بَعْدَهُ هِيَهَاتَ نَأْمُلُ بَعْدَهُ إِنْسِيًّا

قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِسَانُ نَطَقٍ ، وَقَوْلٌ صَدَقَ ، وَلَنْ تَحْقُقَ فَيْكَ مَا ظَنَّنَاهُ ،
لِحَظِّكَ الْأَوْفَرِ ، وَاللَّهِ مَا أَوْرَثَكَ الشَّيْءَ^(٤) فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا هَؤُلَاءِ ،
فَأَدْحِضْ مَقَالَتَهُمْ ، وَأَبْعِدْ مَنْزِلَتَهُمْ ، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ تَرَدَّدَ مِنْ اللَّهِ قُرْبًا ،
وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ حُبًّا ، قَالَ : وَإِنَّكَ لَتَقُولِينَ ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهِ

[١] عزب : بعد .

[٢] سعد النجوم عشرة : سعد بلع (بضم ففتح) وسعد الأخبية ، وسعد الذابح ، وسعد السعود ،
وهذه الأربعة من منازل القمر ، وسعد ناضرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ككتاب ، وسعد الهما ،
كشجاع ، وسعد البارح ، وسعد مطر ، وهذه الستة ليست من المنازل .

[٣] ضرب من الحمام والجمع قاري . [٤] البض .

مأمثلك من مدح يبطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ،
وضمير قلوبنا ، كأن والله على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك .
قال : يمين ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبهم
استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حلمك ، وكريم عفوك ، قال : وإنيهما
يظمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل ما كنت عليه لعثمان
ابن عفان رحمه الله تعالى ^(١) . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟ قالت :
يا أمير المؤمنين إن مروان تبنك ^(٢) بالمدينة تبنك من لا يريد منها البراح ، لا يحكم
بعدل ، ولا يقضي بسنة ، يتبع غترات المساهين ، ويكشف عورات المؤمنين ،
حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كيت وكيت ، فألقمته أخشن من الحجر ، وألقته
أمر من الصبر ، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى
من هو أولى بالعضو منه ، فأتيته يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً ، وعليه
مُعدياً ^(٣) ، قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا
لها بإطلاقه . قالت : يا أمير المؤمنين ، وأني لى بالرجعة ، وقد نفد زادي ،
وكلت راحتي ؟ فأمر لها بإحالة موطاة ، وخمسة آلاف درهم .

(العقد الفريد ١ : ١٣١ ، وصح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

٣٦٠ - وفود بكارة الهلالية على معاوية

استأذنت بكارة الهلالية على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها وهو يومئذ
بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسننت ، وعشي ^(٤) بصرها ، وضعفت
قوتها ، ترعش بين خادمين لها ، فسلمت وجلست فرد عليها معاوية السلام ،

[١] تريد أنهما يأملان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان . [٢] تبنك به : أقام .

[٣] أعدام عليه : نصره ، وأعانه ، وقواه . [٤] ضعف .

وقال : كيف أنت يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال غَيْرِكَ الدهرُ ،
قالت : كذلك هو ذو غَيْرٍ^(١) ، من عاش كبير ، ومن مات قُوبر ، قال عمرو بن
العاص : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيدُ دونك فاحترف من دارنا سيفاً حُساماً في التراب دفينا
قد كنتُ أذخرُهُ ليوم كريهةٍ فاليوم أبرزه الزمان مَصُونَا

قال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابنَ هندٍ للخلافة مالكا ! هيهات ، ذاك - وإن أراد - بَعِيدُ
مَنْتِكَ نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشُّقا وسَعِيدُ

قال سعيد بن العاص هي والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أُمِّيَّةَ خاطبا
فاللهُ أَخْرَ مُدَّتِي فتناولت حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كلِّ يوم للزمانِ خَطِيبُهُم بين الجميع لآل أحمدَ حائبا

ثم سكّ القوم ، فقالت بكارة : نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني^(٢) ،
فقصُرَ مِحْجَتِي ، وكثُرَ عَجْجِي ، وَعَشَى بَصَرِي ، وَأَنَا وَاللهِ قائلةٌ ما قالوا ، لا أدفعُ
ذلك بتكذيب ، وما خفي عليك مني أكثر ، فامضِ لشأنك ، فلا خيرَ في
العيش بعد أمير المؤمنين ، فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك ،
اذكري حاجتك ، قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردّها إلى بلدها .

(العقد الفريد ١ : ١٣٠ ، وبلاغات النساء ص ٣٩)

[١] ذو أحداث . [٢] تناوبتي وتداولتني ، والمجبن : المما المعطوفة الرأس .

٣٦١ - وفود أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية

دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ، فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمّة ، فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت : « يابن أخى ، لقد كفرت يد النعمة ، وأسأت لابن عمك الصّحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك ، من غير بلاء كأن منك ولا من آبائك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعسّ الله منكم الجُدود ^(١) ، وأضرع ^(٢) منكم الخُدود ، وردّ الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فولّيتم علينا من بعده - وتحتجّون بقرايتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر - فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل في آل فرعون ، وكان على بن أبي طالب رحمة الله بعد نبينا صلى الله عليه وسلم بمنزلة هرون من موسى ^(٣) ، فغايئنا الجنة ، وغايئكم النار » .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيّتها العجوز الضالة ، وأقصري من قولك ، وغضّي من طرفك ، قالت : ومن أنت ، لا أمّ لك ؟ قال : عمرو بن العاص ، قالت : يابن الأخناء ^(٤) النابغة تتكلم ، وأمك كانت أشهر امرأة تغنى

[١] جمع حد وهو الخط . [٢] أدلّ ، وى بلاغات النساء « وأصغر » .

[٣] ورواية بلاغات النساء : « فكما أهل البيت أعظم الناس في الدين خطا ، وانصبا وقدرا ، حتى قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، مغفورا ذنبه ، مردوعا درجته ، شريفا عند الله مرضيا ، فصرنا أهل البيت مكّم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون ، يدبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : « يَابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي ،

وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي » ولم يجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمل ، ولم يسهل لنا وعمر .

[٤] رجل الخن وأمة الخناء : لم يحننا ، ولحن السقاء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجوزة فسدت ، ومن

بمكة ، وآخذهن لأجرة ! اربّع على ظلمك ، واعنّ بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في الأبواب من حسبها ، ولا كريم منصّبها ، ولقد ادعاك خمسة ^(١) نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أتاني ، فانظروا أشبههم به ، فألحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص بن وائل ، فلحقته به ، ولقد رأيت أمك أيام مني بمكة مع كل عبد عاهر ^(٢) ، فأتم بهم ، فإنك بهم أشبه . فقال مروان : كفى أيتها العجوز ، وأقصرى لما جئت له ، ساخ ! بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهدتك ، فقالت : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تتكلم ؟ فوالله لآنت إلى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم ، وإنك لشبهه في زُرقة عينيك ، ومُحرّة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته ^(٣) ، ولقد رأيت الحكم ماذا ^(٤) القامة ، ظاهر الإمّة ^(٥) ، سبط ^(٦) الشعر ، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتّان المُقرب ^(٧) ، فاسأل أمك تخبرك بشأن أهلك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جرأ على هؤلاء غيرك ، وإن أمك للاقالة يوم أُحد في قتل حمزة رحمة الله عليه :

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سمر ^(٨)
ما كان عن عتبة لي من صبر أبي وعمي وأخي وصهري ^(٩)

شتم العرب « يا بن اللخاء » كأنهم يقولون يا دنيء الأصل ، أو يا كيم الأم ، والذابضة أم عمرو ، وقد تقدمت — انظر ص ١٩ . [١] وفي بلاغات النساء « ستة » . [٢] فاجر .
[٣] الدمامة : الفج . [٤] ممتدا . [٥] الإمّة بالكسر ويفهم : الشأن والنمّة والمهيبة .
[٦] طويله . [٧] الأتّان : الحمار ، والمقرب التي قرب ولادها (فيكون بطناً كبيراً) .
[٨] السمر بالفتح مصدر سمر الحرب أي أوقدها ، وبالفهم : الجنون . [٩] قتلوا أربعهم يوم بدر : أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس — قيل اشترك في قتله عليّ ، وحمزة ، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب — وعمها شبة بن ربيعة — قتله حمزة — وأخوها الوليد بن عتبة — قتله عليّ — وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان — وليست هند أمه ، قيل اشترك في قتله حمزة ، وعليّ ، وزيد بن حارثة — .

شَفَيْتَ (وَحْشِيٌّ) غَلِيلَ صَدْرِي شَفَيْتَ نَفْسِي وَقَضَيْتَ نَذْرِي^(١)
فَشُكْرُ وَحْشِيٍّ عَلَى دَهْرِي حَتَّى تَرِمَ أَعْظَمِي فِي قَبْرِي^(٢)

فَأَجَبْتُهَا :

يَا بِنْتَ جَبَّارٍ عَظِيمِ الْكَفْرِ خَزَيْتِ فِي بَذْرِ وَغَيْرِ بَدْرِ
صَبَّحَكَ اللَّهُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ بِالْهَاشِمِيِّينَ الطَّوَالِ الزُّهْرِ^(٣)
بِكُلِّ قِطَاعٍ حُسَامٍ يَقْرِي حِمْزَةَ لَبَنِي ، وَعَلَى صَقْرِي

فقال معاوية لمروان وعمره : ويلكما ! أنتما عَرَضْتُمَانِي لَهَا ، وَأَسْمَعْتُمَانِي مَا أَكْرَه ،
ثُمَّ قَالَ لَهَا : يَا عَمَّةُ اقْصِدِي قَصْدَ حَاجَتِكَ ، وَدَعِي عَنْكَ أَسَاطِيرَ النِّسَاءِ ، قَالَتْ :
تَأْمُرُنِي بِأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، قَالَ : مَا تَصْنَعِينَ يَا عَمَّةُ بِأَلْفِي
دِينَارٍ ؟ قَالَتْ : أَشْتَرِي بِهَا عَيْنًا خَزْخَاةً^(٤) فِي أَرْضِ خَوَّارَةٍ^(٥) ، تَكُونُ لَوْلَدِ
الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضَعْتُهَا ، فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟
قَالَتْ : أَزَوِّجُ بِهَا فَتِيَانِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ مِنْ أَكْفَأِهِمْ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضَعْتُهَا ،
فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟ قَالَتْ : أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى غُثْرِ الْمَدِينَةِ ، وَزِيَارَةِ بَيْتِ اللَّهِ
الْحَرَامِ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضَعْتُهَا ، هِيَ لَكَ نَعْمٌ وَكَرَامَةٌ^(٦) ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ
لَوْ كَانَ عَلَيَّ مَا أَمَرَ لَكَ بِهَا ، قَالَتْ : صَدَقْتَ ، إِنْ عَلِيًّا أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَعَمِلَ بِأَمْرِ
اللَّهِ ، وَأَخَذَ بِهِ ، وَأَنْتَ ضَيَعْتَ أَمَانَتَكَ ، وَخُنْتَ اللَّهَ فِي مَالِهِ ، فَأَعْطَيْتَ مَالَ اللَّهِ
مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْحَقُوقَ لِأَهْلِهَا وَيَدَّهَا ، فَلَمْ تَأْخُذْ بِهَا ،

[١] وَحْشِيٌّ غُلَامٌ حَبِيرُ بْنُ مَطْعَمٍ قَاتَلَ حِمْزَةَ يَوْمَ أُحُدٍ . [٢] رَمَى الْعَظَمُ كَضْرَبَ وَأَرَمَ : بَنَى فَهُوَ رَمِيمٌ

[٣] الزُّهْرُ : الْحَسَنُ الْبَيْضُ الْوَجُوهُ . [٤] الْمَرْحَارُ : الْمَاءُ الْجَارِي ، أَيْ عَيْنُ مَاءٍ جَارِيَةٍ .

[٥] الْمُرَادُ أَرْضٌ سَهْلَةٌ تَصْلُحُ لِلزَّرْعَةِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : خَوَّارُ الْعَنَانِ ، أَيْ سَهْلُ الْمَعْطَفِ ، كَثِيرُ الْجَرَى .

[٦] يُقَالُ : نَعَمْ عَيْنٌ وَنَعْمَةٌ وَنَعَامٌ وَنَعِيمٌ بَفَتْحِهِمْ ، وَنَعْمَى وَنَعَامَى وَنَعَامٌ وَنَعَمٌ وَنَعْمَةٌ بِضَمِّهِمْ ، وَنَعْمَةٌ

وَنَعَامٌ بِكَسْرِهَا : أَيْ أَعْمَلُ ذَلِكَ لِإِنْعَامِ لَبَنِيكَ وَإِلَّا كَرَامًا .

ودعانا (أى على) إلى أخذ حقنا ، الذى فَرَضَ الله لنا ، فَشْغِلْ بِحَرْبِكَ عَنْ وَضْعِ
الْأُمُورِ مَوَاضِعَهَا ، وَمَا سَأَلْتُكَ مِنْ مَالِكَ شَيْئًا فَتَمَنَّ بِهِ ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ مِنْ حَقِّنا ،
وَلَا نَرَى أَخْذَ شَيْءٍ غَيْرِ حَقِّنا ، أَتَذْكَرُ عَلِيًّا ؟ فَضَّ اللَّهُ فَالَكُ^(١) ، وَأَجْهَدُ بِلَاءَكَ ،
ثُمَّ عَلَا بِكَأُوهَا وَجَعَلَتْ تَنْدُبُ عَلِيًّا ، فَأَمَرَ لَهَا بِسِتَةِ آلَافِ دِينَارٍ ، وَقَالَ لَهَا :
يَا عَمَّةُ ، أَنْفَقِي هَذِهِ فِيمَا تَحِبِّينَ ، فَإِذَا احْتَجَجْتَ فَاكْتُبِي إِلَى ابْنِ أَخِيكَ يُحْسِنُ
صَفَدَكَ^(٢) وَمَعُونَتَكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . (المقدّم القريب ١ : ١٣٤ ، بلاغات السماء ص ٣٢)

٢٦٢ — أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ، فدخلت عليه وعليها
ثلاثة دروع^(٣) (بُرُودٍ) تَسْحَبُهَا ذِرَاعًا ، قَدْ لَأَثَتْ^(٤) عَلَى رَأْسِهَا كَوْرًا
كَالْمَنْسَفِ ، فَسَلَّمَتْ وَجَلَسَتْ ، فَقَالَ لَهَا معاوية : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ صَفْوَانَ ؟
قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَتْ : ضَعُفْتُ بَعْدَ جَلْدٍ ،
وَكَسَلْتُ بَعْدَ نَشَاطٍ ، قَالَ : شَتَّانَ بَيْنَكَ الْيَوْمَ وَحِينَ تَقُولِينَ :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْثٍ	عَضِبَ الْمَهْزَةَ لَيْسَ بِالْخَوَارِ ^(٥)
أَسْرَجَ جَوَادِكَ مُسْرِعًا وَمُسَمَّرًا	لِلْحَرْبِ نَيْرَ مُعَرِّدٍ لِفِرَارِ ^(٦)
أَجِبِ الْإِمَامَ وَذُبْ تَحْتَ لَوَائِهِ	وَالْقَ الْمَدُوءَ بِصَارِمٍ بِتَّارِ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً	فَأَذُبُ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَّارِ

قَالَتْ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ ، وَمِثْلُكَ مِنْ عَفَا ، وَاللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ : « عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ ،

[١] تدعو عليه أى نذر الله أسنانك . [٢] الصفد : العطاء .

[٣] درع المرأة قميصها (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر .

[٤] اللوث عصب العمامة ، والكور لوث العمامة وإدارتها ، والمنسف ما ينفض به الحب : شئ طويل منصوب الصدر ، أعلاه مرتفع . [٥] العصب : السيف الفاطم ، والخوار من خار : إذا ضعف وكل .

[٦] عرّد تعريداً ، وعرد كسمع : هرب .

وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ » قَالَ : هيهات ، أما والله لو عاد لعُدْتِ ، ولكنه
اخْتَرِمَ^(١) منك ، قالت : أجل ، والله إني لعلی بيّنة من ربّي ، وَهُدًى من أمرى ،
قال : كيف كَانَ قولك حين قتل ؟ قالت : أنْسَيْتُهُ ، قال بعض جلسائه : هو والله
حين تقول :

يَا لِّلرَّجَالِ لِعُظْمِ هَوْلِ مُصِيبَةٍ فَدَحَتْ ، فليس مُصَابِئُهَا بِالْحَائِلِ^(٢)
الشمس كَاسْفَةٍ لِفَقْدِ إِمَامِنَا خير الخلائق والإمام العادل
يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطْيَ وَمَنْ مَشَى فوق التراب لمحتفٍ أو ناعِلٍ
حاشا النبيّ . لقد هَدَدْتُ قُورَاءَنَا فالحق أصبح خاضعاً للباطل^(٣)

فقال معاوية : قَاتِلِكِ اللَّهُ ! فَا تَرَكْتِ مَقَالاً لِقَائِلِ ، اذ كرى حاجتك ، قالت :
أما الآن فلا ، وقامت فَعَثَرَتْ ، فقالت : تَعِسَ شَانِيٌّ عَلَيَّ^(٤) ، فقال : زَعَمْتِ أَنْ
لَا ، قالت : هو كما علمت ، فلما كَانَ من الغد بعث إليها بجائزة . وقال : إذا
ضِيعَتْ الحِلْمُ فَمَنْ يَحْفَظُهُ ؟ (صبح الأعشى ١ : ٢٦١ ، بلاغات النساء ص ٧٨)

٣٦٣ ... دارمية الحجونية ومعاوية

وَحَجَّ معاوية سَنَةً من سِنِيهِ ، فسأل عن امرأة من بنى كِنَانَةَ كَانَتْ تنزل
بالحجون^(٥) ، يقال لها دَارِمِيَّةُ الْحَجُونِيَّةُ ، وَكَانَتْ سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر
بسلامتها ، فبعث إليها فجىء بها ، فقال : مَا حَالُكِ يَا بَنَّةَ حَامٍ ؟ فقالت : است
لِحَامٍ إِنْ عِبْتَنِي ، إنما أنا امرأة من بنى كِنَانَةَ ، ثمت من بنى أَيْيَك ، قال :
صَدَقْتِ ، أتدريين لِمَ بعثتُ إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيبَ إِلَّا اللَّهُ ، قال : بعثت

[١] هلك . [٢] التحوّل : المتغير . [٣] جمع القوة قوى ، وإنما قلت قوراء بالمد للضرورة .
[٤] أى مبعوضه . [٥] الحجون : جبل بعمالة مكة .

إِلَيْكَ لِأَسْأَلَكَ : عَلَامَ أَحْيَيْتَ عَلِيًّا وَأَبْغَضْتَنِي ، وَوَالَيْتَهُ وَعَادَيْتَنِي ؟ قَالَتْ : أَوْ
تُعَفِّنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا أُعْفِيكَ ، قَالَتْ : « أَمَا إِذَا أُبَيَّتْ فَإِنِّي أَحْيَيْتُ
عَلِيًّا عَلَى عَدْلِهِ فِي الرُّعْيَةِ ، وَقَسَمْتُهِ بِالسُّوِّيَّةِ ، وَأَبْغَضْتُكَ عَلَى قَتَالِ مَنْ هُوَ أَوْلَى
مَنْكَ بِالْأَمْرِ ، وَطَلَبْتُكَ ^(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِحَقِّ ، وَوَالَيْتُ عَلِيًّا عَلَى مَا عَقَدَ لَهُ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوِلَاةِ ^(٢) ، وَعَلَى حُبِّهِ الْمَسَاكِينَ ، وَإِعْظَامِهِ
لَأَهْلِ الدِّينِ ، وَعَادَيْتُكَ عَلَى سَفْكَكَ الدَّمَاءَ ، وَشَقَّكَ الْعَصَا ، وَجَوْرِكَ فِي الْقَضَاءِ ،
وَحَكْمِكَ بِالْهَوَى » .

قَالَ : فَلِذَلِكَ انْتَفَخَ بَطْنُكَ ، وَعَظُمَ ثَدْيَاكَ ، وَرَبَّتْ عَجِيزَتُكَ ، قَالَتْ : يَا هَذَا
بِهِنْدٍ ^(٣) وَاللَّهِ كَانَ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي ذَلِكَ لِأَبِي ، قَالَ مُعَاوِيَةُ : يَا هَذِهِ ارْبَعِي ^(٤) ،
فَإِنَّا لَمْ نَقْلُ إِلَّا خَيْرًا ، إِنَّهُ إِذَا انْتَفَخَ بَطْنُ الْمَرْأَةِ تَمَّ خَلْقُ وَلَدِهَا ، وَإِذَا عَظُمَ ثَدْيَاهَا
تَرَوَّى ^(٥) رَضِيعُهَا ، وَإِذَا عَظُمَتْ عَجِيزَتُهَا رَزُنَ مَجْلِسُهَا ، فَرَجَعَتْ وَسَكَنَتْ ،
فَقَالَ لَهَا : يَا هَذِهِ هَلْ رَأَيْتِ عَلِيًّا ؟ قَالَتْ : إِي وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُ ، قَالَ : فَكَيْفَ
رَأَيْتِهِ ؟ قَالَتْ : رَأَيْتُهُ وَاللَّهِ لَمْ يَفْتِنْنِيهِ الْمَلِكُ الَّذِي فَتَنَّاكَ ، وَلَمْ تَشْغَلْهُ النِّعْمَةُ الَّتِي شَغَلَتْكَ ،
قَالَ : فَهَلْ سَمِعْتَ كَلَامَهُ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ وَاللَّهِ فَكَانَ يَجْلُو الْقُلُوبَ مِنَ الْعَمَى ، كَمَا
يَجْلُو الزَّيْتُ الطُّسْتُ مِنَ الصَّدَأِ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ؟ قَالَتْ :
أَوْ تَفْعَلْ إِذَا سَأَلْتُكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : تَعْطِينِي مِائَةَ نَاقَةٍ حَمْرَاءَ فِيهَا خُلُهَا ،
وَرَاعِيهَا ، قَالَ : تَصْنَعِينَ بِهَا مَاذَا ؟ قَالَتْ : أَغْذُو بِأَلْبَانِهَا الصَّغَارَ ، وَأَسْتَحْيِي بِهَا
الْكِبَارَ ، وَأُكْتَسِبُ بِهَا الْمَكَارِمَ ، وَأُصْلِحُ بِهَا بَيْنَ الْعَشَائِرِ ، قَالَ : فَإِنْ أُعْطِيتُكَ

[١] الطَّلَبَةُ : الطَّلَب . [٢] تشير إلى قوله : « اللَّهُمَّ وَالِاهُ مِنَ الْوَالِيَةِ ، وَعَادِ مِنْ عَادَاهُ » .

[٣] هي أمه هند بنت عتبة . [٤] رُبِعَ : وَقَفَ وَانْتَظَرَ وَتَحَبَّسَ . [٥] ارْتَوَى .

ذلك ، فهل أحلّ عندك محلّ عليّ بن أبي طالب ؟ قالت : ماء ولا كصداء^(١) ،
ومرعى ولا كالسعدان^(٢) ، وفتي ولا كالك^(٣) ، سبحان الله أو دونه ، فأنشأ
معاوية يقول :

إذا لم أعذ بالحلم مني عليكم فمن ذا الذي بعدى يؤمّل بالحلم
خذيها هنيئاً ، واذكري فعل ما جدي جزاك على حرب العداوة بالسلم
ثم قال : أما والله لو كان عليّ حياً ما أعطاك منها شيئاً ، قالت : لا والله ولا وبرّة
واحدة من مال المسلمين (الهدالهريد : ١ : ١٣٢ ، وصح الأعرشي : ١ : ٢٥٩ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

٣٦٤ — شداد بن أوس ومعاوية

وأمر معاوية شداد بن أوس الطائي أن يتنقّص عليّاً ، فقام فقال :
« الحمد لله الذي افترض طاعته على عباده ، وجعل رضاه عند أهل التقوى
آثر من رضا خلقه ، على ذلك مضى أولهم ، وعليه يمضي آخرهم ، أيها الناس :

[١] صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . ويروى عن ابنة مانيّ بن قبيصة : أنه لما قتل
أقيط بن زرارة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، وكان لا يزال يراها تذكر أقيطاً ، فقال لها ذات
مرة : ما استحدثت من أقيط ؟ قالت : كل أموره حس ، ولكي أحدثك أنه خرج إلى الصيد مرة وقد
اتقى بي ، فرجع إليّ ، وشمي به اضح من دماء صيد ، والمسك يصوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من
فيه ، فصنيت ضمة ، وشميت شمة ، فليتنى من شمة ، فعمل روحها مثل ذلك ثم صمها ، وقال لها : أين أنا
من أقيط ؟ قالت : ماء ولا كصداء .

[٢] السعدان : بنت ذو شوك ، وهو من أصل مراعي الابل ، ولا نحسن على نبت حسنها عليه ،
وأول من قال ذلك الحسناء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ، فوجدت الناس مجتمعين
على هند بنت عتبة بن ربيعة ، ففرحت عنّا وهي تاشدهم مرأى في أهل بيتها ، فلما دنت منها قالت : علي من
تبكين ؟ قالت : أبكي سادة مضوا ، قالت : فأشدني مض ما قلت ، فأشدتها ، فقالت الحسناء : مرعى
ولا كالسعدان ، ثم أشدتها ما رنت به أخاها صخرا . وقيل إن المثل لامرأة من طيء كان تزوجها امرؤ
القيس بن حجر الكندي ، وكان مفرّجاً (بفتح الراء تبعه الذاء) فقال لها : أين أنا من زوجك الأول ؟
فألت : مرعى ولا كالسعدان . [٣] قاله متم بن نويرة في أخيه مالك لما قتل في الردة . والأمثال الثلاثة
تضرب للشئ يفضل على أقرانه .

إِنَّ الْآخِرَةَ وَعْدٌ صَادِقٌ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ ، وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، وَإِنَّ السَّامِعَ الْمَطِيعَ لِلَّهِ لَا حُجَّةَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ السَّامِعَ الْعَاصِيَ لِلَّهِ لَا حُجَّةَ لَهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ صَلَاحًا عَمِلَ عَلَيْهِمْ صَلَاحًاوَهُمْ ، وَقَضَى بَيْنَهُمْ فَقَهَاوَهُمْ ، وَمَلَكَ الْمَالَ سَمَحًاوَهُمْ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِمْ شَرًّا ، عَمِلَ عَلَيْهِمْ سُفَهَاوَهُمْ ، وَقَضَى فِيهِمْ جَهْلًاوَهُمْ ، وَمَلَكَ الْمَالَ بُخْلًاوَهُمْ ، وَإِنْ مِنْ صَلَاحِ الْوَلَاةِ أَنْ يَصْلُحَ قُرْنَاوُهَا ، وَنَصَحَ لَكَ يَا مَعَاوِيَةُ مَنْ أَسَخَطَكَ بِالْحَقِّ ، وَغَشَّكَ مَنْ أَرْضَاكَ بِالْبَاطِلِ .

قال : اجلس رحمك الله قد أمرنا لك بمال ، قال : « إِنْ كَانَ مِنْ مَالِكَ الَّذِي تَعَهَّدْتَ جَمْعَهُ مَخَافَةَ تَبِعَتِهِ ، فَأَصْبَتَهُ حِلَالًا ، وَأَنْفَقْتَهُ إِفْضَالًا ، فَتَنَعَمَ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا شَارَكَكَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ ، فَاحْتَجَجْتَهُ ^(١) دُونَهُمْ فَأَصْبَتَهُ اقْتِرَافًا ، وَأَنْفَقْتَهُ إِسْرَافًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)



وروى أن معاوية قال له : « يا شداد ، أَنَا أَفْضَلُ ، أَمْ عَلِيٌّ ؟ وَأَيْنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ » ، فَمَالَ : « عَلِيٌّ أَقْدَمُ هِجْرَةً ، وَأَكْثَرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْخَيْرِ سَابِقَةً ، وَأَشْجَعُ مِنْكَ قَلْبًا ، وَأَسْلَمُ مِنْكَ نَفْسًا ، وَأَمَّا الْحُبُّ ، فَقَدْ مَضَى عَلِيٌّ ، فَأَنْتَ الْيَوْمَ عِنْدَ النَّاسِ أَرْجَى مِنْهُ » .

(حيون الأخبار م ٢ : ص ٢١١)

٣٦٥ — معاوية ورجل من أهل سبأ

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : « مَا كَانَ أَجْهَلَ قَوْمِكَ ، حِينَ مَلَكَوْا عَلَيْهِمْ امْرَأَةً » ، فَقَالَ : « بَلْ قَوْمِكَ أَجْهَلُ ، قَالُوا حِينَ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَرَاهُمُ الْيَدِينَاتِ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ

فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا بَعِذَابٍ أَلِيمٍ» ، أَلَا قَالُوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَهْدِنَا لَهُ ! » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٣٦٦ — حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحجر بن عبد الممدان

سأل معاوية بعد الاستقامة ^(١) عبد الله بن عبد الحجر بن عبد الممدان فقال له :

كيف علمك بقومك ؟ قال : كعلمي بنفسي ، قال : ما تقول في مُرَاد ؟ قال :

مُدْرِكُ الْأَوْتَارِ ^(٢) ، وَحِمَاةُ الدِّمَارِ ، وَنَحْرُزُو الحِطَارِ ، قال : فما تقول في النَّخَع ؟

قال : مَا نَعُو السَّرْبَ ^(٣) ، وَمُسْنَعِرُو الحرب ، وَكَاشِفُو السَّكَبِ ، قال : وما تقول

في بني الحَرِثِ بن كَعْب ؟ قال : فَرَّاجُو اللَّسَاكِ ^(٤) ، وَفُرْسَانُ الْعِرَاكِ ، وَلِزَازُ

الضُّكَاكِ ، تَرَاكِ تَرَاكِ ، قال : فما تقول في سَعْدِ الْعَشِيرَةِ ؟ قال : مَا نَعُو الضَّيْمِ ،

وَبَانُو الرَّيْمِ ^(٥) وَشَافُو الْغَيْمِ ، قال : ما تقول في جُعْفِيٍّ ؟ قال : فُرْسَانُ الصَّبَاحِ ^(٦) ،

وَمُعَلِّمُو الرَّمَاكِ ، وَمُبَارِزُو الرِّيَّاحِ ، قال : ما تقول في بني زُيَيْدِ ^(٧) ؟ قال : كُفَاةٌ

أَنْجَادٌ ، سَادَاتُ أَهْجَادٍ ، وَقُرْمٌ ^(٨) عِنْدَ الدِّيَادِ ، صُبْرٌ عِنْدَ الطَّرَادِ ، قال : ما تقول في

جَنْبٍ ؟ قال : كُفَاةٌ يَمْنَعُونَ عَنِ الْحَرِيمِ ، وَيَقْرِجُونَ عَنِ الْكَظِيمِ ^(٩) ، قال : فما

[١] أى بعد استقامة الأمر له : عام الجماعة . [٢] جمع وتر : وهو الثَّارُ ، والدِّمَارُ : ما يلزمك

حفظه وحمايته ، والحِطَارُ جمع خطر بالتحريك : وهو السبق يتراحم عليه .

[٣] السرب : ما رمى من المال . [٤] اللسك : الرغام ، ومثلها الضكك ، ولزمه كرده : شدة

والأفة ، والراز ككتاب : خشبة يلزمها الباب ، وفلان راز العظام : أى يلزمها ويقرب ليدلها ، ومنه

قول لبيد :

إنا إذا التفت المحامع لم يزل مما لراز عطيه حشامها

وتراك : اسم فعل بمعنى اترك ، والأمر هنا للمعظم ، أى دع هؤلاء ولا تتحدث بشأنهم ، فأنهم فى أسمى

مكان . [٥] الريم : الدرجة والعصل والزيادة ، واليم : العطش . [٦] الفارة .

[٧] ضبط فى الأمالى بفتح الراء ، وهو خطأ ، زيد كريب : بطن من منجج ، رهط عمرو بن

مديكر ، وكأمية بلد باليمن ، وكفاة جمع كفى : وهو الشجاع أو لاس السلاح ، والأنجاد جمع نجد كشمهم

وكتف ورجل : الشجاع الماضى فيها بمعز غيره . [٨] وتر جمع وقور ، وصبر جمع صبور ، والدياد

والنود : الدمع . [٩] الكظيم والمكطوم : المكروب .

تقول في صداء؟ قال : سِمامُ الأعداء ، وَمَسَاعِيرُ الهَيْجَاءِ^(١) ، قال : فما تقول في رهاء؟ قال : مُنْهَنِيهِونَ^(٢) عادية الفوارس ، وَيَرِدُونَ الموتَ وَرَدَ الْخَوَامِسِ^(٣) ، قال : أنت أعلم بقومك . (الأمل ١ : ١٦٠)

٣٦٧ — حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية

دخل الخيار بن أوفى النهدي على معاوية ، فقال له : يا خيار كيف تجدك ، وما صنع بك الدهر؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، صدع الدهر قناتي ، وَأَثْكَكَلَنِي لِدَاتِي^(٤) ، وأوهى عمادي ، وَشَدَّبَ سَوَادِي ، وأسرع في تِلَادِي^(٥) ، ولقد عِشْتُ زَمَنًا أَضْيَى الْكَعَابِ^(٦) ، وَأَسْرَّ الْأَصْحَابِ ، وَأَجِيدُ الضَّرَابِ^(٧) ، فبان ذلك عَنِّي ، ودنا الموت مني ، وأنشأ يقول :

كَأَنِّي شَتِيمٌ بِاسِلُ الْقَلْبِ خَادِرُ ^(٨)	غَبَرْتُ زَمَانًا يَرْهَبُ الْقِرْنُ جَانِبِي
وَيُكْرِمُنِي قِرْنِي وَجَارِي الْمَجَاوِرُ	يَخَافُ عَدُوِّي صَوَاتِي وَيَهَابُنِي
كَأَنِّي غُضْنٌ نَاعِمِ النَّبْتِ نَاضِرُ ^(٩)	وَتُضَيِّبُ الْكَعَابَ لِمَتِي وَشِمَائِلِي
كَأَنِّي قَنَاءٌ أَطْرَسُهَا الْمَاطِرُ ^(١٠)	فَبَانَ شِيبَابِي ، وَاعْتَرَتْنِي رَثِيَّةٌ
لَدَى الْمَشْيِ قَرَمٌ قَيْدُهُ مُتَقَاصِرُ ^(١١)	أَدِبٌ إِذَا رُمْتُ الْقِيَامَ كَأَنَّنِي
لَهُ سَائِقٌ يَسْعَى بِذَاكَ وَنَاطِرُ	وَقَصُرَ الْفَتَى شَيْبٌ وَمَوْتَ كِلَاهِمَا
رَهِينٌ أُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَادِرُ	وَكَيْفَ يَلْكَدُ الْعَيْشُ مَنْ لَيْسَ زَائِلًا

[١] الهيجاء : الحرب ، وهو مسعر حرب (كدرهم) أي موقد نارها . [٢] يكفون .

[٣] المحس بالكسر : أي ترمي الإبل ثلاثة أيام ، وترد الرابع ، وهي لابل خوامس .

[٤] اللدة : من ولد مذك . [٥] الثلاث : المال القديم . [٦] كعب ثدي الجارية : نهدي ، وهي كعب وكعاب . [٧] ضرب الفحل صرابا : نكح . [٨] القرون : كفؤك في الشجاعة أو عام ، والشقيم : الأسد العابس ، والحدر : أجة الأسد . ومنه أسد خادر . [٩] اللة : الشعر المجاوز شحمة الأذن . [١٠] الرثية : وجع المماصل واليدين والرجلين . والأطر والتأطير : عطف الشيء ، وتأطر الريح : تلى واعوج . [١١] القرم : الفحل .

فقال معاوية : أحسنت القول ! واعلم أن لها مصادر ، فنسأل الله أن يجعلنا من
الصادرين بخير ، فقد أوردنا أنفسنا مواردَ تَرغب إلى الله أن يُصَدِّرنا عنها وهو راض .
(الأمل ٢ : ٩٤)

٣٦٨ — حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية

قال معاوية عرابة بن أوس بن حارثة الأنصاري : بأى شئ سئدت قومك
يا عرابة ؟ قال : أخبرك يا معاوية بأنى كنت لهم كما كان حاتم لقومه . قال :
وكيف كان ؟ فأنشدته :

وأصبحتُ في أمرٍ العَشيرةِ كلِّها كَذِي الحِلْمِ يُرْضَى ما يقول ويُعرَف
وذاك لأَنِّي لا أعادي سَرَاتهم ولا عن أخى ضَرَّاءَهم أتَنكَّفُ^(١)
وإني لأُعْطِي سَائِلِي ، وَلرَبِّمَا أَكَلَّفُ ما لا أُسْتَطِيعُ فأُكَلِّفُ
وإني لمَذْمومٌ إذا قِيلَ : حاتم نَبأ نَبوَّةً ، إن الكريم يُعَنِّفُ
ووالله إني لأَعْفُو عن سَفِيهِهم ، وَأَحْلُمُ عن جَاهِلِهِم ، وَأَسْعَى في حَوَائِجِهِم ، وَأُعْطِي
سَائِلِهِم ، فَمَنْ فَعَلَ فَعَلِي فهو مثلي ، وَمَنْ فَعَلَ أَحْسَنَ مِنْ فَعَلِي فهو أَفْضَلُ مِنِّي ،
وَمَنْ قَصَّرَ عَن فَعَلِي فَأَنَا خَيْرُ مَنْهُ ، فقال معاوية : لقد صدق الشَّماخ حيث
يقول فيك :

رَأَيْتَ عَرَابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسْمُو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما رَايَهُ رُفِعَتْ لِمَجْدِهِ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ
(الأمل ١ : ٢٧٧)

٣٦٩ — سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه على معاوية ، وابنه يزيد إلى

[١] أى أمتنع منه وآنف .

جانبه ، فقال له : « ائتمنك أبى واصطنعك ، حتى بلغك باصطناعه إياك المَدَى الذى لا يُجَارَى ، والغاية التى لا تُسَامَى ، فاجازيت أبى بالآله ، حتى قدّمتَ هذا عَلَى ، وجعلتَ له الأمر دونى - وأوماً إلى يزيد - والله لأبى خير من أبيه ، وأبى خير من أمه ، ولأنا خير منه » ، فقال معاوية : « أمّا ما ذكرتَ يا بن أخى من قواثر آلئكم عَلَى ، وتظاهر نعمائكم لى ، فقد كان ذلك ، ووجب عَلَى المكافأة والمجازاة ، وكان شكرى إياه أن طلبتُ بدمه ، حتى كابدتُ أهوال البلاء ، وغشيتُ عساكر المنايا ، إلى أن شُفيتُ حَزَازاتُ الصدور ، وتجلّتُ تلك الأمور ، واستُ لنفسى باللائم فى التشمير ، ولا الزّارى ^(١) عليها فى التقصير ، وذكرتُ أن أباك خير من أبى هذا - وأشار بيده إلى يزيد - فصدقتُ ، لعمر الله لعثمان خير من معاوية ، أكرم كريماً ، وأفضل قديماً ، وأقرب إلى محمد صلى الله عليه وسلم رَحِمًا ، وذكرتُ أن أمك خير من أمه ، فلمرى إن امرأة من قریش خير من امرأة من بنى كلب ، وذكرتُ أنك خير من يزيد ، فوالله يا بن أخى ما يسرنى أن القُوطة ^(٢) عليها رجال مثلُ يزيد .

فقال له يزيد : مه يا أمير المؤمنين ، ابنُ أخيك استعمل الدالة عليك ، واستعبتك لنفسه ، واستزاد منك فزده ، وأنجلَ له فى ردك ، وأنجلَ على نفسك ، وولّه خراسان بشفاعتى ، وأعنه بمال يُظهر به مَوْرُوثه ، فولاه معاوية خراسان ، وأجازه بمائة ألف درهم ، فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٦ . والإمامة والسياسة ١ : ١٣٩)

٣٧٠ — مصقلة بن هبيرة ومعاوية

مرض معاوية مرضاً شديداً ، فأرجف به مصقلة بن هبيرة ، وساعده قوم

[١] زرى عليه : طابه . [٢] مدينة دمشق أو كورتها .

على ذلك ، ثم تَمَّأَل (١) ، وهم في إرجافهم ، فحمل زيادُ مصقلةً إلى معاوية ، وكتب إليه أنه يجمعُ مرَّاقاً من مرَّاق العراق ، فيُرْجِفون بأمير المؤمنين ، وقد حملتهُ إليه ليرى رأيه فيه ، فقدم مصقلة ، وجلس معاوية للناس ، فلما دخل عليه ، قال : ادنُ مني ، فدنا منه ، فأخذ بيده فجذبه فسقط مصقلة ، فقال معاوية :

أَبَقِيَ الْحَوَادِثُ مِنْ خَلِيلِكَ مِثْلَ جَنْدَلَةِ الْمَرَّاجِمِ (٢)

صُلْبًا إِذَا خَارَ الرِّجَالُ لُ أَبْلٍ مَمْتَنِعِ الشَّكَاثِمِ (٣)

قد رامني الأعداء قبلك فامتنعتُ من المظالم

فقال مصقلة : « يا أمير المؤمنين ، قد أبقي الله منك ما هو أعظم من ذلك بَطْشًا وَجِلْمًا راجحًا ، وَكَلاَّ وَمرعى لأوليائك ، وَسَمًا ناعِمًا لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوك سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين » وقام ، فوصله معاوية ، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة ، فقيل له : كيف تركت معاوية ؟ فقال : زعمت أنه كبير وضعف ، والله لقد غمزني غمزة كَادَ يَحْطِئُنِي ، وجذبني جذبة كَادَ يَكْسِرُ عَضْوًا مِنِّي .

(زهر الآداب ١ : ٥٧ ، والأمالى ٢ : ٣١٥)

٣٧١ — روح بن زنباع ومعاوية

وَوَلَّى معاوية رُوحَ بن زنباع ، فَعَتَبَ عليه في جناية ، فكتب إليه بالقدوم ، فلما قدم أمر بضربه بالسَّيَّاط ، فلما أقيم ليضرب قال : « نَشَدْتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَهْدِمَ مِنِّي رَكْنًا أَنْتَ بَنَيْتَهُ ، وَأَنْ تَضَعَ مِنِّي خَسِيسَةً أَنْتَ رَفَعْتَهَا

[١] تَمَّأَلُ اللَّيْلُ : قارب البرء . [٢] الْجَنْدَلُ : الحجارة ، والواحدة جندلة .

[٣] الْأَبْلُ : الممتنع ، والألذ : الجدل ، والشكاثم جمع شكيمة : وهي من اللجام الحديدية المعترضة في فم الفرس ، وفلان شديد الشكيمة : أنف أبي لا يتقاد .

أَوْ تَشْمِيتَ بِي عَدُوًّا أَنْتَ وَقْتَهُ ^(١) ، وَأَسْأَلُكَ بِاللَّهِ إِلَّا أَتَى حَلْمُكَ وَعَفْوُكَ دُونَ
إِفْسَادِ صَنَائِعِكَ » ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : إِذَا اللَّهُ سَنَى عَقْدَ أَمْرٍ تَبَدَّرَا ، خَلُّوا سَبِيلَهُ .
(الأمالي ٢ : ٢٥٩ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٤)

٣٧٢ - مَخَاصِمَةُ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَامْرَأَتِهِ بَيْنَ يَدَيِ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ
جَرَى بَيْنَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ كَلَامٌ ، فِي ابْنِ كَانَ لَهَا مِنْهُ ، وَأَرَادَ
أَخْذَهُ مِنْهَا ، فَسَارَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ وَالِي الْبَصْرَةِ .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، هَذَا ابْنِي ، كَانَ بَطْنِي وَِعَاءَهُ ، وَحِجْرِي
فِنَاءَهُ ، وَتَذَنِي سِقَاءَهُ ^(٢) ، أَكَلَوُهُ ^(٣) إِذَا نَامَ ، وَأَحْفَظُهُ إِذَا قَامَ ، فَلَمْ أَزَلْ
بِذَلِكَ سَبْعَةَ أَعْوَامَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوَيْ فِصَالُهُ ^(٤) ، وَكَمَلَتْ خِصَالُهُ ، وَاسْتَوَكَمَتْ ^(٥)
أَوْصَالُهُ ، وَأَمَلْتُ نَفْعَهُ ، وَرَجَوْتُ دَفْعَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنِّي كَرِهًا ^(٦) ، فَأَذَنِي ^(٧)
أَيُّهَا الْأَمِيرَ ، فَقَدْ رَامَ قَهْرِي ، وَأَرَادَ قَسْرِي ^(٨) . »

فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : « أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، هَذَا ابْنِي حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتُهُ
قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَيْهِ فِي أَدْبِهِ ، وَأَنْظُرُ فِي أَوْدِهِ ، وَأَمْنَحُهُ عِلْمِي ، وَأُلْهِمُهُ
حِلْمِي ، حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ ، وَيَسْتَحْكَمَ قَتْلُهُ . »

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « صَدَقَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، حَمَلَهُ خِفًّا ^(٩) ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعْتُهُ
شَهْوَةً ، وَوَضَعْتُهُ كَرِهًا . »

فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : ارْجِعْ عَلَى الْمَرْأَةِ وَلِدْهَا ، فَهِيَ أَحَقُّ بِكَ مِنْكَ ، وَدَعْنِي مِنْ

[١] وقته : قهره وأذله . وفي زهر الآداب : « كَبَّتْهُ » . [٢] السقاء : جلد السحلة يكون
للإماء والابن . [٣] أَرَامَ . [٤] فطامه . [٥] اشتدت ومنف . [٦] الإماء والمشقة
بالفتح والفهم ، أُرِ بالفتح ما أكرهك غيرك عليه ، وبالضم ما أكرهت نفسك عليه .
[٧] آداه على فلان : أهداه وأطانه . [٨] الإكرام . [٩] الحف : الخفيف .

سجلك . أوقال : « إنها امرأة عاقلة يا أبا الأسود ، فادفع ابنها إليها ، فأخلق
أن تحسن أدبه » . (الأمل ٢ : ١٤ ، وأمل السيد المرتضى ١ : ٢١٤)

٣٧٣ — صورة أخرى

وروى أحمد بن أبي طاهر طيفور هذا الخبر بصورة أطول وهاكها :
قال أبو محمد القشيري : كان أبو الأسود الدؤلي من أكبر الناس عند معاوية بن
أبي سفيان ، وأقربهم مجلساً ، وكان لا ينطق إلا بعقل ، ولا يتكلم إلا بعد فهم ، فيينا هو
ذات يوم جالس ، وعنده وجوه قريش وأشرف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود
الدؤلي ، حتى حاذت معاوية ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله
وبركاته ؛ إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورفيقاً على العباد ، يُستسقى بك المطر ،
ويُستنبت بك الشجر ، وتؤلف بك الأهواء ، ويأمن بك الخائف ، ويُردع
بك الجانف ^(١) ، فأنت الخليفة المصطفى ، والإمام المرتضى ، فاسأل الله لك النعمة
في غير تغيير ، والعافية من غير تعذير ^(٢) . قد ألجأني إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ
ضاق عليّ فيه المنهج ، وتفاقم عليّ منه المخرج ، لأمر كرهت عاره ^(٣) ، لما
خشيت إظهاره ، فليُنصِفني أمير المؤمنين من الخصم ، فإنني أعوذ بعقوته ^(٤)
من العار الويل ، والأمر الجليل ، الذي يشتد على الحرائر ، ذوات البعول
الأجائر ^(٥) ، فقال لها معاوية : ومن بعلك هذا الذي تصفين من أمره المنكر ،
ومن فعله المشهر ^(٦) ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدؤلي ، فالتفت إليه فقال : يا أبا

[١] المائل : الجائر . [٢] أي من غير نقص ، من عذر في الأمر تعذيراً : إذا قصر ولم يجتهد
(أو من غير تشويه من عذر الشيء : لطفه بالمعذرة كفرحة) . [٣] تكى بذلك عن طلاقها .
[٤] العقوة : ماحول الدار . [٥] البعول والبعولة جمع بعل وهو الزوج ، والأجائر جمع أجور ،
أفعل تفضيل من جار . [٦] شهره كذبه ، وشهره بالتشديد : أظهره في شناعة .

الأسود: ما تقول هذه المرأة؟ فقال أبو الأسود: هي تقول من الحق بعضاً، ولن يستطيع أحدٌ عليها نقضاً؛ أما ما ذكرت من طلاقها فهو حق، وأنا أنخبّر أمير المؤمنين عنه بالصدق، والله يا أمير المؤمنين ما طلقتُها عن ريبةٍ ظهرت، ولا لأى هفوةٍ حضرت، ولكنى كرهت شمائلها، فقطعتُ عنى حبائلها، فقال معاوية: وأى شمائلها يا أبا الأسود كرهت؟ قال: يا أمير المؤمنين: إنك مهيّجها على بجواب عتيد^(١)، ولسان شديد، فقال معاوية: لأبدلك من محاورتها، فاردد عليها قولها عند مراجعتها، فقال أبو الأسود: «يا أمير المؤمنين، إنها كثيرة الصخب، داثة الذرب^(٢)، مهيئة للأهل، مؤذية للبعل، مسيئة إلى الجار، مظهرة للعار، إن رأيت خيراً كتمته، وإن رأيت شراً أذاعته»، فقالت: «والله لولا مكانُ أمير المؤمنين، وحضورُ من حضره من المسلمين، لرددتُ عليك بوادٍ كلامك، بنوافذ أقرعُ بها كلَّ سِهامك^(٣)، وإن كان لا يجمل بالمرأة الحرة أن تشتم بَملًا، ولا أن تُظهر لأحدٍ جهلاً، فقال معاوية: عزمتُ عليك لما أجبتَه، فقالت: «يا أمير المؤمنين، ما علمته إلا ستؤلا جهولاً، مُلِحًا بخيلاً^(٤)، إن قال فشرُّ قائل، وإن سكت فذو دغائل^(٥)»، لَيْتَ حينَ يأمن، وثعلب حين يخاف، شحيح حين يُضاف^(٦)،

[١] حاصر مهيأ . [٢] الصخب: شدة الصوت، والذرب: حدة اللسان وبداءته .

[٣] البوادر جمع بادرة، وهي ما يندبر من حدتك في الغضب من قول أو فعل، بنوافذ أى بهجج نافذة ماضية، وكل السيف وغيره فهو كل وكليل: لم يقطع .

[٤] وكان أبو الأسود معروفًا بالبعل، ومن طريف ما يروى عنه أن رجلاً قال له: «أنت والله ظرف لفظ، وظرف علم، ووعاء حلم، غير أنك بخيل» فقال: «وما خير ظرف لا يمسك ما فيه؟» وسلم عليه أقران يوما، فقال أبو الأسود: كلمة بقولة، يقال له: أناذن في الدخول؟ قال: وراءك أوسع لك، قال: فهل عندك شيء؟ قال: نعم، قال: أطمئنى، قال: عيالى أحق منك، هل: ما رأيت ألام منك! قال: نسيت نفسك . «أمالى الرافضى ١: ٢١٤» . [٥] دغائل: جمع دثيلة كدثينة والدغيلة والدغل بالتحريك: دخل في الأمر مفيد . [٦] ضافه يضيقه: نزل عليه ضيقاً .

إن ذكر الجود انقَمَعَ^(١) ، لِمَا يَعْرِفُ من قِصَرِ رِشَاءِهِ^(٢) ، ولو لم آباءه ، ضيفه جائع ، وجاره ضائع ، لا يحفظ جاراً ، ولا يحمي ذِمَّاراً ، ولا يُدرك ثاراً ، أكرم الناس عليه من أهانه ، وأهونهم عليه من أكرمه » ، فقال معاوية : سبحان الله لِمَا تَأْتِي به هذه المرأة من السجع ! فقال أبو الأسود : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنها مطلقة ، ومن أكثر كلاماً من مطقة ؟ فقال لها معاوية : إذا كان رَوَّاحاً^(٣) فتعالني أفصل بينك وبينه بالقضاء .

فلما كان الرواح جاءت ومعها ابنتها قد احتضنته ، فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينزع ابنه منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود ، لا تُعْجِلِ المرأة أن تنطق بحجتها ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحق بحمل ابني منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود دَعِهَا تَقُلْ ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، حملته قبل أن تحمله ، ووضعت قبل أن تضعه » ، فقالت : « صدق والله يا أمير المؤمنين : حمله خِفّاً ، وحملته ثِقَلًا ، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً ، إن بطني لَوِعَاؤُهُ ، وإن ثديي لَسِقَاؤُهُ ، وإن حجري لفِنَاؤُهُ » ، فقال معاوية : سبحان الله لِمَا تَأْتِي به ! فقال أبو الأسود : إنها تقول الأبيات من الشعر فتجيدها ، فقال معاوية : إنها قد غلبتك في الكلام ، فتكَلَّفْ لها أبياتاً لعلك تغلبها ، فأنشأ أبو الأسود يقول :

مَرْحَبًا بِالتِّي تَجُورُ عَلَيْنَا ثُمَّ سَهْلًا بِالْحَامِلِ الْمَحْمُولِ
أَغْلَقْتُ بِابْنِهَا عَلَى وَقَالَتْ : إِنَّ خَيْرَ النِّسَاءِ ذَاتُ الْبُعُولِ
شَغَلْتُ نَفْسَهَا عَلَى قَرَاغَا هَلْ سَمِعْتُمْ بِالْفَارِغِ الْمَشْغُولِ ؟

[١] انقمع : دخل البيت مستحياً . [٢] الرشاء في الأصل : الحبل .

[٣] أى إذا كان الوقت رواحاً ، والرواح : العشى .

فأجابته وهي تقول :

ليس من قال بالصَّوَاب وبالْحَقِّ كَمَنْ جَارَ عَنْ مَنَارِ السَّبِيلِ
كَانَ تَذِي سِقَاءِهِ حِينَ يُضْعَى ثُمَّ حَجَرِي فَنَاوُهُ بِالْأَصِيلِ
لَسْتُ أَبْنَى بِوَاحِدِي يَا بَنَ حَرْبٍ بَدَلًا مَا عَلِمْتُهُ وَالْخَلِيلِ^(١)
فأجابها معاوية :

ليس مَنْ غَذَاهُ حِينًا صَغِيرًا وَسَقَاهُ مِنْ تَذِيهِ بِخَذُولِ
هِيَ أَوْلَى بِهِ وَأَقْرَبُ رُحْمًا مِنْ أَيْيِهِ بِالْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ^(٢)
أُمُّهُ مَا حَنَتْ عَلَيْهِ وَقَامَتْ هِيَ أَوْلَى بِحَمَلِ هَذَا الضَّئِيلِ^(٣)

فقضى لها معاوية عليه ، واحتملت ابنها وانصرفت . (بلاغات النساء من ٥٣)

٣٧٤ — وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير

لما قَدِمَ الْأَحْنَفُ فِي وَجْهِهِ أَهْلُ الْبَصْرَةِ ، إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، تَكَلَّمَ
أَبُو حَاضِرِ الْأَسِيدِيِّ - وَكَانَ خَطِيبًا جَمِيلًا - فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ : اسْكُتْ
فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُلِّ عَشْرَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، صَرَفَ
الدينار بالدرهم ، قَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنْ لَنَا وَلَكَ مَثَلًا ، أَفْتَأَذُنُ فِي ذِكْرِهِ ؟ »
قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « مَثَلُنَا وَمَثَلُكَ وَمَثَلُ أَهْلِ الشَّامِ قَوْلُ الْأَعَشَى حَيْثُ يَقُولُ :
عُلَّقَتْهَا عَرَضًا وَعُلَّقَتْ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلَّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ^(٤)
أَحَبُّكَ أَهْلُ الْعِرَاقِ ، وَأَحَبُّتْ أَهْلَ الشَّامِ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الشَّامِ عَبْدُ الْمَلِكِ
ابْنُ مَرْوَانَ » (البيان والنبين ١ : ١٦٤)

[١] أى أقسم بخليل الله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . [٢] الرحم : الرحمة والرفقة والتمطف .
[٣] فى الأصل : « أم ما حنت عليه . . . » وهو تحريف ، إذ يختل وزن البيت .
[٤] علنى فلان امرأة (بالبناء للمجهول . مشدداً) : أحبها .

٣٧٥ — كلام خطيب الأزدي عبد الملك بن مروان

بعث الحجاج خطباء من الأحاس^(١) إلى عبد الملك بن مروان ، فتكلموا ، فلما انتهى الكلام إلى خطيب الأزدي ، قام فقال :

« قد علمت العرب أنا حتى فعال ، ولسنا بحى مقال ، وأنا نجزى بفعلنا عند أحسن قولهم ، إن السيوف لتعرف أكفنا ، وإن الموت لیسْتَعْذِبُ أرواحنا ، وقد علمت الحرب الزبون ، أنا نقرع جماحها ، ونحلب صراها^(٢) » ثم جلس^(٣).
(الأملی ٢ : ٢٥٩)

٣٧٦ — سؤال عبد الملك للحجاج وما أجاب به

ودخل العجاج^(٤) على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عجاج بلغنى أنك لا تقدر على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، من قدر على تشييد الأبنية ، أمكنه إخراج الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزاً يمنعنا من أن نُظْلَمَ ، وإن لنا حِلْماً يمنعنا من أن نُظْلِمَ ، فعَلَّامَ الهجاء ؟ فقال : لكلماتك أشعر من شعرك ! فأتى لك عزٌ يمنعك من أن تُظْلَمَ ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، قال : فما الحلم الذى يمنعك من أن تُظْلِمَ ؟ قال : الأدب

[١] الحس كفيل : الأمكنة الصلبة جمع أحس ، واقب به قريش ، وكسانة ، وجديلة ، ومن تابعهم فى الجمالية لمحبهم فى دينهم ، أو لاتبائهم بالحساء وهى الكعبة ، وأحاس العرب : من أمهاتهم من قريش ، وكانوا يتشددون فى دينهم ، وكانوا شعبان العرب لا يطاقون . [٢] الصرى : بقية اللبن .

[٣] وفى رواية الجاحظ : « قالوا : ولما قدمت خطباء نزار عند معاوية ، فذهبت فى الخطب كل مذهب ، قام صبرة بن شيمان فقال : « يا أمير المؤمنين : إنا حتى فعال ، واسنا حتى مقال ، ونحن نبلغ بهمانا أكثر من مقال غيرنا (البيان والتبيين ١ : ١٦٤) » وروى المبرد فى الكامل هذا القول عن صبرة أيضاً — انظر تهذيب الكامل ١ : ١٦ — ، وقد تقدم لك أن صبرة بن شيمان من الأزدي — انظر الجزء الأول ص ٢ : ٧ . [٤] هو العجاج بن ربيعة راجز مجيد مشهور مات سنة ٩٠ هـ .

المُسْتَظَرَف، والطَّبْع التَّالِد، قال : يا عجاج لقد أصبحتَ حكيماً . قال : وما
يعننى وأنا نَجِيٌّ^(١) أمير المؤمنين ؟ . (الأمل ٢ : ٤٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٤)

٣٧٧ — وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان

لما وَلِيَ الحجاج بن يوسف الحَرَمَيْن بعد قتله ابن الزبير، استخَصَّ إبراهيم
ابن محمد بن طَلْحَة، فقَرَّبَه وعَظَّم منزلته، فلم تزل تلك حاله عنده، حتى خرج
إلى عبد الملك بن مَرْوَان، فخرج معه مُعَادِلًا، لا يَقْصُرُ له في بَرٍّ وإِعْظَام، حتى
حضر به عبد الملك، فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام، إلا أن قال له :
« قَدِمْتُ عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَجُلِ الْحِجَازِ، لم أَدْعُ له بها نظيرًا في الفضل
والأدب، والمروءة، وحسن المذهب، مع قرابة الرَّحِم، ووجوب الحق،
وعِظَم قدر الأبوة، وما بلوتُ منه في الطاعة والنصيحة، وحُسن المؤازرة . وهو
إبراهيم بن محمد بن طلحة، وقد أحضرته بآبِكَ، لِيَسْهَلُ عليه إِذْنُكَ، وتعرف له
مَاعَرَفَتُكَ » . فقال : أَذْكَرْتَنَا رَحِمًا قَرِيبَةً، وَحَقًّا وَاجِبًا، يا غلامُ : ائذن لإبراهيم
ابن محمد بن طلحة، فلما دخل عليه أدناه عبد الملك، حتى أجلسه على فراشه، ثم
قال له : يَا بْنَ طَلْحَة، إِنْ أَبَا مُحَمَّدٍ (الحجاج) ذَكَرْنَا مَا لَمْ نَزَلْ نَعْرِفُكَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ
وَالْأَدَبِ، وَالْمَرْوَةِ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ، وَوَجُوبِ الْحَقِّ، وَعِظَمِ
قَدْرِ الْأَبَوَةِ، وَمَا بَلَاهُ مِنْكَ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَحَسَنِ الْمُوَازَرَةِ، فَلَا تَدَعَنَّ
حَاجَةً فِي خَاصَّةِ نَفْسِكَ وَعَامَتِكَ إِلَّا ذَكَرْتَهَا . فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَوَّلَ
الْحَوَائِجِ، وَأَحَقُّ مَا قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيِ الْأُمُورِ، مَا كَانَ لِلَّهِ فِيهِ رِضًا، وَلِحَقِّ نَبِيِّهِ صَلَّى

الله عليه وسلم أداء ، ولك فيه ولجاعة المسامين نصيحة ، وعندى نصيحة لا أجد
بُداً من ذكرها ، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خالٍ ، فأخلىنى يا أمير المؤمنين تَرِد
عليك نصيحتى ، قال : أدُونَ أبى محمد ؟ قال : نعم ، دون أبى محمد ، قال عبد الملك :
للحجاج قم ، فلما خَطَرَفَ ^(١) السَّترَ أقبل على إبراهيم ، فقال : يا بن طلحة قل
نصيحتك ، قال : بالله يا أمير المؤمنين لقد عَهِدَتِ إلى الحجاج فى تَغَطُّرُسه
وَتَعَجُّرُفه ، وَبُعْده من الحق ، وَقُرْبُه من الباطل ، فوليته الحرمين ، وهما ما هما
وبهما مَنْ بهما من المهاجرين والأنصار ، والمَوَالِى الأَخيار ، يسومُهم الخَسَفُ ^(٢) ،
ويحكم فيهم بغير السُّنة ، بعد الذى كَانَ من سَفَكِ دماءهم ، وما انتَهَك من حُرْمهم ،
وَيَطَّوُّهم بِطَعامِ أهل الشام ، وَرَعاعٍ لَا رَوِيَّةَ لَهُم فى إقامة حق ، ولا فى إراحة
باطل ، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله ؟ فكيف بك إذا جأناك محمد صلى
الله عليه وسلم غداً للخصومة بين يدي الله تعالى ؟ أما والله إنك لن تنجو هناك
إلا بِحُجَّةٍ تَضُمَّن لك النجاة ، فارْبَعْ على نفسك أو دَعْ ، وكان عبد الملك مُتَكَرِّماً ،
فاستوى جالساً ، وقال : كَذِبْتَ وَمِنْتَ ^(٣) فيما جئت به ! ولقد ظن بك الحجاج
ظناً لم نجده فيك ، وقد يُظَنُّ الخيرُ بغير أهله ، قم فأنت المائِن الحاسد ! قال :
فقمتم والله ما أبصر شيئاً ، فلما خطرَفَ السَّترَ لحِقْنى لاحق ، فقال للحاجب :
امنع هذا من الخروج ، وأذِن للحجاج ، فدخل فلبث مَلِيّاً ، ولا أشكُ أنهما فى
أمرى ، ثم خرج الإِذْن لى ، فدخلت ، فلما كشف لى السَّترَ ، إذا أنا بالحجاج
خارج ، فاعتنقنى ، وقبل ما بين عَيْنَيْ ، وقال : أما إذا جِزى الله المتواخيئين خيراً

[١] المراد أرخى من خطرَفَ جلد المرأة إذا استرخى . [٢] يوليم الدل .

[٣] مان مينا : كذب .

بفضل تواصلهما ، فجزاك الله عنى أفضل الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك لأرفعنَّ ناظريك ، ولأُعَلِّينَ كَعْبِكَ ، ولأُتَبِعَنَّ الرجالَ غُبَارَ قَدَمَيْكَ ، قال : فقلت في نفسي إنه ليسخرَ بى ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى مجلسى الأول ، ثم قال : يا بن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أو شارك أحد فى نصيحتك ؟ فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحداً أظهرَ يدًا عندى من الحجاج ، ولو كنت محايياً أحداً بدنى لكان هو ، ولكنى آثرتُ الله ورسوله والمسلمين ، قال : قد علمت أنك لم ترد الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك فى الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته عن الحرمين : لما كرهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما : استقلالاً لهما ، ووليته العراقين وما هنالك من الأمور ، التى لا يُدَحِّضُهَا إلا مثله ، وإنما قلت له ذلك ليؤدى ما يلزمه من ذمامك ، فإنك غير ذام لصحبته مع يدك عنده ، فخرجت مع الحجاج ، وأكرمنى أضعاف إكرامه .

(العقد الفريد ١ : ١٢١ ، وشرح البيون ص ١١٩)

٣٧٨ — قدوم الحجاج مع أشرف المصرين على عبد الملك

لما فرغ الحجاج من دير الجماجم ، وقدم على عبد الملك ومعه أشرف أهل المصرين - البصرة والكوفة - أدخلهم عليه ، فبينما هم عنده إذ تذاكروا البلدان ، فقال محمد بن عُمَيْر بن عَطَّارِد : « أ صلح الله الأمير ، إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرَّها وغمَّقها ^(١) ، وسفلت عن الشام ووبَّأها ، وجاورها الفُراتُ ، فعذب ماؤها ، وطاب ثمرها » ، فقال خالد بن صَفْوَان الأهمى : « أ صلح الله الأمير ، نحن أوسعُ منهم برِّيَّةً ، وأسرعُ منهم فى السَّريَّة ^(٢) ، وأكثرُ منهم

[١] الدعق : ركوب التمدى الأرض ، أرض غمقة كفرحة : ذات ندى وثقل ، أو قريبة من المياه ، وفى الأصل : « وغمَّقها » وهو تصحيف . [٢] السرية : من خسة أنفس إلى نثماته ، أو أربماته ، والمراد فى التهوض القتال .

قندا^(١)، وعاجاً، وساجاً،^(٢) وناساً^(٣)، ماؤناصفو، وخيرُنا عفو، لا يخرج من عندنا إلا قائدوسائق وناعق^(٤)»، فقال الحجاج : «أصلح الله أمير المؤمنين ! إني بالبلدين خير، وقد وطّيتهما جميعاً» ، فقال له : قل فأنت عندنا مُصدّق ، فقال . «أما البصرة فمعجوزُ شَمَطَاء، دَفْرَاء، بَحْرَاء، أُوتيت من كل حَلِي وزينة ؛ وأما الكوفة ، فشابة حسناء جميلة ، لا حَلِي لها ولا زينة » . فقال عبد الملك : فضلت الكوفة على البصرة . (مروج الذهب ٢ : ١٤٨)



وروى الجاحظ قال :

قال خالد بن صفوان^(٥) - وَسُئِلَ عن الكوفة والبصرة - : « نحن مَنَابِتُنا قَصَب ، وأنهارنا عَجَب ، وسماؤنا رُطَب^(٦) ، وأرضنا ذهب » . وقال الأحنف : « نحن أبعد منكم سَرِيَّة ، وأعظم منكم تَجْرِيَّة^(٧) ، وأكثر منكم ذُرِّيَّة ، وأغذى منكم بَرِّيَّة » . وقال أبو بكر الهذلي : « نحن أكثر منكم ساجاً ، وعاجاً ، ودِيباجاً ، وخَرَجاً ، ونَهراً عَجَاجاً^(٨) » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٦)

[١] الهند : غسل قصب السكر . [٢] الساج : خشب أسود رزّين يحل من الهند ، ولا تكاد الأرض تبليه ، وهو يشبه الأبنوس . [٣] في الأصل : « وباسا » نالبا ، وأراه بالنون . [٤] يريد بالسائق : الأمير ، وبالناعق : الحطيب . [٥] أي يصف البصرة ، وكذا ما بعده . [٦] السماء : كل ماعلاك ، يشير إلى كثرة النخيل في مشان البصرة ، « مشان كسحاب : قرية قريبة منها » ، وأن التمر لكثرتة ووفرته يظلمهم . [٧] تاجر كنصر تجراً وتجارة : التمر ، وأرى أن « تجرية » مصدر صناعي لتحرير يريد أن أهل البصرة أعظم وأطول باطاً من أهل الكوفة في التجارة - لأن البصرة تفر على الخليج الفارسي ، فهي متصلة ببلاد الهند والشرق - . [٨] العجاج : العياح من كل ذي صوت .

٣٧٩ — وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة : صاحب الأزارقة . بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني مؤفدك إلى الحجاج ، فسر ، فإنما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق ، وتوجه فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : ملك وبشارة ! كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمثل ، وأمن من خاف ، قال : كيف هو لجنده ؟ قال : والده رؤوف ، قال : فكيف رضاهم عنه ؟ قال : وسعهم بالفضل ، وأقنعهم بالعدل ، قال : فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجِدِّنا فنقطع فيهم ، ويلقوننا بجِدِّهم فيطمعون فينا ، قال : كذلك الجِدُّ إذا لقي الجِدَّ . قال : فما حال قطري ؟ قال : كأدنا ببعض ما كدناه . قال : فما منكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورأته خيراً من اتباعه ، قال : فأخبرني عن ولد المهلب ، قال : أعباء القتال بالليل ، حُماة السَّرح ^(١) بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال ذلك إلى أيهم ، قال : لتقولن ، قال : هم كحلقة مضروبة لا يُعرَف طرفاها ، قال : أقسمت عليك هل رَوَّأت ^(٢) في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله على غيبه أحداً ، فقال الحجاج جلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

(المقد الفريد ١ : ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨)

٣٨٠ — وفود كعب الأشقرى على الحجاج

أوفد المهلب بن أبي صفرة كعب بن معدان الأشقرى - ومعه ثروة بن تليد الأزدي - إلى الحجاج بعد هزيمة الأزارقة ، وقَتَلَ أميرهم عبْد رَبَّة الصغير ، فلما دخلا عليه بَدَرَ كعبٌ ، فأنشده قصيدته التي مطلعها :

[١] السرح في الأصل : المد السام . [٢] رَوَّأت في الأمر : نظر فيه وتعبه ، ولم يجعل بجواب .

يا خَفْصُ: إني عَدَانِي عَنْكَ السَّفَرُ وقد سَهَرْتُ فَأَذَى عَيْنِي السَّهَرُ
 فقال له الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ قال: كلاهما، ثم أقبل عليه، فقال له:
 أخبرني عن بني المهلب، قال: «المُغِيرَةُ فارُسُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ، نار ذاكِية^(١)،
 وصَعْدَةُ^(٢) عالية، وكُفَى يَزِيدَ فارِسًا شجاعًا، لَيْثُ غَابٍ، وبحر جَمَّ عُبابُ،
 وَجَوَادُهُمْ وَسَخِيهِمْ قَبِيصَةٌ، لَيْثُ الْمُغَارِ^(٣)، وَحَامِي الدِّمَارِ، وَلَا يَسْتَحْيِي الشُّجَاعُ
 أَنْ يَفِرَّ مِنْ مُدْرِكٍ، فكيف لا يفر من الموت الحاضر، والأسد الخادر؟ وعبدُ
 الملك سمَّ نافع، وسيف قاطع، وحيبُ الموتِ الرُّعَافُ، إِمَّا هُوَ طَوْدُ^(٤)
 شامخ، ونُحْرُ بَاذِخ، وَأَبُو عَيْيَنَةَ الْبَطَلِ الْهُمَامُ، والسيف الحَسَامُ، وكفالك بالمفضِّل
 نَجْدَةٌ، لَيْثُ هَذَارٍ، وبحر مَوَّارٍ^(٥)، ومحمدُ لَيْثُ غَابٍ، وَحُسَامُ ضِرَابٍ، قال:
 فكيف كانوا فيكم؟ قال: كَانُوا حِمَاةَ السَّرْحِ نَهَارًا، فَإِذَا أَلِيلُوا^(٦) فَفَرُّسَانُ الْبِيَاتِ،
 قال: فَأَيُّهُمْ كَانَ أَنْجَدُ؟ قال: كَانُوا كَالْحَلَقَةِ الْمُفْرَغَةِ: لَا يُدْرِي أَيْنَ طَرَفُهَا، قال:
 فكيف كَانَ لَكُمْ المهلب وكنتم له؟ قال: كَانَ لَنَا مِنْهُ شَفَقَةُ الْوَالِدِ، وَلَهُ مِنْنا بِرُّ
 الْوَلَدِ، قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ: أَدْرَكُوا مَا رَجَوْا،
 وَأَمِنُوا مِمَّا خَافُوا، وَأَرْضَاهُمُ الْعَدْلُ، وَأَغْنَاهُمُ النُّقْلُ^(٧)، قال: فكيف كنتم أنتم
 وعدوكم؟ قال: كُنَّا إِذَا أَخَذْنَا عَفْوَنَا، وَإِذَا أَخَذُوا يَدِيْنَا مِنْهُمْ، وَإِذَا اجْتَهَدُوا
 واجتهدنا طَمَعِنَا فِيهِمْ، فقال الحجاج: إِنْ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، قال: كيف أفلتكم
 قطري؟ قال: كَدْنَاهُ بِيَعْضِ مَا كَادَنَا بِهِ، فَصَرْنَا مِنْهُ إِلَى الَّذِي نَحِبُ، قال: فهلا
 اتبعتموه؟ قال: كَانَ الْحَدُّ عِنْدَنَا آثَرُ مِنَ الْقَلِّ^(٨)، قال: أَكُنْتُ أَعْدَدْتُ لِي

[١] ذَكَتِ النَّارُ: اشْتَدَّ لَهَبُهَا. [٢] الصَّعْدَةُ: الْفَنَاءُ الْمُسْتَوِيَّةُ تَبَيَّنَ كَذَلِكَ. [٣] أَغَارَ عَلَى
 الدَّوَى إِغَارَةً وَمَغَارًا. [٤] الطَّوْدُ: الْجَبَلُ، وَبَاذِخٌ: عَالٍ. [٥] مَارٌ: مَاجٌ وَاضْطَرَبَ.
 [٦] أَلِيلُوا رَأَلُوا: دَخَلُوا فِي اللَّيْلِ. [٧] الْغَنِيْمَةُ وَالْهَبَةُ. [٨] الْهَزِيْمَةُ.

هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيث وجهك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك بن مروان ، فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

(الكامل المبرد ٢ : ٢٣٢ ، والأغانى ١٣ : ٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٩٣)

٣٨١ — سليك بن سلكة والحجاج

دخل على الحجاج سُلَيْك بن سَلَكَة^(١) ، فقال :

« أصلح الله الأمير ! أعزني سمعك ، واغضض عني بصرك ، واكفف عني حزبك ، فإن سمعت خطأ أو زللاً فدونك والعقوبة ، فقال : قل ، فقال : عصى عاص من عرض العشيرة ، فخلق على اسمي ، وهديمت دارى ، وحريمت عطائى ، قال . هيهات ، أما سمعت قول الشاعر :

جَانِيكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَرَبَّمَا تَعْدَى الصَّحَّاحَ مَبَارِكُ الْجُرْبِ^(٢)
وَلَرُبَّ مَا خُوِذَ بِذَنْبِ عَشِيرِهِ وَنَجَا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ

قال أصلح الله الأمير ، سمعت الله قال غير هذا ، قال : وما ذاك ؟ قال : قال : « يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا ، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذْنُ أَظَاِلُومُونَ » .

[١] هو غير سليك بن سلكة الذى صرب به المثل فى العدو ، فقل : « أعدى من السليك » ، فإن سليك العداء جاهلى ، (وهو سليك بن عمرو التيمى ، والسلكة أمه ، وهى أمة سوداء ، وكان أحد صعاليك العرب ولصوصهم العدائين الذين لا يلحقون ، ولا تتعلق بهم الخيل إذا عدوا ، وهم : السليك بن السلكة ، والشنفرى ، وتأبط شرًا ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براق) ، قال صاحب القاموس فى مادة غرب : « وأغربة العرب سودانهم ، والأغربة فى الجاهلية : عنقرة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير ابن الحباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبى معيط ، إلا أنه مخضرم قد ولى فى الإسلام ... الخ » ، وقال ابن نباتة فى سرح العيون « وهو جاهلى قديم » — انظر ترجمته فى سرح اليون ص ٨٠ والأغانى ١٨ : ١٢٣ .

[٢] فى الأصل « جانك من يعنى عليك وقد » على أن العروض حذاء كالضرب وهو صحيح ، ولكن رأى العروض فى البيت الذى يليه تامة ، فوضعت « وربما » بدل « وقد » للمشاكلة بين العروضين .

قال الحجاج : عليّ يزيد بن أبي مسلم^(١) ، فأُتِيَ به فقتل بين يديه ، فقال :
افكّك لهذا عن اسمي ، واصكّك^(٢) له بغطائه ، وابن له منزله ، ومر مناديا
ينادي في الناس ، صدّق الله ، وكذّب الشاعر . (العقد الفريد ٣ : ٦)

٣٨٢ - جامع المحاربي والحجاج

شكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق ، وتنقّم مذهبهم ، وتسخط طريقتهم ،
فقال له جامع المحاربي - وكان شيخاً صالحاً خطيباً لساناً - : « أما إنهم لو أحبّوك
لأطاعوك ، على أنهم ما شئتوك لنسبك ، ولا لبلدك ، ولا لذات نفسك ، فدع
ما يبعدهم منك ، إلى ما يقرّبهم إليك ، والتّمسّ العافية ممن دونك ، تُعطها ممن فوقك ،
وليكن إيقاعك بعد وعيدك ، ووَعِيدُكَ بعد وعدك . قال الحجاج : « إني والله
ما أرى أن أردّ بنى اللّكيسة إلى طاعتي إلا بالسيف » ، فقال : « أيها الأمير ، إن
السيف إذا لاقى السيف ذهب الحِيار » ، فقال الحجاج : « الحِيارُ يومئذ لله » ،
قال : « أجل ، ولكن لا تدري لمن يجعله الله » ، فغضب الحجاج وقال :
« يا هَنَاءُ^(٣) إنك من محارب » ، فقال جامع :

وللحَرْبِ سُمِينَا ، وكأَن محارباً إذا ما القْنَا أَمْسَى من الطمن أحمرأ
فقال الحجاج : « والله لَهَمَمْتُ أن أخلع لسانك ، فأضرب به وجهك » ، فقال
جامع : « إن صدّقناك أغضبتك ، وإن غشّشناك أغضبنا الله ، فغَضَبُ الأمير
أهون علينا من غضب الله » قال : أجل ، وسكّن ، وشغِل الحجاج ببعض الأمر ،

[١] كاذب الحجاج . [٢] صكّك له كقتل : كتب له صكا ، وهو الكتاب الذي يكتب في
المعاملات : (الشيك) . [٣] هن : كلمة يكي بها عن اسم الإنسان ، فإذا ناديت مذكراً بغير التصريح
باسمه قلت : ياهن أقبل ، وقد تراءد الألف والهاء في آخره في الـنداء خاصة ، فيقال ياهناء أقبل ، أي
مافلان ، وهذه الـهاء تصير تاء في الوصل ، وتضم على تقدير أنها آخر الاسم وتكسر لاجتماع الساكنين .

فانسِلْ جامع ، فمرَّ بين صفوف خيل الشام ، حتى جاوز إلى خيل أهل العراق -
وكان الحجاج لا يَخْلِطُهُمْ - فأبصر كَبْكَبَةً^(١) فيها جماعةٌ من بكر العراق ، وقيم
العراق ، وأزد العراق ، وقيس العراق ، فلما رآوه أشرأثوا إليه ، وبلغهم خروجه ،
فقالوا له : ما عندك ؟ دافع الله لنا عن نفسك ، فقال : وَيَحْكُم ! عُمُوهُ بالخلع كما
يَعُمُّكُمْ بالعداوة ، وَدَعُّوا التعادى ما عاداكم ، فإذا ظفرت به تراجعتم وتعاقبتهم ،
أيها التميميَّ : هو أعدى لك من الأزدى ، وأيها القيسيَّ : هو أعدى لك من
التغلابيَّ ، وهل ظفرت بمن ناواه منكم إلا بمن بقي معه منكم ؟ » وهرب جامع من
قوره ذلك إلى الشام ، فاستجار بزُفَر بن الحارث .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥١ - ١ : ١٥٢ ،
وعيون الأخبار م ٢ ص : ٢١٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٣٠)

٣٨٣ - ليلي الأخيلية والحجاج

عَنْ مَوْلَى لَعْنَبَسَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي قَالَ :

كنت أدخل مع عَنَبَسَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي إذا دخل على الحجاج ، فدخل
يوماً ، فدخلت إليهما ، وليس عند الحجاج أحد إلا عنبسة ، فأقعدني ، فجاء
الحجاج بِطَبَقٍ فيه رُطَب ، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني به ، ثم جىء بطبق
آخر ، حتى كثرت الأطباق ، وجعل لا يأتون بشيء إلا جاءني منه شيء ، حتى
ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهما ، ثم جاء الحاجبُ فقال : امرأةٌ بالباب ،
فقال له الحجاج : أدخلها ، فدخلت ، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه ، حتى ظننت
أن ذقنه قد أصاب الأرض ، فجاءت حتى قعدت بين يديه ، فنظرت فإذا امرأةٌ قد
أسنت ، حَسَنَةُ الخَلْق ، ومعهما جارتان لها ، وإذا هي لَيْلَى الأَخِيلِيَّة ، فسألها

الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها : يا ليلى ، ما أتى بك ؟ فقالت :
 « إِيخْلَافُ النُّجُومِ ^(١) ، وَرَقْلَةُ الْغُيُومِ ، وَكَلَبُ ^(٢) الْبَرْدِ ، وَشِدَّةُ الْجَهْدِ ، وَكُنْتُ
 لَنَا بَعْدَ اللَّهِ الرَّفْدَ ^(٣) » ، فقال لها : صِفِي لَنَا الْفِجَاجَ ^(٤) ، فقالت : « الْفِجَاجُ
 مُغْبِرَّةٌ ، وَالْأَرْضُ مُقْشَعِرَّةٌ ، وَالْمَبْرُكُ ^(٥) مُمْتَلٌ ، وَذُو الْعِيَالِ مُخْتَلٌ ^(٦) ، وَالْهَالِكُ
 لِلْقُلُ ^(٧) ، وَالنَّاسُ مُسْتَنْتُونَ ^(٨) ، رَحْمَةُ اللَّهِ يَرْجُونَ ، أَصَابَتْنَا سِنُونُ مُجْحِفَةٌ ^(٩)
 مُبْلِطَةٌ ، لَمْ تَدَعْ لَنَا هَبْعًا ^(١٠) وَلَا رُبْعًا ، وَلَا عَافِطَةً وَلَا نَافِطَةً ^(١١) ، أَذْهَبَتْ
 الْأَمْوَالَ ، وَمَزَّقَتْ الرِّجَالَ ، وَأَهْلَكَتِ الْعِيَالَ » ، ثم قالت : إني قلت في الأمير
 قولاً ، قال : ها تبي ، فأنشأت تقول :

أَحْجَاجٌ لَا يُفْلَلُ سِلَاحُكَ ، إِنِّهَا أَلْمَنِيَا بِكَفِّ اللَّهِ حَيْثُ تَرَاهَا ^(١٢)
 أَحْجَاجٌ لَا تُعْطَى الْعُصَاةُ مُنَاهُمْ وَلَا اللَّهُ يُعْطَى لِلْعُصَاةِ مُنَاهَا
 إِذَا هَبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصَى دَأْبِهَا فَشَفَاهَا
 شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بِهَا غَلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا
 سَقَاهَا فَرَوَاهَا بِشُرْبِ سِجَالِهِ دَمَاءُ رِجَالٍ حَيْثُ مَالِ حَشَاهَا ^(١٣)

[١] أى أخلفت الجيوم التى يكون بها المطر ، فلم تأت بقطر . [٢] كلب البرد : شدته ، وأصل
 الكلب : السمار (بالضم) الذى يصيب الكلاب والذئاب . [٣] الرفد (بالفتح) : المعونة ، مصدر رفده
 كضربه : أعانه وأعطاه ، وبالكسر : العطاء والملة . [٤] الفجج جمع فجج : بالفتح ، وهو الطريق
 الواسع بين جبلين . [٥] أرادت به الإبل الباركة فيه . [٦] محتل : محتاج من الحلة بالفتح
 وهى الحاجة . [٧] للقل : أى هالك من أجل القلة . [٨] أى مقحطون ، والاسة القحط .
 [٩] مجحفة : قاشرة ، ومبلاة : ملزقة بالبلاط ، والبلاط : الأرض الملاء ، والحجارة التى تفرش فى الدار ،
 وأبطل الرجل فهو مبطل : إذا لُزق بالأرض . [١٠] الهبع : الفصيل ينتج فى الصيف (فى آخر النتائج)
 والربع : الفصيل ينتج فى الربيع (وهو أول النتائج) . [١١] العافطة : الضائنة (النعبة) ، من العطف ، وهو
 الضرب ، عطف كضرب : ضربت ، وهى عافطة ، والعطف أيضاً : شير الضأن ، تنثر بأنوفها كما ينثر الحمار ،
 والنافطة العنز ، من النبط ، نبطت الذئب كضرب نثرت بأنفها ، أو عطست ، وهى نافطة ، أو لانها تنفط
 ببولها أى تدفعه دفعا ، أو النافطة لإتباع للمافطة ، أو المافطة الامة الراعية ، والنافطة الشاة .
 [١٢] السلاح مذكر ويؤنث كما فى هذا البيت . [١٣] السجال جمع سجيل كشمس وهو الدلو العظيمة .

إِذَا سَمِعَ الْحَجَّاجُ رِزًّا كَتِيبَةً أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قِرَاهَا^(١)
أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارِسِيَّةً بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَاهَا^(٢)
فَمَا وَلَدَ الْأَبْكَارُ وَالْعُونَ مِثْلَهُ يَبْخَرُ وَلَا أَرْضٍ يَحِفُّ ثَرَاهَا^(٣)

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحججاج : قَاتَلَهَا اللَّهُ ! والله ما أصاب صِفَتِي شاعرٌ منذ دخلتُ العراقَ غيرها ، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد ، فقال : والله إنِّي لأَعِدُّ للأمر عسى أن لا يكون أبداً ، ثم التفت إليها فقال : حَسْبُكَ ! قالت : إنِّي قد قلتُ أكثر من هذا ، قال : حسبك ، وَيَحْك ! حسبك ، ثم قال يا غلام ، اذهب إلى فلان فقل له : اقطع لسانها ، فذهب بها ، فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فأمر بإحضار الحَجَّام ، فالتفت إليه ، فقالت : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ! أما سمعتَ ما قال ؟ إنما أُمِرُك أن تقطع لسانى بالصَّلَّة ، فبعث إليه يَسْتَثْبِتُهُ ، فاستشاط الحججاج غَضَبًا ، وهمّ بقطع لسانه ، وقال : ارزُدْها ، فلما دخلت عليه ، قالت : كَادَ وَأَمَانَةُ اللَّهِ يَقْطَعُ مِقْوَلِي ! ثم أنشأت تقول :

حَجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالْمُسْتَغْفَرُ الصَّمَدُ^(٤)
حَجَّاجُ أَنْتَ شِهَابُ الْحَرْبِ إِنْ لَقِيتُ وَأَنْتَ لِلنَّاسِ نُورٌ فِي الدُّجَى يَقْدُ^(٥)
ثم أقبل الحججاج على جلسائه ، فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ، إلا أنا لم نَرَ قَطُّ أَفْصَحَ لِسَانًا ، ولا أَحْسَنَ مَحَاوِرَةً ، ولا أَمْلَحَ وَجْهًا ، ولا أَرْضَنَ شعراً منها ، فقال : هذه ليلي الأَخِيلِيَّة ، التي ماتت ثُوبَةُ الْخَفَّاجِيَّةِ مِنْ حُبِّهَا ، ثم

[١] الرِّزُّ: الصوت تسمعه من بعيد. [٢] الصرى : بقية اللبن. [٣] العون جمع عوان كسحاب،

وهو التي كان لها زوج . [٤] الصمد : الذي يصمد أى يقصد فى قضاء الحاجج .

[٥] لقيت : أصله من لقيت الناقة أى قبلت الفلاح ، والشهاب : شعلة من نار ساطعة ، ويقد يتوقد

التفت إليها فقال : أنشدينا يا ليلي بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير هو الذي يقول :

وهل تبكين ليلى إذا مت قبلها وقام على قبري النساء النوائح ؟
كما لو أصاب الموت ليلي بكيتها وجاد لها دمع من العين سافح^(١)
وأغبط من ليلى بما لا أناله بلى ، كل ما قررت به العين طامح
ولو أن ليلي الأخيلية سلمت على ، ودوني جندل وصفاح^(٢)
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا إليها صدى من جانب القبر صائح^(٣)

فقال : زیدینا من شعره يا ليلي ، قالت : هو الذي يقول :

حمامة بطن الواديين ترنمي سقاك من العر الغوادي مطيرها^(٤)
أيدي لنا ، لا زال ريشك ناعما ولا زلت في خضراء غصن نصيرها
وكنت إذا ما زرت ليلي تبرقعت فقد رايتني منها الغداة سفورها
وقد رايتني منها صدود رأيت وإعراضها عن حاجتي وبسورها^(٥)
وأشرف بالقور اليفاع اعلمني أرى نار ليلي أويراني بصيرها^(٦)
يقول رجال : لا يضيرك نأيتها بلى ، كل ما شفت النفوس يضيرها
بلى ، قد يضير العين أن تكثر البكا ويمنع منها نومها وسرورها
وقد زعمت ليلى بأنني فاجر لنفسي ثقاها ، أو عليها فجورها

[١] سافح : منصب . [٢] الجندل : الحجارة ، والصفايح : حجارة القبر العراس .
[٣] زقا : صاح ، والصدى - وهو الهامة - طائر يخرج من رأس المقتول ، تزعم الأعراب أن روح القاتل تخرج ، فتصير هامة إذا لم يدرك بثأره ، فيصيح على قبره : اسقوني اسقوني حتى يثار به ، وهذا مثل يراد به تحريض ولي القاتل على طلب دمه ، فجعله جهالة الأعراب حقيقة . [٤] الغوادي جمع غاوية : وهي السحابة تنشأ غدوة . [٥] بسر كدخل : عبس وكبح . [٦] القور جمع قارة : وهي الجبل الصغير المنقطع عن الجبال ، واليفاع : الل .

فقال الحجاج : يا ليلي ، ما الذي رآه من سُفورك ؟ فقالت : أيها الأمير ، كان
مُيَلِّمٌ بي كثيراً ، فأرسل إليَّ يوماً : إني آتيك ، وفَطِن الحى ، فأرصدوا له ، فلما
أتاني سَفَرْتُ عن وجهي ، فعلم أن ذلك لِشَرٍّ ، فلم يَزِدْ على التسليم والرجوع ،
فقال : لله درك ! فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا والله الذي أسأله
أن يُصْلِحَكَ ، إنه قال مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر ، فأنشأت أقول :

وذى حاجة قلنا له لا تبُحْ بها فليس إليها ما حَيِّتَ سبيلُ
أنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ و خليلُ

فلا والله الذي أسأله أن يصلحك ، ما رأيت منه شيئاً ، حتى فرَّق الموت بيني
وبينه ، قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن خرج في غَزَاة له ، فأوصى ابنَ عم له ،
إذا أتيتَ الحاضِرَ من بنى عبادة فنادِ بأعلى صوتك :

عفا الله عنها ، هل أبيتَنَّ ليلَةً من الدهر لا يَمُرُّ إلى خيالها ؟

وأنا أقول :

وعنه عفا ربي وأحسنَ حاله فعزَّت علينا حاجة لا ينالها
قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن مات ، فأتانا نعيه ، فقال : أنشدنا بعض
مراثيك فيه ، فأنشدت :

لِتَبْكِ الْعَذَارَى مِنْ خَفَاجَةِ نِسْوَةٍ بماءِ شُثُونِ الْعَبْرَةِ المتحدِّر^(١)

قال لها : فأنشدنا ، فأنشدته :

[١] الشثون جمع شآن : وهو مجرى الدمع إلى العين ، وكتب مصحح الأملى قال : « قوله المتحدِّر ،
كذا في النسخ ، وكتب بهامش بعض النسخ المتحدِّر بالألف قبل الدال ، لتستقيم القافية ، وفي هامش بعض
النسخ بعد البيت الآتي :

فنى لا تخطاه الرفاق ، ولا يرى لقد رعى صيالا دون جار مجاور » اهـ

كَأَنَّ فِي الْفِتْيَانِ تَوْبَةً لَمْ يُنْبِخْ فَلَائِصْنَ يَفْحَصْنَ الْحَصَى بِالْكَرَاكِ^(١)
 فلما فرغت من القصيدة ، قال مُحْصِنُ الْفَقْعِيِّ : - وكان من جلساء الحجاج -
 مَنْ الَّذِي تَقُولُ هَذِهِ هَذَا فِيهِ ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لِأُظَنُّهَا كَاذِبَةً ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَتْ :
 أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّ هَذَا الْقَائِلَ لَوْ رَأَى تَوْبَةَ لِسِرِّهِ أَنْ لَا تَكُونَ فِي دَارِهِ عَذْرَاءُ إِلَّا هِيَ
 حَامِلٌ مِنْهُ ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ : هَذَا وَأَيُّكَ الْجَوَابُ ، وَقَدْ كُنْتَ عَنْهُ غَنِيًّا ، ثُمَّ قَالَ
 لَهَا : سَلِي يَا لَيْلَى تُعْطَى ، قَالَتْ : أَعْطِ ، فَمَثَلْتُ أَعْطَى فَأَحْسَنَ ، قَالَ : لَكَ
 عَشْرُونَ ، قَالَتْ : زِدْ فَمَثَلْتُ زَادَ فَأَجَمَلَ ، قَالَ : لَكَ أَرْبَعُونَ ، قَالَتْ : زِدْ ، فَمَثَلْتُ
 زَادَ فَأَكْمَلَ ، قَالَ : لَكَ ثَمَانُونَ ، قَالَتْ : زِدْ ، فَمَثَلْتُ زَادَ فَتَمَّ ، قَالَ : لَكَ مِائَةٌ ،
 وَاعْلَمِي أَنَّهَا غَنِمَتْ ، قَالَتْ : مَعَاذَ اللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، أَنْتَ أَجْوَدُ جُودًا ، وَأَعْجَدُ مَجْدًا ،
 وَأَرْوَى زَنْدًا ، سَنَ أَنْ تَجْعَلَهَا غَنَمًا ، قَالَ : فَمَا هِيَ ؟ وَنَحَكَ يَا لَيْلَى ؟ قَالَتْ : مِائَةٌ
 مِنَ الْإِبِلِ بَرْحَاتِهَا ، فَأَمَرَ لَهَا بِهَا ، ثُمَّ قَالَ : أَلَاكِ حَاجَةٌ بَعْدَهَا ؟ قَالَتْ : تَدْفَعُ إِلَى
 النَّابِغَةِ الْجَعْدَى ، قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ، وَقَدْ كَانَتْ تَهْجُوهُ وَيَهْجُوها ، فَبَلَغَ النَّابِغَةُ
 ذَلِكَ ، فَخَرَجَ هَارِبًا عَائِدًا بَعْدَ الْمَلِكِ ، فَاتَّبَعَتْهُ إِلَى الشَّامِ ، فَهَرَبَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ
 بِخُرَاسَانَ ، فَاتَّبَعَتْهُ عَلَى الْبَرِيدِ بَكْتَابِ الْحَجَّاجِ إِلَى قُتَيْبَةَ ، فَمَاتَتْ بِقَوْمَسَ^(٢) ،
 وَيُقَالُ بِحُلُوانَ .

(الْأَمَالِيُّ ١ : ٨٦ ، وَزَمَرُ الْأَدَابِ ٣ : ٢٦٥)

٣٨٤ - الْغَضْبَانُ بْنُ الْقُبَعَثِيِّ وَالْحَجَّاجُ

وَرَدَ عَلَى الْحَجَّاجِ كِتَابٌ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ ، يَأْمُرُهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِثَلَاثِينَ جَارِيَةً ،
 عَشْرًا مِنَ النِّجَاطِ ، وَعَشْرًا مِنْ قَعَدِ النِّكَاحِ ، وَعَشْرًا مِنْ ذَوَاتِ الْأَحْلَامِ ، فَلَمَّا

[١] الْفَلَائِصُ جَمْعُ قُلُوصٍ كَصَبُورٍ ، وَهِيَ النَّاقَةُ الشَّابَّةُ ، أَوْ الْبَاقِيَةُ عَلَى السِّيرِ ، يَفْحَصُ : يَقْلُبُ ، مَنْ
 غَمَسَ الْمَطَرَ التُّرَابَ قَلْبَهُ ، وَغَمَسَ انْقَطَعَ التُّرَابُ : اتَّخَذَ فِيهِ أَغْوَصًا وَهُوَ مَجْنَمُهُ ، وَالْكَرَاكِ جَمْعُ كَرَاكِ
 بِالْكَسْرِ : وَهِيَ زُورُ الْبَيْرِ . [٢] قَوْمَسَ : صَقَعَ كَبِيرٌ بَيْنَ خُرَاسَانَ وَبِلَادِ الْجَبَلِ .

نظر إلى الكتاب لم يدرك ما وصفه من الجوارى ، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه ، فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير ، ينبغي أن يعرف هذا من كان في أوليته بدويًا ، فله معرفة أهل البدو ، ثم غزا فله معرفة أهل الغزو ، ثم شرب الشراب ، فله بداء أهل الشراب ، قال : وأين هذا ؟ قيل : في حبسك ، قال : ومن هو ؟ قيل الغضبان الشيباني ، فأحضر فلما مثل بين يديه ، قال : أنت القائل لأهل الكوفة يتغذون بي قبل أن أتعشى بهم ^(١) ؟ قال : أصلح الله الأمير ، ما نفعت من قالها ، ولا ضرت من فلت فيه ، قال : إن أمير المؤمنين كتب إلى كتابا لم أدر ما فيه ، فهل عندك شيء منه ؟ قال : يقرأ على ، فقرأ عليه ، فقال : هذا بين ، قال : وما هو ؟ قال : « أمّا النجبية من النساء : فالتى عظمت هامتها ، وطال عُنقها ، وبعُد ما بين منكبَيْها وئذْيها ، واتسعت راحَتُها ، وتَحَنَّت رُكبتُها ، فهذه إذا جاءت بالولد جاءت به كَاللَيْث ؛ وأما قَعْد النكاح ، فهن ذواتُ الأعجاز ، مُنكسِرَات التُّدِي ، كثيرَات اللحم يقربُ بعضهن من بعض ، فأولئك يَشْفِين القَرَم ، وَيُزَوِّن الظَّمآن ؛ وأما ذوات الأحلام ، فبناتُ خمسٍ وثلاثين إلى الأربعين ^(٢) .

قال الحجاج : أخبرني بشر النساء ، قال : أصلح الله الأمير : شرهن الصغيرة الثَّقْبَة ^(٣) ، الحديدة الرُّكْبَة ، السريعة الوثبة ، الواسطة ^(٤) في نساء الحى ، التى إذا غضبت غضب لها مائة ، وإذا سميت كلمة قالت لا والله لا أتتهى حتى أقورها

[١] انظر خطبته فى ص ٣٢٠ . [٢] القرم بحركة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل فى الشوق إلى الحبيب . [٣] هنا سطر أسقطناه ، فلينظره فى الأصل من شاء . [٤] الوجه . [٥] وسطهم (كوعد) : جلس وسطهم ، كتوسطهم .

قَرَارَهَا ، التي في بطنها جارية ، ويتبعها جارية ، وفي حجرها جارية ، قال الحجاج :
 على هذه لعنة الله ، ثم قال : وَيَحْك ، فأخبرني بخير النساء ، قال : خيرهن القرية
 القائمة من السماء ، الكثيرة الأخذ من الأرض ، الودود الولود ، التي في بطنها غلام ،
 وفي حجرها غلام ، ويتبعها غلام ، قال : ويحك فأخبرني بشر الرجال ، قال : شرم
 السَّنُوط ^(١) الرُّبُوط ، المحمود في حرَم الحَي ، الذي إذا سقط لإحداهن دَلُو في
 بئر ، انحطَّ عليه حتى يُخْرِجه ، فهُن يَجْزِيَنهُ الخَيْر ، وَيَقْلُن عَاقِي الله فلاناً ، قال :
 على هذا لعنة الله ، فأخبرني بخير الرجال ؟ قال : خيرهم الذي يقول فيه الشَّامُخ التغلبي :
 فَتَى لَيْس بِالرَّاضِي بِأَذَنِّي مَعِيشَةً وَلَا فِي بَيْوتِ الْحَيِّ بِالْمَتَوَاجِ ^(٢)
 فَتَى يَمْلَأُ الشَّيْزَى وَيُرْوِي سِنَانَهُ وَيَضْرِبُ فِي رَأْسِ الْكَمِيِّ الْمُدَجَّجِ ^(٣)
 فقال له : حَسْبُكَ ، كَمْ حَبَسْنَا عَطَاءَكَ ؟ قال : ثلاث سنين ، فأمر له بها
 وخلق سبيله . (مروج الذهب ٢ : ١٤٧)

٣٨٥ — ابن القرية يعدد مساوي المزاح

وقال الحجاج بن يوسف لابن القرية : ما زالت الحكماء تكره المزاح وتنهى
 عنه ، فقال : « المزاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المزاح أوله
 فَرَح وآخره تَرَح ، المزاح نقائص السفهاء كالشعر نقائص الشعراء ، والمزاح
 يُوغِر صدر الصديق ، وينقِر الرفيق ، والمزاح يُبْدِي السرائر ، لأنه يُظهر المعابر ،
 والمزاح يُسْقِطُ المُرُوءة ، وَيُبْدِي الخَنَا ، لم يَجِرْ المزاح خيراً وكثيراً ماجراً شراً ،

[١] السنوط : الذي لا شعر في وجهه ألبته « الكوسج » كجمر ، وفي الأصل « الربوط » بالباء ،
 ولم أجده في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها من هذه المادة : « أسبط بالأرض : لصق » فالوصف منه
 « مسبط » ومعناه على هذا : الكسل المتقاعد من السعي ، والربوط ، يريد به الملازم لبيته الذي لا يخرج
 منه للتصرف والعمل كأنه قد ربط نفسه فيه . [٢] الداخل .
 [٣] الشيزي : خشب أسود تتخذ منه القصاع ، يكتى عن كرمه ، والمدجج : الشاك في السلاح .

الغالبُ بالمزاح وإثره ، والمغلوب به ثائر ، والمزاح يجلبُ الشتمَ صغيره ، والحربَ كبيره ، وليس بعد الحرب إلاَّ عفوٌ بعد قدرة » ، فقال الحجاج : « حسبك ، الموت خير من عفوٍ معه قدرة » . (زهر الآداب ٢ : ٨٥)

٣٨٦ — يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

لَمَّا وَلِيَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، أَتَى يَزِيدَ بْنَ أَبِي مُسْلِمٍ : مَوْلى الْحَجَّاجِ ، فِي جَامِعَةٍ ^(١) ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيًّا تَقْتَحِمُهُ ^(٢) الْعَيْنُ ، فَلَمَّا رَأَاهُ سُلَيْمَانُ قَالَ : لَعَنَ اللَّهُ أَمْرًا أَجْرَكَ رَسَنَكَ ^(٣) ، وَوَلَّى مِثْلَكَ ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَنِّي مُذْ بَرٍّ ، وَلَوْ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَلَى مُقْبِلٍ ، لَاسْتَعْظَمْتَ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَصْغَرْتَ ، وَلَا سَتَجَلَلْتَ مَا اسْتَحْقَرْتَ » ، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ : « أَيْنَ تَرَى الْحَجَّاجَ ، أَيُّهُوَ فِي النَّارِ ، أَمْ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي قَعْرِهَا ؟ » ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . لَا تَقُلْ هَذَا ، إِنَّ الْحَجَّاجَ قَمَعَ لَكُمْ الْأَعْدَاءَ ، وَوَطَّأَ لَكُمْ الْمَنَابِرَ ، وَزَرَعَ لَكُمْ الْهَيْبَةَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ، وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ عَيْنِ أَيْيِكَ . وَشِمَالِ أَخِيكَ الْوَلِيدِ ، فَضَعَهُ مِنَ النَّارِ حَيْثُ شَتَّ » ، فَصَاحَ سُلَيْمَانُ : أَخْرَجْ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى جُلَسَائِهِ ، فَقَالَ :

[١] الجامعة : القيد . [٢] ترديده . [٣] الرسن : الحبل ، وأجره رسنه : تركه يصنع ماشاء ، يعنى الحجاج ، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج وأيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتباً فلا ينظر له فيها ، فحقد عليه ، وكتب إليه كتاباً شديد اللهجة ، وفيه يقول « وایم الله لئن أمكنی الله منك لأدوسنك دوسة تلین منها فرائسك ، ولأحملنك شريدا في الجبال ، تلوذ بأطراف الشمال » ويقول : « فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بی وبك مسدة أعلق بها » فرد عليه الحجاج بكتاب يقول فيه : « ولعمري إنك لصبي حديث السن تعذر بقله عقلك ، وحدائث سنك ، ويرقب فيك غيرك » ويقول : « جعت أموراً دلاک فيها الشيطان على أسوأ أمرك ، فكان الجفاء من خلیقتك ، والحق من طبیعتك ، وأقبل الشيطان بك وأدبر . . . الخ » انظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٦ ، وقد مات الحجاج قبل أن يتولى سليمان الخلافة بسنة .

قَبَّحَهُ اللهُ مَا كَانَ أَحْسَنَ تَرْتِيبَهُ لِنَفْسِهِ وَلصَاحِبِهِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْمَكَافَاةَ ،
أَطْلَقُوا سَبِيلَهُ . (أُمَالِي السَّيِّدِ الْمَرْفُوعِيِّ ١ : ٢١٥ ، وَالْعَقْدُ الْفَرِيدُ ١ : ١٥٠ ،

وَمَرْوُجُ الذَّهَبِ ٢ : ١٦٤ ، وَالْبَيَانُ وَالتَّبَيُّنُ ١ : ٢١٠)

٣٨٧ — وفود العراق على سليمان بن عبد الملك

وقد مت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف ، فأمرهم بشتم
الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : « إن عدو الله الحجاج كان عبدا زبّابا ^(١) ،

[١] بائع زبيب ، قيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه
بالطائف — ويسمى كليباً — وفيه يقول الشاعر .

أينسى كليب زمان الهزال وتعلّيه سورة الكوثر ؟
رغيف له فلك دائر وآخر كالعصر الأزهر

« يشير إلى خبر المدلين ، فإنه مختلف في الصفر والكبر على قدر بيوت الصبيان » ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد إيراد
زمان هو العبد المقر بدله يروح صبيان القرى ويفادي

« راحهم وروّحهم : ذهب إليهم رواحاً » ، ثم صار دباغاً كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له ،
وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطله ويضعفه ويحمره في
تأخير مناجرتهم ، فقال المهلب لرسوله : « قل له : إن السامد يرى ما لا يرى الدائب ، فإن كنت نصبتني
لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن أمكنتني الفرصة انتزعتها ، وإن لم تمكني فأنا أدبر ذلك
بما يصلحه ، وإن أردت مني أن أعمل برأيك وأنت غائب ، فإن كان صواباً فلك ، وإن كان خطأ فعلى » ،
فابت من رأيت مكاني » وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأشده بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف عرّاه من غزوكم خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفيين حين تلاقيا ضاقت عليه رحبة الأقطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة أزمان كان محالف الإقتار

فبانت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإيصاله كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعباً بذلك ،
وأوفده إلى عبد الملك من ليلته ، وكتب إليه يستوهبه منه فقدم كعب على عبد الملك واستنشدته ، فأعجبه
ما سمع منه ، فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفو عنه ، فلما دخل عليه قال : إيه يا كعب ،
« ورأى معاودة الدباغ غنيمة » ، فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض ما شاهدته في تلك
الحروب وأزماتها ، وما يوردناه المهلب من خطرهما ، أن أنجو منها ، وأكون حجاجاً ، أو حائكاً ، فقال
له الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفعتك ما أسمع ، فالحق بصاحبك ، وبعض الرواة يشكر
هذا القول ، ويقول : هذه من أكاذيب الشعراء ، — انظر الأغاني ج ١٣ ص ٥٧ ، وسرح العيون
ص ١١٢ ، والعقد البريد ٣ : ٦ — .

قَنُورُ بْنُ قَنُورٍ^(١) ، لَا نَسَبَ لَهُ فِي الْعَرَبِ » قَالَ سُلَيْمَانُ : أَيُّ شَتَمٍ هَذَا !
 إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الْحِجَابُ كَتَبَ إِلَيَّ : « إِنَّمَا أَنْتَ نَقْطَةٌ مِنْ مِدَادٍ ، فَإِنْ رَأَيْتَ
 فِيَّ مَا رَأَى أَبُوكَ وَأَخُوكَ كُنْتَ لَكَ كَمَا كُنْتَ لهُمَا ، وَإِلَّا فَأَنَا الْحِجَابُ وَأَنْتَ
 النُّقْطَةُ ، فَإِنْ شِئْتَ مَحَوْتُكَ ، وَإِنْ شِئْتَ أَثْبَتُكَ » فَالْعَنُوهُ لَعْنَةُ اللَّهِ ، فَأَقْبَلَ
 النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ ، فَقَامَ ابْنُ أَبِي بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا نَخْبِرُكَ عَنْ عَدُوِّ اللَّهِ بِعِلْمٍ » قَالَ : هَاتِي ، قَالَ : « كَانَ عَدُوَّ اللَّهِ
 يَتَزَيَّنُ تَزْيِينَ الْمُؤْمِسَةِ^(٢) ، وَيَصْعَدُ الْمَنِيرَ فَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْأَخْيَارِ ، فَإِذَا نَزَلَ عَمِلَ
 عَمَلِ الْفَرَاعْنَةِ ، وَأَكْذَبُ فِي حَدِيثِهِ مِنَ الدَّجَالِ » ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِرَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ :
 « هَذَا وَأَبْيَكُ الشَّتْمُ ، لَا مَا تَأْتِي بِهِ السَّفِيلَةُ^(٣) » . (الْبَيَانُ وَالتَّبَيُّنُ ١ : ٢١١)

٣٨٨ — كَلَامُ أَبِي حَازِمٍ لِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

حَجَّ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ لِلزِّيَارَةِ بَعَثَ إِلَى أَبِي حَازِمٍ
 الْأَعْرَجِ ، وَعِنْدَهُ ابْنُ شِهَابٍ ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ : تَكَلِّمْ يَا أَبَا حَازِمٍ . قَالَ : فِيمَ
 أَتَكَلِّمُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : فِي الْمَخْرَجِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ . قَالَ : يَسِيرُ إِنْ أَنْتَ
 فَعَلْتَهُ . قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : لَا تَأْخُذْ الْأَشْيَاءَ إِلَّا مِنْ حِلِّهَا ، وَلَا تَضَعُهَا إِلَّا فِي
 أَهْلِهَا . قَالَ : وَمَنْ يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَ : مَنْ قَلَّدَهُ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ الرِّعْيَةِ مَا قَلَّدَكَ ،
 قَالَ : عَظَنِي أَبَا حَازِمٍ . قَالَ : اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَصِرْ إِلَيْكَ إِلَّا بِمَوْتِ مَنْ كَانَ
 قَبْلَكَ ، وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ يَدَيْكَ بِمِثْلِ مَا صَارَ إِلَيْكَ . قَالَ : يَا أَبَا حَازِمٍ أَسْرَعَ عَلَىَّ ، قَالَ
 : إِنَّمَا أَنْتَ سَوَقٌ ، فَمَا تَفَقَّ^(٤) عِنْدَكَ مُجِئٌ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، فَاخْتَرِ أَيُّهُمَا شِئْتَ .

[١] الْفَنُورُ : الشَّرْسُ الصَّعْبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَكَسْتُورُ : الْعَبْدُ . [٢] امْرَأَةُ مُوسَى وَمُؤْمِسَةٌ :
 فَاجِرَةٌ ، أَوْ مُجَاهِرَةٌ بِالْفُجُورِ . مِنَ الْوَمَسِ كَوَعْدٍ : وَهُوَ احْتِكَاكُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ حَتَّى يَنْجَرِدَ ، وَأُومِسَتْ :
 أُمَكِّنَتْ مِنَ الْوَمَسِ » . [٣] سَفِيلَةُ النَّاسِ كَنَقْمَةٍ وَفَرَحَةٍ : أَسَافِلُهُمْ وَغَوَاظُهُمْ . [٤] رَاجِ .

قال : مالك لا تأتيننا ؟ قال : وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتني فتنتني ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي ما أخافك عليه . قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قبِلْتُ ، وما منعتني منها رَضِيتُ .

(العقد المريد ١ : ٣٠٦ ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٢)

٣٨٩ — أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضاً

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال يا أبا حازم : ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمَّرتُم دنيَاكم ، وأخربتم آخرتكم ، فأنتم تكَرَّهون النُّقْلةَ مِنَ الْعُمُرَانِ إِلَى الْخِرَابِ ، قال : فأخبرني ، كيف القدوم على الله ؟ قال : أما الْمُحْسِنُ فَكَالْغَائِبِ يَأْتِي أَهْلَهُ مَسْرُورًا ، وأما الْمُسِيءُ فَالْكَالْعَبْدِ الْآبِقِ ^(١) يَأْتِي مَوْلَاهُ مُحْزُونًا ، قال : فَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قال : أداء الْفَرَائِضِ مَعَ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ ، قال : فَأَيُّ الْقَوْلِ أَعْدَلُ ؟ قال : كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ مَنْ تَخَافُ وَتَرْجُو ، قال : فَأَيُّ النَّاسِ أَعْقَلُ ؟ قال : مَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، قال : فَأَيُّ النَّاسِ أَجْهَلُ ؟ قال : مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ ، قال : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، قال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، نَزَّهَ رَبُّكَ ، وَعَظَّمَهُ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ ، أَوْ يَفْقِدَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ ، فَبَكَى سُلَيْمَانُ بَكَاءً شَدِيدًا ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ جُلَسَاءِهِ : أَسْرَفْتَ وَنَجَّحْتَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو حَازِمٍ : أَسْكُتْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى الْعُلَمَاءِ لِيَبْدِيذُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ فَلَمَّا صَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ بَعَثَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانَ بِمَالٍ ، فَرَدَّهُ وَقَالَ لِلرَّسُولِ : قُلْ لَهُ : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَرْضَاهُ لَكَ ، فَكَيْفَ أَرْضَاهُ لِنَفْسِي ؟ (مروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٤٧)

[١] الْآبِقُ : الْخَارِبُ .

٣٩٠ — وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، قَدِمَ عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فأشرب منهم غلام للسلام ، فقال عمر : مهلاً يا غلام ، ليتكلم من هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغرَيه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبدَ لساناً لا فِظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجاد له الحليَّةَ ، ولو كان التقدم بالسنِّ لسكان في هذه الأمة مَنْ هو أحق بمجلسك منك ، فقال عمر : صدقت ، تكلم ، فهذا السَّحر الحلال ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التهئة لا وفد المرزئة ^(١) ، قدِمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذي مَنْ بكَ علينا ، لم يُخرجنا إليك رغبةً ولا رهبةً ، لأننا قد أَمِنَّا في أيامك ما خِفْنَا ، وأدركنا ما طلبنا ، فقال : عِظْنَا يا غلام وأوجِزْ ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً غَرَّهم حِلْمُ الله عنهم . وطولُ أَمَلِهِمْ ، وحسنُ ثناء الناس عليهم ، فلا يفرِّقُ الله حِلْمَ الله عنك ، وطولُ أَمَلِك ، وحسنُ ثناء الناس عليك ، فتزِلْ قَدَمُكَ ، فنظر عمر في سن الغلام ، فإذا هو قد أَتَتْ عليه بضعةَ عشرةَ سنة ^(٢) ، فأنشأ عمر يقول :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا عِلْمَ عنده صغيره إذا التفَّت عليه المحافل

(مروج الذهب ٢ : ١٦٩ ، وزهر الآداب ١ : ٩)

٣٩١ — خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنته

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهنتاه بالخلافة ، فقال :

[١] رزاه ماله كجمل وعلم : أصاب منه شيئاً ، ورزاه مرزئة : أصاب منه خيراً ، أى لساناً وافردين لالعزاء . [٢] وفي زهر الآداب : « فسأل عمر عن سن الغلام فقيل عشر سنين » .

« الحمد لله الذى مَنَّ عَلَى الخلق بك ، والحمد لله الذى جعل موتكم رحمة .
وخلافتكم عِصْمة ، ومصائبكم أَسْوَءَ ، وجعلكم قدوة » . (زمر الآداب ٣ : ٣٤٧)

٣٩٢ . خطبة عبد الله بن الأَهم

دخل عبد الله بن الأَهم على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - تعالى مع العامة ، فلم يفجأ عمر إلا وهو مائلٌ بين يديه يتكلم ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإن الله خَلَقَ الخلق ، غنيًّا عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ، والناسُ يومئذٍ فى المنازل والرأى مختلفون ، والعربُ بِشَرِّ تلك المنازل ، أهلُ الوَبَرِ وأهلُ المَدَرِ ، تُحْتَارُ دونهم طيباتُ الدنيا وَرَفَاغَةٌ ^(١) عِشْتَهَا ، مَتَيْتُهُمْ فى النار ، وحيثُهم أَعْمَى ، مع ما لا يُحْصَى من المرغوب عنه . والمزهود فيه ، فلما أراد الله أن يَنْشُرَ فيهم رحمته ، بعث إليهم رسولا منهم « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ، فلم يَنْعَمْهُمْ ذلك أن جَرَّحوه فى جسمه ، ولَقَّبُوهُ فى اسمه ^(٢) ، ومعه كتاب من الله لا يَرَحُلُ إلا بأمره ولا يَنْزِلُ إلا بإِذنه ، واضطروه إلى بطن غار ، فلما أُمِرَ بالعزيمة أسْفَرَ لأمر الله لوْنُهُ ، فأفْلَجَ ^(٣) الله حُجَّتَهُ ، وأَعْلَى كَلِمَتَهُ ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا تَقِيًّا تَقِيًّا ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قام بعده أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فسلك سُنَّتَهُ وأخذ مسبيله ، وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا الذى كَانَ قابلاً منهم ، فانتضى السيوف من أغمادها ، وأوقد النيران من شُعْلَهَا ، ثم ركب بأهل الحق أهلَ الباطل ، فلم يَبْرَحْ يَفْصِلُ أوصالهم ، ويسقى الأرضَ دماءَهم ، حتى أدخلهم فى الذى خرجوا منه ، وقرَّرهم بالذى نفرُّوا منه ، وقد كَانَ

[١] الرفاغة والرفاغية : سمة العيش والخصب . [٢] فوصفوه بأنه ساحر ، وكذاب ، وكاهن ،

وشامر . [٣] نصر .

أصاب من مال الله بَكْرًا^(١) يرتوى عليه ، وَحَبَشِيَّةٌ تُرَضِّعُ وَلَدًا لَهُ ، فرأى ذلك غُصَّةً عند موته في حلقه ، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وَبَرِيءٌ إِلَيْهِمْ مِنْهُ ، وفارق الدنيا نقيًا تقيًا ، على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنه ، ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فمَضَّرَ الْأَمْصَارَ ، وَخَلَطَ الشَّدَّةَ بِاللِّينِ ، فحَسَرَ عن ذراعيه ، وَشَمَّرَ عَنْ سَاقِيهِ ، وَأَعَدَّ لِلْأُمُورِ أَقْرَانَهَا^(٢) ، وللحرب آلتها ، فلما أصابه قِنٌّ^(٣) المغيرة بن شُعْبَةَ ، أمر ابن عباس يسأل الناس : هل يُثَبِّتُونَ قَاتِلَهُ ؟ فلما قيل له قِنُّ الْمَغِيرَةِ ، استهل^(٤) بحمد الله أن لا يكون أصابه ذو حق في الفىء ، فيستحلَّ دمه بما استحلَّ من حقه ، وقد كَانَ أَصَابَ مِنْ مَالِ اللَّهِ بَضْعًا وَثْمَانِينَ أَلْفًا ، فَكَسَرَهَا رِبَاعَهُ^(٥) ، وَكَرِهَ بِهَا كَفَالَةَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وفارق الدنيا نقيًا تقيًا على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنهما ، ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ظُلْمٍ^(٦) ، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها ، وَأَلْقَمْتَكَ ثَدْيَهَا ، فإما وَلِيَّتْهَا أَلْقَيْتَهَا حَيْثُ أَلْقَاهَا اللَّهُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَلَّا بِكَ حَوْبَتَهَا^(٧) ، وكشف بك كُرْبَتَهَا ، امْضِ وَلَا تَلْتَفِتْ ، فَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ عَلَى الْحَقِّ شَيْءٌ ، وَلَا يَعِزُّ عَلَى الْبَاطِلِ شَيْءٌ ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات » ، ولما أن قال : « ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ظُلْمٍ » سكت الناس كلهم إلا هشامًا فإنه قال : « كذبت » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٩ . والعقد الفريد ٢ : ١٤٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٩ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٣٦) .

- [١] الفقى من الإبل . [٢] أسبابها التى تقاد بها ، جمع قرن كسبب وهو الحبل يجمع به البعيران .
[٣] الفن : عبد ملك هو وأبوه ، أو الذى ولد عندك ولا تستطيع إخراجه عنك .
[٤] صاح . [٥] الرباع جمع ربع كشس وهو الدار . [٦] جمع ظالم : وهو المتهم والمائل ، وأصله من ظلم البعير كنع : غمز ومشيه . [٧] المحوبة : الهمة والحاجة .

٣٩٣ — مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز

قام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز، فقال :
 « إنما الدنيا سُوقٌ من الأسواق ، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم ،
 وكم من قوم قد غرهم مثلُ الذي أصبَحْنَا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعَبَهُمْ ،
 فخرجوا من الدنيا مُرَمِلِينَ ^(١) ، لم يأخذوا لما أَحَبُّوا من الآخِرَةِ عُدَّةً ، ولا لما
 كَرِهُوا جُنَّةً ، واقتسم ما جمعوا مَنْ لم يَحْمَدْهم ، وصاروا إلى من لا يَمْنَعُهُمْ ،
 فانظر الذي تحبُّ أن يكون معك إذا قَدِمْتَ ، فَقَدِّمْه بين يديك حتى تخرج
 إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قَدِمْتَ ، فابتغِ به البَدَلَ ، حيث
 يجوز البذل ، ولا تذهبنَّ إلى سِلْعَةٍ قد بَارَتْ على غيرك ، ترجو جَوَازَها عنك ،
 يا أمير المؤمنين ، افتح الأبواب ، وسَهِّلِ الحِجَابَ ، وانصر المظلوم ، وَرُدِّ الظالم .
 (عيون الاخبار م ٢ ص ٣٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٤)

٣٩٤ — وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك

وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان ، وفيهم محمد
 ابن أبي الجهم ^(٢) بن حذيفة العدوي ، وكان أعظمهم قدراً ، وأكبرهم سِنًا ،
 وأفضلهم رأياً وحِلْماً ، فقام متوكِّئاً على عصا ، فقال :

أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك فأطنبت ،
 وأثنت عليك فأحسننت ، ووالله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى مُثْنِيهم
 فضلك ، أفأذن لي في الكلام ؟ قال : تكلم ، قال : أفأوجز أم أطنب ؟ قال :
 بل أوجز ، قال : « تولاك الله أمير المؤمنين بالحُسنى ، وزينك بالتقوى ، وجمع لك

[١] أرمل : فقد زاده وافقر . [٢] في الأمل « اسمعيل بن أد ، الحمد » .

خير الآخرة والاولى ، إن لى حوائج أفأذكرها ؟ قال : هاتها ، قال : كبرت سنّى ، وضعفت قواى ، واشتدت حاجتى ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى ، وَيَنْفِي فَقَرِي « ، قال : يا بن أبى الجهم ، وما الذى يجبر كسرك ، وينفى فقرك ؟ قال : ألف دينار ، وألف دينار ، وألف دينار ، فأطرق هشام طويلاً ، ثم قال : هيهات يا بن أبى الجهم ، بيتُ المال لا يحتمل ما سألت ! فقال : أما إن الأمر لواحد ، ولكن الله آثرك لمجلسك ، فإن تُعطينا فحقنا أدّيت ، وإن تمنعنا نسأل الذى بيده ما حَوَيْت ، إن الله جعل العطاء محبةً ، والمنع مَبْغَضَةً ، وَلَآنُ أَحِبُّكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْغِضَكَ ، قال : فألف دينار لماذا ؟ قال : أقضى بها ديناً قد حُمَّ^(١) قضاؤه ، وَقَدَحَنِي^(٢) حِمْلُهُ ، وأرهتني^(٣) أهله ، قال : نِعَمَ المسلك أسلكها ، ديناً قضيت ، وأمانة أدّيت ، وألف دينار لماذا ؟ قال : أزوّج بها من أدرك من ولدى ، فأشدّ بهم عَضُدِي ، ويكثر بهم عَدَدِي ، قال : ولا بأس أغضضت طرفاً ، وحصّنت فرجاً ، وأمرت^(٤) نسلاً ، وألف دينار لماذا ؟ قال : اشتري بها أرضاً يعيش بها ولدى ، وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ، وتكون ذخراً لمن بعدى ، قال : ولا بأس ، أردت ذخراً ، ورجوت أجراً ، ووصلت رَجْحاً ، قد أمرنا لك بما سألت ، قال : فالحمودُ الله على ذلك ، وجزاك الله يا أمير المؤمنين والرحمَ خيراً ، وخرج ، فقال هشام : تالله ما رأيت رجلاً أَلْطَفَ فى سؤال ، ولا أَرْفَقَ فى مقال ، من هذا ، هكذا فليكن القرشىّ ، وإنا لنعرف الحق إذا تزل ، ونكره الإسراف والبخل ، وما نُعطى تبذيراً ، ولا نمنع تقثيراً ، وما نحن إلاّ خُزّان الله فى بلاده ، وأُمناءه على عباده ، فإن أُذِنَ أعطينا ، وإذا

[١] حَمَّ الأمر : قضى وقدر . [٢] أَتَقَلَّنِي .

[٣] الإرهاق : أن تحمل الإنسان على مالا يطيقه . [٤] كثرت .

منع أَيْئنا ، ولو كَانَ كل قائل يَصْدُق ، وكل سائل يَسْتَحَق ، مَا جَبَّهْنَا ^(١) قَائِلًا ، وَلَا رَدَدْنَا سَائِلًا ، فَنَسْأَلُ الَّذِي يِيده مَا اسْتَحْفَظْنَا أَنْ يُجْزِيه عَلَى أَيْدِينَا ، فَإِنَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ^(٢) ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ، فَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَقَدْ تَكَلَّمْتَ فَأَبْلَغْتَ ، وَمَا بَلَغَ فِي كَلَامِهِ مَا قَصَصْتَ ، فَقَالَ : إِنَّهُ مَبْتَدَى ، وَلَيْسَ الْمَبْتَدَى كَالْمُقْتَدَى .

(صبح الأعشى ١ : ٢٦٤ ، والأمالى ١ : ١٤٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٨٥)

٣٩٥ — مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام

قال خالد بن صفوان : وفدت على هشام فوجدته قد بدأ يشرب الدُّهْن ، وذلك في عام بَاكَرٍ وَسَمِيٍّ ، وَتَتَابَعُ وَلِيَّهُ ^(٣) ، وَأَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ، فَهِيَ كَالزَّرَابِيِّ ^(٤) الْمَبْثُوثَةِ ، وَالْقَبَاطِيُّ ^(٥) الْمَنْشُورَةِ ، وَتَرَاهَا كَالْكَافُورِ ، لَوْ وُضِعَتْ بِهِ بَعْضَةُ ^(٦) لَمْ تُتْرَبْ ^(٧) ، وَقَدْ ضُرِبَتْ لَهُ سُرَادِقَاتُ حَبَرٍ ^(٨) ، بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ يُوسُفُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْيَمَنِ ، تَتْلَأُ كَالْعِقْيَانِ ^(٩) ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ أَزَلْ وَاقِفًا ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ كَالْمُسْتَنْطِقِ لِي ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ، وَدَفَعَ عَنْكَ نِقَمَهُ ، وَجَعَلَ مَا قَلَّدَكَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ رُشْدًا ، وَعَاقِبَةً مَا يَثُولُ إِلَيْهِ تَحَمُّدًا ، وَأَخْلَصَهُ لَكَ بِإِثْقَى ، وَكَثَّرَهُ لَكَ بِالنِّمَاءِ ، وَلَا كَدَّرَ عَلَيْكَ مِنْهُ مَاصِفًا ، وَلَا خَالَطَ سُرُورَهُ بِالرَّوْدَى ، فَلَقَدْ أَصْبَحْتَ لِلْمُؤْمِنِينَ ثِقَةً وَمُسْتَرَاحًا ،

[١] حَبْرُهُ كَنَمُهُ : أَفْهِيهِ بِمَا يَكْرَهُ . [٢] يَقْبُضُ وَيَضِيقُ . [٣] الْوَسْمِيُّ : مَطَرُ الرَّبِيعِ الْأَوَّلِ ، سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَسُمُّ الْأَرْضَ ، وَالْوَلِيُّ : الْمَطَرُ بَدَلِ الْوَسْمِيِّ . [٤] جَمْعُ زَرْبٍ بِالْكَسْرِ وَيَضَمُّ : التَّمَارِقُ وَالْبَسَطُ ، أَوْ كُلُّ مَا بَسَطَ وَاتَّكَى عَلَيْهِ (وَالتَّمَارِقُ : الْوَسَائِدُ الْمُغِيرَةُ) . [٥] قَبَاطِيُّ بِضَمِّ الْأَوَّلِ مَعَ تَشْدِيدِ الْآخِرِ ، وَقَبَاطِيُّ بِفَتْحِ الْأَوَّلِ مَعَ تَخْفِيفِ الْآخِرِ جَمْعُ قَبْطِيَّةٍ بِالضَّمِّ عَلَى ذِي قِيَاسٍ ، وَقَدْ تَكَسَّرَ : ثِيَابٌ كَتَانٌ بِيضٌ رَفَاقٌ كَانَتْ تَعْمَلُ فِي مِصْرَ . [٦] الْبَعْضَةُ وَقَدْ تَكَسَّرَ : انْقِطَعَتْ مِنَ اللَّحْمِ . [٧] أُنْزِبَهُ وَتَرَبَّهُ جَعَلَ عَلَيْهِ التَّرَابَ . [٨] حَبْرُ جَمْعُ حَبْرَةٍ كَفَنِيَّةٌ : ضَرْبٌ مِنْ بَرُودِ الْيَمَنِ . [٩] الْعِقْيَانُ : الذَّهَبُ .

إليك يتصدون في مظالمهم ، ويفزعون في أمورهم ، هذا مقام زين الله به ذكرى ، وأطاب به نشري^(١) ، إذ أراني وجه أمير المؤمنين ، ولا أرى لمقامي هذا شيئاً هو أفضل من أن أنبئه أمير المؤمنين لفضل نعمة الله عليه ، ليحمد الله على ما أعطاه ، ولا شيء أحضر من حديث سلف لملك من ملوك العجم ، إن أذن لي فيه حديثه به ، قال : هات ، قلت : « كان رجل من ملوك الأعاجم ، جمع له فتاء^(٢) السن ، وصحة الطباع ، وسعة الملك ، وكثرة المال ، وذلك بالخوزنق ، فأشرف يوماً ، فنظر ما حوله ، فقال لمن حضره : هل عامتم أحداً أوتي مثل الذي أوتيت ؟ فقال رجل من بقايا حملة الحجّة : إن أذنت لي تكلمت . فقال : قل ، فقال : رأيت ما جمع لك ، شيء هو لك ، لم يزل ولا يزول ، أم هو شيء كان لمن قبلك زال عنه ، وصار إليك ، وكذلك يزول عنك ؟ قال : لا . بل شيء كان لمن قبلي ، فزال عنه ، وصار إليّ ، وكذلك يزول عني ، قال : فسمرت بشيء ، تذهب أدّته ، وتبقى تبعته ، تكون فيه قليلاً ، وتترتنن به طويلاً ؟ فبكي وقال : أين المهرب ؟ قال : إلى أحد أمرين : إما أن تُقيم في ملكك ، فتعمل فيه بطاعة ربك ، وإما أن تُلقى عليك أمساحاً^(٣) ، ثم تلحق بجبل ، تعبد فيه ربك ، حتى يأتي عليك أجلك ، قال : فإلى إذا أنا فعلت ذلك ؟ قال : حياة لا تموت ، وشباب لا يهرم ، وصحة لا تسقم ، وملك جديد لا يبلى ، قال : فإذا كان السحر فاقرع على بابي ، فإني مختار أحد الرأيين ، فإن اخترت ما أنا فيه ، كنت وزيراً لا يُعصى ، وإن اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد ، كنت رفيقاً لا يخالف ، فقرع عليه عند السحربابه ، فإذا هو قد وضع تاجه ، وخلع أطماره ، ولبس أمساحه ، وتهياً

[١] النشر : الرائحة الطيبة . [٢] الفتاء كساء : الشباب .

[٣] الأمساح جمع مسح كحل وهو الكساء من شعر كثوب الرهبان .

للسياحة ، فلزما والله الجبل ، حتى أتاهما أجلهما » ، وأنشده قول عديّ بن زيد :

وتفكرَ ربّ الخورَاقِ إذ أصبح يوماً وللهدى تفكيرُ
سرّه حاله وكثرة ما يملك والبحرُ مُعرِضاً والسدير^(١)
فارعوى قلبه ، فقال : وما غبطةٌ حَيٍّ إلى الممات يصير؟^(٢)

فبكى هشام وقام ودخل ، فقال لى حاجبه : لقد كسبت نفسك شراً ، دعاك
أمير المؤمنين لتحديثه وتلميته ، وقد عرفت علته ، فما زدت على أن نعتت إليه
نفسه ، فأقت أياماً أتوقع الشر ، ثم أتانى حاجبه ، فقال : قد أمر لك بجائزة ،
وأذن لك فى الانصراف . (بيون الأخبار م ٢ : ص ٣٤١ ، الأغاني ٢ : ٣٣)

٣٩٦ — خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لشيبة بن عقال — وعنده جرير والفرزدق والأخطل ،
وهو يومئذ أمير — ألا تخبرنى عن هؤلاء الذين قد مزّقوا أعراضهم ، وهتكوا
أستارهم ، وأغرّوا بين عشائهم ، فى غير خير ولا برّ ولا نفع ، أيهم أشعر؟ فقال
شيبة : « أما جرير فيغرف من بحر ، وأما الفرزدق فينجح من صخر ، وأما
الأخطل فيجيد المدح والفخر » ، فقال هشام : ما فسرّت لنا شيئاً تحصّله ، فقال:
ما عندى غير ما قلت . فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا بن الأهتم ، فقال :

« أما أعظمهم نفراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عُذراً ، وأسيرهم مثلاً ،
وأقلهم غزلاً ، وأحلام عِللاً ، الطامى إذا زخر ، والحامى إذا زأر^(٣) » ، والسامى
إذا خطر ، الذى إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل

[١] معرّضاً : من أعرض الشيء إذا ظهر وبرز . [٢] الغبطة : المسرة .

[٣] وفى رواية زهر الآداب : « إذا زعر » .

العِنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم قوتاً ، الذى إن هجا وصنع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛ وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكهم لعدوه سترأ ، الأغر الأبلق ، الذى إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يلحق ، فخير ، وكلهم ذكى الفؤاد ، رفيع العماد ، وارى الزناد .

فقال له مسامة بن عبد الملك : ماسمعنا بمثلك يا خالد فى الأولين ، ولا رأينا فى الآخرين ، وأشهد أنك أحسنهم وصفاً ، وألينهم عطفاً ، وأعفهم مقالا ، وأكرمهم فعالا .

فقال خالد : « أتم الله عليكم نعمته ، وأجزل لديكم قسمه ، وآنس بكم الغربة ، وفرج بكم الكربة ، وأنت والله ما علمت أيها الأمير كريم الغراس ، عالم بالناس ، جواد فى المخل ^(١) ، بسام فى البذل ، حلیم عند الطيش ، فى ذروة قريش ، ولباب عبد شمس ، ويومك خير من أمس .

فضحك هشام وقال : « ما رأيت كتخلصك يابن صفوان فى مدح هؤلاء ووصفهم ، حتى أرضيتهم جميعاً ، وسأمت منهم .

(الأغانى ٧ : ٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٣)

٣٩٧ — خالد بن صفوان وبلال بن أبى بردة

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي : كان بلال بن أبى بردة ^(٢) جلدا حين أبتلى ، أحضره يوسف بن عمر فى قيوده ، لبعض الأمر ، وهم بالحيرة ، فقام خالد بن صفوان ، فقال ليوسف : « أيها الأمير ، إن عدو الله بلالاً ضربنى وحبسنى ، ولم أفارق جماعة ، ولا خلعت يداً من طاعة » ، ثم التفت إلى بلال

[١] المصط والجذب . [٢] هو بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعري .

فقال : « الحمد لله الذى أزال سلطانك ، وهدأ أركانك ، وأزال جمالك ، وغير حالك ، فوالله لقد كنتَ شديدَ الحِجاب ، مستخفياً بالشريف ، مظهرًا للعصبيَّة (١) » .

فقال بلال : « يا خالد ، إنما استطلتَ على بثلاث ، هن معك على ، الأمير مُقبل عليك ، وهو عنى مُعرض ؛ وأنت مُطلق ، وأنا مأسور ؛ وأنت فى طينتك وأنا غريب » ، فأخمه .

وكان سبب ضرب بلالٍ خالدًا فى ولايته ، أن بلالا مرَّ بخالد فى مؤكِّب عظيم ، فقال خالد : سحابةٌ صيف عن قليل تَقشَعُ (٢) ، فسمعه بلال ، فقال : والله لا تَقشَعُ أو يصيبك منها شؤبوب (٣) برِّد ، وأمر بضربه وحبسه .

(زمر الآداب ٣ : ١٩٠)

٣٩٨ — خطبة الكميث بن زيد بن بين يدي هشام يستعطفه

روى صاحب العقد قال :

كَانَ الْكُمَيْتُ بْنُ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ يَمْدَحُ بَنِي هَاشِمٍ وَيَعْرِضُ بَيْنِي أُمِيَّةَ ، فَطَلَبَهُ هِشَامُ ، فَهَرَبَ مِنْهُ عَشْرِينَ سَنَةً (٤) ، لَا يَسْتَقِرُّ بِهِ الْقَرَارُ ، مِنْ خَوْفِ هِشَامَ ، وَكَانَ مَسْلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لَهُ عَلَى هِشَامَ حَاجَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقْضِيهَا لَهُ ، وَلَا يَرُدُّهُ فِيهَا ، فَلَمَّا خَرَجَ مَسْلَمَةُ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ صُيُودِهِ ، أَتَى النَّاسُ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ ، وَأَتَاهُ الْكُمَيْتُ ابْنُ زَيْدٍ فِيمَنْ أَتَى ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، أَمَا بَعْدَ :
قِفْ بِالْأُيُودِ وَتَوَقَّفْ زَائِرٌ وَتَأَنَّ ، إِنَّكَ غَيْرُ صَاحِرٍ (٥)

[١] وكان أصلاً من العرب اليمانية . [٢] تنكشف وتنفرد . [٣] الشؤبوب : الدفعة من المطر .

[٤] يلاحظ أن مدة خلافة هشام كانت عشرين سنة من سنة ١٠٥ — إلى سنة ١٢٥ هـ .

[٥] صاغر : ذليل .

حتى انتهى إلى قوله :

يَا مُسْلِمَ بْنَ أَبِي الْوَلِيدِ لَيْتَ إِنْ شِئْتَ نَاشِرٌ^(١)
عَلِقْتَ حِبَالِي مِنْ حَبَا لِكَ ذِمَّةَ الْجَارِ الْمُجَاوِرِ
فَالآنَ صِرْتُ إِلَى أُمِّيَّةَ، وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَايِرِ
وَالآنَ كُنْتُ بِهَ الْمَصِيبِ كَمُتَدِّ بِالْأُمْسِ حَازِرُ

فقال مسامة : سبحان الله ! مَنْ هَذَا الْهِنْدِيَّ^(٢) الْجُلْحَابُ^(٣) ، الذي أقبل من
أَخْرِيَاتِ النَّاسِ ، فبدأ بالسلام ، ثم أمّا بعدُ ، ثم الشعر ؟ قيل له : هذا الكميت
ابن زيد ، فأعجب به لفصاحته وبلاغته ، فسأله مَسَامَةَ عَنْ خَبْرِهِ ، وَمَا كَانَ فِيهِ
طَوْلٌ غَيْبَتِهِ ، فَذَكَرَ لَهُ مُخْطَطَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ ، فَضَمِنَ لَهُ مَسَامَةَ أَمَانَهُ ،
وَتَوَجَّهَ بِهِ حَتَّى أَدْخَلَهُ عَلَى هِشَامٍ - وَهْشَامٌ لَا يَعْرِفُهُ - فَقَالَ الْكَمِيتُ : السَّلَامُ
عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ ، قَالَ هِشَامُ : نَعَمْ ،
الْحَمْدُ لِلَّهِ ، مَا هَذَا ؟ قَالَ الْكَمِيتُ : مَبْتَدِئُ الْحَمْدِ وَمَبْتَدِعِهِ ، الَّذِي خَصَّ بِالْحَمْدِ نَفْسَهُ ،
وَأَمَرَ بِهِ مَلَائِكَتَهُ ، جَعَلَهُ فَاتِحَةَ كِتَابِهِ ، وَمُنْتَهَى شُكْرِهِ ، وَكَلَامَ أَهْلِ جَنَّتِهِ ،
أَحْمَدَهُ مُحَمَّدٌ مِنْ عِلْمٍ يَقِينًا ، وَأَبْصَرَ مُسْتَبِينًا ، وَأَشْهَدُ لَهُ بِمَا شَهِدَ بِهِ لِنَفْسِهِ
« قَائِمًا بِالْقِسْطِ »^(٤) وَحَدَّثَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْعَرَبِيُّ ،
وَرَسُولُهُ الْأُمِّيُّ ، أَرْسَلَهُ وَالنَّاسَ فِي هَفَوَاتِ خَيْرَةٍ ، وَمُذْلِمَاتِ ظُلْمَةٍ ، عِنْدَ
اسْتِمْرَارِ أَهْلِيَّةٍ^(٥) الضَّلَالِ ، فَبَلَغَ عَنِ اللَّهِ مَا أَمَرَ بِهِ ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ ، وَجَاهَدَ فِي
سَبِيلِهِ ، وَعَبَدَ رَبَّهُ ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

[١] نشره وأشره : أحياء . [٢] رجل هندي : من أهل الهند ، (وهو هنا على التثنية) .
[٣] الجُلْحَابُ : التيج الكبير ، والضمخ الأجلح ، (والاجلح : الذي انحسر الشعر عن جانبي رأسه) .
[٤] العدل . [٥] الابهة : العظلة والهبطة والكبر .

ثم إني يا أمير المؤمنين ، تَهْتُ في حَيْرَةٍ ، وَحِرْتُ في سَكْرَةٍ ، اذْلَامٌ ^(١) بي خطرُها ، وأهاب ^(٢) بي داعيها ، وأجاني غاويها ، فاقطَوْ طَيْتُ ^(٣) إلى الضلالة ، وتسكَّعت ^(٤) في الظلمة والجهالة ، جائرًا عن الحق ، قائلًا بغير صدق ، فهذا مقامُ العائذِ ^(٥) ، وَمَنْطِقُ التائب ، ومُبْصِرِ الهدى بعد طول العمى ، يا أمير المؤمنين كم من عائرٍ أَقْلَتمْ غُرَّتَه ، ومجترِمٍ ^(٦) عفوتم عن جرْمِه .
فقال له هشام - وأيقن أنه الكميت - وَيَحْك ! مَنْ سَنَ لك النِّوَايةَ ، وأهاب بك في العَمَاية ^(٧) ؟ قال : الذي أخرج أبي آدم من الجنة : فَتَسَى وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ، وأمير المؤمنين كريح رحمةٍ أثارت سحابًا متفرقًا ، فَلَفَقَتْ ^(٨) بعضه إلى بعض ، حتى التحم ، فاستحك هَذَرٌ ^(٩) رَعْدِه ، وتلألؤُ برقه ، فنزل الأرضَ فَرَوَيْتُ ، واخْضَلَّتْ ^(١٠) واخْضُرَّتْ ، وأُسْقِيتْ ، فَرَوَى ظمآنُها ، وامتلأ عطشَانُها ، فكذلك نَعُدُّكَ أنت يا أمير المؤمنين ، أضاء الله بك الظلمة الدَّاجِيَةَ ^(١١) بعد العُمُوس ^(١٢) فيها ، وَحَقَّنَ بك دمَاء قومٍ أشعرَ خَوْفُكَ قُلُوبَهُمْ ^(١٣) ، فهم يكون لما يعلمون من حَزْمِكَ وبصيرتك ، وقد علموا أَنَّك الحرب وابن الحرب إذا احمرَّتِ الحَدَقُ ، وَعَضَّتِ المَنَافِيرُ ^(١٤) بالهَامِ ، عَزَّ بِأَسْكَ ، واستربط جَأَشُكَ ^(١٥) ،

- [١] اذْلَامٌ الليل : ادلهم أي اسودَّ وأظلم ، وفي الأصل « اذْلَامٌ » وهو تصحيف .
[٢] أي دعاني ، وفي الأصل « وأهاب » وهو تحريف ، (ويقال أيضًا هببت به أي دعوته لينزو) .
[٣] اقطوطى : قارب في مشيه إسراعًا . [٤] تسكع : مشى مشيًا متعسفًا لا يدرى أين يأخذ من بلاد الله ، وتحير . [٥] اللابئى : المستحير . [٦] حرم فلان وأحرم واجترم : أذنب .
[٧] العماية : الفواية . [٨] من افق الثوب كضرب : صم شقة إلى أخرى غاطهما .
[٩] من هدر البعير كضرب هدرًا وهديرًا : صوت ، وفي الأصل « هدار » وهو تحريف .
[١٠] ابتلت . [١١] المظلمة . [١٢] في الأصل : « العموس » بالعين ، وهو تحريف ، والصواب : « العموس » من عمس ككرم وفرح عماسة وعموساً : اشتدَّ واسودَّ وأظلم .
[١٣] أشعر الحوف والهم قلبي : لزع به ، وكل ما أزعته بشيء : أشعرته به . [١٤] المفرك كبير ، وبهاء ، وككتابة : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقنع بها المتسلح .
[١٥] أي صار رابطًا من ربط جأشه رباطة (بالكسر) اشتد قلبه .

مِسْعَارٌ^(١) هَتَانُ ، وَكَافٌ بَصِيرٌ بِالْأَعْدَاءِ ، مُغْرِي الْخَيْلِ بِالنَّكْرَاءِ^(٢) ، مُسْتَفْنِي
بِرَأْيِهِ عَنْ رَأْيِ ذَوِي الْأَلْبَابِ ، بَرَأَى أَرِيبٌ ، وَجِلْمٌ مُصِيبٌ ، فَأَطَالَ اللَّهُ
لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَقَاءَ ، وَتَمَّمَ عَلَيْهِ النِّعْمَاءَ ، وَدَفَعَ بِهِ الْأَعْدَاءَ ، فَرَضَى عَنْهُ هِشَامٌ ،
وَأَمَرَ لَهُ بِجَازَةٍ .

وَرَوَى صَاحِبُ الْأَغَانِي خُطْبَةَ السَّكْمِيَّةِ^(٣) فَقَالَ :

[١] فَلَانٌ مَسْرُ حَرْبٍ وَمِسْعَارٌ : أَيُّ مَوْقِدِ نَارِ الْحَرْبِ ، وَمَطَرُ هَتَانٍ : هَطَالٌ ، وَوَكَّافٌ كَذَلِكَ ، وَهِيَ
كِتَابَةٌ عَنِ الْجُودِ . [٢] النَّكْرَاءُ : الْأَمْرُ الشَّدِيدُ .
[٣] وَكَانَ سَبَبُ عِظَبِ هِشَامٍ عَلَى السَّكْمِيَّةِ : أَنَّ حَكِيمَ بْنَ عَبَّاسٍ الْكَلْبِيَّ كَانَ وَلِئَامًا بِهَجَاءٍ مُضِرٍّ
وَالسَّكْمِيَّةِ مُضِرٍّ — فَكَانَتْ شُعْرَاءُ مِصْرَ تَهْجُوهُ وَيَحْمِيهِمْ ، وَكَانَ السَّكْمِيَّةُ يَقُولُ هُوَ وَاللَّهُ أَشْهَرُ مِنْكُمْ
فَالْوَا فَأَجَبَ الرَّجُلُ ، قَالَ إِنَّ حَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيَّ — وَالِيَّ الْعِرَاقِ وَهُوَ عَمِّي — عَمَّنَ إِلَيَّ ، فَلَا أَقْدَرُ
أَنْ أُرَدَّ عَلَيْهِ ، فَالُوا فَاسْمِعْ بِأَدْنِكَ مَا يَقُولُ فِي بَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ مِنَ الْهَجَاءِ ، وَأَشْدُّهُ ذَلِكَ خَفِيَ
السَّكْمِيَّةُ لِمَشِيرَتِهِ ، فَقَامَ قَصِيدَتَهُ الْمُدْهَمَّةَ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ خَالِدًا ، فَقَالَ وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُهُ ، ثُمَّ اشْتَرَى ثَلَاثِينَ حَارِيَّةً
بِأُغْلَى ثَمَنٍ ، وَغَيْرَهُنَّ نَبَايَةَ فِي حَسَنِ الْوُجُوهِ وَالسَّكَمَالِ وَالْأَدَبِ ، فَرَوَّاهُنَّ الْهَاشِمِيَّاتِ — وَهِيَ قِصَائِدُ فَالَهَا
السَّكْمِيَّةُ فِي مَدْحِ بَنِي هَاشِمٍ ، وَكَانَ مَعْرُوفًا بِالنَّشِيعِ لَهُمْ مَشْهُورًا بِذَلِكَ ، وَتَبَدَّدَ هَذِهِ الْقِصَائِدُ مِنْ جَيْدِ شِعْرِهِ
وَمَحْتَارِهِ وَهِيَ مَطْبُوعَةٌ مَشْهُورَةٌ — وَدَسَّهَنَ مَعَ نَحَّاسٍ إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَاشْتَرَاهُنَّ جَمِيعًا ، فَلَمَّا أَسَّسَ
بِهِنَّ اسْتَنْظَفَهُنَّ ، فَرَأَى فِصَاحَةً وَأَدْبًا ، فَاسْتَفْرَأَهُنَّ الْقُرْآنَ فَقَرَأْنَ ، وَاسْتَنْشَدَهُنَّ الشَّعْرَ ، فَأَنْشَدْنَهُ قِصَائِدَ
السَّكْمِيَّةِ الْهَاشِمِيَّاتِ ، فَقَالَ : وَيْلَ لَكُنَّ ! مَنْ فَاتِلُ هَذَا الشَّعْرِ ؟ قَالَ السَّكْمِيَّةُ بْنُ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ ، قَالَ وَفِي أَيِّ
بَلَدٍ هُوَ ؟ قَالَ : فِي الْعِرَاقِ ثُمَّ فِي الْكُوفَةِ ، مَكْنَبٌ إِلَى حَالِدٍ عَامِلُهُ بِالْعِرَاقِ : أَبْعَثْ إِلَيَّ رَأْسَ السَّكْمِيَّةِ ، فَبَعَثَ
إِلَيْهِ خَالِدٌ فِي اللَّيْلِ ، فَأَخَذَهُ وَأَوْدَعَهُ السَّجْنَ ، وَعَزَمَ لِيَنْفَعِدَ أَمْرَ الْخَلِيفَةِ بِهِ ، وَأَعْمَلَ السَّكْمِيَّةَ الْخَلِيلَةَ فِي
الْفِرَارِ ، فَبَعَثَ إِلَى زَوْجِهِ حَبِيبٍ (بِضْمٍ) فَمَتَعَ الْبَاءَ الْمَشْدُودَةَ فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَبَسَ ثِيَابَهَا ، وَتَنَقَّبَ ثَقَابَهَا ، وَأَقَامَهَا مَكَانَهُ ،
وَخَرَجَ مُنْكَرًا ، وَظَلَّ مِرَارِيًا مَدَّةً ، حَتَّى إِذَا أُيْقِنَ أَنَّ الْطَّلَبَ قَدْ خَفَّ عَنْهُ ، خَرَجَ لَيْلًا فِي جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ،
وَمَا زَالَ سِيرَ حَتَّى بَلَغَ الشَّأْمَ ، وَاسْتَجَارَ بِسُلَيْمَةَ بْنِ هِشَامٍ ، فَأَجَارَهُ وَاحْتَالَ لَهُ فِي عَفْوِ الْخَلِيفَةِ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ
إِنَّ مَمْلُوكِيَّةَ بْنِ هِشَامٍ مَاتَ قَرِيبًا ، وَقَدْ حَرَعَ عَلَيْهِ جُزْأٌ شَدِيدًا ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَاصْرُبْ رِوَاغَكَ عَلَى قَبْرِهِ ،
وَأَنَا أَبْعَثُ إِلَيْكَ بِنِيٍّ يَكُونُونَ مَعَكَ فِي الرِّوَاغِ ، فَإِذَا دَعَا بِكَ تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَرْبِطُوا ثِيَابَهُمْ بِثِيَابِكَ ،
وَيَقُولُوا : هَذَا اسْتَجَارَ بِقَبْرِ آبَائِنَا ، وَنَحْنُ أَحَقُّ مِنْ أَجَارِهِ ، فَأَصْبَحَ هِشَامٌ عَلَى عَادَتِهِ مُتَطَلِّعًا مِنْ قَصْرِهِ إِلَى
الْقَبْرِ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالُوا : لَعَلَّهُ مُسْتَجِيرٌ بِالْقَبْرِ ، فَقَالَ : يَجَارُ مِنْ كَانَ إِلَّا السَّكْمِيَّةُ فَإِنَّهُ لَا جَوَارَ لَهُ
فَقِيلَ : فَإِنَّ السَّكْمِيَّةَ ، قَالَ : يَحْضُرُ أَعْتَفَ إِحْضَارٍ ، فَلَمَّا دَعِيَ بِهِ رَبَطَ السَّبِيحَانِ ثِيَابَهُمْ بِثِيَابِهِ ، فَلَمَّا نَظَرَ
هِشَامٌ إِلَيْهِمْ اغْرُورَقَتْ عَيْنَاهُ وَاسْتَعْبَرَ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَجَارَ بِقَبْرِ آبَائِنَا ، وَقَدْ مَاتَ وَمَاتَ
حُطَّهُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَاجْلَعْهُ هَبَّةً لَهُ وَلَنَا ، وَلَا تَفْضِخْنَا فِيمَنْ اسْتَجَارَ بِهِ ، فَبَكَى هِشَامٌ حَتَّى انْتَحَبَ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى
السَّكْمِيَّةِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا سَكْمِيَّةُ : أَمْتُ الْقَاتِلَ كَذَا وَكَذَا مِمَّا أَوْرَدَهُ فِي هَاشِمِيَّاتِهِ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَا أَنَا
مِنْ أَنَّ الْحِجَازَ وَحْشِيَّةً ، ثُمَّ خَطَبَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَسْتَعِظُهُ ، فَعَفَا عَنْهُ وَأَجَازَهُ ، وَتَوَفَّى السَّكْمِيَّةُ سَنَةَ ١٢٦ هـ .

« حميد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : « أما بعد : فإنني كنت أتدهدى ^(١) في غمرة ، وأعوم في بحر غواية ، أخنى على خطلها ، واستفزني وهلكها ^(٢) ، فتحيرت في الضلالة ، وتسكعت في الجهالة ، مهرما عن الحق ، جاراً عن القصد ، أقول الباطل ضللاً ، وأفوه بالبهتان وبالا ، وهذا مقام العائذ ، مبصر الهدى ، ورافض العماية ، فاغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة ^(٣) بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجريمة ^(٤) ، ثم قال :

كم قال قائلكم لعماء لك ، عند عثرته إعاثر ^(٥)
وغفرتهم لذوى الذنوب من الأكاير والأصاغر
أبني أمة : إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتي لكل ملة وعشيرتي دون العشائر
أنتم معاديت للخلافة كابرًا من بعد كابر
بالنسمة المتبايعين خلائفًا وبخير عاشر ^(٦)
وإلى القيامة لا ترا ل إشايع منكم وواتر

ثم قطع الإنشاد ، وعاد إلى خطبته فقال : « إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته ^(٧) ، ومناط المنتجعين بحبله ، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلاً عن استشاطه غضبه بجهل الجاهلين ، فقال له : ويلك يا كميته ! من زين لك الغواية ، ودلاك في العماية ؟ قال ! الذي أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه

[١] دهدى الحبر فتدهدى : دحرجه ، كدهدهه ، والغرة : الانهماك في الباطل ، والشدة .

[٢] الوهل : الضعف والفرع . [٣] الحوبة : الإثم . [٤] الجريمة : كرامة : الجريمة .

[٥] يقال للعائر : لعلك ، وهو دعاء له بأن ينتمش . [٦] « شام بن عبد الملك هو عاشر خلفاء .

بنى أمة . [٧] الصباحة : الجمال ، صبح ككرم فهو صبيح .

العهد ، فلم يجد له عَزْمًا « فرضى عنه ، وأمر له بجائزة .

(المقد الفريد ١ : ١٥٤ ، والأطاني ١٥ : ١١٣)

٣٩٩ - مخاصمة عدى بن أرطاة لامرأته عند شريح القاضي

دخل عدى بن أرطاة على شريح ^(١) القاضي يخاصم امرأة له ، فقال : السلام عليكم ، قال : وعليكم ، قال : استمع منى ، قال : قل أسمع ، قال : إني رجل من أهل الشام ، قال : من مكان سحيق ، قال : وإني قدِمْتُ إلى بلدكم هذا ، قال : خير مقدّم ، قال : وإني تزوجت امرأة ، قال : بالرفاء ^(٢) والبنين ، قال : وإنها ولدت غلامًا ، قال : ليَهْنِكَ الفارس ، قال : وقد كنتُ شرطتُ لها صداقها ، قال : الشرط أمّلكُ ، قال : وقد أردت الخروج بها إلى بلدى ، قال : الرجل أحقُّ بأهله ، قال : فاقضِ بيننا . قال : قد فعلت ، قال : فعلى مَنْ حكمت ؟ قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة مَنْ ؟ قال بشهادة ابن أخت خالتك .

(البيان والنبين ٣ : ٢٣٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٤)

٤٠٠ - كلمة لعمر بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان

وقد تشاحَّ بنو هاشم ، وبنو أمية في ميراث بينهم

عن سُفْيَان بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان قال : وقع ميراث بين بنى هاشم وبين بنى أمية ، تشاحُّوا فيه ، وتضايقوا ، فلما تفرقوا أقبل علينا أبونا عمرو ، فقال : « يا بَنِيَّ : إن لقريشَ دَرَجَاتٍ لُ عنها أقدامُ الرجال ، وأفعالاً تخشع لها

[١] هو أبو أمية شريح بن الحارث الكندي ، كان من كبار التابعين ، وأدرك الجاهلية ، واستقضاء عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد أقام قاضياً خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة وذكاء ، ومعرفة ، وعقل ، وإصابة ، توفى سنة ٨٧ هـ ، وهو ابن مائة سنة ، وقيل ابن مائة وعشرين .

[٢] أى بالانتماء وجمع الشمل ، رفاً الثرب كنح : لأم خرقة ، وضم بهضه إلى بعض .

رَقَابُ الْأَمْوَالِ ، وَغَايَاتِ تَقْصُرُ عَنْهَا الْجِيَادُ الْمُسَوِّمَةُ ^(١) ، وَالْأَسْنَاءُ تَكِلُ عَنْهَا الشَّفَارَ الْمَشْحُودَةَ ، وَلَوْ اخْتَلَفَتِ الدُّنْيَا مَا تَرَيْنَتْ إِلَّا بِهِمْ ، وَلَوْ كَانَتْ لَهُمْ ضَاقَتْ بِسَمَةِ أَخْلَاقِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّهُ لِيُخَيَّلَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ نَاسًا تَخَلَّفُوا بِأَخْلَاقِ الْعَوَامِّ ، فَصَارَ لَهُمْ رِفْقٌ فِي اللَّوْثِ ، وَخَرَقٌ ^(٢) فِي الْحِرْصِ ، وَلَوْ أَمَكَّنَهُمْ لَقَاتَمُوا الطَّيْرَ فِي أَرْزَاقِهَا ، إِنْ خَافُوا مَكْرُوهًا تَعَجَّلُوا لَهُ الْفَقْرَ ، وَإِنْ عُجِّلَتْ لَهُمْ نِعْمَةٌ أَخَّرُوا عَلَيْهَا الشُّكْرَ ، أُولَئِكَ أَنْضَاءُ ^(٣) الْفِكْرِ ، وَعَجَزَةُ حَمَلَةِ الشُّكْرِ .

(الْأَمْوَالُ ٢ : ٢٣٨ ، وَالْمَقْدُ الْفَرِيدُ ٢ : ٤٠)

٤٠١ — رَجُلٌ يَمْدَحُ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِي

وَقَالَ رَجُلٌ لَخَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِي : « وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَبْذُلُ مَا جَلَّ ، وَتَجْبُرُ مَا انْقَلَّ ، وَتُكْثِرُ مَا قَلَّ ، فَفَضْلُكَ بَدِيعٌ ، وَرَأْيُكَ جَمِيعٌ ، تَحْفَظُ مَا شَدَّ ، وَتَوَلِّفُ مَا نَدَّ » .
(زَهْرُ الْأَدَبِ ٣ : ١٦٧)

خَطَبُ الْخَوَارِجِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا

٤٠٢ — خُطْبَةُ حَيَّانَ بْنِ ظَبْيَانَ السُّلَمِيِّ

رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ قَالَ :

كَانَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السُّلَمِيُّ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ — وَكَانَ مِمَّنْ ارْتَثَ ^(١) يَوْمَ النَّهْرَوَانِ ، فَعَفَا عَنْهُ عَلَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي الْأَرْبَعِمِائَةِ الَّذِينَ كَانَ عَفَا عَنْهُمْ ، مِنْ

[١] الْحِيلُ الْمُسَوِّمَةُ : الْمُرْسَلَةُ وَعَلَيْهَا رِكَابًا ، أَوْ الْمَعْلَمَةُ ، أَيْ الَّتِي جُعِلَ عَلَيْهَا سُومَةٌ (بِالضَّمِّ) أَيْ سِمَةٌ وَعَلَامَةٌ ، أَوْ الْمُرْهِيَّةُ . [٢] كَقَفْلٍ وَسَبَبٌ : ضِدُّ الرَّفْقِ ، وَأَنْ لَا يَحْسُنَ الرَّجُلُ الْعَمَلَ وَالتَّصَرُّفَ فِي الْأُمُورِ . [٣] جَمْعُ لُضْوٍ كَمِلَ وَهُوَ الْمَهْرُولُ .
[٤] ارْتَثَ : حَمَلَ مِنَ الْمَرْكَةِ رَثِيئًا ، أَيْ جَرِيحًا وَبِهِ رُمَى .

المرتثين يوم النهر - فكان في أهله وعشيرته : فلبث شهراً أو نحوه ، ثم إنه خرج إلى الرمي ، في رجال كانوا يرون ذلك الرأي ، فلم يزالوا مقيمين بالرى حتى بلغهم قتل عليّ كرم الله وجهه ، فدعا أصحابه أولئك ، وكانوا بضعة عشر رجلاً ، فأتوه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الإخوان من المسلمين : إنه قد بلغني أن أخاكم ابن ملجَم أخاً مُراد قعد لقتل عليّ بن أبي طالب عند أغباش ^(١) الصبح ، مُقابل السدة ^(٢) التي في المسجد مسجد الجماعة ، فلم يبرح راكداً ينتظر خروجه ، حتى خرج عليه حين أقام المقيم الصلاة : صلاة الصبح ، فشدّ عليه ، فضرب رأسه بالسيف ، فلم يبق إلا ليلتين حتى مات » .

فقام سالم بن ربيعة العبسي : لا يقطع الله يميناً علّت قذالَه ^(٣) بالسيف ، فأخذ القوم يحمدون الله على قتله عليه السلام ، ورضى الله عنه ولا رضى عنهم ولا رحمهم ، ثم إن حيان بن ظبيان قال لأصحابه :

« إنه والله ما يبقى على الدهر باقٍ ، وما يلبث الليالي والأيام ، والسّنون والشهور على ابن آدم ، حتى تُدبِقهُ الموت ، فيفارق الإخوان الصالحين ، ويدع الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العجزة ، ولم تزل ضارّة لمن كانت له همّاً وشَجناً ^(٤) ، فانصرفوا بنا رَحِمَكُم الله إلى مِصرنا ، فلنأتِ إخواننا ، فلندعُهم إلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإلى جهاد الأحزاب ، فإنه لا عُذرَ لنا في القعود ، ولا تُنا ظلمةٌ ، وسُنّة الهدى متروكة ، ونأرُنا ^(٥) الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمِنون ، فإن يُظفرنا الله بهم نَعْمِدُ بَعْدُ إلى التي هي أهدى وأرضى وأقوم ، وَيَشْنِي

[١] أغباش جمع غباش بالتحريك : وهو ظلمة آخر الليل . [٢] السدة : باب الدار ، وهي هنا ما يبق من الطاق السدود . [٣] القذال : جماع مؤخر الرأس . [٤] الشجن : الهم والحزن . [٥] الثأر : قاتل حميك .

اللَّهُ بِذَلِكَ صُدُّوا قَوْمٌ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ تُقْتَلْ فَإِنَّ فِي مَفَارِقَةِ الظَّالِمِينَ رَاحَةً لَنَا ، وَلَنَا بِأَسْلَافِنَا أُسُوءَةٌ .

فَقَالُوا لَهُ : كُلُّنَا قَاتِلٌ مَا ذَكَرْتَ ، وَحَامِدٌ رَأْيِكَ الَّذِي رَأَيْتَ ، فَرِذْ بِنَا الْمِصْرَ ، فَإِنَّا مَعَكَ رَاضُونَ بِهِدَاكَ وَأَمْرِكَ ، فَخَرَجَ وَخَرَجُوا مَعَهُ مَقْبِلِينَ إِلَى الْكُوفَةِ ، حَتَّى نَزَلُهَا ، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى قَدِمَ مَعَاوِيَةَ ، وَبَعَثَ الْمَغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ وَالْيَا عَلَى الْكُوفَةِ .
(تاريخ الطبري ٦ : ٩٩)

اثمار الخوارج

ثم إن الخوارج في أيام المغيرة فزعوا إلى ثلاثة نفرٍ منهم : المُسْتَوْدِدُ بْنُ عُلْفَةَ التَّيْمِيُّ ، وَحَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السُّلَمِيُّ ، وَمُعَاذُ بْنُ جُوَيْنٍ بْنُ حُصَيْنِ الطَّائِي ، فَاجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ حَيَّانِ بْنِ ظَبْيَانَ ، فَتَشَاوَرُوا فِيمَنْ يُؤْتَوْنَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لَهُمُ الْمُسْتَوْدِدُ :

٤٠٣ — مقال المستورد بن علفة

« يَا أَيُّهَا الْمَسَامُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْبِثُونَ ، وَعَزَلْ عَنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ ، وَلَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّكُمْ تَحْبِثُونَ ، لَوَلَّيْتُكُمْ مَنْ أَحْبَبْتُمْ ، فَوَالَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ^(١) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، مَا أَبَالِي مَنْ كَانَ الْوَالِي عَلَى مِنْكُمْ ، وَمَا شَرَفَ الدُّنْيَا نَزِيدٌ ، وَمَا إِلَى الْبَقَاءِ فِيهَا مِنْ سَبِيلٍ ، وَمَا نَزِيدٌ إِلَّا الْخُلُودَ فِي دَارِ الْخُلُودِ » .

٤٠٤ — مقال حيان بن ظبيان

فَقَالَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ : « أَمَا أَنَا فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ، وَأَنَا بِكَ وَبِكُلِّ امْرَأٍ مِنْ إِخْوَانِي رَاضٍ ، فَانظُرُوا مَنْ شِئْتُمْ مِنْكُمْ فَسَمُّوهُ ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَبَايِعُهُ » .

[١] بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٤٠٥ — مقال معاذ بن جوين

فقال لهم معاذ بن جوين : « إذا قلتما أنتما هذا ، وأنتما سيدا المسلمين ، وذوّا أنسابهم ، في صلاحكما ودينكما وقدركما ، فمن يرأس المسلمين ؟ وليس كلكم يصلح لهذا الأمر ، وإنما ينبغي أن يلي على المسلمين - إذا كانوا سواء في الفضل - أبصرهم بالحرب ، وأفقههم في الدين ، وأشدّهم اضطلاعاً ^(١) بما تحل ، وأنتما بحمد الله ممن يرضى لهذا الأمر ، فليتولّه أحدكما » .

قالا : فتولّه أنت : فقد رضييناك ، فأنت - والحمد لله - الكامل في دينك ورأيك ، فقال لهما : أنتما أسن مني ، فليتولّه أحدكما ، فقال حينئذ جماعة من حضر : قد رضيينا بكم أيها الثلاثة ، فولّوا أيكم أحببتم ، وكانت خاتمة ذلك النقاش أن بايعوا المستورد ، واتّعدوا أن يتجهّزوا ويتيسّروا ويستعدّوا ، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ . (تاريخ الطبري ٦ : ١٠٠)

٤٠٦ — خطبة المغيرة بن شعبه أمير الكوفة

يحذر أهلها من إيواء الخوارج ونصرتهم

ونمى إلى المغيرة بن شعبه أن الخوارج خارجة عليه ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحبّ لجماعتكم العافية ، وأكفّ عنكم الأذى ، وإني والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدب سوء لسفهاكم ، فأما العلماء الأتقياء فلا ، وإيم الله لقد خشيت أن لا أجد بدءاً من أن يعصّب الحليم

التقى ، بذنب السفية الجاهل ، فكفُّوا أيها الناس سفهاءكم ، قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذُكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهرُوا في المصر بالشقاق والخلاف ، وأيُّمُ الله لا يخرجون في حيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدئهم ، وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم ، فنظر قومٌ لأنفسهم قبل الندم ، فقد قت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار .

ثم نزل ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم :
« إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكن في كل امرئ من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأنحوأنَّ عما كنتم تعرفون ، إلى ما تنكرون ، وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يَلُمُ لائِمٌ إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر » .

فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم ، فناشدوهم الله والإسلام إلا دلوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة ، أو يفارق جماعة ، وجاء صعصعة بن صوحان ، فقام في عبد القيس ، فقال :

٤٠٧ - خطبة صعصعة بن صوحان

يا معشر عباد الله : إن الله - وله الحمد كثيراً - لما قسم الفضل بين المسلمين خصكم منه بأحسن القسم ، فأجبتكم إلى دين الله ، الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه للملائكة ورُسُلُه ، ثم أقمت عليه حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف الناس بعده ، فثبتت طائفة ، وارتدت طائفة ، وأذهنت طائفة ، وتربصت طائفة ، فلزمت دين الله إيماناً به وبرسوله ، وقاثلتم المرتدين ، حتى قام الدين ، وأهلك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء ، وعلى

كل حال، حتى اختلفت الأمة بينها، فقالت طائفة : نريد طلحة والزير وعائشة،
وقالت طائفة : نريد أهل المغرب^(١)، وقالت طائفة : نريد عبد الله بن وهب
الراسبي : راسب الأزد، وقتلتم : أنتم لا نريد إلا أهل البيت، الذين ابتدأنا الله
من قبلهم بالكرامة، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً، فلم تزلوا على الحق لازمين له،
آخذين به، حتى أهلك الله بكم، وبمن كان على مثل هداكم ورأيكم، الناكثين
يوم الجمل، والمارقين يوم النهر، (وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان
كان حينئذ سلطانهم)، ولا قوم أعدى لله ولكم، ولأهل بيت نبيكم، وجماعة
المسلمين، من هذه المارقة الخاطئة، الذين فارقوا إمامنا^(٢)، واستحلوا دمائنا،
وشهدوا علينا بالكفر، فإياكم أن تؤثؤوهم في دؤركم، أو تكتموا عليهم، فإنه ليس
ينبغي لحيٍّ من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم، وقد والله
ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي، وأنا باحث عن ذلك وسائل، فإن كان
حكي لي ذلك حقاً، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم، فإن دمائهم حلال، ثم
قال : يا معشر عبد القيس : إن ولاتنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم، فلا
تجعلوا لهم عليكم سبيلاً، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم .

وأقبل أصحاب المستورد يأتونه، فليس منهم رجل إلا يُخبره بما قام به
المنيرة بن شعبة في الناس، وبما جاءهم رؤساؤهم وقاموا فيهم، وقالوا له : اخرج
بنا فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عشائرنا، نخرج بهم من الكوفة، ووجه المنيرة
لقتالهم معقل بن قيس الرياحي، فلما علم المستورد بمسير معقل إليه جمع أصحابه .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٦)

[١] أي معاوية، وكان والياً على الشام، وهي بالنسبة للعراق في المغرب .

[٢] أي علياً عليه السلام .

٤٠٨ — خطبة المستورد

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هذا الخرف معقل بن قيس قد وُجّه إليكم ، وهو من السَّبئية ^(١) المفترين الكاذبين ، وهو الله ولكم عدو ، فأشيروا على رأيكم . فقال له بعضهم : والله ما خرجنا نريد إلا الله ، وجهاد من عادى الله ، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم ؟ بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقالت طائفة أخرى : بل نعتزل ونتنحّى ، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء . فقال : « يا معشر المسلمين : إني والله ما خرجت ألتبس الدنيا ، ولا ذكرها ، ولا نخرها ، ولا البقاء ، وما أحبُّ أنْهَا لي بحذاقيرها ، وأضعاف ما يُتَنَافَس فيه منها ، بقيال ^(٢) تعلى ، وما خرجت إلا التماس الشهادة ، وأن يَهْدِيَنِي الله إلى الكرامة ، بهوان بعض أهل الضلالة ، وإني قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت أن لا أقيم لهم حتى يَقْدَمُوا عَلَى ، وهم حامون متوافرون ، ولكن رأيت أن أسير حتى أُمَعِن ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا ، فتقطعوا وتبدّدوا ، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عز وجل » .

فخرجوا فمضوا على شاطئ دجلة ، فعبروه ومضوا في أرض جُوخَى ، حتى

[١] السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من صنعاء أسلم زمن عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالهم ، وغلا في على ، وزعم أنه نبي . ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة ، وأتى قوم منهم إلى على ، فقالوا له : أنت هو ، قال : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر ، وأمر بنار ، فأجبت في حفرتين ، وأحرقهم بها ، فجعلوا يقولون وهم يرمون في النار : الآن صبح عندنا أنه الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله ، ثم إن علياً خاف من إحراق الباقيين منهم شجاعة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فبنى ابن سبأ إلى ساباط المدائن ، فلما باءه مقتل على قال : لو أتيتكمونا بدماعه سبعين مرة ما صدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن علياً ، وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة على ، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، ومن ابن سبأ انتسبت أصناف الغلاة . [٢] قبال النمل : زمام بين الأصبع الوسطى والى تليها .

بلغوا المذار فأقاموا فيها ، وأقبل معقل بن قيس ، فأقام بالمدائن ثلاثاً ، ثم جمع أصحابه ، فقال :
(تاريخ الطبري ٦ : ١١٠)

٤٠٩ — خطبة معقل بن قيس

« إن هؤلاء المارقة الضلال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم ، إرادة أن تتمجلوا في آثارهم ، فتقطعوا وتتبددوا ، ولا تلحقوا بهم إلا وقد تعبتهم ونصبتهم^(١) ، وإنه ليس شيء يدخل عليكم من ذلك إلا وقد يدخل عليهم مثله » ، فخرج في آثارهم حتى لحقهم بالمذار مقيمين .

ودارت بينهما رحى الحرب بشدة ، ودعا المستورد معقلاً للمبارزة فتبارزا ، وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه أم الدماغ ، فوقع ميتاً ، وقتل معقل ، وشده أصحابه على الخوارج ، فما لبثوا أن قتلوه .
(تاريخ الطبري ٦ : ١١١)

٤١٠ — كلمات حكيمة للمستورد

كان المستورد يقول : إذا أفضيتُ بسري إلى صديق فأفشاء لم أله ، لأنني كنت أولى بحفظه ، ويقول : لا تُفش إلى أحدٍ سرّاً ، وإن كان مخلصاً ، إلا على جهة المشاورة ، ويقول : كن أحرص على حفظ سرِّ صاحبك ، منك على حَتْنِ دمك ، ويقول : أوّل ما يدلُّ عليه عائبُ الناس معرفته بالعيوب ، ولا يعيب إلا مَعِيبٌ ، ويقول : المال غير باقٍ عليك ، فاشترِ من الحمد ما يبقى عليك ، ويقول : بذلُ المال في حقِّه استدعاءٌ للمزيد من الجواد^(٢) ، وكان يُكثِّرُ أن يقول : لو ملكتُ الأرض بحذافيرها ، ثم دُعيت إلى أن أستهفيد بها خطيئة ما فعلت .

(الكامل للبرد ٢ : ١٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٥٣)

[١] تعبتهم . [٢] أي من الولي الكريم جل وعلا .

اثمار الخوارج ثمانية

٤١١ - خطبة حيان بن ظبيان

فلما كانت سنة ٥٨ هـ ، جمع حيان بن ظبيان السلمي أصحابه إليه ، ثم إنه حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال لهم :

« أما بعد ، فإن الله عز وجل كتب علينا الجهاد ، فمِنَّا مَنْ قَضَى نَجْبَهُ ^(١) ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَظِرُ ، وأولئك الأبرارُ الفائزون بفضلهم ، ومن يكن مِنَّا مَنْ ينتظر ، فهو من سَلَفِنَا القاصينَ نَجْبَهُمْ ، السابقين بإحسان ، فمن كان منكم يريد الله وثوابه ، فليَسْلُكْ سبيلَ أصحابه وإخوانه ، يُؤْتِهِ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ مَعَ الْمُحْسِنِينَ . »

٤١٢ - خطبة معاذ بن جوين

قال معاذ بن جوين الطائي : « يَـأْهُلَ الْإِسْلَامِ : إنا والله لو علمنا أننا إذا تركنا جهادَ الظَّلمة ، وإنكارَ الجور ، كَانْ لَنَا بِهِ عِنْدَ اللهِ عُذْرٌ ، لَكَانَ تَرْكُهُ أَيْسَرَ عَلَيْنَا ، وَأَخْفَ مِنْ رُكُوبِهِ ، وَلَكِنَّا قَدْ عَلِمْنَا وَاسْتَيْقَنَّا أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَنَا ، وَقَدْ جَعَلَ لَنَا الْقُلُوبَ وَالْأَسْمَاعَ ، حَتَّى تُنْكِرَ الظُّلْمَ ، وَتُغَيِّرَ الْجُورَ ، وَتُجَاهِدَ الظَّالِمِينَ . »

ثم قال : ابْسُطْ يَدَكَ نَبَايَعُكَ ، فَبَايِعْهُ ، وَبَايِعْهُ الْقَوْمَ ، فَضَرَبُوا عَلَى يَدِ حَيَّانٍ فَبَايَعُوهُ ، وَذَلِكَ فِي إِمَارَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَثْمَانَ الثَّقَفِيِّ ^(٢) . »



ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل معاذ بن جوين ، فقال لهم

[١] النعب : الأجل والنذر . [٢] وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان .

حيان : عباد الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأمروننى أن أخرج ؟ فقال مُعَاذ : إني أرى أن تسير بنا إلى حُلُوان^(١) حتى نزلها ، فإنها كُورَة بين السهل والخيّل ، وبين المِصر والثَّغَر - يعنى بالثَّغَر الرّىّ - فمن كَانَ يرى رأينا من أهل المِصر والثَّغَر والجبال والسَّوَاد^(٢) لِحِقَ بنا .

٤١٣ - رد حيان بن ظبيان

فقال له حيان : « عَدُوُّكَ مُعَاجِلُكَ قبل اجتماع الناس إليك ، لعمري لا يتركونكم حتى يجتمعوا إليكم ، ولكن قد رأيت أن أخرج معكم في جانب الكوفة والسَّبَّخَة ، أو زُرَّارَة^(٣) والحيرة ، ثم نقاتلهم حتى نلحق برِبنّا ، فإني والله لقد علمت أنكم لا تقدرُون - وأنتم دون المائة رجل - أن تهزِمُوا عدوكم ، ولا أن يشتد نكايتُكم فيهم ، ولكن متى علم الله أنكم قد أجهدتم أنفسكم في جهاد عدوه وعدوكم ، كَانَ لكم به العُذْرُ ، وخرجتم من الإثم » قالوا : رأينا رأيك .

٤١٤ - مقال عتريس بن عرقوب

فقال لهم عَتْرِيس بن عُرْقُوب : ولكن لا أرى رأىَ جماعتكم ، فانظروا في رأيي لكم ، إني لا إخالكم تجهلون معرفتي بالحرب ، وتجربتي للأُمُور ، فقالوا له : أجل ، أنت كما ذكرت ، فما رأيك ؟ قال : ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمِصر ، إنكم قليل في كثير ، والله ما تريدون على أن تُحْزِرُوهم^(٤) أنفسكم ، وَثَقِرُوا أعينهم بقتلكم ، وليس هكذا تكون المِساكيدة ، إذ آثرتم أن تخرجوا على قومكم ، فكيدوا عدوكم ما يضرهم » قالوا : فما الرأى ؟ قال : تسيرون إلى الكُورَة التي

[١] بلد بفارس . [٢] أى سواد العراق . [٣] حملة بالكوفة . [٤] أى تملكونهم .

أشار بنزولها مُعَاذِ بْنِ جُوَيْنٍ ، يَعْنِي حُلْوَانَ ، أَوْ تَسِيرُونَ بِنَا إِلَى عَيْنِ التَّمْرِ ، فَتَقِيمُ بِهَا ، فَإِذَا سَمِعَ بِنَا إِخْوَانَنَا أَتَوْنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَوْبٍ ^(١) »

٤١٥ — رد حيان

فَقَالَ لَهُ حَيَّانُ : « إِنَّكَ وَاللَّهِ لَوْ سَرَرْتَ بِنَا أَنْتَ وَجَمِيعُ أَصْحَابِكَ نَحْوَ أَحَدٍ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ ، مَا أَطْمَأْنَنْتُمْ بِهِ حَتَّى يَلْحَقَ بِكُمْ خِيُولُ أَهْلِ الْمَصْرِ ، فَأَنْتَ تَشْفُونَ أَنْفُسَكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ مَا عِدَّتُكُمْ بِالْكَثِيرَةِ ، الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَطْمَعُوا مَعَهَا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا عَلَى الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ ، فَاخْرَجُوا بِجَانِبٍ مِنْ مِصْرِكُمْ هَذَا ، فَقَاتِلُوا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ مَنْ خَالَفَ طَاعَةَ اللَّهِ ، وَلَا تَرَبَّصُوا وَلَا تَنْتَظِرُوا ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تَبَادِرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَتَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ بِذَلِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ » . قَالُوا : أَمَا إِذَا كَانَ لَا بَدَأَ لَنَا ، فَإِنَّا لَنُخَالِفُكَ ، فَاخْرُجْ حَيْثُ أَحْبَبْتَ .

٤١٦ — خطبة حيان

ثُمَّ إِنْ أَصْحَابُ حَيَّانِ بْنِ ظَبْيَانَ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : « يَا قَوْمَ : إِنْ اللَّهُ قَدْ جَمَعَكُمْ لِحَيْرٍ ، وَعَلَى خَيْرٍ ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، مَا سُرَرْتُ بِشَيْءٍ قَطُّ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ مَا أَسْلَمْتُ ، سِرُّرِي لِمُخْرِجِي هَذَا عَلَى الظُّلْمَةِ الْأَثَمَةِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ الدُّنْيَا بِحُذَافِيرِهَا لِي ، وَأَنَّ اللَّهَ حَرَمَنِي فِي مُخْرِجِي هَذَا الشَّهَادَةَ ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ نَخْرُجَ حَتَّى نَنْزِلَ جَانِبَ دَارِ جَرِيرٍ ، فَإِذَا خَرَجَ إِلَيْكُمْ الْأَحْزَابُ نَاجِزَتَهُمْ » . فَقَالَ عَتْرِيسُ بْنُ عُرْقُوبٍ : أَمَّا أَنْ نَقَاتِلَهُمْ فِي جُوفِ الْمَصْرِ ، فَإِنَّهُ يِقَاتِلُنَا الرِّجَالُ ، وَتَصْعَدُ النِّسَاءُ وَالصَّبَّيَّانُ وَالْإِمَاءُ . فَيَرْمُونَنَا بِالْحِجَارَةِ ، فَقَالَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْهُمْ : انْزِلُوا بِنَا إِذْنَ مِنْ وَرَاءِ الْمَصْرِ الْجِسَرَ - وَهُوَ مَوْضِعُ زُرَّارَةَ ، وَإِنَّمَا بَنِيَتْ

زرارة بعد ذلك إلا أياتاً يسيرة كانت منها قبل ذلك — فقال لهم معاذ بن جوين : لا . بل سيروا بنا فلننزل باتقياً^(١) ، فأسرع ما يأتكم عدوكم ، فإذا كان ذلك استقبلنا القوم بوجوهنا ، وجعلنا البيوت في ظهورها ، فقاتلناهم من وجه واحد ، فخرجوا ، فبُعِث إليهم جيشٌ ، فَقَتِلُوا جميعاً . (تاريخ الطبري ٦ : ١٧٢)

٤١٧ — خطبة مسلم بن عبيدس

حين خرج لقتال الأزارقة

لما ملك نافع بن الأزرق — زعيم الأزارقة^(٢) — بلاد الأهواز ، وفشا عماله في السَّواد ، ارتاع لذلك أهلُ البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، فشكَّوا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان ، وسيرتهم مأتري ، فقال الأحنف : إن فعلهم في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم ، فخذوا في جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف ، فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل^(٣) أمير البصرة ، فسأله أن يؤمر عليهم ، فاختر لهم مُسَلِّم بن عُبيس ، وكان ديناً شجاعاً ، فأمره عليهم وشيَّعه .

فلما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : « إني ما خرجت لامتيار^(٤) »

[١] باتقياً : ناحية من نواحي الكوفة .

[٢] قدما لك في « مناظرة عبد الله بن الزبير للخوارج » أن الخوارج كانوا قد مضوا إلى مكة سنة ٦٤ ليمنعوا الحرم من جيش يزيد ، وناصروا ابن الزبير ، وقاتلوا معه ، ثم ناظروه ، فلم يرقهم ما سمعوا منه ، ففرقوا عنه ، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى البصرة ، وابعوا نافع بن الأزرق الحنفي ، وسموه أمير المؤمنين ، وخرج بهم إلى الأهواز ، فغلبوا عليها وعلى ماوراءها من أرض فارس وكرمان ، ونسبوا إليه قليل لهم : الأزارقة ، وهذه العرقه من أشد فرق الخوارج بأساً ، وأصلها عوداً ، وأكثرها عدداً وأحفلها حوادث وأنباء .

[٣] اظر هامش ص ٢٠٣ . [٤] أي للجب ، وأصله من امتار لأهله : جلب لهم البيرة بالكسر وهي الطعام .

ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فساوراءهم إلا سيوفهم
ورماحهم ، فمن كان شأنه الجهادَ فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع » .
فلما صاروا « بِدُولَابَ » خرج إليهم نافع ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل في
المعركة ابن عبيس وابن الأزرق سنة ٦٥ هـ . (السكال للبدر ٢ : ١٨٠)

خطب المهلب بن أبي صفرة

٤١٨ — خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة

وكان المهلب بن أبي صفرة — وهو على قتال الأزارقة — يأمر أصحابه بالتحريز
ويخوفهم البيات ، وإن بُعد منهم العدو ، ويقول : « احذروا أن تُسكادوا كما
تَكيدون ، ولا تقولوا هَزَمْنَا وَغَلَبْنَا . فإن القوم خائفون وَجِلون ، والضرورة
تفتح باب الحيلة ، ثم قام فيهم خطيباً فقال : « يا أيها الناس ، إنكم قد عرفتم
مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قَدَرُوا عليكم فتنوكم في دينكم ، وسفكوا
دماءكم فقاتلوهم على ما قاتل عليه أولاهم علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقد
لَقِيَهُمْ قبلكم الصابر المحتسب مُسْلِمٌ بن عُيَيْسٍ ، والعَجَلُ المفرط عثمان بن
عُبَيْدِ الله ^(١) ، والمعصي المخالف حارثة بن بدر ، فَقُتِلُوا جميعاً وقتلوا ، فالقوهم بِجِدِّ

[١] هو أخو عمر بن عبيد الله بن ممر الذي ولاه ابن الزبير البصرة (تولاهما بعد عبد الله بن الحرث
ابن نوفل) ، وولى عثمان محاربة الأزارقة بعد مسلم بن عبيس ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً ، فلما دبروا
إليهم دحيلة نهض إليهم الخوارج — وذلك قبيل الظهر — فقال عثمان بن عبيد الله حارثة بن بدر : أما
الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك هؤلاء ، فقال : لا جرم ، والله لا أتمدى حتى أأجزم ،
فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتسلف ، فأبقى على نفسك وجندك ، فقال : أبيتهم أهل الرقاق إلا
جنباً ، وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم (يمرض له بالشراب) فغضب حارثة فاهتز
وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قليلاً ، وانهمز الناس ، وولى حريهم بعده
حارثة بن بدر فهزموه أيضاً ، فهرب يركض حتى أتى دحيلة ، فركب سفينة هو وجماعة من أصحابه ، وأقام

وَحَدَّثَ ، فَإِنَّمَا هُمْ مَهْتَكُم ^(١) وَعِيدُكُمْ ، وَعَارٌ عَلَيْكُمْ ، وَتَقْصُرُ فِي أَحْسَابِكُمْ وَأَدْيَانِكُمْ
أَنْ يَغْلِبَكُمْ هَؤُلَاءِ عَلَى فَيْتِكُمْ ، وَيَطْشُوا حَرِيمَكُمْ .

(الكامل للبرد ٢ : ١٨٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٥)

٤١٩ - خطبة أخرى له في جنده

وخطب أصحابه ، وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر ، وانهزم الناس
بسؤلاف فقال :

« وَاللَّهِ مَا بَكُمْ مِنْ قِلَّةٍ ، وَمَا ذَهَبَ عَنْكُمْ إِلَّا أَهْلُ الْجَبْنِ وَالضَّعْفِ ، وَالطَّمَعِ
وَالطَّبَعِ ^(٢) ، فَإِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ ^(٣) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، فَسِيرُوا إِلَى
عَدُوِّكُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ » . (الكامل للبرد ٢ : ١٩١ ، وشرح ابن أبي م ١ : ص ٣٨٦)

٤٢٠ - نص آخر

وروى الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا فقال :
ثم إن الخوارج شددت على الناس بأجمعها شدة منكرة ، فأجفل الناس ،
وانصاعوا ^(٤) منهزمين ، لا تلوي ^(٥) أمّ على ولد ، حتى بلغ البصرة هزيمة الناس ،
وخافوا السبأ ^(٦) ، وأسرع المهلب حتى سبقهم إلى مكان يفاع ^(٧) ، في جانب عن
سنة المنهزمين ، ثم إنه نادى الناس : إلىّ إلىّ عباد الله ، فتاب إليه جماعة من

رجل من بني تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، فصاح به : يا حارث ليس مثلي ضيع ، فقال للملاح :
قرب ، ف قرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعاً ، فماتوا عرقاً ، وتوجه الخوارج
نحو البصرة ، فضج الناس ، وخافوهم خوفاً شديداً ، واختاروا لقتالهم المهلب بن أبي صفرة ، فولاه القبايع
(وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وإلى البصرة من قبل ابن الزبير بعد عمر بن عبيد الله) .

[١] جمع ما هن ، وهو العبد والخدم . [٢] الشين والميب .

[٣] القرح ويضم عض السلاح ونحوه مما يخرج بالبدن ، أو بالفتح : الآثار ، وبالضم : الألم .

[٤] انصاع : انقل راجعاً مسرطاً . [٥] مرّ لا يلوي على أحد : أي لا يقف ولا ينتظر .

[٦] السبي . [٧] يفاع : ما ارتفع من الأرض .

قومه ، فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى من قد اجتمع رضى جماعتهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله ربنا يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيُهْزَمُونَ ، ويُنْزِلُ النصر على الجمع اليسير فيَظْهَرُونَ ، ولعمري ما بكم الآن من قلة ، إني لجماعتكم لراضٍ ، وإنكم لأنتم أهل الصبر ، وفُرسان أهل المِصر ، وما أحبُّ أن أحداً ممن انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خَبَالاً ^(١) ، عَزَمْتُ على كل امرئ منكم لما أخذ عشرة أحجار ^(٢) ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم ، حتى تستبيحوا عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٨٨)

٤٢١ — خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة

ولما كتب إليه مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْرِ أَنْ أَقْدَمَ عَلَى ، واستخلف ابنك المغيرة ، جمع الناس فقال لهم : « إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم : رِقَّةٌ ورَحمةٌ ، وابنٌ كبيركم : طاعةٌ وبرٌّ وتبجيلا ، وأخو مثلي : مؤاساةٌ ومناصحةٌ ، فَلتَحْسُنْ له طاعتُكم ، ولْيَلِنْ له جانبُكم ، فوالله ما أردت صواباً قط إلا سَبَقَنِي إليه » ، ثم مضى إلى مصعب .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٨ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٩)

٤٢٢ — خطبة الزبير بن علي في الأزارقة

وكان نافع بن الأزرق قبل قتله استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز

[١] فسادا . [٢] وفي الكامل للمبرد : وقال المهلب لأصحابه : أعدوا مخال فيها حجارة ، وارموا بها في وقت الغفلة ، فإنها تصد الفارس ، وتصرع الراجل ، وقال رجل من الخوارج : أنا ما بأحسب أن ليقتلنا بها . وهل تقتل الأبطال وبمحك بالحر ؟

السليطي ، وقتل ابن الماحوز يوم سِلَى وَسِلْبَرَى^(١) ، فاجتمعت الخوارج بأرجان ، فبايعوا الزبير بن علي السليطي ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً بيننا ، فقال لهم : اجتمعوا .

فحمّد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال : « إن البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبة وخزي ، وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ، فما صار إليه خيرٌ مما خَلَفَ ، وقد أصبتم منهم مسلم بن عبيس ، وربيعة الأجدَم^(٢) ، والحجاج بن باب ، وحارثة بن بدر ، وأشجيتهم المهلب ، وقتلتم أخاه المَعَارِك^(٣) ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين : « إِنْ يَمَسِّنْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » ، فيوم سِلَى كَانَ لَكُمْ بَلَاءٌ وَتَمْحِيصٌ ، ويوم سُولَاف^(٤) كَانَ لَهُمْ عَقُوبَةٌ وَنِكَالٌ ، فَلَا تُغْلِبُنَّ عَلَى الشُّكْرِ فِي حِينِهِ ، وَالصَّبْرِ فِي وَقْتِهِ ، وَثِقُوا بِأَنْكُمْ الْمُسْتَخْلَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ م : ص ٣٨٨)

[١] مجموع اللفظين موضع واحد بالاهواز قرب جند بسابور ، وقعت فيها وقعة بين الخوارج والمهلب ، وقتل فيها ابن الماحوز رئيس الخوارج ، وفي ذلك يقول رجل منهم :

سلى وسلبرى مصارع فتية كرام وجرحى لم توسد خدودها

[٢] كان مسلم بن عبيس تقدم إلى أصحابه « يوم دولاب » فقال : إن أصبت فأمرم الربيع بن عمرو الاجدَم ، لما أصيب ابن عبيس أخذ الربيع الراية ، فلم يزل يقاتلهم نيفاً وعشرين يوماً حتى قتل ، ثم أخذها الحجاج بن باب الخيمري ، فلم يزل يقاتلهم زهاء شهر حتى قتل أيضاً ، البقي هو ، وعمران بن الحارث الراسي فاختلفا ضربين ، فسقطا ميتين .

[٣] وكان ابن الماحوز وجه بعض جيشه إلى نهر تيرى ، وبها المعارك بن أبي صفرة ، يقتلوه وصلبوه ، فتمى الخيم إلى المهلب ، فوجه ابنه المفيرة ، فدخل نهر تيرى ، فاستنزله ودفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه . [٤] وفي ذلك اليوم يقول رجل من الخوارج :

وكان تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتلى في الجعيم مصيرها

٤٣٣ — خطبة عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار

وانحط الزبير بن عليّ على أصفهان^(١) ، فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعتاب يحاربه في بعضهن ، فلما طال به الحصار ، وأصابه الجهد الشديد ، دعا أصحابه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس ما تنتظرون وقد أصابكم من الجهد ما قد ترون ؟ فوالله إن^(٢) بقي مع هذا الحصار إلا أن يموت أحدكم على فراشه ، فيجىء أخوه فيدفنه إن استطاع ، وبالحرى أن يضعف عن ذلك ، ثم يموت هو ، فلا يجد من يدفنه ولا يصلي عليه ، فاتقوا الله ، فوالله ما أتم بالقليل الذين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لفرسان أهل مصر ، وإنكم لصلحاء من أتم منه ، ولقد حاربتموه مراراً فانتصفتهم منهم ، أخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم ، وبكم حياة وقوة ، قبل أن لا يستطيع رجل منكم أن يتشى إلى عدوه من الجهد ، وقبل أن لا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءته ، فقاتل رجلاً عن نفسه وصبر وصدق ، فوالله إني لأرجو إن صدقتموه أن يظفركم الله بهم ، وأن يظهوركم عليهم » .

فلما أصبح الغد صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج ، وهم غارئون ، فلم يشعروا بهم حتى غشّوهم ، فقاتلوهم مجديّ لم ير الخوارج منهم مثله ، فمقرّوا منهم خلقاً ، وقتلوا رئيسهم الزبير بن عليّ ، وانهزمت الخوارج .

ثم أدار الخوارج أمرهم بينهم ، فولّوا عليهم قطريّ بن الفجاءة المازنيّ وبايعوه .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٦٦ ، والكمال للبرد ٢ : ٢٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٩١)

[١] أصبهان : بفتح الهزة والباء ، وقد كسر هزتها ، وقد نبدل باؤها فاء .

[٢] إن هنا نافية .

٤٢٤ — نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبدالله

ولما بعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد^(١) أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة^(٢) ، قام إليه عرهم أخو بني العدوية ، فقال :
 « أصلح الله الأمير ، إن هذا الحى من تميم تَطِطُ^(٣) بقريش منهم رَحِمٌ دَاسَةٌ مَاسَةٌ ، وإن الأزارقة ذوَّبان العرب وسبأعها ، وليس صاحبهم إلا المباكر المُنَاكِر ، المُجَرَّب^(٤) ، المجَرَّب ، الذى أَرْضَعَتْهُ الحربُ بِلَبَانِا ، وَجَرَّسَتْهُ^(٥) وَضَرَّسَتْهُ ، وذلك أخو الأزدِ المهلب بن أبي صُفرة ، والله إن غَتَّكَ أَحَبُّ إلينا من سَمِينِهِ ، ولكنى أخاف عَدَوَاتِ الدهرِ وغدره ، وليس المُجَرَّبُ كَمَنْ لَا يُعْلَمُ ، ولا الناصح المشفق ، كالغاشِ المُتَّهِمِ » ، قال له خالد : اسكت ، ما أنت وذا ؟ .
 وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز ، وأخذوا امرأته^(٦) وَفَرَّ عَنْهَا . (ذيل الأمل من ٣٣)

[١] كان والى البصرة وأعمالها من قبل عبد الملك بن مروان من سنة ٧١ إلى سنة ٧٤ (انظر من ٢٢٠) .
 [٢] قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ٢٠٧) : « ومضى قطرى إلى كerman ، فاصرف خالد إلى البصرة ، فأقام قطرى بكرمان أشهراً ، ثم عمد لهارس ، وخرج خالد إلى الاهوار ، وندب لالباس رجلاً فحملوا يطلبون المهلب ، فقال خالد : « ذهب المهلب بحط هذا المصر ، لئنى قد وليت أخى قتال الأزارقة » فولى أخاه عبد العزيز ، واستدلف المهلب على الاهواز فى ثأمئة ، ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفاً ، فحمل عبد العزيز يقول فى طريقه : « يزعم أهل البصرة أن هذا الامر لا يتم إلا بالمهلب وسيمامون ! » إلى أن قال : فهاهم عبد العزيز ، فواقفوه ساعة ، ثم انهزموا عنه مكيدة ، فاتبعهم ، فقال له الباس : لا تتبعهم فإننا على غير نعية فأنى ، فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عتقة ، فاقنعهم وراءهم ، والباس ينهونه ويأبى وكان لهم فى بطن العتقة كمين ، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم السكينة ، وانحاز عبد العزيز ، واتبعهم الخوارج يقتلونهم كيف شاؤوا .

[٣] أصله من أطَّ الرجل أطيطاً : صوت . [٤] من حرب السنان : حدده .

[٥] التجريس : التحكيم والتحرية ، وضرسته الحرب تضريساً : حربته وأحكمته أيضاً .

[٦] وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود ، فسبى الخوارج النساء يومئذ وكانت أم حفص ممن سبين ، قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد (٢ : ٧٥) : « فأقاموها فى السوق حاصرة بادية المحاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكل الناس كلاً وحسناً ، فتزايدت فيها العرب ، والمرالى ، حتى بلغها تسعين ألفاً ، فأقبل رجل من الخوارج من عبد القيس من خلفها ، فضرب عنقها ، فأخذوه ورفعوه إلى قطرى بن الفجاءة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفاً من بيت

٤٣٥ — خطبة قطري بن الفجاءة^(١)

وصعد قطري بن الفجاءة منبر الأزارقة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أما بعد : فإني أحذركم الدنيا ، فإنها خلوة خضرة^(٢) ، خفت^(٣)
 بالشهوات ، وراقت^(٤) بالقليل ، وتحببت بالعاجلة^(٥) ، وحليت^(٦) بالآمال ،
 وتزينت بالغرور ، لاتدوم حبرتها^(٧) ، ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة ،
 خوانة غدارة ، وحائلة^(٨) زائلة ، ونافذة^(٩) بائدة ، أكالة غوالة^(١٠) ، بدالة
 نقالة ، لاتعدو إذا هي تناهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن
 تكون كما قال الله تعالى : « كماء أنزلناه من السماء ، فاختلفت به نبات الأرض ،

البل ، وقتل أمة من إمام المؤمنين ، فقال له : ماتقول ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت هؤلاء قد
 تازعوا عليها ، حتى ارتفعت الأصوات ، واحمرت الحديق ، فلم يبق إلا الخط باليريف ، فرأيت أن تسعين
 ألعافى جنب ماخشيت من الفسة بين المسلمين هيبة ، فقال قطري : حلوا عنه ، عين من عيون
 الله أصابتها » اه .

[١] أورد الشريف الرضى رحمه الله هذه الخطبة في نيج البلاءة ، وعراها إلى الإمام عليّ كرم الله
 وجهه ، وكذلك الفضاعي في دستور معالم الحكم ، وقال ابن أبي الحديد في شرحه (م ٢ : ص ٢٤٢) :
 « وهذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في البيان والنبين ، ورواها لقطري بن الفجاءة ،
 والناس يروونها لأمر المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها في كتاب الموق لأبي عبيد الله المرزباني ، مروية
 لأمر المؤمنين عليه السلام ، وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه ، وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب
 بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأصاره ، وقد
 لقي قطري أكثرهم » .

[٢] أي ناضرة ، من حضر الزرع كفرح ، فهو أخضر وخضر ، وهو من كلام رسول الله صلى الله
 عليه وسلم — انظر خطبته في الجزء الأول ص ٥٥ : [٣] أي أطافت بها الشهوات .

[٤] أعجبت أهلها بمتاع قليل ليس بدائم . [٥] أي وتحببت إليهم باللذة العاجلة ، (والفس مولعة
 بحب العاجل) . [٦] حليت المرأة فهي حال وحالية كتعت [وفي رواية : وتعت] .

[٧] الخبرة : السرور ، وفي رواية : « لاتقوم نضرتها » ، لاتقوم : لانتبت ، والنضرة : النعمة
 والنفى والحسن . [٨] أي متحولة متغيرة من حال يحول ، وفي رواية « خائلة » أي خادعة .

[٩] أي هالكة فانية من نقد يفقد كفرح . [١٠] أي مهلكة من عاله ينوله .

فَأَصْبَحَ هَشِيماً^(١) تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ، مع أن
امراً لم يكن منها في حَبْرَةٍ ، إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةٌ ، ولم يَلْقَ من سَرَّاءِهَا بَطْناً ،
إِلَّا مَنَحَتْهُ من ضَرَّاءِهَا ظَهْراً^(٢) ، ولم تَطْلُغْ غَيْثَةً^(٣) رِخَاءً ، إِلَّا هَطَلَتْ^(٤) عليه مُزْنَةٌ
بَلَاءً ، وَحَرَى^(٥) إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً ، أَنْ تُنْسِيَ لَهُ خَاذِلَةً مُتَنَكِّرَةً ، وَإِنْ جَانِبٌ
مِنْهَا اعْدَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى^(٦) ، أَمْرٌ عَلَيْهِ مِنْهَا جَانِبٌ وَأَوْبَى^(٧) ، وَإِنْ آتَتْ أَمْرًا
مِنْ غَضَارَتِهَا^(٨) وَرَفَاهَتِهَا نِعَمًا ، أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا ، ولم يُنْسِ أَمْرٌ مِنْهَا
فِي جَنَاحِ أَمْنٍ ، إِلَّا أَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ^(٩) خَوْفٍ ، غَرَّارَةً ، غُرُورًا مَا فِيهَا ،
فَانِيَةً ، فَإِنْ مَا عَلَيْهَا ، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ زَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى ، مِنْ أَقَلِّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ
مِمَّا يُؤْتَمَنُ ، وَمِنْ اسْتَكْثَرَ مِنْهُ اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْبَقُ^(١٠) ، وَيُطِيلُ حُزْنَهُ ، وَيُبْسِكِي
عَيْنِيهِ ، كَمْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ لَجَمَتْهُ ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ^(١١) ، وَذِي
اخْتِيَالٍ^(١٢) فِيهَا قَدْ خَدَعَتْهُ ، وَكَمْ مِنْ ذِي أُبْهَةِ فِيهَا قَدْ صَيَّرَتْهُ حَقِيرًا ، وَذِي نَحْوَةٍ

- [١] الهشيم : ما تهشم وتطحط ، وتذروه : أى نظيره . [٢] كسى بالبطن والظاهر عن إقالتها عليه وإدارها عنه لأن الملاقى لك بالصدر ملاقى بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهره مدبر منك .
[٣] طله السحاب يطله : إذا أمطره مطراً قليلاً ، وربما كانت « غيثة » مصحفة عن « غيبة » والغبية
بفتح الغين : المطرة غير الكثيرة ، وفي رواية « ديمة » والديمة بالكسر : مطر يدوم في سكون بلا
رعد وبرق . [٤] هطلت السماء بكس هطلا : تابع مطرها ، وفي رواية : « هتفت » هتفت السماء
بكس أيضاً هتناً : أصبت ، أو هو فوق المطل ، والمرنة : السحابة أو ذات الماء .
[٥] أى صار عذاباً حلوا . [٦] أمر : صار مرا ، وأوى : مسهل عن أوباً ، أى صار ويثاً ،
وبثت الأرض كعرج وكرم وعى ، وأوبأت : صارت كثيرة الوباء ، وهو الطاعون أو كل مرض عام .
[٧] النصارة : العمة والسمة والحص ، وأرهمته : حمله على مالا يطيقه ، وفي رواية : « لا ينال امرؤ
من غضارتها رعا » والرغب بالتجريك ما ترغب فيه ، وفي رواية : « فإن آتت امرأ من غصوننا ورقاً » ،
وفي رواية : « وإن لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نِعَمًا ، أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا نِغَمًا » .
[٨] القوادم : أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح ، الواحدة قادمة ، وخس الحوف بالقوادم لأنها
مقاديم الريش ، والراكب عليها بعرض سقوط قريب . [٩] يهلكه . [١٠] وفي رواية : « وذى
حكم تنه إليها قد صرعه » . [١١] الاختيال : الكبر والعجب ، والأبهة : العظمة ، والبهجة
والكبر والنحوه .

قد رَدَّتْهُ ذليلاً ، وكَم من ذى تاج قد كَبَّتْهُ ^(١) للدين والفم ، سُلْطَانُهَا دُؤْل ،
وعيشها رَنَق ^(٢) ، وَعَذْبُهَا أَجَاجٌ ، وَخُلُوهَا صَبْرٌ ، وَغِدَاؤُهَا سِمَامٌ ، وَأَسْبَابُهَا ^(٣)
رِمَامٌ ، وَقِطَافُهَا سَلَعٌ ^(٤) ، حَيْثُهَا بَعَرَضُ مَوْتٍ ، وَصَحِيحُهَا بَعَرَضُ سُقْمٍ ، وَمَنِيحُهَا
بَعَرَضُ اهْتِضَامٍ ، مَلِيكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ ، وَسَلِيمُهَا مَنَكُوبٌ ،
وَجَامِعُهَا مَحْرُوبٌ ^(٥) ، مع أن وراء ذلك سَكَرَاتِ المَوْتِ ، وَهَوَلِ المَطْلَعِ ،
وَالْوَقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الحَكَمِ العَدْلِ « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ
الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » .

أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنَ مِنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَارًا ، وَأَعَدَّ
عَدِيدًا ، وَأَكْثَفَ جُنُودًا ، وَأَعْتَدَ عَتَادًا ^(٦) ، وَأَطْوَلَ عِمَادًا ؟ تَعْبُدُوا ^(٧) لِلدُّنْيَا
أَيَّ تَعْبُدُوا ! وَآثَرُوهَا أَيَّ إِثَارٍ ! وَظَنُّوا عَنْهَا بِالْكُفْرِ وَالصَّغَارِ ! فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا
سَمَحَتْ لَهُمْ نَفْسًا بِفِدْيَةٍ ، أَوْ أَغْنَتْ عَنْهُمْ فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتَهُمْ بِخَطْبٍ ^(٨) ؟ بَلْ قَدْ
أَرَهَقْتَهُمْ بِالْفَوَادِحِ ^(٩) ، وَضَعَضْتَهُمْ بِالنَّوَائِبِ ، وَعَقَرْتَهُمْ بِالمَصَائِبِ ^(١٠) ، وَقَدْ

[١] صرخته وقلبه . [٢] رنق الماء كفرح ونهر : كدر ، فهو رنق كمدل وكتب وجبل ،
وأجاج : ملح مر ، وسام جمع سم مثلث السمين . [٣] أسباب جمع سبب : وهـ الجبل ، ورمام :
بالية ، حل أرمام ، ورمام : أى بال . [٤] السلاع : شجر مر ، أو سم ، أو صرب من الصبر ، أو
بقلة خيشة الطعم . [٥] مسلوب ، من حره حرماً كمله طلباً : سلب ماله فهو محرووب وحريص ، وفي
رواية : « وجارها محروب » . [٦] العتاد : العدة ، وقد عتد ككرم عتاداً فهو عتيد : أى حاصر
مهماً ممد ، وفي رواية : « وأشدّ عنوداً » من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنوداً : أى مال ،
وفي رواية : « وأشدّ عقوداً » . [٧] أى استعبدتهم الدنيا ، تعبدوه : اتخذوه عبداً .

[٨] أى بشأن وأمر . [٩] الفوادح : النوائب المثقلة ، من مدحه الدين إذا أثقله ، وفي رواية :
« الفوادح » والفوادح جمع فادح : وهو أكل يقع في الشجر والأشنان ، وفي رواية : « وأوهقهم »
أى جعلتهم في الوهق بفتح الهاء وتسكينها : وهو حيل كالطول .

[١٠] وفي رواية : « وعقرتهم بالفجائع » وفي رواية : « وعقرتهم الماخر » ووظفهم بالماسم ،
عقرتهم للماخر : ألصقت أنوفهم بالعقر (كدب وسكن) وهو الزاب ، والماخر جمع منخر بفتح الميم
والهاء ، وبكسرهما ، وبضمهما ، وكهلس : الأنث ، والماسم جمع منسم كجلس وهو خب البعير .

رَأَيْتُمْ تَنْكَرُهَا لِمَنْ دَانَ^(١) لَهَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا ، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْآبَدِ ، إِلَى آخِرِ الْمُسْنَدِ^(٢) ، هَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّغَبَ^(٣) ، وَأَحْلَتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلُمَةَ ، أَوْ أَعَقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ ؟ أَفَهَذِهِ تُؤْتِرُونَ ، أَمْ عَلَى هَذِهِ تَحْرِصُونَ ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ ؟ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَنْعَامَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، فَبُئِست الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهَمْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا .

فَاعْمَدُوا - وَأَنْتُمْ تَعْمَدُونَ - أَنْكُمْ تَارْكُوهَا لَا بُدَّ ، فَإِنَّمَا هِيَ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ بِاللَّعِيبِ وَاللَّهْوِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ^(٤) آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » ، وَاتَعَمَّطُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » ، مُحْمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا ، وَانْزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ^(٥) ضَيْفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الضَّرِيحِ أَكْنَانٌ^(٦) ، وَمِنَ النَّرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ ، فَهُمْ جِيرة لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا ، وَلَا يَنْعَمُونَ ضَيْفًا ، وَلَا يَبَالُونَ مَنْدَبَةً^(٧) ، إِنْ أَخْصَبُوا^(٨) لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قَحِطُوا^(٩) لَمْ

[١] أَيْ خَصَّعَ لَهَا وَدَلَّ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « لِمَنْ رَادَهَا » أَيْ طَلَبَهَا ، رَادَهُ رَوَدَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا : مَالَ .
[٢] الْمُسْنَدُ : الْآخِرُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « إِلَى آخِرِ الْأَمَدِ » . [٣] الْجَوْعُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « الشَّقَاءُ » وَالصَّكُّ : السِّيقُ . [٤] نَزَلَ فِي عَادَ قَوْمِ هُودَ ، الرِّيحُ : الْمُرْتَمِعُ مِنَ الْأَرْضِ ، آيَةٌ : أَيْ أَبْنِيَةٌ وَقُصُورًا يَفْتَخِرُونَ بِهَا ، وَيَعْبَثُونَ بِالْفُقَرَاءِ ، وَيَتَطَاوَلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا ، وَالْمَصَانِعُ : الْمَبَانِي مِنَ الْقُصُورِ وَالْحُصُونِ . [٥] وَفِي رِوَايَةٍ : « فَلَا يَرْعَوْنَ » أَيْ فَلَا يَرْعَاهُ أَحَدٌ .
[٦] الْأَكْنَانُ جَمْعُ كَنٍّ بِالْكَسْرِ : وَهُوَ دِفْءٌ كُلُّ شَيْءٍ وَسْتَرَةٍ ، وَالضَّرِيحُ : الْقَبْرُ أَوْ التَّنْقُ وَسَطُهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانُ » ، وَالْأَجْنَانُ جَمْعُ جَنْتٍ كَسِبَ وَهُوَ : الْقَبْرُ ، وَالصَّفِيحُ : الْحِجَارَةُ الْمَرَاثُ ، وَالرُّفَاتُ : الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ . [٧] الْمَنْدَبَةُ : الدَّبُّ عَلَى الْمَيْتِ . [٨] وَفِي رِوَايَةٍ : « إِنْ حِيدُوا » مِنْ جَادَمِ الْمَيْتِ إِذَا أَمْطَرُوا . [٩] قَحِطَ النَّاسُ كَسَمْعٍ ، وَقَحِطُوا وَأَنْحَطُوا مُبْذِينَ لِلْمَجْهُولِ (قَلِيلَتْنِ) ، وَبِكُلِّ رَوَى .

يَقْنُطُوا ، جَمَعَ وَهُمْ آحَادٌ ، وَجِيرةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ ، مَتْنَاءُ وَنَ لَا يَزُورُونَ وَلَا يُزَارُونَ ،
حُلَمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ ، وَجُهْلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ ، لَا يُخْشَى فِجْمُهُمْ ، وَلَا
يُرْجَى دَفْعُهُمْ ، وَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « قَتَلْتَ مَسَاكِينَهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » ، اسْتَبَدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا ، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا ،
وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً ، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً ، فَفَارَقُوهَا كَمَا دَخَلُوهَا ، حُفَاةً عُرَاهُ فُرَادَى ، غَيْرَ
أَنْ ظَنَّنُوا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ ، وَإِلَى خُلُودِ الْأَبَدِ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « كَلَّا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » ، فَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُمُ
اللَّهُ ، وَاتَّقِعُوا بِمَوَاعِظِهِ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِهِ ، عَصَمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَرَزَقَنَا
وَإِيَّاكُمْ أَدَاءَ حَقِّهِ . (البیان والتبیین ١ : ٦٣ ، وَصَبَّحَ الْأَعْنَى ١ : ٢٢٣ ، وَالْمَقْدَالُ الْفَرِيدُ

٢ : ١٦٠ ، عِيُونَ الْأَخْبَارِ م ٢ : ص ٢٥٠ ، وَنَهْيَةُ الْأَرْبِ ٧ :
٢٥٠ ، وَنَهْجُ الْبَلَاغَةِ ١ : ١٢٢ ، دَسْتُورُ مَمَالِكِ الْحَكَمِ ص ٥١)

٤٣٦ — خُطْبَةُ عَبْدِ رَبِّهِ الصَّغِيرِ

وَلَمَّا دَبَّتْ عَقَارِبُ الْخِلَافِ بَيْنَ الْأَزَارِفَةِ ، وَلَعِبَتْ بِهِمْ يَدُ الشَّقَاقِ ، خَلَعُوا
قَطْرِيَّ بْنَ الْفَجَاءَةِ ، وَوَلَّوْا عَبْدَ رَبِّهِ الصَّغِيرَ ، فَانْفَصَلَ إِلَى عَبْدِ رَبِّهِ أَكْثَرَ مِنْ^(١)
الشَّطْرِ ، وَنَشِبَتْ الْحَرْبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَهْلَبِ ، فَأَجَلَّتْ الْوَقْعَةُ عَنْهُ قَتِيلًا ، وَقَدْ جَمَعَ
أَصْحَابُهُ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي قَتَلَ فِي صَبِيحَتِهَا ، فَقَالَ :

« يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ : إِنْ قَطَرِيًّا وَعُيَيْدَةً^(٢) هَرَبَا طَلَبَ الْبَقَاءَ ، وَلَا سَبِيلَ
إِلَيْهِ ، فَالْقُوا عَدُوَّكُمْ ، فَإِنْ غَلَبَكُمْ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَلَا يَغْلِبُكُمْ عَلَى الْمَوْتِ ، فَتَلَقُّوا

[١] أَمَّا قَطْرِيٌّ فَقَدْ ارْتَحَلَ وَمِنْ مَعِهِ إِلَى طَبْرِسَ-تَنْ ، فَوَحَهُ الْحِجَابُ إِلَيْهِ جَيْشًا عَلَيْهِ سَسْفِيَانُ بْنُ الْأَبْرَدِ
فَقَاتَلُوهُ ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، وَقَبْلَ سَنَةِ ٧٨ هـ ، وَقَبْلَهُ انْتَهَتْ حُرُوبُ الْأَزَارِقَةِ .

[٢] هُوَ عُبَيْدَةُ بْنُ هَلَالٍ الْبَشْكِرِيُّ مِنْ كِبَرَاءِ الْأَزَارِقَةِ .

الرماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهبوا أنفسكم لله في الدنيا ، يهبها لكم في الآخرة . (الكامل المبرد ٢ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٥)

٤٢٧ — خطبة صالح بن مسرّح^(١)

وروى الطبري في تاريخه قال :

كان صالح بن مسرّح يرى رأى الصُفْريّة^(٢) ، وكان رجلاً ناسكاً مُخْبِتاً^(٣) ، مصفراً الوجه ، صاحب عبادة ، وكان يداراً^(٤) وأرض الموصل والجزيرة ، له أصحاب يُقرئهم القرآن ، ويفقههم ويقصّ عليهم ، وكان قصصه :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَعْدِلُ بِكَ ، وَلَا نَحْفِدُ^(٥) إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَمَنْ لَكَ النِّفْعُ وَالضَّرُّ ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ ، وَرَسُولُكَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ وَارْتَضَيْتَهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِكَ ، وَنُصِيحَةِ عِبَادِكَ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ ، وَنُصِيحَ الْأُمَّةِ ، وَدَعَا إِلَى الْحَقِّ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ ، وَنَصَرَ الدِّينَ ، وَجَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَفِرَاقِ الْفَاسِقِينَ ، وَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا تَرْغَبُ الْعَبْدُ

[١] هو صالح بن مسرّح أحد بني امرئ القيس ، وهو زعيم فرقة من الخوارج الصفريّة ، تسمى : « الصالحية » نسبة إليه ، وقد خرج على بني أمية سنة ٧٦ هـ ، فبعث إليه محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشاً بقيادة عدى بن عدى بن عميرة ، فهزمه صالح ونزل عسكره وحوى ما فيه ، وبعث محمد بن مروان إليهم جيشاً آخر فقاتلهم ، فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصل ، فمرح إليهم الحاج جيشاً يقوده الحارث ابن عميرة فحاربهم ، وقتل في المعركة صالح . [٢] الصفريّة : فرقة من الفرق الرئيسية للخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصم ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار ، وقيل لأنهم نهكهم العبادة ، أو لخلوهم من الدين ، وليس هذا موضع تفصيل عقائدهم . [٣] أخبت لله : خضع وتواضع . [٤] داراً : بلد بين نصيبين وماردين من أرض الجزيرة . [٥] حقد كفر ب : خف وأسرع .

فما عند الله ، وتفرَّغ بَدَنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخَيِّف العَبْدَ من ربه ، حتى يَخْجَأُ^(١) إِلَيْهِ وَيَسْتَكِينُ لَهُ ، وإن فراق الفاسقين حَقٌّ على المؤمنين ، قال الله في كتابه : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ، وإن حب المؤمنين لِلْسَّبَبِ الَّذِي يُنَالُ بِهِ كَرَامَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَجَنَّتُهُ ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين ، ألا إن من نعمة الله على المؤمنين أَنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، فعلمهم الكتاب والحكمة وزَكَّاهُمْ وَطَهَّرَهُمْ ، وفقَّهَهُمْ في دينهم ، وكان بالمؤمنين رءُوفاً رحيماً ، حتى قبضه الله ، صلوات الله عليه ، ثم وَلِيَ الْأَمْرَ من بعده التَّقِيُّ الصَّدِيقُ ، على الرضا من المساميين ، فاقتدى بهديهِ ، واستنَّ بسنته ، حتى لحق بالله رحمه الله ، واستخلفَ عمرَ فوَلَاهُ اللهُ أَمْرَ هذه الرعية ، فعَمِلَ بكتاب الله ، وأحيا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يَحْتَقِ في الحق على جِرَّتِهِ^(٢) ، ولم يَخَفْ في اللهِ لَوْمَةَ لَا تُؤْمِ ، حتى لحق به رحمة الله عليه ، وولى من بعده عثمان ، فاستأثر بالثِّقَاءِ ، وعَطَّلَ الْحُدُودَ ، وجار في الْحُكْمِ ، واستذلَّ الْمُؤْمِنَ ، وعزَّزَ الْمُجْرِمَ ، فسار إليه المسلمون فقتلوه ، فبرئ الله منه ورسوله وصالح المؤمنين ، وَوَلِيَ أَمْرَ النَّاسِ من بعده عليُّ بن أبي طالب ، فلم يَنْشَبْ أَنْ حَكَمَ في أمر الله الرِّجَالَ ، وشكَّ في أهل الضلال ، وَرَكَنَ^(٣) وَأَذْهَنَ ، فنحن من عليٍّ وأشياعه بِرَأْيٍ ، فتيسرَوا رحمهم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة ، وأئمة الضلال الظالمة ، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، واللحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين

[١] جَأَ إِلَيْهِ كَنَعَ : رفع صوته بالدعاء ، وتفرَّع واستغاث . [٢] أحنق الصلب : لرق بالبطن ، والجرَّة : ما يخرج البعير من جوفه ويمصه ، كنى بذلك عن عدم إظهاره الحقد والدغل . [٣] ركن إليه : مال .

باعوا الدنيا بالآخرة ، وأنفقوا أموالهم التماسَ رضوان الله في العاقبة ، ولا تجزَعوا من القتل في الله ، فإن القتل أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم - غيرَ ما ترَجُمُ الظنون - ففرِّقْ بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحَلالِكم ودنياكم ، وإن اشتدَّ لذلك كُرْهُكُمْ وجَزَعُكُمْ ، أَلَا فَيُعِمْ اللهَ أَنْفُسَكُمْ طائعينَ وأموالكم ، تدخلوا الجنةَ آمنينَ ، وَتَمَاقُوا الحُورَ الْعِينِ ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذَّاكرين ، الذين يَهْدُونَ بالحق وبه يَعْمَلُونَ » . (تاريخ الطبري ٧ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٩)

٤٢٨ — خطبة أخرى له

وروى الطبري أيضاً قال :

« بينا أصحابُ صالحٍ يختلفون إليه ، إذ قال لهم ذاتَ يوم : « ما أذرى ما تنتظرون ؟ وحتى متى أنتم مُقيمون ؟ هذا الجور قد فَشَا ، وهذا العَدْلُ قد عَفَا ، ولا ترداد هذه الوُلاة على الناس إلا غُلُوءًا وَعُتُوءًا ، وتباعُدا عن الحق ، وَجُرْأَةً على الرب ، فاستعِدُّوا ، وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكارِ الباطل والدعاء إلى الحق ، مثلَ الذي تريدون ، فيأتوكم فلتتقوا ، وننظر فيما نحن صانعون ، وفي أي وقت إن خرجنا نحن خارجون » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٩)

٤٢٩ — خطبة أخرى

وقال لأصحابه ليلة خرج : « اتقوا الله عبادَ الله ، ولا تَعَجَلُوا إلى قِتالِ أحد من الناس إلا أن يكونوا قومًا يريدونكم وَيَنْصِبُونَ^(١) لكم ، فإنكم إنما خرجتم غضبًا لله ، حيث انْتَهَكْتُمُ حَرَمَهُ ، وَعَصَيْتُمُ فِي الْأَرْضِ ، فَسُفِكَتِ الدِّمَاءُ بِغَيْرِ

حِلِّهَا ، وَأُخِذَتِ الْأَمْوَالُ بِغَيْرِ حَقِّهَا ، فَلَا تَعْيَبُوا عَلَى قَوْمِ أَعْمَالٍ ثُمَّ تَعْمَلُوا بِهَا ، فَإِنْ كُلٌّ مَا أَنْتُمْ عَامِلُونَ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُسْتَوْلُونَ ، وَإِنْ غُظِّمَكُمْ رَجَالُهُ ، وَهَذِهِ دَوَابُّ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ فِي هَذَا الرُّسْتَقِ (١) ، فَابْدُءُوا بِهَا فَشُدُّوا عَلَيْهَا ، فَاحْمِلُوا أَرْجُلَكُمْ ، وَتَقَوُّوا بِهَا عَلَى عَدُوِّكُمْ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٠)

٤٣٠ — خطبة زائدة بن قدامة

وَحَلَفَ عَلَى رِيَاسَةِ الْخَوَارِجِ الصُّفَرِيَّةِ بَعْدَ مَقْتَلِ صَالِحِ بْنِ مُسَرِّحٍ أَحَدِ أَصْحَابِهِ ، وَهُوَ شَبِيبُ بْنُ يَزِيدَ الشَّيْبَانِي ، فَكُتِبَ الْحِجَابُ لِقِتَالِهِ الْكَتَائِبُ ، وَكَانَ أَمِيرَهَا فِي بَعْضِ الْوَقَعَاتِ زَائِدَةُ بْنُ قُدَّامَةَ ، وَجَاءَ شَبِيبٌ حَتَّى وَقَفَ مُقَابِلَ الْقَوْمِ ، فَخَرَجَ زَائِدَةُ يَسِيرُ بَيْنَ الْمِيْمَةِ وَالْمَيْسَرَةِ ، يَحَرِّضُ النَّاسَ وَيَقُولُ :

« عِبَادَ اللَّهِ ، إِنَّكُمْ الطَّيِّبُونَ الْكَثِيرُونَ ، وَقَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْخَيْشُونُ الْقَلِيلُونَ ، فَاصْبِرُوا جُعِلَتْ لَكُمْ الْفِدَاءُ ، إِنَّهَا تَحْمِلَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ ، ثُمَّ هُوَ النَّصْرُ لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ ، أَلَا تَرَوْنَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَكُونُونَ مَائِي رَجُلٌ ؟ إِنَّمَا هُمْ أَكْلَةُ رَأْسٍ ، وَهُمْ السُّرَّاقُ الْمُرَّاقُ ، إِنَّمَا جَاءَ وَكَمْ لِيُهَرِّقُوا دِمَاءَكُمْ ، وَيَأْخُذُوا فِيئَكُمْ ، فَلَا يَكُونُوا عَلَى أَخْذِهِ ، أَقْوَى مِنْكُمْ عَلَى مَنْعِهِ ، وَهُمْ قَلِيلٌ وَأَنْتُمْ كَثِيرٌ ، وَهُمْ أَهْلُ فُرْقَةٍ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ جَمَاعَةٍ ، غَضُّوا الْأَبْصَارَ ، وَاسْتَقْبَلُوهُمْ بِالْأَسِنَّةِ ، وَلَا تَحْمِلُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى آمُرَكُمْ » ، فَا بَرَحَ يَقَاتِلُهُمْ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ ، حَتَّى قُتِلَ . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٣٥ ، شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٥)

٤٣١ — خطبة الحجاج بن يوسف

وَلَمَّا هَزَمَ شَبِيبُ الْجَيْشَ الَّذِي كَانَ الْحِجَابُ وَجَّهَهُ إِلَيْهِ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

[١] الرستاق . يستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم ، (مررب) .

ابن محمد بن الأشعث ، أقبل نحو المدائن ، وبلغ ذلك الحجاج ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله لَتُقَاتِلَنَّ عن بلادكم وعن فيئكم ، أو لَأُبْعَثَنَّ إلى قوم هم أطوع وأسمع ، وأصبر على اللأواء والغيظ منكم ، فيقاتلون عدوكم ، ويأكلون فيئكم - يعني جند الشام - . »

فقام إليه الناس من كل جانب ، فقالوا : نحن نقاتلهم ، وَنُعْتِبُ الأَمِيرَ ، فَلْيَنْدُبْنَا الأَمِيرَ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّا حَيْثُ سَرَّه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٨)

٤٣٢ - خطبة أخرى للحجاج

وبعث الحجاج إلى عتّاب بن ورقاء ليأتيه - وكان مع المهلب - ووجهه في جيش لقتال شبيب ، وخطب الناس حين وجهه فقال :

« يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتّاب بن ورقاء بأجمعكم ، لا أَرْخَصُ لأحد من الناس في الإقامة ، إلا رجلاً قد وَلِيَّناه من أعمالنا ، ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة ، ألا وإن لِلنَّاكِيلِ الهاربِ الهوانَ والجفوةَ ، والذي لا إله غيره ، لئن فعلتم في هذا الموطن ، كفعلكم في الموطن التي كانت ، لأُولِيَنَّكُمْ كَنْفًا خَسِينًا ، وَلَأَعْرُ كَنْكُمْ بِكُلِّ كَلِّ ثَقِيلٍ » ، ثم نزل .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٥)

٤٣٣ - خطبة شبيب بن يزيد الشيباني

وعرض شبيب أصحابه بالمدائن فكانوا ألف رجل ، فخطبهم ، فحمد الله ،

وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر المسلمين : إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان ، وأكثر من ذلك قليلاً ، وأنقص منه قليلاً ، وأنتم اليوم مِثُون ومِثُون ، ألا إني مُصَلِّي الظهر ، ثم سأثر بكم إن شاء الله . »

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٩)

٤٣٤ — خطبة عتاب بن ورقاء

ولما تواقف الفريقان للقتال ، جعل عتاب يسير فيما بين الميمنة إلى الميسرة ، يمرّ بأهل راية راية ، فيحثهم على تقوى الله ويأمرهم بالصبر ، ويقص عليهم قَصَصاً كثيراً منه قوله :

« يا أهل الإسلام : إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء ، وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين ، ألا تَرَوْنَ أنه يقول : « وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، فمن حَمِدَ اللهُ فَعَلَهُ فما أعظمَ درجَتَهُ ، وليس الله لأحدٍ أَمَقَّتَ منه لأهل البغي ، ألا تَرَوْنَ أن عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه ؟ لا يَـوْن إلا أن ذلك لهم قُرْبَةً عند الله ، فهم شِرَار أهل الأرض ، وكلاب أهل النار . »

فلم يجبه أحد ، فقال : أين القُصَّاص يَقْصُونَ على الناس ويحرضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يَروى شعر عنترة فيحرك الناس ؟ فلم يجبه أحد ، ولا رد عليه كلمة ، فقال : إنا لله ! والله لكأنني بكم وقد قرّرتُم عن عتاب بن ورقاء ، وتركتُموه تَسْنِي في استِه الرِيحُ ، وحمل عليه شبيبٌ فتنفّرق عنه كثير من أصحابه وخذَلوه ، وثبتَ في عصابة قليلة صَبَرَت معه ، وقاتل حتى قتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٢٠)

٤٣٥ — خطبة الحجاج

ولما رأى الحجاج عجز أهل الكوفة عن قتال شبيب في مواطن كثيرة ، في كلِّها يقتل أمراءهم ، ويفلّ جنودهم ، كتب إلى عبد الملك يستعده ، فبعث إليه سُفيان بن الأبرد الكلبي ، في أربعة آلاف ، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مذحج ، في ألفين ، ودخلا فيمن معهما من أهل الشام الكوفة ، فشدوا للحجاج ظهره ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبرها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يأهل الكوفة ، فلا أعزّ الله من أراد بكم العزّ ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا ، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، الحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا ، إلا من كان لنا عاملاً ، ومن لم يكن شهيد قتال عتاب بن ورقاء ^(١) » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٢٠)

٤٣٦ — خطبة عبد الله بن يحيى الإيباضية ^(٢)

لما استولى عبد الله بن يحيى الكِنْدِيّ على بلاد اليمن سنة ١٢٩ ، خطب

[١] ولم تن همة شبيب عن القتال ، وقد هاجم الكوفة ودخلها ، ونهض الحجاج لمداغته ، فشنت جوعه ، فاصرف عن الكوفة ، وأتبعه الحجاج جيشاً عليه سُفيان بن الأبرد ، فالتقى على جسر دجيل ، وحمل بينهما وطيس القتال ، حتى جنّ الليل ، فقال شبيب لأصحابه : اعبروا معاشر المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرناهم ، فعبروا أمامه ، وزلّ حافر فرسه عن حرف السفينة ، فسقط والماء ، وكان هلاكه سنة ٥٧٧ هـ .

[٢] هو عبد الله بن يحيى الكِنْدِيّ ، كان من حضرموت ، وكان مجتهداً طابداً من رؤساء الخوارج الإيباضية (والإيباضية : فرقة من فرق الخوارج الرئيسة تنسب إلى زعيمها عبد الله بن إيباض — بكسر الهمزة —) وقد خرج ابن يحيى اليمن في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، إذ رأى جوراً ظاهراً ومفساً شديداً ، وسيرة في الناس قبيحة ، فقال لأصحابه : إنه لا يحمل لنا المقام على ماري ، ولا الصبر عليه ، وكتب إلى جماعة من الإيباضية بالبصرة وغيرها يشاؤهم في الخروج ، فوافقوه ، وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي ، وبلغ بن عقبة السعودي في رجال من الإيباضية ، فغرضوه على الخروج ، وكثر

الناس ، فحمد الله جلَّ وعزَّ ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ووعظ وذكر وحذر ، ثم قال :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ،
الإسلام ديننا ، ومحمدٌ نبيُّنا ، والكعبةُ قبلتنا ، والقرآنُ إمامنا ، رضيُّنا بالحلال
حلالا ، لا نبغي به بدِلا ، ولا نشترى به ثمنًا قليلا ، وحرَّمنا الحرام ونبذناه
وراء ظهورنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وإلى الله المشتكى ، وعليه المَعْوَل ،
من زَنَى فهو كافر ، ومن سَرَق فهو كافر ، ومن شَرِب الخمر فهو كافر ، ومن شكَّ
في أنه كافر فهو كافر ، ندعوكم إلى فرائضَ يَبْتَأْتِ ، وآياتٍ مُحْكَمَات ، وآثارٍ
مُقْتَدَى بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وَعَد ، عَدْلٌ فيما حَكَم ، وندعو إلى توحيد
الرب ، واليقين بالوعيد والوَعْد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن
المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والعداوة لأعداء الله .

أيها الناس : إن من رحمة الله أن جعل في كلِّ فَنَّة بقايا من أهل العلم ،
يَدْعُونَ من ضلَّ عن الهدى ، ويصبرون على الألم في جَنب الله تعالى ، يُقْتَلُونَ
على الحق في سالف الدهور شُهَدَاء ، فما نَسِيَهُمْ رَبُّهُمْ ، وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ،
أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فأبْلَوْا الله بلاءً
حسنًا في أمره وذكره ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

(الأغانى ٢٠ : ٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٥)

جمعه . وسموه طالب الحق ، وتوجه إلى صنعاء سنة ١٢٩ (وكان حامل مروان على صنعاء القاسم بن عمر)
فجرت بينه وبين ابن يحيى حروب ومناوشات كانت العسرة فيها لابن يحيى ، فدخل صنعاء ، وأحرز ما فيها
من الخزائن والأموال .

خطب أبي حمزة الشاربي

٤٣٧ - خطبته حين دخل المدينة

ولما دخل أبو حمزة المدينة ^(١) سنة ١٣٠ ، رقي المنبر ، فحمد الله ، وأثنى

عليه ، وقال :

« يا أهل المدينة : سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء ، فأسألكم - لعمرُ الله - فيهم القول ، قاتم والله ما فيهم الذي يعلم ، أخذوا المال من غير حِلِّه ، فوضعوه في غير حقِّه ، وجاروا في الحكم ، فحكموا بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بفيئتنا ، فجعلوه دولةً بين الأغنياء منهم ، وجعلوا مقاسمتنا وحقوقنا في مهرور النساء ، وفُرُوج الإماء ^(٢) ،

[١] بعد أن استولى عبد الله بن يحيى على اليمن سنة ١٢٩ ، أقام بصنعاء أشمرا يحسن السيرة في الناس ويلين جانبه لهم ، ويكفّ الأذى عنهم ، وكثر جمعه ، وأنته الشراة من كل جانب (والشرافة كقصاة جمع شاركوا في وهم الخوارج ، من شري يشري كرمى أى باع ، سموا بذلك أقولهم : شربنا أسننا في طاعة الله أى معاناهما وبه بناهما ، أخذاً من قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » أو أقولهم : شربنا الآخرة بالدنيا ، أى اشتربناها) فلما كان وقت المح وجه ابن يحيى أبا حمزة « وهو المختار بن عوف الأردى ثم السلمي من أهل البصرة » إلى مكة ، فأقبل إليها يوم الثروبة « وهو ثامن ذى الحجة » وعليها وعلى المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، فكره عبد الواحد قتالهم ، ثم خلى مكة لهم ، فدخلها أبو حمزة بغير قتال ، وبعث عبد الواحد إلى المدينة ، جهر جشاً لقتالهم أمر عليه عبد العزيز ابن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فسار حتى نزل قديداً « وقديد كزير » وبلغ أبا حمزة إقبال أهل المدينة إليه ، فاستخلف على مكة ، وشخص إليهم ، وبعث إليهم يسألهم أن يكفوا عنهم ، ويقول لهم : خلوا سبيلنا إلى الشام لنسير إلى من ظلمكم ، وحار في الحكم عليكم ، ولا نجعلوا حدنا بكم ، فإننا لا نريد قتالكم ، فشتهم أهل المدينة ، وقالوا يا أعداء الله : أعن تخليكم وتدعكم تفسدون في الأرض ؟ فقال الخوارج يا أعداء الله : أعن نفسد في الأرض ؟ إنما خرجنا لنكف أهل الفساد ، ونقاتل من قاتلنا ، واستأثر بالىء ، فانطروا لأنفسكم ، واخاموا من لم يحمل الله له طاعة ، فإنه لا طاعة لمن عصى الله ، فادخلوا في السلم ، وعاونوا أهل الحق ، فأبوا عليهم ، ونشب القتال بينهم ، فهزمهم أبو حمزة هزيمة لم يبق بعدها منهم باقية ، وقد بلغت قتلى قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً ، منهم من قريش أربعة مائة وخمسون ، ودخل أبو حمزة المدينة لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة ١٣٠ هـ ، وهرب عبد الواحد بن سليمان إلى الشام [٢] وفي رواية : « وسألناكم : هل يقتلون بالطن ؟ فقلتم : نعم ، وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم نعم » .

فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم ، وجاروا في الحكم ، فحكموا بغير ما أنزل الله ، نُنَاشِدُهُمُ اللهَ أَنْ يَدْنَحُوا عَنَا وَعَنْكُمْ ، لِيُخْتَارَ الْمُسَامُونَ لَأَنْفُسِهِمْ ، فَقُلْتُمْ : لَا يَفْعَلُونَ ، فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم نقاتلهم ، فَإِنْ نَظَهَرَ نَحْنُ وَأَنْتُمْ ، نَأْتِ بِمَنْ يُقِيمُ فِينَا وَفِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُمْ : لَا تَقْوَى عَلَى ذَلِكَ ، فقلنا لكم : نَحْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، فَإِنْ نَظَرَ نَعْدِلُ فِي أَحْكَامِكُمْ ، وَنَحْمِلُكُمْ عَلَى سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَقْسِمُ فِيمَكُمْ بَيْنَكُمْ ، فَأَيُّتُمْ وَقَاتَلْتُمُونَا دُونَهُمْ ، فَقَاتَلْنَاكُمْ وَقَتَلْنَاكُمْ ، فَأَبْعَدَكُمْ اللَّهُ وَأَسْحَقَكُمْ .
(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٧ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨ ،
والعقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٣٨ — خطبة أخرى له

وروى أنه لما دخل المدينة قام فخطب ، فقال في خطبته :
« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ مَرَرْتُ بِكُمْ فِي زَمَنِ الْأَحْوَلِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَدْ أَصَابَتْكُمْ عَاهَةٌ بِثَارِكُمْ ، وَكَتَبْتُمْ إِلَيْهِ تَسْأَلُونَهُ أَنْ يَضَعَ خَرَاجَكُمْ عَنْكُمْ ، فَكَتَبَ إِلَيْكُمْ بَوْضْعَهُ عَنْ قَوْمٍ مِنْ ذَوِي الْيَسَارِ مِنْكُمْ ، فَزَادَ الْغَنَى غِنًى ، وَزَادَ الْفَقِيرُ فَقْرًا ، فَقُلْتُمْ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، فَلَا جَزَاكَمُ اللَّهُ خَيْرًا ، وَلَا جَزَاهُ خَيْرًا » .
(ربح الطبري ٩ : ١٠٨ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

٤٣٩ — خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيبون أصحابه^(١)

وبلغ أبا حمزة أن أهل المدينة يعيبون أصحابه ، كَحَدَاثَةِ أَسْنَانِهِمْ ، وَخِفَةِ أَحْلَامِهِمْ ، فَصَعْدِ الْمَنْبَرِ ، وَعَلِيهِ كِسَاءٌ غَلِيظٌ ، وَهُوَ مُتَنَكِّبٌ قَوْسًا عَرَبِيَّةً ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِهِ ، ثُمَّ قَالَ :

[١] روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بمكة ، وذكر أن اسم أبي حمزة « يحيى بن المختار » .

« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ، قَدْ بَلَغْتَنِي مَقَالَتُكُمْ لِأَصْحَابِي ، وَلَوْ لَا مَعْرِفَتِي بِضَعْفِ رَأْيِكُمْ وَقِلَّةِ عَقُولِكُمْ ، لَأَحْسَنْتُ أَدَبَكُمْ ، وَنَجَّيْتُكُمْ ! إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، وَبَيَّنَّ لَهُ فِيهِ السُّنَنُ ، وَشُرِّعَ لَهُ فِيهِ الشَّرَائِعُ ، وَبَيَّنَّ لَهُ فِيهِ مَا يَأْتِي وَمَا يَنْذَرُ ، فَلَمْ يَكُنْ يَتَقَدَّمُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَلَا يُخْجِمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ ، وَعَلَّمَ الْمَسَامِينَ مَعَ أَلَمِ دِينِهِمْ ، وَلَمْ يَدْعُهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي شُبْهَةٍ ، وَوَلَّى أَبَا بَكْرٍ صَلَاتَهُمْ ، فَوَلَاهُ الْمُسْلِمُونَ أَمْرَ دِينِهِمْ ، حِينَ وَلَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَ دِينِهِمْ ، فَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَانَلَ أَهْلَ الرَّدَّةِ ، وَشَمَّرَ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَالْأُمَّةُ عَنْهُ رَاضُونَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَغْفَرَتُهُ ، ثُمَّ وَلِيَ بَعْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَسَارَ بِسِيرَةِ صَاحِبِهِ ، وَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَجَنَّدَ الْأَجْنَادَ ، وَمَصَّرَ الْأَمْصَارَ ، وَجَبَى الْفَيْءَ ، وَفَرَضَ الْأَعْطِيَةَ ، وَشَمَّرَ عَنْ سَاقِهِ ، وَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعِهِ ، وَجَلَدَ فِي الْحَرِثَمَانَيْنِ ، وَجَمَعَ النَّاسَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ^(١) ، وَغَزَا الْعَدُوَّ فِي بِلَادِهِمْ ، وَفَتَحَ الْمَدَائِنَ وَالْحَصُونِ ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَالْأُمَّةُ عَنْهُ رَاضُونَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَرِضْوَانُهُ وَمَغْفَرَتُهُ ، ثُمَّ وَلِيَ مِنْ بَعْدِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، فَسَارَ سِتِّ سِنِينَ بِسِيرَةِ صَاحِبِهِ - وَكَانَ دُونَهُمَا - ثُمَّ سَارَ فِي السِّتِّ الْأَوَاخِرِ بِمَا أَحْبَطَ بِهِ الْأَوَائِلَ ، وَاضْطَرَبَ حَبِلُ الدِّينِ بَعْدَهَا ، فَطَلَبَهَا ^(٢) كُلُّ امْرِئٍ لِنَفْسِهِ ، وَأَسْرَّ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ سَرِيرَةً أَبْدَاهَا اللَّهُ عَنْهُ ، حَتَّى مَضَوْا عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ وَلِيَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَلَمْ يَبْلُغْ مِنَ الْحَقِّ قَصْدًا ، وَلَمْ يَرْفَعْ لَهُ مَنَارًا ، ثُمَّ مَضَى لِسَبِيلِهِ .

[١] أَى لصلاة القيام ، وفى رواية : « وقام فى شهر رمضان » .

[٢] أَى الحلافة ، يشير إلى تطلع طلعة والوزير إليها ، وطمع معاوية فيها .

ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن لعينه^(١) ، وجلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلف طليق ، فسفك الدم الحرام ، واتخذ عباد الله خولا^(٢) ، ومال الله دولا^(٣) ، وبغى دينه عوجا ودغلا^(٤) ، وأحل الفرج الحرام ، وعمل بما يشتهي ، حتى مضى لسبيله ، فالعنوه لعنه الله ، ثم ولي بعده ابنه يزيد ، يزيد الخُمور ، ويزيد الصَّقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد القروود^(٥) ، الفاسق في بطنه ،

[١] انظر ص ١٧ و ١٨ . [٢] عبداً . [٣] جمع دولة بالضم أى مداولا بين عشيرته دون سائر المسلمين . [٤] الدغل : الفساد كالدخل .

[٥] روى المسعودى في مروج الذهب - ج ٢ : ص ٩٤ - قال :

« وكان يزيد صاحب طرب ، وجوارح ، وكلاب ، وقروود ، ومهود ، ومداومة على الشراب ، وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد - وذلك بعد قتل الحسين - وأقبل على ساقيه ، فقال :

اسمى شربة روى مشاشي ثم صل فاسق منالها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي والتسديد معى وجهادى

« والمشاش كعرب : النفس والطبيعة » ، ثم أمر المفضين فعموا ، وعاب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعل من العسوق ، وفي أيامه طهر الغناء بككة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، وأطهر الناس شرب الشراب ، وكان له فرد يركى بأبى قيس ، يحصره مجلس منادمتيه ، ويطرح له متكأ ، وكان فرداً خبثاً ، وكان يحمله على أمان وحشية ، قد ريصت وذلك لذلك بسرج ولجام ، ويساق بها الخيل يوم الخلة ، خاء في بعض الأيام سابقاً فنناول القسبة ، ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشتهر (مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرر ذات ألوان بشقائق (أى مصممة بمثل الشقائق) وعلى الأذن سرج من الحرير الأحمر مقوش ملوح بأنواع من الألوان . فقال في ذلك بعض شعراء الشام في ذلك اليوم :

تمسك أبا قيس بفصل عانها فليس عليها إن سقطت صم
ألا من رأى الفرد الذى سبقت به حياذ أمير المؤمنين أذن 1

وروى ابن طباطبا في الفخرى ص ٤٩ : « كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلها بالصيد لايزال لاهياً به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه » الجلال بالكسر جمع جل بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به « ويهر لكل كلب عبداً يخدمه ، قيل أن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جناية وجعلها في خزائن بيت المال ، ورحل ذلك الرجل من الكوفة ، وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد ، وكانت دمشق في تلك الأيام فيها سرير الملك - فلما وصل إلى ظاهر دمشق ، سأل عن يزيد فعرفوه أنه في الصيد ، فكره أن يدخل دمشق ، وليس يزيد حاضراً فيها ، ف ضرب مخيمه ظاهر المدينة ، وأمام به ينتظر عود يزيد من الصيد ، فبينا هو في بعض الأيام جالس في خيمته ، لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه ، وفي قوائمها الأساور من الذهب ، وعليها جل يساوى مبلغاً

المأبون^(١) في فرجه ، يخالف القرآن ، واتبع الكهّان ، ونادم القرد ، وعمل بما يشنّيه ، حتى مضى على ذلك لعنه الله ، وفعل به وفعل ، ثم ولي مروان بن الحكم ، طريده لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابن لعينه ، فاسق في بطنه وفرجه ، فالعنوه والعنوا آباءه .

ثم تداولها بنو مروان بعده ، أهل بيت اللعنة ، طرداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقوم من الطلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلاً ، ولعبوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عبيداً ، يورث ذلك الأكبر منهم الأصغر ، فيألفها أمة ! ما أضعفها وأضعفها ! والحمد لله رب العالمين ، ثم مضوا على ذلك من سيئ أعمالهم ، واستخفافهم بكتاب الله تعالى ، قد نبذوه وراء ظهورهم ، لعنهم الله ، فالعنوهم كما يستحقون ، وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يكذب ، وعجز عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله - ولم يذكره بخير ولا شر -

ثم ولي يزيد بن عبد الملك ، غلام ضعيف سفيه ، غير مأمون على شيء من أمور المسامين ، لم يبلغ أشده^(٢) ، ولم يؤنس رُشدُه ، وقد قال الله عز وجل :

كبيراً ، وقد بلغ منها العطش والتعب ، وكادت تموت ، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شذت منه ، فقام إليها وقدم لها ماء وتمهد لها بنفسه ، فما شعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل ، وعليه زيّ الملوك ، وقد علته غبرة ، فقام إليه وسلم عليه ، فقال له : أرأيت كلبة عابرة بهذا الموضع ؟ فقال : نعم يا ولانا ، ما هي في الحية ، قد شربت ماء واستراحت ، وقد كانت على غاية من العطش والتعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الحيمة ، ونظر إلى الكلبة وقد استراحت ، فغضب بحيلها ليخرج ، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه ما أخذ منه ابن زياد ، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخلعة سبية ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ، ولم يدخل دمشق .

[١] أبنة بشىء كعصر وضرب : اتهمه ، فهو مأبون ، بخير أو شر ، فإن أطلقت فقلت مأبون فهو للشر والأبنة كعقدة : العيب . [٢] بلغ أشده أى قوته ، وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة ، وقد

« فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ^(١) » ، فَأَصْرُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ فِي أَحْكَامِهَا وَفَرُوجِهَا وَأَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ، غُلَامٌ مَأْبُونٌ فِي بَطْنِهِ وَفَرْجِهِ ، يَشْرَبُ الْحَرَامَ ، وَيَأْكُلُ الْحَرَامَ ، وَيَلْبَسُ الْحَرَامَ ، يَلْبَسُ بُرْدَتَيْنِ قَدْ حِيكَتَا لَهُ ، وَقُومَتَا عَلَى أَهْلِهِمَا بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَأَكْثَرُ وَأَقْلَ ، قَدْ أَخَذَتْ ^(٢) مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا ، وَصُرِفَتْ فِي غَيْرِ وَجْهِهَا ، بَعْدَ أَنْ ضُرِبَتْ فِيهَا الْأَبْشَارُ ^(٣) ، وَحُلِقَتْ فِيهَا الْأَشْعَارُ ، وَهَتَكَتْ فِيهَا الْأَسْتَارَ ، وَاسْتُحِلَّ مَالُ مَنْ يُحِلُّ اللَّهُ لِعَبْدٍ صَالِحٍ ، وَلَا أَنْبَى مُرْسَلٍ ، ثُمَّ يُجَاسُ حَبَابَةٌ عَنْ يَمِينِهِ ، وَسَلَامَةٌ عَنْ شِمَالِهِ ، تَغْنِيَانِهِ بِمَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ ، وَيَشْرَبُ الْخمر الصُّرَاحَ الْحَرَمَةَ نَصًا بَعِينَهَا ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ مِنْهُ مَا خَذَهَا ، وَخَالَطَتْ رُوحَهُ وَلَحْمَهُ وَدَمَهُ . وَغَابَتْ سَوَرَتُهَا عَلَى عَقْلِهِ ، مَزَّقَ حُلَّتِيهِ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِمَا فَقَالَ : أَتَاذْنَانِ لِي أَنْ أَطِيرَ ^(٤) ؟ نَعَمْ ، فَطَرَّ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ ،

اختلف المؤرخين في مقدار سنّ يزيد ، فقيل إنه توفي وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل إن سبع وثلاثين ، وكانت ولايته أربع سنين وشهرا ، والمراد أنه لم يبلغ أشده لفسفه وعكوفه على اللذات والشهوات .

[١] الآية الكريمة في الدنأى ، وأولها : « وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ . . . » . [٢] أى الدنأى . [٣] فيها : أى فى نخصيلها ، والأشار جمع بشر وهو جمع بشرة : ظاهر الجلد ، والمراد صرب الناس فى حباة الأموال .

[٤] ذكر ذلك ابن طاطا فى البحرى ص ١١٧ قال : « كان يزيد بن عبد الملك خليف بنى أمية شمع بجاريته اسم إحداها سلامة ، والأخرى حباة ، فقطع معهما زمانه ، قالوا : فعت يوما حباة : بين التراقى واللهاة حرارة ما تظمن ولا يسوع فتبرد

فأهوى يزيد ليطير ، فقالت يا أمير المؤمنين : لا فىك حاجة ، فقال : والله لأطيرن ، قالت : على من تدع الأمة ؟ قال : عليك وقبل بدها ، فخرج بعس خدمه وهو يقول : « سحبت عىك فاأسكنك » وروى أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى « ج ١٣ ص ١٤٨ » قال : « كانت حباة مولدة من مولدات المدينة ، حلوة جميلة أوجه ظريفة حسنة العاء ، وقد قال يزيد بن عبد الملك : ما تقرعنى بما أرتبت من الحلالة حتى أشتري سلامة وحباة ، فأرسل فاشترىها له ، فلما اجتمعنا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

فألت عصاما واستقر بها النوى كما قرّ عينا بالآيات المسامر

وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك أنبل على يزيد يلومه فى الإلحاح على العناء والشراب ، وقال له : إلك

وحريق ناره ، وأليم عذابه ، طرأ إلى حيث لا يردك الله .

ثم ذكر بنى أمية وأعمالهم وسيرهم فقال : « أصابوا إثرّة ضائعة ، وقوماً طغاماً جهّالاً ، لا يقومون لله بحقّ ، ولا يفرّقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فملكوا الأمر ، وتسأطوا فيه تسلط رُبويّة ، بطشهم بطش الجبارة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، يأخذون بالظنّة ، ويعطّلون الحدود بالشفاعات ، ويأمنّون الخوّة ، ويقصّون ذوى الأمانة ، يأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ

وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وقد تشاقلت بهذه الأمة عن النظر في الأمور ، والوفود ببابك ، وأصحاب العلامات يصيرون ، وأنت عاقل عنهم ، فقل : صدقت والله وأعتبه ، وهم بترك الشراب ، ولم يدخل على حباية أياما ، فمست حباية إلى الأحوس أن يقول أبياتا في ذلك ، وقالت له : إن رددته عن رأيه ، فلك ألف دينار ، فقال :

ألا لاتفه اليوم أنت يقبلدا فقد علب الخزوت أن يتجلدا
بكيت الصبا جهدى من شاء لامي ومن شاء آسى في البكاء وأسعدا
وإني وإن فندت في طلب الغنى لأعلم أني لست في الحب أوحدا
إذا أنت لم تمشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من يابس الصخر - لهدا
فما العيش إلا ما تلذّ وتشتهى وإن لام فيه ذو الشنان ومدا

ومكث يريد جمعة لارى حباية ، ولا بدعو بها ، فلما كان يوم الجمعة ، قالت لبعض جواربها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعديني ، فلما أراد الحروح أعلامتها ، فتلفته والورد في يدها ، فمات البيت الأول ، فغطى وجهه ، وقال : مه لا تعلى ، ثم عت : فما العيش إلا ما تلذّ وتشتهى : فعدل إليها ، وقال : صدقت والله معج الله من لامي فيك ، يا علام سر مسلمة أن يصلى بالناس ، وأقام معها يشرب وتغني ، وعاود ما كان فيه ، ثم قال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأحوس ، فأحضره ثم أنشده قصيدة مدحه فيها ، فقال له : ارفع حوائجك ، فسكت إليه في نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره ، فأمر له بها . انظر أيضا تاريخ الطبري ٨ : ١٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ : ص ١٧٥ ، ومما ذكره السمودي : أن حباية اعتلت فأقام يزيد أياما لا يطهر للناس ، ثم مات ، فأقام أياما لا يدفنها حتى جيف فقبل له : إن الناس يتحدثون بمجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك ، فدفنها وأقام على قبرها ، فقال :

فإن نسل عنك النفس أو تدع الهوى فبالياس تسلسو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياما ولائل ومات .

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ، وَالنَّارِ مِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ^(١) » ، فأقبل صَنَفٌ تاسع ليس منها ، فأخذ كلُّها ، تلکم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوم لعنهم الله .

وأما إخواننا من هذه الشيعة - وليسوا بإخواننا في الدين ، لكنى سمعت الله عز وجل قال في كتابه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » - فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لا يرجعون إلى نظير نافذ في القرآن ، ولا عقل بالغ في الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب ، قد قلّدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم المصبية لحزب لزموه ، وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم ، غيّا كان أو رشداً ، ضلالةً أو هدى ، ينتظرون الدّول في رجعة الموتى ^(٢) ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدعون علم الغيب لمخلوق ، لا يعلم أحدهم ما في بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ، ينقمون المعاصي على أهلها ، ويعملون

[١] الصدقات : الزكاة ، العاملين عليها : الساعين في تحصيائها وجمعها ، والمؤلفة قلوبهم : الذين أسلموا ونايهم صعيقة في الاسلام ، فتستألف قلوبهم ، وفي الرقاب : أى وفي فك رقاب المكابن ، فيما ونون بئىء منها ، والنارمين : أى المدينين لأنفسهم في غير مصبة ، ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء .
[٢] كان بعض الشيعة يعتقدون في أنهم الذين ماتوا ، أنهم أحياء لم يموتوا ، إلا أنهم غائبون عن أعين الناس ، فالشيعة الكيسانية يقولون أن محمد بن الحنفية رضى الله عنه لم يمت ، وإنه في جبل رضوى (بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عتبان فضاختان تحريان بماء وعسل ، وإنه يعود بعد الية فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، وفيه يقول كثير من أبيات :

يغيب ولا يرى فيهم زماناً برضى عنده غسل وماء

— انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٥ والفصل لابن حزم ٤ : ١٣٧ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والائنا عشرية » وهى إحدى فرقتي الشيعة الامامية ، سموا بذلك لوقوفهم عند الامام الثاني عشر وهو محمد ابن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالمهدي المنتظر » يزعمون أنه دخل في سرداب بسر من رأى ، وغاب هناك ، وأنه يخرج في آخر الزمان فيملا الأرض عدلاً وهم ينتظرونه - ويسمونه المنتظر لذلك - ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا ، فيهتفون باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشبك النجوم ، ثم ينفذون ويرجئون الأمر إلى الية الآتية - انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ - .

إذا ولّوا بها ، يُصِرُّون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها ، جُفَاءً في دينهم ، قليلة عتولهم ^(١) ، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا أن مواليتهم لهم تُغنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتُنجيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ^(٢) .

فأى هؤلاء الفرق يأهل المدينة تتبعون ، أم بأى مذاهبهم تقتدون ؟ وقد بلغنى أنكم تَتَقَصُّون أصحابي ! قلتم هم شباب أحداث ، وأعراب جُفَاء ، ويحكم يأهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون في الخير إلا شباباً أحداثاً ؟ أما والله إنى لعالم بتأبُعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم . شبابٌ والله مُكْتَبِلُونَ ^(٣) في شبابهم ، غَضِيضَةٌ عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء ^(٤) عبادة ، وأطلاحٌ سَهَرٌ ^(٥) ، باعوا أنفُساً تموت غداً ، بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله إليهم في جَوْف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شهِقَ شهقةً ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض رُكَبَهُم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كَلَالَ ^(٦) الليل بكلال النهار ، مُصْفَرَّة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك في جَنبِ الله ، مُوفُونَ بعهد الله ، مُنْجِزُونَ لوعده الله ، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فُوقَتْ ^(٧) ،

[١] وفي البيان والتبيين « جُفَاءً عن القرآن ، أنواع كمان » . [٢] أفكته عنه كضرب : صرفه وقلب رأيه . [٣] أى قد أحرزوا رزائة الكهول وسداد رأيهم .
[٤] جمع فضول وهو المهزول . [٥] جمع طلاح وهو كنضو وزنا ومعى .
[٦] الكلال : التعب والإعياء . [٧] فُوقَتْ السهم : جعل له دوقاً (بالضم) وهو موضع الوتر من السهم ، أى أعدت للرمى .

ورماحهم وقد أشرعت^(١) ، وسيوفهم وقد اتضيت^(٢) ، وبرقت الكتيبة
ورعدت بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا
بوعيد الله لوعيد الكتيبة ، ولقوا شبا^(٣) الأسنة ، وشائك السهام ، وظبات
السيوف بنحورهم ، ووجوههم وصدورهم ، فمضى الشاب منهم قُدُما ، حتى
اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفِّر^(٤)
جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء ، وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى لهم
وحسن مأب ، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف
الليل من خوف الله ، وكم من يد قد أيدت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها
صاحبها راكما وساجدا ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق^(٥) ، قد فُلق بعمد
الحديد ، ثم بكى ، وقال : آه ، آه على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ،
وأدخل أرواحهم الجنان . (الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٩ ،
والبيان والتبيين ٢ : ٦١ ، والعقد المفرد ٢ : ١٦١)

٤٤٠ — خطبة أخرى

ورقى المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أوصيكم بتقوى الله وطاعته ، والعمل بكتابه . وسنة نبيه صلى الله عليه
وسلم ، وصلة الرحم ، وتعظيم ما صغرت الجبارة من حق الله ، وتصغير
ما عظمت من الباطل ، وإماتة ما أحيوا من الجور ، وإحياء ما أماتوا من الحقوق ،
وأن يطاع الله ، ويُعصى العباد في طاعته ، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله ، ولا
طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ، والقسم

[١] سددت . [٢] استلت . [٣] جمع شبابة : ومى حد كل شيء ، والطبات جمع ظبة ،
ومى حد السيف . [٤] أصابه العفر : وهو التراب . [٥] كريم .

بالسَّوِيَّةَ ، والعدلِ في الرعية ، ووضع الأُخماسِ في مواضعها التي أمر الله ^(١) بها ، تعلمون يا أهل المدينة أننا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أَشْرًا وَلَا بَطَرًا ، وَلَا عَبَثًا ، وَلَا لَهْوًا ، وَلَا لدولة مُلْك نريد أن نخوض فيه ، وَلَا لثأر قديم نيل منا ، ولكننا لما رأينا مصاييحَ الحقِّ قد أطفِئت ، ومعالم العدل قد عُطِلَّت ، وكثر الادِّعاء في الدين ، وعُهِلَ بالهوى ، وعُتِفَ القائلُ بالحق ، وقُتِلَ القائم بالقِسْط ، ضاقت علينا الأرضُ بما رَحِبَتْ ، وسمعنا داعيًا ^(٢) يدعو إلى طاعة الرحمن ، وَحُكْم القرآن ، فَأَجَبْنَا داعِيَ الله ، وَمَنْ لَا يَحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ ^(٣) في الأرضِ ، فَأَقْبَلْنَا من قبائلِ شَتَّى ، النفرُ ^(٤) منا على بعير واحد ، عليه زادهم وأنفسهم ، يتعاورونَ لحافًا واحدًا ، قليلون مُستضعفون في الأرض ، فأَوانا الله وأَيَّدنا بنصره ، وأصبحنا والله جميعًا بنعمته إخوانًا ، وعلى الدين أعوانًا ، ثم لقينا رجالكم بقُدَيْدٍ ، فدعَوْنَاهُمْ إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن ، ودعَوْنَاهُ إلى طاعة الشيطان ، وحكم مروان وآل مروان ، فشتَّانَ لعمرُ الله ما بين النغيِّ والرشد ! ثم أَقبلوا يُهرِّعون وَيَرِفُونَ ^(٥) ، قد ضرب الشيطان بِجِرَانِهِ ^(٦) ، وغلت بدمائهم مَرَاجِلُهُ ، وَصَدَّقَ عَلَيْهِم إبليسُ ظَنَّهُ ، وأقبل أنصار الله عصائبَ وكتائبَ ، بكل مُهَنَّد ذِي رَوْنَقٍ ، فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المَبْطَلون .

وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يُسْحِثْكُمْ ^(٧) الله بِعَذَابٍ

[١] قال الله تعالى : « وَأَعْلَهُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ » . [٢] يريد عبد الله بن يحيى الكندي .

[٣] أى لا يعجز الله بالهرب منه فيفوته . [٤] النفر : جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة .

[٥] ذف الظليم وغيره كضرب زفا وزفيًا وزفوفًا وأزف : أسرع .

[٦] جران البعير : مقدم عنقه من مذبجه إلى منحره أى استولى عليهم . [٧] أسحطه : استأصله .

من عنده أو بأيدينا ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ إِنْ أَوْلَاكُمْ خَيْرَ أَوْلٍ ، وَآخِرَكُمْ شَرٌّ آخِرٍ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : النَّاسُ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، إِلَّا مُشْرِكًا عَابِدَ وَثْنٍ ، أَوْ كَافِرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ إِمَامًا جَائِرًا أَوْ شَاذًا عَلَى عِصْمِهِ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّفَ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا ، أَوْ سَأَلَهَا مَا لَمْ يُؤْتِهَا ، فَهُوَ لِلَّهِ عَدُوٌّ وَلَنَا حَرْبٌ ^(١) . (تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨ ، الأغانى ٢٠ : ١٠٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨ ، والبغدادي ٢ : ١٦١)

٤٤١ — خطبة له في سبِّ أهل المدينة وتقرير عنهم

وخطب بالمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : مَا لِي رَأَيْتَ رَسْمَ الدِّينِ فِيكُمْ بَاقِيًا ، وَآثَارَهُ دَارِسَةً ، لَا تَقْبَلُونَ عِظَتَهُ ، وَلَا تَفْقَهُونَ مِنْ أَهْلِهِ حُجَّةً ، قَدْ بَلَّيْتُ فِيكُمْ جِدَّتَهُ ، وَانْطَمَسَتْ عَنْكُمْ سُنَّتُهُ ، تَرَوْنَ مَعْرُوفَهُ مُنْكَرًا ، وَالْمُنْكَرَ مِنْ غَيْرِهِ مَعْرُوفًا ، إِذَا انْكَشَفَتْ لَكُمْ الْعِبَرُ ، وَأَوْضَحْتَ لَكُمْ النُّذُرَ ^(٢) ، تَحْمِيَتْ عَنْهَا أَبْصَارُكُمْ ، وَصُمَّتْ عَنْهَا أَسْمَاعُكُمْ ، سَاهَيْنَ فِي غَمْرَةٍ ، لَاهَيْنَ فِي غَفْلَةٍ ، تَنْبَسِطُ قُلُوبُكُمْ لِلْبَاطِلِ إِذَا نُشِرَ ، وَتَنْقَبِضُ عَنِ الْحَقِّ إِذَا ذُكِرَ ، مُسْتَوْحِشَةً مِنَ الْعِلْمِ ، مُسْتَأْنَسَةً بِالْجَهْلِ ، كَلِمًا وَقَعَتْ عَلَيْهَا مَوْعِظَةٌ زَادَتْهَا عَنِ الْحَقِّ نُفُورًا ، تَحْمِلُونَ قُلُوبًا فِي صُدُورِكُمْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ ، أَوْ لَمْ تَلِمَنَّ لِكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَوْ أَنْزَلَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ ، مَا تُتَغْنِي

[١] روى أنه قال غيب ذلك : « يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ أَخْبَرُونِي عَنْ ثَمَانِيَةِ أَهْمٍ فَرَصَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى الْعَوَى ، عَلَى حَبِّهِ لِلضَّعِيفِ ، لِحَاجَتِهِ تَاسِعٍ ، لَيْسَ لَهُ مِنْهَا وَلَا سَهْمٌ وَاحِدٌ ، فَأَخَذَ جَمِيعَهَا لِنَفْسِهِ مَكَابِرًا عَارِبًا لِرَبِّهِ ، مَا يَقُولُونَ فِيهِ وَفِيمَنْ عَاوَنَهُ عَلَى فَعْلِهِ ؟ يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ بَلَّغْنِي أَنْتُمْ تَنْتَقِصُونَ أَصْحَابِي . . . الخ » وقد حذفته هنا لوروده في الخطبة السالفة . [٢] النذر : جمع نذير وهو المنذر .

عنكم صحة أبدانكم إذا سَقِمت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء سبباً غالباً
ينقاد له ، ويطيع أمره ، وجعل القلوبَ غالبَةً على الأبدان ، فإذا مالت القلوب
مَيْلاً ، كانت الأبدان لها تَبَعاً ، وإن القلوب لا تَلين أهلها إلا بصحتها ، ولا
يصححها إلا المعرفةُ بالله ، وقوَّةُ النية ، ونفاذُ البصيرة ، ولو استشعرت تقوى
الله قلوبُكم ، لاستعملت في طاعة الله أبدانكم ، يأهل المدينة : دارُكم دارُ
الهجرة ، ومثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نبت به دارُه ، وضاق به
قَرَارُه ، وآذاه الأعداء ، وتجهمت ^(١) له ، فنقله الله إليكم ، بل إلى قوم لعمرى لم
يكونوا أمثالكم ، مُتَوَازِينَ مع الحق على الباطل ، مختارين الآجلَ على العاجل ،
يصبرون للضراء رجاء ثوابها ، فنصروا الله ، وجاهدوا في سبيله ، وآووا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتبعوا النورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، وآثروا الله على
أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ^(٢) . قال الله تعالى لأمثالهم ولئن أهتدى
بهдам : « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، وأنتم أبناؤهم
ومن بقى من خلفهم ، تتركون أن تقتدوا بهم ، أوتأخذوا بسنتهم ، تُحى القلوب ،
صُمَّ الآذان ، اتبعتم الهوى ، فأرداكم عن الهدى وأسهاكم ، فلا مواءمَ
القرآن ترجركم فتزدجرون ، ولا تعظكم فتعتبرون ، ولا توقظكم فتستيقظون ،
لبئس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم ، ماسرتم بسيرتهم ، ولا حفظتم
وصيتهم ، ولا احتذيتهم مثالهم ، لو شُقَّت عنهم قبورهم ، فَعُرِضَتْ عليهم أعمالكم ،
لَعَجِبُوا كيف صُرف العذاب عنكم ! » .

(الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

[١] تحمُّه وتحمُّه له : استقبله بوجه كريمة . [٢] الخصاصة : الفقر

وجاء في رواية العقد الفريد :

« يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : أَوَّلُكُمْ خَيْرُ أَوَّلٍ ، وَآخِرُكُمْ شَرُّ آخِرٍ ، إِنَّكُمْ أَطَعْتُمْ قُرَاءَكُمْ وَفَقَهَاءَكُمْ فَاخْتَانُوكُمْ ^(١) عَنْ كِتَابٍ غَيْرِ ذِي عِوَجٍ ، بِتَأْوِيلِ الْجَاهِلِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، فَأَصْبَحْتُمْ عَنِ الْحَقِّ نَاكِيبِينَ ^(٢) ، أَمْوَاتًا غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا تَشْعُرُونَ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : يَا أَبْنَاءَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ، مَا أَصَحَّ أَصْلَكُمْ ، وَأَسْقَمَ فَرْعُكُمْ ! كَانَ آبَاؤُكُمْ أَهْلَ الْيَقِينِ ، وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْدِينِ ، وَالْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ ، وَالْقُلُوبِ الْوَاعِيَةِ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ ، اسْتَعْبَدْتُمْ الدُّنْيَا فَأَذَلَّتْكُمْ ، وَالْأَمَانِيَّ فَأُضَلَّتْكُمْ ، فَتَحَ اللَّهُ لَكُمْ بَابَ الدِّينِ فَسَدَدْتُمُوهُ ، وَأَغْلَقَ عَنْكُمْ بَابَ الدُّنْيَا فَفَتَحْتُمُوهُ ، سَرَّاعًا إِلَى الْفِتْنَةِ ، بِطَائِفٍ عَنِ السُّنَّةِ ، عُحْمَى عَنِ الْبِرْهَانِ ، صُمٌّ عَنِ الْعَرِيفَانِ ، عَبِيدُ الطَّمَعِ ، خُلَفَاءُ الْجَزَعِ ، نِعَمَ مَا وَرَّثَكُمْ آبَاؤُكُمْ لَوْ حَفِظْتُمُوهُ ، وَبُئْسَ مَا تَوَرَّثُونَ أَبْنَاءَكُمْ إِنْ تَمَسَّكُوا بِهِ ، نَصَرَ اللَّهُ آبَاءَكُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَخَذَلَكُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، كَانَ عَدَدُ آبَائِكُمْ قَلِيلًا طَيِّبًا ، وَعَدَدُكُمْ كَثِيرًا خَبِيثًا ، اتَّبَعْتُمُ الْهَوَى ، فَأَزْدَاكُمْ ، وَاللَّهُوُ فَأَسْهَأَكُمْ ، وَمَوَاعِظُ الْقُرْآنِ تَرْجُرُكُمْ فَلَا تَرْدَجِرُونَ ، وَتَعْبُرُكُمْ ^(٣) فَلَا تَعْتَبِرُونَ .

(العقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٤٢ - خطبة أخرى

وخطب فقال : « أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ فِي نَاشِيءٍ فِتْنَةٍ ^(٤) ، وَقَائِدُ ضَلَالَةٍ ، قَدْ طَالَ بَهْؤُومُهَا ، وَاشْتَدَّ عَلَيْكَ غُمُومُهَا ، وَتَلَوَّنَتْ ^(٥) مَصَايِدُ عَدُوِّ اللَّهِ فِيهَا ، وَمَا

[١] خَاتُوكُمْ . [٢] أَيْ عَادِلِينَ عَنْهُ مُنْصَرِفِينَ . [٣] الْمُرَادُ : تَمَطُّعُكُمْ ، مِنَ الْعَبْرَةِ ، وَلَمْ أَجِدْهُ فِي كِتَابِ اللُّغَةِ بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَلِأَنَّمَا الَّذِي فِيهَا : « هَبْرُ الدِّرَاهِمِ : وَزْنُهَا » .
[٤] مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ الْمَوْصُوفِ أَيْ فِي فِتْنَةٍ نَاشِئَةٍ ، أَيْ حَيَاةٍ شَابَةٍ .
[٥] تَعَدَّدَتْ وَصَارَتْ ذَاتَ أَوَانٍ أَيْ نَصَبَ الْعَدُوِّ لَنَا الْمَصَايِدَ ، وَدَبَرَ الْمَكَايِدَ لِلْإِيقَاعِ بِنَا .

نَصَبَ مِنَ الشِّرْكَ لِأَهْلِ النُّفْلَةِ عَمَّا فِي عَوَاقِبِهَا ^(١) ، فَلَنْ يَهْدَّ عَمُودَهَا ، وَلَنْ يَنْزِعَ أَوْتَادَهَا ، إِلَّا الَّذِي بِيَدِهِ مُلْكُ الْأَشْيَاءِ ، وَهُوَ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ بِقَايَا مِنْ عِبَادِهِ لَمْ يَتَحَيَّرُوا فِي ظُلْمَتِهَا ، وَلَمْ يُشَايِعُوا أَهْلَهَا عَلَى شُبَّهَاتِهَا ، مَصَابِيحُ النُّورِ فِي أَفْوَاهِهِمْ تَرَاهُو ، وَأَلْسِنَتُهُمْ بِحُجَجِ الْكِتَابِ تَنْطِقُ ، رَكَبُوا مَنَهْجَ السَّبِيلِ ، وَقَامُوا عَلَى الْعِلْمِ ^(٢) الْأَعْظَمِ ، هُمْ خُصَمَاءُ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِهِمْ يُصْلَحُ اللَّهُ الْبِلَادَ ، وَيُدْفَعُ عَنِ الْعِبَادِ ، فَطُوبَى لَهُمْ وَلَهُمْ مُسْتَصْبِحِينَ ^(٣) . وَاسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ ^(٤) . (العقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٤٣ — خطبته حين خرج من المدينة

وخطب حين خرج من المدينة ، لقتال جيش مروان ^(٥) فقال :
« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : إِنَّا خَارِجُونَ لِحَرْبِ مَرْوَانَ ، فَإِنْ نَظَّهَرْنَا نَعْدِلُ فِي أَحْكَامِكُمْ ، وَنَحْمِلُكُمْ عَلَى سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ، وَنَقْسِمُ بِنَبِيِّكُمْ فِيئُتْكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ مَا تَمَنُّونَ لَنَا : فَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .
(تاريخ الطبري ٩ : ١١٠ ، والأعاني ٢٠ : ١١٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٦١)

[١] أَيْ وَلِسْنَا مِنْهُمْ . [٢] الْعِلْمُ : الْجُلُ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحْفِقُونَ فِي دَعْوَتِهِمْ .

[٣] أَيْ الْمُسْتَصْبِحِينَ . [٤] ذَكَرَ الْجَاهِظُ هَذِهِ الْخَطْبَةَ ، وَقَالَ : ذَهَبَ عَنِ إِسْنَادِهَا ، وَهِيَ لِأَبِي حَزْرَةَ كَمَا فِي الْعَقْدِ الْفَرِيدِ .

[٥] وَذَلِكَ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ جَهَّزَ جَيْشًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمُ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مُحَمَّدٍ بَنَ عَطِيَّةَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَمْضِيَ فِيْمَاتِلَهُمْ ، فَإِنْ هُوَ ظَفَرَ بِهِمْ مَضَى حَتَّى يَبْلُغَ الْيَمِينَ ، وَيُقَاتِلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ يَحْيَى ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ ، وَخَرَجَ أَبُو حَزْرَةَ لِلْقَائِدِ ، فَقَاتَلَهُمُ ابْنُ عَطِيَّةَ حَتَّى قَتَلَهُمْ ، وَقَتَلَ أَبُو حَزْرَةَ ، وَبَعَثَ بِرَأْسِهِ إِلَى مَرْوَانَ ، وَصَلَبَهُ هُوَ وَكِبَارُ أَصْحَابِهِ (سَنَةُ ١٣٠) وَلَمْ يَزَالُوا مُصْلِبِينَ حَتَّى أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ ، ثُمَّ سَارَ ابْنُ عَطِيَّةَ إِلَى الْيَمَنِ ، فَقَاتَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ يَحْيَى وَقَتَلَهُ ، وَبَعَثَ بِرَأْسِهِ إِلَى مَرْوَانَ .

٤٤٤ — عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفر الحجاج بعمران ^(١) بن حطان الشَّارِي . قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئس ما أدَّبَكَ أهلك يا حجاج ! كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما لقيتني به ؟ أبعد الموت منزلة أصانعتك عليها ؟ فأطرق الحجاج أستحياء وقال : خلّوا عنه ، فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : والله ما أطلقك إلا الله ، فارجع إلى حربته معنا ، فقال : هيهات ! غلَّ يداً مُطلِقُها ، وأسَرَّ رقبَةً مُعتَقُها .
(زهر الآداب ٣ : ١٧٨)

الخطب الوعظية والوصايا

٤٤٥ — خطبة سبحان بن زفر الوائلي ^(٢) (توفي سنة ٥٤ هـ)

خطب فقال :

« إن الدنيا دارُ بلاغ ، والآخرة دارُ قرار ، أيها الناس : تخذوا من دار

[١] كان رأس التقدم من الحوارج الصمرية وخطيبهم وشاعرهم .

[٢] هو سبحان بن زفر الوائلي ، وقد ضرب به المثل في العصاحة والبيان ، فمئل : « أخطب من سبحان وائل » ومع ذلك لم يؤثر عنه إلا هذه الخطبة الموحدة ، على أنها تعزى إلى الامام عليّ — انظر نهج البلاغة ١ : ٢٦٠ — وذكر المبرد في الكامل عن الأصمعي أن أعرابيا خطبها بالبادية — تهذيب الكامل ١ : ٢٨ — وكذا ذكر أبو علي الفارسي — في الأمالي ١ : ٢٥٨ — وابن عبد ربه — في العقد الفريد ٢ : ١٦٤ — وأبو الفضل الميداني — في مجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وابن قتيبة في عيون الاخبار م ٢ : ٢٥٣ — والحصري — في زهر الآداب ٢ : ٤ — قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأبي المؤمنين علي عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم » — م ٣ : ٢ — .

وقد روى ابن نباتة في سرح العميون أنه قدم على معاوية وفد من خراسان ، فيهم سميد بن عثمان ابن عفان ، فطلب سبحان فلم يوجد في منزله ، فاقترض من ناحية اقتضاها ، وأدخل عليه ، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ما تنجح ، ولا سئل ، ولا توقف ، ولا ابتداء في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه منه شيء ، فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سبحان أن لا تقطع كلامي فقال معاوية : الصلاة ، قال : هي أمامك : نحن في صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال سبحان : « والمعجم والجن والانس » اهـ ، وأمل هذه الإطالة هي التي طافت الرواة عن حفظ ما يقوله .

تَمَرُّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ ،
وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ ، فَفِيهَا حَيَاتُكُمْ وَلَغِيرُهَا ،
خُلِقْتُمْ ، إِنْ الرَّجُلُ إِذَا هَلَكَ ، قَالَ النَّاسُ : مَا تَرَكَ ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ اللَّهُ ؟
قَدَّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ ، وَلَا تَخْلَفُوا كُلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ .

(سرح العيون ص ٩٥)

٤٤٦ — خطبة معاوية

وخطب معاوية بدمشق ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : سَافِرُوا بِأَبْصَارِكُمْ فِي كَرِّ الْجَدِيدِينَ ^(١) ، ثُمَّ ارْجِعُوا هَا كَلِيلَةً
عَنِ بُلُوغِ الْأَمَلِ ، فَإِنَّ الْمَاضِيَ عِظَةٌ لِلْبَاقِي ، وَلَا تَجْعَلُوا الْغُرُورَ سَبِيلَ الْعِجْزِ عَنِ
الْجِدِّ ، فَتَنْقَطِعَ حُجَّتُكُمْ فِيهِ ، وَتَقِفَ اللَّهُ سَائِلُكُمْ فِيهِ ، وَمَحَاسِبُكُمْ فِيهِ أَسْلَفْتُمْ ،
أَيُّهَا النَّاسُ : أَمْسِ شَاهِدٌ فَاخْذَرُوهُ ، وَالْيَوْمَ مُؤَدَّبٌ فَاعْرِفُوهُ ، وَغَدًا رَسُولٌ
فَأَكْرِمُوهُ .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٦)

٤٤٧ — خطبة عبد الملك بن مروان

وخطب عبد الملك بن مروان ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : انْعَمَلُوا لِلَّهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً ، فَإِنَّكُمْ نَبَاتُ نِعْمَتِهِ ، وَحَصِيدُ
نِقْمَتِهِ ، وَلَا تَغْرِسْ لَكُمْ الْآمَالَ ، إِلَّا مَا تَجْتَنِيهِ الْآجَالُ ، وَأَنْلُوا الرِّغْبَةَ فِيمَا يَوْرَثُ
الْعَطَبَ ، فَكُلْ مَا تَرَرُّعُهُ الْعَاجِلَةُ ، تَقْلَعُهُ الْآجِلَةُ ، وَاحْذَرُوا الْجَدِيدِينَ ، فَهَمَا
يَكْرَهُانَ عَلَيْكُمْ ، إِنْ عُمَقِي مِنْ بَقِي لِحُوقِ بَعْنِ مَضَى ، وَعَلَى أَثَرِ مَنْ سَلَفَ ،
يَمْضِي مَنْ خَلَفَ ، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . » (مواسم الأدب ٢ : ١١٨)

٤٤٨ - خطبة لعمر بن عبد العزيز^(١)

قال أبو العباس المبرد : حَدَّثْتُ فِي بَعْضِ الْأَسَانِيدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ فِي خُطْبَةٍ لَهُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا الدُّنْيَا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ ، وَأَجَلٌ مُنْتَقِصٌ ، وَبَلَغٌ إِلَى دَارٍ غَيْرِهَا ، وَسَيْرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيجٌ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَنَصَحَ لِنَفْسِهِ ، وَرَاقِبَ رَبَّهُ ، وَاسْتَقَالَ ذَنْبَهُ ، وَنَوَّرَ قَلْبَهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ أَبَاكُمْ قَدْ أَخْرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ رَبِّكُمْ وَعَدَ عَلَى التَّوْبَةِ ، فَلْيَكُنْ أَحَدُكُمْ مِنْ ذَنْبِهِ عَلَى وَجَلٍ ، وَمَنْ رَبَّهُ عَلَى أَمَلٍ » . (تهذيب الكامل ١ : ٢٧)

كلام الحسن البصري (المتوفى سنة ١١٠ هـ)

٤٤٩ - خطبة له

قال الحسن البصري رحمه الله^(٢) :

« يَا بَنَ آدَمَ : بِعْ دُنْيَاكَ بِآخِرَتِكَ تَرْبَحَهُمَا جَمِيعًا ، وَلَا تَبِيعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ فَتَخْسِرَ هُمَا جَمِيعًا ، يَا بَنَ آدَمَ : إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فِي الْخَيْرِ فَنَافِسْتَهُمْ فِيهِ ، وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي الشَّرِّ فَلَا تَغْبِطَهُمْ عَلَيْهِ ، الشَّوَاءُ^(٣) هَاهُنَا قَلِيلٌ ، وَالْبَقَاءُ هُنَاكَ طَوِيلٌ ، أَمَّتْكُمْ آخِرُ الْأُمَمِ ، وَأَنْتُمْ آخِرُ أُمَّتِكُمْ ، وَقَدْ أُسْرِعَ بِخِيَارِكُمْ ، فَمَاذَا تَنْتَظِرُونَ ؟

[١] هذه الخطبة مختلف في قائلها أيضا ، فقد عزاها المبرد إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كما ترى وروى البيهقي في مجمع الأمثال (٢ : ٢٧٧) الشطر الأول منها ، وعزاها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد أوردته في الجزء الأول ص ٢٧٠ .

[٢] هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، من سادات التابعين ، وأورع العباد والمتنسين وإمام أهل العلم والرأى في عصره ، وأستاذ واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . [٣] الإقامة .

المعاينة ؟ فكأن قد . هيهات هيهات ! ذهبت الدنيا بحالها ^(١) ، وبقيت الأعمال
قلائد في أعناق بني آدم . فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله
لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون
الناس والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يُلحقه آخركم ، من رأى
محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم فقد رآه غاديًا رائحًا ، لم يضع لينةً على لبنة ، ولا
قصبة على قصبة ، رُفِعَ له عِلْمٌ فشمّر إليه ^(٢) ، فالوحاء الوحاء ^(٣) ، والنجاء النجاء ،
علام تعرجون ؟ أتيتم ربَّ الكعبة ! قد أسرع بخياركم : وأنتم كل يوم
ترذلون ^(٤) ، فماذا تنتظرون ؟ إن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا عليه الصلاة
والسلام على عِلْمٍ منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان
صفوته من خلقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا موضعًا ينظر إليه
أهل الأرض ^(٥) ، وآتاه منها قوتًا وبلغته ، ثم قال : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي
رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . فرغب أقوام عن عيشه ، وسخطوا ما رضى له
ربه ، فأبعدهم الله وأسحقهم ^(٦) .

يا بن آدم : طأ الأرض بقدميك ، فإنها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل
في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك . رحم الله رجلا نظر ففكر ،
وتفكر فاعتبر ، وأبصر فصبر ، فقد أبصر أقوام ولم يصبروا ، فذهب الجزع
بقلوبهم ، ولم يُذكر كوا ما طلبوا ، ولم يَرَجِعُوا إلى ما فارقوا .

[١] أى بزمنها الحالى ، من حليت المرأة كرضى دهي حال وحالية : لبست الحلى ، والمعنى ذهبت بزخرفها
الذى تزييت به للناس فأضلتهم وأغوتهم ، وهى فى نسخة : « بحال بالها » وفى أخرى : « بحال بالها » .
وهو تحريف . [٢] وفى نسخة : « فما إليه » . [٣] الوحاء ويمد : العجلة والإسراع
[٤] أى يصيرون أردالا جمع رذل وهو اللون الحسيس .
[٥] أى موضعا ساميا . [٦] أى أبعدهم ، وفى نسخة : « وسحقهم » أى أهلكهم

يا بن آدم : اذكر قوله : « وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ ^(١) » فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ، اقْرَأ كِتَابَكَ ، كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » . عَدَلَ وَاللَّهِ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ ، خذوا صفا الدنيا ، وَذَرُّوا كَدَرَهَا ، فَلَيْسَ الصَّفْوُ مَا عَادَ كَدَرًا ، وَلَا الْكَدَرُ مَا عَادَ صَفْوًا ، دَعُوا مَا يُرِيكُمْ إِلَىٰ مَا لَا يَرِيكُمْ ، ظَهَرَ الْجَفَاءُ وَقَلَّتِ الْعُلَمَاءُ ، وَعَفَّتِ ^(٢) السُّنَّةُ ، وَشَاعَتِ الْبِدْعَةُ ، لَقَدْ صَحِبْتُ أَقْوَامًا مَا كَانَتْ صَحْبُهُمْ إِلَّا فُرَّةَ الْعَيْنِ ، وَجِلَاءَ الصَّدُورِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا كَانُوا - مِنْ حَسَنَانِهِمْ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ - أَشْفَقَ ^(٣) مِنْكُمْ - مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ أَنْ تُعَذَّبُوا عَلَيْهَا - ، وَكَانُوا فِيهَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا أَزْهَدَ مِنْكُمْ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، مَالِي أَسْمَعُ حَسِيسًا ، وَلَا أَرَىٰ أُنَيْسًا ، ذَهَبَ النَّاسُ وَبَقِيَ النَّسْنَسُ ^(٤) ، لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَاغْتُمْ ، تَهَادَيْتُمُ الْأَطْبَاقَ ، وَلَمْ تَتَهَادَوْا النَّصَائِحَ ، قَالَ ابْنُ الْخَطَّابِ : « رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا أَهْدَىٰ إِلَيْنَا مَسَاوِينَنَا » أَعِدُّوا الْجَوَابَ ، فَإِنَّكُمْ مُسْتَوَلُونَ ، الْمُؤْمِنُ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ دِينَهُ عَنْ رَأْيِهِ ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ ، إِنْ هَذَا الْحَقُّ قَدْ جَهَّدَ أَهْلَهُ ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ ، وَمَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ فَضْلَهُ ، وَرَجَا عَافِيَتَهُ ، فَمَنْ حَمِدَ الدُّنْيَا ذَمَّ الْآخِرَةَ ، وَلَيْسَ يَكْرَهُ لِقَاءَ اللَّهِ إِلَّا مُقِيمٌ عَلَىٰ سُخْطِهِ .

[١] أى عمله يحمله في عنقه ، والتعبير به لما كانوا يقيمون وينشاءون بالطائر السائح والبارح ، استعير لما هو سبب الخير والشر . [٢] بحيث . [٣] أخوف . [٤] في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : « ذهب الناس وبقي النسناس » قيل : فما النسناس ؟ قال : « الذين يتشبهون بالناس ، وليسوا من الناس » ولهم في تفسير النسناس كلام كثير منه : أنهم خلق على صورة الناس خالفوم في أشياء ، وليسوا بهم .

يا بن آدم : الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقر في القلوب ،
وصدقه العمل .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٨ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٣٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٦٩)

٤٥٠ — خطبة أخرى

وكان إذا قرأ : « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ^(١) » قال :

« عَمَّ أَلْهَاكُمْ ؟ عن دار الخلود ، وَجَنَّةٍ لَا تَبِيدُ ^(٢) ، هذا والله فَضَحَ القومَ ،
وَهَتَكَ السَّترَ ، وأبدى العوارِ ^(٣) ، تُنفِقُ مثل دينك في شهواتك سَرَفًا ، وتمنع في
حق الله دِرْهَمًا ! ستعلم يا أُلْكَع ^(٤) ، الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق ؛
فأما المؤمن : فقد أُلْجِه الخوفُ ، وَقَوَّاه ذِكْرُ العَرَضِ ؛ وأما الكافر : فقد قَمَّاه
السيفُ ، وشرَّده الخوفُ ، فأذعن بِالْجِزْيَةِ ، وسمَّح بالضَّريبة ؛ وأما المنافق : ففي
الحُجُرَاتِ والطَّرِيقَاتِ ، يُسِرُّونَ غيرَ ما يُعْلِنُونَ . وَيُضْمِرُونَ غيرَ ما يُظْهِرُونَ ،
فاعتبروا إنكارهم ربهم ، بأعمالهم الخبيثة ، ويَلَكَّ ؟ قتلتَ وَايَه ، ثم تَمَنَّى عليه
جَنَّتُهُ ؟ » . (البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٥١ — خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله رجلاً خَلَا بكتاب الله ، فَعَرَضَ عليه نفسه ، فإن
وافقه حمِدَ ربَّه ، وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أَعْتَبَ وَأَنَابَ ، وراجع من
قريب ، رحم الله رجلاً وَعَظَ أخاه وأهله فقال : « يَا أَهْلِي : صَلَاتُكُمْ صَلَاتُكُمْ ،
زَكَاتُكُمْ زَكَاتُكُمْ ، جِيرَانُكُمْ جِيرَانُكُمْ ، إِخْوَانُكُمْ إِخْوَانُكُمْ ، مَسَاكِينُكُمْ

[١] التباهى بالكثرة . [٢] لا تنفى . [٣] العوار مثلث العين : العيب .

[٤] أُلْكَع : اللئيم والأحمق .

مسا كينسكم ، لعل الله يرحمكم ، فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده ، فقال : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » يابن آدم : كيف تكون مسلماً ولم يسلم منك جاروك ، وكيف تكون مؤمناً ولم يأمّنك الناس ؟ » (البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٥٢ - خطبة أخرى

وكان يقول : « لا يستحق أحد حقيقة الإيمان ، حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم ، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي له أن يصلحه ، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئاً من الخير وإن صغر ، فإنك إذا رأيت سرّاً مكانه ، ولا تحقرن شيئاً من الشر وإن صغر ، فإنك إذا رأيت ساءاً مكانه » . (البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٣ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله عبداً كسب طيباً ، وأتفق قصداً ، وقدم فضلاً ، وجّهوا هذه الفضول ^(١) حيث وجهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ، ويؤثرون بالفضل ، ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها ، فلا والله ما وجد ذولب فيها قرحاً ، فأياكم وهذه السبل المتفرقة ، التي جماعها الضلالة ، وميعادها النار ، أدركت من صدر هذه الأمة قوماً كانوا إذا جنّهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفتشون خدودهم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك

[١] جمع فضل وهو الزيادة من المال وغيره .

رقابهم ، إذا عملوا الحسنة سَرَّتْهم ، وسألوا الله أن يتقبلها منهم ، وإذا عملوا سيئة ساءتهم ، وسألوا الله أن يَغْفِرَها لهم ، يابن آدم : إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فليس هاهنا شيء يُغْنِيكَ ، وَإِنْ كَانَ يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فالقليل من الدنيا يكفيك ، يابن آدم : لَا تَعْمَلْ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ رِيَاءً ، وَلَا تَتْرُكْهُ حَيَاءً . (البیان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٤ — خطبة أخرى

وكان يقول : « إِنْ الْعُلَمَاءُ كَانُوا قَدْ اسْتَعْنَوْا بِعَامِهِمْ عَنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَكَانُوا يَقْضُونَ بِعَامِهِمْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا ، مَا لَا يَقْضِي أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ فِيهَا ، وَكَانَ أَهْلُ الدُّنْيَا يَبْذُلُونَ دُنْيَاهُمْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ رَغْبَةً ، فِي عَامِهِمْ ، فَأَصْبَحَ الْيَوْمَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَبْذُلُونَ عَامَهُمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا رَغْبَةً فِي دُنْيَاهُمْ ، فَرِغَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ عَنْهُمْ ، وَزَهَدُوا فِي عَامِهِمْ ، لَمَّا رَأَوْا مِنْ سُوءِ مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ » ، وَكَانَ يَقُولُ : « لَا أَذْهَبُ إِلَى مَنْ يُوَارِي عَنِي غِنَاهُ ، وَيُبْذِي لِي فَقْرَهُ ، وَيُعْلِقُ دُونِي بَابَهُ ، وَيَمْنَعُنِي مَا عِنْدَهُ ، وَأَدْعَى مَنْ يَفْتَحُ لِي بَابَهُ ، وَيُبْذِي لِي غِنَاهُ ، وَيَدْعُونِي إِلَى مَا عِنْدَهُ » .

(البیان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٥ — خطبة أخرى

وكان يقول : « يابن آدم ، لَا غِنَى بِكَ عَنْ نَصِيْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَنْتَ إِلَى نَصِيْبِكَ مِنَ الْآخِرَةِ أَفْقَرُ ، مُؤْمِنٌ مُهْتَمٌّ ، وَعَاجِزٌ اغْتَمٌّ ، وَأَعْرَابِي لَا فِقْهَ لَهُ ، وَمُنَافِقٌ مَكْذُوبٌ ، وَدُنْيَاوِيٌّ ^(١) مُتَرَفٌّ ، نَعَقَ بِهِمْ نَاعِقٌ فَاتَّبَعُوهُ ، قَرَّاشُ نَارٍ ^(٢) ، وَذِيَّانٌ طَمَعٌ ، وَالَّذِي نَفَسُ الْحَسَنِ بِيَدِهِ ، مَا أَصْبَحَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ مُؤْمِنٌ إِلَّا أَصْبَحَ مَهْمُومًا حَزِينًا ، وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ رَاحَةٌ دُونَ لِقَاءِ اللَّهِ ، النَّاسُ مَا دَامُوا فِي عَافِيَةِ

[١] نسبة إلى دنيا . [٢] أي هم كالفراس يتهافت على النار يحسبها نافعة له ، فتحرقه .

مستورون ، فإذا نزل بلاء صاروا إلى حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه ، أي قوم : إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همّة » . (البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٦ — خطبة أخرى

وقال في يوم فطر — وقد رأى الناس وهيئاتهم — : « إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخلقه ، يستبِقُون فيه بطاعته إلى مرَضَاتِهِ ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلّف آخرون فخابوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب ، في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه المبطّلون ، أما والله أن لو كُشِفَ الغطاء ، لشغل محسن بإحسانه ، ومُسيء بإساءته ، عن ترجيل^(١) شمر ، أو تجديد ثوب » . (البيان والتبيين ٣ : ٧١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٣)

٤٥٧ — مقام الحسن البصري عند عمر بن هبيرة

لما ولي عُمر بن هُبَيْرَة الفَزَارِي المِراق — وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك — استدعى الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، والشَّعْبِيّ ، سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : إن يزيد خليفة الله ، استخلفه على عبادته ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولّاني ما ترّون ، فيكتب إلى بالأمر من أمره ، أعرف في تنفيذ هذه الهلكة ، فأخاف إن أطعته غضب الله ، وإن عصيته لم آمن سَطَوَتِهِ ، فما ترّون ؟ فقال ابن سيرين والشَّعْبِيّ قولاً فيه تقيّة ، وكان ابن هُبَيْرَة لا يستشفي دون أن يسمع قول الحسن ، فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال :

[١] وفي رواية الكامل للبرد : « ترطيل » بالطاء ، والترطيل : تليين الشعر بالدهن وتكبيره وإدراؤه وإرساله .

« يابن هبيرة : خَفَّ الله في يزيد ولا تَخَفْ يزيدَ في الله ، إن الله يمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك مَلَكًا ، فيُزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سَعَةِ قصرك ، إلى ضيق قبرك ، ثم لا يُنْجِيكَ إلا عَمَلُكَ ، يابن هبيرة : إن تَعَصَى الله ، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تَرْكَبَنَّ دين الله وعباده بسلطان الله ، فإنه لا طاعة لخلق في معصية الخالق » .

وفي رواية أخرى قال : « أقول والله إنه يُوشِكُ أن ينزل بك مَلَكٌ من ملائكة الله فَظٌّ غليظ ، لا يَعْصِي اللهَ ما أَمَرُهُ ، فيخرجك من سَعَةِ قصرك ، إلى ضيق قبرك ، فلا يُغْنِي عنك ابن عبد الملك شيئاً ، وإني لأرجو أن الله عز وجل سيعصمك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، فاتق الله أيها الأمير ، فإنك لا تأمن أن ينظر الله إليك ، وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعة يزيد ، نظرةً يَمُتُّكَ بها ، فيُغْلِقَ عنك باب الرحمة ، واعلم أني أخوَّفُك ما خوَّفُك الله سبحانه حين يقول : « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ » وإذا كنت مع الله عز وجل في طاعته كفاك بَوَائِقُ ^(١) يزيد ، وإن كنت مع يزيد على معصية الله وكَلَمَكَ الله إلى يزيد حين لا يُغْنِي عنك شيئاً » .

فبكى عمر بن هبيرة بكاء شديداً ، ثم أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي لابن سيرين : سَفَسَفْنَا ^(٢) له فَسَفَسَفَ لَنَا .

(وفيات الأعيان ١ : ١٢٨ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٢ ، مروج الذهب ٢ : ١٧٨ ، حيون الأخبار م ٢ : ص ٣٤٣ ، شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٥٩ ، أمالي السيد المرتضى ١ : ١١٠)

٤٥٨ — مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النضر بن عمرو ـ وكان والياً على البصرة ـ الحسن البصري يوماً ، فقال :

[١] جمع بائنة وهي الداهية . [٢] سفسف عمله : لم يبالغ في إحكامه .

يا أبا سعيد إن الله عز وجل : خلق الدنيا وما فيها من ريشها ^(١) ، وبهجتها ، وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ، وقال عز من قائل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، فقال الحسن : « أيها الرجل : اتق الله في نفسك ، وإياك والأمانى التي ترجعت ^(٢) فيها فتهلك ، إن أحداً لم يُعْطَ خيراً من خير الدنيا ، ولا من خير الآخرة بأمنيتها ، وإنما هي داران ، مَنْ عَمِلَ فِي هَذِهِ أَدْرَكَ تِلْكَ ، ونال في هذه ما قُدِّرَ له منها ، ومن أَهْمَلَ نَفْسَهُ خَسِرَهَا جَمِيعاً ، إن الله سبحانه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وبعثه برسالة ورحمته ، وجعله رسولا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتاباً مُهِيمًا ، وحدَّ له في الدنيا حدوداً ، وجعل له فيها أجلاً ، ثم قال عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدى بهديه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسنته ، فما بلغنا إليه فبفضله ورحمته ، وما قصّرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب مخرَجنا ، فأما الأمانى فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ من أهلها »

فقال النضر : والله يا أبا سعيد إنا على ما فينا لنحب ربنا ، فقال الحسن :

« لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى عليه : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » . فجعل سبحانه أتباعه صلى الله عليه وسلم علماً للمحبة ، وأكذب من خالف ذلك ، فاتق

[١] الرياش : اللباس الفاخر والمال والخصب والمعاش . [٢] أى ملك إليها ، من ترجعت به الأرجوحة : مالت .

الله أيها الرجل في نفسك ، وإيتم الله لقد رأيت أقواما كانوا قبلك في مكانك ،
يَعْلُونَ المنابر ، وتهتز لهم المراكب ، ويجرئون الذبول بطراً ورياء الناس ،
يبنون المدر ^(١) ، ويؤثرون الأثر ^(٢) ، ويتنافسون في الثياب ، أخرجوا من
سلطانهم ، وسلبوا ما جمعوا من دنياهم ، وقدموا على ربهم ، ونزلوا على أعمالهم ،
فالويل لهم يوم التغابن ^(٣) ، ويا ويحهم - يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ
وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .

(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٠)

٤٥٩ — مقام آخر له عند النضر

ودخل عليه يوما آخر فقال :

« أيها الأمير أيدك الله ، إن أخاك من نصحك في دينك ، وبصرك عيوبك ،
وهذاك إلى تراشدك ، وإن عدوك من غرك ومناك ، أيها الأمير اتق الله فإنك
أصبحت مخالفا للقوم في الهدى والسيرة ، والعلائية والسريرة ، وأنت مع ذلك
تتمنى الأمانى ، وترجع في طلب العذر ، والناس أصلحك الله طالبان ، فطالب
دنيا ، وطالب آخرة ، وإيم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح ، وتعب الآخر
واخترم ^(٤) ، فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفانى ، وترك الباقي ، فتكون من
النادمين ، واعلم أن حكيمًا قال :

أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقيا

[١] المدر : قطع الطين اليابسة ، والمراد يبنون القصور .

[٢] استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة واستبد بها ، والاسم : الأثرة بالتحريك ، والأثرة
بالضم والكسر ، والجمع أثر كفرصة وفرص . [٣] غبنه في البيع يفننه ، والتغابن : أن يفن بعض
القوم بعضاً ، وسمى يوم القيامة يوم التغابن ، لأن أهل الجنة تغبن أهل النار بأخذ منازلهم في
الجنة لو آمنوا . [٤] هلك .

نعموذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر^(١) ، ومن الضَّلالة بعد الهدى ، لقد حُدِّثت
أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كَانَ يقول : « كفى بالمرء خيانةً أن يكون
للخَوَنة أمينًا ، وعلى أعمالهم معينا » . (الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥١)

٤٦٠ — مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط
وروى أن الحجاج بنى داراً بواسِط^(٢) ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما
دخلها قال :

« الحمد لله : إن الملوك ليرَوْن لأنفسهم عزًا ، وإنا آنرى فيهم كل يوم عِبرًا ،
يَعْمِد أحدهم إلى قصر فيشيِّده ، وإلى فرش فينَجِّده^(٣) ، وإلى ملابس ومراكب
فيحسِّنها ، ثم يحفُّ به ذبابُ طَمَع ، وفراشُ نار ، وأصحاب سوء ، فيقول : أنظروا
ما صنعتُ ! فقد رأينا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أمَّا أهل
السموات فقد مقتوك ، وأمَّا أهل الأرض فتد لعنوك ، بنيت دار الفناء ، وخرَّبت
دار البقاء ، وغرَّرت في دار الغرور ، لتَدِلَّ في دار الجُبور ، ثم خرج وهو يقول :
إن الله سبحانه أخذ عهدَه على العلماء ، لِيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتُمونه » .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتدَّ غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : يأهل
الشَّام أيشتمنى عبد من عبِيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تُنكرون ! ثم أمر
بإحضاره فجاء وهو يحرك شفَّتيه بما لم يُسَمَّع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال :
يا أبا سعيد ، أمَّا كَانَ لإمارتي عليك حقٌّ حين قلت ما قلت ؟ فقال : يرحمك الله

[١] الحور : القصان ، والكور : الزيادة ، وهو حديث شريف : « سود بالله من الحور بعد الكور »
أى من القصان بعد الزيادة ، وقيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها ، وأصله من كور الدامة وهو
لقها وجمعها . [٢] واسط : مدينة بالعراق من الجنوب بين دجلة والفرات ، بناها الحجاج ومات بها .
[٣] التنجيد : الترين ، والنجاد : الذى يعالج الفرس والوسائد ويخيطهما .

أيها الأمير، إن من خَوْفِكَ حتى تبلغَ أَمْنَكَ أرفقُ بك وأحبُّ فيك ممن أَمْنَكَ حتى تبلغَ الخوفَ ، وما أردتُ الذي سبق إلى وهمك ، والأمران بيدك : العفو والعقوبة ، فافعل الأولى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستجيا الحجاج منه ، واعتذر إليه وأكرمه وحباه .

وفي رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحجاج : ها هنا ، فأجلسه قريباً منه ، وقال : ما تقول في عليّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ مني عند من هو شرٌّ منك ، قال فرعون لموسى : « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قال : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » عِلْمُ عليّ وعثمان عند الله . قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بغالية ^(١) وغلف بها لحيته ، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتِي عند كُرْبَتِي ، ويا صاحبي عند شِدَّتِي ، ويا وليّ نعمتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودّته ، واصرف عني أذاه » ، ففعل ربي عز وجل .

(الحسن البصري لابن الجوري ص ٥٣ ، والمبىة والأمل لابن يحيى المرتضى ص ١٤ ،

وأمانى السيد المرتضى ١ : ١١٢)

٤٦١ - صفة الإمام العادل ^(٢)

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِوَامَ كل مائل ، وقَصْدَ ^(٣) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونَصْفَةَ ^(٤) كل مظلوم ،

[١] طيب . [٢] أوردت هذا الكتاب هنا ، والمكتابين التاليين له لانتظامها في سلك الوصايا .

[٣] هداية ورشاد . [٤] اسم من الإنصاف .

ومَفزَع كل ملهوف ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين كالرَاعِي الشَفِيق على إِبْله ،
 الرَفِيق الذي يرتاد لها أَطِيبَ المَرعى ، ويذودها عن مَرَاتِع الهَلَكَةِ ، ويحميها
 من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والنَّقر^(١) ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين
 كالأب الحَانِي على ولده ، يسعى لهم صِغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في
 حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين كالْأُم الشَفِيقَة ،
 البرَّة الرَفِيقَة بولدها ، حملته كُرْهاً ، ووضعته كُرْهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ،
 وتسكن بسكونه ، تُرضِعُه تارَةً ، وتَقْطِمْه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتنتم
 بشكايته ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين وصيِّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربّي
 صغيرهم ، ويعون كبيرهم ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ،
 تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العَدْل يا أمير المؤمنين هو
 القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويُرِيهم ،
 وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبداً تئمه
 سيده ، واستحفظه ماله وعباله ، فبدّد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق
 ماله ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ،
 فكيف إذا أتاها من يلمها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا
 قتلهم مَنْ يقتصّ لهم ؟ واذكري يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وفلة أشياعك
 عنده ، وأنصارك عليه ، فتزوّد له ، ولما بعده من الفزع الأكبر ، واعلم يا أمير
 المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثَواؤك ، ويفارقك
 أحباؤك ، يُسألونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزوّد له ما يصحبك يومَ يَفِرُّ المرءُ

مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، وَاذْكُرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا مُبْعَثٌ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، فَلَأَسْرَارُ ظَاهِرَةٌ ، وَالْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، فَلَا أَنْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ فِي مَهَلٍ ، قَبْلَ حُلُولِ الْأَجَلِ ، وَاتَّقِطَاعَ الْأَمَلِ ، لَا تَحْكُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِحُكْمِ الْجَاهِلِينَ ، وَلَا تَسْلُكْ بِهِمْ سَبِيلَ الظَّالِمِينَ ، وَلَا تَسْلُطِ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا^(١) وَلَا ذِمَّةً ، فَتَبَوَّءْ بِأَوْزَارِكَ ، وَأَوْزَارٍ مَعَ أَوْزَارِكَ ، وَتَحْمِلْ أَثْقَالَكَ ، وَأَثْقَالَ مَعَ أَثْقَالِكَ ، وَلَا يَغْرَبَنَّكَ الَّذِينَ يَتَنَعَّمُونَ بِمَا فِيهِ بُوْسُكَ ، وَيَأْكُلُونَ الطَّيِّبَاتِ فِي دُنْيَاهُمْ بِإِذْهَابِ طَيِّبَانِكَ فِي آخِرَتِكَ ، لَا تَنْظُرْ إِلَى قُدْرَتِكَ الْيَوْمَ ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى قُدْرَتِكَ غَدًا ، وَأَنْتَ مَأْسُورٌ فِي حَبَائِلِ الْمَوْتِ ، وَمَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ فِي مَجْمَعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَقَدْ عَنَتِ^(٢) الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، إِنْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ لَمْ أَبْلُغْ بَعْضَتِي مَا بَلَّغَهُ أَوَّلُو النُّهْيِ مِنْ قَبْلِي ، فَلَمْ آلُكَ^(٣) شَفَقَةً وَنُصْحًا ، فَأَنْزِلْ كِتَابِي إِلَيْكَ كَمَا دَاوَى حَبِيبِهِ ، يَسْقِيهِ الْأَدْوِيَةَ الْكَرِيمَةَ ، لِمَا يَرْجُوهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالصَّحَّةِ ، وَالسَّلَامِ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(العقد الفريد ١ : ١٢ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٦)

٤٦٢ — موعظته لعمر بن عبد العزيز

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز رحمهما الله : اكتب إلي يا أبا سعيد بموعظة فأوجز ، فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فكأن الذي كان لم يكن ، وكأن الذي هو

كَأَنَّ قَدْ نَزَلَ ، وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الصَّبْرَ ، وَإِنْ أَذَاقَكَ تَعَجُّيلَ مَرَارَتِهِ ، فَلْنَعْمَ مَا أَعْقَبَكَ مِنْ طَيِّبِ حَلَاوَتِهِ ، وَحُسْنِ عَاقِبَتِهِ ، وَأَنْ الْهَوَى ، وَإِنْ أَذَاقَكَ طَعْمَ حَلَاوَتِهِ ، فَلْبُئْسَ مَا أَعْقَبَكَ مِنْ مَرَارَتِهِ ، وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ ، وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الْفَائِزَ مِنْ حَرِصٍ عَلَى السَّلَامَةِ فِي دَارِ الْإِقَامَةِ ، وَفَازَ بِالرَّحْمَةِ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ .

(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٤)

٤٦٣ . موعظته لعمر بن عبد العزيز أيضا

وَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : اكِتُبْ إِلَيَّ يَا أَبَا سَعِيدٍ بِذِمَّةِ الدُّنْيَا ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ :

« أَمَا بَعْدَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ ظَعْنٍ ^(١) وَانْتِقَالٍ ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ إِقَامَةٍ عَلَى حَالٍ ، وَإِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْهَا آدَمُ عَقُوبَةً ، فَاحْذَرُهَا فَإِنَّ الرَّائِبَ فِيهَا تَارِكٌ ، وَالْغَنَى فِيهَا فَقِيرٌ ، وَالسَّعِيدُ مِنْ أَهْلِهَا مَنْ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا ، إِنَّهَا إِذَا اخْتَبَرَهَا اللَّيِّيبُ الْحَازِقُ ، وَجَدَهَا تُذِلُّ مِنْ أَعَزِّهَا ، وَتَفَرِّقُ مِنْ جَمْعِهَا ، فَهِيَ كَالسَّمِّ يَأْكُلُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَيَرْغَبُ فِيهِ مَنْ يَجْهَلُهُ ، وَفِيهِ وَاللَّهِ حَتْفُهُ ، فَكُنْ فِيهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالْمَدَاوِي جِرَاحُهُ ، يَحْتَمِي قَلِيلًا ، مَخَافَةَ مَا يَكْرَهُ طَوِيلًا ، الصَّبْرُ عَلَى لَأَوَائِهَا ^(٢) ، أَيْسَرُ مِنْ احْتِمَالِ بَلَائِهَا ، وَاللَّيِّيبُ مَنْ حَذَرَهَا ، وَلَمْ يَغْتَرَّ بِزِينَتِهَا ، فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ خِتَالَةٌ ^(٣) خِدَاعَةٌ ، قَدْ تَعَرَّضْتَ بِأَمَالِهَا ، وَتَزَيَّنْتَ لِحُطَّائِبِهَا ، فَهِيَ كَالْعَرُوسِ ، الْعَيُونُ إِلَيْهَا نَازِرَةٌ ، وَالْقُلُوبُ عَلَيْهَا وَالِهَةٌ ^(٤) ، وَهِيَ ، وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ ، لِأَزْوَاجِهَا قَاتِلَةٌ ، فَاتَّقِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَرَغَتَهَا ، وَاحْذَرِ عَثْرَتَهَا ، فَالْخَاءُ فِيهَا مُوَصُولٌ بِالشَّدَةِ وَالْبَلَاءِ ، وَالْبَقَاءُ مُؤَدٍّ إِلَى الْهَلَكَةِ وَالْفَنَاءِ .

[١] ارتحال . [٢] شدتها . [٣] خداعة . [٤] من الوله بالتحريك وهو ذهاب العقل من شدة الوجد .

وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ أُمَانِيَّهَا كَاذِبَةٌ ، وَآمَالُهَا بَاطِلَةٌ ، وَصَفْوُهَا كَدْرٌ ،
وَعِيشُهَا نَكْدٌ ، وَتَارِكُهَا مُوَفَّقٌ ، وَالْمَتَمَسِّكُ بِهَا هَالِكٌ غَرِيقٌ ، وَالْفُطْنُ اللَّيْبُ
مِنْ خَافٍ مَا خَوْفُهُ اللَّهُ ، وَحَذَرٌ مَا حَذَرُهُ ، وَقَدَرٌ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ،
فَعِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيهِ الْيَقِينُ ، الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دَارُ عَقُوبَةٍ ، لَهَا يَجْمَعُ مِنْ
لَا عَقْلَ لَهُ ، وَبِهَا يَفْتَرُّ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ، وَالْحَازِمُ اللَّيْبُ مَنْ كَانَ فِيهَا كَالْمَدَاوِي
جِرَاحِهِ ، يَصْبِرُ عَلَى مَرَارَةِ الدَّوَاءِ ، لِمَا يَرْجُو مِنَ الْعَافِيَةِ ، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ
الدَّارِ ، وَالدُّنْيَا وَآيِمُ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُلْمٌ ، وَالْآخِرَةُ يَقْظَةٌ ، وَالْمَتَوَسُّطُ بَيْنَهُمَا
الْمَوْتُ ، وَالْعِبَادُ فِي أَضْغَاثِ أَحْلَامٍ ، وَإِنِّي قَائِلٌ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَالَ الْحَكِيمُ :
فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخْلَاكَ تَاجِيَا «

وَلَمَّا وَصَلَ كِتَابُهُ إِلَى عَمْرِ ، بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى رَحِمَهُ مِنْ كَانَ عِنْدَهُ ، وَقَالَ : يَرْحَمُ
اللَّهُ الْحَسَنَ ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَوْقِظُنَا مِنَ الرَّقْدَةِ ، وَيَذَيِّبُنَا مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَلِلَّهِ هُوَ مِنْ
مُشْفِقِي مَا أَنْصَحَهُ ! وَوَاعِظِي مَا أَصْدَقَهُ وَأَفْصَحَهُ !

(الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ لِأَبْنِ الْجَوْزِيِّ ص ٥٤ ، وَسِيرَةُ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِأَبْنِ الْجَوْزِيِّ ص ١٢١)

٤٦٤ — كَلِمَاتُ حَكِيمَةٍ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ

وَقَالَ : احْذَرِ مَنْ نَقَلَ إِلَيْكَ حَدِيثَ غَيْرِكَ ، فَإِنَّهُ سَيَنْقُلُ إِلَى غَيْرِكَ حَدِيثَكَ .
أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ لَا تَنَالُونَ مَا تَحِبُّونَ إِلَّا بِتَرْكِ مَا تَشْتَهُونَ ، وَلَا تُدْرِكُونَ
مَا تَأْمَلُونَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ . الصَّبْرُ صَبْرَانِ : صَبْرٌ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ، وَصَبْرٌ
عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ نَالَ أَفْضَلَ الصَّبَرِينَ . أَفْضَلُ الْجِهَادِ جِهَادُ
الْهَوَى . لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَجْمَعُ عِلْمَ الْعُلَمَاءِ وَحِكْمَ الْحُكَمَاءِ ، وَيَجْرِي فِي الْحَقِّ مَجْرَى
السُّفَهَاءِ . مَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَمَنْ خَافَ النَّاسَ

أخافه الله من كل شيء . لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه : الموت ، والمرض ، والفقر ، وإنه بعد ذلك لو تائب . احذروا العابد الجاهل ، والعالم الفاسق ، فإن فيهما فتنة لكل مفتون . ترك الخطيئة أهون من معالجة التوبة . لا تكن شاة الراعى أعقل منك ، تجرها الصيحة ، وتطردها الإشارة . المؤمن تلقاه الزمان بعد الزمان ، بأمر واحد ، ووجه واحد ، ونصيحة واحدة ، وإنما يتبدل المنافق ليستأكل كل قوم . المؤمن صدق قوله فعله ، وسره علانيته ، وشهده مغيبه . لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الفكرة من عمله ، والذكر من شأنه ، والمحاسبة من همته ، ولا يزال بشر ما استعمل التسوية ، واتبع الهوى ، وأكثر الغفلة ، ورجع في الأمانى . الحق مرن لا يصبر عليه إلا من عرف حسن العافية ، ومن رجا الثواب خاف العقاب . حادثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الذئور ^(١) ، واقدعوا ^(٢) هذه النفوس ، فإنها طلعة ^(٣) ، وإنكم إلا ترعوها ^(٤) تنزع بكم إلى شر غاية . يا ابن آدم : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل يذمك ، وكذلك ليلاك . إنما أنت أيها الإنسان عدد ، فإذا مضى لك يوم فقد مضى بعضك . وقيل له يا أبا سعيد : من أشد الناس صراحاً يوم القيامة ؟ فقال : رجل رزق نعمة فاستعان بها على معصية الله . وكان يقول : لوقت الليل حتى ينحني ظهرك ، وصمت النهار حتى يسقم جسمك ، لم ينفعك ذلك إلا بورع صادق . وسمع

[١] دئور القلوب : انحاء الذكر منها . [٢] كفوها واكبحوها .

[٣] مس طلعة : تكثر التطلع إلى الشيء ، وفي رواية : « فإنها طامحة » .

[٤] وزعه كوضع : كفه ، وفي رواية : « تمنعوها » .

رجلا يُكثر الكلام ، فقال : يا بن أخى أمسيك عليك لسانك ، فقد قيل : ماشىء أحقّ بِسَجْنٍ من لسان . وكان يقول : لو لم يكن من شؤم الشراب إلا أنه جاء إلى أحب خلق الله إلى الله فأفسده ، لكان ينبغي للعاقل أن يتركه (يعنى العقل) ويقول : ما أطال أحد الأمل إلا أساء العمل ، وما أساء العمل إلا ذلّ وقال : «يا عجباً لقوم قد أمروا بالزاد ، وأوذوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم ، فليت شعري ! ما الذى ينتظرون ؟ وقال : اجعل الدنيا كالقنطرة : تجوز عليها ، ولا تعمُرُها ، وقال : ليس العَجَبُ ممن عَطِبَ كيف عطب ، إنما العجبُ ممَّن نجا كيف نجا » ، وقال : « من أخلاق المؤمنين قوة في دين ، وحرص على العلم ، وقناعة في فقر ، ورحمة للمجهود ، وإعطاء في حق ، وبرّ في استقامة ، وفقه في يقين ، وكسب في حلال » .

(الحسن البصرى لابن الجوزى في مواضع متفرقة ، والبيان ٣ : ٧٦ — ٨٣ ، أمالى السيد المرتضى ١ : ١١٠ — ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ١ : ١٧٨ ، ٢ : ٢٠٥)

٤٦٥ — خطبة واصل بن عطاء ^(١) المنزوعة الرأء

الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذى علا في دُنُوّه ، ودنا في عُلوّه ، فلا يحويه زمان ، ولا يحيط به مكان ، ولا يشوده ^(٢) حفظُ ما خلق ، ولم يخلقه على مثالٍ سبق ، بل أنشأه ابتداعاً ، وعدّله اصطناعاً ، فأحسن كل شىء

[١] هو أبو حذيفة واصل بن عطاء شيخ المعرّين ، وأحد الأئمة المتكلمين ، وكان يلثغ بالراء ، فيجعلها عينا ، فاستطاع بمهارته أن يخلص منها كلامه ، خطب يوماً عند عبد الله بن صمر بن عبد العزيز وإلى العراق سنة ١٢٦ شبيب بن شبة ، وخالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى ، ثم قفاهم واصل ، فارتحل هذه الخطبة وعراها من حرف الراء ، وأبدع في القول :

ففضل عبد الله خطبة واصل وصوغف في قسم الصلات له الشك

(والشك بالضم: المعطاء) وتوفى واصل سنة ١٣١ هـ . [٢] يشغله ، آده أودا (كنصر) بلغ منه المجهود .

خَلَقَهُ ، وَتَمَّ مَشِيئَتَهُ ، وَأَوْضَحَ حِكْمَتَهُ ، فَدَلَّ عَلَى أُلُوهِيَّتِهِ ، فَسَبَّحَانَهُ لَأَمْعَقِّبِ (١)
لِحُكْمِهِ ، وَلَا دَافِعَ لِقَضَائِهِ ، تَوَاضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِعِظَمَتِهِ ، وَذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِسُلْطَانِهِ ،
وَوَسَّعَ كُلُّ شَيْءٍ فَضْلَهُ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، إِلَهًا تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، وَعَظُمَتْ آلَاؤُهُ ، وَعَلَا عَنْ صِفَاتِ
كُلِّ مَخْلُوقٍ ، وَتَنَزَّاهُ عَنْ شَبِيهِ كُلِّ مَصْنُوعٍ ، فَلَا تَبْلُغُهُ الْأَوْهَامُ ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ
الْعُقُولُ وَلَا الْآفَهَامُ ، يُعْصَى فِيحْلُمُ ، وَيُذْعَى فَيَسْمَعُ ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ ،
وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ، وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ، وَأَشْهَدُ شَهَادَةً حَقٍّ ، وَقَوْلَ صَدَقَ ،
بِإِخْلَاصِ نِيَّةٍ ، وَصِحَّةِ طَوِيَّةٍ ، أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدَهُ وَنَبِيَّهُ ، وَخَالَصْتَهُ (٢)
وَصَفِيَّتَهُ ، ابْتَعَثَهُ إِلَى خَلْقِهِ بِالْبَيِّنَةِ وَالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، فَبَلَغَ مَا أُلْكَتْهُ (٣) ، وَنَصَحَ
لَأُمَّتِهِ ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا تَأْخُذْهُ فِي الْحَقِّ لَوْمَةٌ لَأُتَمِّ ، وَلَا يَصُدُّهُ عَنْهُ زَعْمُ
زَاعِمٍ ، مَا ضِيَا عَلَى سُنَّتِهِ ، مُوفِيَا عَلَى قَصْدِهِ ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ ، فَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ،
وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ وَأَزْكَى ، وَأَتَمَّ وَأَنْمَى ، وَأَجَلَ وَأَعْلَى صَلَاحًا عَلَى صَفْوَةِ
أَنْبِيَائِهِ ، وَخَالَصَةً مَلَائِكَتِهِ ، وَأَضْعَافَ ذَلِكَ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ .

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ مَعَ نَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ ، وَالْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ ،
وَأَحْضُشْكُمْ عَلَى مَا يُدْنِيكُمْ مِنْهُ ، وَيُزِيلُكُمْ لَدَيْهِ ، فَإِنْ تَقْوَى اللَّهُ أَفْضَلُ زَادَ ، وَأَحْسَنُ
عَاقِبَةٌ فِي مَعَادٍ ، وَلَا تُلْهِمَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا بَرِيئَتَهَا وَخُدْعَهَا ، وَفَوَاتِنَ لَذَائِهَا ، وَشَهَوَاتِ
آمَالِهَا ، فَإِنَّهَا مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، وَمُدَّةٌ إِلَى حِينٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا يَزُولُ ، فَكَيْفَ عَايَنْتُمْ
مَنْ أَعَاجَبِيهَا ، وَكَمْ نَصَبَتْ لَكُمْ مِنْ حَبَائِلِهَا ، وَأَهْلَكَتْ مِنْ جَنَحِ إِلَيْهَا ، وَاعْتَمَدَ

[١] لَارَادَ لَهُ . [٢] هَذَا الَّذِي خَالَصَتْ لَهُ : أَيْ خَاصَّةٌ .

[٣] الْمَأْلُكَةُ : بِفَهْمِ الْأَمِّ وَتَفْتِيحِ : الرِّسَالَةُ .

عليها ! أذاقتهم خلواً ، ومزجت لهم سماً ، أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاتفوا الحجاب ، وأعدّوا الجياد ، ومَلَكُوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قَبَضَتْهُمْ بِمَخْمِلِهَا ^(١) ، وطحنتهم بَكَلَسِكِلِهَا ^(٢) ، وعَضَّتْهُمْ بِأَنْيَابِهَا ، وعَاضَتْهُمْ مِنَ السَّعَةِ ضَيْقًا ، وَمِنَ الْعِزَّةِ ذُلًّا ، وَمِنَ الْحَيَاةِ فَنَاءً ، فسكنوا اللحد ، رَأَوْا كُلَّهُم الدُّودَ ، وَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَا كِنَهُمْ ، وَلَا تَجِدُ إِلَّا مَعَالِمَهُمْ ، وَلَا تُحِيسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ، وَلَا تَسْمَعُ لَهُمْ نَبَسًا ، فتزودوا عافاكم الله ، فإن أفضل الزاد التقوى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظّه وسعادته ، وَمَنْ يَسْتَمِعِ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعْ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ . إن أحسن قصص المؤمنين ، وأبلغ مواعظ المتقين ، كتاب الله ، الزّكية آياته ، الواضحة بيناته ، فإذا تُبْلِي عَلَيْكُمْ فَأَنْصِتُوا لَهُ ، واسْمَعُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، أعوذ بالله القوى ، من الشيطان الغوى ، إن الله هو السميع العليم ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، ثم قال :

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، والوحي المبين ، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم . (مفتاح الأمكار ص ٢٧٠)

٤٦٦ — وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

وقال عبد الملك بن مروان : « يا بني أمية : ابدلوا نذاكم ، وكفوا أذاكم ، وأعفوا إذا قدرتم ، وَلَا تَبْخَلُوا إِذَا سُئِلْتُمْ ، فإن خير المال ما أفاد حمدًا ، أو نقي

[١] انحل : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان ، والمراد احتوت هليهم .

[٢] الكلكل : الصدر .

ذما ، ولا يقولنَّ أحدُكم : ابدأ بمن تعملُ ، فإنما الناس عيالُ الله ، قد تكفلَ الله بأرزاقهم ، فمن وسَّعَ أخلفَ الله عليه ، ومن ضَيَّقَ ضَيَّقَ الله عليه .

(الأمالي ٢ : ٣٢)

٤٦٧ — وصية عبد الله بن شداد لابنه ^(١)

لما حضرت عبد الله بن شدّاد الوفاة ، دعا ابناً له يقال له محمد ، فقال :
« يا بُنَيَّ ، إني أرى داعيَ الموت لا يُقْلَعُ ، وأرى من مَضَى لا يرجع ،
ومن بقي فإليه ينزع ^(٢) ، وإني موصيك بوصية فاحفظها ، عليك بتقوى الله
العظيم ، وإيّاك أن تؤلّي الأمور بك شكركُ الله ، وحسنُ النية في السرِّ والعَلانية ،
فإن الشُّكور يزداد ، والتقوى خيرُ زاد ، وكن كما قال الحُطَيْيئة :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآتِقِ مَزِيدُ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبُ وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدُ

ثم قال : أيُّ بُنَيَّ ، لا ترهَدَنَّ في معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، والأيام ذات
نوائب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغبٍ أصبح مطلوباً ما لديه ، واعلم أن
الزمان ذو ألوان ، ومن يَصْحَب الزمان يرَ الهوان ، وكن أيُّ بُنَيَّ كما قال
أبو الأسود الدؤلي :

وَعُدَّ مِنَ الرَّحْمَنِ فَضْلاً وَنِعْمَةً عَلَيْكَ ، إِذَا مَا جَاءَ لِلْعُرْفِ طَالِبُ ^(٣)
وَإِنْ أَمراً لَا يُرْتَجَى الْخَيْرُ عِنْدَهُ يَكُنْ هَيِّئاً ثِقْلاً عَلَى مَنْ يَصَاحِبُ

[١] هو عبد الله بن شداد بن الهادي ، واسمه أسامة اللبي ، خرج مع القراء في فتنة ابن الأشعث
على الحاج ، قيل : إنه غرق بدجيل ، وقيل : هلك هو وعبد الرحمن بن أبي ليلى في الجاهم ، اقتحم بهما
فرسهما الماء فذهبا . [٢] يشتاقي . [٣] العرف : المعروف .

فلا تمنعنَ ذا حاجةٍ جاء طالباً فإنك لا تَدْرِي متى أنت راغِبٌ
رأيتُ التَّوَّاهِ هذا الزمانَ بأهله وبينهم فيه تكونُ النوائِبُ^(١)
ثم قال : أي بني ، كن جَوَاداً بالمال في موضع الحق ، بخيلاً بالأسرار عن جميع
الخلق ، فإن أحمدَ جُود المرء الإِنفاقُ في وجه البرِّ ، وإن أحمدَ بُخْل الحرِّ الضَّنُّ^(٢)
بمكتوم السر ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري :

أَجُودُ بِمَكْنُونِ التَّلَادِ ، وإِنِّي بِسِرِّكَ عَمَّنْ سَأَلَنِي أَضْنِينُ^(٣)
إِذَا جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ سِرٌّ فَإِنَّهُ بِنَثٍّ ، وَتَكْثِيرِ الْحَدِيثِ قَيْنُ^(٤)
وعندي له يوماً إذا ما ائتمنتني مكانُ بِسَوْدَاءِ الْفُؤَادِ مَكِينُ^(٥)

ثم قال : أي بني ، وإن غلبتَ يوماً على المال ، فلا تدعَ الحيلةَ على حال ، فإن
الكريمَ يَحْتَالُ ، والدُّنْيَى عِيَالٌ^(٦) ، وكن أحسنَ ما تكون في الظاهر حالاً ، أقلَّ
ما تكون في الباطن مالا ، فإن الكريمَ من كُرُمَت طبيعته ، وظهرت عند
الإِنْفَادِ^(٧) نِعْمَتُهُ ، وكن كما قال ابن خَدَّاق العبدى^(٨) :

وَجَدْتُ أَبِي قَدْ أَوْرَثَهُ أَبُوه خِلَالاً قَدْ تُعَدُّ مِنَ الْمَعَالِي^(٩)
فَأَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَى نَفْسِي إِذَا مَا قَلَّ فِي الْأَزْمَاتِ مَالِي
فَتَحَسُنُ سِيرَتِي وَأَصُونُ عِرْضِي وَيَجْمُلُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّأْيِ حَالِي

[١] التَّوَّاهِ أصله التَّوَّاه قَصْره لضرورة الشعر ، التَّوَّى به الزمان : اعوج .

[٢] الصن بالكسر والصنَّاة بالفتح : البخل .

[٣] سأل يسأل من باب خاف لغة في سأل المهور ، وليس مسهلاً للوزن كما ظن بعضهم .

[٤] نث الحديث : أفشاء ، وقين : جدير ، وقطع همزة الاثنين لافترقة .

[٥] سوداء الفؤاد ، وسويداؤه ، وسواده ، وأسوده : حَبْتُهُ . [٦] العيال جمع عيل بكيد :

وهو من يلزم الإنفاق عليه ، ويكون اسماً للواحد (كما استعمله هنا) . [٧] الفقر .

[٨] هو يزيد بن خَدَّاق شاعر قديم . [٩] بتقل حركة الهمزة من أورثه إلى الدال من قد .

وإن نلتُ الغنى لم أغلُ فيه ولم أخصُصن بِجَفَوَتِي المَوَالِي^(١)
ثم قال : أى بنى ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ،
فإنك إن أمضيتها حيالها^(٢) ، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب
العاقل ، هو الفطن المتعافل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وما من شيمتى شتم ابن عمى وما أنا مُخْلِفٌ من يَرْتَجِبِنِي
وَكَلِمَةٍ حاسِدٍ فى غير جُرمٍ سمعتُ فَقُلْتُ رُئى فأنفَذِنِي^(٣)
فما بُوها عَلَى ولم تَسُوْنِي ولم يَمَرِّقْ لها يوما جَبِينِي
وذو اللَوْنَيْنِ يَلْقَانِي طَلِيقًا وليس إذا تَغَيَّبَ يَأْتَلِينِي^(٤)
سمعتُ بِعَيْنِهِ فصفحتُ عنه مُحَافَظَةً عَلَى حَسْبِي وَدِينِي

ثم قال : أى بنى ، لا تُؤاخِ امرأً حتى تعاشره ، وتفقّد مَوَارِدَه ومَصَادِرَه ،
فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبرة^(٥) ، فواخِه عَلَى إقالة العُثْرَة ، والمواساة
فى العُثْرَة ، وكن كما قال المقنّع الكِنْدِي :

أُبَلُّ الرجال إذا أردت إِياءَهُم وَتَوَسَّمَنَّ فِعَالَهُم وَتَفَقَّدْ
فإذا ظَفَرْتَ بِذِي اللَّبَابَةِ وَالشَّقَى فَبِهِ اليَدَيْنِ (قَرِيرَعَيْنِ) فَاشْدُدْ^(٦)
وإذا رأيت (ولا محالة) زَلَّةً فعلى أخيك بِفَضْلِ حَلَمِكَ فَارْدُدْ

ثم قال : أى بنى ، إذا أحببت فلا تُفْرِطْ ، وإذا أبغضت فلا تُشْطِطْ^(٧) ، فإنه
قد كان يقال : أَحْبَبُ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَّا ، عَسَى أن يكون بَغِيضَكَ يَوْمًا مَّا ،

[١] الموالى جمع مولى وهو هنا القريب . [٢] قصد حباله وبحياله : بازائه ، أى إن تركتها
تجبرى فى مجراها . [٣] نفذم : جازم . [٤] اتلى : قصر ، أى لا يقصر و نهش عرضى .
[٥] الخبر والخبرة بكسر الخاء فيهما ، ويضمان : العلم بالشيء . كالاختبار .
[٦] لبّ من باب لعب ، وفى لغة كقرب مع الفتح فى المضارع لبابة : أى صار ذا لب بالضم
وهو العقل . [٧] شط فى حكمه وأشط : جار .

وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَّا ، عسى أن يكون حبيبك يومًا مَّا ، وكن كما قال هُذَيْفَةُ
ابن الْخَشْرَمِ الْعُذْرِيُّ :

وكن مَعْقِلًا لِلْعِلْمِ وَاصْفَحْ عَنِ الْخِذَا فَإِنَّكَ رَأَى مَا حَيَّيْتَ وَسَامِعُ^(١)
وَأَحْبِبْ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعُ^(٢)
وَأَبْغِضْ إِذَا أَبْغَضْتَ بَغْضًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ
وعليك بِصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَإِيَّاكَ وَصُحْبَةَ الْأَشْرَارِ ، فَإِنَّهُ عَارٌ ،
وكن كما قال الشاعر :

أَفْحَبِ الْأَخْيَارَ وَارْغَبْ فِيهِمْ رُبَّ مَنْ صَاحِبَتَهُ مِثْلُ الْجَرْبِ
وَدَعْ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ وَإِذَا شَانَمْتَ فَاشْتِمِ ذَا حَسَبِ
إِنَّ مَنْ شَاتَمَ وَغَدَا كَالَّذِي يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبِ^(٣)
وَاصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ وَدَعْ النَّاسَ فَمَنْ شَاءَ كَذَبِ

(الأمل : ٢ : ٢٠٤ ، والبيان والتبيين : ٢ : ٥٧ ، ١٣٨)

٤٦٨ — وصية أسماء بن خارجة لابنته^(٤)

زَوْجَ أَسْمَاءَ بْنِ خَارِجَةَ الْفَزَارِيَّ بِنْتَهُ هِنْدًا مِنْ الْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَلَمَّا
كَانَتْ لَيْلَةً أَرَادَ الْبِنَاءُ بِهَا ، قَالَ لَهَا أَسْمَاءُ : « يَا بِنْتِي ، إِنْ الْأُمَهَاتِ يُوَدِّبْنَ الْبَنَاتِ ،
وَإِنْ أُمُّكَ هَلَكَتْ وَأَنْتَ صَغِيرَةٌ ، فَعَلَيْكَ بِأَطْيَبِ الطَّيِّبِ الْمَاءِ ، وَأَحْسَنِ
الْحُسْنِ الْكُحْلِ ، وَإِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْمَعَاتِبَةِ ، فَإِنَّهَا قَطِيعَةٌ لِلوَدِّ ، وَإِيَّاكَ وَالْغَيْرَةَ ،
فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ الطَّلَاقِ ، وَكَوْنِي لَزُوجِكَ أُمَةً ، يَكُنْ لَكَ عَبْدًا ، وَاعْلَمِي أَنِّي
الْقَائِلُ لَأُمِّكَ :

[١] المعقل : الملجأ ، والخبأ : الفحش . [٢] نزع عن الشيء : انتهى عنه .

[٣] الصفر كقفل ، وكسر الصاد لغة : النحاس . [٤] أورد الجاحظ هذه الوصية بصورة أَوْحَزَ ،

وذكر أنها وصية عبد الله بن جعفر لابنته .

خَذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيئِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أُغْضِبُ^(١)
وَلَا تَنْقُرِي نَقْرَةَ الدُّفِّ مَرَّةً فَإِنَّكَ لَا تَدْرِينَ كَيْفَ الْمَغِيبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ الْحُبَّ فِي الصَّدْرِ وَالْأَذَى إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَثِ الْحُبُّ يَذْهَبُ
(الأغاني ١٨ : ١٢٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٥)

٤٦٩ — رجل ينصح لهشام بن عبد الملك

وخرج الزُّهْرِيُّ يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : ما رأيتُ
كاليوم ، ولا سمعتُ كأربع كلمات ، تكلم بهن رجل عند هشام ، دخل عليه فقال :
« يا أمير المؤمنين ، احفظ عني أربع كلمات ، فيهن صلاح مُلْكِكَ ،
وَاستقامة رِعْيَتِكَ » . قال : وما هن ؟ قال : « لَا تَعِدْ عِدَّةً لَا تَتَّقِي مِنْ نَفْسِكَ
بِإِنْجَازِهَا ، وَلَا يَفُرُّ نَفْسُكَ الْمُرْتَقَى وَإِنْ كَانَ سَهْلاً ، إِذَا كَانَ الْمُتَجَدِّدُ وَعَرّاً ، وَاعْلَمْ
أَنَّ لِلْأَعْمَالِ جَزَاءً ، فَاتَّقِ الْعَوَاقِبَ ، وَأَنَّ لِلْأُمُورِ بَغَاتٍ ، فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ » .
قال عيسى بن دأب : فحدثت بهذا الحديث المهدى ، وفي يده لقمة قد
رفعها إلى فيه ، فأمسكها ، وقال : وَيَحْكُ ! أَعِدْ عَلَيَّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين
أَسِغْ^(٢) لِقْمَتِكَ ، فقال : حديثك أعجبُ إليَّ . (زهر الآداب ٣ : ١٨٠)

٤٧٠ — وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب^(٣) رسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها ، قال :
« أَمَا بَعْدُ حِفْظُكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ ، وَحَاطُكُمْ وَوَفَّقُكُمْ وَأَرْشِدُكُمْ ،
فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ،
وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمَكْرُمِينَ أَصْنَافًا ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً ، وَصَرَّفَهُمْ فِي

[١] السورة : الحدة . [٢] ابتلع . [٣] هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، قتله السفاح سنة ١٣٢ هـ .

صنوف الصناعات ، وَضُرُوب المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ،
فجعلكم معشرَ الكتَّاب في أشرف الجهات ، أهلَ الأدبِ وَالْمُرُوءَةِ وَالْعِلْمِ وَالرَّوَايَةِ ،
بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورُها ، وبنصائحكم يُصلح اللهُ للخلق
سلطانهم ، وتعمُرُ بلادهم ، لا يستغني الملكُ عنكم ، ولا يوجد كافٍ إلا منكم ،
فوقِعكم من الملوك مَوْقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يُبصرون ،
وَألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يَبْطِشُونَ ، فأمتعكم اللهُ بما خصَّكم
من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه ^(١) من النعمة عليكم .

وليس أحدٌ أحوجَ إلى اجتماعِ خِلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة
المعدودة ، منكم أيها الكتَّاب ، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن
الكتاب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثقُ به في مُهِمَّاتِ أمورِهِ ،
أن يكون حليماً في موضع الحِلْم ، فهِيماً في موضع الحُكْم ، مقداماً في موضع
الإقدام ، مُجْجَماً في موضع الإحجام ، مؤثراً للعَفَاف ، والعدل والإنصاف ،
كَتُوماً للأسرار ، وَفِيّاً عند الشدائد ، عالماً بما يأتي من النوازل ، يضع الأمور
مواضعها ، وَالطَّوَارِقَ أَمَا كُنْهَا ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأَحْكَمَهُ ،
فإن لم يُحْكِمْهُ ، أخذ منه بمقدار يكتب به ، يعرف بغيرِة عقله ، وحسن أدبه ،
وفضل تجربته ما يَرِدُ عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدُرُ عنه قبل صدوره ، فيُعِدُّ
لكل أمر عُدَّتَهُ وَعَتَادَهُ ^(٢) ، ويهيئُ لكل وجهٍ هيئته وعادته ، فتنافسوا يا معشر
الكتاب ، في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله
عزَّ وجلَّ والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثِقَافٌ ^(٣) أَلَسْتُمْ ، ثم أَجِيدُوا الْخَطَّ ،

فإنه حليّة كُتِبكم ، واروؤا الأشعار ، واعرِفوا غريبها وَمعانيها ، وأيام العرب
والعجم ، وأحاديثها وَسِيرها ، فإن ذلك مُعينٌ لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا
تضيّعوا النظر في الحساب ، فإنه قِوام كُتّاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن
المطامع سَنِيّها ^(١) ، ودَنِيّها ، وسَفَساف ^(٢) الأُمور وِتحاقرها ، فإنها مَذلةٌ للرّقاب ،
مَفْسدةٌ للكُتّاب ، ونَزْهُوا صِناعَتكم عن الدَناءات ، وأزَبّوا ^(٣) بأنفسكم عن
السَّعاية والنَمِيّة ، وما فيه أهل الجَهالات ، وإياكم والكِبَر والصِّلَف والمَظمة ،
فإنها عداوةٌ مجتَلبةٌ من غير إِحنة ، وتَحابُّوا في الله عزَّ وجلَّ في صِناعتكم ، وتواصوا
عليها بالذي هو أليقُ بأهل الفضل والعدل والنُّبل من سَلَفكم .

وإن نَبأَ الزمان برجلٍ منكم فاعطِفوا عليه وواسُّوه ، حتى يرجع إليه حاله ،
ويُثوب ^(٤) إليه أمرُه ، وإن أقعد أحدكم الكِبَرُ عن مَكسَبه ولقاء إخوانه ،
فزُوروه وعظِّموا وشاوروه ، واستظهروا ^(٥) بفضل تجرِبته ، وقَدِّم معرفته ،
وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه ، أحفظَ منه
على ولده وأخيه ، فإن عَرَضَتْ في الشُّغل مَحَمدةٌ ، فلا يُضيفها إلا إلى صاحبه ،
وإن عَرَضَتْ مَذَمّةٌ ، فليحملها هو من دونه ، وليحذر السَّقطة والزَّلة ، والمَلَل
عند تَغْيير الحال ، فإن العيب إليكم معشَر الكُتّاب ، أسرعُ منه إلى الفِرَاء ، وهو لكم
أفسدُ منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحَّبه الرجل ، يَبْذُل له من نفسه ما يجب له
عليه من حقّه ، فواجبٌ عليه أن يمتدّد له من وفائه ، وشكره ، واحتماله وصَبْره ،

[١] رَفِيها . [٢] الردىء من كل شيء . [٣] رِباً : دلاً وارْتَفَع .

[٤] يَرْجِع . [٥] تَقَوَّوا .

ونصيحته ، وكتمان سره ، وتدير أمره ، ماهو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه ، والاضطرار إلى ماله .

فاستشعروا ذلكم - وفقكم الله من أنفسكم - في حالة الرخاء والشدة ، والحِرمَانِ والمواساة والإحسان ، والسَّراء والضَّرَّاء ، فَنِعِمْتَ الشَّيْمَةُ هذه لمن وُسِمَ بها : من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فَإِذَا وُلِّيَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ ، أَوْصِيَرِ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ أَمْرٌ ، فَلْيَرَأِ قَبْلَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ ، وَلْيُوَثِّرْ طَاعَتَهُ ، وَلْيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقًا ، وَلِلْمَظْلُومِ مُنْصِفًا ، فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحْبَبُهُمْ إِلَيْهِ أَرْفَقُهُمْ بِعِيَالِهِ ، ثُمَّ لْيَكُنْ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا ، وَلِلْأَشْرَافِ مُكْرِمًا ، وَلِلْفُقَرَاءِ مُوَفِّرًا ، وَلِلْبِلَادِ عَامِرًا ، وَلِلرَّعِيَةِ مَتَأَلِّفًا ، وَعَنْ إِيْدَائِهِمْ مُتَخَلِّفًا ، وَلْيَكُنْ فِي مَجْلِسِهِ مُتَوَاضِعًا حَلِيمًا ، وَفِي سَجَلَاتِ خِرَاجِهِ وَاسْتَقْضَاءِ حَقُوقِهِ رَفِيقًا ، وَإِذَا صَحِبَ أَحَدَكُمْ رَجُلًا فَلْيَخْتَبِرْ خِلَاقَتَهُ ، فَإِذَا عَرَفَ حَسَنَهَا وَقَبِيحَهَا ، أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ مِنَ الْحَسَنِ ، وَاحْتَالَ لَصَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ الْقَبِيحِ ، بِالطَّفِ حِيلَةً ، وَأَجْمَلَ وَسِيلَةً ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ إِذَا كَانَ بِصِيرًا بِسِيَاسَتِهَا ، التَّمَسَّ بِمَعْرِفَةِ أَخْلَاقِهَا ، فَإِنْ كَانَتْ رَمُوحًا ^(١) لَمْ يَهْجُهَا إِذَا رَكِبَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ شَبُوبًا ^(٢) اتَّقَاهَا مِنْ قَبْلِ يَدَيْهَا ، وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شُرُودًا تَوَقَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ حَرُورًا قَمَعَ بِرَفْقٍ هَوَاهَا فِي طَرِيقِهَا ، فَإِنْ اسْتَمَرَّتْ عَطَفَهَا يَسِيرًا ، فَيَسْلَسَ لَهُ قِيَادُهَا ، وَفِي هَذَا الْوَصْفِ مِنَ السِّيَاسَةِ دَلَالٌ لِمَنْ سَاسَ النَّاسَ وَعَامَلَهُمْ ، وَخَدَمَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يُخَاوَرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُنَاطِرُهُ ، وَيَفْهَمُ عَنْهُ أَوْ يَخَافُ سَطْوَتَهُ ، أُولَى بِالرَّفْقِ بِصَاحِبِهِ

[١] رَمَحَ الْفَرَسَ كَتَمَ : رَفَسَهُ . [٢] شَبَّ الْفَرَسَ كَضَرَبَ وَانْصَرَفَ : رَفَعَ يَدَيْهِ .

وَمُدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمُ أَوْدِهِ ، مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي لَا تُحِيرُ ^(١) جَوَابًا ، وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا ، وَلَا تَفْهَمُ خَطَابًا ، إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُصَيِّرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا الرَّاكِبُ عَلَيْهَا ، أَلَّا فَاْمَعِنُوا رَحِمَ اللَّهِ فِي النَّظَرِ ، وَأَتَمِّمُوا فِيهِ مَا أَمَكْنَكُمْ مِنَ الرُّوْيَةِ وَالْفِكْرِ ، تَأْمَنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ مِمَّنْ صَحِبْتُمُوهُ النَّبُوَّةَ ، وَالْإِسْتِثْقَالَ وَالْجَفْوَةَ ، وَيَصِيرُ ^(٢) مِنْكُمْ إِلَى الْمَوَافَقَةِ ، وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى الْمَوَاخَاةِ وَالشَّفَقَةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَلَا يَجَاوِزَنَّ الرَّجُلُ مِنْكُمْ - فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ ، وَمَلْبَسِهِ ، وَمَرْكَبِهِ ، وَمَطْعَمِهِ ، وَمَشْرَبِهِ ، وَبِنَائِهِ ^(٣) وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ أَمْرِهِ - قَدْرَ حَقِّهِ ، فَإِنْ كُنْتُمْ مَعَ مَا فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفٍ صَنَعْتُمْ - خَدَمَةً لَا تُحْمَلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ ، وَحَفَظَةً لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتَهُ لَكُمْ ، وَقَصَصْتَهُ عَلَيْكُمْ ، وَاحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرَفِ ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ ، فَإِنَّهُمَا يُمَقِّبَانِ الْفَقْرَ ، وَيُذِلَّانِ الرَّقَابَ ، وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا ، وَلَا سِيَا الْكِتَابِ ، وَأَرْبَابِ الْآدَابِ ، وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهَ ، وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ ، فَاسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفٍ ^(٤) أَعْمَالِكُمْ ، بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرِبَتُكُمْ ، ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكَ التَّدْيِيرِ أَوْضَحَهَا حُجَّةً ، وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً ، وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً .

وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْيِيرِ آفَةً مُتَلِفَةً ، وَهِيَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ عَنْ إِنْفَازِ عَمَلِهِ وَرُؤْيَتِهِ ، فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافِي مِنْ مَنْطِقَتِهِ ، وَلْيُوجِزْ فِي ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ ، وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ ، فَإِنْ ذَلِكَ مَصَاحِحَةٌ لِفَعْلِهِ ، وَمَدْفَعَةٌ

[١] لَا تَرُدُّ . [٢] تَأْمَنُوا ، بِمَجْزُومٍ فِي جَوَابِ الْأَمْرِ ، أَوْ بِمَبَارَاةٍ أُخْرَى جَوَابٍ لِفَرْطِ مَحْذُوفٍ مَعَ فِعْلِ الْفَرْطِ أَيْ إِنْ تَعْمَلُوا تَأْمَنُوا ، وَمِنْ ثُمَّ يَجُوزُ فِي « وَيَصِيرُ » ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ الْجُزْمُ ، وَالنَّصَبُ وَالرَّفْعُ كَمَا هُوَ مَعْنُورٌ . نَقُولُ بَعْضُهُمْ : « وَلَمَّا ثَبُوتُ الْبَيِّنَاتِ قَبْلَ الرَّأْيِ مِنْ زِيَادَةِ النَّاسِحِ » مُرَدُّودٌ . [٣] بَنَى عَلَى أَهْلِهِ ، وَبِهَا بِنَاءٌ ، وَابْتَنَى : زَفَّهَا . [٤] مُبْتَدَأٌ

للتشاغل عن إكثاره ، وَلِيَضْرَعَ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيقِهِ ، وإمداده بتسديده ،
مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظانًّا ، أو قال
قائل : إن الذي برز من جميل صنعته ، وقوة حركته ، إنما هو بفضل حيلته ،
وحسن تدبيره ، فقد تعرّض بظنه أو مقالته إلى أن يَكِلَهُ اللَّهُ عز وجل إلى نفسه ،
فيصيرَ منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأمله غيرُ خاف .

ولا يقل أحد منكم إنه أَبْصَرُ بالأمور ، وأَحْمَلُ لِعِبَاءِ التدبير من مُرَافِقِهِ في
صناعته ، ومُصَاحِبِهِ في خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رَمَى
بالمُجَبِّ وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقل منه ، وأحمد في طريقته ، وعلى كل
واحد من الفريقين أن يَعْرِفَ فضلَ نعم الله جل ثناؤه ، من غير اغترار برأيه ، ولا
تركية لنفسه ، ولا تكاثرٍ على أخيه أو نظيره ، وصاحبه وعشيرته ، وحمدُ الله
واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدث بنعمته .
وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثلُ : « مَنْ يَلْزِمِ النَّصِيحَةَ ^(١) يَلْزِمَهُ
الْعَمَلُ » وهو جوهر هذا الكتاب وغرّة كلامه ، بعد الذي فيه من ذِكْرِ اللَّهِ عز
وجل ؛ فلذلك جعلته آخره ، وتممته به ، تولى الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة ،
بما يتولى به مَنْ سبق علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه ويده ، والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته . (صبح الأعشى ١ : ٨٥)



[١] في نسخة : « الصحة » ، وذكر الجاحظ في البيان والتبيين (٢ : ٤٦) أن هذا القول من
كلام الأحنف السائر في أيدي الناس .

الصراع بين الاموية والعباسية

٤٧١ - خطبة قحطبة بن شبيب الطائي^(١)

لما دخل أبو مسلم الخراساني زعيم الدعوة العباسية مدينة مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار - أمير خراسان من قبل مروان بن محمد الأموي - ثم سار إلى نباتة بن حنظلة : عامل جرجان^(٢) ، فوجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب في جيش لقتاله^(٣) ، وقدم قحطبة ، فنزل بإزاء نباتة ، وأهل الشام في عدة لم ير الناس مثلها ، فلما رآهم أهل خراسان هابوهم ، حتى تكلموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً ، فقال :

« يا أهل خراسان : هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا يُنصرون على عدوهم ، لعدوهم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظاموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم ، وسلط عليهم أذلّ أمة ، كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، واستنكحو نساءهم ، واسترقّوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرون المظلوم ، ثم بدّلوا وغيرُوا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البرّ والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

[١] هو أحد القباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ١٠٣ ، أو ١٠٤ ، وكان قدم على أبي مسلم خراسان منصرفاً من عند إبراهيم الامام ، ومعه لواؤه الذي عقده له إبراهيم .

[٢] من قبل يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق . [٣] وكان قحطبة قبل ذلك قد تبعاً لقتال تميم ابن نصر بن سيار ثم زحف إليه فاقتلوا قتالا شديداً ، وقتل تميم بن نصر في المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم ، ثم توجه إلى نيسابور ، وكان نصر بن سيار نزل بها ، فبذنه ذلك ، فارتحل هارباً ، وتفرق عن أصحابه ، فسار إلى نباتة بن حنظلة بمجران ، ونزل في آخر أمره ساوة بين همدان والري ، مات بها كذا .

فسلّطكم عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشدّ عقوبةً ، لأنكم طلبتموهم بالنار ، وقد عهد إلى الإمام ^(١) أنكم تلقونهم في مثل هذه العِدّة ، فينصرمكم الله عز وجل عليهم ، فتَهْزَمونهم وتقتلونهم .

وقد قرئ على قحطبة كتابُ أبي مسلم : « من أبي مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فناهضْ عدوك ، فإن الله عز وجل ناصرُك ، فإذا ظَهَرْتَ عليهم ، فأتخِزْ في القتل » ، فاتقوا في مستهلّ ذي الحِجّة سنة ١٣٠ هـ في يوم الجمعة ، فقال قحطبة :

٤٧٢ - خطبة أخرى له

« يَـأْهُلُ خراسان : إن هذا يوم قد فضّله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام ، والعملُ فيه مضاعفٌ ، وهذا شهر عظيم ، فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عز وجل ، وقد أخبرنا الإمامُ أنكم تُنصرون في هذا اليوم من هذا الشهر على عدوكم ، فالتقوه بجِدِّ واحتسابٍ ، فإن الله مع الصابرين » ثم ناهضهم فاقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فانهزم أهل الشام ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وقتل نبّاتة ، وبعث قحطبة برأسه ورأس ابنه حَيّة إلى أبي مسلم . (تاريخ الطبري ٩ : ١٠٦)

[١] هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عاص ، وكان نصر بن سيار حين أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية في خراسان وقويت شوكته . كتب إلى مروان يطلبه بحال أبي مسلم ومن معه ، وأن الذي تدعو الدعاة إليه هو إبراهيم الإمام ، فأرسل مروان إلى عامل البلقاء (في أطراف الشام) أن يسير إلى الحيمة (بكهينة) حيث يقيم إبراهيم فيشده وثاقاً ، يحمل إلى مروان فحبسه في حرّان ثم قتله في سجنه ، ولما قبض على إبراهيم الإمام حاف أخواه السفاح والنصور وجماعة من أقاربهم ، فهدّوا إلى الكوفة ، فأخلى لهم أبو سلمة الخلال داراً بالكوفة ، وكتب أمرهم حتى وصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة ، ودخل على بني العباس ، وسلم على السفاح بالخلافة ، وبيع بها سنة ١٣٢ هـ .

تتمة في خطب الحجاج

٤٧٣ - خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متأملاً ، فخط اللثام عنه ثم قال :

« مَوْجُ لَيْلِ التَّطْمِ ، وَانْجَلَى بِضَوْءِ صُبْحِهِ ، يَا أَهْلَ الْحِجَازِ ، كَيْفَ رَأَيْتُمُونِي ؟ أَلَمْ أَكْشِفْ ظُلُمَةَ الْجَوْرِ ، وَطُخِيَةَ ^(١) الْبَاطِلِ بِنُورِ الْحَقِّ ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ وَطَّئْتُكُمْ الْحِجَابَ وَطَاءَةً مُشْفِقٍ ، وَعَظْفَةً رَحِمٍ ، وَوَصَلَ قَرَابَةَ ، فَأَيُّكُمْ أَنْ تَرِلُّوا عَنْ سَنَنِ أَقْنَاكُمْ عَلَيْهِ ، فَأَقْطَعَ عَنْكُمْ مَا وَصَلْتُهُ لَكُمْ ، بِالْصَّارِمِ الْبِتَّارِ ، وَأُقِيمَ مِنْ أَوْدِكُمْ مَا يُقِيمُ الْمُثَقَّفُ ^(٢) مِنْ أَوْدِ الْقَنَازَةِ بِالنَّارِ » ، ثُمَّ نَزَلَ وَهُوَ يَقُولُ :

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضًّا وَإِنْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَرًا
(مواسم الأدب ٢ : ١٢٣)

انتهى الجزء الثانى ، ويليه : الجزء الثالث ، وأوله : الباب الرابع فى خطب ووصايا
العصر العباسى الأول

[١] الطخية : الظلمة ، ويثلك . [٢] مقوم الرماح والأود : الاعوجاج .

سقط من هامش ص ٢٤ ما يأتى :

جاء فى مقال الحسن بن على رضى الله عنهما المغيرة بن شعبة ص ٢٤ : « ولأن حد الله فى الزنا لثابت عليك ، ولقد درأ مهر علك حقا الله سائله عنه » وخبر ذلك أن المغيرة بن شعبة كان عاملا على البصرة لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فاتمه أبو بكره - أخو زياد - هو وافر معه بأنه زنى بأمة جيل بنت الأرقم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فعزل المغيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعرى - وكان ذلك سنة ١٧ هـ - وارتحل المغيرة وأبو بكره ومن معه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، وقد أقسم بين يدي عمر أنه ما أتى إلا أمر أنه ، وكان الشهود عليه : أبو بكره ، وشبل بن معبد البجلي ، ونافع بن كعدة ، وزيادا ، فبدأ عمر بأبي بكره ، فشهد عليه أنه زنى بأمة جيل ، وشهد شبل ونافع بتلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، إذ سأله هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها فتعاه ، وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ : « فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ » فقال المغيرة : اشهدنى من الأعباء

فقال : أسكت ، أسكت الله نأمتك ، أما والله لو تمت الشهادة لرجتك بأحبارك .

- اقرأ القصة فى تاريخ الطبرى ٤ : ٢٠٧ - .

فهرس

الجزء الثاني

من جمهرة خطب العرب

الباب الثالث

الخطب والوصايا في العصر الأموي

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها	١	١
خطب الحسن بن علي رضي الله عنه		
خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه	١	١
تعبئة الجيوش لقتال معاوية	٢	٢
خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد	٢	٢
مقال عدى بن حاتم	٣	٣
خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية	٤	٤
خطبته يبرر مصالحته لمعاوية	٥	٥
« في الصلح بينه وبين معاوية	٦	٥
خطبة له بعد الصلح	٧	٦
« لمعاوية في أهل الكوفة	٨	٧
رد الحسن بن علي على معاوية حين نال منه ومن أبيه	٩	٨
خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح	١٠	٨

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
الخطبة

خطبة الحسن يرد على مستنكرى الصلح	١١	١٠
» له في عهد خلافته	١٢	١٠
» أخرى له	١٣	١٢

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد
ابن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ،
بحضرة معاوية

مقال عمرو بن العاص	١٤	١٤
» الوليد بن عقبة بن أبي معيط	١٥	١٥
» عتبة بن أبي سفيان	١٦	١٥
» المغيرة بن شعبة	١٧	١٥
رد الحسن بن عليّ عليهم	١٨	١٦
رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن رضى الله عنهما	١٩	٢٥

مقتل الحسين بن عليّ رضى الله عنه

تأنيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة

نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما	٢٠	٢٨
---	----	----

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكرى	٢١	٢٩
» النعمان بن بشير	٢٢	٣٠
» عبيد الله بن زياد	٢٣	٣٠
» أخرى له	٢٤	٣٢

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

خطبة كثير بن شهاب	٢٥	٣٢
« عبيد الله بن زياد	٢٦	٣٣
خروج الحسين رضى الله عنه إلى الكوفة		
نصيحة ابن عباس له	٢٧	٣٤
« أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له	٢٨	٣٧
خطبة للحسين رضى الله عنه	٢٩	٣٨
« أخرى له	٣٠	٣٨
« » »	٣١	٣٩
« زهير بن القين البجلي	٣٢	٣٩
« للحسين أيضاً	٣٣	٤٠
خطبته ليلة قتله	٣٤	٤١
رد أهل بيته عليه	٣٥	٤٢
« أصحابه	٣٦	٤٢
خطبته غداة يوم قتله	٣٧	٤٣
دعاؤه وقد صبحته الخيل	٣٨	٤٣
خطبته وقد دنا منه القوم	٣٩	٤٤
خطبة أخرى	٤٠	٤٤
« زهير بن القين	٤١	٤٦
« الحر بن يزيد	٤٢	٤٨
طلب التوابين بدم الحسين رضى الله عنه		
خطبة المسيب بن نجبة الفزارى	٤٣	٥٠

الخطبة أو الوصية

رقسم
الصفحة .
الخطبة

خطبة رفاعة بن شداد	٤٤	٥١
» سليمان بن صرد	٤٥	٥٢
» خالد بن سعد بن نفيل	٤٦	٥٣
» سعد بن حذيفة بن اليمان	٤٧	٥٤
» عبد الله بن الحنظل الطائي	٤٨	٥٤
» عبيد الله بن عبد الله المرتضى	٤٩	٥٥
» عبد الله بن يزيد الأنصاري	٥٠	٥٧
» إبراهيم بن محمد بن طلحة	٥١	٥٨
رد المسيب بن مجة	٥٢	٥٨
رد عبد الله بن وال التيمي	٥٣	٥٩
خطبة سليمان بن صرد	٥٤	٦٠
» صخير بن حذيفة بن هلال	٥٥	٦٠
ما أشار به عبد الله بن سعد	٥٦	٦١
رأى ابن صرد	٥٧	٦١
خطبة عبد الله بن يزيد	٥٨	٦٢
» سليمان بن صرد	٥٩	٦٢
» أخرى له	٦٠	٦٣
» »	٦١	٦٤
» عبد الملك بن مروان	٦٢	٦٥
طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي بدم الحسين		٦٦
رضى الله عنه		
خطبته حين قدم الكوفة	٦٣	٦٦
ما كان يردده على زائريه في سجنه	٦٤	٦٧

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة	٦٥	٦٨
رد السائب بن مالك	٦٦	٦٩
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٦٧	٦٩
» أخرى له	٦٨	٧٠
» محمد بن الحنفية	٦٩	٧١
» المختار	٧٠	٧١
» عبد الرحمن بن شريح	٧١	٧٢
» المختار في دار إبراهيم بن الأشتر	٧٢	٧٣
» يزيد بن أنس الأسدي	٧٣	٧٤
» عبد الله بن مطيع	٧٤	٧٤
تحريض ابن الأشتر أصحابه	٧٥	٧٥
خطبة ابن مطيع وهو محصور	٧٦	٧٥
» المختار بعد هرب ابن مطيع	٧٧	٧٦
» » وقد استنصره ابن الحنفية	٧٨	٧٧
» » وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد	٧٩	٧٩
خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير	٨٠	٨٠
خطبة محمد بن الحنفية يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام	٨١	٨١
عبد الله بن عباس ومعاوية	٨٢	٨٣

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

مقال معاوية	٨٣	٨٦
» ابن عباس	٨٤	٨٧

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٧	٨٥	مقال معاوية لابن عباس
٨٨	٨٦	» ابن عباس

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٩	٨٧	مقال معاوية لبني هاشم
٨٩	٨٨	» ابن عباس

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٩٠	٨٩	مقال معاوية
٩١	٩٠	» ابن عباس
٩١	٩١	عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً
٩٢	٩٢	عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

مخاصمة بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

٩٣	٩٣	جواب ابن عباس
٩٣	٩٤	مقال عمرو بن العاص
٩٣	٩٥	جواب ابن عباس
٩٤	٩٦	مقال مروان بن الحكم
٩٥	٩٧	جواب ابن عباس
٩٦	٩٨	مقال زياد
٩٦	٩٩	جواب ابن عباس
٩٧	١٠٠	مقال عبد الرحمن بن أم الحكم
٩٧	١٠١	جواب ابن عباس

٩٨	١٠٢	مقال المغيرة بن شعبه
٩٨	١٠٣	جواب ابن عباس
٩٩	١٠٤	مقال يزيد بن معاوية
٩٩	١٠٥	جواب ابن عباس
١٠٠	١٠٦	مقال معاوية
١٠٠	١٠٧	جواب ابن عباس

عبد الله بن عباس ، وعمرو بن العاص

١٠١	١٠٨	مقال ابن عباس
١٠٢	١٠٩	رد ابن العاص
١٠٣	١١٠	عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً
١٠٤	١١١	مفاخرة عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

١٠٩	١١٢	مقال ابن الزبير
١١٠	١١٣	» » عباس
١١٠	١١٤	خطبة عبد الله بن عباس يرد على ابن الزبير وقد عاب بنى هاشم
١١٣	١١٥	» ابن الزبير يتنقص ابن عباس
١١٤	١١٦	رد ابن عباس عليه
١١٧	١١٧	عبد الله بن جعفر ، وعمرو بن العاص
١١٩	١١٨	الحسن بن علي ، وعمرو بن العاص
١٢٠	١١٩	الحسن بن علي ، ومروان بن الحكم
١٢١	١٢٠	عقيل بن أبي طالب ومعاوية
١٢٤	١٢١	خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة بعد مقتل الحسين عليهم السلام

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام بين يدي يزيد	١٢٢	١٢٦
رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام	١٢٣	١٢٩
عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية	١٢٤	١٣٠
عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية	١٢٥	١٣٤

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

مقال معاوية	١٢٦	١٣٥
رد قيس بن سعد	١٢٧	١٣٥
معاوية وصمصمة بن صوحان وعبد الله بن الكواء	١٢٨	١٣٦
صمصمة بن صوحان ومعاوية	١٢٩	١٣٧
» » » وعبد الله بن عباس	١٣٠	١٣٩
» » » ورجل من بني فزارة	١٣١	١٤٤
رجل من آل صوحان يحبه عبد الملك بن مروان وهو يخطب	١٣٢	١٤٥
وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان	١٣٣	١٤٦
وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز	١٣٤	١٤٧

خطب الزبيريين وما يتصل بها

خطب عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير ومعاوية

مقال ذكوان مولى الحسين	١٣٥	١٤٨
» معاوية	١٣٦	١٤٩
» ابن الزبير	١٣٧	١٥٠
» معاوية	١٣٨	١٥١
عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً	١٣٩	١٥٤

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
الخطبة

١٥٥	١٤٠	عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص
١٥٨	١٤١	خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام
١٥٩	١٤٢	مناظرة ابن الزبير للخوارج
١٦٣	١٤٣	أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير
١٦٥	١٤٤	خطبته وقد قدم عليه أهل العراق
١٦٥	١٤٥	» لما بلغه قتل مصعب
١٦٧	١٤٦	خطبة أخرى له
١٦٨	١٤٧	خطبته وقد بلغه قتل عمر والأشعث
١٦٨	١٤٨	عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر
١٧٠	١٤٩	خطبته يوم قتله
١٧٠	١٥٠	خطبة أخرى
١٧١	١٥١	» مصعب بن الزبير

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية

١٧٢	١٥٢	خطبته بالمدينة عام الجماعة
١٧٣	١٥٣	خطبة أخرى له بالمدينة
١٧٣	١٥٤	» له بالمدينة
١٧٤	١٥٥	خطبته حين ولي المغيرة بن شعبة الكوفة
١٧٤	١٥٦	خطبة له في يوم صائف
١٧٥	١٥٧	آخر خطبة له
١٧٥	١٥٨	خطبته وقد حضرته الوفاة

١٧٧ ١٥٩ وصيته لابنه يزيد

خطب يزيد بن معاوية

١٧٨ ١٦٠ خطبته بعد موت معاوية

١٧٩ ١٦١ خطبة أخرى له

١٨٠ ١٦٢ » معاوية بن يزيد

خطب عبد الملك بن مروان

١٨٠ ١٦٣ خطبته بمكة

١٨١ ١٦٤ خطبة له موجزة

١٨١ ١٦٥ خطبته حين قتل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص

١٨٢ ١٦٦ » لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير

١٨٤ ١٦٧ » عام حجه

١٨٥ ١٦٨ » وقد علم بخروج ابن الأشعث

١٨٥ ١٦٩ وصيته لبعض أمرائه

١٨٦ ١٧٠ » للشعبى

١٨٦ ١٧١ » لأخيه عبد العزيز بن مروان

١٨٧ ١٧٢ » لولده عند وفاته

١٨٨ ١٧٣ خطبة للوليد بن عبد الملك *

١٨٨ ١٧٤ » لسليمان بن عبد الملك *

خطب عمر بن عبد العزيز

١٨٩ ١٧٥ أولى خطبه

١٨٩ ١٧٦ خطبة أخرى

الخطبة أو الوصية

رقسم
الصفحة

رقسم
الخطبة

١٩٠	١٧٧	خطبة أخرى
١٩١	١٧٨	» »
١٩٢	١٧٩	» »
١٩٢	١٨٠	» »
١٩٣	١٨١	» »
١٩٣	١٨٢	» له يوم عيد
١٩٤	١٨٣	» أخرى
١٩٤	١٨٤	» »
١٩٥	١٨٥	» »
١٩٥	١٨٦	» »
١٩٥	١٨٧	» »
١٩٦	١٨٨	» »
١٩٦	١٨٩	» »
١٩٧	١٩٠	» »
١٩٧	١٩١	» »
١٩٨	١٩٢	» »
١٩٨	١٩٣	آخر خطبة له
٢٠٠	١٩٤	نص آخر
٢٠٠	١٩٥	كلامه في مرضه الذي مات فيه
٢٠١	١٩٦	مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج
٢٠٥	١٩٧	تأبينه ابنه عبد الملك
٢٠٦	١٩٨	خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد

٢٠٧	١٩٩	وصية يزيد بن معاوية لاسلم بن زياد حين ولاء
		✓ خطب عتبة بن أبي سفيان
٢٠٨	٢٠٠	خطبة له في تهدد أهل مصر
٢٠٨	٢٠١	» » في تقريعهم وتهددهم
٢٠٩	٢٠٢	» » فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية
٢١٠	٢٠٣	خطبته فيهم وقد منعوا الخراج
٢١٠	٢٠٤	» فيهم إذ طعنوا على الولاة
٢١١	٢٠٥	» بمكة
٢١٢	٢٠٦	» في علته التي مات فيها
٢١٢	٢٠٧	وصيته لمؤدب ولده
٢١٣	٢٠٨	وصية سعيد بن العاص لبنيه
		✓ خطب عمرو بن سعيد الأشدق
٢١٥	٢٠٩	خطبة له بالمدينة
٢١٦	٢١٠	» بمكة
٢١٧	٢١١	ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية
٢١٨	٢١٢	خطبته حين غلب على دمشق
٢١٩	٢١٣	خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان
٢٢٠	٢١٤	خالد بن عبد الله بن أسيد وعبد الملك بن مروان
٢٢١	٢١٥	نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان
٢٢١	٢١٦	تأديب معاوية لجلسائه
٢٢٢	٢١٧	كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه

٢٢٢	٢١٨	تقريع عبد الملك بن مروان لأحد عماله
		طلب معاوية البيعة ليزيد
٢٢٤	٢١٩	خطبة الضحاك بن قيس الفهري
٢٢٥	٢٢٠	» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي
٢٢٦	٢٢١	» ثور بن معن السلمي
٢٢٧	٢٢٢	» عبد الله بن عصام الأشعري
٢٢٧	٢٢٣	» عبد الله بن مسعدة الفزاري
٢٢٨	٢٢٤	» عمرو بن سعيد الأشدق
٢٢٩	٢٢٥	» الأحنف بن قيس
٢٢٩	٢٢٦	» الضحاك بن قيس
٢٣٠	٢٢٧	» الأحنف بن قيس
٢٣١	٢٢٨	» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي
٢٣١	٢٢٩	» معاوية
٢٣٢	٢٣٠	» يزيد بن المقنع
٢٣٢	٢٣١	» الأحنف
٢٣٣	٢٣٢	» معاوية
٢٣٤	٢٣٣	» عبد الله بن عباس
٢٣٤	٢٣٤	» عبد الله بن جعفر
٢٣٥	٢٣٥	» عبد الله بن الزبير
٢٣٥	٢٣٦	» عبد الله بن عمر
٢٣٦	٢٣٧	» معاوية

خطبة مروان بن الحكم	٢٣٨	٢٣٧
» معاوية	٢٣٩	٢٣٨
مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر	٢٤٠	٢٣٩
خطبة معاوية	٢٤١	٢٤٠
» الحسين	٢٤٢	٢٤٢
» معاوية	٢٤٣	٢٤٤
» عبد الله بن عمر	٢٤٤	٢٤٥
» معاوية	٢٤٥	٢٤٦
» عبد الله بن الزبير	٢٤٦	٢٤٨
» معاوية	٢٤٧	٢٤٩

تمنشة وتعزية

خطبة عبد الله بن همام السلولى	٢٤٨	٢٥٠
» عطاء بن أبي صيفى الثقفى	٢٤٩	٢٥١
» عبد الله بن مازن	٢٥٠	٢٥١
» غيلان بن مسلمة الثقفى	٢٥١	٢٥٢

خطب ولاة الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه

خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده	٢٥٢	٢٥٣
» وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه	٢٥٣	٢٥٤
» وقد استلحقه معاوية	٢٥٤	٢٥٥
» حين ولى البصرة (وهى البتراء)	٢٥٥	٢٥٧
» بالكوفة وقد ضمت إليه	٢٥٦	٢٦١

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة أخرى له بالكوفة	٢٥٧	٢٦٢
خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة	٢٥٨	٢٦٢
خطبة أخرى له	٢٥٩	٢٦٣
» »	٢٦٠	٢٦٣
وصية لزياد	٢٦١	٢٦٣
ما كان يقوله لمن ولاء عملا	٢٦٢	٢٦٤
خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة	٢٦٣	٢٦٤
خطبته عند موت معاوية	٢٦٤	٢٦٦
خطبة النعمان بن بشير بالكوفة	٢٦٥	٢٦٦
» عبید الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية	٢٦٦	٢٦٧
رد معاوية على ابن زياد	٢٦٧	٢٦٩
مقال يزيد بن معاوية	٢٦٨	٢٧١
وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه	٢٦٩	٢٧٢

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير	٢٧٠	٢٧٣
» حين ولي العراق	٢٧١	٢٧٤
» وقد سمع تكبيراً في السوق	٢٧٢	٢٧٧
» وقد قدم البصرة	٢٧٣	٢٧٨
خطبته بعد وقعة دير الجماجم	٢٧٤	٢٧٩
خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام	٢٧٥	٢٨١
» له بالبصرة	٢٧٦	٢٨٣
» أخرى له بالبصرة	٢٧٧	٢٨٢

٢٨٣ ٢٧٨ خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية

٢٨٤ ٢٧٩ خطبة أخرى

٢٨٤ ٢٨٠ خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

٢٨٥ ٢٨١ » حين أراد الحج

٢٨٥ ٢٨٢ » لما أصيب بولده وأخيه محمد في يوم واحد

٢٨٦ ٢٨٣ » وقد أرجف أهل العراق بموته

٢٨٧ ٢٨٤ خطبة له في الوعظ

٢٨٨ ٢٨٥ » أخرى

٢٨٨ ٢٨٦ » »

٢٨٩ ٢٨٧ » »

٢٨٩ ٢٨٨ » »

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي

٢٩٠ ٢٨٩ خطبته يحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو طخارستان

٢٩١ ٢٩٠ » وقد تهيأ لغزو بلاد السغد

٢٩٢ ٢٩١ » وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

٢٩٣ ٢٩٢ » حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

٢٩٥ ٢٩٣ خطبة أخرى

٢٩٦ ٢٩٤ » »

٢٩٦ ٢٩٥ » »

٢٩٧ ٢٩٦ كلمات حكيمه لقتيبة بن مسلم

٢٩٩ ٢٩٧ خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

٣٠١ ٢٩٨ نص آخر لخطبة طارق

خطبة عثمان بن حيان المرّى	٢٩٩	٣٠٢
وصية يزيد بن الملب لابنه مخلد	٣٠٠	٣٠٤
نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيّه	٣٠١	٣٠٥
✓ خطب خالد بن عبد الله القسرى		
خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة	٣٠٢	٣٠٦
خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد	٣٠٣	٣٠٧
خطبته بمكة في الحجاج	٣٠٤	٣٠٧
» في الحث على مكارم الأخلاق	٣٠٥	٣٠٨
» يوم عيد	٣٠٦	٣٠٨
قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه	٣٠٧	٣٠٩
خطبة يوسف بن عمر الثقفى	٣٠٨	٣٠٩

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرة

خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصارى	٣٠٩	٣١٠
» مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام	٣١٠	٣١١
» مسلم يحرضهم	٣١١	٣١١
» ابن حنظلة يحرض أصحابه	٣١٢	٣١٢

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه	٣١٣	٣١٣
» أخرى له	٣١٤	٣١٤
» عمرو بن حريث	٣١٥	٣١٥
» عمرو بن مسجع	٣١٦	٣١٥

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة الأحنف بن قيس	٣١٧	٣١٦
» روح بن زنباع الجذامي بالمدينة	٣١٨	٣١٧
خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة	٣١٩	٣١٩
خطبة الغضبان بن القبعثري يحض على قتل الحجاج	٣٢٠	٣٢٠
فتنة ابن الأشعث		
خطبة ابن الأشعث بسجستان	٣٢١	٣٢١
خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج	٣٢٢	٣٢٢
خطبة عامر بن وائلة الكنانى	٣٢٣	٣٢٣
» عبد المؤمن بن شد بن ربيع	٣٢٤	٣٢٣
» ابن الأشعث بالمربد	٣٢٥	٣٢٤
خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق	٣٢٦	٣٢٤
عامر الشعبي والحجاج	٣٢٧	٣٢٥
أيوب بن القرية والحجاج	٣٢٨	٣٢٦
كلمة لابن القرية	٣٢٩	٣٣٠

فتنة يزيد بن المهلب

خطبة أيوب بن سليمان بن عبد الملك	٣٣٠	٣٣١
» يزيد بين يدى الوليد	٣٣١	٣٣٢
» مغلد بن يزيد بن المهلب بين يدى عمر بن عبد العزيز	٣٣٢	٣٣٢
» يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال	٣٣٣	٣٣٣
» أخرى له	٣٣٤	٣٣٤
» » »	٣٣٥	٣٣٥
» الحسن البصرى يثبط الناس عن يزيد بن المهلب	٣٣٦	٣٣٥
» مروان بن المهلب	٣٣٧	٣٣٦

خطب الأحنف بن قيس التيمي

الأحنف ومعاوية	٣٣٨	٣٣٧
» » أيضا	٣٣٩	٣٣٨
قوله في مدح الولد	٣٤٠	٣٣٩
شفاعته لدى مصعب بن الزبير	٣٤١	٣٤٠
نصيحته لقومه	٣٤٢	٣٤٠
خطبته في قوم كانوا عنده	٣٤٣	٣٤٠
كلمات حكيمة للأحنف	٣٤٤	٣٤١
صفية بنت هشام المنقرية تؤ بن الأحنف	٣٤٥	٣٤٣

خطب الوفود

وما ألقى بمحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

وفود الأحنف بن قيس والتمر بن قطبة على معاوية	٣٤٦	٣٤٤
وقد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف	٣٤٧	٣٤٥
خطبة زياد	٣٤٨	٣٤٥
» معاوية	٣٤٩	٣٤٦
» الأحنف بن قيس	٣٥٠	٣٤٦
وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة	٣٥١	٣٤٦
دغفل وجماعة من الأنصار	٣٥٢	٣٥٠
وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان	٣٥٣	٣٥٠
وفود العرب ومعاوية	٣٥٤	٣٥٢
» عبد العزيز بن زرارة على معاوية	٣٥٥	٣٥٣

٣٥٤	٣٥٦	وفود زيد بن منية على معاوية
٣٥٥	٣٥٧	» ضرار بن حمزة الصدائي على معاوية
		الوافدات على معاوية
٣٥٦	٣٥٨	وفود سودة بنت عمارة على معاوية
٣٥٩	٣٥٩	» أم سنان بنت خيشمة على معاوية
٣٦١	٣٦٠	» بكارة الهلالية على معاوية
٣٦٣	٣٦١	» أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية
٣٦٦	٣٦٢	أم البراء بنت صفوان ومعاوية
٣٦٧	٣٦٣	دارمية الحجونية ومعاوية
٣٦٩	٣٦٤	شداد بن أوس ومعاوية
٣٧٠	٣٦٥	معاوية ورجل من أهل سبأ
٣٧١	٣٦٦	حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحजर بن عبد المدان
٣٧٢	٣٦٧	حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية
٣٧٣	٣٦٨	حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية
٣٧٣	٣٦٩	سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية
٣٧٤	٣٧٠	مصقلة بن هبيرة ومعاوية
٣٧٥	٣٧١	روح بن زنباع ومعاوية
٣٧٦	٣٧٢	مخاصمة أبي الأسود الدؤلي وامراته بين يدي زياد بن أبيه
٣٧٧	٣٧٣	صورة أخرى
٣٨٠	٣٧٤	وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير
٣٨١	٣٧٥	كلام خطيب الأزدي بين يدي عبد الملك بن مروان
٣٨١	٣٧٦	سؤال عبد الملك للمعجاج وما أجابه به
٣٨٢	٣٧٧	وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طاحه على عبد الملك بن مروان

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة	رقم الخطبة	
٣٨٤	٣٧٨	قدوم الحجاج مع أشرف المصرين على عبد الملك
٣٨٦	٣٧٩	وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة
٣٨٦	٣٨٠	« كعب الأشقرى على الحجاج
٣٨٨	٣٨١	سليك بن سلكة والحجاج
٣٨٩	٣٨٢	جامع الحارثي والحجاج
٣٩٠	٣٨٣	ليلي الأخيلية والحجاج
٣٩٥	٣٨٤	الغضبان بن القبعثري والحجاج
٣٩٧	٣٨٥	ابن القرية يعدد مساوي المراح
٣٩٨	٣٨٦	يزيد بن مسلم وسليمان بن عبد الملك
٣٩٩	٣٨٧	وفود العراق على سليمان بن عبد الملك
٤٠٠	٣٨٨	كلام أنى حازم لسليمان بن عبد الملك
٤٠١	٣٨٩	أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضا
٤٠٢	٣٩٠	وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز
٤٠٢	٣٩١	خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنئه
٤٠٣	٣٩٢	خطبة عبد الله بن الأهم
٤٠٥	٣٩٣	مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز
٤٠٥	٣٩٤	وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك
٤٠٧	٣٩٥	مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام
٤٠٩	٣٩٦	خالد بن صفوان يصف جريرا والفرزدق والأخطل
٤١٠	٣٩٧	خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة
٤١١	٣٩٨	خطبة الكميث بن زيد بين يدي هشام يستعطفه
٤١٦	٣٩٩	مخاصمة عدى بن أرطاة لامراته عند شريح القاضي
٤١٦	٤٠٠	كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان
٤١٧	٤٠١	رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري

خطب الخوارج وما يتصل بها	٤١٧	
خطبة حيان بن ظبيان السلمي	٤٠٢	٤١٧
اثمار الخوارج		٤١٩
مقال المستورد بن علفة	٤٠٣	٤١٩
» حيان بن ظبيان	٤٠٤	٤١٩
» معاذ بن جوين	٤٠٥	٤٢٠
خطبة المغيرة بن شعبة	٤٠٦	٤٢٠
» صمصمة بن صوحان	٤٠٧	٤٢١
» المستورد بن علفة	٤٠٨	٤٢٣
» معقل بن قيس الرياحي	٤٠٩	٤٢٤
كلمات حكيمه للمستورد	٤١٠	٤٢٤
اثمار الخوارج ثانية		٤٢٥
خطبة حيان بن ظبيان	٤١١	٤٢٥
» معاذ بن جوين	٤١٢	٤٢٥
رد حيان بن ظبيان	٤١٣	٤٢٦
مقال عتريس بن عرقوب	٤١٤	٤٢٦
رد حيان	٤١٥	٤٢٧
خطبة حيان	٤١٦	٤٢٧
» مسلم بن عبيس حين خرج لقتال الأزارقة	٤١٧	٤٢٨
خطب المهلب بن أبي صفرة		
خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة	٤١٨	٤٢٩
خطبة أخرى له في جنده	٤١٩	٤٣٠

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

نص آخر	٤٢٠	٤٣٠
خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة	٤٢١	٤٣١
خطبة الزبير بن علي في الأزارقة	٤٢٢	٤٣١
« عتاب بن ورقاء ارياحي وقد طال عليه الحصار	٤٢٣	٤٣٣
نصيحة عرهم العدوي لخالد بن عبد الله	٤٢٤	٤٣٤
خطبة قطري بن الفجاءة	٤٢٥	٤٣٥
« عبد ربه الصغير	٤٢٦	٤٣٩
« صالح بن مسرح	٤٢٧	٤٤٠
« أخرى له	٤٢٨	٤٤٢
« »	٤٢٩	٤٤٢
« زائدة بن قدامة	٤٣٠	٤٤٣
« الحجاج بن يوسف	٤٣١	٤٤٣
« أخرى للحجاج	٤٣٢	٤٤٤
« شبيب بن يزيد الشيباني	٤٣٣	٤٤٤
« عتاب بن ورقاء	٤٣٤	٤٤٥
« الحجاج	٤٣٥	٤٤٦
« عبد الله بن يحيى الإباضي	٤٣٦	٤٤٦

خطب أبي حمزة الشاري

خطبته حين دخل المدينة	٤٣٧	٤٤٨
خطبة أخرى له	٤٣٨	٤٤٩
خطبته وقد باغته أن أهل المدينة يعيبون أصحابه	٤٣٩	٤٤٩
خطبة أخرى	٤٤٠	٤٥٧
خطبته في سب أهل المدينة وتقريرهم	٤٤١	٤٥٩

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة أخرى	٤٤٢	٤٦١
خطبته حين خرج من المدينة	٤٤٣	٤٦٢
عمران بن حطان والحجاج	٤٤٤	٤٦٣

الخطب الوعظية والوصايا

خطبة سحبان بن زفر الوائلي	٤٤٥	٤٦٣
» معاوية	٤٤٦	٤٦٤
» عبد الملك بن مروان	٤٤٧	٤٦٤
» لعمر بن عبد العزيز	٤٤٨	٤٦٥

كلام الحسن البصري

خطبة له	٤٤٩	٤٦٥
» أخرى	٤٥٠	٤٦٨
» »	٤٥١	٤٦٨
» »	٤٥٢	٤٦٩
» »	٤٥٣	٤٦٩
» »	٤٥٤	٤٧٠
» »	٤٥٥	٤٧٠
» »	٤٥٦	٤٧١
مقام الحسن البصري عند عمر بن هبيرة	٤٥٧	٤٧١
مقام الحسن البصري عند النضر بن عمرو	٤٥٨	٤٧٢
مقام آخر له عند النضر	٤٥٩	٤٧٤
مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط	٤٦٠	٤٧٥
صفة الامام العادل	٤٦١	٤٧٦
موعظته لعمر بن عبد العزيز	٤٦٢	٤٧٨

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

٤٧٩	٤٦٣	موعظة لعمر بن عبد العزيز أيضاً
٤٨٠	٤٦٤	كلمات حكيمة للحسن المصرى
٤٨٢	٤٦٥	خطبة واصل بن عطاء
٤٨٤	٤٦٦	وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية
٤٨٥	٤٦٧	» عبد الله بن شداد لابنه
٤٨٨	٤٦٨	» أسماء بن خارجة لابنته
٤٨٩	٤٦٩	رجل ينصح لهشام بن عبد الملك
٤٨٩	٤٧٠	وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

الصراع بين الأموية والعباسية

٤٩٥	٤٧١	خطبة قطبة بن شبيب الطائى
٤٩٦	٤٧٢	» أخرى له

تتمة فى خطب الحجاج

٤٩٧	٤٧٣	خطبته بعد قتل ابن الزبير
-----	-----	--------------------------



فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

أيوب بن القرية ٣٢٦ - ٣٣٠ - ٣٩٧	- ١ -
- ب -	إبراهيم بن الأشتر ص ٧٥
بكاره الهلالية ٣٦١	إبراهيم بن محمد بن طلحة ٥٨ - ٣٨٢
بلال بن أنى برده ٤٠٠	أبو الأسود الدؤلى ٣٧٦
- ث -	أبو بكر الهذلى ٣٨٥
ثور بن معن السلمى ٢٢٦	أبو حازم الأعرح ٤٠٠ - ٤٠١
- ج -	أبو حاضر الأسيدى ٣٨٠
جامع الحارثى ٣٨٩	أبو حمزة الشارى ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠ -
- ح -	٤٥٧ - ٤٥٩ - ٤٦١ - ٤٦٢
الحجاج بن يوسف الثقفى ٢٧٣ - ٢٧٤ -	أبو صخر الهذلى ١٦٣
٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨١ - ٢٨٢ -	الأحنف بن قيس ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٣١٦ -
٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ -	٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤١ -
٢٨٨ - ٢٨٩ - ٣٨٥ - ٤٤٣ - ٤٤٤ -	٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٨٥ -
٤٤٦ - ٤٩٧	أروى بنت الحارث بن عبد المطلب ٣٦٣
الحرب بن يزيد ٤٨	أسماء بن خارجة ٤٨٨
الحسن البصرى ٣٣٥ - ٤٦٥ - ٤٦٨ -	أم البراء بنت صفوان ٣٦٦
٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٤ -	أم سنان بنت خيشمة ٣٥٩
٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٠ -	السيدة أم كلثوم بنت على رضى الله عنها ١٢٤
	أيوب بن سليمان بن عبد الملك ٣٣١

روح بن زنباع ٣١٧ - ٣١٩ - ٣٧٥

— ز —

زائدة بن قدامة ٤٤٣

الزبير بن عليّ ٤٣١

زهير بن القين البجلي ٣٩ - ٤٦

زياد بن أبيه ٩٦ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥

٢٥٧ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٣٤٥

زيد بن منية ٣٥٤

السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها ١٢٦

— س —

السائب بن مالك ٦٩

سحبان بن زفر ٤٦٣

سعد بن حذيفة بن اليمان ٥٤

سعيد بن العاص ٢١٣

سعيد بن عثمان بن عفان ٣٧٣

سليك بن السلكة ٣٨٨

سليمان بن صرد ٨ - ٥٢ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢

٦٣ - ٦٤

سليمان بن عبد الملك ١٨٨

سودة بنت عمارة ٣٥٦

— ش —

شبيب بن يزيد الشيباني ٤٤٤

شداد بن أوس الطائي ٣٦٩

الحسن بن عليّ رضي الله عنه ١ - ٢ -

٤ - ٥ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ - ١٦ -

١١٩ - ١٢٠

الحسين بن عليّ رضي الله عنه ٣٨ - ٣٩ -

٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٤ - ١٢٩ - ٢٤٢

حيان بن ظبيان ٤١٧ - ٤١٩ - ٤٢٥ -

٤٢٦ - ٤٢٧

— خ —

خالد بن سعد بن نفيل ٥٣

خالد بن صفوان ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٤٠٢ -

٤٠٧ - ٤٠٩ - ٤١٠

خالد بن عبد الله بن أسيد ٢٢٠

خالد بن عبد الله القسري ٣٠٦ - ٣٠٧ -

٣٠٨ - ٣٠٩

خالد بن يزيد ٢١٩

الخيار بن أوفى التهدي ٣٧٢

— د —

دارمية الحجونية ٣٦٧

دغفل بن حنظلة ٣٤٦ - ٣٥٠ -

— ذ —

ذكوان ١٤٨

— ر —

رفاعة بن شداد ٥١

شرح القاضي ٤١٦

- ص -

صالح بن مسرح ٤٤٠ - ٤٤٢

صخير بن حذيفة بن هلال ٦٠

صمصمة بن صوحان ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٩

١٤٤ - ٣٥٠ - ٤٢١

صفية بنت هشام المنقرية ٣٤٣

- ض -

الضحاك بن قيس ٢٢٤ - ٢٢٩ - ٢٦٤ - ٢٦٦

ضرار بن حمزة الصدائي ٣٥٥

- ط -

طارق بن زياد ٢٩٩ - ٣٠١

- ع -

عابس بن أبي شبيب ٢٩

عامر الشعبي ٣٢٥

عامر بن وائلة الكنانى ٣٢٣

عبد الحميد بن يحيى ٤٨٩

عبد ربه الصغير ٤٣٩

عبد الرحمن بن أبي بكر ٢٣٩

عبد الرحمن بن أم الحكم ٩٧

عبد الرحمن بن شريح ٦٩ - ٧٠ - ٧٢

عبد الرحمن بن عثمان ٢٢٥ - ٢٣١

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ٣٢١ -

٣٢٢ - ٣٢٤

عبد العزيز بن زرار ٣٥٣

عبد العزيز بن مروان ٣١٨

عبد الله بن الأهم ٤٠٣

عبد الله بن جعفر ١١٧ - ٢٣٤

عبد الله بن الحنظل ٥٤

عبد الله بن حنظلة الأنصارى ٣١٠ - ٣١٢

عبد الله بن الزبير ١٠٤ - ١٠٩ - ١١٣

١٥٠ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٨ - ١٥٩

١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٧٠

٢٣٥ - ٢٤٨

عبد الله بن - مد ٦١

عبد الله بن شداد ٤٨٥

عبد الله بن عباس ٣٤ - ٨٣ - ٨٧ - ٨٨

٨٩ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٥ - ٩٦

٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٣

١٠٤ - ١١٠ - ١١٤ - ٢٣٤

عبد الله بن عبد الحجر ٣٧١

عبد الله بن عصام ٢٢٧

عبد الله بن عمر ٢٣٥ - ٢٤٥

عبد الله بن الكواء ١٣٦

عبد الله بن مازن ٢٥١

عبد الله بن مسعدة ٢٢٧

عقيل بن أبي طالب ١٢١
 عمر بن عبد الرحمن ٣٧
 عمر بن عبد العزيز ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ -
 ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ -
 ١٩٧ - ١٩٨ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٥ - ٤٦٥
 عمر بن هبيرة ٣٠٥
 عمرو بن حريث ٣١٥
 عمرو بن سعيد الأشدق
 ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢٢٨
 عمرو بن العاص ١٤ - ٩٣ - ١٠٢ -
 ١٠٣ - ١٣٠ - ١٥٥
 عمرو بن عتبة بن أبي سفيان ٢٢١ - ٤١٦
 عمرو بن مسمع ٤١٥
 عمران بن حطان ٤٦٣

— غ —

الغضبان بن القبيثري ٣٢٠ - ٣٩٥
 غيلان بن مسامة الثقفي ٢٥٢

— ق —

قتيبة بن مسلم ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢ -
 ٢٩٣ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧
 قطبة بن شبيب الطائي ٤٩٥ - ٤٩٦
 قطري بن الفجاءة ٤٣٥
 قيس بن سعد بن عبادة ١٣٥

عبد الله بن مطيع ٦٨ - ٧٤ - ٧٥
 عبد الله بن هاشم ١٣٠ - ١٣٤
 عبد الله بن همام السلولي ٢٥٠
 عبد الله بن وال التيمي ٥٩
 عبد الله بن يحيى الاباضي ٤٤٦
 عبد الله بن يزيد الأنصاري ٥٧ - ٦٢
 عبد المؤمن بن شبت بن رمي ٣٢٣
 عبد الملك بن مروان ٦٥ - ١٨٠ - ١٨١ -
 ١٨٢ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ -
 ٢٢٢ - ٤٦٤ - ٤٨٤
 عبيد الله بن زياد بن أبيه ٣١ - ٣٢ -
 ٣٣ - ٢٦٧ - ٣١٣ - ٣١٤
 عبيد الله بن عبد الله المرّي ٥٥
 عتاب بن ورفاء الرياحي ٤٣٣ - ٤٤٥
 عتبة بن أبي سفيان ١٥ - ٢٠٨ - ٢٠٩ -
 ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢
 عتريس بن عرقوب ٤٢٦
 عثمان بن حيان المرّي ٣٠٢
 العجاج بن روبة ٣٨١
 عدّي بن حاتم ٣
 عرابة بن أوس بن حارثة ٣٧٣
 عرم العدوي ٤٣٤
 عطاء بن أبي صيفي ٢٥١

- ك -

- كثير بن شهاب ٣٢
كعب بن معدان الأشقرى ٣٨٦
الكيت بن زيد الأسدى ٤١١

- ل -

- ليلي الأخيلية ٣٩٠

- م -

- مالك بن بشير ٣٨٦
محمد بن أبي الجهم العدوى ٤٠٥
محمد الباقر ١٤٧
محمد بن الحنفية ٢٥ - ٢٨ - ٧١ - ٨١
محمد بن عمير بن عطار ٣٨٤
محمد بن كعب القرظى ٤٠٥
المختار بن أبي عبيد الثقفى ٦٦ - ٦٧ -

٧١ - ٧٣ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٩ - ٨٠

مخلد بن يزيد بن المهلب ٣٣٢

مروان بن الحكم ٩٤ - ٢٣٧ - ٢٣٩

مروان بن المهلب ٣٣٦

المستورد بن علفة ٤١٩ - ٤٢٣

مسلم بن عبيس ٤٢٨

مسلم بن عقبة ٣١١

المسيب بن نجبة ٥٠ - ٥٨

مصعب بن الزبير ١٧١

مصقلة بن هبيرة ٣٧٤

معاذ بن جوين ٤٢٠ - ٤٢٥

معاوية بن أبي سفيان ٧ - ٨٦ - ٨٧ -

٨٩ - ٩٠ - ١٠٠ - ١٣٥ - ١٤٩ -

١٥١ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٧٢ - ١٧٣ -

١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٧ - ٢٢١ - ٢٢٢ -

٢٣١ - ٢٣٣ - ٢٣٦ - ٢٣٨ - ٢٤٠ -

٢٤٤ - ٢٤٦ - ٢٤٩ - ٢٦٩ - ٣٤٦ -

٣٥٢ - ٤٦٤

معاوية بن يزيد ١٨٠

معقل بن قيس ٤٢٤

المغيرة بن شعبة ١٥ - ٩٨ - ٤٢٠

المهلب بن أبى صفرة ٢٧٢ - ٤٢٩ -

٤٣٠ - ٤٣١

- ن -

النعمان بن بشير ٣٠ - ٢٦٦

- و -

واصل بن عطاء ٤٨٢

الوليد بن عبد الملك ١٨٨

الوليد بن عقبة ١٥ - ٢١٧

- ي -

يزيد بن أبى مسلم ٣٩٨

يزيد بن أنس الأسدى ٧٤

٣٣٥ - ٣٣٤	يزيد بن معاوية ٩٩ - ١٧٨ - ١٧٩ -
يزيد بن الوليد ٢٠٦	٢٧١ - ٢٠٧
يوسف بن عمر الثقفي ٣٠٩	يزيد بن المقنع ٢٣٢
تم فهرس أعلام الخطباء	يزيد بن المهلب ٣٠٤ - ٣٣٢ - ٣٣٣ -

